عنوان الأريب

عما نشأ بالبلاد التونسية من عالم أديب

تنسيق ورفع عبد الكافي

ملتقى أهل الحديث

تأليف الشيخ محمد النيفر

تحقيق الشيخ علي النيفر

الجزء الأول

دار الغرب الإسلامي

تنسيق ورفع عبد الكافي

ملتقى أهل الحديث

عُنْوَانُ الأَرِيبِ

عنوان الأريب

عمّا نشأ بالبلاد التونسيّة من عالم أديب

الجزء الأول

تأليف المؤرخ الكبير العلامة

الشيخ محمد النيفر

تذييل واستدراك ابن المؤلف

الشيخ علي النيفر

دار الغرب الإسلامي

الطبعة الأولى

دار الغرب الإسلامي
ص . ب . 5787-113 بيروت

الشيخ العلامة المرحوم
علي ابن الشيخ محمد النيفر

بيته

يعد هذا البيت من أعرق بيوتات تونس لانتسابه للسلالة النبويّة ، كما اكتسب عراقته من التجارة ، ومن العلم .

وانتساب هذا البيت إلى الشرف اثبتته شهادة بالسماع للجد أحمد الثاني المتوفى سنة (–1281) .

وكان اشتغال هذا البيت بالتجارة مع حفظ القرآن وتلقي ما هو ضروري من علوم الدين .

وقبل اشتغال هذا البيت بالتجارة بسوق العطارين اشتغل بالتجارة بسوق القوافي ، وكلتا التجارتين كانتا من أكبر التجارات بتونس .

وتجارتهم مع الخارج كانت مع بيت السلامي الصفاقسي بأسيوط ، وتحتفظ المكتبة الاسلامية بالكثير من مكاتبها .

وقد وجّه الجدُّ أحمد الثاني أبناءه إلى دراسة العلم بجامع الزيتونة فنبغ منهم ثلاثة أعلام وهم :

– العلامة الإمام الشيخ محمد النيفر بن أحمد الذي نال التقدّم على الأقران . وتقدّم للتدريس ، ولقضاء المحلة ثم لقضاء الحاضرة ومنها إلى الفتوى ، فزانها بالتقوى ، واعتماد القول الأقوى كما قاله الشيخ ابن أبي الضياف وتوفي سنة (1277) بالمدينة المنورة ، وله مؤلفات ، وهو جد والد صاحب الترجمة الشيخ علي النيفر[1] .

---

1 الاتحاف : ج8 ، ص 112 .

– العلامة الشيخ صالح النيفر قاضي تونس ومفتيها وإمامها ، اشتهرت دروسه بما يفيضه عليها من بحوث تدلّ على ذكاءٍ نادر ، وقد اتسع جاهه وبلغ إلى رئاسة الفتوى المالكية ، ونال رئاسة مجلس الجنايات الذي جاء به عهد الأمان ، وقد نوّه بشأنه تلميذهُ محمد بن عثمان السنوسي في كتابه «مسامرات الظريف (–1290)[1] .

– الشيخ مَحْمد – بالفتح – ابن أحمد النيفر من أئمة العلم والخطابة كان عمدة المحققين ، تولّى القضاء ثم الفُتيا ، وكان له موقف مُشرِّف مع قنصل إيطاليا أدّى إلى إقالته من الفتوى (–1312) . وله إبنان آخران اشتغل أحدهما بالتجارة بعده وهو المرحوم محمود بن أحمد النيفر وكان على غرار أبيه في التدين (–1284هـ) بمكة .

والثاني المرحوم حمدة النيفر كان من أهل الصلاح . جدُّه العلامة المحدّث المرحوم الشيخ محمد الطيب النيفر المتبحّر في الفقه والسُّنّة والتاريخ من العلماء الجلة الأفذاذ ، تقلد الوظائف العالية من تدريس الطبقة الأولى والقضاء والفتوى ثم رئاستها وتوفي (–1345) عن سن عالية . وهو سندُ الكثير إلى نبت الأمير بواسطة الشيخ الصالح إبراهيم الرياحي (–1266) . والده العلاّمة المؤرخ المرحوم محمد ابن الشيخ محمد الطيب النيفر وقد وفى بترجمته ابنه المترجم الشيخ علي النيفر فكانت من أحفل التراجم ، وكانت وفاته سنة (–1330) .

انحدر مترجمنا من هذه السلالة العلمية المتواصلة الحلقات فكانت حلقته الرابعة مبتدأة بجدِّ أبيه الشيخ محمد النيفر دفين المدينة .

1 المسامرات : ج1 ، ص 243 .

الشيخ علي النيفر

مولده

هو الشيخُ العلاّمة ابن الشيخ محمد ابن الشيخ الطيب النيفر ، ابن الشيخ محمد النيفر بن أحمد النيفر .

ولد يوم الجمعة في 22 رمضان سنة 1318هـ / جانفي سنة 1901م[1] .

نشأ في حضانة علمية بين يَدَيْ ابيه وعاش في بيت عفافٍ وصيانة ، واهتمام بتلقين أُصول الدين من توحيد يتوافق مع سُنَّة ، وفقه على طريقة المرشد المعين علي الغوري من علوم الدين .

ومن عناية والده بغرس الروح الدينية فيه أنّه لقنه ورد الطريقة التجانية ووظيفتها وله من العمر نحو السبع سنين لما رآه في هذه الطريقة الصوفية من تمكين الدين في نفس مريدها والتعلّق الخالص بالنبيّ ، ﷺ ، الواسطة في كلّ رحمةٍ دنيوية وأخروية .

التعليم البيتي

حرصاً على الاعتناء بالطفل ، عمد والده على أن يُؤتى بمؤدب إلى الطفل دون إرساله إلى الكتاب .

وأختار له مسجد الرصّاع مكتباً لقربه من بيت والده . وابتدأ التعليم في سن الخامسة من عمره وبقي على حاله تلك إلى وفاة والده سنة 1330هـ وعمره إذ ذاك إثنا عشر عاماً .

---

1 لوالده ترجمة مستوفاة في عنوان الأريب 3/. . . . . ؛ ووالدته هناني ابنة محمد ثابت من ذرية الوزير علي ثابت من رجال الدولة المرادية .

في التعليم الزيتوني

انخرط في سلك تلاميذ الزيتونة بعد وفاة والده سنة 1330 أسوة بإخوته الثلاثة الذين سبقوه في الزيتونة حرصاً من والده على أنْ يكونوا من أهل العلم ، وقد حقّق اللهُ رغبته بعد وفاته فسلك المترجم مسلك الإخوة الثلاثة .

وقد تلقّى على شيوخ جِلّة في المراتب الثلاثة : ففي المرتبة الأولى تلقّى عمّن اشتهر من أساتذتها .

وكذلك في الثانية ، وقد تجاوز سنةً من سني التعليم الزيتوني الثانوي بادّعاء أنّه قراها خارج الزيتونة . لذلك شارك في امتحان التطويع في سنة 1336 مع أنّ مدة الدراسة كانت سبع سنوات . وانصرف بعد التطويع إلى دراسة المرتبة الثالثة وهي المرتبة العالية وأخذ عن فحولها ، وضمّ إلى الدراسة التّدريس وأقبل عليها مستفيداً ومفيداً ، وكان أحدَ المتطوعين بالاقراء بالجامع الأعظم .

في سنة 1925/1344 شارك في المناظرة فكان الفائز المجلي ، وكان مدرسو الطبقة الثانية ستة ، وهم المشائخ : أحمد النيفر ، وأحمد بن عثمان ومعاوية التميمي ، والهادي العلاني ، والشاذلي بن ضيف ، وعلي النيفر وكان أصغر المدرسين في تلك الطبقة . ولازم التدريس بصفته مدرساً من الطبقة الثانية إلى أنْ شغرت خطّة مدرّس من الطبقة الأولى فشارك في المناظرة مع مدرسي الطبقة الثانية بعد مدة .

وعند مشاركته كان الفوز حليفه في التدريس من الطبقة الأولى سنة 1932/1350 .

منزلته في الاقراء

تعدُّ دروسُه من الدروس التي يُقْبل عليها الطّلبة لاعتنائه بتحريرها حتى أخرج بعضها مؤلفات ، مع سعة اطّلاع وحُسْنِ إلقاء . وممّا امتاز به أنّه يفتح صدره لالقاء الأسئلة عليه . وقد أسعدني الحظّ بانخراطي في سلك طلبته فقد قرأت عليه «شرح المكودي على الخلاصة» و«شرح الحطّاب على ورقات الجويني» سنة

1344 ، والجزء الأول من «شرح الدردير على المختصر» سنة 1345 . والثاني من الكتاب المذكور سنة 1346 .

وكما استفاد الطلبة من دروسه استفادوا من التزامه في المواظبة وتعمير الوقت بما هو بصدد تدريسه .

شيوخه

دَرَسَ والزيتونة تعج بالعلماء المختصين في سائر العلوم الشرعية والأدبية وغيرها وتلقى على نخبة منهم ، وهم :

- الشيخ عثمان بن المكي التوزري (–1350) الذي تخرّج على يديه أكثر تلاميذ الزيتونة . قرأ عليه كتب المرتبة الأخيرة الفقهية والعربية والمنطقية وبعض مؤلفاته .
- كما قرأ على الشيخ محمد الصادق النيفر القاضي المالكي(–1356) المكودي على الخلاصة .
- الشيخ محمد البشير النيفر المفتي(–1394) .
- والشيخ محمود بن محمود المفتي (–1344) .
- والشيخ عبد الرحمن البناني المفتي .
- والشيخ حسن بن يوسف المفتي(–1364) .
- والشيخ عبد الوهاب النيفر المنشيء بوزارة العدل (– ....) .

وتلقّى دروس المرتبة الوسطى عن ثُلَّةٍ من شيوخه في المرتبة الأخيرة وهم المشائخ عثمان بن المكي ، ومحمد الصادق النيفر وحسن بن يوسف ، ومن غيرهم الشيخ أحمد بن مراد المفتي (–1359) .

- والشيخ صادق المحرزي المفتي (–1382) .
- وأخو المترجم الشيخ محمد العزيز النيفر النائب الأول لمشيخة الزيتونة (1361).
- والشيخ محمد الطاهر النيفر المدرس (–1339) .

– والشيخ محمد النيفر (...13) .

– والشيخ بلحسن النجار المفتي (–1373) .

– والشيخ محمد العزيز جعيط شيخ الاسلام المالكي (–1389) .

– والشيخ محمد شويخة .

– والشيخ سعد السطيفي .

وتلقّى في المرتبة العالية عن فحول رجالها أهمّ الكتب المدروسة :

– فقد أخذ عن الشيخ محمد بن يوسف شيخ الاسلام الحنفي «تفسير البيضاوي» بحاشية عبد الحكيم ، وحين انتهت الحاشية المذكورة[1] استمرّ على تدريسه «بحاشية الشيخ زاده» ، ودرس عليه جانباً من «صحيح البخاري» ، وبعضاً من كتاب «دلائل الاعجاز» للشيخ عبد القاهر الجرجاني .

– وأخذ عن الشيخ محمد النخلي المدرس (–1342) «تفسير الجلالين» ، و«شرح العضد» على مختصر ابن الحاجب الأصولي ، وشيئاً من «المزهر» للسيوطي .

– وتلقّى عن الشيخ محمد الصادق النيفر بعضاً من «شرح عبد الباقي الزرقاني على مختصر خليل» ، وجانباً من شرح «شفاء القاضي عياض» بشرح الشهاب الخفاجي . وحين ختمه أقرأ «الموطأ بشرح الزرقاني» .

– وأخذ عن الشيخ النجار «شرح المحلي على جمع الجوامع في الأصول» ، و«المطول» لسعد الدين التفتراني على «تلخيص المفتاح» .

– وأخذ عن الشيخ محمد الطاهر بن عاشور شيخ الجامع الأعظم (–1393) جانباً من «تفسير البضاوي» و«شرح المطول» .

– وأخذ عن الشيخ محمد البشير النيفر جانباً من «مغني اللبيب» للسيوطي ؛ ومكث في الدراسة العالية ما ينوف عن ست سنوات ممّا مكنه من غوص في

1 لأن عبد الحكيم لم يكتب إلا قطعة على تفسير البضاوي .

التفسير والحديث والفقه والنحو والبلاغة ، فأصبح بذلك مستكملاً للعلوم الشرعية والعربية .

علوم القرآآت

أخذ الرواية عن شيخ الاقراء المفتي الشيخ إبراهيم المارغني (–1349) ، وأخذ الدراية عن الشيخ محمد الجديد المدرس (–1358) .

وظائفه

تقلّد كثيراً من الوظائف علاوةً على تدريسه من الطبقتين الثانية والأولى بنجاحه في مناظرتيهما كما تقدّم .

ومن الوظائف تسميته عدلاً مبرّزاً في سنة (1337) .

وتولّى إماماً خطيباً بجامع سيدي يحي السليماني (1358) وخطب فيه سنوات عدّة بخطب وعظية فائقة وكانت خطبه محاضرات دينية جامعة .

وأُسندت إليه نيابة شيخ الزيتونة بعد انتقال شقيق الشيخ عبد العزيز النيفر سنة (1361) .

وتولّى التدريس بجامع يوسف صاحب الطابع بالحلفاوين من العاصمة التونسية (1362) .

كما تولّى رواية الحديث بالمدرسة المرجانية (1362) . وكُلّف بمشيخة الجامع الأعظم سنة (1370) .

وسُمّي استاذاً ضمن مُدرّسي الطبقة الأولى بأمرٍ عليّ مؤرخ في سنة 1953/1392 .

وانتُخب عضواً بمجلس المدارس العام بالوزارة ، كما كان عضواً في مجلس امتحان الاعفاء من الجندية ، وتمّ انتخابُه عضواً في لجنة وضع مجلّة الأحكام الشرعية بوزارة العدلية ، ولكنها تعطّلت أعمالُها بسببِ حلٍّ الوزارة الوطنية ، وزارة محمد شفيق الثانية .

إجازاته

إجازة الشيخ الكتاني

تعلّقت همّته العلمية باتصال السند العلمي فاختار لذلك الرجال المسندين مثل الشيخ عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني الحسني الإدريسي (–1382) حين زار تونس سنة (1340) ونزل عند شيخ المترجم محمد الصادق النيفر ، وقد خصّص له علواً خاصاً به مدّة إقامته الطويلة بتونس ، فزاره المترجم هناك وأنشده قصيدة ترحيباً به ، وعندها طلب منه الاجازة .

إجازة جده الشيخ محمد الطيب النيفر

وتلقّى إجازة من جده مسند العصر وعلاّمة المصر الشيخ محمد الطيب النيفر أواخر عمره في غرّة المحرم الحرام فاتح شهور عام 1343 فقد عمر عمراً طويلاً في الافادة بالدروس الحافلة والقضاء العادل إذ ولد سنة 1247 وتوفي سنة 1345 عن ثمان وتسعين سنة .

إجازة الشيخ عمر حمدان

اجتمع به المترجم في منزله بالمدينة المنورة سنة حجه (1368) وهو علاّمة الحجاز المحدث ومسنده وخادم السنة بالحرمين الشريفين عمر حمدان المحرسي الجربي .

وقد كتب ثبتاً له صغيراً يجيز به طبعه في سنة (1367) .

اتصال المترجم بثبت الأمير

يتصل المترجم بثبت الأمير الكبير لاندراجه ضمن إجازة جدّه لأنّه أجازه إجازة تامةً عامة مطلقة ، وجدّه يروي عن والده الشيخ محمد النيفر دفين المدينة المنورة ، والشيخ محمد النيفر يجيز بثبت الشيخ الأمير الكبير .

والشيخ محمد النيفر يروي ثبت الأمير الكبير عن غرّة العصر وبركة الدهر الشيخ إبراهيم الرياحي ، وهو يروي عن الأمير الصغير وهو عن الشيخ الأمير الكبير والده .

كما يتصل المترجم بثبت الأمير الكبير عن الشيخ محمد منة الله وهو عن مؤلفه .

جهوده في الاصلاح

مرّت الزيتونة بفترات عصيبة كادت تعصف بها الرياح ، فقد أراد الاستعمار القضاء عليها بعد النّهضة التي أحدثها قانونُ المثير الثالث الصادق باي في عهد وزارة خير الدين باشا ، الذي كان مصلحاً سياسياً واجتماعياً ، وظهر إصلاحه الاجتماعي في العناية بالتعليم فأنشأ المدرسة الصادقية مع تعليم اللغات التركية والفرنسية والايطالية بجانب العربية .

لكنه لم يهمل جامع الزيتونة فسنّ له قانوناً صدر سنة 1292 أخذت به الزيتونة روحاً جديدة ، لكن النفوذ الفرنسي رأى أنّه ما بقي جامع الزيتونة الا وهذا النفوذ لا يستقر فاتجه همّه إلى إضعافه إلى أن يصل إلى حال لا يستطيع أنْ يعيش معها ، لكن رجال الزيتونة والشباب الزيتوني كان كل أولئك بالمرصاد ودخلت اصلاحات فيها امداد لحياته .

وبسبب هيجان طلبة الزيتونة أُحيل شيخ الجامع الأعظم إلى الراحة مدّةً غيرَ معينة ، وأُسندت المشيخة إلى الشيخ علي النيفر في ظرف عصيب . وكان لا بدّ من جهد إصلاحي في تسيير ادارة المشيخة ، وهذا ما اضطلع به الشيخ بالنيابة مد خمس سنوات استطاع فيها أن ينزع استغلال الشباب الزيتوني ليتخلص من استعماله في أغراض شخصيّة وبذلك أخذت روحاً جديدة وهي الانصراف إلى التعليم الصحيح ، فامتد التعليم الزيتوني وأخرج جيلاً ممتازاً استطاع أن لا يقف مكتوف الأيدي أمام أوجه الحياة فالتحق بالتعليم العالي في نواحٍ شتى غير مقتصر على التعليم العالي الزيتوني .

وكان تكليفه بمشيخة الجامع بقرار من الوزارة الوطنية ، وزارة المرحوم محمد

شنيق الثانية موقّعاً من وزير الدولة المرحوم محمود الماطري بتاريخ 24 رمضان 28/1370 جوان سنة 1951 .

وظهرت جهود الشيخ المكثفة لا في الاستقرار فقط وإنما في البرامج التي كانت منفذة بدقة وضبط ، وقد ظهرت مدرسة ابن رشد وبدا مفعولُها تحت إدارة المرحوم الشيخ محمد الطاهر النيفر فتخرّج منها العديدُ من الطلبة الذين توزّعوا التعليم في كثير من نواحيه وأصبحوا شباباً مثقفاً ثقافة دينية وثقافة عصرية .

ولو أن مدرسة ابن رشد اتُّخذت نموذجاً لأصبح التعليم التونسي ممتازاً يجمع بين التعليم الديني بوجه صحيح وبين الثقافات الأخرى . وقد استطاعت هذه المدرسة (مدرسة ابن رشد) أن تؤهل المتخرطين لنيل شهادة التحصيل العصرية في سنة 54 ، حيث أحرز على الجزء الثاني منه الذين تقدّموا لتلك وهي شهادة توازي الباكلوريا .

وقد تحقّق على يدي الشيخ علي النيفر من الاصسلاح للزيتونة فبلغت أوج نهضتها من ايجاد الجامعة الزيتونية وانشاء بناء ضخم لها وقد تمّ من بعد ولكن أخذ لكلية الأداب بعد أن أصبح البعض منه معهداً زيتونياً كان ينتقص كل عام سنة إلى أن لفظت الزيتونة النفس الأخير وقد كادت تصبح من أكبر الجامعات .

ولكنه لتواضعه لم يتحدّث عن نفسه مع أن تلك النهضة الكبيرة تمّت على يديه في جو من الاستقرار والتنظيم وتحقيق الآمال في صمت وتواضع ومحافظة على روحها الاسلامية .

ولكن عَدَت على ذلك النهوض اليد العابثة التي أُقصت المرحوم الشيخ علي النيفر عن إدارة الزيتونة وقلصت التعليم الزيتوني بعد أن بلغت عدّة طلبته في سنة 1954/1374 (11,717) فاصبح عدد الطلبة عدداً ضئيلاً يقلُّ عن اربعمائة ، وسُمّي جامعة مختصة بالتعليم العالي في خمس كليات سنة 1956/1376 وتولّى المشيخة العلاّمة المرحوم الشيخ محمد الطاهر بن عاشور سنة 1961/1380 ، فأصبحت الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين وعادت الآن جامعة تأمل أن تأخذ شيئاً من تلك النهضة .

العلاّمة الأديب

أغرم الشيخ علي النيفر بالأدب منذ النشأة الأولى ويرجع ذلك إلى سنة 1332 ، وهو ولد في سنة 1318 ، فاشتغاله بالأدب وعمره أربع عشرة سنة ، ونشأت فيه الغريزة الأدبية لما رآه من عناية أدبية في والده المبرور فعني به وهو في السنة الثانية من المرتبة الأخيرة .

وانصرف إلى الشعر وشغف به وأصبح معدوداً في الشعراء المجيدين ولم ينته اشتغاله بالدراسة في سني الطلب وكذلك في سني التدريس فجمع بين الشغفين العلمي والأدبي وتقدم فيهما حيث طاوعته القريحة الأدبية مع الاتجاه العلمي ممّا يدل على قريحة وقادة واستعداد فطري وملكة جامعة .

أغراض شعره

نظم المترجم العديد من القصائد والمقاطيع في أغراض كثيرة ممّا نظم فيه وقصده الشعراء الفحول من إلهيات وأمداح نبويّة ومتعلّقات بشيوخه الأعلام لمناسبات علميّة من ختم كتب التي هي محاضرات علميّة أو تقدم في مدارج الرقي العلمي كما له مراثٍ في شيوخه أو من يتّصل به ، خلّد بها شيئاً من تاريخهم .

وأمّا مدحه للملوك ومن هو متدرج للملك فالمقصود منه لفت نظرهم إلى ما هو من خصائص الأمراء أو لتقديم أحدهم عملاً مشكوراً مثل ما صنعه محمد الأمين .

كما وصف بعض رحلاته كسفره للحج وسفره لقسنطينة من بلاد الجزائر ، وسفره لبعض المدن أو المنازه التونسية أو الظواهر الطبيعية والمكاتبات الشعرية والاجتماعيات والوطنيات إلى غير ذلك .

دواوينه الشعرية

قسم دواوينه حسب سني الحياة من الصبا إلى الكهولة .

– فالجزء الأول ديوان الصبا
– والثاني ديوان الفتوة
– والثالث ديوان الشباب
– والرابع ديوان الكهولة
– والخامس ديوان الشيخوخة .

ثم إنّه انتقى من هذه الدواوين الخمسة منتقياتٍ كانت في جزأين سمّاها «الأشعار المنتقاة من دواوين الحياة» وقسمها إلى أبواب .

محرراته

1 – **التلخيص الصريح لما عدا الأبواب الأولى من التنقيح** ، وهو املاآت أملاها على تلاميذه الذين يزاولون عليه شرح التنقيح لمؤلفه شهاب الدين القرافي .

2 – **الاملاآت التاريخية** ، وهي خلاصة ما أملاه على تلاميذه في التاريخ الاسلامي وهو على قسمين :

1 – التاريخ الاسلامي العام ،

2 – تاريخ تونس إلى نهاية دولة المراديين .

3 – **الاعلام بفضائل العرب في الجاهلية والإسلام** ، بحث نشر في المجلة الزيتونية في أجزاء من سنتها الأولى .

4 – **إعجاز القرآن** ، محاضرة ألقاها في جمعية الشبان المسلمين ونشرت في مجلة التقوى المصرية تباعاً في عدة اعداد .

5 – **البرهان عمّا في القطر التونسي على إختلاف الزمان** ، من رجال ثقافة وأدب وأعيان : مقالات نشرت في مجلة الجامعة تباعاً ، وكانت تحت عنوان «كلمة نقد وعتاب» .

6 – **إكمال عنوان الأريب عمّا نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب** ، استدرك فيه كل من لم يترجمهم والده صاحب الأصل أو تأخّرت وفاته عن عصره وضعه في جزأين أولاً ثم مزجه فيه فصار ثلاثة أجزاء ضخام .

7 – ما جمعه من دواوين شعره وقسّمه كما تقدّم .

8 – **الاشعار المنتقاة من دواوين الحياة جزآن** .

9 – **منزلة الشعر من الثقافة الاسلامية والعربية** .

10 – **الروية في نظم الشعر** ، ونظمه بديهة أو ارتجالاً ، ويعنون بتوضيح المقال للفرق بين روية الشعر والارتجال ، وهو بحث أدبي يلم بالمواضيع المشار إليها .

11 – **الدرة السنية في الخطب الجمعية** : مجزأ إلى ثلاثة أجزاء في الخطب التي ألقاها على منبر جامع سيدي يحي السليماني الواقع في نهج البرج .

12 – **مجموعة النثر المحبّي** من الوالد الشيخ محمد النيفر : سفر جمع فيه ما لوالده رحمه الله من رسائل أدبية أو اخوانية وغيرها .

13 – **الفوائد التاريخية** : سفر جمع فيه ما لوالده من المواضيع التاريخية سواء ما لها من مساس بتاريخ تونس فقط أو بالتاريخ العام .

14 – **مجتمع الأوابد** ، المخاطب بها العلاّمة الوالد : سفر جمع فيه ما خوطب به والده في مختلف الأغراض .

بيته العائلي

تزوج السيدة صفية كريمة بيت شريف النسب بنت آل بوسن ورزق منها بابنين هما الحقوقي الأستاذ المختار النيفر رئيس دائرة بالاستئناف المدني بتونس العاصمة ، والدكتور الأستاذ توفيق النيفر ، وبنات بارك الله فيهنّ في عناية الهية وكلاءة ربانية .

وفاته

استأثر الله به في يوم 29 آخر ذي الحجة من سنة 14/1404 سبتمبر 1985 ، وشيعت جنازته رحمه الله رحمة واسعة من مفتتح السنة الهجرية بجمع غفير كلهم ألسنة شاكرة له علمه وإخلاصه وأخلاقه ، ورُثي نثراً وشعراً .

الشيخ محمد الشاذلي النيفر

تقديم الكتاب لابن المؤلف

إن فكرة الاستدراك والتذييل على كتاب **عنوان الأريب** لم تزل تراودني منذ عهد الحداثة حين كان مخطوطاً غير مطبوع ، أي منذ ما ينوف عن الأربعين سنة حين كنت من طلبة الجامع الأعظم جامع الزيتونة فكنت لا أظفر بذكر أديب تونسي أو بشعر لتونسي إلّا قيّدته سواء وجدته في بعض كتب التاريخ أو الأدب أو في بعض الكنانيش حتى اجتمع لدي من ذلك مقدار لا بأس به جمعته في سفرين على معنى أن يكونا ذيلاً حيث بلغ عدد من أضفتهم إلى أصل الكتاب مائة وتسعين نفراً : اثنين من عصر الفتح ، وتسعة من العصر الأغلبي ، وثمَانية من العصر العبيدي ، وخمسة وثلاثين من العصر الصنهاجي ، وخمسة وأربعين من العصر الحفصي ، وخمسة من العصر المرادي ، وثمانين من العصر الحسيني ، وعدد من ترجم له بالأصل مائة وستة وسبعون .

ومصادر ما أضفته إلى الأصل هي الآتية :

تاريخ ابن خلدون
تاريخ الزركشي
تاريخ مقديش
تاريخ ابن أبي الضياف
تاريخ حسن البيان لمؤلف الأصل
تاريخ المفتين للشيخ محمد بيرم الثاني
التراجم المهمة للخطباء والأئمّة للشيخ محمد بيرم الرابع
معالم الايمان لابن ناجي
ذيل بشائر أهل الإيمَان لحسين خوجة
الديباج المذهب لابن فرحون
نيل الابتهاج لسيدي أحمد بابا التنبكتي
وفيات الأعيان لابن خلكان
فوات الوفيات للصلاح الكتبي

جذوة الإقتباس فيمن حلّ من الأعلام مدينة فاس لابن القاضي
بغية الوعاة للسيوطي
نفح الطيب للمقري
زهر الأدب لأبي إسحاق الحضري
بدائع البداثه لعلي بن ظافر
شرح الشافعي على قصيدة محمد الرشيد باي
العمدة لابن رشيق
معجم البلدان لياقوت
برهان البقية من أدب أهل افريقية لمؤلف الأصل
رحلة العبدري
رحلة التجاني
تعطير النواحي للشيخ عمر الرياحي
معالم التوحيد للسيد محمد ابن الخوجة

الكنانيش

كنش الشيخ الغرياني
كنش من كنانيش الشيخ محمد بيرم الرابع
كنش الشيخ المناعي
كنش الشيخ علي الحداد
كنش الصادق ثابت
كنانيش الشيخ الوالد سيدي محمد النيفر

بسم الله الرحمن الرحيم

(وصلى الله على سيّدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم)

تصدير الطبعة الأولى للكتاب

مذيلاً بترجمة المؤلف والتعريف بسلفه

للشيخ محمد ابن الخوجة

بسم الله الرحمن الرحيم

من جوامع كلمة صلّى الله عليه وسلّم قوله : « إن من الشعر لَحِكَمَةً وإن من البيان لَسِحراً » . ولا يخفى ما لهاتين الكلمتين الحكيمتين من التعلّق بعلم الأدب . وقد ساعد القدر على التّمكن من النظر في زبدة ما حواه هذا التأليف الجليل الواقع بين دفتي هذا الكتاب . وهو تأليف جاء نسيجَ وحده في بابه ، لذلك لم نتمالك عن إجابة مرغوب مَن نظرني بعين كماله ، من أبناء مؤلفه لتصديره بترجمة صاحبه الذي كانت تجمعني وإياه روابط الصداقة الوثيقة والوُدّ الراسخ والسعي المشترك في سبيل إحياء ما اندرس من مجد السلف ، خدمة للعلم والأدب ، وسعياً لفائدة الخلف . كيف لا وخيال صورته التي كان ثوبها العِلم ومكارم الخلق ما زال حاضراً بالأذهان ، وجميل ذكره تُردِّده ألسُن أهل الفضل بكل البقاع ، وما على الصبح غطاء ولا على الشمس قناع .

وتأليفه هذا جاء عنواناً ناطقاً بما لصاحبنا المذكور — أضاء الله وجهه يوم العرض والنشور — من حب بلاده ، وإظهار مفاخر أبناء وطنه في الحاضر والغابر .

لذلك رأيت من تعميم الفائدة أن نبحث في موضوع التأليف نفسه على معنى تصديره بنبذة جامعة لشيء من أدوار علم الأدب ومنزلته بين الشعوب ثم نتخلّص من ذلك لترجمة المؤلف التي هي بيت القصيد .

اصطلح العلماء على أن الأدب يشمل عدّة علوم لا سيما اللغة والنحو والشعر والتاريخ والأنساب ، وقالوا : إن الأديب هو الذي يأخذ من كل شيء أحسنه ، يعني الإجادة في النظم والنثر . وعلى هذه القاعدة ، كان تعليم هارون الرشيد لابنه المأمون ، وناهيك به مفخرة بين ملوك الإسلام على توالي الدهور والأعوام . أما العالم فهو الذي يتصدّى لقراءة علم مخصوص ، فيتعلّمه وينبغ فيه .

وقد قدّمنا لك أن من أقسام الأدب علم التاريخ الذي من فروعه طبقاتُ الرجال . وهو علم جليل نبغ فيه المسلمون أيّما نبوغ ، حتى قيل : إنهم أكثر أمم الأرض تصنيفاً في تراجم أهل كل فن . فقد دوّنوا في ذلك كتباً لا تدخل تحت حصر

منها : طبقات المفسّرين والقرّاء والمحدثين والحفّاظ والنحاة والفقهاء والشعراء والكتّاب والأطباء والحكماء والعلماء والأولياء والصوفية والنسابين والمعبرين والفرضيين ، حتى الوضاعين والمخنثين والمغنين ومن حذا حذوهم من أهل الخلاعة والانهماك في الشهوات .

وأول ما كتب في هذا الفن طبقات الشعراء وطبقات الصحابة والتابعين . كان ذلك أواخر المائة الثانية للهجرة . ومن ذلك العهد تسلسل تدوين التراجم حول العصور .

ومعلوم أن اللغة العربية جاءت في آدابها أوسع مادة من بقية لغات العالم لأنها استفادت من المدنيات السابقة ومن ثقافة الأمم الذين اعتنقوا الديانة الاسلامية كالهند والصين والفرس ومصر والعراق والترك والصقالبة والروم وغيرهم من الاقوام الذين جمعهم الاسلام تحت راية القرآن الحاملة في طياتها بلاغة الكلام وفصاحة اللسان . لذلك جاءت كتبهم جامعة واعية من كل الوجوه لاشتمالها على أحسن ما ابتكرته القرائح ، واستنبطته الأفهام ، وخطته الاقلام التي هي محاريث العقول . وينبغي في هذا المقام أن لا نغفل أيضا عن الاشارة لما ازداد من السعة في ذلك المجال بفضل ما انضم الى تلك الآداب من ترجمة الكتب اليونانية وغيرها فيمّا سلف من العصور لا سيما في عهد الخليفة المامون وجده المنصور .

وزيادة على ما تقدم فان العرب أهل شاعرية فطرية . كان لموقع بلادهم الحظ الأوفر فيها لصفاوة جوها واعتدال مزاجها . لذلك كانوا وما زالوا أهل خيال وتأثر نفساني لما يعرض لهم من الحوادث في سبيل الحياة . وقد وصف لنا القرآن حالة الشعراء في « الشعراء » لما سبق في علمه تعالى من تأثير الشعر في النفوس ، واسترسال الشاعر في طريق المبالغة ، بل والكذب الصراح . لذلك كان شعر السيد حسان شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم أرقى في الجاهلية منه في الاسلام لأن الاسلام نهاه عن التغالي وعن أقول ولا أبالي . وأول ما تكاثر الشعر بين المسلمين في أيام الوليد الخليفة الخليع السكير من بني أمية وهو القائل في الخمر :

كـأنها في زُجـاجـهـا قبس تذكو ضياء في عين مرتقب

وكان اتساع نطاق الشعر وانتشار فنونه في الدولة العباسية حتى كاد أن لا يخلو

بيت من بيوت بغداد عن ديوان شعر مخطوط أو عن حافظ على ظهر قلب لمقدار ما بديوان . ناهيك أن الشعر في أيامهم كان فكاهة المجلس ، وزاد الانيس ، ولم يكن ذلك قاصرا على الرجال بل حتى النساء أيضا . فقد كان فيهن الشاعرات والحافظات اللاتي ينزّلن الأمثال الشعرية في منازلها ، كما جاء فيمّا نقله صاحب حلبة الكميت عمّا يقال عن تلك المرأة التي قصدها في طريقها أحد المارين بقوله : « رحم الله ابن الجهم » ، فأجابته على البديهة بقولها : « ورحم الله المعرّي » . واتّفق أن كان ثالث بالقرب منهما فاقتفى أثر المرأة وقال لها : « والله إن لم تقولي لي ما أراد وما أردتِ لأفضحنّك » ، فقالت له « قد أراد بابن الجهم قوله :

عيون المها بين الرصافة والجسر جلَبْن الهوى من حيث أدري ولا أدري

وأردت بالمعري قوله :

فيا دارها بالخيف إن مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال

وسواء كانت هذه القصة بنت وقتها أو دبّرتها قريحة بعض الأدباء فهي في الجملة تدلّ على نفاق سوق الأدب والشعر خلال العصور العبّاسية كما هو معروف .

وأضف لذلك أن اللغة العربية جاءت معينة على نظم الشعر لأنها في نفسها شعرية لتوسّعها في المرادفات والاستعارات والكنايات وما أشبه ذلك ممّا يسهل على الناظم معالجة أوزانه وقوافيه ، لا سيما وأنّ لأبنائها شعوراً فطريًّا وأنفساً حساسةً تجيش لأول حركة فعّالة . لذلك تراهم من أبلغ من نظم في المدح والذمّ .

وعلى قياس براعتهم في الشعر جاءت بلاغتهم في النثر . والقرآن الكريم كلام الله القديم نزل بلغتهم . وناهيك به من شهادة على رفعة اللسان العربي المبين . ولنا في جوامع كلمة صلّى الله عليه وسلّم الآية الكبرى في البلاغة والإجادة والإفادة والإيجاز البالغ حدّ الإعجاز . وكتاب سيّدنا الخليفة الثاني القائل لعامله : « أمّا بعد فقد كثر شاكوك وقلّ شاكروك ، فإمّا اعتدلت وإمّا اعتزلت » ، عنوان على ما تؤدّيه العربية من كثير المعاني في قليل من الكلام . وهذا حالها حتى الآن . لذلك كانت في سعة لمجاراة المدنيات السابقة واللاحقة ، ومنها المستجدّات العصرية التي بهرت العقول .

ولزيادة البيان نقول :

إن الإنشاء كالشعر أخذ في الإزدهاء من عهد الدولة الأموية ، وأول من ضبط صناعته ، عبد الحميد كاتب مروان الحمار آخر ملوك بني أمية ، ومنه انتشرت في الإسلام أساليب التحرير والرسائل إلى أن بلغت الدرجة العالية الموجودة الآن بالبلاد المصرية التي هي المورد العذب الذي يَكرع منه في عهدنا الحاضر بقية بلاد الناطقين بالضاد . ومعلوم أن الإنشاء العصري صار أميل للإرسال منه للسجع .

وهذا الأسلوب المنتشر الآن بكثرة بين أغلب كتّاب العربية هو الأسلوب الذي انتهجه ولي الدين ابن خلدون في المقدمة وغيرها من مصنّفاته الجليلة . والفضل في إحياء هذه الطريقة بين حملة الأقلام في الأعصر الأخيرة ، يرجع بأكمله لشيخ الجماعة أحمد فارس صاحب جريدة الجوائب التي أسّسها خلال سنة 1277هـ ، فقد كانت هذه الجريدة مناراً لهداية الكاتبين بين العالمين . وما كتاب «كنز الرغائب» الجليل المقدار إلّا وليدها كما هو معروف بين أهل الأمصار والأقطار .

ثم اعلم أن من أقسام الأدب الموسوعات المعروفة في الاصطلاح العصري بدوائر المعارف ، وهذا النوع من التصنيف الذي ألّف فيه المسلمون كثيراً ، قد أعان أيضاً على ازدهار آداب اللغة العربية .

وليس كتاب «سمط اللآل» للعلامة الشيخ محمد بن علي قويسم التونسي المتوفى سنة 1114هـ ، غيرّ موسوعة جليلة استغرقت اثني عشر جزءاً في القالب الكبير نسجت عليها — لسوء الحظ — عناكب النسيان ولو أخرجتها الأقدار يوماً من مكامنها ومثلتها للطبع لاختطفتها الأيدي قبل الأبصار .

ولدينا كتاب للعلّامة المصلح المرحوم الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية في تقريض الأجزاء الأولى من «الرزنامة التونسية» قال فيه : «إنها دائرة معارف تونسية ناطقة بتمَكن بلادنا في الحضارة والعلم والأدب» .

وأعظم الموسوعات الأدبية فخراً كتاب «الفهرست» لابن النديم المتوفى سنة 385هـ ، ولولاه «لهدّمت صوامع وبيع وصلوات» ، يعني لضاع عنّا تاريخ اللغة العربية وآدابها لأنه أوّل ما كتب في هذا الفن .

وهذه بلادنا تونس المحبوبة ، وتربتنا المرغوبة ، قد امتاز بنوها قديمًا وحديثًا برقّة الحاشية والذوق السليم بما منحتهم الأقدار من المواهب وحسن الاستعداد لتدبر معاني

الكلام وسبر غوره والغوص لاستخراج أصدافه من مناجمها وسبكها نظمًا ونثراً في عقود كل تالد وطريف .

وبالرغم عن كون التونسيين كتبوا كثيراً في فنون الأدب ولا سيما ما كان منه متعلّقاً بالإنشاء والشعر ، فإن تآليفهم وإن كانت واسعة المدى قد ذهبت بشدّة الترك سدًى ، بحيث إنه لم يظهر ممّا دوّنوه في ذلك إلى عالم الطبع سوى النزر اليسير ، على أن ضم في باب التراجم لأهل العلم والأدب القِدْح المعلّى والذكر الجميل . ناهيك بسمعة الكتاب المفقود الذي وضعه ابن رشيق القيرواني تحت عنوان « الأنمُوذج » ، وهو كتاب جاء ذكره في غير ما تصنيف يقال : إنه توجد منه نسخة مخطوطة باليد بمَكتبة الشيخ عبد العزيز الميمني بعليكرة الهند .

وبالنسبة للعصور المتأخرة لم يعرف بيننا من كتب التراجم سوى ما كتبه الوزير السرّ ج « بالحلل السندسية » ، والمؤرّخ حسين خوجة « بذيل تاريخ بشائر أهل الايمَان بفتوحات آل عثمَان » ، وهو ذيل جليل المقدار ترجم فيه صاحبه لطائفة عظيمة من علماء وفضلاء وأدباء تونس . وقد ساعدتنا الأقدار على طبعه سعياً لإظهار مفاخر المادح والممدوح . وقسّ عليه ما كتبه الوزير أبو محمد حمودة بن عبد العزيز من التراجم الكثيرة التي تضمنها « التاريخ الباشي » . وكذلك ما كتبه العلاّمة الشيخ محمد بيرم الرابع من تراجم بعض الأعيان الذين منهم عالم الأمراء وأمير العلماء الباي محمد الرشيد ابن مؤسّس بيت الملك الحسيني خلّد الله دوامه . وعلى قياسه ترجم جدنا العلاّمة الشيخ محمد ابن الخوجة ، لطائفة من علماء وفقهاء الحنفية بالكناش الصغير . وأحوط من ذلك كلّه ، ما احتواه الجزء الرابع من تاريخ الوزير الشيخ أحمد بن أبي الضياف . ولا يوجد منه بخزائن الكتب التونسية سوى بضعة نسخ جعلته أعزّ من بيض الأنوق[1]، عدا مقدّمته التي طبعت في سنة 1319هـ . وعلى قدمه جاءت خاتمة كتاب « مسامرات الظريف »[2] لفقيد النوادي العلمية المرحوم الشيخ محمد السنوسي صاحب كتاب « مجمع الدواوين التونسية » الذي أمسى لسوء الطالع في جملة الآثار الوطنية الجليلة التي طوى خبرها الزمان . وترجم الشيخ الوالد طاب ثراه لطائفة من

(1) تاريخ ابن أبي الضياف طبع سنة 1966 .
(2) طبع الجزء الأول من المسامرات سنة 1983 بتحقيق من الشيخ محمد الشاذلي النيفر .

كتّاب عصره بالذيل الطويل الذي جعله تكملة « لإتحاف أبناء الزمان » وقد أدركه الموت قبل جمع شتاته فالتحق به في مماته كما في حياته .

وتوفق هذا العبد للترجمة والتعريف بجماعة كثيرين من العلماء والأعيان ممّا نشرته جريدة « الحاضرة » أم الجرائد التونسية في الربع الأول من هذا القرن .

وآخر ما ظهر في باب التراجم التونسية « منتخبات » النابغة المؤرّخ السيد حسن حسني عبد الوهاب على أن تلك التآليف كلّها ليست من قبيل ما أبرزته قريحة صاحب الترجمة بكتاب « عنوان الأريب » الذي نحن بصدده ، لأنه خصّه بالترجمة للعلماء الأدباء . وقد افتتحه بمقدّمة حافلة في التعريف بأقسام علم الأدب من كل نوع . ثم تخلّص منها للمقصود من التأليف مبتدئاً بترجمة سيّدنا الفاتح عبد الله بن الزبير تبرّكاً به ، ولأنه أوّل من تكلّم بالشعر بإفريقيا . وختم سلسلة تراجمه بترجمة شيخ الدولة ويمينها وأمينها الوزير المرحوم الشيخ محمد العزيز بوعتور ، المتوفى في مستهلّ المحرم 1325هـ . وفيما بين ذلك ترجم لأكثر من مائة وسبعين عالماً أديباً ، وسع فيها المجال للعصر الحسيني أكثر ممّا قبله كما ستراه بمحلّه ، فجاء كتابه هذا وحيداً في بابه لأنه لم يسبقه لمثله غيره من التونسيين .

بيد أنه لا مندوحة لنا عن الإشارة للنهضة الأدبية الأخيرة التي بدأت آثارها تظهر بتونس ، فإن انتباه أبناء الجيل الحاضر الذين توفقوا لتدبر معاني « قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون» ، بعث فيهم روحاً جديدة دفعتهم نحو الأدب وفنونه .

وجريا على نواميس الخليقة كانت النتيجة ظهور طبقة من الكتّاب والشعراء بلغت درجة النبوغ أو كادت . وهذه النهضة المباركة التي ابتدأت حركتها في أوائل هذا القرن الرابع عشر، ذكرتنا كلمة كان قالها أحد كبار الشيوخ في المرحوم الشيخ حسن المزوغي وأنه بات في جملة الأدباء المنعوتين حيث قال ضمن قصيدة في امتداح المقدس المولى علي باي :

وتأبى القوافي غير باب مديحكم وفي مدحكم قد ساعد النظم والنثر

وكم للأديب المزوغي من أشباه ونظائر بين خريجي جامع الزيتونة كالشاعر المطبوع المرحوم الشيخ محمد الحشايشي نابغة الأدب والقريض .

وقس على ذلك حال بعض أدباء الآفاق التونسية وتراميهم على أبواب الشعر ،

فقد نبغ منهم فيه الكثيرون . كذلك الفقيه من قضاة البر الذي وصف قلم كاتب الدولة العام بقوله من قصيدة طويلة :

قلم فصيح بالمحاسن قد روى   وإذا دوى أوهى المفاصل والقوى

ولا يخفى على اللبيب أن هذه القافية جاءت على وزن اسم الممدوح المعروف لدى عامة التونسيين الذين ساس أمورهم مدة ثلث قرن .

ومن باب الإقرار بالفضل لذويه نقول : إن هذا الممدوح كان في مقدمة الساعين لإصلاح التعليم بجامع الزيتونة ، ومنه المشروع الجليل المتعلّق بوضع برنامج علمي لما بالجامع من الكتب قياساً على ما هو موجود بخزائن العلم بأوروبا . وكم كان له أي للكاتب العام المذكور من الإعجاب بتحريرات صاحب الترجمة والتقدير لفضله ومزاياه .

هذا ومن نظر في نسيج الجرائد المحلية وما تنشره على التوالي من منظوم ومنثور في الزمن الحاضر يجد بلا خلاف بوناً بعيداً بين الشعر والإنشاء في عهدنا هذا وبين ما كانا عليه في أوائل هذا القرن . وبعبارة أفصح نرى أن كتاب وشعراء الجيل الحاضر أقوى حياة معنوية ممّن تقدمهم في ذلك السبيل ، وهذه الغاية لها أسباب ربما كان للسياسة فيها دخل عظيم فلا سبيل لقرع بابها هنا لأنها تبعدنا عن الموضوع الذي نحن بصدده .

وقد ذكرنا فيما سبق أن آداب اللغة العربية ، أوسع نظائرها في بقية اللغات ، لكن لا ينبغي أن تبخس الألسن الأخرى قيمتها الحقّة لأن لكل لغة عبقريةً خاصةً بها فكما امتازت لغة العرب بالفصاحة والبلاغة والبيان ، كذلك اختصت لغات أخرى بسلامة الذوق وجزالة الكلام وغير ذلك من الصفات الموافقة لأخلاق وطقوس بلادها ، فهذه لغة الفرس . وناهيك بما وصفها به التاريخ ، احتوت على آداب يعزّ وجودُها في غيرها.وما «رباعيات عمر الخيّام» غيرُ قطرة من بحرها الزاخر . وكذلك الآداب الهندية والصينية وآداب الأمم السامية التي منها السِّريانية والعبريّة قريبة لغتنا السمحة من حيث الرقّة والتأثّر يدلك عليه ما في أخلاق اليهود من الاستغراق في الخيالات والأحلام بزيادة التشكّي والتبكّي لما قاسَوْه من الاضطهاد من عهد تيطوس فما دون . واعتَبِر ذلك في الأمة الفرنساوية وما للغتها من الفصاحة والبيان ، ناهيك أن يوليوس قيصر شهد لبنيها بسلامة الذوق وبلاغة القول كاعترافه لهم بالشجاعة في

الحروب . وقد نبغ منهم غير واحد في الأدب بل وقد امتلأت بآداب لغتهم دواوين بقية الأمم الأوروباوية ، وهذا شاعرهم المفلق فيكتور هوغو هو الذي عناه شاعر النيل حافظ إبراهيم بقوله :

أعجمي كاد يعلو نجمه في سماء الشعر نجم العربي
صافح العلياء منها والتقى بالمعري فوق هام الشهب

وكم لهم غيره ممّن خاض بحار المعاني ونبغ حتى في علوم الأديان غير المسيحية كنبوغ الفيلسوف رينان في علم الإلاهيات الإسلامية ، ونبوغ المستشرق ده ساسي الذي ضرب بسهم مصيب في الأدب العربي . ولدينا كتاب له سمّاه « الأنيس المفيد » طبع بباريس لأكثر من مائة عام فارطة (1241 هـ) صدّره بعبارة لجار الله الزمخشري وهي قوله : « فرقُك بين الرطب والعجَم هو الفرق بين العرب والعجَم » ، ممّا يدلّك على اعترافه بفضل العربي ولا يعرف الفضل إلّا ذووه .

وعلى قياس اللغة الفرنساوية جاءت لغات غيرها من الأمم .

فاللغة الإنكليزية امتازت بالأدب الصُّلب الذي لا يتخلّله الخيال كما نسمع ونرى من أخلاقهم في ميدان السياسة بحيث إنهم لا يركنون في نظمهم ونثرهم إلّا للأمور المحسوسة والحقيقة التي تُمَسّ باليد . وهذا شاعرهم شكسبير الذي ملأ ذكره الآفاق لممن يفتخر به الأدب ليس بإنكلترا فقط بل بالعالم المتمدّن أجمع .

وأما الألمان فقد امتازوا بالتوغل في بحث كل شيء ، ومن نظر فيما توفقوا لنشره من المعجمات والفهارس المتعلّقة بالمصنفات العربية يرى عِياناً كيف بلغوا الغاية القصوى في البحث والتنقيب . ومن أشهر أدبائهم ، بل ومن أشهر أدباء العالم كله شاعرهم غوط الذي جمع في نبوغه بين النظم والنثر ، وقلّما يتفقان .

وامتاز الأدب الطلياني بحب كل جميل منذ العهود الرومانية . لذلك نرى في أعقابهم النبوغ التام في الفنون المستظرفة ، وما يتبعها من تصوير وموسيقى ولحون ، وعلى هذا القياس كان حالهم في المنظوم والمنثور .

وشيخ الجماعة في الأدب الأوروباوي هو الجنس اليوناني . وناهيك « بإلياذة هوميروس » حجة في الموضوع ، وهوميروس هذا هو أبو الشعراء بأوروبا في العصور

الأولى . وقد ترجمت إلياذته البالغة لنحو 12000 بيت من الشعر لسائر اللغات . وتولّى حمل عبئها الثقيل أي ترجمتها شعراً للغة القرآن فقيد بيروت الشيخ سليمّان البستاني ، وقد قضى في ذلك عشرين سنة ، الأمر الذي سيخلد له جميل الذكر جيلاً بعد جيل .

ثم اعلم رعاك الله ، أن البلاد التونسية اكتسبت شهرة واسعة بين البلاد الإسلامية لإحرازها على قصب السبق بين أخواتها الواقعة بإفريقيا الشمالية ، فكانت ولا زالت بفضل الله بلاد علم وأدب بالرغم عن الانقلابات السياسية التي تناولتها حول العصور ، فسواء كانت تحكم نفسها أو محكومة لغيرها لم تبرح منقطعة لجانب العلم . وهذه خزائن جامع الزيتونة ، وكم عبث بها الزمان مراراً ، لا زالت عامرة بعيون آلاف التآليف ممّا يشهد بصحة ما قدمنا . وقد اشتهرت بعض البيوت التونسية بانتسابها للعلم وما زالت تلك الشهرة – ولله الحمد – متواصلة ومتزايدة في أعقابهم كبيت المترجم له الذي هو جدير بأن يرسم اسمه ورسمه في مقدمة العلماء الأدباء من أبناء وطنه الذين خصهم بالتأليف ، وإليك ترجمتَه .

هو الشيخ أبو عبد الله محمد ابن الشيخ محمد الطيب ابن شيخ الشيوخ وطود الرسوخ أبي عبد الله محمد بن أحمد بن قاسم بن محمد (بالفتح) بن محمد بن أبي النور بن محمد بن أحمد النيفر .

أصلهم من صفاقس . ويروى أن جدّهم الأعلى جاء فاراً بدينه من البلاد الأندلسية في جملة المسلمين الذين هاجروا من بلادهم عند استيلاء الإسبانيول عليها ، فيكون وفودهم على الديار التونسية خلال تلك الأيام المظلمة الموافقة لأوائل القرن الحادي عشر . وكان استقرارهم أولاً بصفاقس حيث انتصبوا للتجارة ، واكتسبوا هنالك سمعة حسنة وشهرة تجارية بين الناس .

ولا خلاف في صحة انتسابهم لبيت النبي صلّى الله عليه وسلّم ، وبذلك عرفناهم كما عرفهم سلفنا من قبلنا يؤيّده التاريخ والجرايات الرسمية التي كانوا وما زال بعضهم يتقاضاها بذلك العنوان من الميزانية الدولية .

وكان انتقالهم لتونس في أوائل القرن الثاني عشر وإن شئت قلت : في أواخر الدولة المرادية . ولدينا وثيقة تاريخية ناطقة بوجودهم في جملة سكان الحاضرة أثناء

سنة 1130هـ . وكانوا يتعاطون بها التجارة بسوق القوافي ثم بسوق العطّارين . وما زال بها من أعقابهم من يباشر ذلك . وخير الصنائع بعد العلم التجارة .

لكنّهم لم يلبثوا أن أدركوا فضيلة العلم ، فكانوا يأخذون منه ما لا بدّ منه كالعينيّات والعقائد ، ولا سيمّا حفظ القرآن الكريم ، ويشتغلون مع ذلك بالتجارة الرابحة التي استقرّت قدمهم فيها سواء ذلك بتونس أو بغيرها من البلاد الشرقية كالقاهرة والإسكندرية ، فكان القرمسود الهندي والعمامة المطروزة وأنواع الطيب من عنبر خام ومسك أذفر لا يوجد الرفيع منها إلّا في مغازاتهم . ومعلوم ما كان لتلك الأكسية والبضائع الرفيعة من الرواج بين أهل الحاضرة التونسية . وإقبالهم على التجارة سهل عليهم الأسفار ، والسفر مستكمل للرجل ، وقس عليه رغبتهم أو أكثرهم في حج البيت الحرام . ولو نظرنا في سلسلة أفراد العائلات الكبيرة بتونس لوجدنا لهم الأسبقية على غيرهم في أداء فريضة الحج . وناهيك بها من شهادة في برورهم بجدهم صلّى الله عليه وسلّم .

وممّا يؤثر عنهم حفظ القرآن الحكيم يقال : إن أحد أجدادهم وهو الشيخ الحاج أحمد بن الحاج قاسم النيفر التاجر بالعطّارين ، كان يختم كلام الله القديم مرة في كل يوم بين صلاتي الصبح والعشاء . وكان لا يتخلّف عن صلاة الجماعة بجامع الزيتونة . وكان مع ذلك محافظاً على نصيبه من الدنيا ومعتنياً بتربية أولاده . ومن حسن نظره أن من بلغ منهم سن التزوج زوّجه بإحدى بنات الأعيان ، وعمّر له دكاناً للتجارة ، واشترى له داراً ، وأسكنه بها على حدّ قول الشاعر :

أبـقى لأسبـاب المودّ ة أن تزور ولا تجاور

وقد روي هذا المعنى عن الخليفة الثاني سيدنا عمر بن الخطاب ، وهذه الطريقة هي أساس النظام العائلي بالبلاد المتمدّنة في عهدنا الحاضر . ولا شكّ أنها طريقة حكيمة لأن من أقل محاسنها توفير الراحة والهناء والتوادد بين أفراد العائلة . وفي الحديث الشريف : « زر غبا تزدد حبا » .

وكان المؤسس لدعامة بيتهم العلمي هو الشيخ الحاج محمد النيفر الأكبر ، جد صاحب الترجمة . وكانت ولادته بتونس سنة 1222هـ ، ووفاته بالمدينة المنوّرة في المحرم سنة 1277هـ ، ودفن بالبقيع جوار قبة الخليفة الثالث سيدنا عثمان بن عفّان ، وهذا

الشيخ كان من أهل الصلاح الشرعي ، ودرجته في العلم مشهورة ، ومداركه فيه بين أهله مشكورة مذكورة . قال الوزير الشيخ أحمد بن أبي الضياف : « إن هذا الفاضل انقطع إلى العلم انقطاعاً كليًّا ، ونبذ ما سواه ظهريًّا ، فلم يلبث أن سبق الأقران ، وفاق من تقدّمه بأزمان ، إلى أن قال : « وحصل من كنوز انقطاعه ما لا يخاف عليه من النفاد ، بفكر وقّاد ، يومىء به إلى الشوارد فتنقاد ، ملقية للمقاد » ، ثم قال : « وكان شيخنا أبو عبد الله محمد ابن الخوجة إذا رآه على تلك الحالة يقول لنا : « هذا معنى راحة العلم لأن مسائل الدرس صارت في نظره كالضرورية . ا هـ

وكان الباي أحمد باشا الأول قدّمه لخطة قضاء المحلة على كره منه وفارقها بعد حين .

وعلى ذكر هذه الخطة نقول : إن آخر من تولّاها بالمملكة التونسية العلّامة الشيخ الشاذلي ابن صالح المفتي فالباش مفتي المالكي فيمَا بعد ، وتوفي سنة 1308هـ . ومن الخطط الشرعية التي عفت رسومها أيضاً بتونس ، خطة قاضي باردو وآخر من تولّاها العلامة الشيخ عمر بن الشيخ المفتي المالكي بتونس ، والعضو بالمجلس المختلط العقاري ، وهو أول من تولى الفتوى بالعنوان الشرفي بعد إعفائه من الفتوى بدار الشريعة ، وتوفي سنة 1329هـ .

وعلى قياس تينك الخطتين كان مآل خطة قاضي الأهلة وقاضي الفريضة « والله يحكم لا معقب لحكمه » .

ثم إن الباي أحمد المذكور لم يلبث أن قدم الشيخ محمد النيفر المذكور لخطة قاضي الجماعة بالحاضرة ، فباشرها بدين متين ، وشدّة مكسوة بلين . ومنها ارتقى لخطة الفتوى ، فزانها بالعلم والتقوى ، ولم يزل سالكاً سبل المهتدين ، متجمّلاً بحُلى العلم والدين ، كما لم يزل متعلّق القلب بجدّه النبي الشفيع ، إلى أن أدركه أجله ، ودفن كما قدّمنا جوار صاحبه بالبقيع .

فهذا الشيخ رحمه الله هو واسطة السلك في عقد البيت . وفخر حيّهم والميت ، وعلى منواله نسج آله كأخويه أبي الفلاح الشيخ صالح النيفر ، إمام جامع الزيتونة الأكبر ، والقاضي ، فالمفتي ، فالرئيس لمجلس الجنايات ، فالباش مفتي للمالكية بتونس ، وتوفي سنة 1290هـ . وكان آية في الذكاء والفهم والتحصيل ،

والشيخ محمد (بالفتح) النيفر كاهية مجلس التحقيق ، ثم القاضي والمفتي بتونس ، وكان من خيرة العلماء العاملين ، وتوفي سنة 1312هـ . وكابنيه قاضي الجماعة الشيخ الحاج الطاهر النيفر ، وسُمعتُه بديوان دار الشريعة ، ما زالت بين الناس منشورة ، وآيات حزمه وعزمه مُسطَّرة مذكورة ، وتوفي سنة 1311هـ . وأخيه الشيخ الحاج الطيب النيفر ، والد صاحب الترجمة ، وقاضي تونس ومفتيها ، ورئيس مفاتيها . وهو من أركان العلم بجامع الزيتونة لأنه قرأ وأقرا به ما يناهز السبعين سنة ، فهو مفخرة العلم والتعليم بالفرض والردّ ، لأنّه درّس وختم بالجامع كتباً عالية ، بعد العهد بختمها فيه ، «كشرح الشيخ عبد الباقي على المختصر» و «شرح القسطلاني على صحيح الإمام البخاري» و «الزرقاني على الموطأ» ، لأمام دار الهجرة ، و «السيرة الكلاعية» ، و «والحِكم لابن عطاء الله» ، وغير ذلك ممّا يطول ذكره .

وممّا ينبغي الإشارة إليه خدمة للتاريخ أن هذا الشيخ الذي كان تولّى خطة العضوية بمجلس الجنايات الذي عفت رسومه حوالي سنة 1280هـ إثر ثورة علي ابن غذاهم هو آخر من التحق بالدار الآخرة من أعضاء المجلس المذكور . وكانت وفاته في سنة 1345هـ والله يرث الأرض ومن عليها .

وباعتبار ما سنقص عليك من أدوار حياة ابنه المترجم له نستخلص من مجموع ذلك أن آل البيت النيفري زيّنوا بعلمهم وأدبهم وفضلهم صحف تاريخ المذهب المالكي بتونس ، كما تزيّن تاريخ المذهب الحنفي برجاله من أهل العلم والأدب والفضل منذ ظهوره بهذه البلاد ، يعني من أواخر المائة العاشرة إلى عهدنا الحاضر ؛ ولا تفهم من ذلك أن المذهب الحنفي كان غير موجود قبل ذلك بتونس ، فقد أفاد التاريخ أنه كان أظهر المذاهب بإفريقيا أثناء القرون الأولى للهجرة . وفي أواخر المائة الرابعة كثرت الخلافات المذهبية بظهور مذهب الشيعة ، فحمل المعز بن باديس الناس على ترك جميع المذاهب والاقتصار على مذهب واحد وهو المذهب المالكي . ومن أراد زيادة البسط في هذا الباب فعليه بمُراجعة أمهات كتب التاريخ ، ككتاب العلاّمة ابن خلكان وغيره .

فبيت آل النيفر تولوا أسنى الخطط من شرعية وعلمية وإدارية . وأهم الوظائف التي زيّنوها بعلمهم وفضلهم هي ما يأتي :

– الخطة الشرعية من قضاء وفتوى بحاضرة تونس .
– قضاء المحلة في الدور القديم .
– التدريس بالمذهب المالكي بجامع الزيتونة وغيره من المعاهد الدينية .
– التدريس بالمدارس الدولية .
– الرئاسة والعضوية بالمجالس العمومية قبل الحماية .
– الإمامة الكبرى بجامع الزيتونة ، والإمامة والخطابة بالوعظ في غيره من بيوت العبادة .
– النيابة عن الدولة بالنظارة العلمية .
– النيابة عن شيخ الجامع وفروعه .
– العضوية بالمجلس المختلط العقاري .
– الرئاسة والكتابة بأقسام الوزارة الكبرى وبالوزارة العدلية .
– الأعمال .
– العدالة العامة والعدالة الخاصة بالأوقاف .
– أمانة سوق الذهب والفضّة .

هذا وبالنسبة لمشاركتهم في الوظائف الشرعية والعلمية ، نجد أن اثنين منهم ارتقيا لمسند رئاسة المذهب المالكي ، وأربعة تولّوا خُطّة الفتوى ، وستة تربّعوا على منصة القضاء بدار الشريعة ، وواحد تولّى قضاء المحلّة التي عفت رسومها منذ زمن بعيد ، وخمسة عشر تولّوا خِطة التدريس بجامع الزيتونة .

أما صاحب الترجمة الذي هو بيت القصيد فقد ولد في شعبان سنة 1276هـ ، ونشأ في بيت دِعامتاه جده السالف الذكر أبو عبد الله الشيخ محمد النيفر الأكبر والد أبيه . وأبو إسحٰق الشيخ إبراهيم الرياحي جدّه لأمّه . وناهيك بهما من دِعامتي علم وتقوى وصلاح . كان ركنها الأقوى ، وبعد أن أتقن حفظ القرآن الكريم أدخله والده لجامع الزيتونة في سنة 1290هـ ، فتفرّغ للقراءة بجِدّ لا يعتريه ملل ، ومواظبة لا يتخلّلها الخلل . ومن حرصه على التعلّم أن والده استصدر له أمراً عليًّا في شهادة أوقاف المدارس سنة 1291هـ ، فلم يحفل بتلك الخطة على حداثة سنّه ، بل ولم يباشرها خوفاً من أن تعوقه عن تمَام التحصيل ، واسترسل في القراءة بكدّ وجدّ إلى أن أخذ من كل شيء أحسنه ، فحصلَل على شهادة التطويع في سنة 1299هـ .فالتدريس من الرتبة الثانية سنة 1312هـ فالتدريس من الرتبة الأولى سنة 1316هـ . ولم يكتف بتلك

الرتب الرسمية في العلم دون إجازة الشيوخ الأكابر له جرياً على عادة علماء السلف ، فقد أجاز له عمّ أبيه الشيخ محمد النيفر ، ومفتي مكّة المكرمة الشيخ زيني دحلان ، ومفتي تونس الشيخ حسين بن حسين القهار ، وعالم فاس الشيخ المهدي الوزاني ، وغيرهم من العلماء الفحول .

وفي سنة 1323هـ انتخبته الدولة للعضوية بلجنة إصلاح فهارس الكتب بجامع الزيتونة ، وهذه اللجنة التي جمعتنا وإياه مع نخبة من شيوخ العلم منهم صاحبنا الأستاذ العلّامة الإمام فضيلة شيخ الجامع بارك الله في أنفاسه ، وأستاذنا المرحوم قاضي الجماعة الشيخ إسماعيل الصفايحي ، وحفيدنا العلّامة الشيخ محمد بن الخوجة المفتي الحنفي ، والعلّامة المرحوم الشيخ محمد النخلي ، والأديب المرحوم الشيخ محمد الخشايشي ، كانت كما قدّمنا هي الأساس الأول لبرنامج الإصلاحات الزيتونية التي قامت لها البلاد وقعدت في السنين الأخيرة . وفي عام 1325هـ تقدّم صاحب الترجمة لخطة عضو حاكم معاون ، فحاكم رسمي في العام بعده بالمجلس المختلط العقاري ، وكانت مشاركته ثمينة ومفيدة لأبناء جنسه أثناء مباشرته هاته الخطة العالية التي تعتجرها ذيول السلطة العدلية الفرنساوية ، ناهيك أنه لما ارتقى من هذه الخطة في سنة 1329هـ للنيابة عن الوزارة الكبرى لدى النظارة العلمية بجامع الزيتونة لم يتمالك رئيس المجلس المختلط عن التصريح بأسفه العميق من أجل مفارقته لذلك الفقيه النزيه . وفي حال مباشرته للنيابة العلمية ، كانت فكرته في الإصلاح وأساليب التعليم راجحة ، وتجارته في العلم رابحة .

وكان في جميع الوظائف التي تقلّب فيها مثال النزاهة والمواظبة والإستقامة مع عزيمة ماضية وسيرة محمودة راضية ، فكانت عوامل السياسة وأحرى الاستبداد لا تأثير لها على حرّيته الشخصية التي دونها في نظره كل غال وثمين ، ولو أدّاه ذلك لطلب التخلي عن وظيفه ، كما حصل له ذلك فعلاً أثناء مباشرته للنيابة لدى النظارة العلمية ، وهي الخطة التي كانت تمشي به نحو دار الشريعة المطهرة إلّا أن أجله المحتوم عاجله وقطع به خط السير أثناء ذلك ، فكان مصابه مصاباً عمومياً ؛ لأن موته كان باتفاق الجميع خسارة على العلم وأهله .

هذا وكان لصاحبنا رحمه الله الإقبال التام على صناعة التأليف منذ عهد الشباب ، ولحسن ظنّه بي قد أطلعني على أغلب ما دوّنه لا سيما في الأدب

والتاريخ ، فكانت نفسي تنشرح لقراءة ما يحرّره قلمه الفصيح من الأدبيات والحوادث والأخبار التونسية التي كان يتحرّى في نقلها ولا يأخذها من غير مصادرها الصحيحة . وهكذا شأن المؤرخين الثقات .

فمن مؤلفاته المشار إليها كتاب « **واسطة التاج فيما إليه من عيون الحِكم والوصايا يحتاج** » .

واختصره في كتاب سمّاه « **مرصّع الزاج من سلسلة واسطة التاج** » .

وكتاب « **الليالي النضيدة بتاج الياقوتة الفريدة** » ، وهو شرح جليل على صلاة الفاتح تعرّض فيه لكشف اللثام عن كثير من المسائل المشكلة في الفقه والتصوّف والكلام .

ومعلوم أنه رحمه الله ، كان منتسباً لصاحب الطريقة التجانية أعاد الله علينا من بركاته .

ومن مؤلفاته أيضاً كتاب « **تقويم المنطق الحضري بكفّ اللسان المضري** » .

و « **جلاء العين بذكر أخبار الوزير خير الدين** » ، وهو رجز بديع يبلغ لنحو ثلاثمّائة وخمسين بيتاً شرحه شرحاً مختصراً ساجل به كتاب « **رقم الحلل** » للسان الدين بن الخطيب ، قال فيه :

به لقد ساجلت رقم الحلل لابن الخطيب في نظام الدول

و « **عنوان الأريب عمّا نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب** » . وهو التأليف النفيس الواقع بين دفّتي هذا السفر .

و « **برهان البقية من أدب أهل إفريقية** » ، وهو كتاب نصفه نظم ونصفه نثر ، تضمّن ما جادت به قريحة الأدباء من هناء ورثاء بمُناسبة وفاة عمّه الشيخ الطاهر وولاية والده القضاء خلفاً عنه ، وما هنيء به والده في ختم بعض الكتب العالية .

وكتاب « **التحفة السنية في الأخلاق والسيرة المدنية العقلية** » . وموضوعه يستفاد من اسمه .

و « **حسن البيان عمّا بلغته إفريقية في الإسلام من السطوة والعمران** » ، وقد أدركه أجله المحتوم قبل إتمامه . وكان نشر بعضه بالجرائد المحلية .

وجمع **ديوان ذي الوزارتين ابن زمرك الأندلسي** في جزءين اشتملا على نحو ثمانية آلاف بيت . وكان رحمه الله أطلعني على قطعة منه معتبرة بخط المؤلف .

ونخبة مؤلفاته : « **ديوان شعره** » ، المحتوي على آلاف من الأبيات التي جمعت غرر القصائد في سلوك اللآلي الفرائد .

وله عدّة رسائل في مواضيع عصرية كتب أكثرها أثناء مباشرته للحكم بالمجلس المختلط منها بـ « **رسالة في أحكام العقلة** » ، وأخرى في « **أراضي العروش** » ، ذيلها بالتعريف بطائفة عظيمة من العلماء الذين ورد ذكرهم بها . وغير خفي ما لمسألة العروش والأراضي المشتركة من الأهمية في عالم الأنظمة العقارية بالمملكة التونسية . وقد غاص معه غور هذه المسألة العويصة الأستاذ دوماس رئيس المجلس العقاري ، وكتب فيها كتاباً مفيداً جداً مدّت عليه السياسة جناحها فلم يظهر بعد .

ونعرف له أي لصاحب الترجمة تحريراً جامعاً في تاريخ نشأة مقبرة الجلاز كتبه إثر حادثة ذي القعدة 1329هـ (نوفمبر 1911هـ) .

وكم له غير ذلك من الرسائل الكثيرة ، كرسالته التي وضعها في الردّ على من ادّعى تحريف القرآن ، قال الله تعالى : « إنّا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون » .

أما أخلاقه بردّ الله ثراه ، فقد كانت مثال الهمّة العالية وعزّة النفس التي بلغت به لحد الشمم مع تجمّل بالكمال وحسن خلال في الأقوال والأعمال . وله في هذا المقام مواقف مشهورة ، لم تزل أخبارها بين أترابه من أهل العلم مذكورة . وكان ثاقب الفكر ، صادق اللهجة ، فصيح اللسان ، بليغ البيان ، ثابت الجَنان ، حافظاً لعرضه ، ذا وقار وسكينة ، وتواضع على رفعة مكينة ، ما شئت من محاضرة عزيزة الأسلوب ، تأخذ بمجامع القلوب ، ومجالسه بالأدب زاخرة ، وبلاده به مفاخرة ، يبثّ العلم في الصدور بين خاصة وجمهور . باراً بوالديه ، وأقاربه وأصحابه ومن انتمى إليه ، بالغاً من مقاصده الأمنية ، والإجلال يردّ عليه من كل ثنية إلى أن وافاه رائد المنية ، وكانت وفاته فجأة بمَرض القلب ضحوة نهار الأحد السادس من شهر رمضان سنة 1330هـ ، ودفن بمَقبرة آله بالجلاز في يوم مشهود ، وكنت يومئذ حليف فراش بمرض اشتد امتهاه ، وكاد أن يبلغ مني مناه ، لولا تأخر الأجل وقوة الأمل ، الذي لولاه لانقطع العمل ، فحاولت أن أرثيه ، وعيني تبكيه ، ونظمت

في ذلك أبياتاً بقي بعضها بمَحفوظي ، مطلعها :

الله يحكم في البلاد وفي الورى　　يا مسلمين خذوا القضاء كما جرى

ومنها :

ركن من الإيمان أمسى فانتبه　　بعد الثريا جاثمًا تحت الثرى
فالعلم باكٍ من عظيمِ مصابه　　والقلبُ يدمعُ والعيون بلا امترا
كانت لنا صلةً به موروثةً　　خلفاً لسالفِ من مضى أو عمّرا
العلم والتأليف كانا إلفه　　والنفع والتنفيع أحلى ما ترى

ومنها :

ما مات من كانت صفاته هذه　　رحماك ربّ لقبركم وانيفرا

ولم يتيسّر لي يومئذ ختمُ أبياتها لأن عبارة التاريخ ، بعُدت عنّي بعد المرّيخ ، واتفق أن سافرت للتداوي بأوروبا ، وأُبْتُ بحمد الله متزوّداً بنعمة العافية ولم نعرج بعد على تلك المرثية لأنها من باب العزاء ولا عزاء بعد ثلاث .

وقد رثاه بأحسن من ذلك جماعة من أهل العلم منهم صديقه الحميم العالم التحرير الشيخ الصادق بن ضيف رحمه الله حيث قال في مطلع مرثيته :

الدهر يَمنح والمنايا تمنع　　والنفس في فسح الأماني ترتع

إلى أن قال :

خطب له شُقّت جيوب الصبـ　　ـر أي مصيبة من ذي المصيبة أفجع
فُقدتْ معارف جمّة ومناهل　　طلاب علم الدين منها تكرع

ثم قال :

قدم له في كل علم راسخ　　وتثبت في نقله وتضلع
وديانة وأمانة ورصانة　　ومكانة عظمت وصوت يُسمع
ووجاهة ونباهة وفكاهة　　بنزاهة عن كل ما يستبشع
خلق له ناهيك من خلق غدا　　كرضاب مسك في الورى يتضوّع

وعبارة التاريخ قوله :

أرخ : بصومٍ أي بشهر الصوم ما ت محمد النيفري الأورع

108 441 92 381 308

1330هـ

ورثاه الشاعر النابغ المرحوم الشيخ محمد الحشايشي بقصيدة مطلعها :

يبكي الورى طرًّا بدمعٍ هامٍ لفقيد بيت شريعة الإسلام

إلى أن قال :

يا جامع الزيتونة السامي الذُّرى كم بثّ فيك جواهر الإسلام
كم قد أنار رحاب بيتك مرشداً لبيان ما يخفى على الأفهام
لاقيتَ ربّك خاشعاً متبتلاً ضيفاً تجاوره بدار كِرام
وتركتَ طلاب الهدى من بعدكم صرعى تهيم كمعشر الأيتام

وبيت التاريخ قوله :

ومن الدليل على السعادة قد أتى تاريخه بدء بشهر صيام

ونقش على قبره من نظم حفيده للأخت العلّامة المدرّس أبي السرور الشيخ محمد البشير النيفر بورك فيه :

قِفا واعتبر واسأل رضا الله والرحمى لقبر يضمّ المجد والفضل والعلما
قفا مرسلاً نحو المنية نظرة اعـ ـتبار تجلي عن بصيرتك الوهما
أرى الحي مفتوناً بدُنيا يصيبها فيعمى عن الأُخرى بما ملك اليوما
أفِقْ أيها المغرور إن نعيمها لأضعف من أن تستفز بك الحلما
إلى الله رجعى كل نفس فتلتقي بمَا علمت لا ظلم ثم ولا هضما
فأفلح من زكى بما جاء صالحاً وخاب الذي دسّ بما اجترح الإثما
هو الحي بينا أنت تطرق بابه وتقصده في درء كارثة عظمى
إذ الموت يدعوه فلبّى نداءه وغادر مما جمع الطّم والرِّما
فإما فقيد للسخاء وللندى يصارع دون البائس الفقر والعُدما

وإما فقيد للمعارف والعلى … بأجمعها كلاً أصاب به سهما

كصاحب ذا القبر الإمام محمد … شريف السجايا العالم العلم الأسمى

سري سما من آل نيفر الألى … حمى بهم الله الشريعة والعلما

فأكرم بفرع من أصول كريمة … وأشرف بروض أنبت الأب والأما

على مثله تبكي العلوم فإنه … أصح بنيها في مشاكلها حكما

على مثله فليَبْكِ مذهب مالك … دماً قانياً فالخطب جلّ ولا لوما

على مثله تبكي الدروس فإنه … لقد كان بين القوم أثبتهم فهما

على مثله تبكي الفصاحة فهو في … مواقعها أرقى وأفصحهم كلمًا

على مثله يبكي القريض وصنوه الـ … ـكلام وخط راق منظره رسما

على مثله التأليف يبكي فإنه … مجدد ما قد كان من أمره قدما

على مثله أبكي وتبكي قرابتي … فقد خصّني ما خصّهم بعدما عمّا

فقدنا به عِرضاً من الشَّين طاهراً … ونفساً أبَت أن تحمل القهر والضيما

وكل كمال في النفوس وخلّة … إلى مثلها أهل العلى ثنوا الهمّا

ولكننا لا نفقِد الدهر قاصداً … إلى شعث فينا فيتبعه لمّا

وأنت أبا عبد الإله لك الرضا … من الله منهلاً سحائبه دوما

وها كلّنا يشدو بقول مؤرخ : … مقامك في الأخرى بهاء فطب نوما

97 91 9 832 90 201

سنة 1330 هـ

هذا وفي الحديث : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلّا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » . والرجاء بالله أن هذه الخصال الثلاث متوفّرة في صاحب الترجمة ، فقد قدمنا لك نبذة من خدمته للعلم ، وبثّه في الصدور . ومن كان في سعة وخيرية وعقيدة بدرجته ، لا يبخل بمَديد الإسعاف للمعوزين من بني جلدته ، لكن على قاعدة : لا تعلم شماله ما تعطي يَمينه . أما الولد الصالح فإن الله ضاعفه له بأربعة من البنين البررة ممّن تفتخر البلاد بمِثلهم في ميادين العلم والأدب ، وأكبرهم هو النائب الأول الفضيلة شيخ الجامع في الزمن الحاضر ، وأربعتهم جاءوا على قدم أبيهم في الإقبال على المعارف ، التي جمعوا منها كل تليد وطارف ، فهم عمارة الدار ، لمحافظتهم على الآثار ، التي جعلتهم في مقدمة الفضلاء

الأخيار ، كيف لا وهم من آل البيت الأطهار ، بيت النبي ، والنسب الزكي ، رحم الله السلف ، وبارك في الخلف ، والحمد لله أوّلاً وآخراً ، وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمد وسلّم وشرّف وكرّم .

تحريراً في عاشر شوال 1351هـ

محمد بن الخوجة ، أخذ الله بيده في يومه وغده

حول هذا التصدير

يقول ابن مؤلف الكتاب علي بن محمد النيفر : لمّا اعتزمنا على طبع هذا الكتاب المطرّز بهذا التصدير النفيس ، وشرعنا في ذلك ، بدا لنا أن من المناسب تصديره بترجمة حياة مؤلّفه ، ورأينا أن أحقّ من يقوم بذلك وأقدرهم عليه صديقه الحميم سيدي محمد بن البشير ابن الخوجة ، فزرناه في منزله بتونس الكائن في البلفيدير ، وهو إذا ذاك عامل مدينة بنزرت . وكان حلوله إذ ذاك في تونس لقضاء مأرب عائلي . فاغتنمت هذه الفرصة ، والتمست منه ما أسلفت الإشارة إليه ، فأجاب لذلك بكل ارتياح ، ورغبت منه إنجاز وعده هذا في وقت قريب حيث إن طبع الكتاب قارب التمام ، وبعد رجوعه إلى محل عمله ببنزرت كاتبته مستنهضاً همّته وشاكراً له أريحيته بقولي :

وجدتك تروي عن وفاء السموأل	بفعلك ذي الأوضاح لا بالتقول
سمعنا أحاديث الوفاء ولم نجد	بذا العصر منه غير محض التخيل
فأحييت منه اليوم دارسَ رسمه	وجددت من ديباجتيه الذي بلي
وفيت لذي ودّ يصافيك ودّه	غداة غدا عن ذي الدنا ذا ترحل
وفيت له والبين قد جد جدّه	كذاك يفي ذا الفضل أهل التفضّل
محمد وفيت العهود محمداً	بحاليه فوق الأرض أو تحت جندل
فعجّل بما واعدتنا يا أخا العلى	فإن تمام البرّ فرط التعجّل
ودم تاج فخر فوق هامة تونس	وذكرك مسك فاح في كل محفل

شعبان سنة 1351 الخ ا هـ .

ولما جاء عيد الفطر ولم أتصل منه بالمرغوب كاتبته بقولي :

سيدي ومقام والدي :

أعاد عليك الله أمثال ذا العيد	وأمثال أمثال له دون تحديد
تلوذ بك العلياء والبشر والهنا	وآل وأنجال غطارفة صيد
وأهدي إليكم في الختام تحية	تذكركم مولاي إنجاز موعود

فأجابني بما نصّه :

الحمد لله ابن الروح ومن طلع في الدياجي طلوع يوح ، فلان

هناؤك يا ابني حلّ قلبي ونرتجي وفاء بوعد في قريب عهود
لقد أجهدتني شدّة الصوم والشتاء فلم نك نبدأ قبل يوم هنا العيد
وأهدي إليك في الختام تحية أيا نسل ليث شاعر كلبيد

وقد أنجزنا بفضل الله مسودّة الموضوع بأجمعه . وهي عبارة عن تصدير مختصر يبحث في موضوع الأدب ذيّلناه بترجمة سيدي الأخ الفقيد نعمة الله . وفي الحسبان مواصلتكم بالنتيجة أثناء الأسبوع القابل الذي بدايته غداً إن شاء الله . وعليكم وعلى إخوتكم العلماء الأدباء معاد السلام من مقام والدكم المبتهج بكمالاتكم والداعي لكم بخير .

محمد ابن الخوجة

في 8 شوال 1351هـ

ثم ورد علي منه رحمه الله مكتوب آخر معه التصدير المشار إليه ونصّه : العالم النحرير ، المتحلي من الكمالات بكثير ، الفاضل الأعز الأمجد المدرّس الشيخ سيدي علي النيفر أدام الله حفظه .

السلام عليكم ورحمة الله

وبعد ، فالواصل لكم صحبة هذا ما تيسّر تحريره عن عجل ، في الموضوع المعروف ، وهو ، غاية ما أنتجه جهد المقل ، ولنا الاعتماد على محاسنكم في غضّ الطرف عمّا يعتوره من الأنقاص . وذلك من شيم ذوي الفضل من الخواص . بيد أننا يسرنا الوقوف على مباشرة تصحيحه عند تمثيله للطبع إذا رأيتم وجوب ذلك .

سلك الله بكم وبإخوتكم أقوم المسالك ومعاد السلام عليكم من مقام والدكم الداعي لكم بخير .

فقير ربّه أمير الأمراء عبده محمد ابن الخوجة وفقه الله .

وكتب في 12 شوال سنة 1351هـ

محمد ابن الخوجة اهـ

فأجبته عن هذا المكتوب والتصدير ، بقولي : أشكر صنيعه نظمًا ونثراً : جناب التحرير العلّامة الناشر للفضل أعلامه الجهبذ الغطريف ، الغني عن التعريف ، من انتظم در المفاخر بلبته ، فأنى يتسنّى لي الوفاء بحق تحليته ، عين الأعيان ، ومفخرة الزمان ، الذي حلّ من فلك المعالي بروجه ، أمير الأمراء سيدي محمد ابن الخوجة ، شكر الله سعيه ، وأدام رعيه .

أما بعد واجب التحية ، والسؤال عن الذات السنية ، وكافة الجمع ، ومن له انتماء لكريم ذلك الربع . فقد تشرفت بالاتصال بكتابيك ، نيري فلك البلاغة ، ومثالي البداعة ، وجودة الصياغة ، مشفوعاً ثانيهما بالمقدمة البارعة ، بل الروضة اليانعة ، مصدرة بالترجمة الجامعة ، بل الغادة الرائعة ، وقد بادرت إلى الأخذ بأسباب طبعها وتصفيفها ، متحرياً المحافظة على حسن تصنيفها وترصيفها ، كما اقترح الجناب ، مما هو عين الصواب ، حتى تكون في جبين ذلك التأليف غرّة وأي غرّة ، ولأعين المؤرّخين والأدباء قرة وأي قرة . لا زلتم مظهر آيات ومصدر فضائل وحسنات .

هذا ولما ورد علي من جنابكم ما أوجب الشكر ، وترتيل آيات الحمد آخر الدهر ، قلت شاكراً بل معتذراً ، إذ لم أكن في الحقيقة إلّا مقصّراً :

أرسلت من شعري إليك رسولاً ... أبداً يرتّل حمدكم ترتيلا
إني رأيت الشعر يبقى خالداً ... والمرء يحيا برهة ليزولا
ولو استطعت أتيت نحوك راجلاً ... فعساي أقضي واجباً مسؤولا
ولقل فيك الشكر يا محيي الوفا ... من بعد ما عصر الوفاء أديلا
وافى كتابك يستفزّ أولى النهى ... طرباً ويسبي أنفساً وعقولا
يزجي إليّ حديقة غناء من ... وشى اليراعة ما تسام ذبولا
ابهى وابهر رونقاً للنفس من ... وشي الربيع منمنماً مطلولا
يجري بها ماء البلاغة سلسلاً ... يشفي عليلاً أو يبلّ غليلا
نسجت مطارفها يدٌ شكرَ الإله ... لها الصنيع وزادها تفضيلا
يدك التي هي مبزغ الآي التي ... تبدو فتأتي بالنجوم قبيلا
حاكت بروداً ليس يبلى حسنها ... لأخيك جلّله الإله قبولا
أمحمد قد صنت عهد محمد ... فضل يردده الزمان طويلا

أوضحت ماضيه فلاح كمثل منـ	ـبلج الصباح محبباً مأمولا
وأشدتَ يا خدن الوفاء بذكره	فـلتروه الأقوام جـيلاً جـيلا
ونشرت تـاريخاً لأسلاف لـه	أمسى كنشر الروض فاح أصيلا
فنسقت تاريخ الأصول وفرعها	وأريت كيف حكى الفروع أصولا
فإليك منا آل نيفر شكر مـ	ـنون يجدَّد بـكـرة وأصـيلا
وإلـيك مـوفـور الثـنا الضافي	عن الأدب الذي ألبسته إكليلا
فلـقـد جلوت لنا جلية أمره	عـنـد الشعـوب وزدته تحليلا
ورفعت رأس العرب بالآي التي	قد قرضت أدباً لهم وعقولا
وإليك من ذا القطر شكر مقدّر	جهـداً لرفعته غـدا مبذولا
فلقد أشدتَ بذكره بين الورى	فغـدا بكـم تيهاً يجر ذيـولا
سبحان مَن أولاك منه حكمة	نهجت لكـتـاب الزمان سبيلا
سحر البيان بها يجول كأنما	هاروت كان لها الغداة سليلا
إن يعلُ كعب الكاتبين بعصرنا	فهي الذرا أقوى وأقوم قيلا
قد خلّت الطائي مطَّرحاً وقد	أرخت على عبد الحميد سدولا
ولك التآليف التي عنها غدا	يرتدّ طرف الحاسدين كليلا
لله فخر منك أضحى ذكره	يـغشى وعوراً جائباً وسهولا
فخر يحاكي فخر قومك من لهم	ذكـر يسامي الغفر والإكليلا
قوم هم للقطر تاج فخاره	بجميلـهـم أمسى أغرّ جميلا
فعلا بني ابن الخوجة احتل الذرا	من قمة الشرف الرفيع الطولى
أهل التقى والعلم يبهر والنهي	لا زال ربعهم بها مأهولا
وبقيت غرّتهم ودام جنابكم	أبـداً مـنـيفـاً قـدره ومنيلا

في 18 شوال سنة 1351هـ الموافق 13 فيفري سنة 1933 ا هـ .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

سبحان من جعل الشعر ريحانة النفوس . وأجمل ما تزدان به وجوه الطروس . نحمده على أن حلانا معشر بني الانسان . بحلى العقل المفصح عنه لسان البيان . ونصلي ونسلم على نبي هذه الامة المشيد بمزية الشعر والبيان قوله : « ان من البيان لسحرا وان من الشعر لحكمة » وعلى آله البلغاء الاعلام ، وصحبه أسود الصدام وفرسان الكلام ، وكل من تبعهم باحسان الى يوم القيام .

وبعد فيقول المستمد من الله التوفيق . والهداية الى اقوم طريق ، على بن محمد بن محمد الطيب بن محمد بن احمد النيفر : اني كنت جمعت جملة من تراجم بعض الشعراء التونسيين ، ونبذة من اشعارهم لتكون تكملة لكتاب (**عنوان الاريب عمّا نشأ بالمملكة التونسية من عالم اديب**)وهو احد المؤلفات النفيسة التي اضطلع بوضعها والدي العلامة التحرير الامام الشيخ سيدي محمد النيفررحمه الله استدراكا مني عليه لمن لم يذكره فيه ، كما اضفت آخرين اليه عثرت عليهم في عديد من كتب التراجم والتاريخ وفي بعض المقيدات الخاصة المعبر عنها عندنا بالكنانيش . وذلك من لدن القرن الثالث الهجري الى قرننا هذا ، وهو القرن الرابع عشر . جمعت شتاتها في سفرين لطيفين رأيت الآن ان أمزجها بأصلها (عنوان الاريب) . كمّا اني اضفت الى هذا الاصل أيضا ما ظفرت به من الشعر وبعض النثر لبعض من ترجم له فيه من الشعراء لشغف المطالعين للادب بالتبسط فيه بحسب الامكان . كمّا اني قسمت الكتاب بحسب اختلاف عصور الادب واطواره في افريقية الى ثمانية اطوار :

أولها عصر الفاتحين . وثامنها عصر الدولة الحسينية مع كلمة موجزة عن حالة البلاد في كل عصر من تلك العصور إتماما للفائدة .

وقد رسمت ما زدته في صحائف الكتاب مفصولا عنه بخطين أفقي وآخر اسفل منه ليكون مشعرا بذلك المزيد . وان كنت قد خرجت بهذا التبسط عن مسمى العنوان الذي رام مؤلفه رحمه الله التزامه فيه ، لمّا كان معنيا به نعمه الله من معاناة أعمال جليلة في ذلك الزمان ، مما يعوق عن الاطناب الذي لم يساعفه به اذ ذاك الامكان مع

قصر العمر وإرادته إتمامه قبل أن يحول دون ذلك القدر مع الإحتفاظ باسم الكتاب (عنوان الأريب الخ).

والرجاء ممن تصفحه فرأى فيه بعض الإخلال أو الاقتصار أو الإجمال أن يصلح خلله ويفصّل مجمله. ومن الناقد البصير تلافى ما يقف عليه من قصور أو تقصير بعد التثبت والتمحيص. ومردّ العلم إلى العليم الخبير. وإليه سبحانه المرجع والمصير. والله المسؤول منه الإعانة على إكمال جمعه، وإبرازه للإنتفاع به بتيسير طبعه.

وهنا عنّ لي إثبات كلمة تتعلق باسم هذا التأليف، حتى يكون مطالعه على بينة منه ولا يخامره أنه لحقه تصحيف. وهذه الكلمة كنت حررتها حين طُبع الطبعة الأولى، وتخاطفته أيدي الناس، ورام الشيخ السيد محمد العربي الكبادي شيخ رواة الأدب بتونس رحمه الله إلقاءه محاضرة بهذه المناسبة في نادي قدماء المدرسة الصادقية تحت إشراف جمعية المؤلفين والكتّاب ليتحدث عن هذا الكتاب حين تم طبع الجزء الأول منه، فسلمت إليه كلمتي المذكورة، وقد وجدته يتأهب لإلقاء محاضرته المشار إليها لـمّا طرق سمعي أن هناك ممن ينتسب إلى العلم من ينتقد على المؤلف إسم هذا الكتاب بمَا يتبين ردّه في هذه الكلمة وهي :

رأيت في الإعلان عن هذه الحفلة الأدبية الجليلة تغييراً في إسم الكتاب الذي ستتحدثون عنه، وهو إبدال (ما) في الفقرة الثانية من إسم الكتاب ب(من). وقد سبق لهذا التغيير بعض الصحف اليومية عند ذكرها للكتاب المشار إليه.

وحيث إن ذلك ربمَا فهم منه الرمي لتغليط المؤلف فيمَا هو فيه ليس بغالط رأيت توضيح ذلك بهذه الكلمة إحقاقاً للحق، مع ظننا بأن جمعية المؤلفين والكتاب لم تقصد ذلك، بل إنه نشأ عن محض سهو ولم تقصد منه مجاراة قصار النظر ممن انتقد على المؤلف من غير روية، وعدم سلامة الذوق أو النية، فنقول :

لعلماءالعربية في (ما) مذهبان : ذهب الأكثرون إلى أنها تستعمل في العالم وغيره. وما رُوي من محاججة النبي صلى الله عليه وسلم لابن الزبعرى في «أنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم» وقول الرسول له : ما أجهلك بلغة قومك، فتلك قصة لم تصح. وعلى هذا المذهب لا خفاء في اندفاع الانتقاد على المؤلف.

وذهب غير الأكثرين إلى أن (ما) تستعمل في ثلاثة مواضع :

الأول : في غير العالم مختلطاً بالعالم كقوله تعالى : « يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض » .

الثاني : في غير العالم وحده كقوله تعالى : « ما عندكم ينفد وما عند الله باقٍ » .

الثالث : ذات العالم ملاحظا فيها اتصافه بصفة غير الصلة كقوله تعالى : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء » فإن (ما) في الآية صادقة على ذات المرأة المنكوحة ملاحظا اتصافها بصفة البكارة أو الثيوبة فكأنه تعالى يقول : انكحوا أي امرأة طابت لكم بكرا كانت أو ثيبا . وروى أبو زيد « سبحان ما سخركن لنا » و « سبحان ما يسبح الرعد بحمده » و(ما) فيهما صادقة على ذات الله جل وعز وهو أعلم العالمين .

ولا شك أن (ما) في فقرة (عمّا نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب) صادقة على ذوات الرجال الذين نشؤوا بتونس وأنبتتهم رياضها ملاحظا مع ذلك اتسامهم بسيمتي العلم والأدب ، فاتضح بهذا أن نسبة المؤلف في ذلك إلى الخطأ إنما يقع من قصّار الخطى والسلام .

من علي النيفر ا هـ .

هذا وقد اطلع على هذا الكتاب . في حياة مؤلفه العلامة النحرير الشيخ سيدي محمد الصادق إبن القاضي أحد أعيان مدرسي الطبقة الأولى بجامع الزيتونة في تاريخه المتوفي سنة 1330هـ فقرضه بقوله :

هذي الرياض غدت بلابل دوحها ... تهدي اليك غرائب الأخبار
وتريك من سحر البيان لطائفا ... تزري بعرف الزهر في الأسحار
لا غرو فيها إن تناهت رفعة ... وغدت تحاكي الشهب وهي دراري
فصيغها ذاك الهمام محمد ... اللوذعي ذو همّة وفخار
من آل بيت قد سموا شمّ الذرى ... وتسابقوا كالخيل في المضمار
من آل نيفر الذين غدت بهم ... ترشيش تائهة على الأقطار
ما زال بيتهم يجود بمثله ... ما نيرت الأحلاك بالأقمار

كمّا اطلع عليه في حياة مؤلفه أيضاً العالم النحرير الشيخ سيدي صالح المالقي

قاضي الجماعة ثم شيخ جامع الزيتونة ثم المفتي المتوفى 3 مارس 1956 فكاتب مؤلفه مقرضاً له بقوله :

الحمد لله ، رعى الله بجادة الهام الأكمل ، وسعادة السري المفضال الأشمل ، الجهبذ النقادة ، ومحرز قصب السبق في ميادين الإجادة .نخبة الأفاضل ، وسليل الأماثل ، فصيح اللسان نظمًا ونثراً ، وبديع البيان ترسلاً وشعراً ، مدعّم أساس البلاغة بدلائل إعجازه ، ومظهر لطائف البراعة في بابي إطنابه وإيجازه ، بحر العلوم الزاخر ، وآية كم ترك الأول للآخر ، العلّامة المحقق ، والفهامة المدقق ، الشيخ أبا عبد الله سيدي محمد النيفر ، أدام الله إجلاله . وأسبغ عليه نعمه وإفضاله ، بعد إهداء أتم سلام أرجه يعبق ، وعرفه يفوق ويشرق . فقد اطلع العبد على القطعة التي برزت من تحريركم الرائق ، وتقريركم الفائق . المسمى بعنوان **الأريب عمّا نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب** . وأيم الله لقد طابق إسمه المسمى ، وكان شاهدا عمّا لمحرره من المنزلة الشامخة والمقام الأسمى . وأن العبد قبل وروده لمتشوف غاية إلى من يقوم بهذا الغرض ، ويؤدي نحو قطرنا العزيز ما هو الحق المفترض ، من التعريف برجاله الذين كان يشار لهم لدى العالم بالبنان ، وأصبح اليوم ذكرهم مستوراً بأردية الجهل وعناكب النسيان ، حتى قام جنابكم بهذا المهم مبرزاً له من القوة إلى الفعل ، مفصحاً عما لأولئك الكمّل من المزية والفضل . فتلقيته بكامل التجلة جذلاً مسروراً ، وازددت كلّما طالعت فصلاً من فصوله فرحاً وحبوراً ، إذ ألفيته فوق الأمنية المقصودة ، والضالة المنشودة ، تفوق عباراته عقود الجمان ، وتزري إشاراته بقلائد العقيان ، وتأخذ بدائعه بمجامع لب الأديب ، وتفوح من أرجائه ريّا العرف الرطيب . على أني أؤمل من صارم عزمكم ، وجازم حزمكم ، بعد تيسر إتمامه تشفيعه بثان ، يؤازر توأمه بغير توان ، في تراجم علماء القطر من لدن الفتح على الإطلاق ، على مقتضى ترتيبهم بحسب التقدم والسباق ، بحيث لا يشذ منهم من له مزية تذكر ، أو فضيلة تنشر فتذكر ، إذ لم أر فيمّا علمت من قام بهذا المهم وأفرده بالتأليف ،واستحق بأن يتسم **بحسن التعريف** ، أو **مسامرة الظريف** . على أن السعي في مثل هذا مما رغب فيه الشارع وحث عليه النبي الأوّاه . إذ قال صلّى الله عليه وسلم : « من ورّخ مؤمنا فكأنمّا أحياه » .

ونرجو من الله أن يديم كمالكم من كل مكروه محفوظاً ، وبعين عنايته ملحوظاً .

حرره حليف ودكم فقير ربه عبده صالح المالقي . كان الله له .

في 24 شوال المبارك من عام 1322 اهـ

وحين أردنا طبع هذا الكتاب أحببنا أن نرسم عليه صورة مؤلفه رحمه الله لكن عاقنا عن ذلك عدم عثورنا على صورة له كانت أُخذت في حياته لأن كثيراً من سلفنا كانوا يتورعون عن التصوير ، وكان صديقه السيد محمد بن البشير ابن الخوجة أخبر عمي الشيخ محمد النيفر الأصغر بأنه كانت أُخذت لصديقه مؤلف هذا الكتاب صحبته صورة أمام المطبعة الرسمية أو غيرها في إحدى المناسبات ، ووعد بالبحث عنها وتسليمها إلينا لنقضي مأربنا المشار إليه منها .

وقد طلبنا منه مراراً إنجاز وعده بذلك . كان إحداها أني خاطبته بقولي شعراً ، وهو إذ ذاك عامل بنزرت رحمة الله عليه :

واصل الخلان موصول ... ومطيل الصد مملول
ووفي العهد ممتدح ... إن عهد المرء مسؤول
إن خير الحب أصدقه ... غير أن قد غاله غول
محض ودي لك مبذول ... ووداد الناس مدخول
ومقالي الصدق منهجه ... رب قول فيه تضليل
أيها الخوجيّ منتسباً ... نسب بالمجد موصول
والذي قد طار مفخره ... والذي في باعه طول
مستهل القول تبجيل ... لك تبديه الأقاويل
وبأثناء الحشا لك ... أضعاف ما يأتي به القيل
ثم أني اقتضي عدة ... لقضاها طال تأميل
منكم للعم قد سلفت ... وتمام البر تعجيل
بمثال الشيخ صنوكم ... والدي والبر مأمول
دمت ترقى كل معلوة ... ضمنها عز وتبجيل

وأخيراً أجابنا شفهياً بأنه لا يتذكر أخذ صورة لمؤلف هذا الكتاب .

كما التمسنا مثل ذلك من صديقه السيد خيرالله بن مصطفى إذا كان وقع أخذ صورة له في المجلس المختلط العقاري في إحدى المناسبات فأخبر بأن ذلك لم يقع فطوينا صفحاً عن هذا الأمر .

علي بن محمد النيفر

الجزء الأول من كتاب (عنوان الأريب)

مع تكملة لابن المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم

نحمدك يا من شرّفت الإنسان بالمنطق والبيان ، وأفضت عليه سجال الإحسان ، بما منحته من ذلاقة اللسان ، فأعرب عن حياة الأعيان ، فيما سلف من الزمان ، بما نشر مواتهم ، وأحيا رفاتهم ، فتمثّلوا بصفاتهم لذي الفكر الثاقب ، رجال مجد متحلّين بحلى الكمال وغرر المناقب ، ليسلك في طريقهم ، وينحاز أهل الهمم إلى فريقهم ، حتى يخلّدوا ذكراً كما خلّدوا . ويقلّدوا أعلاق الثناء كما قلّدوا :

وإنما المرء حديثٌ بعده   فكن حديثاً حسناً لمن وعى

ونصلّي على نبيّك سيّدنا محمد الحقيق بكل كمال الأحرى ، المنوّه بفضيلة البيان قوله : «إن من البيان لسحراً» . وعلى آله وأصحابه القادة الأكابر ، أبطال الوغى وخطباء المنابر ، وسلّم تسليماً .

يلي هذا ، أن بعض الأحباء التمس منّي كتابة نبذة في الأدب التونسي ورجاله ، فتهيّبت اقتراحه ، لا طلباً للراحة ، ولكن لقلّة المواد ، خشيت أن يكبو بي الجواد ، فإن هذا الغرض وإن كتب فيه السلف ، وسبقوا فيه الخلف ، حسبما ستسمع في عداد مؤلفاتهم ، لكن لم تبق منها إلاّ الأسمَا . قد عفّى الزمان منها أثراً ورسما . لعلمي أن الكتابة في ذلك ، وإن قلّت أهميتها ، خير لما تحمل عليه من تأسي الأول بالأخير . وذلك من خير الله المساق ، المرجو جزاؤه يوم المساق ، نضوت عزمي لاستحصال ذلك الأرب ، وتيقّنت أن طلب خير الله[1] خير طلب ، ودونك ما فيه للنفس مسرّة ، وللعيون قُرّة وأي قُرّة ، وسمّيته :

«عنوان الأريب عمّا نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب» .

وصدّرته بمُقدّمة في الأدب ، ومنزلته على تعاقب الحقب ، وما يناسب ذلك من الفوائد الفرائد ، فنقول :

(1) إشارة لبعض أحبّاء المؤلف المقترح عليه وضعه وهو السيد خير الله بن مصطفى رحمه الله .

الأدب

يطلق الأدب على أدب القلب ، وهو ترييض النفس في الكمالات إلى أن يصير القلب منقاداً إليها منفعلاً لما يرد عليه منها ، وهذا النوع تكفّلت به كتب الأخلاق ، ويطلق على أدب الإيمان ، وهو التخلق بالأخلاق المطلوبة شرعاً . وهذا تكفّل به علم الكلام والتفسير والحديث والفقه ، فإنها بيّنت المعتقدات والحلال والحرام من الأحكام حتى يفعل المرء المطلوبات ويحذر المنهيات . ويطلق الأدب على العلوم الأدبية الإثني عشر التي هي مادة الشعر والنثر . ويعبّر عنها بالعلوم العربية المشهورة ، فإذا انضاف إلى العلم بها القدرة على النظم والنثر ، فقد حصل على كمال الأدب ، وحاز معالي الرتب .

ويعرّفونه بهذا المعنى بأنه حفظ أشعار العرب وأخبارها ، والأخذ من كل علم بطرف ، فالأديب : العالم بمَا ذكر ، والعامة تخصص الأدب بالشعر والنثر ، فالأديب عندهم الشاعر الناثر لأنهما أعلى مراتب الأدب . وقد وَسَم الشعرَ بذلك الخليفةَ سيّدنا معاوية بن أبي سفيان في محادثته مع الحارث بن نوفل حيث قال له : على الرجل أن يؤدّب ولده .

والشعر أعلى مراتب الأدب ووجه ما جرى عليه اصطلاح العامة في تخصيص الأدب بمَا ذكر ظاهر ، لأن الشاعر لا يستحقّ هذا الوصف إلّا إذا كان آخذاً من كل علم بطرف ، لاحتياجه لجميع العلوم العربية لسانية أو شرعية ، أي من حيث المتون أشدّ الحاجة ،حتى إذا كان خِلْواً من بعضها أثّر نقصاً في شعره . وبعد أن كَلِفَ متأخرو الشعراء بصناعة البديع ، وذهبوا إلى التورية في أشعارهم وترسّلهم بالإصطلاحات العلمية ، احتاجوا إلى معرفة اصطلاحات العلوم كلّها حتى يكونوا قائمين على فهمها عند التورية بشيء منها .

وكان الغِنَاء في الصدر الأول من أجزاء فن الأدب ، لما أنه تابع للشعر ، إذ الغناء إنما هو تلحينه . وكان الكتّاب والفضلاء من الخواص في الدولة العباسية يأخذون أنفسهم به حرصاً على تحصيل أساليب الشعر وفنونه ، فلم يكن انتحاله قادحاً في العدالة والمروءة . وعلى ذلك استمرّ أهل الأندلس إلى انحلال الملك العربي بها ، وقد ألف القاضي أبو الفرج الأصبهاني ، وهو من هو كتابه « **الأغاني** » ، جمع فيه

أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم ، وجعل مبناه على الغناء في المائة صوت التي اختارها المغنون للرشيد ، فاستوعب فيه ذلك أتمّ استيعاب وأوفاه ، قاله ابن خلدون :

ولو لم يكن هذا العالم الجليل والقاضي الفاضل متقناً لهذا العلم ، لما أمكن له أن يحقّق المائة صوت المختارة . ولو كان ممّا يُخلّ بمُروءته أو يقدح في عدالته ما ألّف فيه . والحكم فيه مسطّر في مظانه .

والأدب بهذا المعنى ينقسم إلى قسمين : شعر ونثر . والنثر دون الشعر في الرتبة إذا تجاولا وتطاولا ، بدليل جواز ارتكاب الضرورات في الشعر ومنع ارتكابه في النثر .

وكل من القسمين يشتمل على فنون ومذاهب في الكلام ، فالشعر قريض ورجز .

فأمّا القريض ، فأربعة أقسام : رمَل ومخمّس ومسمّط وتقريض .

فالرمل كل شعر مجزوء[1] وليس بمُؤتلف البناء .

والمخمّس ما اختلفت قوافيه واستعملت شطرين شطرين أو أربعة أربعة ، ولا يكون إلّا مزدوجاً . ويجوز أن يستعمل في كل بحر . وروي عن العرب في بحر الوافر ، وأكثره في الرجَز والسريع .

والمسمّط ، هو أن يستعمل الشاعر قصيدة مبدوء فيها ببيت أو بيتين إلى خمسة أبيات ، ثم يأتي بعد ذلك بأشطار أربعة ويأتي بخامس على روي ما ابتدأ به من البيت ، ثم يأتي بأشطار أُخَر على الروي المذكور ، وهكذا . وهذا النوع يسمّيه المولّدُون ملعبة .

والتقريض ، مختصّ بما عدا الرمل والمسمّط .

وأما الرجز ، فهو ما كان على جزأين أو ثلاثة أجزاء من أوزان العرب .

وأما النثر ، فقسمان : سجع وترسيل .

---

(1) الجزء هو اسقاط جزءين من البيت من جملة الاجزاء التي يتركب منها بحر هذا البيت .

فالسجع ، هو الذي يؤتى به قطعاً ويلتزم في كلّ كلمتين منه قافية واحدة .

والترسيل ، هو إطلاق الكلام إطلاقاً من غير أن يقطّع أجزاء ، بل يرسل من غير تقييد بقافية وغيرها ، ويستعمل في الخطب والدعاء وترغيب الجمهور وترهيبهم .

أما القرآن العظيم ، فهو وإن كان من المنثور إلّا أنّه خارج عن الوصفين ، أي ليس بسجع ولا ترسيل ، بل تفصيل آيات ينتهي إلى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها ، ثم يعاد الكلام في الآية الأخرى بعدها ، ويثنى من غير التزام حرف يكون سجعاً ولا قافية . وهو معنى قوله تعالى : « مَثانيَ تَقْشَعِرُّ منه جلودُ الذين يَخشَوْنَ رَبَّهم » .

وقوله تعالى : « قد فَصَّلْنا الآيات » .

ويسمّى آخر الآيات منها فواصل ، إذ ليست أسجاعاً ولا التزام فيها ما التزم في السجع ، ولا هي أيضاً قواف .

ولكل واحد من هذه الفنون أساليب تختص بها عند أهله لا تصلح للفن الآخر ولا تستعمل فيه ، مثل النسيب المختص بالشعر ، والحمد والدعاء المختص بالخطب والدعاء المختص بالمخاطبات ، وأمثال ذلك .

ابتداء الشعر عند العرب

النثر أقدم من الشعر . قال أبو علي الحسن ابن رشيق القيرواني في « **العمدة** » : كان الكلام منثوراً ، فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها ، وطيب أعراقها ، وذكر أيامها الصالحة ، وأوطانها النازحة ، وفرسانها الأنجاد ، وسمحائها الأجواد ، لتهيّء أنفسها للكرم ، وتدل أبناءها على حسن الشيم ، فتوهّموا أعاريض جعلوها موازين للكلام . فلما تمّ لهم وزنه سمّوه شعراً ، لأنهم شعروا به : أي علموا وفطنوا لأن الشعر في اللغة العلم والفطنة .

وما قاله الحسن ابن رشيق في سبقية النثر على الشعر هو : جري على ما سنّه الله في أطوار البشر من التدرّج في العلوم والمدنية ، وإن أمكن أن يقال : إن النثر

والشعر من آثار القوّة النطقية التي جعلها الله تعالى فصلاً منطقياً في حقيقة الإنسان ، غير أنها تظهر في بعض النوع الإنساني وتخفى في بعض آخر بحسب كمال القوة وتمام الإستعداد .

وما ينقله بعض الأخباريين من الشعر المنسوب لأبي البشر آدم عليه السلام يؤيّد ذلك .

وعلى كل حال ، فالشعر والنثر قديمان ظهوراً عند العرب : وقد نقل العلامة ابن خلدون أن : في حمير شعراء . ومعلوم أنهم من قدماء أمة العرب ، وزمان ملكهم وبلوغُهم أوْجَ مجدهم الحربي والأدبي بعيد جداً .

وقد ذكر بعض من شرح قول الأضبط بن قريع :

لا تهن الفقير علّك أن   تركع يوماً والدهر قد رفعه

إن تاريخ وفاة هذا الشاعر قبل الهجرة بنحو الخمسمائة عام .

ويدل على قدم الشعر عند العرب إحاطتهم بأصول المعاني التي يُمكن التعبير عنها في عصورهم ، المقتضي كثرتهم ، اللازم له تباعد طبقاتهم في الخليقة . وأشار إليه عنترة بن شدّاد من شعراء الجاهلية في معلّقته بقوله :

هل غادر الشعراء من متردَّم   أم هل عرفت الدار بعد توهم ؟

أي : هل ترك الشعراء معنى لم يسبقوا إليه ، ويهيموا في واديه .

وما ينقله الأدباء من أن أول من جوّد الشعر وقصّد القصائد امرؤ القيس بن حجر . أخذه عن خاله مهلهل ، يعنون بذلك الطريقة البديعة من رقّة التشبيه وغرابة الاستعارة التي اختارها في شعره ، وتبعه مَن بعده من الشعراء عليها . ولذلك ، كان هو أول أصحاب المعلّقات السبع التي نالت استحسان نقّاد شعراء العرب في عكاظ فكتبوها بالذهب[1] وعلّقوها بالكعبة المشرفة تنويهاً . ثم نال بعده هذا الفوز الشعري بقية أصحاب المعلّقات قبل الإسلام .

ولهذا قالوا : ابتدأ الشعر بملك وخُتم بملِك ، يعنون امرأ القيس وأبا فراس الحمداني ، أو المراد تطويلها ، وكانت قبل قطعاً .

---

(1) نقل ذلك ابن عبد ربه في **العقد الفريد** ، وغيره من حفاظ العلماء المؤرخين .

الغاية من الشعر عند العرب

كانت علوم العرب قبل الإسلام هي التاريخ والأنساب والنجوم وتعبير الرؤيا والبلاغة والفروسية والحرب ومكارم الأخلاق . وكانوا من قوة العارضة وصفاء النفوس بالمكان الذي لم يؤته الله غيرهم ، يقصّ لك الرجل منهم تاريخ قبائل العرب قبيلة قبيلة بأيامها وتفاصيل حروبها . ويأتيك على ما قيل من الشعر والنثر في الأغراض العارضة بينها ، ويرجع بنسب كل واحد إلى أصل العرب ، ويعرف مطالع النجوم وأنوائها إلى غير ذلك . كل ذلك حفظاً ، فلم يكونوا بحاجة إلى تدوينها وكتابتها في الدفاتر .

ثم نظروا ، فإذا الشعر أعلق بالخواطر وأسلس حفظاً على النفس من النثر حتى قال بعض العلماء : قالت العرب من النثر أكثر ممّا قالوا من الشعر ، فلم يبقَ من نثرهم إلّا عشرُه ولم يضِع من شعرهم إلا عشرُه .

فجعلوا الشعر مستودع علومهم ، وخزانة آدابهم وفخرَهم ، والمنبيء بتواريخهم ومكارم أخلاقهم ، والدالّ لأبنائهم على ذلك .

فكان الشعراء ذوي الوجاهة فيهم ، لِما قاموا به من تخليد آثارهم العلمية والعملية ، حتى لقد كانت القبيلة من العرب إذا ظهر فيهم شاعر اعتزّوا فرحاً وهنّأتهم القبائل واحتمى جانبهم به ، فالشعراء في القبيلة هم حاملوا علومها . والمدافعون عن شرفها ، والجالبون لمصالحها ، والدارئون لمفاسدها بمَنزلة العلماء والسياسيين والكتّاب عند غيرهم من الأمم .

فلا غرابة أن خصُّوا الشعراء بجلائل الجوائز ، واحترمتهم ملوكهم وأعيانهم ، ولَقُوا منهم كلَّ مبرة وتبجيل ، فهم وإن مدحوهم ومجّدوهم أحياناً . فإنمّا يصفونهم بما فيهم من الكمال الذي بتخليده في شعرهم يؤدبون به أبناءهم . ويحملون المقصِّر على اللحاق بالكامل ، والتخلّق بما أمكنه من حُسن الخلال . وقد قال الشاعر :

الشعر يحفظ ما أودى الزمان به ... والشعر أفضل ما يجنى من الكرم
لولا مقال زهير في قصائده ... ما كان يعرف جود كان في هرِم

ولم يكن التملّق من طباعهم ، ولا الفرية من خلقهم . وقول المغرقين : « أكذب الشعر أعذبه » ، لا أصل له عند العرب . كيف ، وهو من الإغراق المذموم .

بل كلام العرب في أشعارهم لا يزيد عن إعطاء كل ذي حقّ حقّه بلا مجازفة ، بصورة تقبلها النفوس المعتدلة ، وتلتذ بها الأسماع ، وتنجذب لها الخواطر ، فكان البيت الواحد الكثير منهم ينفعل لما تضمّنه بمّا لا ينفعل غيرهم عن التآليف الضخام لو أفردت لذلك الغرض .

ولنأت لك بشواهد من ذلك لتقيس عليها غيرّها من الأغراض الكلامية .

حدث الزبير بن بكار ، أن الحارث بن نوفل وكان من أصحاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وشهد معه صِفِّين ، دخل على الخليفة معاوية بن أبي سفيان بعد إفضاء الخلافة إليه واجتماع الناس ، ومع الحارث ابنه محمد ، فقال له معاوية : ما سمّيته؟ قال : سمّيته محمداً . قال : حسن ، فما علّمته؟ قال : القرآن . قال : حسن ، فما بعد؟ قال : الفرائض ، قال : حسن ، فمّا بعد؟ قال : ولا بعد . فقال له : رؤوس الشعر فإنه يطلق اللسان ، ويفتح العقل ويحضّ على المروءة ، فلقد رأيتني ليلة بصِفِّين وقد أجمعت الإنصراف عن صاحبكم ، (يريد عليًّا) ، فما صرفني عن ذلك إلّا قول عمرو بن الاطنابة :

وقولي كلّما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي

فانظر إلى هذا البيت ومقدار تأثيره الخطير ، فقد كان هو الحامل لهذا الرجل العظيم على أن لزم موقفه في حربه فدالت الدولة له ، وأورث ملكاً ضخماً لأبنائه وآل بيته ، كان هو غرّة الدول الإسلامية مجداً وضخامة .

ولو أنه لم يطع النصيحة التي تضمّنها البيت بعد أن أزمع على الانصراف وانهزم لم تكتب على صفحات الوجود هذه الخلافة الأموية .

وقد يكون جميع أفراد جيشه وأمثالهم من جيوش أمير المؤمنين علي يحبسون نفوسهم لانقضاء وقعات صفِّين تأثراً لهذا البيت وأمثاله من الوصايا الشعرية بقطع النظر عن أهل البصيرة منهم الذين هم على بيّنة من أمرهم في أمر هذه الحرب ، وما اقتضاه النص الشرعي ، والمسألة اجتهادية ، فاعجب لبيت واحد يؤثر في النفوس ما

لا تؤثّره التآليف المطوّلة في الثبات في الحرب وحبس النفس على ضيمها .

وكان عبد العزيز بن حنتم الكلابي من الجاهلية ، ويدعى بالمحلّق ، سمّي بذلك لحلقة كانت بوجهه من عضة بعير ، رجلاً خامل الذكر . وكان الأعشى ما مدح أحداً إلّا رفعه ولا هجاه إلّا وضعه . فمرّ بقوم المحلّق قاصداً عكاظ فقالت أم المحلق له وكانت عاقلة : إن الأعشى رجل مجدود الشعر ما مدح أحداً إلّا ورفعه ولا هجا أحداً إلاّ وضعه وأنت خامل الذكر ، ولك بنات ، فلو أنزلته ونحرت له ناقة واشتريت له شراباً لرجوت حسن عاقبة ذلك ، فسبق المحلّق إليه وأنزله ونحر له ناقة وأكرمه هو وأصحابه ، وكانوا عصابة من قيس ، وأكثر عليهم الشراب ، فلمّا أخذت الكأس من الأعشى سأل المحلّق عن حاله وعياله ، فأخبره عن حاله وشأن بناته ، فقال له الأعشى : كفيت أمرهنّ . فلمّا أصبح توجّه إلى عكاظ وتوجّه المحلّق خلفه ليرى ما يصنع ، فلمّا وقف الأعشى بعكاظ موقف الإنشاد . واجتمع الناس إليه وقف المحلّق وراء الناس مُنصتاً ، فأنشد الأعشى قصيدته التي مطلعها :

أرقت وما هذا السهاد المؤرق

واستمرّ في الإنشاد لا يدري المحلّق مقصوده حتى إذا شرع في مدحه فقال :

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة وبات على النار الندى والمحلّق
تشبّ لمقرورين يصطليانها إلى ضوء نار في يفاع تُحرّق
رضيعي لبان ثدي أم تحالفا بأسحم داج عوض لا مفرّق
ترى الجود يجري سائلاً فوق وجهه كما زان متن الهندواني رونق

استبشر المحلّق وانصرف إلى رحله فما رجع إلى أهله حتى غشيه الخُطّاب في بناته من كل حي فمَا باتت له بنت بلا زوج في تلك الليلة رغبة في حسبه ونسبه الذي أشاد به الأعشى في شعره . كل ذلك تأثّراً لعوامل الشعر لعلمهم أن ما وسم به الأعشى المحلّق حقائق ثابتة موجبة للمجد .

وكان بنو نُمير يفتخرون بنسبهم ، فكان الرجل منهم إذا سُئل : ممّن أنت ؟ فخّم لفظه ومدّ صوته وقال : من بني نُمَير ، إدلالاً بعزّهم ومنعتهم إذ كانوا لا يحالفون أحداً استغناء بكثرتهم إلى أن هجاهم جرير بن الخطفا في هجائه لعبيد الله بن

حصن الراعي منهم بقوله :

فغُضَّ الطرف إنك من نُمَيرٍ   فلا كَعْباً بلغتَ ولا كلابا
ولو وُضِعت شيوخ بني نُمَير   على الميزان ما عدلت ذبابا

فاتضعوا ولم يرفعوا بعدها رأساً . وصاروا يفرّون من الانتساب إلى نُمَير ، فإذا قيل للرجل منهم ، ممّن أنت ؟ قال : عامري . وتجاوز أباه إلى جدّه عامر بن صعصعة وهذا إفراط منهم في التأثّر من القضايا الشعرية .

وإذا كان تأثر العرب لهذا الحد في التخيّلات الشعرية ، فكيف تأثّرهم للحقائق الثابتة والوصايا الصحيحة التي يتضمّنها الشعر والنثر .

ولقد خاضوا في كل واد منه ، وطرقوا كل معنى ، ولذا وصفهم الله جلّ جلاله بقوله : «ألم ترَ أنهم في كل واد يهيمون» .

ولم يكن شعرهم مقصوراً على المديح والهجاء والنسيب والرثاء والحماسة ، فأنواعه كثيرة بتكثّر المقاصد الكلامية ، فمنها النصح كقوله :

ومن صحب الدنيا كثيراً تقلّبت   على عينه حتى يرى صدقها كذبا

ومنها في الاقتصاد كقوله :

ويختلف الرزقان والفعل واحد   إلى أن ترى إحسان هذا لذا ذنبا

ومنها في التحريض كقوله :

تخفي العداوة وهي غير خفية   نظرُ العدو بمَا أسرّ يبوح

ومنها الاعتذار كقوله :

ما كل ما يتمنّى المرء يدركه   تجري الرياح بمَا لا تشتهي السفن

ومنها في الرفق كقوله :

ترفّق أيها المولى عليهم   فإن الرفق بالجاني عتاب

فهذه مُثُلُها . وهنالك أنواع كثيرة يطول سردها . وظنّي أن سبب اقتصار الأدباء

على الأنواع الخمسة لأنها أصول الأغراض والبقية فروع تندرج تحتها بالنظر لمثارها النفساني ، فآثروا تقليل الأقسام لتنضبط . وقد كانت أشعار الجاهلية أكثرها في غير المديح لما كان فيهم من الأنفة والحرية البالغين . وإذا مدحوا قالوا الحق فيما يَسِمُون به الممدوح غالباً .

مع أنك إذا وجدت شعراً لهم في مدح مِلِك أو رئيس تجده في الأكثر لقضاء حاجة عامة المصلحة لا خاصة بالشاعر من دفع ضرّ أو جلب نفع .

وباقيها في الأغراض الصحيحة من التربية أو ذكر فخر حربي أو التحدّث بمَجد تالد أو طريف إلى غير ذلك من المقاصد العالية إلى أن أتى الله بالإسلام ونزل القرآن العظيم الذي قد تدلهت فيه أحلامهم ، وخرست به شقائق بلاغتهم ، فألجموا له زمناً واستصغروا ما يأتون به في جنب بلاغته وما أودعه الله من العلوم والحكم التي لم تحم عقولهم حولها . وماذا يقول الشاعر منهم عند إرادة القول في التربية أو السياسة بأقسامها أو الدلالة على الخير والتحذير من الشرّ بعد سمَاعه قوله عزّ وجلّ مثلاً :

«إنّ الله يأمرُ بالعَدْل والإحْسان وإيتاء ذي القُرْبَى ويَنْهَى عن الفحشاء والمنكر والبَغي يَعِظُكُم لعلّكُم تَذكَّرون» .

هي كلمات ست لو أخذت الشعراء في تفصيل ما احتوت عليه لأعجزهم ذلك ، وهي آية واحدة فكيف بأخواتها الكثيرة ، هذا زيادة على طبقة البلاغة التي لا تصل إلى قرب حدّها بلاغتهم .

فألقوا حينئذ مقاليد التربية والأمر والنهي وسياسة الدنيا والدين لتعاليم القرآن .

وقد كان صلّى الله عليه وسلّم خلقه القرآن يرضى لرضاه ويسخط لسخطه ، والمسلم ينبغي له ذلك اقتداء بنبيّه صلّى الله عليه وسلّم وعليه درج السلف .

واقتصر الشعراء في أشعارهم على انواع الشعر في غيرها من مقاصد الكلام وربّما ألموا بشيء من التربية والحكم على تقاصر بيّن عمّا جاء به القرآن العظيم وعلى ذلك سارت شعراء الاسلام من المخضرمين والمولدين وبسماع بلاغة القرآن المجيد اكتسبوا نُصوع بلاغة وعذوبة سبك في شعرهم ونثرهم فاقوا به الجاهلية ، وأصبحوا في أعين الأمة بمَنزلة لا تنحطّ عن منزلتهم عند الجاهلية إن لم نقل إنها تفوق .

فقد سمع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الشعر وأثاب عليه واستنشده الشعراء والرواة ، وأمر به في مفاخرة الوفود ومجاوبة شعراء قريش والعرب ، ومدحه بقوله :

« إن من الشعر لحكمة » . وكان حسان بن ثابت الأنصاري يوضع له منبر في المسجد النبوي فينشد عليه شعره .

ولما أنكر عليه ذلك الخليفة الثاني وقال : في مسجد رسول الله ينشد الشعر ؟ قال له حسان : قد كنت أنشد وفيه من هو خير منك ، يعني الرسول صلّى الله عليه وسلّم ، فلم يعرض له بعدها ، وعلى ذلك درج الخلفاء الراشدون ، وكانوا شعراء .

وربما أفاض الخليفة الثاني في حديثه وفضل بعض الشعراء على بعض . فقد نقل أن جلساءه ذكروا الشعر وتفاوضوا في أشعرهم ، فقال الخليفة الثاني : « أشعرهم من يقول ومن ومن » ، يعني زهير بن أبي سلمى . وأمر المسلمين بحفظ أشعار العرب .

ثم كانت الخلافة الأموية فأجازوا الشعراء بالأموال الجزيلة والصلات الطائلة ، بل إنّ الخليفة عبد الملك لمّا بلغه أنّ الحجاج بن يوسف أميره على العراق لا يراعي الشعراء نقِم عليه ذلك وكتب إليه :

« من عبد الملك الى الحجاج بن يوسف أما بعد فقد بلغني عنك أمر كذّب فراستي فيك ، وأخلف ظني بك ، من إعراضك عن الشعراء ومواقع سهامهم . أو ما علمت يا أخا ثقيف أن بقاء الذكر بالشعر ، وأن الشعراء طراز الملك ، وحُلّة الدولة ، وعنوان النعم ، وتمام المجد ، ودلائل الكرم : وأنهم يحضُّون على الأفعال الحميدة ، وينهون عن الأخلاق الذميمة ، وأنهم سنُّوا سبل المكارم لطلابها ودلُّوا السعاةَ على أبوابها وأن الإحسان إليهم كرم ، والإعراض عنهم لؤم وندم ، فاستدرك تفريطك ، وامح بصوابك أغاليطك ، والسلام » .

ثم جاءت الخلافة العباسية ، وبلغت الأمة أوجَ مجدها في العلوم والمعارف ، فكان للشعراء أسمَى منزلة ، وأشمَل اعتبار ممّا قصّه التاريخ علينا .

فلم يكن إسناد الجوائز لهم ورفع منازلهم عند الخلفاء ورؤساء الأمة مجرّد شهوة لا صالح للأمة فيها . كلا ، إن في ذلك لأعظمَ مصلحة لما اشتمل عليه الشعر من المنافع في إصلاح الأخلاق حتى المدح الخاص بالخاصة ، فإن الإشادة بما هم عليه من المكارم وصفات الفضل والتحقّق بالرئاسة تربيةٌ لغيرهم ممّن هو مقصّر عن درجتهم ، وللولدان كي يتسنّموا تلك الذُّروة ، ويتمسّكوا بوثقى تلك العروة . ولعمري إن ذلك الزمان لم يكن اتصاف ممدوحي شعرائه إلّا بما هم متسمون به ،

فإنه زمان العلم والفضل كادت أن تستوي أفراده علماً وفضلاً ، والتاريخ يشهد بذلك . ولئن ندر صرف الشعراء شعرهم لمن لا يتّصف بمَا وسموه به فلا ريب أن فيه أعظم إصلاح للممدوح فإن ضميره يوبّخه على تجرّده عن ذلك ، ويكون معنى كلام الشاعر مدحاً في معنى التوبيخ ، أي ينبغي لك أن تكون بهاته السمات فيكون له ألزم زاجرٍ وأنفعَ محرّضٍ على الاتصاف بالكمال ، ولو لم يكن معناه ذلك كان استهزاء بمَمدوحه وسخرية به يأباه القائل والمقول فيه .

وليقس عليه الهجاء والرثاء ، فإن فيهما إصلاحاً للأخلاق لما تحمل عليه من تجنّب الرذائل الموجبة للهجو والاتصاف بالمحامد التي يذكر بها بعد موته الموجبة للرثاء .

أما الحماسة فأمرها في النفع واضح .

وأما النسيب ففيه من نفع ترقيق النفس وكسوها بثياب الآداب ما لا يخفى .

فينبغي أن تنظر أنواع الشعر التي في رأي السامع عدل بها عن مصرفها بهذا الاعتبار ليقع الانتفاع بها .

ولما انقرضت الخلافة العربية وتغلّبت العجمة على الآفاق الإسلامية ، قلّت العناية فيها بالشعراء وجهلت منافعه أو تجاهلوها ، فسقطت منزلة الشعراء لجهل الرؤساء باللسان أو تقاصرهم فيه . والناس على دين ملوكهم .

ومع ذلك ، فإن الشعراء ذوي الهمم لم يهملوه بل صرفوه إلى استحفاظ العلوم والمعارف . ونحوا منحى العرب الجاهلية في جعله خزانة العلم والمجد خصوصاً وقد اتسعت معارف العرب عن علومها الجاهلية ، فنظموا الشعر في سائر العلوم والمعارف ، كما أودعه الجاهلية علومهم . ففي العلوم التفسيرية منظومات ، وفي المصطلح ، وفي السيرة النبوية ، وفي التاريخ العام ، وفي العلوم العربية بأسرها ، وفي الرياضة ، كالمنطق ، والنجوم ، والطب ، والفلاحة ، والأخلاق والفلسفة ، حتى في صفات الخيل وبيطرتها ، والفروسيّة ، والقَنْص ، وفضائل التغرب ، إلى غير ذلك ممّا يطول تتبّعه . ولا معنى لتخصيصه باسم النظم دون الشعر . والعجب من الفاضل ابن بسام في الذخيرة ، فإنه بعد أن ساق قصيدة ابن وهبون المرسي وبلغ قوله في النفس :

ما النفس إلّا شعلة سقطت إلى ... حيث استقلّ بها الثرى والماء

حتى إذا خلصت تعود كما بدت ومن الخلاص مشقّة وعناء

قال ما نصّه : « وذهب هنا من صفة النفس إلى مذهب كلامي . كقول بعض أهل بلدنا ، وهو أبو عامر ابن نوار الشنتريني من جملة أبيات :

يا لقومي دفنوني ومضَوا وبنوا في الطين فوقي ما بنَوا
ليت شعري إذ رأوني ميتاً وبَكَوْني أي جزأي قد بكَوا
أنعوا جسمي فقد صار إلى مركز التعفين أم نفسي نعوا ؟
كيف ينعون نفوساً لم تزل قائمَات بحضيض وبجو ؟
ما أراهم ندبوا فيَّ سوى فُرقة التأليف إن كانوا دروا

وهذا معنى فلسفي قلّما عرّج عليه عربي وإنمّا فزع إليه المحدثون من الشعراء حين ضاق عنهم منهج الصواب ، وعدموا رونق كلام الأعراب ، فاستراحوا إلى هذا الهذيان ، استراحة الجبان ، إلى تنقص أخدانه ، واستجادة سيفه وسنانه . وقد قال بعض أهل النقد ، إنه عيب في الشعر والنثر أن يأتي الشاعر أو الكاتب بكلمة من كلام الأطباء أو بألفاظ الفلاسفة القدماء . وإني لأعجب من أبي الطيب على سعة نفسه وذكاء قبسه فإنه أطال قرع هذا الباب والتمرّس بهذه الأسباب . وكذلك المعرّي كثر انتزاعه وطال إليه إيضاعه حتى قال فيه أعداؤه وأشياعه : وحسبك من شرّ سماعه وإلى الله مآله وعليه سؤاله » انتهى المراد .

فإن الذي يظهر أن ما ارتكبه ابن وهبون وابن نوار وسبقهما المتنبي والمعرّي وغيرهما ممّن لا يُحْصَون كثرة إلى تلك المناحي هو من سعة العطن لا من ضيقه . أما براءة شعر الجاهلي عنه ومن في الصدر من قدماء المولّدين فلغرابة تلك العلوم عندهم ، وبعد أن أصبحت من معارفهم: « فَلْيُنْفِقْ ذو سعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ومَنْ قُدِرَ عليه رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمّا أتاهُ الله » .

وهناك طائفة أخرى من الشعراء حملتهم الضرورات لاقتفاء أثر أسلافهم في زمن رواج سوق الأدب مع علمهم بأنها تجارة كاسدة لا تدرى قيمتها لكن يحملهم إصلاح صناعتهم الشريفة على قول الشعر وسلوك طرقه حتى لا تضيع ملكتهم فيه فإنه كغيره من الملكات يتفلت بالترك ويربو ويحسن على الإنفاق .

أما الجهات التي بقي فيها العربي قوي العنصر كالأندلس فاستمرّت عناية الناس فيه بالأدب إلى انقراض غرناطة .

وأما المملكة التونسية ، فالأدب فيها كان قرين العرب في دخولها . فقد نبغ منها شعراء وكتّاب مشاهير في كل عصر من عصورها ، وفصاحةُ ألسُن سكّانها سهّل لهم سرعةَ التفوّق فيه .

وإن كانت الفتن التي انتابتها أضاعت أكثر التآليف التونسية في الأدب وأودت بدواوين شعرائها وكثير من محرّرات علمائها . ولو سألت عنها سنابك الخيل الإسبنيولية في حملتهم على تونس سنة 988هـ لأجابتك أين هي ؟

لكن مع ذلك ، فقد حفظت الآفاق شيئاً منها ولا تزال أخبارهم وبقية من آثارهم تتلألأ من خلال الدواوين . وسنقصّ عليك من نبإ بعضهم ونتحفك بدرر من أشعارهم .

تفاوت درجة الشعر في الحسن

ليعلم أن الأشعار ليست في طبقة واحدة من الحسن لتفاوت الشعراء وهي قضية مسلمة .

بل إن الشاعر نفسه لا يكون شعره طبقة واحدة غير أني لا أذكر من شعرائنا إلّا من قُبل شعره بالاستحسان وحاز سمة شاعر . ونقتصر على بعض ما فاق من شعره عنواناً على أدبه .

وسبب التفاوت في الشعر ، مع أن الوسائل أصبحت الآن مدوّنة يُمكن أن يستووا فيها ، فحقّ أشعارهم مع التساوي في الوسائل أن لا تتفاوت ، هو إهمال الشاعر بعض الشروط التي ينبغي له مراعاتها ليكون شعره في الطبقة العليا بعد مواتاة الطبع . فإذا أهمل منها تقاصر شعره فانحطّت درجته .

وهذه الشروط قد ذكرها الإمام أبو علي الحسن ابن رشيق القيرواني الشاعر المشهور المتوفى سنة 456هـ في كتابه المسمّى « **بالعمدة** » ، وهو كتاب قال ولي الدين ابن خلدون في « **المقدمة** » : « انفرد بهذه الصناعة وإعطاء حقّها » . قال : « ولم

يكتب فيه أحد قبله ولا بعده مثله » .

ولنلخص لك شيئاً منها يتعلّق بشروط الشعر . ومن كلام الشيخ ابن خلدون : « فمنها الحفظ من كلام العرب حتى تنشأ في النفس ملكة ينسج على منوالها » .

ويتخيّر المحفوظ من الشعر الحرّ النقي الكثير الأساليب وأقل ما يكفي فيه شعر شاعر من فحول الإسلاميين مثل ابن أبي ربيعة المتوفى سنة 93هـ ، وكُثَيِّر المتوفى سنة 105هـ ، وذي الرمّة المتوفى سنة 117هـ ، وجرير المتوفى سنة 110هـ ، وأبي نواس المتوفى سنة 393هـ ، وحبيب ابن أوس المتوفى سنة 231هـ ، والبحتري المتوفى سنة 299هـ ، وأبي فراس الحمداني المتوفى سنة 323هـ ، والشريف الرضي المتوفى سنة 406هـ . وأكثره شعر كتاب « **الأغاني** » . ومن كان خالياً من المحفوظ قصر نظمه وكان رديأً ولا يعطيه الرونق والحلاوة إلّا كثرة المحفوظ ، فمن قلّ حفظه أو عدم لم يكن له شعر ، وإنما هو نظم ساقط واجتناب الشعر أولى بمن لم يكن له محفوظ .

ثم يقبل على النظم ، وبالإكثار منه تستحكم ملكته وترسخ ، قال ولي الدين ابن خلدون .

وربما يقال : إن من شرطه نسيان ذلك المحفوظ لتُمحى رسومه الحرفية وتبقى النّفس متكيّفة بها ، وقد انتقش الأسلوب فيها كأنه منوال يأخذ بالنسج عليه بأمثالها من كلمات أخرى .

ولا بدّ له من الخلوة واستجادة المكان المنظور فيه من المياه والأزهار والمسموع لإستنارة القريحة باستجمامها وتنشيطها بمَلاذ السرور ، ومع هذا كلّه فشرطه أن يكون على جمام ونشاط .

وخير أوقاته عند البُكَر[1] بعد الهبوب من النوم وفراغ المعدة ونشاط الفكر ، فإذا استصعب عليه تركه لوقت آخر ولا يكره نفسه عليه .

وليكن بناء البيت على القافية من أول صوغه ونسجه بعضها : ويبني الكلام عليها إلى آخره ، لأنه إن أغفل ذلك صعب عليه وضع البيت في محلها[2] فربما تجيء

(1) جمع بكرة وهي أول النهار .
(2) أنث البيت لعله لتأويلها بالقطعة .

نافرة قلقة . وإذا سمح الخاطر بالبيت ولم يناسب الذي عنده ، فليتركه إلى موضعه الأليق به ، فإن كل بيت مستقلّ بنفسه ولم تبق إلّا المناسبة فليتخيّر فيها كما يشاء .

وليراجع شعره بعد الخلاص منه بالتنقيح والنقد ، ولا يضن[1] به على الترك إذا لم يبلغ الإجادة ، فإن الإنسان مفتون بشعره إذ هو بنات فكره واختراع قريحته .

ولا يستعمل فيه من الكلام إلّا الأفصح من التراكيب والخالص من الضرورات اللسانية وليهجرها فإنها تنزل بالكلام عن طبقة البلاغة . وقد حظّر[2] أئمّة اللسان عن المولّد[3] ارتكاب الضرورة إذ هو في سعة منها بالعدول عنها إلى الطريقة المثلى .

ويجتنب التراكيب المعقدة جهده وإنما يقصد منها ما كانت معانيه تسابق ألفاظه إلى الفهم .

ويجتنب كثرة المعاني في البيت الواحد ، فإن فيه نوع تعقيد على الفهم ، وإنمّا المختار ما كانت ألفاظه طبقاً على معانيه أو أوفى ، فإن كانت المعاني كثيرة كانت حشواً لمنعه الذوق من استيفاء مدركه من البلاغة بالغوص على تلك المعاني المتكاثرة . ولذلك كان الشيوخ يعيبون شعر أبي بكر بن خفاجة شاعر شرق الأندلس لكثرة معانيه وازدحامها في البيت الواحد ، كما كانوا يعيبون شعر المتنبي والمعرّي بعدم النسج على الأساليب العربية ، فكان شعرهما كلاماً منظوماً نازلاً عن طبقة الشعراء ، والحاكم بذلك الذوق .

وليتجنّب الحوشي[4] من الألفاظ والمقصّر[5] والسوقي[6] المبتذل بالتداول بالاستعمال ، فإنّه ينزل بالكلام عن طبقة البلاغة فيصير مبتذلاً يقرب من عدم الإفادة كقولهم : (النّار حارّة ، والسماء فوقنا) ، وبمقدار ما يقرب من صفة عدم الإفادة يبعد عن رتبة البلاغة إذ هما طرفان . ولهذا كان الشعر في الربانيات والنبويات[7] قليل الإجادة في

---

(1) اي لا يبخل به .
(2) اي منع .
(3) هو الناشيء بعد فساد اللسان .
(4) هو الغريب الذي لم يوءلف .
(5) هو الذي لا يوفي بالمعنى .
(6) هو الذي تستعمله السوقة من الناس .
(7) أي مسائل التوحيد المتعلقة بالرب والنبي .

الغالب ، ولا يحذق فيه إلّا الفحول لأن معانيها متداولة بين الجمهور فتصير مبتذلة لذلك . وإذا تعذّر بعد ذلك ، فلْيُراوضْه ولْيعاودْه فإن القريحة مثل الضرع يدر بالامتراء[1] ويجف بالترك والإهمال » . ا هـ

وبعد هذا كلّه ، فلا بدّ له من ملازمة أهل النقد وصاغة الشعر والنثر لينبهوه على مكامن الخلل التي لا يتنبّه لها إلّا أمثالهم ليتحرّز عنها ، وذلك يكون بإبداء عيوب الشعر الذي نقدته العلماء وحذا حذوهم خلفهم في انتقاد ما ينتقد .

هذا ، وبعد هذا كله فلا بدّ من طبع مُوات ، وإلّا فَلْينبذه نبذَ النواة .

ولنذكر جملة من شعراء إفريقية وهو قُلٌّ من كل ، فقد كان بحر الأدب بها متلاطماً ، وفي كل بلد منها شعراء مجيدون . ولنذكر لك شاهدين على هاته الدعوى ، ففي **معالم الإيمان** لابن ناجي ، أن الإمام محمد بن سحنون لمّا توفي رثاه أكثر من ثلاثمائة شاعر . قال : وبه تعرف مقدار عمران القيروان ، وفي **كفاية المحتاج**[2] أن أبا العباس أحمد التجاني التونسي جمع سفراً من مراثي شيخه[3] وهو دليل على ما كان بتونس من شيوع الأدب وكثرة الشعراء . ونقتصر على ترجمة من نذكر منهم باختصار وجلب شيء من شعرهم عنواناً إذ استيعابهم يقتضي تفرغاً واستغراق زمن طويل . **ولنبتدىء بالأقدم فالأقدم منهم ولنزين عقدهم الثّمين بواسطة ثَمينة هي** ذكر سيدنا عبد الله بن الزبير فيهم وإن لم يكن ممن نشأ بإفريقية إلا أنه لما كان له شعر يتعلّق بها وهو أوّل شعر عربي قيل فيها فكان لذكره وتحلية هذا الجمع به أعلق مناسبة فنقول :

(1) أي الحلب .
(2) للشيخ أحمد التنبكتي . في تراجم المالكية ذيل به على **الديباج** لابن فرحون في ذلك .
(3) القاضي بتونس احمد ابن الغمار .

العصر الأول

من عصور الأدب العربي بإفريقية أي القطر التونسي

عصر الفاتحين

27 - 184 هـ

لابن المؤلف

هذا العصر يمتدّ من لدن الفتح الإسلامي العربي لهذه الإيالة أي من سنة 27 إلى تأسيس الدولة الأغلبية سنة 184 هـ .

إن العرب الفاتحين للقطر الإفريقي أخذوا يستقرون فيه شيئاً فشيئاً منذ النصف الثاني من القرن الأول الهجري ، وذلك ابتداء من تأسيس الأمير الفاتح عقبة بن نافع رضي الله عنه مدينة القيروان سنة 56 هـ . غير أن أولئك الفاتحين كانوا أول الأمر في شغل شاغل بمُهمّة الفتح ومستتبعاته من الجهاد أولاً ، وتوطيد الأمن وإقامة قسطاس العدل في البلاد ثانياً ، ونشر الدعاية الإسلامية بين السكان الأصليين المستقرّين في البلاد ، وهم البربر ، ثالثاً . فلم يكن لديهم من الوقت ما يسع لقرض الشعر وتعاطيه ، والهيام بواديه .

وإذا تصفّحت ما ذكر المؤرّخون لِسيَرِ ولاة إفريقية من قبل الخلفاء الأمويين والعباسيين تجلّى لك ما قلناه ، وبان لك ما كان لهم من شدّة الحرص على هداية البربر ودعوتهم للدخول في حظيرة الإسلام ، واعتناق الدين الحنيف ، خصوصاً الأمير الجليل إسمَاعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر الذي أولاه أميراً على إفريقية الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز ، وذلك سنة 100هـ . وكان أميراً خيّراً فاضلاً حريصاً على انضواء البربر تحت راية الإسلام ، وعلى تعليمهم الحلال والحرام ، حتى أنه طلب من الخليفة توجيه علماء من عاصمة الخلافة لتفقيههم في الدين ، فأرسل إليه الخليفة عشرة من خيرة الفقهاء قاموا بأداء هذا الغرض الجليل والمقصد النبيل ، رحمة الله على جميعهم . ولذلك كان ما يروى من الشعر لبعضهم في هذه الحقبة من تاريخنا ، وكذا في معظم القرن الثاني لا يخرج عن مرام سياسية ومراجعات بين قوّاد حربيين .

انظر إذا شئت إلى قول أبي الخطار الحسام بن ضرار ، المتوفى سنة 131هـ ، من قبيلة كلب ، المتوطنين بإفريقية ، من القبائل اليمنية ، أنصار بني أميّة على الزبيريين ، يستعدى الخليفة الأموي هشاماً بن عبد الملك على عبيدة السلمي أمير إفريقية ، وهو قيسي ، أي من أنصار عبد الله بن الزبير لما حبسه عبيدة السلمي المذكور ، فقال

يحرك حمية الخليفة هشام بهذه الأبيات :

أفأتم بني مروان قيساً دماءنا وفي الله إن لم تنصفوا حكم عدل
كأنكم لم تشهدوا يوم راهط ولم تعلموا من كان ثم له الفضل
تغافلتم عنّا كأن لم نكن لكم صديقاً وأنا ما رضيتم لنا فعل

فلما بلغ هذا الشعر الخليفة هشاماً عزل عبيدة السلمي وأولى عبيد الله بن الحبحاب فأفرج عن أبي الخطار .

وهذا الأغلب بن سالم بن عقال التميمي المتوفى سنة 150هـ .وكان أمير إفريقية من قبل الخليفة هارون الرشيد ، ثار عليه الحسن بن حرب المتوفى سنة 150 هـ أيضاً ، وهو من قوّاد الجيش العربي بإفريقية ، فخاطبه يحرّضه على الرجوع إلى الطاعة ويخوّفه عاقبة الفرقة بقوله من رسالة وجّهها إليه :

ألا مَن مُبلغ عنّي مقالاً يسير به إلى الحسن بن حرب
فإن الحرب أبعده وبال عليك وقربه لك شرّ قرب
فإن لم تدعني لتنال سلمي وعفوي فادن من طعن وضرب

فأجابه الحسن بن حرب بقوله :

ألا قولاً لأغلب غير سر مغلغلة عن الحسن بن حرب
فإن الموت بينكم وبيني وكأس الموت أكره كل شرب
رويدكم فيومكم ويومي وإن بعدا مصيرهما لحرب

أما سوى ذلك من أغراض الشعر فلم يخوضوا لججه إلاّ نادراً كقول الأمير الأغلب ابن سالم المذكور متشوقاً إلى أم ولده :

ما سرت ميلاً ولا جاوزت مرحلة إلاّ وذكرك يثني دائماً عنقي
ولا ذكرتك إلاّ بتّ مرتقباً أرعى النجوم كأن الموت معتنقي

ومعظم شعراء هذا العصر من العرب الوافدين على القطر الإفريقي ومن أبنائهم ،

أما سكانه الأصليون وهم البربر فلم تستعرب ألسنتهم إذ ذاك بل بعد جيل أو جيلين لما امتزجوا بالعرب الوافدين وأبنائهم أولاً ، ثم بهجرة ناشئتهم إلى المشرق لطلب العلم والتفقّه في الدين ثانياً فحينئذ استعربت ألسنتهم ، وانطلقت بقول الشعر ، ورموا في مختلف أغراضه بسهم سديد ، وذلك في العصر الموالي لهذا العصر من عصور الأدب بهذه البلاد .

أما حالة العلم فيها بهذا العصر فكان لأبنائها ولوع واستعداد للتبحّر فيه عظيمَان خصوصاً علوم الشريعة حتى أن العلامة ابن فرحون في كتابه الديباج : نقل أن إمام دار الهجرة مالك بن أنس كان يقول : أهل الذكاء والذهن والعقل من أهل الأمصار ثلاثة : المدينة ثم الكوفة ثم القيروان . ا هـ

وقد برع منهم في علوم الشريعة فحول زانوا إفريقية في عصرهم نذكر منهم عبد الرحيم بن أشرس ، سمع مالكاً ، وكان من أكابر أصحابه : وروى عنه ابن القاسم ، وابن وهب ، وعلي بن زياد المتوفى سنة 183 هـ، كان علماء القيروان إذا اختلفوا في مسألة كتبوا إليه بها وهو بتونس ليعلمهم الصواب فيها ، وقال سحنون فيه : لم يكن بإفريقية ولا في عصره أفقه منه . والبهلول بن راشد من الطبقة الأولى من أصحاب مالك ، سمع منه ، ومن الثوري ، والليث بن سعد ، كان غزير العلم توفي سنة 183هـ، وغيرهم رحمة الله عليهم .

أما حالة البلاد التونسية في هذا العصر ، أي منذ الفتح الإسلامي العربي إلى أن استقل بها الأمراء الأغالبة استقلالاً داخلياً من قبل الخلافة الأموية ثم العباسية سنة 184 هـ، من ناحيتي السياسة وإجراء العدالة ، وناحيتي التجارة والصنائع ، فإليك ما ذكره الوالد في شأنها في كتابه « **حسن البيان عمّا بلغته إفريقية في الإسلام من السطوة والعمران** » .

قال رحمة الله عليه : « إن الجيش العربي في هذا العصر كان منقسماً إلى فرق تحتلّ مراكز هامة في أمهات البلاد كطرابلس وقابس والقيروان والزاب وتونس وسواها . كل فريق له وظيفة يقوم بها هي حراسة البلاد التابعة لمركزه ، ولها أمير ينظر في أحوال الجند وأعمالهم ويعرف عند العرب بـ « والي الحرب » ، وآخر يعرف بـ « والي الخراج » ، ينظر في مصالح السكان العامة ، وكل مستقل بولايته لا نظر للآخر عليه .

ونظر الجميع يرجع إلى أمير إفريقية المتولي من قبل الخليفة ، وهو الذي يوليهم ، أي ولاة الحرب والخراج باختياره . والغالب أن كل والٍ يستعين بذوي قرابته وصنائع من قبيله وعتقائه ، يعضدونه في أمره ، يولي منهم في الأعمال ، ويتّخذ منهم قوّاداً على الجنود وهو طبيعي في الأمراء بكل عصر ، والعذر لهم في ذلك ، وهو الأولى لهم إذا تحرّوا المستأهلين لذلك ، كما له ولاية شرطته والحرس والكتابة والحجابة . فيقدمون لها من يأتمنونه ويثقون به .

وبإفريقية خطط سلطانية أخرى هي مثل الموجودة في المشرق بلا فرق مثل ولاية البريد والأخبار ، غير أن والي هذين الأخيرين يولى من قبل الخليفة وهو يولي من ينوبه في كل بلد من البلاد التابعة للخلافة ليقع إعلام الخليفة بسرعة . وقصة صاحب البريد والأخبار بشأن روح بن حاتم للخليفة هارون الرشيد وإرسال نصر إليه يدل على أن ولايته من قبله .

ومثلها ولاية القضاء فإنها تصدر من لدن الخليفة ، ويدل له أن عبد الرحمان ابن أنعم . أولاه الخليفة المنصور قضاء إفريقية ، ومثله القاضي عبد الله بن غانم أولاه الخليفة هارون الرشيد قضاء إفريقية أيضاً سنة 170 هـ .

وبالجملة فليس لأمير إفريقية سوى النظر في ولايتي خراجها وحربها فهو الواسطة بين سكان البلاد والخليفة ، وليس له ولاية غير ذلك .

أما القضاء ، فإن المسلمين يحكم بينهم قضاتهم في جميع أنواع النزاع ولا تداخل لأمير ولا لغيره في مسائل القضاء . وأحكامهم تمضي على الشريف والوضيع وليس لهم إلّا تنفيذها ، فكان للمسلمين قاضٍ في كل مركز كتونس وباجة وقابس والجزيرة وقسطيلية ينيبهم قاضي القيروان عاصمة البلاد إذ ذاك عنه بانتخابه . ونظرهم إذ ذاك راجع إليه ، وأولئك القضاة لهم نظر مطلق في فصل جميع القضايا ، وتعاطي كل متجانف عن الحق ، وتغيير كل منكر ، والاحتساب المطلق ، عدا القصاص في الجروح فتنفيذه للأمراء بعد عرضه عليهم ، وليس للأمراء إلّا التنفيذ . والناس إذ ذاك ذوو أخلاق فاضلة ، وتربية إسلامية خالصة ، قلما يحتاجون في قطع النزاع النازل بين متداعيين إلى مراجعة القضاة ، بل إنهم يسارعون من تلقاء أنفسهم إلى المناصفة .

أما أهل الذمة والعهد فالقضاء بينهم موكول إلى أساقفتهم وأحبارهم ، حاشا ما

إذا كان النزاع بين مسلم وذمي فتداعيهما يكون لدى القاضي ، فيجد الذمي من العدل ما يجده المسلمان في ترافعهما لديه حسبما أمرت به الشريعة المطهرة في مثل تلك المسألة من غير نظر للدين والنسبة . أما إذا اختارا الترافع إلى حكامهما فيجدون مساعدة أولى الأمر منا في حملهم على الانقياد لرؤسائهم لأن غرض الشريعة المطهرة قطع النزاع بين جميع الناس وإيصال الحقوق لأربابها ، وهذا الطريق أقرب حصولاً لبسط الأمن .

وقضاة المسلمين تعطى لهم أرزاق من بيت المال ، وكثير منهم من يحتسب في قيامه بفصل القضاء ، ويراه قربة ، لأن القيام به فرض كفائي فلا يأخذ عليه شيئاً ولو من بيت المال ، كما هو في تراجم كثير من قضاة السلف رضي الله عنهم .

أما الصنائع في هذا العصر فهي صنائع المملكة الرائجة في زمن الروم لبقاء رواجها ؛ فإن من محاسن ملكة العرب استعمال كل ما يجدونه في الأرض التي يتغلبون عليها من مأكل ومشرب وملبس ، فتبقى صنائع وحرف تلك البلاد على ما كانت عليه قبل فتحهم من الرواج ، وينضم إلى ذلك بعض الصنائع التي تنقلها من بلد إلى بلد لاتساع ممالكهم ، وذلك من أنجع أسباب التحام الأمم بهم .

أما البناء وما يتبعه من النحت والنجارة ، فآثاره تنبيك عن أخباره ، هذه بناءات تلك العصور شاهدة بمَا لهم من الإتقان ، فإن جامع الزيتونة بتونس وجامع القيروان ، مؤسس الأول منهما حسان بن النعمان ومتمّمه عبيد الله بن الحبحاب . ومؤسّس الثاني عقبة بن نافع وإن كان للأغالبة تحسين فيهما . وعلى كل حال فهما بناءان ضخمان يدلان على ما للعرب من حسن الهندسة وإتقانها .

وأما الحرف فشيوعها بإفريقية ، وكذا الصنائع فما يدلّ عليه دلالة واضحة أن ملك الروم كان طلب من محمد العكي أمير إفريقية من قبل الخليفة هارون الرشيد إرسال الحديد والنحاس والسلاح إليه من إفريقية ما ذلك إلّا لوفرة هذه الأمور عن حاجة أهل إفريقية ، وهو يستلزم شيوع حرفها بينهم وشدّة حاجة بلاد الروم إليها . وهو يشخص الفرق الواضح في ذلك بين البلدين إذا ذاك .

أما الفلاحة ، فقد ذكروا أن باجة وحدها كان يخرج منها كل يوم ألف حمل من الطعام ، وكان يستخرج من قابس الحرير الذي لا نظير له ، حتى أن النساء كن يشترطن في مهورهنّ كمية من حرير قابس مع ما يشترطن من الذهب والجوهر لنفاسته

وجودته ، إلى غير ذلك .

وأما التجارة فهي نافقة ، يجوب العرب وسائر الأفارقة ببضائع المشرق والمغرب دواخل السودان ودواخل إفريقية ، ويُمَهّدون طرقها للأمن على متاجرهم ويخوضون بها البحار ، حتى أنهم ربمّا أشهروا حروباً على صقلية وعلى غيرها لتعرّضهم للتجار في البحر .

أما بسط الأمن فهو عام بين السكان إلّا ما جرته الفتن في بعض الأزمنة للخلاف على الأمارة ، ومع ذلك فعامة السكان متمتعون بالأمن على النفوس والأعراض والأموال ، فاتجاه الخوف إنمّا هو نحو ولاة الأمور وجنودهم القائمين بتأييدهم . ومهما ظفر أحد الفريقين إلّا وبذل شفقته وأمانه لعموم السكان كما دلّت على ذلك الحروب الواقعة خلال هذه المدة السابقة عن الدولة الأغلبية .

هذا ما تحرر لدى مؤلّف كتاب التاريخ المسمّى **حسن البيان** رحمه الله في حال إفريقية من الفتح الإسلامي العربي إلى تأسيس الدولة الأغلبية سنة 184 هـ

هذه حال البلاد التونسية أثناء العصر الأول من عصور الأدب العربي بها . وفيمّا يلي طائفة من رجاله ، أي رجال الأدب في هذا العصر وقد استهلهم المؤلف رحمه الله لصاحب الترجمة الآتية تبرّكاً به وإن لم يكن إفريقياً فقال :

1 – عبد الله بن الزبير بن العوام القرشي

رضي الله تعالى عنه

بسط ترجمته يستدعي تطويلاً ، ولنقتصر منها على جمل تبرّكاً .

هو أول مولود ولد للمسلمين بعد الهجرة . نشأ بالمدينة المنوّرة مستمِدًّا من أنوار مشكاة النبوة ، فكان عالماً جليلاً ، وشجاعاً نبيلاً .

دخل إفريقية وحضر فتوحها مع الأمير عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وكان قتل جرجير ملكها بسيفه ، ونفّله عبد الله بن سعد ابنة جرجير وفاء بوعده لمن يقتله مثل ما وعد جرجير به قومَه أنّ مَن قتل منهم عبد الله بن سعد زوّجه بها وأشركه في ملكه .

وغزا عبد الله ابن الزبير إفريقية مرة أخرى مع الأمير معاوية بن حديج ووجه عبد الله لدفع الروم عن سوسة لما بلغه نزول أسطولهم بها . ونزلوا إلى البر في ثلاثين ألفاً فقاتلهم وهزمهم ، فابتدروا مراكبهم وانقلبوا إلى بلدهم منهزمين .

بويع بالخلافة في الحجاز وانتشرت دعوته إلى العراق ومصر ، ثم نازعه الأمر عبد الملك بن مروان إلى أن قتل بمكّة المشرفة سنة 73 هـ

وهو أول من ضرب السكة الإسلامية ، كتب على وجه (بركة الله) وعلى الآخر (اسم الله) وذلك سنة 70 هـ وكان شاعراً .

ومن شعره ما قاله في ابنة الملك جرجير ، وقد بلغه أنها كانت أشرفت[1] على معسكر[2] العرب قبل الحرب ، فاستقلتهم واستضعفتهم ، فطلبت من أبيها جرجير أن يمنحها إياهم عبيداً ولا يسرع في قتلهم ، فمنحها إياهم . ثم أسفر الأمر على ما أسفر من قتله والاستيلاء على مدينته سبيطلة يذكّرها ذلك ، وهو :

يا ابنة جرجير تلقي منحتك ... لقيت بالمنحة ثكلى أبتك
لتأخذن في الطريق عقبتك ... وتحملن من قباء قربتك[3]
إن عليك بالحجاز ربتك[4]

ومن نثره ما خطب به يصف موقعة سبيطلة وانتصار المسلمين فيها ، قال الوالد رحمه الله في تاريخ **حسن البيان**[5] ما نصّه :

ولمّا تمّ الانتصار ، وجّه الأمير عبدالله بن سعد بشارة الفتح للخليفة الثالث سيدنا عثمان بن عفّان عبد الله بن الزبير قال له : أنت أولى من يتوجّه بخبر الفتح ، خصّه بذلك لأنه الموجه من جهة الخليفة لإبلاغه خبر الجيش . قال : فركب نجيباً ، فبلغ المدينة المنوّرة في عشرين ليلة من سبيطلة ، وكان سنه بضعة وعشرين سنة ، فلما أخبر الخليفة بخبر الفتح وقصّ عليه ما كان أمره أن يخبر الناس بذلك بمحضره ، فأمر الخليفة باجتماع الناس في المسجد ، فاجتمع الناس لتلقي هذا الخبر : فرقى الخليفة

(1) اي اطلعت عليهم .
(2) أي محل إقامة العسكر .
(3) عقبتك : هي النوبة في المشي .
(4) أي سيدك .
(5) هو كتاب حسن البيان عما بلغته افريقية في الاسلام من السطوة والعمران .

الثالث المنبر وصعد عبد الله بن الزبير ، فقام إلى جانبه ، فحمد الخليفة الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : أيها الناس ، إن الله قد فتح عليكم إفريقية ، وهذا عبد الله بن الزبير يخبركم خبرها إن شاء الله وسكت ، فقال عبد الله بن الزبير :

الحمد لله الذي ألف بيننا بعد الفرقة ، وجعلنا متحابين له بعد البغضة ، الذي لا تجحد نعماؤه ، ولا يزول ملكه ، له الحمد كما حمد نفسه ، وكما هو أهله ، انتخب محمداً صلّى الله عليه وسلّم ، واختاره بعلمه ، وائتمنه على وحيه ، واختار له من الناس أعواناً قذف في قلوبهم ، تصديقه ومحبته ، فآمنوا به وعزّزوه ، ووقّروه ونصروه وجاهدوا في الله حقّ جهاده ، فاستشهد الله منهم من استشهد على المنهاج الواضح ، والبيع الرابح ، وبقي منهم من بقي لا تأخذه في الله لومة لائِم .

أيها الناس ، إنّا خرجنا للوجه الذي علمتم ، فكنّا مع والٍ حافظ حفظ وصاية أمير المؤمنين ، فكنّا مع خير والٍ ولي فحمد ، وقسم فعدل ، لم نفقد من برّ أمير المؤمنين شيئاً . كان يسير بنا البردين ، يخفض بنا في الظهائر ، ويتخذ الليل جملاً ، يعجل الترحل من المنزل القفر ، ويطيل اللبث في المنزل الخصب الرحب ، فلم نزل على أحسن حالة يتعرّفها قوم من ربّهم حتى انتهينا إلى إفريقية ، فنزلنا بها حيث يسمعون صهيل الخيل ، ورغاء الإبل ، وقعقعة السلاح ، فأقمنا أياماً نجم كراعنا ، ونصلح سلاحنا ، حتى دعوناهم إلى الإسلام والدخول فيه ، فأبعدوا فسألناهم الجزية عن صغار والصلح ، فكانت هذه أبعد ، فأقمنا فيهم ثلاث عشرة ليلة ننتظرهم ، وتختلف رسلنا إليهم ، فلما يئس منهم قام خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر فضل الجهاد ، وما لصاحبه إذا صبر واحتسب ، ثم نهد إلى عدوه فقاتلناهم أشدّ القتال يومنا ذلك ، فكان بيننا وبينهم مقتلة كبيرة ، واستشهد الله رجالاً من المسلمين ، وباتوا وبتنا وللمسلمين دوي كدوي النحل بالقرآن ، وباتوا في ملاهيهم وخمورهم ، فلما أصبحنا أخذنا مصافنا كالذي كنّا عليه بالأمس ، فزحف بعضنا إلى بعض ، فأفرغ الله علينا الصبر ونصرنا ، ففتحناها من آخر النهار ، فأصبنا مغانم كثيرة ، وفيئاً واسعاً ، فتركت المسلمين قد قرّت أعينهم ، وأغناهم النفل ، وأنا رسوله إلى أمير المؤمنين أبشّره وإياكم بمّا فتح الله من البلاد ، وأذل من الشرك ، فاحمدوا الله عباد الله على آلائه ، وما أحل بأعدائه من بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين ، ثم سكت . ا هـ

2 – أبو الخطّار الحسام بن ضرّار الكلبي أمير الأندلس

كان شريفاً في قومه من سادات بني كلب المتوطنين بإفريقية . نشأ في عزّ ومجادة ، فصيحاً بارعاً ، رئيساً شجاعاً ، ولي بإفريقية ولايات كبيرة في أيام بشر بن صفوان أميرها ، فلما ولي عبيدة السلمي إفريقية ، نكّل به وحبسه فيمن حبس من رجال بشر بن صفوان على خراج البلاد ، وكان عبيدة قيسياً[1] وأبو الخطّار يمانياً وهم شيعة بني أمية وأنصارهم في حرب عبد الله بن الزبير وجنده يوم راهط[2] . وقيس أنصار ابن الزبير فيه ، فقال أبو الخطّار شعراً يحرّك به حمية الخليفة هشام بن عبد الملك ، فلما بلغ الشعر الخليفة عزل عبيدة السلمي عن إفريقية وأولى عبيد الله ابن الحبحاب – رجلاً من الموالي[3] – إرضاءً للطائفتين ، فأفرج عن أبي الخطّار . ثم تقلّب الحال به إلى أن ولي إفريقية حنظلة بن صفوان ، فبعث أبا الخطار أميراً على الأندلس من قبله[4] ، وكانت إمارة تابعة لإفريقية ، فساسها ، وكانت له حروب وغزوات شهيرة . ثم تعصب على قيسية الأندلس ، فثار عليه الجند وخُلع . وأفضى الأمر إلى حروب داخلية بسبب ذلك آلت إلى قتله أخيراً سنة 131 هـ

والشعر الذي قاله وكاتب به الخليفة من محبسه[5] بالقيروان هو :

أفأتم بني مروان قيساً دماءنا ... وفي الله إن لم تنصفوا حكم عدل
كأنكم لم تشهدوا يوم راهط ... ولم تعلموا من كان ثم له الفضل
تغافلتم عنّا كأن لم نكن لكم ... صديقاً وأنا ما رغبتم لنا فعل

3 – الحسن بن حرب الكندي

كان من قوّاد الجند بإفريقية ، وكان مقرّه تونس ، وكان شجاعاً مقداماً ، عالماً

---

(1) أي من بني قيس .
(2) اسم موضع قرب الشام .
(3) أي عتقاء العرب .
(4) أي جهته .
(5) أي محل حبسه .

بقيادة الجنود ، فصيحاً شاعراً ، ثار على الأمير الأغلب ابن سالم أمير إفريقية حين خرج لقتال أبي قرة الصفري الخارجي ، فهرب أبو قرة إلى المغرب فأراد الأمير الأغلب أن يسير إليه إلى المغرب لمناجزته ، وخالفه القواد ، فكاتب الحسن قواد الجند في الثورة به ، وثار هو فيمن على رأيه ، وقصد القيروان ، فاستولى عليها ، وبلغ الأغلب ذلك ، فرجع يجدّ السير لمداركة الأمر ، وكاتب الحسن يعرّفه بحسن الطاعة ، ووبال شقّها ، فأعاد إليه الجواب يتهدّده ، وكتب في آخره من شعره :

ألا قولا لأغلب غير سرّ ... مغلغلة عن الحسن بن حرب[1] .
بأن الموت بينكم وبيني ... وكأس الموت أكره كل شرب
وأن البغي مرتعه وخيم ... عليك وقربه لك شر قرب
فإن لم تدعني لتنال سلمي ... وعفوي فادن من طعن وضرب
رويدكم فيومكم ويومي ... وإن بعدا مصيرهما لحرب

فلما وصل جند الأمير الأغلب انهزم الحسن إلى تونس بعد قتال ، ثم عاد إلى القيروان بجموع كثيرة ووقع المصاف[2] بينه وبين الأغلب ، فأصاب الأغلب سهم فمات ، وحمل بعض قواد الاغلب على الحسن فانهزم إلى تونس ، فوجهت خيل خلفه من القيروان فهرب من تونس ، واستقبح الناس فعلته ، ثم بعد أربعة أشهر رجع إلى تونس ونزل بقربها ، فخرج إليه رؤساء جندها فقبضوا عليه وقتل سنة 150 هـ

4 – الأمير الأغلب بن سالم بن عقال التّميمي

نشأ بإفريقية ، وأخذ العلم عن علمائها ، ورحل إلى المشرق ، وسمع من الليث بن سعد .

ثم رجع إلى إفريقية فعلا أمره ، وولي على الزاب ، وهو الجريد . ولما ثار الجند

(1) مغلغلة : محمولة من بلد إلى بلد .
(2) هو محل تقابل الجيشين .

على محمد العُكّي[1] أمير إفريقية وأخرجوه من القيروان أقبل بجنوده من الزاب وهزم الثوّار وأعاد محمداً العكّي إلى إمارته ، ثم أولاه الخليفة الرشيد إفريقية بعد العكي استقلالاً .

وكان فقيهاً أديباً ، شاعراً خطيباً ، ذا نجدة ورأي ، وحزم وبأس ، وعلم بالحروب ومكائدها ، جريء الجَنان ، لم يل إفريقية أحسن منه سيرة ولا سياسة ، ولا رأفة بالرعية ، ولا أوفى بعهد ، ولا أرعى لحرمة منه ، فطاعت له قبائل البربر ، وتمَهدت إفريقية في أيامه .

توفي في مقاتلته للحسن بن حرب الثائر عليه سنة 150هـ، ودفن بالقيروان . ومن شعره يتشوق لأم ولده حلاحل ، وقد خلفها بمِصر :

ما سرت ميلاً ولا جاوزت مرحلة إلّا وذكرك يثني دائمًا عنقي
ولا ذكرتك إلا بتّ مرتقباً أرعى النجوم كأن الموت معتنقي[2]

5 – أبو البقا عبد الرحمان بن زياد بن أنعم المعافري

أُول مولود وُلد للعرب بإفريقية سنة 94 هـ، وهم داخلون لفتحها مع الأمير حسان بن النعمان بعد مقتل عقبة بن نافع واستيلاء كسيلة[3] بن لزم عليها . فنشأ عبد الرحمان في طلب العلم ورواية الحديث النبوي حتى صار من المحدّثين والعلماء المتقدّمين ، ذا ورع وزهد ، وله الباع في العلوم العربية ، شاعراً .

رحل إلى المشرق فأخذ عن عبد الله بن المبارك تلميذ الإمام مالك وأضرا به ، وروى عنه جماعة من أهل القيروان مثل البهلول بن راشد ، وانتفعوا بعلمه .

وفد إلى المشرق على الخلفاء مراراً في مهام إفريقية ، منها على الخليفة هشام ، ومنها على الخليفة المنصور ، فقال له المنصور : كيف رأيت ما وراء بابنا؟ قال :

---

(1) منسوب لعَك قبيلة .
(2) نسبها ح. ح. عبد الوهاب في المنتخب المدرسي إلى إبنه إبراهيم ، وعده من الشعراء ، وترجم له فليحرر . وكذلك المؤلف نفسه في حسن البيان .
(3) ملك بربري اسلم ثم ارتدّ وقتل عقبة بن نافع وملك إفريقية .

رأيت ظلماً فاشياً ، وأمراً قبيحاً . قال له أبو جعفر المنصور : لعله فيما بعُد عن بابي ؟ قال : بل كلما قربت استفحل الأمر وغلظ . قال : ما يمنعك أن ترفع ذلك إلينا وقولك عندنا مقبول ؟ قال : رأيت السلطان سوقاً وإنما يرفع[1] إلى كل سوق ما ينفق فيها . فبكى لها أبو جعفر ثم قال : كأنك كرهت صحبتنا ؟ فقال : ما يدرك المال والشرف إلّا من صحبتكم ، لكني تركت عجوزاً وإني أحب مطالعتها (يعني أمه) .

ولي قضاء القيروان مرّتين : إحداهما للخليفة مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية . والثانية لأبي جعفر المنصور ، ولم يزل قاضياً إلى أيام يزيد بن حاتم . ثم سلّم وسكن تونس مستوطناً إلى أن توفي في رمضان سنة 161 هـ.

ومن شعره كاتب به ولده وخاصة بلده وهو راجع من عند الخليفة المنصور يتشوّق للقيروان :

ذكرت القيروان فهاج شوقي وأين القيروان من العراق
مسيرة أشهر للعيس نصا وللخيل المضمرة العتاق[2]
فأبلغ أنعمًا وابني أبيه ومن يرجو لنا وله التلاق
فإن الله قد خلّى سبيلي وجد بنا المسير إلى مزاق

ومزاق : اسم لفحص القيروان ، سمّاه العرب بذلك لتمزّق السحب فيه .

6 - الأمير يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلّب الأزدي

كان رئيساً شريفاً ، جواداً كبير الهمّة ، شجاعاً ، بعيد الصيت ، نافذ الرأي ، من رجال الدولة العباسية . لما ثار البربر على عمر بن حفص أمير إفريقية وحاصروه بالقيروان ستة أشهر وجهه الخليفة المنصور لفكّ حصاره في ستين ألفاً ، وأولاه إمارة إفريقية ، فبلغها سنة 155 هـ، وبعد وقائع مع البربر انهزموا ، وقتل أميرهم أبا حاتم يعقوب الخارجي ، وقطع الفتنة من إفريقية ، ولما ولي إفريقية ، وكان أخوه روح

(1) يريد أنه لا يقبل النصح .
(2) العيس : هي الابل . نصا : نوع من سير الابل .

والياً على السند ، قال بعض الوزراء للخليفة المنصور : لقد باعدت بين قبريهما يا أمير المؤمنين ، فأقام والياً على إفريقية بأحسن سيرة إلى أن توفي في 22 رمضان سنة 170 هـ، ودفن بمقبرة باب سلم من أبواب القيروان . ثم ولي أخوه روح بعده ومات ودفن معه في قبر واحد ، فعجب الناس من ذلك .

وكان يزيد جواداً قصدته الشعراء من المشرق ، منهم مروان بن أبي حفصة الشاعر المشهور ومدحه بقوله :

إليك قصرنا النصف من صلواتنا   مسيرة شهر ثم شهر نواصله
فلا نحن نخشى أن يخيب رجاؤنا   لديك ولكن أهنأ البرّ عاجله

فأجازه بخمسين ألف درهم ، وأعطى للجند أعطياتهم[1]. وقال لهم : من أحبّني يعطي هذا الشاعر درهماً ، فاجتمع له خمسون ألف درهم من الجند ، فرجع إلى بلده بمائة ألف درهم ، وقصده ربيعة بن ثابت الشاعر المشهور ومدحه بقصيدته التي منها :

حلفت يميناً غير ذي مثنوية   يمين امرىء آلى وليس بآثم
لشتان ما بين اليزيدين في الندى   يزيد سليم والأغر ابن حاتم
فهَمّ الفتى الأزدي إتلاف ماله   وهمّ الفتى القيسي جمع الدراهم

ومن أخبار يزيد بالقيروان أن بعض وكلائه زرع فولاً كثيراً في بعض رياض الأمير يزيد . فلما علم بذلك قال له : أتريد أن أُعَيَّر بالبصرة ؟ فيقال : يزيد بن حاتم باقلاني[2] ، ثم أمر بأن يباح للناس .

وخرج الأمير يزيد يوماً من القيروان فمرّ ا يقه بغنم كثيرة ، فسأل عنها ، فأخبر أنها لابنه ، وكان في صحبته ، فزجره عنها ، وأمره بذبحها وأن تباح للناس ، فانتهبها الناس وأكلوها وجعلوا جلودها في كدية هناك ، فهي إلى الآن تعرف بكدية الجلود . وأظن أن ذلك منه حسن نظره بالعامة حتى لا تزاحمهم أرباب الدولة والشوكة في فلاحتهم وتجارتهم ومثله من يقصد ذلك .

---

(1) أي مرتباتهم .
(2) أي الذي يبيع البقل .

ومن شعر الأمير يزيد يتمدّح بالكرم :

لا يألف الدرهم المضروب صرتنا　　لكن يمرّ عليها وهو منطلق
إني امرؤٌ لم يحالف صرتي الورِق[1]　　يمرّ مرًّا عليها وهي تلفظه

7 – عبيد الله بن يزيد بن أبي حسان اليحصبي القروي

ولد سنة 140هـ، وكان أبوه من أشراف إفريقية ، فنشأ في عزّ أبيه وكرم بيته ، وكان يسكن بحارة يحصب بمدينة القيروان ، وطلب العلم فتفقّه وتأدّب ، فكان عالماً شجاعاً ، له اليد البيضاء والبلاء الحسن في حروب خوارج البربر .

وولي مدينة الأربس مدينة قرب الكاف دثرت الآن .

وله رحلة إلى إمام دار الهجرة مالك رضي الله تعالى عنه ، فأخذ عنه ثم رجع إلى القيروان .

وكان ثقةً مأموناً ، فأخذ الناس عنه ، منهم سحنون بن سعيد ، وكان لا يهاب الملوك . دخل يوماً على الأمير الأغلبي فإذا الجعفري والعنبري يتناظران في القرآن فقال الجعفري وكان سُنّيًّا : هذا شيخنا أبو محمد (يعني ابن أبي حسان) ، يعينني عليكم . فقال ابن أبي حسان للعنبري : ما أنت وذا ؟ هذا بحر عميق عليك ، فقال العنبري وكان عراقياً[2]: إن كان أبو محمد معك فالأمير معي ، فقال ابن أبي حسان : ما للملوك والكلام في الدين ! فأحفظ[3] ذلك الأغلب . ولما ثار الجند على زيادة الله ابن الأغلب أغاروا على منازل ابن أبي حسان ونهبوها وطلبوه فاختفى . وكان سيء[4] الرأي فيهم . فقال في ذلك شعراً وكان شاعراً :

أباح لعمري الجند ظلماً حريمنا　　وشقّوا عصا الإسلام من كل جانب
وخانوا وثاروا في البلاد سفاهة　　وظنوا بأن الله غير معاقب

---

(1) هو الفضة .
(2) أي يقول بخلق القرآن .
(3) اي أغضبه .
(4) أي لا يبرر فعلهم .

وما عجب بعض الأعاجم يظلموا نزاراً وقحطان الكرام المناسب
ولكن من قوم إلينا اعتزاؤهم فنوذي وهم فينا لإحدى العجائب

فلما سمع بذلك بنو يحصب أجاروه لنسبه فيهم ، فلما ظفر زيادة الله بالقيروان جمع العلماء وسألهم عن حال الجند الثائرين عليه ، فعرفوه ما في العفو ورغبوه فيه ، فقال ابن أبي حسان : العفو مفسدةٌ «ولا يلدغ المؤمن من جحر مرّتين»[1]، وأنشد زيادة الله من شعره يحرضه عليهم :

من لم يؤدّبه الجميل ففي عقوبته صلاح

فقال أبو محرز القاضي : العفو أقرب للتقوى . وقال لابن أبي حسان : من أجل شويهاتك ورميكاتك[2] تستحل دماء المسلمين . ووجد العراقيون سبيلاً للتشنيع به عند العامة بما أشار به ، فسقطت منزلته عند العامة والجند ، وعمد كل من كتب عنه علماً إلى تقطيع بطائقه وإلقائها على باب دار ابن أبي حسان ، فأصبح على داره منها شيء كثير . وقال العلماء : إن مراده أهل الإفساد وسفك الدماء ، وفي زجر أمثالهم إقامة للحدود ولم يرد عامة الجند .

توفي بالقيروان سنة 187 هـ

وفي **الديباج المذهب** ، لابن فرحون أنه توفي سنة ست أو سبع وعشرين ومائتين هـ، وسمّاه عبد الله بن أبي حسان اليحصبي ، وذكر في ترجمته أنه رحل إلى مالك فأخذ عنه ، وكان مكرماً عنده حتى كان مالك يقول : أهل الذكاء والذهن والعقول ثلاثة : المدينة ، ثم الكوفة ، ثم القيروان .

وقال ابن وهب : ما رأيت مالكاً أميل إلى أحد منه إلى ابن أبي حسان .

وقال تلميذه سحنون : كنت أول طلبي إذا انغلقت على مسألة من الفقه آتي ابن أبي حسان فكأنّما في يده مفتاح لما انغلق ثم قال إنه كان غاية في الفقه بمذهب مالك، حسن البيان ، عالماً بأيام العرب وأنسابها . راوية للشعر ، قائلاً له ، وعنه أخذ الناس أخبار إفريقية وحروبها . وكان جواداً مفوّهاً . قوياً على المناظرة ، ذابّاً عن السنّة ، شديداً على أهل البدع ، قليل الهيبة للملوك ، لا تأخذه في الله لومة لائم . اهـ . المراد .

---

(1) هو لفظ حديث شريف .
(2) أي أفراسك .

8 – تمام بن تميم التميمي

كان في سنة 183هـ عاملاً على تونس من قبل أمير إفريقية محمد بن مقاتل العكي ، فلما أساء العكي السيرة مع الجند والرعية ، ثار تمام عليه وجمع ما معه من الجند ومن رأى رأيه في التوثّب عليه لسوء سيرته ، وسار إلى القيروان حتى استولى عليها . واضطر العكي إلى مغادرة إفريقية ، والذهاب إلى طرابلس ، لكن إبراهيم بن الأغلب لمّا بلغه ذلك ، وكان عاملاً على الزاب ، أي الجريد ، من قبل العكي ، خرج من تونس في جمع عظيم إلى القيروان لمقاتلة تمام ليتخذ يداً عند الخليفة هارون الرشيد بنصره عامله على إفريقية ، وبعث إلى العكي يعلمه بذلك ويؤكد عليه الرجوع إلى إفريقية ، فرجع إلى القيروان ، ولما بلغ خبر ذلك إلى تمام رجع إلى تونس وكتب إلى العكي رسالة يقول فيها :

أما بعد ، فإن إبراهيم بن الأغلب لم يبعث إليك ليردك من كرامتك عليه ، ولا للطاعة التي يظهرها للخليفة ولكن كره أن يبلغ إليك أخذه للبلاد فترجع إليه ، فإن منعك كان مخالفاً لأمير المؤمنين ، وإن دفعها إليك كان ما فعله لغيره فبعث إليك لترجع ثم يسلّمك للقتل ، وغداً تعرف ما جرّبته من وقعتنا بك بالأمس ، وفي آخر كتابه يخاطبه بقوله :

وما كان إبراهيم من فضل طاعة ... يرد عليك الملك لكن لتقتلا
فلو كنت ذا عقل وعلم بكيده ... لما كنت منه يا ابن عك لتقبلا

9 – محمد بن مقاتل بن حكيم العكي

كان أخاً للخليفة هارون الرشيد من الرضاع ، ولذا لما استعفى أمير إفريقية هرثمة ابن أعين من إمارتها أولاه هارون الرشيد أميراً عليها ، فسافر إليها سنة 181هـ، فتسلّم إمارتها ، ولما استقرّ بها لم يحسن السيرة في الجند ولا في الرعية ، فنفرته القلوب ، وكرهته النفوس ، وتمادى في سيرته حتى أنه تجرأ على عالم القيروان وعابدها الذي لا تأخذه في الله لومة لائم البهلول بن راشد فأمر بضربه ظلماً ، لأنه قيل له إنه يقع في

سلطانك واستضعفه ، فتحاشر الناس معه وزاده ذلك حنقاً عليه ، وأمر الجند بتفريقهم ، وأمر بتجريد البهلول وضربه بالسياط ، ففعل به ذلك . ورمى جماعة أنفسهم عليه فضربوا ، وضرب نحو عشرين سوطاً ، برئت تلك الأسواط إلّا واحداً نشأت عنه قرحة كانت سبب موته .

وأصل حقد هذا الأمير عليه أن الأمير العكي المذكور كان يهادي ملك الروم ، فوجّه إليه ملك الروم يطلب منه سلاحاً وحديداً ونحاساً يوجّهها إليه ، فلما أراد توجيه ذلك إليه عارضه البهلول في ذلك ، ووعظه قائلاً : إن ذلك لا يحلّ ، فكان ما صنعه هذا الأمير أعني العكي بالبهلول ، من أسباب ثورة تمام عامل تونس عليه ، فحشد له جمعاً عظيمًا سار بهم إلى القيروان ، وذلك في رمضان سنة ثلاث وثمانين ومائة 183هـ، فانهزم العكي وتحصن بداره إلى أن استولى تمّام على القيروان واضطر محمد العكي إلى مغادرة إفريقية ، فخرج منها راجعاً إلى المشرق . فلما وصل إلى طرابلس وبلغ إبراهيم بن الأغلب عامل العكي على الزاب ما جرى على أميره أراد أن يتخذ يداً عند الخليفة هارون الرشيد بنصر عامله على إفريقية ، فنهض من الزاب في جمع عظيم ، وسار إلى القيروان منكراً على تَميم ما فعله ، وبعث إلى العكي يعلمه بذلك ، ويؤكّد عليه أن يرجع إلى إفريقية ، فلما بلغ تميمًا ذلك رجع إلى تونس ، وكاتب العكي بما ذكرناه في ترجمته ، فلما بلغ كتابه العكي قرأه ودفعه إلى إبراهيم بن الأغلب فقرأه وضحك وقال : قاتله الله ضعف رأيه .

وكتب الأمير محمد العكي صاحب الترجمة إليه يقول : إلى الناكث ابن تميم ، أما بعد ، فقد بلغني كتابك ودلني على قلّة رأيك وفهمت قولك في إبراهيم ، فإن كانت نصيحة ، فليس من خان الله والخليفة مقبولاً منه ما نصح به ، وإن كانت خديعة ، فأقبح الخدائع ما فطن له ، وفي آخر كتابه يقول :

وإني لأرجو إن لقيت ابن أغلب   غداً في المنايا أن تفل وتقتلا
تلاقي فتى يستصحب الموت في الوغى   ويحمي بصدر الرمح عزاً مؤثلا

العصر الثاني
من عصور الأدب العربي بإفريقية

العصر الأغلبي

184 هـ – 296 هـ

لما استقرت قدم العرب الفاتحين بإفريقية ونشأت ناشئة من أبناء مسلمة البربر التحموا بأولئك العرب الفاتحين وبأبنائهم خلطة ومصاهرة ، وذهب من أولئك الناشئة إلى المشرق لتلقي علوم الدين واللغة العربية من منابعها الأصلية بالبلاد المشرقية بعد أن أخذوا جانباً منها لا يستهان به عن الفقهاء العشرة الذين أوفدهم على إفريقية الخليفة عمر بن عبد العزيز بطلب من أميرها إسماعيل ابن أبي المهاجر ، وذلك سنة 100هـ، وبذلك أخذ الشعر العربي في القطر التونسي تتنوع أغراضه ، واستبحر العلم فيه بمُختلف أنواعه ، فظهر في هذا العصر الزاهر أيمة فحول عدّ منهم الوالد في تاريخه **حسن البيان** في علمي الفقه والحديث أمثال : أسد بن الفرات المتوفى سنة 213 هـ صاحب **الأسدية** ، وسحنون بن سعيد صاحب **المدونة** المتوفى سنة 240هـ، وابنه محمد المتوفى سنة 256 هـ

وفي علوم القرآن : كأبي الأسود موسى بن عبد الرحمان بن جندب ، المعروف بمُوسى القطان صاحب **أحكام القرآن** في اثني عشر جزءاً المتوفى سنة 306هـ، وابن سلام صاحب تفسير القرآن ، وموسى السنجي التونسي المتوفى سنة 281هـ، الذي من تآليفه **كتابا الإمامة** . قال علماء عصره : إنه لم يؤلف مثلها في بابها حتى كتبا بمَاء الذهب ، ووجه بهما للخليفة في وقته .

وفي النحو واللغة والعلوم العربية ، أمثال : أبي الوليد عبد الملك بن قطن المتوفى سنة 255 هـ .

وفي الشعر أمثال : بكر بن حماد المتوفى سنة 296 هـ

وفي علم الأنساب مثل : أبي سهل فرات بن محمد العبدري ، كان أعلم أهل عصره بالأنساب وأعلم الناس بالناس .

وفي علم الحساب والنجوم مثل : محمد بن زرزور الفارسي القيرواني كان أعلم أهل إفريقية في الحساب والنجوم .

وفي علم الطب والنجوم أمثال : أحمد بن يحيى بن الطبيب ، وإسحاق بن عمران .

وفي علم التاريخ مثل : أبي العرب محمد بن أحمد بن تميم التّميمي المؤرخ . قال في شأنه ابن ناجي : إنه رافع لواء التاريخ بإفريقية ، وتاريخه سبعة عشر جزءاً ، توفي سنة 333هـ وهو ممن أخذ عن أصحاب سحنون . ذكروا في ترجمته أنه جال في أقطار إفريقية في طلب العلم ، فكان عدد من أخذ عنهم بها العلم من الشيوخ مائة ونيفاً وعشرين كما ذكر صاحب **معالم الإيمان** في ترجمة عبد الله بن غانم القيرواني المتوفى سنة 190هـ: إنه دخل عليه بعض أصحابه بعد انصرافه من صلاة الجمعة وقال له : حضرت الجامع اليوم ، قال : كيف رأيت ؟ قال : رأيت أصلحك الله به سبعين قلنسوة تصلح للقضاء ، وثلاثمائة قلنسوة فقيه ، فترجع ابن غانم وقال : مات الناس ا هـ . كما ذكر أيضاً أن محمد بن سحنون رثاه أكثر من ثلاثمائة شاعر . ا هـ .

وفي هذا العصر المزدهر بمُختلف العلوم والمعارف أخذ الشعر العربي بالقطر التونسي يتنوّع إلى أغراض مختلفة تطغى عليها الجدية منها في غرض الزهد ومجاهدة النفس والتملّص من نزق الشباب كقول أبي جعفر أحمد بن سليمان الربعي القيرواني المتوفى سنة 291 هـ:

سألبس للفقر ثوباً جميلاً   وأفتل للصبر حبلاً طويلا
وأصبر بالكره لا بالرضا   أخلص نفسي قليلاً قليلا

وقوله :

يا لذةً قصُرَت وطال بلاؤها   عند التذكر في الزمان الأول
لما تذكرها وقال ندامة   من بعدها يا ليتني لم أفعل

وقول أبي غلبون عقال بن الحسن بن غلبون الزاهد المتوفى سنة 291 هـ:

أبصر بالقلب سبيل الرشد   فباين الأهل معاً والولدْ
وجدّ في السير إلى ربّه   مشمّراً يطلب ملك الأبدْ
قد صارت الدنيا بأقطارها   عليه كالسجن فمنها شردْ

وكقول بكر بن حمّاد الزناتي المتوفى سنة 296هـ في الغرض نفسه وفي زيارة المقابر للاتعاظ بها :

زوروا منازل قوم لا يزورونا إنّا لفي غفلة عمّا يقاسونا
لو ينطقون لقالوا الزادُ ويحكم جدّ الرحيل فما يرجو الملاقونا
الموت أصبح بالدنيا يخربها وفعلنا فعل قوم لا يموتونا

الخ .

وفي غرض التحسّر على ذهاب الشباب كقول عيسى بن مسكين المتوفى سنة 295 هـ:

لعمرك يا شبابي لو وجدتك بما ملكت يميني لارتجعتك
ولو جعلت لي الدنيا ثواباً وما فيها عليك لما وهبتك

وفي عرض الرثاء كقول أخت أبي عقال بن غلبون المتقدم ذكره ترثيه :

ليت شعري ما الذي عاينته بعد طول الصوم معْ نفي الوسن
واغتراب النفس عن أوطانها والتخلي عن حبيب وسكن

الخ . . . .

وهكذا ، لم ينقضِ العصر الأغلبي الزاهر في إفريقية حتى ترك لنا فحولاً من الشعراء فاخرت بهم غيرها من الأقطار العربية .

ومن مفاخر هذا العصر الأغلبي وما ازدانت به مدينة القيروان المكتبة العظيمة التي كانت فيها وتسمّى بيت الحكمة أسسها الأمراء الأغالبة ، كان بها نفائس الكتب ، وغرائب الدواوين ، في كل فن . وكان أمراء بني الأغلب يولون عليها من يقوم عليها من أهل الفضل والعلم . وقد كان على بيت الحكمة حين انقراض هذه الدولة التي خلفتها الدولة العبيدية سنة 298هـ، أبو اليسر الشيباني البغدادي كاتب زيادة الله بن عبد الله آخر ملوك بني الأغلب ، وأبو اليسر هذا هو الذي أدخل لإفريقية رسائل المحدثين وأشعارهم وطرائف أخبارهم .

أما ما كانت عليه حال البلاد التونسية من الناحية السياسية والجبائية في هذا العصر الأغلبي ، فإليك ملخصها فيما يلي منقولاً من تاريخ **حسن البيان** للوالد ، قال رحمه الله ما نصّه :

لما رام أمراء الدولة الأغلبية إنزال دولتهم منزلة سامية خصوصاً وهم متعهدون

للخلافة الأموية بأربعين ألف دينار سنوياً ودخل المملكة لا يفي بمقاصدهم ، أحدثوا ضرائب على الأراضي بعد مسحها وتقسيط الخراج عليها وجعلوها ولاية سمّوها (ولاية التقسيط) ، كما وظفوا على المنقولات بالبيع عند دخولها للمدن والقرى أداء حتى على التراب وأعطوها (قبالات) وكذا أعطوا ضرورات الأسواق كالخبز ، قبالات بمعنى أن من قبلها يستقل بعملها في تلك السوق على أداء يؤديه على شرط الإتقان وإيفاء حقوق العامة إلى غير ذلك ، فامتلأت خزائن الدولة بالأموال ، فقاموا بكثير من المصالح المهمة من بناء المعاقل والمحارس ، وجنّدوا الثغور ، وشادوا مواجل المياه ، وقناطر الأودية ، والمنائر ، والمساجد ، والقصور للرباط ، وجنّدوا الجنود ، وأعدّوا الأساطيل ، وديار الصناعات ، ففتحوا الممالك ، وقهروا العتاة .

أما الأحكام ، فنوط جميعها بنظر القضاة خاصة كانت أو عامة لا يتدخل فيها الأمير فضلاً عمّن دونه . وكان نظر القاضي يشمُل حتى ولاية المظالم والأشغال والسوق . فقد أولى سحنون من يتولّى المظالم . وممّا ينسحب نظر والي المظالم عليه مشمول نظر المجالس البلدية الآن كحفظ حقوق العامة في الطرقات ا هـ .

10 – أبو جعفر أحمد بن أبي سليمان الربعي القيرواني
(المعروف بالصوّاف)

ذكره أبو العرب وأثنى عليه ثناء طيباً ، كان يقول للمشتغلين : أنا حبس ، وكتبي حبس . ذكر أنه ألف للصاحب كتاباً سمّاه كتاب **الحجر** ووجّهه إليه ، فقال الصاحب : ردّوا **الحجر** من حيث جاء ، ثم قبله ووصله عليه . وله رسالة مشهورة حسنة طويلة كتب بها إلى بعض الكتاب من كتاب **الحماسة** ذكرها الثعالبي ا هـ . **من الديباج المذهب .**

ولد بالقيروان سنة 204هـ ونشأ في طلب العلوم العربية والشعر ، ثم أقبل على طلب الفقه ، فلازم سحنون بن سعيد عشرين سنة ، وقرأ على غيره من علماء القيروان ، فأصبح من العلماء العاملين ، وكان ثقة صالحاً ، عاقلاً كريمًا ، حسن الأخلاق ، أكثر كلامه حكمة ، وكان نقش خاتمه (أحمد تفكّرْ تَعتَبِر) . وكان يقول : أزهد الناس في الدنيا من لم يرض منها إلّا بأخذ الحلال وإن رآه الناس منكبًّا عليها . وكان

اختسب يوجّه الصيارفة ليقرأوا عليه كتاب الصرف ليأذن لهم في مباشرة المصارفة بالأسواق .

ومن كلامه :

ينبغي لطالب العلم أن يتخذ له قبل طلبه أدباً يستعين به على طلبه وأدباً بعد طلبه يستعين به على حمله . ومن آداب العلم الحلم ، وأن يغلب حلمك على هواك إذا ما دعاك هواك إلى ما يشينك وعليك بالوقار والتعفّف والدراية والصمت والصيانة والسمة الحسنة والتودّد إلى الناس ، ومجانبة من لا خير فيه ، والجلوس مع الفقهاء ، ومحبة الأخيار ، ومباينة الأشرار ، والقول الحسن في إخوانك ، والكف عمّن ظلمك ، ولا تهمز أحداً ولا تلمزه ، ولا تقل فيه ولو كان عدوّك ، فإذا فعلت ذلك شرفت عند العقلاء وعرف حقك الحكماء ، ولحقت بالعلماء ، وهابك السفهاء ، وحللت مع الأخيار ، وبرئت من الأشرار ، فافهم وتفهّم واستعن بالله يعنك .

كان كثير الشعر ، منه :

سألبس للفقر ثوباً جميلاً   وأفتل للصبر حبلاً طويلا
وأصبر بالرغم لا بالرضا   أخلص نفسي قليلاً قليلا

وكان يودع الحكمة في شعره .

توفي يوم الاثنين في 26 رمضان سنة 291هـ عن سبع وثمانين سنة .

ومن شعره الحكيم قوله :

يا لذة قصرت وطال بلاؤها   عند التذكر في الزمان الأول
لما تذكرها وقال ندامة   من بعدها يا ليتني لم أفعل

ومنه في الزهد :

ولما محا عمري ثمانين حجة   وأيقنت أني قد قربت من المدى
تركت تكاليف الحياة لأهلها   وجانبتها طوعاً فجانبني الردى[1]
رأيت حليم القوم فيهم مقدماً   ومن نال علماً نال جاهاً وسؤددا

(1) أي الهلاك.

أراني بحمد الله في المال زاهداً وفي شرف الدنيا وفي العز أزهدا
تخليت عن دنياي إلا ثلاثة دفاتر علم ثم بيتاً ومسجدا
غنيت بها عن كل شيء حويته وكنت بها أغنى وأقنى وأسعدا
وقد ذم قوم ما فعلت جهالة فعدوا مع الجهال بالجهل أحمدا[1]
ولو فهموا رأيي وأمري لأبصروا وقالوا رأى رأياً سديداً مسدّدا
ألم تر أن الدهر يقري أهيله هموماً وأن العيش صار منكدا
فما حل قوم فيه إلّا بفجعة وأنت لأخرى فيه منتظراً غداً
وكم قد رأينا من عزيز مشرف يبيت مقرا في القباب ممهدا
أتته المنايا وهو في حين غفلة فأضحى ذليلاً في التراب موسدا

11 – عيسى بن مسكين بن منصور الإفريقي

ولد بالساحل سنة 214هـ ونشأ في طلب العلم ، فأخذ عن سحنون وابنه محمد بن سحنون جميع كتبهما وعن غيرهما من علماء القيروان ، ورحل إلى المشرق فأخذ عن الأعلام ، ورجع إلى إفريقية . كان عالماً بالعلوم الشرعية والأدبية : فصيحاً شاعراً جيّد الشعر ، كثير الكتب في الفقه والآثار ، يشبه سحنون في هيبته وسمته ، وكان ورعاً زاهداً .

ولي قضاء القيروان بعد تهديد الأمير إبراهيم بن أحمد بن الأغلب فكان عادلاً .

من قوله الحكيم : من حصّن شهوته صان قدره ، ومن أطلق طرفه كثر أسفه ؛ في تقلّب الأحوال علم جواهر الرجال ؛ بحسن الثناء تسهل المطالب ؛ كفاك أدباً لنفسك ما كرهته لغيرك ؛ قارب الناس في عقولهم تسلم من غوائلهم ؛ خلّوا لهم دنياهم يخلّوا بينكم وبين آخرتكم .

توفي سنة 295هـ عن ثمانين سنة وأحد عشر شهراً .

ومن شعره يتضجر من كبر السن :

---

(1) يعني نفسه .

لمّا كبرت أتتني كل داهية | وكل ما كان منّي زائداً نقصا
أصافح الأرض إن رمت القيام وإن | مشيت تصحبني ذات اليمين عصا

ومنه قوله يتحسّر على الشباب :

لعمري يا شبابي لو وجدتك | بمَا ملكت يميني لأرتجعتك
ولو جعلت لي الدنيا ثواباً | وما فيها عليك لما وهبتك
فقدتك فافتقدت لذيذ نومي | وطيب معيشتي لما فقدتك
ونحتك وانتحبت عليك دهراً | فلم تغن النياحة حين نحتك

12 – أبو عقال غلبون بن الحسن بن غلبون الزاهد

ولد برقادة[1] ونشأ بها وبالقيروان في رفاهية عظيمة ، لأنه كان من بني الأغلب ملوك إفريقية . وكان متهتكاً ، كثير المجون في فتوته ، طلب العلم ، وسمع من سحنون ابن سعيد وبرع ، فكان من الحفاظ النبلاء والفصحاء الأدباء ، شاعراً مجيداً ، زهد في الدنيا ، وجدّ واجتهد في العبادة حتى اشتهر أمره والتمست بركته . هجر القيروان ، وسار سائحاً إلى أن وصل إلى المشرق ، وكانت له رياضات هناك وسياحات ، ثم استقرّ بالحرمين الشريفين ، وكان يسقي الماء بالحرم النبوي .

وسبب توبته ما حكاه عن نفسه قال : كان في فتوّته مفتوناً بالنساء ، فكان يحضر الأعراس والمآتم بزي النساء لينظر إليهن ، فحضر يوماً عرساً لبعض ملوك الأغالبة مع جملة من جواريه بزي النساء ، فبينما هو جالس بينهن إذ ضاعت ياقوتة نفيسة في دار العرس لبعض النساء ، فأغلقوا الأبواب ووقع التفتيش في النساء واحدة بعد واحدة ، فكل امرأة لا يجدون عندها شيئاً أخرجوها حتى لم يبق إلّا هو وامرأة ، فلمّا خشي الفضيحة التجأ إلى الله تعالى بصدق واضطرار فقال : إلهي لئن سترتني هذه المرة ولم تفضحني لأتوبنّ ثم لا أعود . وكان تاب قبلها سبع عشرة مرّة ثم ينكث ، قال : وكانت المرأة تريد أن تكون ورائي وأنا أدفعها إليهم إلى أن أخذوها فوجدوا

(1) مدينة قرب القيروان أسسها بنو الأغلب .

الياقوتة معها ، فقالوا لي : انصرفي يا هذه المرأة ، فخرج ، فلما وصل داره أزال الخف والمعجر والرداء التي كانت عليه من زي النساء ، وتمادى على التوبة ، ورفض الأهل والولد والدنيا ، وخرج إلى محرس صفاقس مرابطاً ، ثم ساح حتى استقرّ بمكة المشرفة .

وكانت له أخت فاضلة شاعرة كاتبته بعدة كتب تسأله أن يرجع إلى القيروان قبل أن يفرّق الموت بينهما ، فكان لا يقرأ كتبها خوف أن تحمله الرقّة على الرجوع عمّا هو عليه من المجاورة ، فلما طال على أخته ذلك أرسلت إليه رسولاً تقول له : بحقّ الثدي الذي رضعناه أن تريني وجهك قبل الموت ، فقال لرسولها : قل لها : ما كنت أدع بلداً عرفت الله فيه وأمضي إلى بلد عصيت الله فيه . فلم تتمالك أخته أن قدمت مكة حاجة ، وأقامت معه إلى أن توفي وهو ساجد سنة 291هـ، ودفن بمَكة . فكتبت أخته على قبره من شعرها :

ليت شعري ما الذي عاينته   بعد طول الصوم مع نفي الوسن
واغتراب النفس عن أوطانها   والتخلّي عن حبيبٍ وسكن[1]
يا شقيقاً ليس في وجدي به   علّة تمنعني من أن أجن
وكما تبلى وجوه في الثرى   فكذا يبلى عليهنّ الحزن

ولم تزل مقيمة بمَكة ترجو اللحاق به مجتهدة في العبادة والتبتّل إلى أن توفيت ودفنت هناك .

ومن شعر أبي عقال في الزهد قوله مخبراً عن نفسه :

أبصرَ بالقلب سبيل الرشَد   فباين الأهل معاً والولدْ
وجدّ في السير إلى ربّه   مشمّراً يطلب ملك الأبدْ
قد صارت الدنيا بأقطارها   عليه كالسجن فمنها شردْ

ومنه قصيدة طويلة في ذلك :

رضِيت بدون الكفاية قُوتاً   وبالله من كل خلق عمادا
فأضحى الملوك وأهل النعيم   أقل البرية عندي عدادا

---

(1) ما يسكن إليه .

وأسقطت لومي عن العالمين فمن شاء وَدّ ومن شاء عادى
فمن دام دمت له في الوفا ء وناديته أبداً مستفادا
ومن تاه تهتُ لمن لا يذل به من أعز ولا من أسادا
ولم أرَ عيشاً كعيش القنوع ولم أرَ مثل التقى لي زادا

ومنه في التوكل :

عقدت عليك مكمنات خواطري عقد الرجاء فألزمتك حقوقا
إن الزمان عدى علي فرادني علماً بأنك خالقي تحقيقا
ما نالني يوماً بوجه مساءة إلّا عبرت به إليك طريقا
حسبي بأنك عالم بمصالحي إذ كنتَ مأموناً علي شفيقا

13 – أبو عبد الرحمٰن بكر بن حمّاد بن إسماعيل الزناتي

أصله من تاهرت مدينة بالمغرب الأوسط ، نشأ بالقيروان طالباً للعلم ، فسمع من سحنون بن سعيد وأضرابه حتى برع ، فكان بها فقيهاً ، فاضلاً ، عالماً بالحديث ، وتمييز رجاله ، ثقة مأموناً ، حافظاً ، وكان شاعراً مفلقاً .

رحل إلى البصرة فلقي مسدّداً وغيره من علماء المشرق ، فأخذ عنهم . ولقي دعبلاً وحبيب بن أوس وابن الجهم من الشعراء ، ثم رجع إلى القيروان مستوطناً إلى أن وُشي به إلى الأمير إبراهيم بن أحمد بن الأغلب فخرج هارباً من القيروان سنة 295هـ، قاصداً بلده تاهرت . فلما بلغ سباطة خرج عليه قطّاع الطريق من البربر ، فقتل ابنه عبد الرحمان ، وجرح هو بجوفه، ولم يزل مريضاً به إلى أن توفي سنة 296هـ، عن ستة وتسعين سنة .

دخل عليه أبو العرب ابن تميم وهو في حالة الموت فأنشده :

أحبو إلى الموت كما يحبو الجمل قد جاءني ما ليس لي فيه حيل

فانظر إلى قوة جأشه ، وثبات ذهنه .

ومن شعره الجيد في الزهد وذكر المقابر والموعظة :

زوروا منازل قوم لا يزورونا إنّا لفي غفلة عمّا يقاسونا
لو ينطقون لقالوا الزاد ويحكم جدوا الرحيل فما يرجو الملاقونا
الموت أصبح بالدنيا يخربها وفعلنا فعل قوم لا يمُوتونا
فالآن فابكوا فقد حان البكاء لكم فالحاملون لعرش الله باكونا
ماذا عسى تنفع الدنيا لجامعها لو كان جمّع فيها مال قارونا

ومنه قوله :

قف بالقبور فناد الهامدين بها من أعظمٍ بليت فيها وأجساد
قوم تقطعت الأسباب بينهم من الوصال وصاروا تحت أطواد
راحوا جميعاً على الأقدام وابتكروا فلن يروحوا ولن يغدو لهم غاد
والله والله لو ردوا ولو نطقوا إذن لقالوا التقى من أفضل الزاد
قد برز القوم وامتدت عساكرهم كيمّا يوافوا لميقات وميعاد
ما بالقلوب حياة بعد غفلتنا والله سبحانه منها بمرصاد
أين البقاء وهذا الموت يطلبنا هيهات هيهات يا بكر بن حمّاد
بينا نرى المرء في لهوٍ وفي لعب حتى تراه على نعش وأعواد
هذي أبا بكر دنيانا منغصة فيها حزازات أحشاء وأكباد
فكلنا واقف منها على سفر وكلنا ظاعن يحدو به الحادي
في كل يوم نرى نعشاً نشيّعه فرائح فارق الأحباب أو غاد
الموت يهدم ما نبنيه من فرح فما انتظارك يا بكر بن حمّاد

14 – يعقوب بن يحيى

كان شاعراً مفلقاً من شعراء الأمير أبي محمد زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب فاتح صقلية من أهل المائة الثالثة لم أقف على تاريخ وفاته غير أنه كان موجوداً سنة 215 هـ

من شعره يحرّض الأمير زيادة الله المتقدّم ذكره على ابني أبي سلمة وعلى أبي الغراب ويحرّضه على قتلهم :

تسمع أيها الملك المعان قوافي في معانيها البيان
يتمّ أمان من خضب العوالي وليس لشاعر أبداً أمان
لأن قوافي الأشعار تبقى على الأيام ما بقي الزمان
وقد يرجى لجرح السيف برء ولا برء لما جرح اللسان

وابنا أبي سلمة هما عبد الرحمان وعلي . كانا شاعرين فصيحين من فضلاء عصرهم ، وكذلك أبو الغراب ، ولكن غمرتهم الفتنة التي اشتعلت في مدة إمارة زيادة الله المذكور وانتصر فيها . فلما خمدت نيران تلك الفتنة حضروا بين يدي الأمير زيادة الله فأنشده عبد الرحمان مديحاً له فيه ، فلما انقضى إنشاده قام صاحب الترجمة فأنشد الأبيات المتقدمة ، فلم يلتفت الأمير زيادة الله إلى قوله وأمضى لهم أمانهم وقال لأبي الغراب : ما منعك أن تستأمن إلينا قبل هذا الوقت ؟ قال : أيها الأمير ، كنت مع قوم حَمْقَى يُولُون كل يوم والياً ويعزلون آخر ، فرجوت أن تكون لي معهم دولة . فضحك زيادة الله ، وعفا عنه . وقال الوالد رحمه الله في تاريخه **حسن البيان في** ترجمة الأمير زيادة الله بعد ذكره لمضمون القصة المتقدمة ما نصّه :

« والعجب من هذا الشاعر كيف أغرى بقوم تجمعه بهم حرفة الأدب زيادة على علاقات الديانة والقومية . والشأن أن تكون علاقة الصناعة موجبة لزيادة الانعطاف والانتصار . ولعلّ بينهم عداوة خاصة فرام التشفي منهم لما لاحت له الفرصة . ولقد أقام دليلاً على أنه من بطانة السوء التي تأمر بالشرّ وتحضّ عليه ، كما ورد في الحديث الشريف . ولئن كانت بينهم عداوة فشأن ذوي الأخلاق الفاضلة أن لا يبلغ بهم حب الانتقام من أعدائهم إلى العبث بنفوسهم والإغراء على إراقة دمائهم : هذا بقطع النظر على منافسات الحرفة . ولا يغرنّك قول العامة (صاحب صنعتك عدوك ولو يكون أخوك) فهو مبني على ما تعارفه سيئو الأخلاق ، ومثل زيادة الله لا تؤثر على أخلاقه الكريمة إغراءات بطانة السوء ، فهو من أفراد عصره كمالاً ، والعفو أجمل بمثله بعد القدرة » ا هـ المراد .

قلت : إن ما أتاه صاحب الترجمة من الإغراء بقتلهم فلعلّه قصد به المصلحة العامة حيث أن هؤلاء الشعراء الثلاثة الذي أغرى بهم قد غمرتهم الثورة فلا يؤمن من خروجهم عن طاعة الأمير مرة أخرى ، وذلك مضر بالأمة ، وتنهى عنه شريعتنا

الإسلامية ، وتأمر بأخذ الحيطة لتفاديه خصوصاً وهؤلاء المغرى بهم شعراء . والشعراء في تلك العصور لشعرهم تأثير على النفوس كبير غير أن الأمير عفا عنهم لما رأى من المصلحة في الإبقاء عليهم ، وهو ما خفي عن صاحب الترجمة . وعلى هذا يكون قصده من الشعر الذي أغرى به عليهم حسناً ، على أن من الشعراء قبله من صنع مثل صنيعه ، هذا بكر بن حمّاد الزناتي القيرواني المتقدّم ترجمته في الأصل ، وكان مثل حبيب بن أوس الطائي بالمشرق ، وهو عصريه ، لما رحل إلى المشرق ومدح الخليفة المعتصم ووصله بصلات جزيلة أنشأ أبياتاً يخاطب بها الخليفة العباسي ويحرّضه فيها على دعبل الشاعر المعروف ، يقول فيها :

أيهجو أمير المؤمنين ورهطه ... ويمشي على الأرض العريضة دعبل
أما والذي أرسى ثبيراً مكانه ... لقد كادت الدنيا لذاك تزلزل
ولكن أمير المؤمنين بفضله ... يهم فيعفو أو يقول فيفعل

فعاتبه حبيب الطائي وقال له : قتلته والله يا بكر ، فقال في قصيدته هذه :

وعاتبني فيه حبيب وقال لي ... لسانك محذور وسمّك يقتل
وإني وإن صرفت في الشعر مقولي ... لأنصف فيما قلت فيه وأعدل

15 — أبو الوليد عبد الملك بن قطن القيرواني

ترجمه السيوطي في **بغية الوعاة** بقوله : عبد الملك بن قطن أبو الوليد المهدي القيرواني النحوي اللغوي . كان أحفظ أهل الأدب في المغرب ، وشيخ أهل اللغة والنحو والرواة ببلده ، شاعراً بليغاً ، خطيباً ، جواداً ، عمّر طويلاً . وصنف **اشتقاق الأسماء** ، وذكر في ترجمته لأخيه إبراهيم بن قطن أن سبب قراءته النحو ، وكان أخوه إبراهيم قرأه قبله ، أنه أخذ كتاباً لأخيه إبراهيم ينظر فيه ، فنهره ، وقال : ما لك ولهذا ؟ فغضب واشتغل به وعرف ، واشتهر عند الناس ، توفي سنة 256هـ، وذكر الوالد في **حسن البيان** أنه توفي سنة 255 هـ

من شعره قوله يرثي الإمام سحنون بن سعيد رحمهما الله :

من يبصر البرق فوق الأفق قد سطعا وقد تسربل ثوب الليل وادرعا
ولي لعمري بأرض الغرب قاطبة ميت له البدو والحضار قد خشعا
لله أنت إذا ما هاب فاصلة من القضاء كليل الحدّ فارتدعا
هناك برزت يا سحنون منفرداً كسابق الخيل لمّا بان فانقطعا
فاذهب فقيداً حباك الله جنّته واحصد من الخير ما قد كنت مزدرعا

16 – أبو زيد عبد الرحمان بن أبي محمد عبد الله بن غانم القيرواني

سليل مجد أثيل ، ورضيع فضل أصيل ، كان أبوه عبد الله بن غانم أولاه هارون الرشيد قضاء إفريقية سنة 171هـ وذكر الوالد في حسن البيان أنه أولاه سنة 170هـ ومما يروى عن مكانته العظيمة عند الخليفة الرشيد وجلالة قدره أنه كتب لإبراهيم بن الأغلب أمير إفريقية من قبله ما نصّه :

إني لا أفكّ لك كتاباً حتى يكون معه كتاب لابن غانم ، فإن شكرك أبقيناك وإن ذمّك عزلناك . ويروى في شأنه أخبار عجيبة تدل على ما للقضاة في ذلك العصر من رفعة المنزلة وجلالة القدر ، فلتراجع في مظانها ، وكانت ولادة القاضي عبد الله بن غانم المذكور سنة 128هـ ووفاته سنة 190هـ.

أما ابنه عبد الرحمان صاحب الترجمة فقد نشأ في ظل أبيه الإمام ، إلى أن نال من العلوم الشرعية والأدبية المرام ، وكان يقول الشعر ويجيده .

فمن شعره يفتخر بأبيه من قصيدة يقول فيها :

ولينا قضاء الغرب عشرين حجة بعزّ وعدل عندنا نستنيلها
وأمضى أبونا الحق في الناس فاستوت رعيته في العدل فاعتز دينها
فصلى عليه الله في مستقرّه وجازاه رحمى كالسحاب هتونها

17 – أبو عقال سعيد بن جرجر القيرواني

كان كاتباً للقاضي سليمان بن عمران المتوفى سنة 270هـ من شعره يرثيه من قصيدة :

عجباً لموضع لحده من قبره . . . . [1]

رجع الخصوم وخلّفوا علم الهدى في باب سلم لا يزال ممتعا

أتت المنية إذ تلبب قاضياً خمسين عاماً واثنتين وأربعا

18 – الكاتب محمد بن أحمد بن حيون المعروف بابن البريدي

هو من كتّاب إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب وخواصهم ، وفي سنة 176هـ غضب عليه وحبسه فكتب إليه من الحبس يستعطفه ما نصّه :

أعزّ الله الأمير من كرم العفو وعلو قدره وجليل خطره تسمّي الله عزّ وجلّ به فسمّى نفسه العفو الغفور والطبع البشري مركب على النقص مقرون بالزلل إلّا ما خص الله به الأنبياء ، وأودعه السادات الأمراء ، من طهارة الأخلاق ، ونزاهة الأنفس ، ولست ، أيّد الله الأمير ، ممن يدّعي العصمة والبراءة من الهفوة ، ولست أمتّ إليك إلّا بفضلك علي ، وإحسانك إلي ، ولا أعرفك بل أذكرك أن من غرس غرساً فواجب أن لا يجتثّه وإن أبطأ بسوقه بل يمدّه بمد فوارة عذبة حتى تمتدّ حيطانه ، وتورق أغصانه ، أعاذك الله بما أودعك من معالي الأخلاق من ترك العفو عن مقرّ معترف لا يعرف إلّا فضلك ، ولا يرجو إلّا عدلك . ولو كنت أعزّ الله الأمير عواناً في الخدمة لكان عفوك أكبر من ذنبي ، وفضلك في حلمك أعظم من جرمي ، فكيف وأنا بكر في خدمتك ، لم أقف على حدودها ، ولا معرفة اقتسام مراتبها ، فإن يكن ذنب فعلى غير قصد ، أو زلّة فليست عن عمد . وممّا تذاهبت به الأفواه ، ونطقت به الألسن ، وعرفه الخاص والعام بياناً واضحاً أنك ممن عنى الله جلّ ذكره بقوله : «ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم» ، وقال عزّ وجلّ : «والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين» ، فلا أحد بمعالي الأخلاق والامتثال لأدب الله أحقّ منك ، لما وهب إليك الله من كريم الطبع وصحة المركب ، فاعتبر أمري ، فما سألت سؤلاً دحضت

(1) بياض بالأصل المنقول منه .

حجّته وأحاطت به زلته وأوبقهُ جرمه ، فالحظني بعين عفوك ، وأضف عليّ ستر نعمتك ، وأقول أعزّ الله الأمير :

هبني أسأت فأين الفضل والكرم ... إذ قادني نحوك الإعظام والندم
يا خير من مدّت الأيدي إليه أما ... ترثي لمن قد نعاه عندك القلم
بالغت في السخط فاصفح صفح مقتدر ... إن الملوك إذا ما استرحموا رحموا

فلما قرأ الأمير إبراهيم هذه الأبيات قال : يكتب إلي (هبني أسأت) وهو قد أساء ، أما أنه لو قال :

ونحن الكاتبون وقد أسأنا ... فهبنا للكرام الكاتبينا

لعفوت عنه . ثم أمر أن يجعل في تابوت حتى مات .

قال الوالد رحمه الله في تاريخه **حسن البيان** بعد أن ذكر هذه القصة ما نصّه : وهي من فعلات صاحب الترجمة يعني الأمير إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب التي أنكر الناس عليه وأثار بها الرأي العام ، وهو يدلّ على أن هذا الكاتب لم يأت بذنب يوجب عقابه بهذا العقاب . وانظر إلى كبرياء هذا الأمير كيف جعل سبب قتله هذه القتلة الشنعاء هو تكذيبه بقوله : (هبني أسأت) ، ولكن من لا زاجر له عن الدماء من شرع إلهي أو وازع يخشاه فلا يتهيب ، فالله حسيب أمثاله ا هـ .

وأبيات ابن البريدي صاحب الترجمة : هبني أسأت الخ ، تمثّل بها الحاجب جعفر المصحفي الأندلسي يخاطب المنصور ابن أبي عامر طالباً تخلية سبيله ، فأجابه المنصور عنها بأبيات لعبد الملك الجزيري نصها :

يا جاهلاً بعد ما زلّت به القدم ... تبغي التكرّم لما فاتك الكرم
ندمت إذ لم تعد منّي بطائلة ... وقلما ينفع الإذعان والندم
نفسي إذا جمحت ليست براجعة ... ولو تشفع فيك العرب والعجم

ولم يعفُ عنه ، فبقي في اعتقاله حتى مات . فلا تظن أن أبيات ابن البريدي هي للمصحفي ، لأنه متأخر عنه ، أي عن ابن البريدي بنحو قرن أو أكثر .

والبيت الذي قال الأمير إبراهيم من بني الأغلب لو قاله لعفوت عنه هو لبعض

كتاب أبي جعفر المنصور قاله لمّا وجد عليه وأمر به ليضرب ، فلما أنشده إياه خلّى سبيله لمكان بديهته .

ولترجع لترجمة ابن البريدي فنقول : إن من شعره ما خاطب به من أخبره أن الأمير الأغلبي عازم على قتله ، وذلك قوله :

تخوفني بمخلوق ضعيف يهاب من المنية ما أهاب
له أجل ولي أجل وكل سيبلغ حيث بلغه الكتاب

قتل رحمه الله سنة 276 هـ

19 – مجبر بن إبراهيم بن سليمان

ينتمي لبني الأغلب أمراء إفريقية ، كان من وجهائها وذوي الثروة فيها تقلد ولايات خطيرة فيها ، فقام بها أحسن قيام ثم ولاه الأمير الأغلبي على صقلية . فلما توجّه إليها في البحر ، أسره الروم وتوفي في أسره بالقسطنطينية سنة 285هـ كان يحسن قرض الشعر . من شعره ، وبعث بها من محبسه إلى القيروان :

ألا ليت شعري ما الذي فعل الدهر بإخواننا يا قيروان ويا قصر
ونحن فإنا طحطحتنا رحى النوى فلم يجتمع شمل لدينا ولا وفر
رأينا وجوه الدهر وهي عوابس بأعين خطب في لواحظها شزر

إلى أن يقول :

لعلّ الذي نجّى من الجبّ يوسفا وفرّج عن أيوب إذ مسّه الضرّ
وخلّص إبراهيمَ من نار قومه وأعلى عصا موسى فذلّ له السحر
يُصَبِّرُ أهل الأسر في طول أسرهم على معضلات الأسر لا سلم الأسر

20 – الأمير أبو العباس عبد الله بن إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب

هذا الأمير الخطير ، والبطل الشهير ، كان أديباً لبيباً عالماً ، له نظر حسن في

الجدل ، أحد الفرسان الأشاوس المشهورين في عصره شجاعاً ، عالماً بالحروب ومكائدها ، ولي إمارة صقلية من قبل أبيه الأمير إبراهيم سنة 287هـ، كانت له مواقف حربية مشهورة انتصر فيها على الصقليين والروم ، يطول ذكرها ، ثم استدعاه أبوه الأمير إبراهيم إلى تونس وسلّم إليه إمارة إفريقية مظهراً الزهد وإرادة الحج حين وصل إليه رسول الخليفة المعتضد العباسي مصحوباً بمنشور عزله لسوء سيرته وتفاقم الثورات عليه . وولاية ابنه صاحب الترجمة عوضاً عنه في إمارة إفريقية . فسار هذا الأمير سيرة حسنة مع العدل والرفق بالرعية ، ومواصلة الجهاد ، وجلس للمظالم بنفسه ، وترك سكنى قصور أبيه التي بناها بتونس ، وبنى داراً بالطوب لسكناه بتونس ، وسكنها وهو ثاني أمراء الأغالبة الذين استوطنوا مدينة تونس في أواخر دولتهم ، وأنفق الأموال على مستحقّيها ، وردّ المظالم ، وأسقط القبالات ، وترك لأهل الضياع خراج سنة وسمّاها سنة العدل ، وأعتق مماليكه ، وبذل لوجوه أهل القيروان وفقهائها والضعفاء والمساكين أموالاً عظيمة ، واستعان في إقامة قسطاس العدل بالعلماء ، فلازم جماعة منهم ، وأمر قاضيه أن يجري الحق على رأسه فمن دونه . وكان لا يركب إلّا إلى الجامع لشهود الجماعة ، ويجلس على الأرض تواضعاً لله تعالى ، كان رحمه الله خطيباً مصقعاً وأديباً شاعراً .

من شعره ما قاله وهو إذ ذاك في صقلية مشتغلاً بفتحها وقد شرب دواء :

شربت الـدواء على غـربة ... بعيداً عـن الأهل والمنزل
وكنت إذا ما شربت الدوا ... ء أُطيّب بـالمسك والمنـدل
فقد صار شربي بحار الدما ... ء ونقع العجاجة والقسطل

توفي رحمه الله مقتولاً ليلة أو يوم الأربعاء آخر شعبان سنة 290هـ في قصة مبسوطة في كتب التاريخ فليرجع إليها من أرادها .

21 – سعيد الورجيني

من تلاميذ الإمام يحيى بن عمر دفين سوسة المتوفى سنة 289هـ من شعره يرثي شيخه المذكور من قصيدة تحتوى على خمسين بيتاً يرسم منها ما وجد قال :

وكان يحيى إذا خفنا لنا حرماً … نلجا إليه فقد صرنا بلا حرم
وكان يحيى لنا في كل حادثة … في الدين كالليث يحمي ساحة الأجم
وكان يحيى لنا في الزائغين إذا … صالوا لساناً يبين الحقّ عن أمم
وكان يحيى لنا كنزاً وكان لنا … حرزاً وكان لنا كالليث في الأزم
لتبك يحيى عيون بالدموع وإن … غاضت مدامعها فلتبكه بدم
ما كان أفهمه ما كان أعلمه … ما كان أحماه عند الخوف للحرم
ما كان أطهر تلك النفس عن ريب … ما كان أكتب تلك الكف بالقلم
أتاك ضيفاً فلا تجعل قراه سوى الر … ضوان أنك ذو فضل وذو كرم
وارحمه رب ووسّع ضيق حفرته … فإنه طالما ناجاك في الظلم
ولا تؤانسه في استيحاشه بسوى … حور القصور بدار الخلد في الخيم

22 – أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان بن سالم القيرواني الملقّب بزرزور

ترجم له في **معالم الإيمان**، فذكر أنه كان عالماً حافظاً لمذهب أهل الكوفة وجميع الأقاويل، حافظاً للغريب، بصيراً باللغة، راوية للأشعار، يحسن صنعتها، جيّد القول فيها. وشعره كثير جداً، وأكثره في توحيد الله تعالى، والردّ على الزنادقة والملحدين، وكان يقول: أحفظ تفسير يحيى بن سلام كما أحفظ القرآن، وأحفظ فقه أبي حنيفة كما أحفظ التفسير، وأحفظ الموطأ وفقه مالك كما أحفظ فقه أبي حنيفة، وأحفظ بعد ذلك كثيراً من دواوين العرب وأشعارها وأخبارها. توفي رحمه الله سنة 291 هـ.

من شعره قوله:

تهتك الستر عن ذي البغي والفند … وحصحص الحق أهل البغي واللدد
وأيقن المشرك الداعي له ولداً … بأنه الله لم يولد ولم يلد
لا موت يدركه لا شيء يشبهه … تبلى الأبوة لا يبلى على الأبد
ويح ابن آدم من عاص لخالقه … ومن مصرّ على الآثام منعقد
وفي النعيم خلود غير منصرم … باق بقدرته باق بلا أمد

23 – عبد الله بن محمد أو محمود النحوي القيرواني أبو محمد المكفوف

ترجم له الإمام السيوطي في كتابه **بغية الوعاة** في طبقات النحاة فقال : أنه كان عالماً بالعربية والغريب والشعر وتفسير أيام العرب وأخبارها . وكانت الرحلة إليه من جميع بلاد إفريقية لأنه كان أعلم خلق الله بالنحو واللغة والشعر والأخبار . له كتاب في العروض . مات رحمه الله سنة **308** هـ

من شعره ما أجاب به إسحاق بن خنيس عمّا هجاه به :

إن الخنيسي يهجوني لأرفعه ... أخسأ خنيس فإني لست أهجوكا

لم تبقَ مثلبة تحصى إذا جمعت ... من المثالب إلّا كنها فيكا

العصر الثالث

من عصور الأدب العربي بافريقية

العصر العبيدي

237هـ - 362هـ

هذا العصر كان امتداداً للعصر الأغلبي كلاهما عربي صميم ، إلّا أنه طليعة للعصر الصنهاجي بعده الذي معظم فحول رجاله هم سكان البلاد الأصليون من البربر المستعربين وهذا العصر على قصر مدته ازدان بطائفة من الشعراء المفلقين وأرباب الأدب المفوهين . ويبتدئ من استيلاء أنصار عبيد الله المهدي على البلاد . وذلك سنة 296هـ إلى انتقال حفيده المعزّ لدين الله إلى مصر وتأسيس القاهرة المعزية المنسوبة إليه واستخلافه على إمارة إفريقية بلكين بن زيري الصنهاجي ، وهو جد الأمراء الصنهاجيين المنسوبة إليهم الدولة الصنهاجية المستقلة أولاً استقلالاً داخلياً عن الخلافة الفاطمية ثم المستبدة عليها والمستقلة عنها بالأمر أخيراً .

نعم إن هذا العصر العبيدي بإفريقية يحتوي على أفذاذ من الشعراء تبدو على شعر فريق منهم ؛ ولعلهم سنيون ، مظاهر الخوف والرهبة التي استحوذت عليهم وتمكّنت من نفوسهم بسبب ما أصابهم من بغاة الشيعة المتغلبين على البلاد الذين هم أنصار وبطانة العبيديين حتى بلغ من بعض أمرائهم أن أمر بقتل عروس للمؤذن من أهل السنة لأنه لم يقل في أذانه لصلاة الصبح حي على خير العمل . ولذلك نجد في شعر أدباء هذا العصر من أجل هذا الضغط البالغ حد القتل ما الغالب عليه الأمر بالزهد ، وبإمساك اللسان ، والاشتغال بمَا يعني ، والتذكير بالمعاد ، وأحوال الآخرة ، ومدح الوحدة والإنفراد ، كقول الحسن ابن محمد القلانسي ، المتوفى سنة 327 هـ:

اعمل وأنت من الدنيا على خطر ... واعلم بأنك بعد الموت مبعوث
واعلم بأنك ما قدمت من عمل ... يحصى عليك وما خلفت موروث

وكقول أبي بكر بن سعدون المتوفى سنة 344 هـ :

الخير أجمع في السكوت ... وفي ملازمة البيوت
فـــإذا تهيّـــأ ذا وذا ... فاقنع إذاً بأقلّ قوت

ومن هذه الطبقة ، من سافر إلى مصر لما انتقل إليها المعزّ . وكان يفاخر بهم شعراء المشرق ، منهم : أبو الحسن علي بن أبي حنيفة النعمان القيرواني ، وأخوه أبو عبد الله

محمد ، وكلاهما من الشعراء الفحول ، وستأتي ترجمتها . ومن هؤلاء : أبو القاسم ابن هانيء ، مدح المعزّ وأراد المعز أن يستصحبه إلى مصر إلّا أنه قتل في الطريق . وديوان شعره معروف . وكان يعبّر عنه في عصره بمُتنبي الغرب ، وكان أبوه هانيء شاعراً ، وهو تونسي من قرية من قرى المهدية . ثم سافر إلى الأندلس فولد له أبو القاسم بإشبيلية .

ونظيره في جودة الشعر وذيوع الصيت من مواليد القطر التونسي وفحول شعرائه وهو عصري ابن هانيء علي بن الأيادي المعروف بالتونسي . المتوفى حوالي سنة 365 هـ .

كان رحمه الله من نوابغ الشعراء الذين لا يشقّ لهم غبار . ذاع شعره ، ونبه مقامه فيه حتى أن أبا علي الحسن بن رشيق روى في كتابه **العمدة** أن أبا القاسم بن هانيء شاعر الدولة العبيدية المتقدم ذكره لما وصل إلى إفريقية هجاه الشعراء (ولعلهم استفزّتهم الغيرة منه لعلمهم أنه سينافسهم على البلاط العبيدي) فقال ابن هانيء : لا أجيب منهم أحداً إلّا أن يهجوني علي التونسي فإني أجيبه (وهذا اعتراف من ابن هانيء لعلّي التونسي بسبقه في مضمار الشعر وعلو كعبه فيه ، وأنه قريعه ونظيره في الشعر) . فلما بلغ قوله علياً قال : أما إني لو كنت ألأم الناس ما هجوته بعد أن شرّفني على أصحابي وجعلني كفئاً له ا هـ .

ولعلّي التونسي هذا أشعار بديعة ، خصوصاً في باب الوصف . سنذكر بعضها في ترجمته .

24 — أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم

من أبناء أمراء إفريقية ، أخذ العلم عن علماء القيروان من أصحاب سحنون ، وجال بلاد إفريقية لطلب العلم ، فكان من أخذ عنهم نيفاً وعشرين ومائة شيخ ، وكتب بيده كثيراً . وكان حافظاً لمذهب الإمام مالك . غلب عليه الحديث ومعرفة الرجال ، وصنّف كثيراً من التآليف المفيدة منها : **طبقات علماء إفريقية** ، وكتاب **عباد إفريقية** ، و **مسند حديث مالك** ، و **تاريخ كبير في أجزاء كثيرة** ، و كتاب

اللحن ، و **فضائل مالك بن أنس** ، و **فضائل سحنون** ، إلى نحو عشرة تآليف غير ما ذكر .

ولما دخل الشيعة القيروان امتحن وحبس .

وكان شاعراً مجيداً ، توفي يوم الأحد لثمان بقين من ذي الحجة سنة 333هـ

ومن شعره قوله في انحراف الصديق بغير عذر :

إذا ولّى الصديق بغير عذر فزاد الله خُلّته انقطاعا
إلى يوم التناد بلا رجوع فإن رام الرجوع فلا استطاعا
إذا ولّى أخوك قفاه عنك فولّ قفاك عنه وزده باعا
وناد وراءه يا رب تَمّم ولا تجعل لفرقته اجتماعا

ومنه قوله في شيخوخته :

ضعفت حيلتي وقلّ اصطباري وإلى الله أشتكي كل ما بي
وهن العظم بعد أن كان صلباً وفقدت الشباب أي شباب

65 - أبو عبد الله حسن بن محمد بن حسن الخولاني

كان عالماً بالعلوم العربية ، راوياً للشعر ، ومع ذلك فقد كان فقيهاً صالحاً ، مجتهداً في العبادة ، رقيق القلب ، سمحاً ، كثير المعروف والصدقات ، باع ضياعه كلها ، وتصدّق بها على الفقراء .

سكن المنستير وكان يقول في مناجاته[1] :

وعزّتك وجلالك ما عصيتك استخفافاً بحقّك ولا جحوداً لربوبيتك لكن حضرني جهلي ، وغاب عني علمي ، وإني عليها يا إلهي لنادم .

وكان يقول : أبتِ الحكمة أن تظهر على لسان من يأكل حتى يشبع ، ومن يحب الدراهم .

وكان يقول : أرني من قصده فخيبه ، أرني من توكل عليه فأضاعه ، أرني من أطاعه فأضاعه : إذاً لا تراه أبداً .

(1) أي دعائه .

توفي بالمنستير سنة 347 هـ عن مائة وثمان سنين .

ومن جيّد شعره قوله :

يا ربّ كن لي ولياً بالصنع حتى أطيعك
لئن ذممت صنيعي لقد حمدت صنيعك
إن كنت أعصيك إني أحب فيك مطيعك

26 – أبو القاسم محمد بن هانىء الأزدي

الإفريقي الأصل ، من ولد يزيد ابن حاتم المهلبي أمير إفريقية . كان أبوه هانىء من قرية من قرى المهدية ، وكان شاعراً أديباً ، انتقل إلى الأندلس فولد له محمد المترجم له بمدينة إشبيلية ، ونشأ بها ، واشتغل بالعلم والأدب ، فبرع وفاق . وقال الشعر ، فمهر فيه . وكان كثير الانهماك في الملاذ . اتهم بالفلسفة ، وجرّ ذلك التهمة للمعتمد بن عبّاد لتقريبه إياه ، وفشت القالة[1] في العامة حتى خشي منها المعتمد فأشار عليه أن يتغيّب عن إشبيلية مدة حتى ينسى فيها خبره ، فخرج عنها وعمره سبعة وعشرون سنة ، فتقلب في المغرب ، ومدح أمراءه ، واستقرّ بالمسيلة قاعدة الزاب عند واليها لإكرامه له ، ونمى خبره إلى سلطان إفريقية والمغرب المعز أبي تميم العبيدي ، فطلبه منه فوجّهه إليه ، فبالغ في إكرامه والإنعام عليه ، وأراد تزيين ملكه به . ولما توجّه المعزّ إلى مصر بعد فتحها ليجعلها مقرّ ملكه شيّعه محمد بن هانيء ، ورجع إلى المغرب ليأخذ أهله ويلحق به إلى الديار المصرية ، فتجهز وتبعه ، فلما وصل إلى برقة أضافه شخص من أهلها ، فأقام عنده أياماً في مجلس أنس . فيقال : إنهم عربدوا عليه فقتلوه بكرة يوم الأربعاء لسبع ليال بقين من رجب سنة 362 هـ عن ست وثلاثين سنة ، فانظر لمفسدة الخمر الخبيثة . ولما بلغت وفاته للمعز العبيدي بمصر تأسف عليه وقال : كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك .

وله ديوان شعر كبير ، قال العلماء بالأدب : إن شعره عالي الدرجة مستحسن الطريقة ، لولا ما فيه من الغلو في المدح المفضي إلى الكفر لكان من أحسن

---

(1) أي القول .

الدواوين ، وهو معدود من أشعر شعراء المغرب ، كالمتنبي بالمشرق ، وكان معاصراً له ، وكان يستنشد المغاربة شعره استحساناً له .

ومن شعره القصيدة الفائية المشهورة التي يشبه فيها النجوم . ومطلعها :

أليلتنا إذ أرسلت وارداً[1] وصفا ... وبتنا نرى الجوزاء في أذنها شنفْا
وبات لنا ساق يصول على الدجى ... بشمعة كأس لا تقط ولا تطفا

ومنها :

بعينيك نبه كأسه وجفونه ... فقد نبه الإبريق من بعد ما أغفى
وقد فكت الظلماء بعض قيودها ... وقد قام جيش الليل للصبح واصطفا
وولت نجوم للثريا كأنها ... خواتم تبدو في بنان يد تخفى
ومرّ على آثارها دّبرانها ... كصاحب ردء أكمنت خيله خلفا[2]
وأقبلت الشّعرى العبور ملبة ... لمرزمها اليعبوب تجنبه طرفا[3]
كأن سهيلاً في مطالع أفقه ... مفارق إلف لم يجد بعده إلفا
كأن بني نعش ونعشاً مطافل[4] ... بوجرة قد أضللن في مهمه خشفا[5]
كأن سُهاها عاشق بين عُوّد ... فآونة يبدو وآونة يخفى
كأن مُعَلّى قطبها فارس له ... لواءان منصوبان قد كره الزحفا
كأن قدامى النسر والنسر واقع ... قصصن فلم تسم الخوافي به ضعفا
كأن أخاه حين دوّم طائراً ... أتى دون نصف البدر فاختطف النصفا
كأن عمود الصبح خاقان عسكر ... من الترك نادى بالنجاشيّ فاستخفى
كأن محيا الشمس غرة جعفر ... رأى القرن فازدادت طلاقته ضعفا

ومن شعره مادحاً وقد أنشدها في حالة سير ممدوحه :

فتقت لكم ريح الجلاد بعنبر ... وأمدكم فلق الصباح المسفر

---

(1) وارداً : أي شعراً شديد السواد .
(2) ردء : أي مدد .
(3) الشعري كوكب ، وملبة آخذة بلبيها ، واليعبوب السريع الطويل . وتجنبه ، تقوده إلى جنبها .
(4) مطافل : ذوات أولاد .
(5) خشفا : ولد الظبّي حين يولد .

وجنيتم ثمر الوقائع يانعاً بالنصر من ورق الحديد الأخضر

إلى أن قال متجاهلاً :

من فيكم الملك المطاع كأنه تحت السوابغ تبع في حمير

قالوا : لما تجاهل ابن هانيءهذا التجاهل عن معرفة الملك ، ترجّل جميع الجيش تعظيمًا للممدوح ومثل هذا التجاهل حسن .

ومنها في صفة الجيش :

وكأنما سلب القشاعم ريشها مما يشقّ من العجاج الأكدر[1]
لحق القبول مع الدبور وسار في جمع الهرقل وعزمة الإسكندر
في فتية نسج الدروع لبوسهم وعبيرهم خلق النجيع الأحمر[2]
لا يأكل السرحان شلو عقيرهم مما عليه من القنى المتكسر
قوم يبيت على الحشايا غيرهم ومبيتهم فوق الجياد الضمّر

27 – الحسن بن محمد القلانسي القيرواني

نشأ بالقيروان ، وطلب العلم والأدب ، فبرع . وكان فقيهاً عالماً شاعراً ، توفي سنة 327 هـ، ودفن بها .

ومن شعره :

اعمل وأنت من الدنيا على خطر واعلم بأنك بعد الموت مبعوث
واعلم بأنك ما قدمت من عمل يحصى عليك وما خلفت موروث

28 – أبو عبد الله محمد بن سهل الصوفي القيرواني

كان عالماً شاعراً . تنسّك في كبره ، واتخذ نوالاً في المقبرة يتعبّد فيه ، ثم لزم بيته

(1) القشاعم : ضخام النسور .
(2) النجيع : دم يضرب الى السواد .

إلى أن توفي سنة 333هـ

من شعره :

يا من أذاب فؤادي في محبته	وأضرم النار في قلبي وأحشائي
ما إن ذكرتك إلّا كنت في كبدي	بموضع الماء من قلبي وأعضائي
ولا ذكرتك في قوم أسر بهم	إلّا وجدت لهيباً بين أمعائي
ولا هممت بشرب الماء من عطش	إلّا وجدت خيالاً منك في الماء

29 - أبو بكر محمد بن سعدون التّميمي

إمام جامع القيروان . نشأ في طلب العلم ، وأخذ عن أئمّة منهم ، جبلة بن حمود ، ورحل إلى المشرق ، فسمع من البزار وغيره ، ثم رجع إلى القيروان ، فأخذ عنه الناس ، وانتفعوا به . وكان فقيهاً ، عالماً بالأدب ، صالحاً عابداً ، له سياحات ورباط ، وكان كريم الأخلاق ذا مروءة وتواضع ، إماماً في الحديث والقراءات ، يرابط بقصر لمطة ثلاثة أشهر ، ويرجع إلى أهله بالقيروان ، فيقيم عندهم مثلها . وكان شاعراً توفي سنة 344هـ، عن ست وسبعين سنة .

ومن شعره :

سجن اللسان هو السلامة للفتى	من كل نازلة لها استئصال
إن اللسان إذا حللت عقاله	ألقاك في شنعاء ليس تقال

ومنه قوله :

الخير أجمع في السكوت	وفي ملازمـة الـبـيـوت
فـــإذا تـهيـــأ ذا وذا	فاقنـع إذاً بأقل قوت

ومنه :

إذا الـقـوت تـأتّى	لك والصحة والأمن
وقد أصبحت ذا حزن	فلا فـــارقك الحزن

30 - أبو العباس الفضل بن نصر الباهلي

كان عالماً جليلاً فقيهاً ، وكان يعرف مذهب الإمام الشافعي . سكن سوسة ، ثم انتقل إلى القيروان ، وكان عابداً يقوم بثلث القرآن في كل ليلة ، وكان ذا همة ، وله رئاسة بالقيروان ، شاعراً رقيق المعاني ، توفي سنة 344 هـ .

ومن شعره يعاتب أبا العباس الأبّياني :

أو ما يَريبك حادث الأزمان ... وحروبها وطوارق الحدثان
والجاريات السبع في الفلك الذي ... يجري بتقدير العظيم الشان
من خفض أعلام ورفع معاشر ... وزوال سلطان إلى سلطان
وأشد ما ألقى وأنضج للحشى ... عدم الوفاء وجفوة الإخوان
أما الزمان فواعظ لك صَرْفُه ... لو كنت متعظاً بصرف زمان
هذا أبو العباس واحد عصره ... وفقيههم والفائق الأقران
فنبت به أخلاقه عن وصلنا ... وسلامه في السرّ والإعلان
إني أتيتك شاكياً ومخبراً ... أشكو إليك حوادث الأزمان

ومنه قوله :

بلغ الوشاة علي حيث أرادوا ... والله يسألهم وما قد كادوا
والله يعلم أنني ما قلت ما ... قال الوشاة تأفكاً وأعادو

31 – أبو القاسم زياد بن يونس اليحصبي

نشأ بالقيروان ، وأخذ العلم عن علمائها ، ورحل إلى المشرق ، فسمع بمصر من علمائها ، وأخذ الناس عنه بإفريقية ، واحتاج الناس إلى علمه ، فسمع منه طلبة طرابلس وإفريقية والأندلس ، وعنه أخذ أبو الحسن القابسي . كان عالماً فقيهاً ، عاقلاً ثقة ، كثير الكتب ، عارفاً بالرجال ، طلب للقضاء فامتنع ، وهو أول من أدخل كتاب محمد بن المواز إلى إفريقية ، وكان شاعراً توفي سنة 361 هـ .

من شعره :

لم يبقَ ممّا فاتني كسبه إلّا أخ يَسْلَم لي قلبُه
ينأى فلا يُفسده نأيه عنّي ولا يصلحه قربُه
يكون حسبي من جميع الورى في كل حال وأنا حسبه

32 – أحمد بن أفلح السوسي

من شعراء مدينة سوسة المجيدين وأدبائها المفوهين . كان موجوداً سنة 334هـ

من شعره يذكر حصانة مدينة سوسة في عصره وامتناعها على المغيرين في وقعة تاريخية سنلم بمُجملها ، قال رحمه الله :

مدينة سوسة في الغرب ثغر تدين له المدائن والثغور
لقد لعن الذين بغوا عليها كما لعنت قريضة والنظير
أتاها الخارجون ليملكوها فكان من الإله لها نصير
ولولا نصره دهمت بداء يشيب لهوله الطفل الصغير
سيبلغ ذكر سوسة كل أرض ويغشى أرضها الجم الغفير

قال الوالد رحمه الله في تاريخه حسن البيان حين ذكر هذه الواقعة ما نصّه :

« لم تزل سوسة معروفة بالامتناع على من رامها ، وأهلها يوصفون بالبأس والنجدة . وحسبك من امتناعها ونخوتهم أن أبا يزيد لما تملّكها وفعل فيها الأفعال الشنيعة : من قتل الرجال ، وسبيّ النساء ، وقطع الأعضاء ، وبقر البطون ، خالفوا عليه وبايعوا أبا القاسم القائم العبيدي ، ووجهوا عامل أبي يزيد إليه ، وذلك كلّه سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمّائة هـ، فحاصرها أبو يزيد حصاراً شديداً . وكان ما أخذه التحصيل من جند أبي زيد مائة ألف خص يسكن في الخص الواحد الثلاثة والأربعة فصاعداً ، فكان يقاتل سوسة كل يوم مرة له ومرة عليه ، ولم يزل محاصراً لها إلى أن توفي القائم العبيدي في ذلك العام وولي بعده ابنه إسمّاعيل الملقب بالمنصور ، فوجّه إلى أبي زيد جيشاً كان سبب ارتحاله عنها ا هـ المراد . وذلك سنة 333هـ وفي هذه الواقعة قال صاحب الترجمة الأبيات المتقدمة » .

33 – سهل بن إبراهيم الوراق

من شعراء مدينة سوسة في هذا العصر أيضاً .

ومن شعره في وقعة امتناع سوسة على أبي يزيد الخارجي لمناعتها وبأس ونجدة أهلها الوقعة الآنف ذكرها من قصيدة له في ذلك قوله :

إن الخوارج صدها عن سوسة ... منّاطعان السمر والاقدام
وجياد أسياف تطاير بينها ... في النقع دون المحصنات الهام

34 – أبو القاسم الفزاري القيرواني

كان رحمه الله من أكابر شعراء القيروان الفطاحل في عصره ومن أفاضل أهل السنة . فكان يهجو الأمراء العبيديين لأنهم من غلاة الشيعة ، ولذا كانوا يترصدون الفرص للانتقام منه ، بيد أنهم لم يتمكّنوا من ذلك لحسن نيّته وطيب سريرته .

ذكر صاحب كتاب **معالم الإيمان** : أن إسماعيل بن أبي القاسم بن عبيد الله لما دخل القيروان بعد قتله أبا يزيد مخلد بن كيداد الخارجي وذلك سنة 336هـ، طلب صاحب الترجمة فاختفى ولجأ إلى الشيخ أبي إسحاق السبائي ، وذكر له ما يخافه على نفسه من القتل ، فقال له أبو إسحاق : ما كان قصدك بقصيدتك ؟ قال : وجه الله . قال : الله ! قال : نعم ، قال : اذهب فإنه لا يلحقك منه مكروه . فساروا به إلى الأمير ، فقال له : أنشدني قصيدتك الربانية ، فأنشدها ، فلما فرغ حرّضه بعضهم على قتله ، فلم يلتفت إلى قوله وأذنه بالإنصراف ولم يتعرض له بمَكروه .

والقصيدة طويلة ، منها في مدح القيروان قوله :

فهل للقيروان وساكنيها ... عديل حين يفتخر الفخور
بلاد حشوها علم وحلم ... وإسلام ومعروف وخير
عراق الشام بغداد وهذي ... عراق الغرب بينهما كثير

ولست أقيس بغداداً إليها وكيف تقاس بالسنة الشهور
بلاد تقصف الجبار قصفاً إذا ما رامها منهم غدور
بلاد خطّها أصحاب بدر وتلك اختط ساحتها أمير
بناها المستجاب وقد دعا في جوانبها دعاء لا يبور
بناها كل بدري كريم كأن صفاح أوجههم بدور
هم صلوا بمسجدها براحاً وليس لها جدار مستدير
هم وضعوا لها أسساً وساسا فقدست المواضع والصخور
وقادهم الأذان إليه حتى أضاء لهم من المحراب نور
ولم يسبقهم ملك ظلوم لتأسيس ولا ملك كفور
وأصحاب النبيء له بناة ولا عصيان ثم ولا فجور
أقاموا سطر قبلتها سوياً إلى البيت العتيق فلم يجوروا

مراده بالمستجاب الذي بنى مدينة القيروان هو الصحابي الجليل فاتح إفريقية ومؤسس عاصمتها مدينة القيروان عقبة بن نافع رضي الله عنه ، وذلك أنه كان في عسكره خمسة وعشرون صحابياً جمعهم مع وجوه عسكره وكبار أصحابه فطاف بهم حول مدينة القيروان حين اختطها ، وأقبل يدعو لها هو وأصحابه . ويقولون في دعائهم : « اللهم املأها علماً وفقهاً ، واعمرها بالمطيعين لك والعابدين ، واجعلها عزاً لدينك ، وذلاً لمن كفر بك ، واعز بها الإسلام ، وامنعها من جبابرة الأرض ، اللهم حببها لسكانها ، وآتها رزقها رغداً من كل مكان . اللهم لا تطف لها ناراً ، ولا تهتك لها حريمًا » .

قالوا : فلم يعلم ببركة هذا الدعاء أنه سبي لها حريم ، ولا طفئت لهم نار ، ولا غلب أهلها على دينهم وعقائدهم ، وما كان عليه سلفهم الصالح مع من وليها من الشيع وأعداء الإسلام وأهله ا هـ .

وسبب تخوّف صاحب الترجمة من الأمير العبيدي ما اشتملت عليه قصيدته المذكورة على ما ذكره المؤرخون من أنه ، أي صاحب الترجمة ، أنشدها بين يدي أبي يزيد الخارجي بمحضر علماء القيروان ، يصف فيها بني عبيد وما هم عليه ، غير أن ما أثبتناه منها آنفاً لم يتضمّن شيئاً من ذلك وهو القدر الذي ظفرنا به منها .

ومن شعره أيضاً يرثي شهيداً من أهل بلده :

بنفسي صريعاً حالت الخيل دونه بمُعترك الأبطال أي صريع
ولست له أبكي ولكن لمعشر أصيبوا به من مفرد وجميع
وللعلم والإسلام والفضل والتقى وطول اجتماع واصطناع منيع
مضى علم العلم الرفيع وطالما أصابت قناة الموت كل رفيع

35 – أبو الحسن علي بن محمد الأيادي المشهور بالتونسي

نشأ هذا الفاضل والأديب الكامل بمدينة تونس ، ثم انتقل إلى المهدية فانتظم في سلك شعراء الأمير القائم العبيدي وفاقهم ، وكذلك ابنه إسماعيل المنصور له فيهما أشعار رائقة . عمّر ، وتوفي في أيام دولة المعزّ حوالي سنة 365هـ. وهو من الشعراء المتقدمين الفحول كالمتنبي في المشرق ، فكان شاعراً مفلقاً معترفاً له بجودة الشعر ، مبرزاً فيه لدى الخاصة والجمهور . وقد ذكرنا سابقاً في مقدمة هذا العصر العبيدي نقلاً عن أبي علي الحسن ابن رشيق في **العمدة** كيف اعتبره الشاعر ابن هانىء كفئاً له ونظيراً ، وذلك أن ابن هانىء لما وصل إلى إفريقية وهجاه شعراء البلاط العبيدي قال ابن هانىء : لا أجيب منهم أحداً إلّا أن يهجوني على التونسي فإني أجيبه . فلما بلغ قوله علياً صاحب الترجمة قال : أما إني لو كنت ألأم الناس ما هجوته بعد أن شرّفني على أصحابي وجعلني من بينهم كفئاً له اهـ .

فمن شعره قوله :

أما إنه لولا الخيال المراجع وعاص يرى في النوم وهو مطاوع
لأشفق واستعصى من النوم والِهٌ يرى بعد روعات الهوى وهو هاجع

وقوله :

طيف يزورك من حبيب هاجر أهلاً به وبطيفه من زائر
شقّ الدجى وسرى فأمعن في السرى حتى ألمّ فبات بين محاجر
يحدو به هيف القوام المنثني نحوي وسالفة الغزال النافر

لله درك من خيال واصل أسرى فانصف من حبيب هاجر
عللت علّة قلب صب هائم وقضيت ذمة فيض دمع قاطر

ومن شعره أيضاً في وصف روضة الرياض وما فيها من زهور وطيور في ضحى يوم مغيم :

قد نم في الروضة خفق الرياح واقتدح الشرق زناد الصباح
وأخجل الورد شعاع الضحى وابتسمت فيه ثغور الأقاح
وقام في الدوح لنعي الدجى حمائم تطربنا في الصباح
قد ولد الصبح ومات الدجى صاحت فلم ندر غنا أم نواح
ويوم دجن حجبت شمسه وأشرقت في ليله شمس راح
فما ظننا الصبح إلّا دجى ولا حسبنا الليل إلّا صباح

ومن شعره الغزلي قوله :

كـأنني عـانـقت ريحانـة تنفسّت في ليلها البارد
فلو ترانا في قميص الدجى حسبتنا في جسد واحد

ومن جيد شعره قوله يصف أسطول الأمير القائم العبيدي :

أعجب بأسطول الأمير محمد وبحسنه وزمانه المستغرب
لبست به الأمواج أحسن منظر يبدو لعين الناظر المتعجب
من كل مشرفة على ما قابلت أشراف صدر الأجدل المتنصب
دهماء قد لبست ثياب تصنع تسبي العقول على ثياب ترهب
من كل أبيض في الهواء منشر منه وأسحم في الخليج مغيب
كمرادة في البر يقطع سيرها في البحر أنفاس الرياح الشذب
كقوادم النسر المرفرف عريت من كاسيات رياشه المتهدب
خرقاء تذهب إن يد لم تهدها في كل أوب للرياح ومذهب

ومن هذه القصيدة الفريدة في ذكر الشراع :

ولها جناح يستعار يطيرها طوع الرياح وراحة المتطرب
يعلو بها صوب العباب مطاره في كل لج زاخر مغلولب
تسمو بأجرد في الهواء متوج عريان منسرج الذوائب شوذب
يتنزّل الملاح منه ذؤابة لو رام يركبها القطا لم يركب
فكأنما رام استراقة مقعد للسمع إلّا أنه لم يشهب

وفي وصف الملاحين يقول :

وكأنما جنّ ابن داودهم ركبوا جوانبها بأعنف مركب
سجروا جواهم نارهم فتقاذفوا منها بألسن مارج متلهب
من كل مسجون الحريق إذا انبرى من سجنه انصلت انصلات الكوكب
عريان يصدمه الدخان كأنه صبح يكر على الظلام الغيهب
يذهبن فيما بينهن لطافة ويجبن فعل الطائر المتغلب

وفي وصف المجاذف يقول :

محفوفة بمجاذف مصفوفة في الجانبين دوين صلب صلب
وتحثها أيدي الرجال إذا ونت بمصعد منه بعيد مصوب
جوفاء تحمل كوكباً في جوفها يوم الرهان فتستقل بمَوكب
يعلو بها حدب العباب مطاره في كل لج زاخر مغلولب
شرعوا جوانبها مجاذف أتعبت شأو الرياح لها ولما تتعب
والبحر يجمع بينها فكأنه ليل يقرب عقرباً من عقرب
تنصاع من كثب كما نفر القطا طوراً وتجتمع اجتماع الربرب

وفي صفة الجيش الذي يركبه يقول :

وعلى جوانبها أسود خلافة تختال في عدد السلاح المرهب
وكأنما البحر استعار بزيهم ثوب الجمال من الربيع المذهب

ومنها :

ولواحق مثل الأهلة جنح	لحق المطالب فاشيات المهرب
كنضانض الحيات رحن لواغباً	حتى يقعن ببرك ماء الميزب

قال المقري في **نفح الطيب** بعد أن ذكر جملة من هاته القصيدة العصماء العجيبة المشتملة على التشابيه الغريبة ما نصّه :

«وهي طويلة من غرر القصائد . وقد سرد منها جملة صاحب **المناهج** وغيره» ا هـ .

وقال أبو إسحاق الحصري لما ساقها في **زهر الآداب** : إن الأيادي قد أجاد فيها ما أراد .

كما نسب المقري إلى صاحب الترجمة هذا البيت وهو :

ألؤلؤ قطر هذا الجو أم نقط	ما كان أحسنه لو كان يلتقط

ويوجد في ديوان ابن هانىء المطبوع قصيدة غراء يمدح بها المعز لدين الله طالعها هو البيت المذكور مع تغيير يسير ، فلعله من توارد الخواطر . ونصّ الطالع :

ألؤلؤ دمع هذا الغيث أم نقط	ما كان أحسنه لو كان يلتقط

ومن شعره قوله :

بالجرع كالمخبتني كانت لنا	ذات ليال قد تولّت قصار
بانوا فما بِنت أُسى بعدهم	وإنما الناس نفوس الديار

36 – أبو العباس عبد الله بن أحمد بن إبراهيم بن إسحاق التونسي ويعرف بالأبياني[1] التميمي

قال العلامة ابن فرحون في **الديباج المذهب** في شأن صاحب الترجمة : أنه تفقّه بيحيى بن عمر وأحمد بن سليمان ، وحمديس ، ويحيى بن عبد العزيز ، وحماس ابن مروان ، وغيرهم ، وصحب لقمان بن يوسف ، وذاكر أبا بكر اللباد . ويروي

(1) بكسر الهمزة المشددة وقيل الصواب بتخفيفها .

عنه الأصيلي ، وأبو الحسن اللواتي ، وعمر بن محمد ، وسعيد بن ميمون ، وأبو علي الغولي ، والقابسي ، وابن أبي زيد ، وغيرهم .

وأنه كان أبي الأبياني عالم إفريقية غير مدافع ، وشيخ أهل العلم وحفاظ مذهب مالك من أهل الخير والوجاهة ، ويميل إلى مذهب الشافعي . حيناً منقبضاً ، حافظاً ، ذا كلام في الفقه ، صالحاً ، ثقة ، مأمولاً ، إماماً فقيهاً عاقلاً حليمًا نبيلاً فصيحاً عالماً بما في كتبه ، حسن الضبط ، حسن الحفظ ، جيد الاستنباط .

كان أبو محمد بن أبي زيد إذا نزلت به نازلة مشكلة كتب بها إليه ليبيِّنها له .

ولما وصل إلى مصر تلقّاه نحو من أربعين فقيها لم يكن فيهم أفقه منه . وقال ابن شعبان : ما يزال بالمغرب علم ما دام فيه أبو العباس . وقال : من أراد أن ينظر إلى فقيه فلينظر إليه . وقال : ما يزال أهل المغرب بخير ما دام بين أظهرهم ، وما عدا النيل منذ خمسين سنة أعلم منه .

وكان أبو الحسن القابسي يقول : ما رأيت بالمشرق ولا بالمغرب مثل أبي العباس ، كان يفصل المسائل كما يفصل الجزار الحاذق اللحم . وكان يحب المذاكرة في العلم ويقول : دعونا من السماع ، ألقوا المسائل . وكان يدرس كتاب ابن حبيب .

وذكر اللواتي أنه قرأ على أبي العباس في **الواضحة** صدراً من كتاب البيوع فقال له : بقي من الكتاب حديث كذا ومسألة كذا ، فنظرنا فلم نر شيئاً ، ثم تأملنا فإذا ورقتان التصقتا فتجاوزناهما فإذا فيهما كل ما ذكر ، فتعجبنا من حفظه .

وكان قليل الفتوى . قال له ابن القوطي : أنت اليوم عندنا ، فقال له أبو العباس : تعلم أنه لا ضيافة على أهل الحضر؟ فقال له أبو إسحاق : قال ابن عبد الحكم : عليهم الضيافة .

وقال أبو العباس لرجل : تحب أن تفلح ؟ قال : نعم ، قال : فلتكن عندك الدنيا أهون من الزبل . (ولعلّه رضي الله عنه رأى من هذا الرجل زهواً وكبرياء ، فأمره بذلك ليعالج نفسه من هذا المرض) .

وكان صاحب الترجمة كثير التواضع ؛ إذا قيل له : الفقيه ، يقول : لقب لقبناه .

وكانت له فراسة لا تكاد تخطىء ؛ يذكر أنه قال لأبي الحسن القابسي وهو

يطلب عليه العلم : لتضربن إليك آباط الإبل من أقصى المغرب . فكان كما قال .

وكان له شعر حسن منه قوله :

ماذا تريك حوادث الأزمان وصروفها وطوارق الحدثان

وأشد ما ألقى وأنضج للحشى عدم الوفاء وجفوة الإخوان

عمّر ، وكانت وفاته سنة اثنين وخمسين وثلاثمائة هـ وقيل سنة إحدى وستين وهو ابن مائة سنة غير أربعة أشهر رحمة الله عليه .

37 – أحمد بن إبراهيم بن أبي عاصم اللؤلؤي أبو بكر القيرواني

ترجم له الإمام السيوطي في **بغية الوعاة** في طبقات النحاة بأنه النحوي اللغوي . ونقل عن الزبيدي : أنه من العلماء النقاد في العربية ، والغريب . والحفظ لذلك ، والقيام بشرح أكثر دواوين العرب ، وأنه لازم أبا محمد المكفوف وأخذ عنه . ألف كتاباً في الظاء والضاد . وكان شاعراً ثم ترك الشعر وأقبل على الحديث وأنه مات سنة 318 هـ عن ست وأربعين سنة اهـ

لم أقف على شيء من شعره .

38 – ابن بديل الكاتب

من كتاب عبيد الله المهدي مؤسس الدولة العبيدية بإفريقية . ومنشىء مدينة المهدية ، إحدى عواصم الإسلام في التاريخ . ولما تمّ بناؤها سنة 308هـ وحصنها وانتقل بالسكنى إليها هنأه الشعراء ، فممـا استحسن من ذلك قول ابن بديل الكاتب المذكور من قصيدة :

بنيت لدى أقصى المغارب دار قطنت بها الأحرار والأبرار

لاذت ببرد الماء لما ان درت أن القلوب على الحسين جرار

39 – أبو بكر بن مجبر

من شعراء دولة أبي الطاهر إسماعيل المنصور العبيدي ، ومن المسجلين لوقائعه الحربية في شعره ، ومن أنصار دعوته . قال : لما انتصر المنصور على علي بن إسحاق الميورقي الخارجي بمقربة من الحامة من قصيدة يهنئه فيها بانتصاره :

لقد برزت إلى هول المنايا وجوه كان حجّبها اللثام
وما أغنت قسي العز عنها وليست تدفع القدر السهام

قال التجاني : وهي ثابتة في ديوان شعره .

ولما حاصر المنصور مدينة قفصة التي مالأت الميورقي الخارجي وآوته وفتحها وهدم سورها وقطع نخيلها وبذل الأمان لسكانها ، قال أبو بكر بن مجبر في ذلك من قصيدة :

ما غرّ قفصة إلّا أنها اجترمت فلم يكن عند أهل الحلم تثريب
ما بالها زار أمن الله حوزتها فلم يكن عندها أهل وترحيب
تلك البغي التي خانت فحاق بها وبالزناة بها رجم وتغريب
قد فض شملهم عنها وقد نعبت بها من الحين غربان غرابيب
أما يرد سليماً ما يباشره وفيه للنفس ترغيب وترهيب
هذي أعاديه قد صارت مقسمة على البلايا فمقتول ومسلوب

40 – أحمد بن أبي الأسود القيرواني

قال السيوطي في بغية الوعاة في شأنه : قال الزبيدي : كان غاية في النحو واللغة ، شاعراً مجيداً ، من أصحاب أبي الوليد المهري ، صنف في النحو والغريب ، وله مؤلفات في التاريخ ا هـ .

العصر الرابع
من عصور الأدب العربي بالقطر التونسي
العصر الصنهاجي
263 هـ – 603 هـ

يمتد هذا العصر من لدن أولى المعز لدين الله العبيدي حين اراد الانتقال الى مصر واتخاذ القاهرة التي أسسها عاصمة لملكه بلكين بن زيري أميراً على أفريقية مستقلاً بها داخلياً الى أن استولى على البلاد الموحدون وأولي الناصر بن منصور الموحدي من بني عبد المؤمن اميراً عليها أبا محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص فاستقل بها أولاً داخلياً ثم بنوه من بعده استقلالاً تاماً . وقد تطور الشعر العربي بالايالة التونسية تطوراً عظيماً في هذا العصر الذي يستحق أن يسمّى عصر الازدهار . ومن أبرز أسباب ذلك أن جملة من أمراء الدولة الصنهاجية كانوا علماء أدباء وشعراء فحولاً . فالمعز بن باديس ابن مؤسس هذه الدولة كان عالماً أديباً ذكياً ألمعيًّا يقرض الشعر ويجيده . كما كانت له معرفة بصناعة الموسيقى والألحان . كما كان ابنه الأمير تميم عالماً شاعراً أيضاً ، ومثله ابنه يحيى ، كان عالماً أيضاً . وله ولوع بالسير والأخبار ، عارفاً بالنجوم ، وله دراية بعلم الطب والشعر ، مع طول أمد إماراتهم . فالمعزّ امتدت إمارته تسعاً وأربعين سنة ، وابنه تميم امتدت إمارته أيضاً ستاً وأربعين سنة .

وأثبت التاريخ أنه كان مكرماً للعلماء وأهل الفضل يقصده الشعراء فيجيزهم الجوائز السنية .أما يحيى فمدة إمارته كانت ثمانية أعوام وستة أشهر فقط ، فهؤلاء الأمراء والعلماء الأدباء لا شك أنهم ساهموا مساهمة جليلة فعالة في نفاق سوق العلم والأدب بمملكتهم ، وأعانوا على ازدهاره في البلاد فتهافت النابغون فيهما على الاتصال بهم وبكريم بلاطهم ، وقد كانوا مكرمين لهم ، حفيين بهم ، فكثر الوافدون عليهم ، ولذا كان عصرهم وهو العصر الصنهاجي أحفل عصور الآداب بإفريقية ، ناهيك أن أحد كتّاب هذا البلاط والبارزين منهم فيه وهو أب الحسن علي بن أبي الرجال من رجالات بلاط المعز ومن ذوي المكانة السامية فيه المرموقين له ألف الحسن ابن رشيق كتابه **العمدة** باسمه تزلفاً له وتقرباً منه . وهو من أبرز كتّاب وشعراء ذلك البلاط . وقد نوّه في كتابه المذكور بمقام ابن أبي الرجال وبشعره تنويهاً عظيماً ، كما ألّف **الأنموذج** جمع فيه تراجم فحول الشعر في هذا العصر الزاهر ونبذاً من أشعارهم بما أوضح به سمو أقدارهم ، وعلو كعبهم فيه ، غير أن الواصل إلينا من هذا المؤلف نقطة من بحر ، بل نتف مبعثرة من تراجم بعض من ذكرهم فيه اقتطفها منه بعض من كتب في تاريخ الأدب العربي ورجاله . كما أن ابن رشيق ألّف كتاباً آخر خصّه بتراجم شعراء عاصمة العبيديين المهدية سمّاه **الروضة الموشية في شعراء المهدية** ، وهو يدل على وفرة ما بها من الشعراء كيف لا وهي عاصمة البلاد إذ ذاك .

وكتاب **العمدة** في الصناعة الشعرية الذي أشرنا إليه آنفاً قال فيه العلامة ابن خلدون: إنه لم يؤلف قبله ولا بعده مثله.

ومن رجال هذا العصر المعدودين أيضاً: إبراهيم الحصري القائل ابن رشيق في شأنه في كتاب **الأنموذج**: أن شبان القيروان كانوا يجتمعون عنده ويأخذون عنه العلم والأدب، وعلا صيته وسارت تآليفه في الآفاق من أجلها كتاب «**زهر الآداب وثمر الألباب**» جمع فيه غرائب النثر والنظم في ثلاثة أجزاء قالوا: لو اقتصر عليه المتأدب لكفاه وأغناه عن غيره.

ومنهم أبو عبدالله محمد بن شرف المنتقل إلى الأندلس لما أخربت الأعراب بلدهُ القيروان وقد أثنى عليه أبو الوليد الباجي ووصفه بالعلم والذكاء وقال فيه: إن العلم والأدب من بعض علومه.

ومنهم أبو الحسن علي الحصري ابن خالة إبراهيم الحصري المتقدم ذكره، وهو ايضاً من العلماء الجلّة والأدباء الأفذاذ.

وبالجملة، فهذه الحقبة من عصور الأدب بالقطر التونسي بلغت فيها الايالة التونسية شأواً بعيداً في العلم والأدب والحضارة، فذاع صيتها، وأمّها نُبَغاء كثيرون وعلماء ماهرون في مختلف العلوم، وقصدها روّاد الظهور الراغبون في الحصول على الحظوة والجاه العريض من مختلف الأمصار.

ذكر المقري في **نفح الطيب** أن من المهاجرين من الأندلس أبا مروان عبد الملك بن أبي بكر محمد ابن زهر الأيادي الأندلس صاحب البيت الشهير بالأندلس، رحل إلى المشرق وتطّبب (أي اشتغل طبيباً)، وتولى رئاسة الطب ببغداد، ثم بمِصر، ثم القيروان. ثم استوطن دانية من بلاد الأندلس، وطار ذكره فيها إلى أقطار المغرب والأندلس. واشتهر بالتقدّم في علم الطب حتى فاق أهل زمانه، وبها أي بدانية مات والده، وتوفي هو بطلبيرة عام 422 هـ وهو ابن ست وثمانين سنة 19م.

ومثله أبو الصلت أمية بن عبد العزيز وفد بإفريقية على أميرها علي بن يحيى ابن تميم، فأنزله لديه بمنزله رفيعة، قال المقري أيضاً في **نفح الطيب** في شأنه: أن عمره بلغ إلى ستين سنة منها عشرون سنة في بلده إشبيلية، وعشرون في إفريقية عند ملوكها الصنهاجيين، وعشرون في مصر محبوساً في خزانة الكتب.

وكان وجهه صاحب المهدية إلى ملك مصر ، فسجن بها طول تلك المدة في خزانة الكتب ، فخرج في فنون العلم إماماً ، وأمتن علومه الفلسفة والطب والتلحين . وله في ذلك تآليف تشهد بفضله ومعرفته . وكان يكنى بالأديب الحكيم وهو الذي لحن الأغاني الإفريقية . قال ابن سعيد : وإليه تنسب إلى الآن ا هـ .

وتوفي أمية هذا بالمهدية سنة 429هـ، ودفن بالمنستير .

وهنالك طائفة آخرون من أهل العلم قصدوا في هذا العصر أيضاً مدينة القيروان للأخذ عن أعلامها شتى العلوم سواء منها الشرعية أو العربية .

منهم : أبو عمران الفاسي ، وفد على القيروان من فاس فتفقّه بها حتى صار إماماً في الفقه ، وعلوم القرآن ، وفي الحديث وعلله ورجاله . كان ورعاً مهيباً ، عالماً بأصول الدين ، استوطن القيروان وبها توفي سنة 430هـ

وكان العلم في هذا العصر بمدينة القيروان أهله متوافرون فمن هؤلاء الأعلام المشار إليهم بالبنان في علوم الشريعة وغيرها : أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني المتوفى سنة 486هـ كان إماماً جليلاً ، أول من يعبر عنهم بالمتأخرين عند فقهاء المالكية ، ويعبرون عنه بالشيخ ، وبمَالك الصغير .

ومنهم أبو بكر بن عبد الرحمان المتوفى سنة 432هـ أحد حفاظ المذهب المالكي المعدودين والفقهاء المبرِّزين ، وهو وأبو عمران الفاسي شيخا فقهاء القيروان في وقتهما .

ومنهم أبو القاسم السيورى المتوفى سنة 460هـ

وتلميذه أبو الحسن اللخمي المتوفى سنة 498هـ

وعبد الحميد الصائغ المتوفى سنة 486هـ

وأبو عبد الله المازري المتوفى سنة 536هـ، وكان يحسن جملة من العلوم منها الأدب والحساب والطب . وكان يفزع إليه في علم الطب كما يفزع إليه في الفقه .

أما في علوم العربية فمثل أبي عبد الله محمد بن جعفر التميمي النحوي المعروف بالقزاز المتوفى سنة 422هـ كان إماماً في علوم العربية يغلب عليه النحو ، وكان مولعاً بالتآليف .

ومثل أبي الحسن علي الحصري المتوفى سنة 488هـ الضرير ، كان زعيماً في علمي

العربية والقراءات .

ومثل عثمان بن علي الصدفي المتوفى سنة 404هـ، كان عالماً باللغة والأدب متقناً في علوم كثيرة متبحراً في علم الحديث ، ومن حفاظه : كتب عن الحافظ ابن نعيم وحده مائة ألف حديث .

ومثل أبي المحاسن يوسف بن محمد المعروف بابن النحوي . كان متبحراً في جميع العلوم ، وكان من الزهاد . قال علماء عصره : هو بالمغرب كالغزالي في المشرق علماً وعملاً ، توفي سنة 513هـ

وكأبي زكرياء يحيى الشقراطسي ، المتوفى سنة 429هـ كان متبحراً في جميع العلوم إماماً في الأدب .

وكابنه أبي محمد عبد الله المتوفى سنة 466هـ كان إماماً في علوم العربية وفي الحديث والفقه عالماً بفنون الأدب وغير هؤلاء يوجد منهم جم غفير بإفريقية في هذا العصر لا داعي للإطالة بذكرهم هنا . وبالجملة لم يضعف أمر العلم والأدب بإفريقية بعد ازدهارهما فيها إلاّ بعد تخريب الأعراب الصعيديين لها وبعد استيلاء النرمان عليها وذلك أثناء المائة السادسة .

قال الشيخ محمود مقديش الصفاقسي في تاريخه ما نصه : واستيلاء النصارى على البلاد سنة 543هـ هو السبب في انقطاع المجتهدين من إفريقية لا سيما وقد استولى عليها مفسدو الأعراب اهـ

وقال صاحب **معالم الإيمان** ما نصه : ثم انقضت هذه الطبقة بعد الخمسمائة سنة ولم يبق بالقيروان من له اعتناء بتاريخ أو علم لاستيلاء مفسدي الأعراب على إفريقية وتخريبها وإجلاء أهلها عنها إلى سائر بلاد المسلمين ، وذهاب الشرائع بذهاب من ينصرها من الملوك ، إلى أن منّ الله على الناس بظهور دولة الموحدين ، فوضحت بها معالم الدين وسبل الحق ورسوم الشرع ، فظهر بظهورها في إفريقية العلماء والصلحاء وذلك في سنة الأخماس 555هـ اهـ .

وكان وفود الأعراب الصعيديين وتخريبهم مدينة القيروان بسبب أن المعز بن باديس خلع الخليفة العبيدي بمصر وبايع للخليفة العباسي ، فأراد الخليفة العبيدي الانتقام منه ، فسرح أعراب الصعيد انتقاماً من الأمير الصنهاجي الذي خلع بيعته ،

فأجازوا لها وأخربوها ، حتى أصبحت إفريقية وعاصمتها القيروان أثراً بعد عين ا هـ .

وقال عبد الواحد المراكشي في **المعجب** ما نصه : كانت العمارة متصلة من مدينة الإسكندرية إلى مدينة القيروان تمشي فيها القوافل ليلاً ونهاراً ، إلى أن قال : فانتهبتها الأعراب وخربتها ، فهي كذلك خراب إلى اليوم ، فيها عمارة قليلة يسكنها الفلاحون وأرباب البادية ، وآثار المدن والحصون باقية إلى اليوم ا هـ .

ويقول أيضاً ما نصه : كانت القيروان هذه في قديم الزمان منذ الفتح إلى أن خربتها الأعراب دار العلم بالمغرب ، إليها ينسب أكابر علمائه ، وإليها كانت رحلة أهله في طلب العلم . وقد ألف الناس في أخبار القيروان ، ومناقبها ، وذكر علمائها ، ومن كان بها من الزهاد والصالحين والفضلاء المتبتلين كتباً مشهورة ، ككتاب محمد بن عفيف وكتاب ابن زيادة الله الطبني ، وغيرهما من الكتب . فلما استولى عليها الخراب ، تفرّق أهلها في كل وجه ، فمنهم من قصد بلاد مصر ، ومنهم من قصد صقلية والأندلس ، وقصدت منهم طائفة عظيمة أقصى المغرب ، فنزلوا مدينة فاس ، فعقبهم بها إلى اليوم ا هـ .

ويقول أيضاً ما نصه : ومدينة فاس هذه حاضرة المغرب في وقتنا هذا (أي ، سنة 621هـ) ، وموضع العلم منه . اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة ، إذ كانت قرطبة حاضرة الأندلس كما كانت القيروان حاضرة المغرب . فلما اضطرب أمن القيروان بعبث الأعراب فيها ، واضطرب أمر قرطبة باختلاف بني أمية بعد موت أبي عامر محمد بن أبي عامر وابنه ، رحل من هذه وهذه من كان فيهما من العلماء والفضلاء من كل طبقة فراراً من الفتنة ، فنزل أكثرهم مدينة فاس فهي اليوم على غاية الحضارة ، وأهلها في غاية الكيس ، ونهاية الظرف ، ولغتهم أفصح اللغات في ذلك الإقليم ، وما زلت أسمع المشائخ يدعونها بغداد المغرب وبحق ما قالوا ذلك ا هـ .

فمن رجال هذا العصر من سيذكر .

41 – أبو عبد الله محمد بن أحمد الخياط الواعظ

نشأ في طلب العلم ، فبرع ، واشتهر فضله ، ثم تزهد ، وكان متقشفاً ذا

عبادة ، رقيق القلب ، شفيقاً . حجّ فلقي بمكة المشرفة الأعلام ، ولقي الدينوري ، ثم رجع إلى القيروان . ردّ كثيراً من الخلق إلى الله بعذوبة ألفاظه ، ورقة طبعه ، يضع دواءه على أدواء القلوب فيبريها ، ومرهم وعظه على جراح الذنوب فتندمل ، حتى كثر الخير بمجالسته والنسك في أهل عصره برقة حكاياته . وكان شاعراً مجيداً . توفي يوم السبت السابع عشر من شعبان سنة 386هـ

ومن شعره :

ماذا تقول وليس عندك حجة ... لو قد أتاك منغص اللذات
ماذا تقول إذا دعيت فلم تجب ... وإذا سئلت وأنت في غمرات
ماذا تقول وليس حقك جائزاً ... فيما تخلفه من التركات
ماذا تقول إذا حللت محلة ... ليس البغاة بأهلها بثقات

42 – أبو محمد عبد الله بن أبي زيد عبد الرحمان النفزي القيرواني

ولد بالقيروان ، وبها نشأ . وطلب العلم عن علمائها الأعلام ، فبرع في علوم الشريعة وفاق الأقران ، فاشتهر علمه ، وانتفع الناس بعلومه ، وضربت إليه أكباد الإبل من الأقاصي للأخذ عنه .

ألّف الرسالة المشهورة للصبيان وسنه سبع عشرة سنة ، فكتب نسختين منها وجه إحداهما لأبي بكر الأبهري ببغداد ، وهو إمام المالكية بها ، فأظهر الفرح بها وأشاع خبرها بين الناس ، وأثنى عليها وعلى مؤلفها ، وأمر ببيعها ليُحسن بثمنها إلى الواصل بها ، فبيعت بوزنها دنانير كان عددها ثلاثمائة دينار ونيفاً . وبعث بالأخرى إلى أبي بكر بن زرب بقرطبة .

كان ابن أبي زيد إمامَ مذهب المالكية في وقته ، وشارح أقواله ، واسع العلم ، جيّد الفهم ، كثير الرواية ، فصيحاً ، غزير الحفظ ، بصيراً بالرد على أهل الأهواء ، شاعراً مجيداً ، ويجمع إلى ذلك صلاحاً تاماً ، وورعا وعفة ، حاز رئاسة الدين والدنيا . كان ينفق على غرباء تلامذته ، ويقوم بجميع شؤونهم من مسكن ومأكل وملبس حتى كان ليزوج بعضهم ، حريصاً على هداية البربر ، فأسلم على يديه وتاب

من ضلالته خلق منهم . له التآليف المفيدة **كالنوادر** وغيرها . أفردت ترجمته بالتأليف ، توفي بالقيروان سنة 386هـ في شعبان .

من شعره يرثي شيخه أبا بكر محمد بن اللباد بقصيدة منها :

يطول شوقي إلى من غاب منظره — وذكره في جوى الأحشاء قد سكنا
لهفي على ميت ماتت به سبل — قد كان أحيا رسوم الدين والسننا
كم محنة طرقته في الإله فلم — يحزن لذلك إذ في ربه امتحنا

ومنها :

فتى استنار به الإسلام في بلد — لولاه مات به الإسلام واندفنا
الفقه حِلّيته والعلم حليته — والدين زينته والله شاهدنا
أب لأصغرنا كهف لأكبرنا — وفي النوازل ملجانا ومفزعنا

أما العلامة ابن فرحون ، فذكر في ترجمته لابن أبي زيد من كتابه **الديباج المذهب في تراجم علماء المذهب المالكي** : أنه كانت إليه الرحلة من الأقطار . عرف قدره الأكابر ، وكان يعرف بمالك الصغير ، وقال علي القطان : ما قلدت أبا محمد ابن أبي زيد حتى رأيت النسائي يقلّده ، واستجازه ابن مجاهد البغدادي وغيره من أصحابه البغداديين ، اجتمع فيه العلم والورع والفضل والعقل ، سريع الرجوع إلى الحق ، يقول الشعر ويجيده ، شهرته تغني عن ذكره ، ثم ذكر أن له من التآليف كتاب **النوادر والزيادات** على **المدونة** أكثر من مائة جزء ، وكتاب **اختصار المدونة** الكتابان مشهوران عليهما المعول في المذهب المالكي ، و **تهذيب العتبية** ، وكتاب **الاقتداء بأهل المدينة** ، وكتاب **الذب عن مذهب مالك** ، وكتاب **البيان من إعجاز القرآن** . وعدّ كثيراً من أسماء تآليفه ، ثم قال : أن تآليفه كلها مفيدة بديعة غزيرة العلم ا هـ . المراد منه .

43 — أبو عبد الله محمد يعرف بصاحب الأوشاني

عالم أديب ، غلب عليه الزهد والعبادة ، له سياحات ورياضات ورباط وعزلة عن الناس . حجّ فوق العشرين حجة ، وصام حتى نحل جسمه وغارت عيناه . توفي

سنة 387هـ، ودفن بباب نافع أحد أبواب القيروان .

من شعره :

أرضَ بقوت تَعِشْ سعيداً سَقْيا لحُرّ كفاه قوت
كم يرغب الراغب المعنّى حسبك فالرزق لا يفوت
أحسنت ظني فطاب عيشي علماً بأني غداً أموت

44 – أبو محمد عبد الله بن محمد اللمّائي

نشأ بالقيروان ، وطلب العلم وبرع . رحل للمشرق فلقي الجلة ، وكان من العلماء الراسخين ، ذا خلق حسن ، وشارة جميلة ، وسمت وسكينة ، بليغ المنطق ، شاعراً .

من شعره :

المال للمرء في معيشته خير من الوالدين والولد
ومن يطل سقمه عليه يجد خيراً من المال صحة الجسد
وما لمن نال فضل عافية وقوت يوم فقر إلى أحد

توفي أواخر المائة الرابعة .

45 – أبو محفوظ محرز بن خلف التونسي الصديقي

نشأ بتونس ، وعن علمائها أخذ العلم والأدب . كان عالماً فقيهاً ، غلب عليه الزهد والعبادة . اشتهرت فضائله ، وكان ملجأ لأهل تونس وغيرهم في قضاء حوائجهم ، معظمًا عند السلطان ، يرجون بركته ويخشون دعوته .

ألّف له ابن أبي زيد **الرسالة** التي ببركة إشارته نفعت شرقاً وغرباً . أفردت ترجمته وكراماته بالتأليف . وكان مربياً ، انتفع الناس بوعظه وتعاليمه . يكثر التردد على الأماكن الخربة للاتعاظ بها وبأهلها الذين انقرضوا وتركوها بعدهم دالة على أن

الملك لله وهو وارث الأرض ومن عليها ، وأن المغرور من اغترّ بزخرفها واعتمد على قوة قومه وسعادة يومه . وكان شاعراً مفلقاً . توفي سنة 413هـ

من كلامه الحكمي : المؤمن يأكل ما حضر ويلبس ما ستر . ويأخذ ما صفا ويترك ما كدر .

ومن شعره وقد مرّ على قرطاجنة فرأى من خرابها وخلوها من أصحابها فقال واعظاً نفسه من مخمس مطلعه :

مررت بربع بالسراب تلفعا وطود جلال بالخطوب تصدعا
فقلت وقد أجرت جفوني أدمعا : خليلي مرّا بالمدينة واسمعا
مدينة قرطاجنة ثم ودعا

رمتها صروف الحادثات بنبلها ورامت يد الأقدار تشتيت شَملها
قفا وانظرا إن جزتما بين سبلها طلولاً بها تبكي لفقدان أهلها
كما بكت الأطلال كسرى وتبعا

فإن لم تصيبا في الرسوم مؤانساً ولم تجدا بين القباب مجالسا
ولم، تريا منها مجيباً ممارساً فقولا لها : ما بال ربعك دارسا؟
وما بال وفد قد بناك وودعا ؟

ترى قبضته الموت من بعد بسطة وحطته من بعد ارتفاع وخطة
وقولا فما أخلاك من بعد غبطة وخلاك من بعد اجتماع وخلطة
ومن بعد تشييدٍ خلاءً وبلقعا

ألا هل على ما قلته من مجاوب ؟ وهل منك يا مغنى لنا من مخاطب ؟
أمن بعد تلحين وصوت رواهب تصفق فيك الريح من كل جانب
وفرق منك الدهر ما قد تجمعا ؟

وبقية القصيدة قوله :

لقد كان ندب في الملوك معظمًا عزيزاً مكيناً في الجيوش مقدما
مضى ملكه من كفّه فتصرما ألا طالما قد كان فيه منعما
وبالخرد الغيد الحسان ممتعا

نقل المؤلف رحمه الله تعليقاً لبعضهم على قوله : لقد كان ندب الخ . أنه اسم ملك من ملوكها ، قال : ولعله اطلع على ذلك . وكلام الشيخ صريح فيه ، وعليه فأول ملوك عاد بإفريقية يسمّى ندباً ا هـ .

علوم تفاني خاطري بفنونها تلوح إلى أهل الهوى بمصونها
فها أنا أبديها لكم من عيونها فيا سائلي عمّا مضى من قرونها
وعمّن بناها أولاً متشرعا

خذوا علمها إن كنتم أهل أسوة ففي كل ما قلنا لكم نور قدوة
ألا أنها دار لأرباب دولة بناها بقايا آل عاد بقوة
وظنوا بأن الشعب لن يتصدعا

لقد ضيقوا وسع البلاد ببغيهم وقد نصبوا عرش العتو بسعيهم
وقد أبرموا ما أحكموه برأيهم وكانوا طغاة يعملون بغيهم
وقالوا فأنا لن نذل ونخضعا

أقامت لهم أسيافهم علم العلى وظنوا بأن العيش لن يتبدلا
وما زال صرف الدهر يسقيهم البلا إلى أن دعاهم ما دعا عادا الأولى
بصرف الليالي مستحثاً ومسرعا

تأمل لأنوار الهدى وشعاعه تدبر حديث القوم عند سماعه
رماهم تناهيهم بسيف انقطاعه فمَزق ذاك الشمل بعد اجتماعه
فلله دهر ما أغرّ وأفجعا

فجرعها الطغيان كأس مصابها وألبسها الإسراف ثوب سرابها
وخطت صروف الدهر سطر خرابها فأضحت خراباً ألف عام وما بها
مجيب سوى صوت الحمام إذا نعى

لقد أصبحت بعد القطين دواسراً وكانت بأمثال البدور عوامرا
بنى البين بالتغريد فيها منابراً وتعوي بها طلس الذئاب بواكرا
كأن لم تكن للخرد الغيد مرتعا

ولما غدت تلك القصور خواليا وهدت يد الأقدار منها مبانيا
وأضحت عظام القوم فيها بواليا أتاها الجلندي بعد ألف تواليا
فأوصل منها كل ما قد تقطعا

فخط بها للمعلوات مبانيا   وشاد بها للمكرمات معاليا
وكان ظلوماً كافر القلب قاسياً   أقام بها مستأثر الملك طاغيا
ومغتصباً كل السفائن مقمعا

وما زالت الأقدار تسعى بلطفها   له في أمور لم أطق كنه وصفها
فيأخذ اقواها ويرمي بضعفها   إلى أن رمته الحادثات بصرفها
فخرّ ذليلاً خاضعاً متضرعا

رمت قلبه الدنيا بسهم فراقها   وكلفه قاضي الردى بفراقها
وعوّضه بالحلو مرّ مذاقها   كأن لم يكن إذ صار بين طباقها
على ظهرها في ملكه متمتعا

لقد دثرت أعلامه وتصدعت   وقد وهنت أركانه وتزعزعت
وقد ذهبت أمواله وتضيّعت   مضى ملكه من كفّه وتضعضعت
أوائله والدهر لن يتضعضعا

فلما اكتسى ذاك الفتى كسوة المنى   وخاب الجلندي من صفا لذة الهنا
مضى وانقضى من قيل في وصفه هنا   ومن بعده التدمير يا صاح قد بنى
طياطرها ثم القناة فأبدعا

أتاها بأموال عظام ونعمة   وساق إليها الماء من بعد خدمة
وشيّد مبناها المشيد بقوة   ودبر أحكاماً عظاماً بحكمة
ثلاث سنين بعد ذاك وأربعا

لقد قسموا عند التدابير أرضها   وقد غرسوا عند التدابير روضها
وقد حفظ التدمير بالسيف عرضها   وألف من بعد العريضة فرضها
وشدّ ببعض بعضها فتجمّعا

فكم من حكيم رام في الأرض حفرها   ومن فيلسوف ثم بين كسرها
وحدب مجراها وشيد قصرها   فلما انتهى القربان دبر أمرها
وأنزلها من بعد ذلك أذرعا

فيا لك من ملك عظيم وقوة   ويا لك من قدر عزيز وهمة
ويالك من أرض غدت دار حرمة   لقد أورد الجلاب ماها بحكمة
لها من أنابيب تقوم مشرعا

أمور بأبصار البصائر أبرمت ودارت فساقيها هناك وأحكمت
تفيض على أفواه زهر تبسّمت تراها كمثل العقد في الجيد نظمت
فلا بعضها يعلو على البعض أصبعا
لقد نصحوا في فعلهم وتجملوا وقد أثبتوا في قولهم وتوغلوا
وقد أبرموا آراءهم وتمثّلوا فلما انتهى بنيانهم ثم أوصلوا
بها من زلال الماء ما قد تفرعا
فجاء به فوق الحنيات سائلاً وسيّله بين الطياطر جائلا
وقسّمه للواردين مناهلاً وفرّقه بين القصور جداولا
وأفرطه حتى أعم وأشبعا
فلما أراد الله تعجيل هلكه كساه ثياب التيه عن حفظ ملكه
وأعماه عن رعي البلاد بفتكه طغى إذ رأى ما تمّ من أمر ملكه
فلم يغنِ عنه ما بناه وما سعى
فكم غادة حسناء ترنو بنظرة وكم روضة غناء تزهو بزهرة
وكم من نعيم جاء من غير عسرة تعلق من حبل الأماني بغرة
وما زال يلوي الحبل حتى تقطعا
فكم عيشة قد كان فيها هنية ونفس بإبرام الأمور قوية
فلما انتهى في ذروة مسبعية سقته يد الأقدار كأس منية
فخر ذليلاً للردى ساء مصرعا
وأصبح من رسم البلا غير مبعد وأخرج من دار الدنا غير مهتد
وصار إلى عقباه غير مزود وخلّى ظباء الملك غيد وخرد
وحجّاب أبواب وملك وما رعى
فيا لك من أخذ عنيف وهزة ويا لك من شرب فظيع ومزة
لقد صار في أشكولة مستفزة وصار لضيق اللحد من بعد عزة
وصارت له الأرماس والترب مضجعا
لقد أسرفوا في رأيهم وترددوا وقد أبرموا أراءهم وتجلّدوا
وقد فسقوا في قومهم وتمرّدوا فلم يغنِ عنهم ما بنوه وشيّدوا
وما متعوا في الدهر مع من تمتّعا

وحاد عن الحق القويم مؤالفاً وللحكم والرأي السديد مخالفا
مضى وانقضى من قد تقدّم سالفاً ومن بعده البلشار أقبل زاحفا
بكل همام للحروب تدرّعا

خذوا حكمة قد جاوبت عن سؤالكم وأوقعت التحقيق في قصد بالكم
أتاها بجيش ليس مثل رجالكم وزوجته في عسكر غير ذلكم
تسد من الشمس المنيرة مطلعا

فكم من همام في الحديد مغلف وكم من شجاع في الكثيف مخلف
سرت بهم ليلاً لقصر مشرف مدينة قرطاجنة بعد موقف
أتوها مع الجامور في ليلة معا

لقد طرقت نحو البلاد بخيلها وفي البحر أيضاً سبقت بعض رجلها
وقامت على أبوابه بين أهلها وغلقت الأبواب في وجه بعلها
وآلت يميناً أن تطاع وتسمعا

فلم يغن عنه جيشه وعديده ولا صانه تحصينه وحديده
كما حلفت أن لا تتمّ عهوده لها من مراد الأمر ما قد يريده
ليقبل ذاك الشرط منها ويرجعا

ولما غدا عبداً لها تحت ملكها أنالته ما قد رامه بعد تركها
وأعطته عهداً كاذباً بعد ضحكها وكان الذي قد كان في حال فتكها
يجيب الندا طوعاً إليها ويخضعا

فقد أبرمت تدبير حالة هلكه وشابت يقين الودّ فيه بشكّه
وسقّته ما سقّته في حال فتكه وأضحت لعمر الله ربة ملكه
وجرّعت البلشار ما قد تجرّعا

لقد قهرت أهل الرئاسة والعلا وقد ألبستهم بالدلال تذللا
وقد غمرتهم بالعطاء تجملاً يظلون من تحت الأساقفة الأولى
وفوداً مع النسوان في كل ما سعى

لقد غرّهم طول العمى وأضلّهم وقد ساقهم سيف الردى وأذلهم
وقد خربت أيدي المنون محلهم وساروا إلى من سار من كان قبلهم
فيا لفراق القوم ما كان أسرعا

لقد وردوا للحادثات مناهلا وقد قصدوا نحو القبور قوافلا
وقد سكنوا تحت التراب منازلا وقد وسدوا بعد الحرير جنادلا
ولم يستطيعوا للحوادث مدفعا
تولوا إلى العقبى بكل عقوبة وصاروا إلى الأخرى بكل مثوبة
وإن خطوب الدهر غير كذوبة فماذا ترى فيما أرى من عجوبة
لقد شربوا كأساً من الموت مترعا
فهذا حديث قد رويناه قبل ذا وفيه إلى الأرواح أن قلته غذا
فطوبى لمن أضحى به متلذذاً تـدبـر في أسراره وتـعـوذا
وشمّر للمولى وأسبل أدمعا
خذوا درر الأسلاك قبل رجوعها وعوذوا من الأحكام قبل وقوعها
وعوجوا إلى الأطلال عند صدوعها فيا صاحبي إن جزتما بربوعها
خليليّ ألا ناديانى وسمّعا
صلا قطع ما أوليتما بوظائف وطوفا إذا جنّ الدجى بلطائف
وقولا ألا هل في الحمى من مؤالف فلن تسمعا إلا الصدى بعد هاتف
مجيباً لها ثم الرياح الزعازعا
فـديتكما يا صاحبي تبادرا إلى العهد من مولاكما وتناصرا
فما فاز إلا من دعاه وتاجرا وصلى على خير الأنام وهاجرا
إلى ربّه واستقبل الموت مسرعا
وجدد عهداً بالسلام وبالرضا على آله والصحب أفضل من مضى
على سنن المختار والمصطفى الرضا فهم منجأ المضنى لذنب به مضى
إلى ربنا من لا يخيّب من دعا

ومن شعره في ذلك الغرض :

انظر إلى الأطلال كيف تغيرت من بعد ساكنها وكيف تنكرت
سحب البلي أذياله برسومها فتساقطت أحجارها وتكسرت
ومضت مجامع أهلها لسبيلهم فتغيرت أخبارهم وتسكرت
تركوا ديارهم خلاء منهم من بعد ما كانت بهم قد عمرت

أكل التراب لحومهم وعظامهم فتمزقت أوصالهم وتقطرت
قد أسكنوا في ضيقات حفائر تحت التراب منازلاً قد قدرت
قد أسسوها بالبناء وجصصت بالمعجزات من الأمور وخيرت
هيهات لم ينفعهم تجصيصها إذ كان أسفلَها الوجوهُ تغيرت
فإذا نظرتُ مفكراً لقبورهم سحّت جفوني ماءها فتحدرت
لو كنت أعقل ما غفلت عن البكا حسبي هنالك مقلتي ما أبصرت
أبدت لنا الدنيا زخارف حسنها مكراً بنا وخديعة ما فتّرت
وهي التي لم تحل قط لذائق إلّا تكدر طعمها فتمَررت
خدّاعة إن أقبلت بجمالها فجاعة بزوالها إن أدبرت
رهابة سلابة لهباتها طلابة لخراب ما قد عمّرت
فإذا بنت أمراً وتمّ بناؤها نصبت مجانقها عليه فدمرت
ماذا من الأمم السوالف أهلكت لو أنها نطقت بذاك لأخبرت
طلابها في غفلة من حبّها علقت بها ألبابهم فتحيرت

46 – أبو الحسن علي بن أبي حنيفة النعمان القيرواني

من بيت علم ورئاسة . ولد سنة 329هـ في ربيع الأول ، ونشأ في طلب العلم ، فأخذ عن علماء بلده ، فبرع . وكان شيعيًّا . ولما سافر المعز أبو تميم إلى الديار المصرية بعد فتحها على يد القائد الشهير جوهر أصحب صاحب الترجمة معه وأولاه قضاء مصر مشرّكاً ، ثم أولاه العزيز بن المعز قضاءها استقلالاً ، فقرىء سجل ولايته بجامع مصر العتيق ، وكان في سجله القضاء بالديار المصرية والشام والحرمين والمغرب وجميع مملكة العزيز مع الخطابة والإمامة والعيار في الذهب والفضة والموازين والمكاييل . وكان متفنناً في فنون كثيرة منها القضاء والفقه والعربية والأدب . وكان شاعراً مجيداً في الطبقة العليا . توفي سنة 374هـ لست خلون من رجب ، ودفن بالقرافة .

ومن شعره في وصف صديق :

ولي صديق ما مسني عدم مذ وقعت عينه على عدم

أغنى وأقنى وما يكلفني تقبيل كف له ولا قدم
قام بأمري لما قعدت به ونمت عن حاجتي ولم ينم

ومنه وقد أبدع :

رب خود عرفت في عرفات سلبتني بحسنها حسناتي
حرمت حين أحرمت نوم عيني واستباحت حماي باللحظات
وأفاضت مع الحجيج ففاضت من جفوني سوابق العبرات
ولقد أضرمت على القلب جمرا محرقاً إذ مشت إلى الجمرات
لم أنل من مِنى مُنى النفس حتى خِفت بالخيف أن تكون وفاتي

47 – أبو عبد الله محمد بن أبي حنيفة النعمان القيرواني أخوه

ولد بالقيروان لثلاث خلون من صفر سنة 340هـ ونشأ في طلب العلم ، فأخذ عن جهابذة قطره ، فبرع في العلوم ، وكان متفنناً في علوم كثيرة . جيد المعرفة بالأحكام . أصحبه معه المعزّ أبو تميم إلى الديار المصرية ، وناب عن أخيه أبي الحسن في قضاء دمياط وغيرها ، ولما خرج أبو الحسن مع العزيز العبيدي إلى الشام استنابه في قضاء الديار المصرية ، ثم بعد وفاة أخيه أبي الحسن أولاه العزيز القضاء على ما كان لأخيه ، وعظمت منزلته عنده . لم يشاهد بمصر لقاض من القضاة من الرئاسة ما شوهد لمحمد ابن النعمان بل ولا بالعراق ، ووافق ذلك استحقاقاً لما فيه من العلم والصيانة والتحفّظ وإقامة الحقّ والهيبة . وكان مع ذلك شاعراً مجيداً .

نُقل عنه قال : «كان المعز تحدثه نفسه أبداً بمُلك مصر ، فكان وهو بالمهدية إذا رآني وأنا صبي يقول لولده العزيز وهو صبي : هذا قاضيك ، فكان كذلك ، وساعده القدر» . توفي بالقاهرة ليلة الثلاثاء رابع صفر سنة 389هـ، وركب الحاكم العبيدي إلى داره وصلى عليه فيها ، ووقف على دفنه ، ودفن مع أخيه .

ومن شعره :

أيا مشبه البدر بدر السما ء لسبع وخمس مضت واثنتين

ويا كامل الحسن في نعته شغلت فؤادي وأسهرت عيني
فهل لي من مطمع أرتجيه وإلا انصرفت بخفي حـنين
ويشمُت بي شامت في هوا ك ويفصح لي ظِلت صفر اليدين
فـإمـا مـننت وإما قـتلـ ـت فأنت القدير على الحالتين

ومنه قوله جواباً :

قرأنا من قريضك ما يروق بدائع حاكها طبع رقيق
كأن سطورها روض أنيق تضوع بينها مسك فتيق
إذا ما أنشدت أرجت وطابت منازلها بها حتى الطريق
وإنا تائقون إليك فاعلم وأنت إلى زيارتنا تتوق
فواصلنا بها في كل يوم فأنت بكل مكرمة حقيق

48 – عثمان بن علي بن أبي بكر الصدفي الصفاقسي ويعرف بابن الضابط

نشأ في طلب العلم ، فأخذه عن علماء قطره ، فبرع وبرز فيه ، ورحل إلى المشرق ، فأخذ عن محدثيه ، وكتب عن أبي نعيم وحده مائة ألف حديث بخطه ، فكان حافظاً للحديث ، متفنناً في العلوم ، عارفاً باللغة والأدب ، مشهوراً بالفضل والديانة ، شاعراً مجيداً ، دخل الأندلس ، وأسمع الناس بها ، وتقلب في البلاد ثم عاد إلى إفريقية فأقام بالقيروان ، ثم أرسله أمير إفريقية المعز بن باديس الصنهاجي سفيراً إلى ملك الروم بالقسطنطينية فمات في الطريق راجعاً سنة 440هـ

ومن شعره الحكيم :

إذا ما عدوك يوماً سما إلى حالة لم تطق نقضها
فـقبل ولا تأنفن كفّه إذا أنت لم تستطع عضها

ونقل في **الديباج** عن ابن خلكان : أن وفاته بعد سنة 440هـ، وقال عبد الله التجاني في **رحلته** : إنها كانت بعد سنة أربع وأربعين وأربعمائة ، وإنه يعرف بابن

الضابط . قال : ومن شعره :

مـــا عـــابني إلّا الحسو ... د وتلكَ من خير المعائب
والخير والحساد مقروران ... إن ذهبا فذاهـب
وإذا مـسـلـكـت المجد لم ... تملك مَذَمَّات الأقارب
وإذا فـقـدت الحاسدين ... فقدت في الدنيا الأطائب

وذكره الحميدي وقال : إنه كان حافظاً عاقلاً . قال التجاني : وذكره أبو القاسم بن بشكوال في **الصلة** وأثنى عليه وأخبر عنه أنه قال : بعث إلى شعراء القيروان حين مقامي بها ، منهم : ابن رشيق ، وابن شرف ، وابن حجاج ، والعطّار ، يسألونني أن أرسل إليهم بشعري فقلت للرسول : إنه في مسودّاته . فقال : احمله كما هو فأخذته ، وكتبت عليه ارتجالاً ، ثم بعثت به :

خـطـبـت بـنـاتي فـأرسلتهـ ... ـن إليك عواطل من كل زينه
لـــتـــعـــلم أني ممن يجو ... د بمحض الوداد وليس ضنينه

قال : فأجابوني عن بطء بهذه الأبيات :

أتـتـنا بـنـاتك يرفـلن في ... ثياب من الوشي يفتن زينه
فـلما سفـرن فضحن الشمو ... س وسرب الضباء وأخجلن عينه
ولما نـطـقـن سحرن العقو ... ل وظل القرين ينادي قرينه
أفي بابل نحن أم في العرا ... ق وفوق البسيطة أم في سفينه
فدعني أراقب ضوء الجميـ ... ـع لنسمع من كل مدح عيونه

قال : دخل الأندلس وأسمع الناس بها ، وهو أول من أدخل كتاب **غريب الحديث** للخطابي ، وله جزء تضمن عوالي كتبها لأبي محمد عبد الرحمان بن عتاب تعرف بـ **عوالي الصفاقسي** . وتقلب في البلاد نحو عامين ثم عاد إلى إفريقية ا هـ .

49 – أبو عبد الله محمد بن جعفر التّميمي النحوي المعروف بالقزاز القيرواني

كان عالماً بالعلوم العربية ، يغلب عليه النحو واللغة ، وكان له افتتان بالتآليف .

ألف كتاب **الجامع** في اللغة ، وهو من الكتب الكبار المختارة المشهورة ، وكان في خدمة العزيز العبيدي صاحب مصر ، وصنف له كتباً منها كتاب **التعريض** ، ذكر فيه ما دار بين الناس من المعاريض في كلامهم ، وطلب منه العزيز أن يؤلف له كتاباً يجمع فيه سائر الحروف التي ذكر النحويون أنها جاءت لمعنى وأن يجري ما ألفه من ذلك على حروف المعجم . قال ابن الجزار : وما علمت أن أحداً من النحاة ألف شيئاً من النحو على هذا التأليف ، فسارع القزاز فألف الكتاب على أقصد سبيل وأقرب مأخذ وأوضح طريق ، فكان فيه ألف ورقة . أثنى ابن رشيق على تآليفه لحسنها وإتقانها .

وكان مهيباً عند الملوك والعلماء وخاصة الناس ، محبوباً عند العامة ، قليل الخوض إلّا في علم دين أو دنيا ، يملك لسانه ملكاً شديداً .

وكان شاعراً مطبوع الشعر ، له قدرة على توليد المعاني الشعرية .

توفي بالقيروان سنة 412هـ عن نحو سبعين سنة .

ومن شعره فيمن يحبها :

أما ومحل حبك في فؤادي ... وقدر مكانه فيه المكين
لو انبسطت لي الآمال حتى ... تصير لي عنانك في يميني
لصنتك في مكان سواد عيني ... وخطت عليك من حذر جفوني
فأبلغ منك غايات الأماني ... وآمن فيك آفات الظنون
فلي نفس تجرع كل يوم ... عليك بهن كاسات المنون
إذا أمنت قلوب الناس خفت ... عليك خفي ألحاظ العيون
فكيف وأنت دنياي ولولا ... عقاب الله فيك لقلت ديني

ومنه وهو منزع غريب :

أضمروا لي وداً ولا تظهروه ... يهده منكم إليّ الضمير
ما أبالي إذا بلغت رضاكم ... في هواكم لأي حال أصير

ومنه وهو معنى لطيف :

أحين علمت أنك نور عيني ... وأني لا أرى حتى أراك
جعلت مغيب شخصك عن عياني ... يـغيب كل مخلوق سواك

وذكر ياقوت في كتابه **معجم الأدباء** أن الحسن بن رشيق قال في كتابه **الأنمُوذج : إن صاحب الترجمة مات بالقيروان سنة 412هـ، وقد قارب التسعين وأنه هو مؤلف كتاب الجامع** في اللغة . قال : وهو كتاب كبير حسن متقن يقارب كتاب **التهذيب** لأبي منصور الأزهري رتبه على حروف المعجم وأن له كتاب **ما يجوز للشاعر استعماله في ضرورة الشعر** . وذكر من شعره قوله :

إذا كان حظي منك لحظة ناظر ... على رقبة لا أستديم لها لحظا
رضيت لها في مدة الدهر مرة ... وأعظم بها من حسن وجهك لي حظا

وقوله :

لو أن في حكم قلبي فيك أو بصري ... ما استمتعت لي عين منك بالنظر
أخشى وأحذر من عيني القريحة ما ... أخشى وأحذره من أعين البشر
ويلاه إن كان حظي فيه مشتركاً ... وكيف يشترك الحيان في عمر
يناله وادع لا يستعد له ... ولست أبلغ أولاه من الحذر

وقوله :

واحسرتا مات أحبابي وخلّاني ... وشيّب الدهر أترابي وأخداني
وغيرتْ غِيَرُ الأيام خالصتي ... والمنتقى الحر من أهلي وإخواني

وذكر أن من تصانيفه أيضاً **«أدب السلطان والتأدب»** له عشر مجلدات ، وكتاب **أبيات المعاني في شعر المتنبي** ، وكتاب **ما أخذ عن المتنبي من اللحن والغلط** ، وكتاب **الضاد والظاء** مجلد واحد .

قال ابن رشيق : وحاجى شيخنا أبو عبد الله ، أي صاحب الترجمة ، بعض تلاميذه فقال :

أحاجيك عباد كزينب في الورى ... ولم تؤت إلّا من صديق وصاحب

فأجابه التلميذ في الحال :

سأكتم حتى ما تحس جوارحي ... بما أتهل منها في دموعي السواكب

ومعكوس (عباد كزينب) سرك ذائع ، وقوله : (سأكتم)جواب حسن ، ومعكوسه منك أتيت ، وهو جواب لما حوجي به بديع مقابل (ولم تؤت إلّا من صديق وحبيب) ، وهو تفسير حسن بديع جداً ا هـ . كلام ابن رشيق .

50 – أبو حفص عمر القمودي الصفاقسي

كان فقيهاً أديباً ، من حفاظ المدونة وحفاظ الشعر . وكان شاعراً من المجيدين . من شعره :

هيَّجوا للبين برقاً فلمع   وأثاروا دمع عيني فاندفع
ودَعوا قلبي فلما جاءهم   أوقفوه بين يأس وطمع

51 – أبو محمد مكي ابن أبي طالب القيسي القيرواني

ولد بالقيروان لسبع بقين من شعبان سنة 355هـ ونشأ بها في طلب العلم ، ثم سافر إلى مصر وهو ابن ثلاث عشرة سنةً . ثم رجع إلى القيروان . فاستكمل وبرع . ثم عاد إلى مصر ، فأقام بها سنةً . ثم رجع إلى القيروان سنة 383هـ فانتفع به الناس .

وكان بارعاً في علوم القراءات والأدب . ثم ارتحل للاندلس سنة 393هـ، فجلس للإقراء بجامع قرطبة ، فأخذ عنه خلق ، وعظم اسمه . ولي خطابة المسجد الجامع بها ، فكان خطيباً مصقعاً ، وله تآليف كلها نفيسة منها **الهداية إلى بلوغ النهاية** في معاني القرآن العظيم وتفسيره وأنواع علومه ذو أسفارٍ كثيرةٍ ، **ومنتخب الحجة والتبصرة في القراءات والمأثور عن مالك في أحكام القرءان وتفسيره** في عشرة أجزاء ، **والايضاح في الناسخ والمنسوخ** ، وكتاب **دخول حروف الجر بعضها على بعض** ، وكتاب **اختلاف العلماء في النفس والروح** في جزء ، **والمنتقى في الاخبار** أربعة أجزاء . وغير ذلك .

وكان شاعراً مفلقاً . توفي بقرطبة ، ودفن بالربض يوم السبت لليلتين خلتا من

المحرم سنة 437هـ

ومن شعره :

عليك بإقلال الزيارة إنها ... إذا كثرت كانت إلى الهجر مسلكا
ألم تر أن الغيث يسأمُ دائما ... ويُطلب بالأيدي إذا هو أمسكا

52 – أبو زكريا يحيى بن علي الشقراطسي[1] القرشي

نشأ بتوزر . وطلب العلم في بلده . ورحل إلى القيروان ، فأخذ عن أبي محمد بن أبي زيد القيرواني وأضرابه فبرع . ورحل للمشرق فلقي الأكابر ، وأخذ عنهم . وكان متبحراً في العلوم . ألف كتاباً فيمن روى عنهم ورووا عنه من أهل المغرب والمشرق ، وله أرجوزة في **مناسك الحج**. وكان إماماً في الأدب . شاعراً مجيداً . توفي سنة 429هـ.

ومن شعره يرثي شيخه أبا محمد بن أبي زيد بقصيدة مطلعها :

خطب ألم فعمَّ السهل والجبلا ... وحادث جل ينسي الحادث الجللا
ناع نعى ابن أبي زيد فقلتُ له ... أشمسنا كسفت أم بدرنا أفلا
أم مادت الأرض أم رجت بساكنها ... أم الحمام بعبد الله قد نزلا
فإن يكن صدرنا حلّ الحمام به ... فالصدر صاد ومن نار الأسى اشتعلا
رزية عظمت أتراحها أفلا ... أبكي وهل سلوة والبدر قد أفلا
رجتْ لموقعها الأرجاء وارتجفت ... وزلزلت لنجيع بالعويل علا
والناس من فرق سكرى على فرق ... فكلهم كلهم خطب به ذهلا
على الجليل الذي جلتْ مفاخره ... ومن مآثره أضحت لنا جملا
كل البسيطة بسط الحُزن قد بسطت ... وقبره بسنا أنواره ابتهلا
وكيف لا وولي الله حلَّ به ... قطب المشائخ نور للورى اكتملا[2]
ما بالصلاة ولا بالصوم فاتهم ... لو كان هذا لكان الأمر قد سهلا
لكن بسر من الرحمان أوقره ... بصدره فليهن الصدر ما حملا
يا عين سحي دما فالدمع فاض لما ... أصابني وهمى سحا ومنهملا

ومنها :

لا تعجبوا من شجي في تولهه ... بل اعجبوا لخلي البال كيف خلا

---

(1) نسبة إلى شقراطس قصر من قصور قفصه .
(2) للورى : ورويت للهدى .

53 – ابنه أبو محمد عبدالله بن أبي زكرياء يحيى الشقراطسي التوزري

ولد بتوزر. وبها نشأ، وأخذ العلم عن علمائها وغيرهم. وبرع في العلوم، فكان إماماً في العلوم العربية والحديث والفقه. تبنى الأحكام في بلده على فتاويه، عالماً بالأدب. ألّف كتاب **الأعلام في معجزات خير الأنام**، وختمه بقصيدته اللامية الشهيرة. وألّف **لفضائل الصحابة**. وله تعليق على مسائل من **المدونة** وكان شاعراً مفلقاً. توفي بتوزر لثمانيةأيام خلت من ربيع الأول سنة 466هـ

ومن شعره قصيدة سلك فيها التجنيس مطلعها:

ظِبا البيد ترنو أم ظبى البيض ترهف ... أم السحر من أطراف طرف يطرف (1)
وأطراف نبل قد تطرفن من دمي ... تراءت لطرفي أم بنان مطرف (2)
ألا في ضمان الله أشتات مهجة ... تناهبها أشتات حسن مؤلف
وأحور وسنان وجَثْل مرجّل ... وأشنب هياف وأهيف مخطف

ومنها يتألم من بعض أهل زمانه:

لئن كنت في أرض طوتني على شجى ... له في حيازيمي جوى يتضفف (3)
بلى في محل النجم أذيال همتي ... لها بين أثناء الخطوب تعجرف (4)
ولي عزمة أرمي بها دار غربة ... لبزل المهاري دونها متعسف
فبين بلاد الله للحر مشرع ... وفي كل أرضٍ للفتى متصرف

ومن شعره في رثاء شيخه الفقيه أبي الطيب عبد المنعم بن محمد الكندي القيرواني المتوفي سنة 435هـ. وكان إماماً في العلوم الشرعية وفي الرياضيات. يقال: إنه فك أشكال اقليدس بذهنه ما نص طالعها:

---

(1) يطرف: يقاتل.
(2) تطرفن: تخضبن.
(3) حيازيمي: جمع حيزوم وهو ما اكتنف الحلقوم. يتضفف: يكثر.
(4) تعجرف: إقدام.

بـأي سلاح والـحِمام محارب / أطاعن في نحر الردى وأضارب
سلوني عن الأرزاء إني شقيقها / وعندي من أخبارهن غرائب
أطافت بي الأرزاء من كل جانب / كأني في القربى أخوها المناسب
وفوقت الدنيا إليَّ خطوبها / ففي كبدي منها سهام صوائب
كذلك جدي ما صفا لي مشرب / ولا لذَّ لي عيشٌ ولا دام صاحب[1]

ومنها :

وقلت : بعبد المنعم بن محمد / تنال جُسيمات وتقضى مآرب
ليبك مصاب الأشعري ويومه / وتندب بعد الأبهري النوادب
ويبك بشجو سيبويه وتنبري / لعلم أبقراط الدموع السواكب[2]
فمَن للمَوطأ والبخاريّ بعده / إذا بهرت منها الرجال الغرائب
ومَن لأصول الفقه ينظم سلكها / إذا أشكلت أعجازها والغوارب[3]
ومن للعبارات الغوامض بعده / إذا شيب منها ما تجن الغياهب
إذا أشكلت أشكال اقليدس انبرى / لها منه حبر بارع الفهم ثاقب

ومنه قصيدته اللامية المشهورة في المديح النبوي ضمنها سيرته تلميحاً وتصريحاً مطلعها :

الحمد لله منّا باعث الرسل / هدى بأحمد منّا أحمد السبل
خير البرية من بدو ومن حضر / وأكرم الخلق من حافٍ ومنتعل
توراة موسى أتت عنه فصدقها / إنجيل عيسى بحق غير مفتعل
أخبار أحبار أهل الكتب قد وردت / عمَّا رأوا أو رووا في الأعصر الأول

وهي التي خمسها الشيخ محمد بن علي بن الشباط التوزري، وشرحها بشروح ثلاثة كبير ومتوسط وصغير.

---

(1) جدي : حظي .
(2) أبقراط : حكيم يوناني .
(3) الغوارب : الكواهل .

وبقية اللامية المذكورة هي قوله :

ضاءت لمولده الآفاق واتصلت بشرى الهواتف في الاشراق والطفل
وصرح كسرى تداعى من قوائمه فانقض منكسر الأرجاء ذا ميل
ونار فارس لم توقد وما خمدت مذ ألف عامٍ ونهر القوم لم يسل
خرت لبعثته الأوثان وانبعثت ثواقب الشهب ترمي الجن بالشعل
ومنطق الذئب بالتصديق معجزة مع الذراع ونطق العير والجمل
وفي دعائك للأشجار حيث أتت تمشي بأمرك في أغصانها الذلل
وقلت عودي فعادت في منابتها تلك العروق بإذن الله لم تمل
والسرح بالشام لما جئتها سجدت شمُ الذوائب من أفنانها الخضل
والجذع حنَّ لأن فارقته أسفا حنين ثكلى شجتها لوعة الثكل
ما صبر من صار من عين إلى أثر وحال من حال من حال إلى عطل
حيى فمات سكونا ثم مات لدن حيى حنيناً فاضحى غاية المثل
والشاة لما مسحت الكف منك على جهد الهزال بأوصالٍ لها محل
سحت بدرة شكرى الضرع حافلة فروت الركب بعد النهل بالعلل
وآية الغار إذ وقيت في حجب عن كل رجس لرجس الكفر منتحل
وقال صاحبك الصديق كيف بنا ونحن منهم بمرأى الناظر العجل
فقلت : لا تحزن إن الله ثالثنا وكنت في حجب ستر منه منسدل
حَمت لديك حمام الوحش جاثمة كيدا لكل غوي القلب مختبل
والعنكبوت أجادت حوك حلتها فمّا تخال خلال النسج من خلل
قالوا وجاءت إليه سرحة سترت وجه النبي بأغصان لها هدل
وفي سراقة آيات مبينة إذ ساخت الحجر من وحل بلا وحل
عرجت تخترق السبع الطباق إلى مقام زلفى كريم قمت فيه على
عن قاب قوسين أو أدنى هبطت ولم تستكمل الليل بين المر والقفل
دعوت للخلق عام المحل مبتهلا أفديك بالخلق من داع ومبتهل
صعدت كفيك إذ كف الغمام فمّا صوبت إلاّ بصوب الواكف الهطل
أراق بالأرض ثجا صوب ريّقه فحل بالروض نسجا رائق الحلل
زهر من النور حلت روض أرضهم زهراً من النور ضافي النبت مكتمل

من كل غصنٍ نضير مورق خضر   وكل نور نضيد مونق خضل
تحية أحيت الأحياء من مضر   بعد المضرة تروى السُّبْل بالسُّبُل
دامت على الأرض سبعاً غير مقلعة   لولا دعاؤك بالاقلاع لم تزل
ويوم زورك بالزوراء إذ صدروا   من يمن كفك عن أعجوبة مثل
والماء ينبع جودا من أناملها   وسط الاناء بلا نهر ولا وشل
حتى توضا منه القوم واغترفوا   وهم ثلاث مئين جمع محتفل
أشبعت بالصاع ألفا مرملين كما   رويت ألفاً ونصف الألف من سهل
وعاد ما شبع الألف الجياع به   كما بدوا فيه لم ينقص ولم يحل
أعجزت بالوحي أرباب البلاغة في   عصر البيان فضلت أوجه الحيل
سألتهم سورة في مثل حكمته   فتلهم حين عنه العجز حين تلي
فرام رجس كذوب أن يعارضه   بعي عيي فلم يحسن ولم يطل
مشبج بركيك الأفك ملتبس   ملجلج بزري الزور والخطل
يمج أول حرف سمع سامعه   ويعتريه كلال العجز والملل
كأنه منطق الورهاء شذ به   لبس من الخبل أو مس من الخبل
أمرت البئر بل غارت لمجته   فيها وأعمى بصير العين بالتفل
وأيبس الضرع منه شؤم راحته   من بعد إرسال رسل منه منهمل
برئت من دين قوم لا قوام لهم   عقولهم من وثاق الغي في عقل
يستخرجون خفي الغيب من حجر   صلد يرجون غوث النصر من هبل
نالوا أذى منه لولا حلم خالقهم   وحجة الله بالأعذار لم تنل
واستضعفوا أهل دين الله فاصطبروا   لكل معظل خطب فادح جلل
لاقى بلال بلاء من أمية إذ   أحله الصبر فيه أكرم النزل
إذ أجهدوه بظنك الأسر وهو على   شدائد الأزل ثبت الأزر لم يزل
ألقوه بطحا برمضاء البطاح وقد   علوا عليه صخورا جمة الثقل
وجاثم بمثار النقع مشتغل   بجاحم من أوار النار مشتعل
عقدت بالخزي في عطفي مقلده   طوق الحمامة باق غير منتقل
أمسى خليل صغار بعد نخوته   بالأمس من خيلاء الخيل والخول
دام يـديم زفيراً في جوانحه   جنح من الشك لم يجنح ولم يمل

يقاد في القد حنقاً مشرياً حنقا … يمشي به الذعر مشي الشارب الثمل
أوصاله من صليل الغل في خلل … وقلبه من غليل الغل في علل
يظل يحجل ساجي الطرف خافضه … لمسكة الحجل لا من مسكة الخجل
أرحت بالسيف ظهر الأرض من نفر … أرحت بالصدق منهم كاذب العلل
تركت بالكفر صدعاً غير ملتئم … وآب عنك لقرح غير مندمل
وأفلت السيف منهم كل ذي أسف … على الحمام حماه آجل الأجل
قد أعتقته عتاق الخيل وهو يرى … به إلى رق موت رقة الغزل
فكم ببكة من باك وباكية … بفضل سجل من الآماق منسجل
وكاسف البال بالي الصبر جدت له … بوابل من وبال الخزى متصل
فؤاده من سعير الغيظ في غلل … وعينه من غزير الدمع في غلل
قد أسعرت منه صدرا غير مصطبر … وحملت منه صبرا غير محتمل
ويوم مكة إذ أشرقت في أمم … تضيق عنها فجاج الوعث والسهل
خوافق ضاق ذرع الخافقين بها … في قاتم من عجاج الخيل والإبل
وجحفل قذف الأرجاء ذي لجب … عرمرم كزهاء الليل منسحل
وأنت صلّى عليك الله تقدمهم … في بهو إشراق نور منك مكتمل
تنير فوق أغر الوجه منتخب … متوج بعزيز النصر مقتبل
يسمو أمام جنود الله مرتديا … ثوب الوقار لأمر الله ممتثل
خشعت تحت بهاء العز حين سمت … بك المهابة فعل الخاضع الوجل
وقد تباشر أملاك السماء بمّا … ملكت إذ نلت منه غاية الأمل
والأرض ترجف من زهوومن فرق … والجو يزهر إشراقاً من الجذل
والخيل تختال زهوا في أعنتها … والعيس تنثال زهوا من ثنى الوجل
لولا الذي خطت الأقلام من قدر … وسابق من قضاء غير ذي حول
أهلّ ثهلان بالتهليل من طرب … وذاب يذبل تهليلا من الذبل
الملك لله هذا عز من عقدت … له النبوءة فوق العرش في الأزل
شعبت صدع قريش بعدما قذفت … بهم شعوب شعاب السهل والقلل
قالوا محمد قد زارت كتائبه … كالأسد تزأر في أنيابهاالعصل
فويل مكة من آثار وطأته … وويل أم قريش من جوى الهبل

فجدت عفواً بفضل العفو منك ولم   تلمم ولا بأليم اللوم والعذل
أضربت بالصفح صفحاً عن طوائلهم   طولا أطال مقيل النوم في المقل
رحمت واشج أرحام اتيح لها   تحت الوشيج نشيج الروع والوجل
عاذوا بظل كريم العفو ذي لطف   مبارك الوجه بالتوفيق مشتمل
أزكى الخليقة أخلاقاً وأطهرها   وأكرم الناس صفحاً عن ذوي الزلل
زان الخشوع وقار منه في خفر   أرق من خفر العذراء في الكلل
وطفت بالبيت محبوراً وطاف به   من كان عنه قُبيل الفتح في شغل
والكفر في ظلمات الخزى مرتكس   ثاو بمنزلة اليهموت من زحل
حجزت بالأمن أقطار الحجاز معا   وملت بالخيف عن خيف وعن ثمل
وحل أمن ويمن منك في يمن   لما أجابت إلى الإيمان عن عجل
وأصبح الدين قد حفت جوانبه   بعزة النصر واستولى على الملل
قد طاع منحرف منهم لمعترف   وانقاد منعدل منهم لمعتدل
أحبب بخلة أهل الحق في الخلل   وعز دولته الغراء في الدول
أم اليمامة يوم منه مصطلم   وحل بالشام شؤم غير مرتحل
تعرقت منه أعراق العراق ولم   يترك من الترك عظم غير منتثل
لم يبق للفرس ليث غير مفترس   ولا من الحبش جيش غير منجفل
ولا من الصين صون غير معتزل   ولا من الروم مرمى غير منتضل
ولا من النوب جذم غير منجذم   ولا من الزنج جذل غير منجذل
وهل بالسيف سيف النيل واتصلت   دعوى الجنود فكل بالجلاد صلي
وسل بالغرب غرب السيف إذ شرقت   بالشرق قبل صدور البيض والأسل
وعاد كل عدو عز جانبه   قد لاذ منك ببذل منه مبتذل
بذمّة الله والإيمان متصل   أو من شبا النصل بالأموال متصل
يا صفوة الله قد أصفيت فيك صفا   صفو الوداد بلا شوب ولا دخل
ألست أكرم من يمشي على قدم   من البرية فوق السهل والجبل
وأزلف الخلق عند الله منزلة   إذ قيل في مشهد الإشهاد والرسل
قم يا محمد فاشفع في العباد وقل   تسأل وسل تعط واشفع عائداً وسل
والكوثر الحوض تروي الناس من ظمأ   برح وتنقع منه لاعج الغلل

أصفى من الثلج إشراقاً مذاقته أحلى من اللبن المضروب بالعسل
نحلتك الحب علي إذ نحلكته أحبى بحبك منا أفضل النحل
فما لجلدى بنضج النار من جلد وما لقلبي لهول الحشر من قبل
يا خالق الخلق مما اجترمت يداى وجهى من حوب ومن زلل
واصحب وصِلْ وواصل كل صالحة على صفيك في الإصباح والأصل

ومن شعره الغزلي قصيدة طالعها :

أتى بالنوى من آل ليلى نذيرها وسارت بأحواج الضعائن عيرها

ومنها :

حلفت لهم بالله جد ألية وربى علام الغيوب خبيرها
لقد شف نفسي وجدها وولوعها وواصل جسمي سقمها وفتورها
وهل غادرت إلاّ صبابة أعظم أكاد بأنفاس الضنى استثيرها
ونفسا شعاعاً من يدي تساقطت ولم يبق إلا جهدها وزفيرها
أهادرها عن سلوة كي أريحها فيبعد نجواها ويأبى ضميرها
وأغرب ما أشكو من الحب أنني أمير على نفسي وغيري أميرها

ومنها :

فلمّا تجلّى الفجر من طرة الدجى وولت بأعجاز النحوم صدورها
تيممت أسواح المياه ودونها بجاثم آجال الفضا ووكورها
بقلب ربيط الجأش متسع الحشا على الهول مجموع الحصاة وقورها
وأسمر عَسّال الكعوب سقيته نجيع الطلى والخيل توما نحوزها
وقد علم الأبطال كرّى فيهمُ إذا جاحم الميجاء شب سعيرها

54 – أبو إسحق إبراهيم بن علي بن تميم القيرواني المعروف بالحصري

ولد بالقيروان . وبها نشأ . وأخذ عن علمائها ، فبرع . وقال الشعر الفائق . وألّف المؤلفات النفسية . منها كتاب **زهر الآداب وثمر الألباب** . جمع فيه كل غريبة من النثر والنظم في ثلاثة أجزاء لو اقتصر عليه المتأدب لكفاه في حفظ الجيد من النثر والنظم

لاكتساب ملكة الأدب. وأغناه عن جميع التآليف في ذلك الغرض. وله كتاب **المصون في سر الهوى المكنون** في مجلد فيه ملح وآداب . وله ديوان شعر قال الحسن بن رشيق في **الأنموذج**: كان شبان القيروان يجتمعون عنده ويأخذون عنه العلم والأدب . ورأس في القيروان وشرف . وسارت تآليفه وانثالت عليه صلات الملوك والأعيان من الجهات

ومن شعره قوله :

إني أحبك حباً ليس يبلغه	فهم ولا ينتهي وصفي إلى صفته
أقصى نهاية علمي فيه معرفتي	بالعجز مني عن إدراك معرفته

وقوله :

أورد قـلبي الـردى	لام عـــذار بـــدا
أسود كـالـكـفـر في	أبـيض مـثـل الهدى

توفي بالقيروان سنة 453هـ والحصري نسبة لعمل الحصر أو بيعها .

ومن شعره على ما في ديباجة كتابه **زهر الأداب** يصف الكلام البليغ ليستجاد :

بـديع نثر رق حتى غدا	يجري مع الروح كما يجري
من مذهب الوشي على وجهه	ديـبـاجة ليست من الشعر
كزهـرة الـدنيا وقد أقبلت	تـرود في رونـقـهـا النـضر
أو كالنسيم الغض غب الحيا	يختـال في أرديـة الـفـجر

ومن نثره منوها بصنيعه في كتابه المذكور وما وقع اختياره عليه وذكره فيه :«كلام يمتزج بأجزاء النفس لطاقة وبالهواء رقة ، وبالماء عذوبة . وليس لي في تأليفه من الافتخار ، أكثر من حسن الاختيار ، واختيار المرء قطعة من عقله ، تدلّ على تخلّفه أو فضله ، ولا شك إن شاء الله من استجادة ما استجدت ، واستحسان ما أوردت ، إذ كان معلوماً أنه ما انجذبت نفس ، ولا اجتمع حسّ ، ولا مال سرّ ، ولا جال فكر ، في أفضل من معنى لطيف ، ظهر في لفظ شريف ، فكساه من حسن الموقع قبولاً يدفع ، وأبرزه يختال من صفاء السبك ، وصحة الديباجة ، وكثرة المائية في أجمل حلّة ، وأجلّ حلية ، يستنبط الروح اللطيف نسيمه رجاً ، ويأكل بالضمير ويشرب» . . الخ .

وقال ياقوت في كتابه **معجم الأدباء** أن ابن رشيق قال : إنه أي (صاحب الترجمة) مات بالمنصورة سنة 413هـ ولكن صوبه المعلق على الكتب المذكور بما ذكره ابن بسام من أنه مات سنة 453هـ لأنه ألّف كتابه **زهر الآداب** سنة 450هـ . ثم نقل ياقوت عن ابن رشيق في شأن صاحب الترجمة أنه كان شاعراً ناقداً : عالماً بتنزيل الكلام ، وتفصيل النظام ، يحب المجانسة والمطابقة ، يرغب في الإستعارة تشبهاً بأبي تمام في أشعاره وتتبعاً لآثاره . وعنده من الطبع ما لو أرسله على سجيته لجرى مجرى الماء ، ورق رقة الهواء ، كقوله في بعض مقطعاته :

يا هل بكيت كما بكت ورق الحمائم في الغصون
هتفت سحيراً والربى للقطر رافعة الجفون
فكأنها صاغت على شجوى شجى تلك اللحون
ذكّرتني عهداً مضى للأنس منقطع القرين
فتصرّمت أيامها وكأنها رجع الجفون

وله في الغزل :

كتمت هواك حتى عيل صبرى وأدنتني مكالمتي لرمسي
ولم أقدر على إخفاء حال يحول بها الأسى دون التأسي
وحبك مالك لحظي ولفظي وإظهاري وإضماري وحسي
فإن أنطق ففيك جميع نطقي وإن أسكت ففيك حديث نفسي

قال ابن رشيق : إنه كان أي صاحب الترجمة أخذ في عمل **طبقات الشعراء** على رتب الأسنان . وكنت أصغر القوم سناً فصنعت :

رفقاً أبا إسحاق بالعالم جعلت في أضيق من خاتم
لو كان فضل السبق مندوحة فضل إبليس على آدام

فبلغه البيتان فأمسك عنه ، واعتذر منه ومات ، وقد سد عليه باب الفكرة فيه ولم يصنع شيئاً . قال : والذي أعرف أنا من تصانيفه كتاب **زهر الآداب** وكتاب **النورين** . وذكر الصفدي أن اسمه **نور الظرف ونور الطرف** اختصره منها وهما يتضمنان أخباراً وأشعاراً حساناً ، وكتاب **المصون والدر المكنون** . ومن تآليفه أيضاً كتاب

الجواهر في الملح النوادر .

ومن شعره ، أي صاحب الترجمة ، قوله :

قالوا اطرح كاف الخطاب في ... خط الكتاب بها خط من الرتب
فقلت من كان في نفسي تصوره ... فكيف أنزله في منزل الغيب

55 – مضر بن تميم الفزاري الصفاقسي

قال أبو علي الحسن بن رشيق فيه ما نصه : «موطنه صفاقس . وهو شاعر حسن الطريقة في الشعر . له حر الكلام ونفيسه» .

من شعره قوله :

يامن عذيري على وجدي وتسهيدي ... ومن معيني على نوحي وتعديدي
تطاول الليل وامتدت غواربه ... فالصبح ورد لعيني غير مورود

وبعد هذا البيت قوله :

لا أطعم الغمض إلاّ أن يطيف به ... طيف ويذهب مفقود بمفقود

ومنها :

حتى استقرت سهام من نوى قذف ... شطت بهم عن كئيب القلب معمود [1]
أستودع الله من ولّى وأودعني ... شوقاً اليه جديداً غير مجدود

قال ابن رشيق تعليقاً عليه : «المجدود ، هنا المحظوظ . ولو جعلته من الجدّ الذي هو القطع . كأنه قال : غير مقطوع ، لكان جيداً والأول أشهر . وهذا من عجيب الشعر» .

لم أقف على وفاته .

---

(1) قذف : بعيد .

56 – عبد الله بن أبي الطاهر بن أبي أسحاق[1] الجبنياني الصفاقسي

قال أبو علي الحسن ابن رشيق فيه : كان أديباً شاعراً ظريفاً . نشأ بصفاقس . وقرأ العلم ، فبرع . وفاق في الآداب . وكان نزيه النفس نبيهاً ، بعيد الهمة .أصابته ديون ثقيلة ففارق بلده ودخل القيروان . ثم ارتحل إلى الأندلس . فاتصل بالحاجب مجاهد بن عبد الله فأكرمه وأدناه ، وعظمت منزلته عنده ، وكشف عنه ، فوجد فضلاً وجلالةً فاستمسك به ، فحسد على مكانه منه ، فوجد في منزله مذبوحاً وسكين الأقلام بين يديه مغالطة ، كأنه فعل ذلك بنفسه وبقيت الروح فيه . فسألوه من به ، فأشار إلى فقيه الموضع [2]. وكان الفقيه المشار إليه كثير الملازمة له . وهلك من ساعته ، فقال الفقيه : إنما أشار إليّ بالوصية ، فأخذ وقيد وسجن إلى أن جاء وليُّ الدم فطلبه فلم يتوجه عليه حق بالحكم ، فأطلقه . وكانت وفاته سنة 415هـ

ومن شعره :

سأضرب في بلاد الناس براً ... وبحراً بالسفائن والركاب
إلى أن تنكر الأحباب مني ... ثوالي في المغارب واغترابي
لأكسب ثروة وأفيد مالا ... وأبلي عذر نفسي في الطلاب
فإن نلت المراد فذاك حسبي ... وإن أحرم فإني ذو احتساب
وما فارقت إخواني وأهلي ... ومن أحببت إلاّ عن غلاب

قال ابن رشيق : أنشدني (أي صاحب الترجمة) هاته الأبيات وهو يتمايل وكان متعلق النفس بجارية أم ولد له تركها بموضعه .

57 – علي بن حبيب التنوخي الصفاقسي

قال أبو علي الحسن ابن رشيق فيه : ولد بصفاقس ، وبها نشأ . وبرع في

---

(1) العالم الصالح صاحب الزاوية الفائقة بجنيانة .

(2) إمام المحلة الذي يصلي بأهلها .

الأدب والعلم . وهو شاعر عذب الألفاظ ، لطيف المعاني ، سهل الطريقة ، قليل التكلف . رحل إلى المشرق ، ولقي جماعة من رؤساء العرب فحظي عندهم ، وأقام بمدينة لك إلى أن تشاجرت القبائل على يديه ، ونجا بشعره من شر عظيم .

ومن شعره قوله من قصيدة :

يا ليالِيَّ في ذُرى ابن حسين — هل معاد قبل الممات إليا
قد نشرنا صحائف الحزن نشرا — وطوينا السرور بعدك طيا
وأطلنا البكا عليك وإني — لعليم أن ليس يرجع شيا
فإلى الله من فراق رمتني — عنه بعد الدنو مرمى قصيا
ولكم قد حذرت منه ولكن — كان أمراً مقدراً مقضيا

ومنه في الوعظ والزهد :

للمرء في أيامه واعظ — لو فكّر المغرور في أمسه
كم من قرير العين في غبطة — أعداه صرف الدهر عن لبسه
ففارق الأحباب عن كرهه — واستبدل الوحشة من أنسه
يا رب غفرانك يرجو الذي — أسرف في الدنيا على نفسه

ومنه قوله :

يا معطشي من عذب مورده — برد غليل جوانحي العطشا
أترى الذي أرجو أفوز به — منكم فقد كان الذي أخشى
ولقد شخصت اليك من بلد — قد أظلمت أرجاؤه وحشا
وتنكرت للعين بهجته — منذ ارتحلت كأنني أعشى
والله ما من ساعة غبرت — إلا علي لذكركم يغشى

ومن شعره أيضاً يصف المد والجزر في بحر صفاقس ، وهي مذكورة في حسن البيان :

سقياً لارض صفاقس — ذات المصانع والمصلى
تحمي القصير إلى الخليـ — ـج بقصرها السامي المعلى

بلد يكاد يقول حيـ ـن تزوره أهلاً وسهلا
وكأنه والبحر يجزر تارة عنه ويملا
صب يريد زيارة فإذا رأى الرقباء ولّى

58 – محمد بن الحسين بن أبي الفتح بن ميكائيل القرشي السوسي

ولد بسوسة . وبها نشأ وطلب العلم وبرع . وكان شاعراً مطبوعاً . اشتهر شعره ، وشهد له بالاصابة في الغرض . سكن القيروان . ترجمه ابن رشيق في الإنموذج وأثنى عليه .

ومن شعره المجوني : [1]

صوَّر عبد الله من مسكة وصوَّر الناس من الطين
أبدعه الخالق سبحانه كمثل حور الجنة العين
في مثله يوصل حبل الصبا وتؤثر الدنيا على الدين

وقال التجاني في رحلته : إنه من شعراء سوسة المتقدمين بالزمان ، المشهورين باصابة غرض الإحسان . ونقل عن ابن رشيق أنه بعد ذكره للأبيات الثلاثة : صور عبد الله الخ . قال : لم أتصفح هذه الأبيات الأمرة واحدة فوجدتها قد علقت بنفسي وخفت على لساني حتى كدت أتهمه فيها لو لا علمي به . قال : وكثيراً ما يجري ذلك في الشعر المطبوع حتى أن قائل الأبيات ربما استراب بها لسهولتها عليه فأسقطها . قال التجاني وشعر ابن ميكائيل هذا في الإنموذج وغيره كثير مشهور . اهـ .

59 – أبو الحسن علي بن أحمد الصفار السوسي

قال ابن رشيق فيه : شاعر متسع القافية . سالم الطبع ، عالم باللغة . وله في الشيب من قصيدة [2] :

---

(1) قال ابن رشيق : لان يسلك مسلك قدامة في انتقاد الشعر ومطالبة الحذاق وربما سهل ألفاظه وعبث بملح ، كقوله : صور عبد الله من مسكة ... الخ .

(2) قال ابن رشيق وهو مليح جداً .

أرى البيض لا يمنحن ذا البيض منحة   سوى منحة تُهدي له الهم والثكلا
كأن لأيام الشباب بسالةً   طلبن لأيام المشيب بها ذحلا [1]
ولم تر عيني كالشباب وأهله   أقر إلى حسن العيون ولا أحلى
ولا كبياض الشيب في أعين الدمى   قذى بسما يغشى القذي الأعين النجلا
فلا غرو أن أرعى الشباب وعصره   ولا لوم أن أنعى المشيب ولا عذلا

وعقب ابن رشيق على هذه الأبيات بقوله : ما رأيت أعجب من البيت الثاني من هذه الأبيات أما ينظر الناس إلى هذا المعنى الغريب ، والتخلص العجيب ، في اللفظ الرائع المتمكن ، والنظم الرائق المستحسن .

ومن شعره قوله :

وأنشد بالعلياء نارا لها سنى   لليلى بليل قد دجا وتغضنا
وما أوقدت الاّ لخابط ظلمة   مضل وضيف جاء يقتاد ضيفنا
فما بلغا حتى أكلاّ وألصقا   قلوصيهما بالأرض من شدة الونا

قال ابن رشيق معقباً على هذه الأبيات ما نصه : هذا كلام عربي صريح قلما يأتي مثله للمتقدمين المحسنين فضلاً عن المتأخرين لا سيما في مثل هذه القافية . قال : وأنت تعلم حال أبي نواس فيها على جلالته وجرأته ا هـ

60 – أبو الفتوح بن محمد السوسي

قال أبو علي الحسن ابن رشيق : نشأ بسوسة . وبها مقامه . وشعره سهل وطي ، لا يتكلف .

ومن شعره السهل الممتنع يمدح حسن ابن بلبل والي سوسة وقد رفع عنه مالاً . وقيلت فيه أقوال فلم يأخذ بها ولم تضره :

دُمْ هكذا دُمْ على رغم العدى أبداً   علاك في اليوم تعلوها علاك غدا
قد قدر الله أن تعطى مُناك وما   يعطى حسودك الاّ الموت والكمدا

(1) ذحلاً : ثاراً .

61 – أبو موسى عيسى بن إبراهيم المعروف بالقطان

قال أبو علي الحسن ابن رشيق : شاعر مشهور . مليح المقطعات . كنت أسمع بذكره وهو بسوسة الى أن اجتمعت به ، فأنشدني بعض شعره ، ثم قال لي : كيف رضاك عما سمعت : فقلت : أحسن رضى .[1]

من شعره قوله :

أهدي الى الغصن الرطيب قواما ... والى فؤادي لوعة وغراما
ظبي أعار الظبي منه محاجرا ... وأعارني من سقمهن سقاما
ما ضره لو كان مع كلفي به ... يُهدي اليَّ مع الرياح سلاما

قال ابن رشيق معقباً على هذه الأبيات : وهذه ألفاظ طيبة ومعانٍ رائقةٍ . وذلك بعد أن أثبتها في كتابه **الأنموذج** .

62 – عبد الله زيادة الله السعدي التميمي

أبو مروان الطبني . قال السيوطي في **بغية الوعاة** حين ترجم له : إن طبنة المنسوب اليها من أعمال افريقية (أي تونس) وقال في شأنه : إنه إمام في اللغة . رحل الى المشرق . وهو من بيت جلالة ورئاسة ، ومن أهل الحديث والأدب . وجد مقتولاً في داره سنة 456هـ اهـ .

63 – عبد الوهاب بن خلف بن القاسم السوسي ويعرف بابن الغطاس

قال أبو علي الحسن ابن رشيق : هو من أبناء سوسة ومستوطنيها . وهو شاعر متدرب ، قد جمع الى رقة المعنى متانة اللفظ وقرب المقصد .

---

(1) زاد : وأتمه ، قال : فتكلم بكلام جميل .

ومن شعره :

وكم ليلة قد جاذبت راحتي بها نهود العذارى في قميص الدجى الوجف
وبت يعاطيني العقار مهفهف هظيم الحشا محصوفه وافر الردف
وأظمأ فأستسقي ثناياه ظاميا تنوب ثناياه عن القهوة الصرف[1]
وأيّام دهري مغضيات على القذى وأيامه يقطعن باللهو والقصف

ومن شعره يصف الخيار :

ثوب لجين يكاد يجري لولا ترديه ثوب سام
ما اعترضته العيون إلاّ رأت به مقبض الحسام

64 – أبو عبد الله محمد بن عبدون السوسي

قال أبو علي الحسن ابن رشيق فيه : أصله من بيت من القيروان ، من أكابرها . وأبوه هو المتنقل الى سوسة . وهو شاعر وطي الكلام . كلف بعذوبة اللفظ ، والتوصل الى المعنى البعيد بلطافة .

وكانت له رحلة الى ثقة الدولة يوسف بن عبد الله أمير صقلية ، فامتدحه فقبله ، وأضافه الى ولده جعفر فأدناه وقرّبه ومكث زمانا في كنفه[2]. ثم سأله الأذن له في الرجوع الى وطنه ورفع اليه قصيدة يتشوق فيها معاهده . منها :

بالله يا جبل المعسكر دع ريح الجنوب ترق أو تسري
كيما أسائلها فتخبرني ما يفعل الجيران بالقصر
يا قصر طارق الذي طرقت أحشاي فيه بلابل الصدر
والله ما قصرت عنك ولـ كني قد قصرت بالقسر
فسقاك منهل الحيا وسقى عصراً تقضى فيه من عصر
ربع فكم لي فيه من غصن يهفو صباه به وكم بدر

(1) القهوة : الخمر .
(2) قال ابن رشيق : وكان من أكرم الناس عنده .

ومناسب الأوصاف أثقله ... حقف يكاد ينوء بالخصر [1]
قد طال ما عقدت قلائده ... مني مكان قلائد النحر
ولثمت صدراً فاح عنبره ... من غير ما طيب ولا عطر
وضممت أنفاسي عليه وقد ... أشفقت من نفسي الذي يسري
وكأن صدري لا ضلوع له ... وكأن قلبي بان عن صدري
أعطى عهود الله صفقة من ... أعطى العهود بجانب الحجر
لو أستطيع سبحت من طرب ... شوقا إليه سواد ذا البحر
حتى أقبل جانبيك كما ... قبلت فيك مراشف البدر
وأفيض اجفاني لديك كما ... فاضت عليك وما بها تدري

فلما سمعها جعفر زاد به إعجابا ومنعه من السفر .

قال ابن رشيق وكان من أكرم الناس عنده .

قال ابن رشيق معقباً على القصيدة المذكورة : إن عليها رقة الشوق ظاهرة ، ولطف الحضارة مع مياه تكاد تنبع من جنبه ، فهو أندى من الزهر غب القطر ، وأحلى من الوصل بعد الهجر . قال ولما سمعها جعفر إزداد به إعجاباً ، وفيه رغبةً ، فمنعه من السفر فكتب الى ثقة الدولة يسأله فيمّا سأل فيه ولده . وشكر ما ناله من الجود ، ويذكر وطنه أيضاً :

يا قصر طارق همي فيك مقصور ... شوقي طليق وخطوي عنك مأسور
إن نام جارك إنني ساهر أبدا ... أبكي عليك وباكي البين معذور
عندي من الوجد مالو فاض من كبدي ... إليك لاحترقت من حولك الدور

ومدح فيها ثقة الدولة فلم يسعفاه بمبتغاه فخرج عنهما مسارقة .

قال ابن رشيق : ومن ملح ما رأيت له قوله لجعفر حين استأذنه في الرجوع إلى وطنه فعتب عليه وحجبه :

ولما رأيت البدر قمت مسلما ... عليه وأظهرت الخضوع لديه

---

(1) حقف : الرمل الكثير المستدير (مصححه) .

وقلت له إن الأمير بن يوسف شيبهك قد عز الوصول إليه
فكن لي شفيعاً عنده ومذكرا إذا جئته تبغى السلام عليه

قال : فكتب هذه الأبيات ولقيه بها في متنزه له فطرب وأعجب بها إعجاباً شديداً . وأمر له بمال كثير .

قال : ومن عجيب كلامه قوله :

أتبصر أم أنت لا تبصر هو الحب يجري بما يقدر
تذلل وكن خاشعاً خاضعاً فذل الهوى عزك الأكبر
ولا تنكرن احتكام الهوى فأحكامه فوق ما ينكر
إذا عز دمع فأغر الهوى به وأبك إن البكا أعذر
أيا واحد الحسن أوحدتني لمّا بي وإن كان لي معشر
يحامون عني ولكن حمى فؤادي أبيح ولم يشعروا
عزمت بهجري وغرقتني بدمع يفيض ولا يقطر
وعاينتني كيف أشكو الهوى كمّا يشتكي فقره المعسر

قال ابن رشيق : لله خفة أنفاس البغداديين النفيسة لم يخنها طبعه ، ولا أعجزها صنعه ، ولو مزج هذا الكلام بكلام العباس بن الأحنف ظريف الشعراء ، لامتزج به امتزاج الخمر بالماء والنور بالهواء .

وله في ملعب سوسة :

أين من شاد ذا ومن رفع السمـ ـك وأعلاه فوق ما يحتاج
أين ذاك الملك الشديد الذي كـ ـان وذاك الرواح والإدلاج
أين تلك الخدور أين بدو ر حجبتها الجيوش والأعلاج
أين أربابهم ومن رفع التـ ـاج على رأسه وأين التاج
ضمت الأرض والبلاد عليهم فسطوتهم وطيها إدلاج
طحنتهم طحن الرحى فإذا الإنسـ ـان والدهر صخرة وزجاج

65 – عبد الحميد بن عبد الواحد الكاتب السوسي

قال أبو الصلت في **الحديقة** : شاعر جيد الشعر ، رقيق الحواشي .

من شعره في الشيب :

ترى الشعراتِ البيضُ والسودُ حولها　　كمثل أسارى الزنج في عسكر الروم

وقبل هذا البيت على ما قال ابن رشيق قوله :

همت بأن تخفي بقايا شبيبة　　كغرة ليل أو حشاشة مهزوم

ومنه قوله :

نذرت لله إذا ما تلتقي　　شفاهنا بعد النوى للقبل
صومي عن الراح سوى ما قد حوى　　مبسمها العذب وراح المقل

وله في عود نشابة اتخذ نصاباً لمذبة :

لليالي في نقض حالي عظات　　حار في وصفها ذوو الألباب
صرت في الخوص بعد لبس الخوافي　　واعتيادي بأزرق كالشهاب
بعد ذب الكماة في حومة العـ　　ـز تنقلب بي لذب الذباب

ومن شعره أيضاً قوله :

عيني دهتني والعين الكحيلة مع　　عين الرقيب وأخذ الناس بالعين
هبني اتقيت عدوا من لأربعة　　ما أجلب العين مذ كانت إلى حين

66 – التراب السوسي

ذكره العماد الأصبهاني في **الخريدة** . وكان شاعراً مفلقاً ، طائر الصيت .

من شعره يمدح جبارة بن كامل . نذكر جملة منها لسلاستها واستيفائها لوصف الديار والأحباب ، وزمان الوصل والشباب . وهي :

سلِّم على ذي سلَم مغنى الهوى المستغنَم — وقف به مسائلاً عن أهله والخيِم
واستمطر العين به صوب دموع ودَم — فهذه أطلالهم مندرسات الأرسُم
وهذه عِراصهم مستوحشات العلم — كأنهن أسطر في كتب لم تُفهم
لم تُبق منهن الصبا وواكفات الديم — سوى ثلاث ماثسات قائمات جثم
وأشعث مطرَّح بربعها المهدّم — أضحت خلاء بلقعا بواليا كالرِّم
لا تسمع الأذن بها إلاّ نعيب الأسحم — إلى صرير جندب إلى عواء ديسم [1]
إلى ضباء ثعلب إلى زئير ضيغم — ولا ترى العين سوى خدرنق مخيم
وعقعق وثقنق ولقلق وشيهم — بعد السرور والمنى والأمل المتمم [2]
والغانيات كالدمى يسحبن كل مُعلَم — من أبيض محبر وأخضر منمنم [3]
وأحمر معتق وأصفر مسهم — من كل خود كحلت مقلتها بالسهم [4]
جبينها من قمر وفرعها من ظلم — وقدها من غصن وخدها من عندم [5]
تفتر عن مفلج عذب الثنايا شبم — مفضض مذهب مدبج موشم
حلو اللمى وإنمّا لحظي جناه لافمي — من كل ريم ماثس كالغصن المنعم
وصاله من سكر وصده من علقم — مبتسم عن جوهر في عسجد منظم
إذا نضى برقعه كالمشر في المخذم — قامت له مدامعي مقام مهراق الدم [6]
سقياً للذاتي بها وعيشي المنصرم — أيام كانت لمتي مسودة كالحُمم
وقامتي قويمة شبابها لم يهرم — والدهر لم يخط إلى مساءتي بقدم
ولا نهاني عذلي ولا لحاني لوّمي — ثم انقضت بسرعة أيام ذاك الموسم
كأنني كنت أرى عيشي بها كالحلم — يا ربع أحبابي نأوا من مدنف متيم
أنعم صباحاً وأسلم سقيت نوأ المرزم — إن لم أمت من أسف وحسرة عليهم
كذبت في دعوى الهوى لست بهم بمغرم — كأنني بالوصل من أحبتي لم أنعم
ولم أبت ريان من رشف عقار المبسم — في ليلتين ليلة وليل شعر أسحم

---

(1) الأسحم : الأسود والمراد هنا الغراب . جندب : الجراد . ديسم : الذئب . (مصححه) .
(2) ثقنق : ذكر النعام . لقلق : طائر . شيهم : القنفذ .
(3) محبر : موشى .
(4) مسهم : مخطط .
(5) عندم : دم الاخوين .
(6) المخذم : القاطع .

ما بين تفاح الخدود العاطر الموشم — وبين رمان النهود الأرج المكدم[1]
في فرش وثيرة لم تفترش لمحرم — حتى تولى الليل في خميسه المنهزم
وأقبل الصباح في جحفله العرمرم — كأنه لما بدا يشرق تحت الظلم

ثم تخلص لمدح الأمير جبارة من رجال المائة السادسة .

هذا نص بقية القصيدة :

وجه الأمير ابن الأميـ — ـر الأوحد الغطمطم
جبارة بن كامل — سيف الندى والكرم
الفارس الذي إذا — أسرج كل شيظم
وسل كل مرهف — وطرّ كل لهذم
وأضرمت نار الوغى — وفر حامي الحرم
وأشفق الأبطال من — وقع القنا المقوم
وحشرجت نفس الجبا — ن من كريه المقدم
وافى على ظامي الحشا — على الشوى مقدم
من الهلال مسرج — من الثريا ملجم
من الضحى محجل — من الصفا مجسم
مـقـلـداً بصـارم — عضب المضا مخذم
ثم انثنى يسبح في — بحر الردى الملتطم
فـأجـفـلـوا أمامـه — بعضاً على بعضهم
كـأنــه طـهـارم — سطا بسرب الغنم
حتى إذا الليل دجا — وانهل صوب الديم
ووعوع السرحان من — طول الطوى المخيم
وجئت معتراً إلى — منزله في العتم
ألفيته خير فتى — طرقته في الظلم
يلقاك من قبل الندى — بـالـبشر والتبسم

(1) المكدم : المعضض ، (مصححه) .

إلى كريم خيمه سمح وفي الذمم
آراؤه في الحادثا ت نفذ كالأسهم
وجاهه أمنع من رضوي لكل مجرم
وخلقه أحسن من بره بإثر السقم
سما به إلى المعا لي والمقام الأعظم
صيد من العرب الأولى كانوا ملوك الأمم
وكانت الأرض ارتوت منهم بجود ودم
من دير سمعان إلى نجد بوادي إضم
فجابني وادي القرى فالدوح من ذي سلم
ثم انقضوا وذكرهم كالشهد في كل فم
من بعد ما أوصوا بنيـ ـهم مكرماً عن مكرم
بالصبر في وقت الوغى والكف عند المغنم
فجاء يقفو مجدهم وحسن تلك الشيم
يا حاسديه انتبهوا من رقدة التوهم
اتطمعون في علا محل تلك الأنجم
أقسمت بالبيت الحرا م والصفا وزمزم
لأنت من بعد النبي المصطفى المكرم
وآله وصحبه أهل الوفا والذمم
أجل من تحت السمّا ء من جميع الأمم
لو كنت يا ابن الأكرميـ ـن في الزمان الأقدم
لأنزلت في فضلك الـ ـمكمل المتمم
مـفصلات سور من الكتاب المحكم
أنت الذي لو لم أكن من عزه في حرم
ما قلت للدهر الظـ ـلوم الجائر المحتكم
يا دهر إن شئت فصل حبلي وإن شئت أصرم
وإن تشأ فأستقم وإن تشأ جِر واظلم
فما أباليك ولا ألقاك كالمستسلم

إني من ابن كامل ذي البأس والتكرم
في ظل سيف مرهف ونـائـل منسجم
وعزة قد خيمت بين السهى والمرزم
قد رفعت من الثرى إلى الثريا قدمي
فالنجم لي مجالس كأنه من حرمي
والشعر لي مساعد كأنه من خدمي
هو الذي لو أمه كل الورى لم يسأم
ولو سخا بنفسه لسائل لم يندم
علمني الجود بمّا قلّدني من أنعم
حلفت والدينار في يدي مثل الدرهم
فإن غدوت مادحاً لغيره من علم
فـجـائـز ضرورة لـلـجـائـع المحرم
كالماء إن عدمته صليت بالـتيمم
لأجعلن ما حييـ ـت ذكره شغل فمي
وإن أمت فشكره في القبر شغل أعظمي
لا زال طول عمره موفـراً بـالـعصم
تمسكا من سعده بعروة لم تفصم
ربوعـه مـأهولـة بسـابغات النعم
وسمره محمـــرة من العداة بالدم
ما أومضت بوارق في جنح ليل مظلم
وما شدت حمائم على فروع السلم

ومن شعره أيضاً يمدحه بقصيدة منها :

بات بالأبرق برق يتسامى فجفا الجفن لرؤياه المناما
طلعت راياته خافقة خفقان القلب أمسى مستهاما
بذمام الحب يابرق عسى لك علم حيهم أين أقاما
أنسوا عاماً فلما ملكوا رق قلبي أوحشوا عاماً فعاما

واستمالوني بوصل خادع وكما قلت رأوا وصلي حراما

ومنها في مدح جبارة :

فـإذا أبصرتـه اكبرتـه وإذا خاطبت خاطبت هماما
وإذا استصرخت في حادثة فعلى الحادث جردت حساما

ولم أقف على وفاته .

67 – أبو الفضل يوسف بن محمد يوسف

المعروف بابن النحوي التوزري

ولد بتوزر سنة 434هـ . ونشأ طالباً للعلم ، فأخذ عن علماء بلده . كأبي زكرياء الشقراطسي وغيره ، وبرع ، واشتهر ، فكان عالما جليلاً ، متبحراً في جميع العلوم . سافر إلى أبي الحسن اللخمي بصفاقس ليروي عنه **صحيح البخاري** . وينسخ **تبصرته** التي ألفها في فقه الإمام مالك . فأجّله وقضى مأربه . وكان زاهداً في الدنيا . متقشفاً . قال علماء عصره : هو بالغرب كالغزالي بالمشرق علماً وعملاً . أخذ عنه خلق وتخرج عليه أئمة أعلام . انتقل إلى قلعة بني حماد [1] ، فاستوطنهاإلى أن توفي بها سنة 513 عن ثمانين سنة . وكان شاعراً مفلقاً .

من شعره المنفرجة التي اشتهرت شرقاً وغرباً . واعتنى العلماء في كل عصر بشرحها ومحاكاتها . ومطلعها :

اشتدي أزمة تنفرج قد آذن ليلك بالبلج
وظلام الليل له سرج حتى يغشاه أبو السرج
وسحاب الخير له مطر فإذا جاء الإبان تجي
وفوائد مولانا جمل لسروح الأنفس والمهج
ولها أرج محي أبدا فاقصد محيى ذاك الأرج
فلربتما فاض المحيا ببحور الموج من اللجج

(1) مدينة من قطر الجزائر .

والخلق جميعاً في يده ... فذوو سعة وذوو حرج
ونزولهم وطلوعهم ... فإلى درك وعلى درج
ومعائشهم وعواقبهم ... ليست في المشي على عوج
حكم نسجت بيد حكت ... ثم انتسجت بالمنتسج
فإذا اقتصدت ثم انعرجت ... فبمقتصد وبمنعرج
شهدت لعجائبها حجج ... قامت بالأمر على الحجج
ورضى بقضاء الله حِجى ... فعلى مركوزته فعج
وإذا انفتحت أبواب هدى ... فاعجل لخزائنها ولج

وهي طويلة .

وبقية القصيدة المنفرجة هي :

وإذا حاولت نهايتها ... فاحذر إذ ذاك من العرج
لتكون من السباق إذا ... ما جئت إلى تلك الفرج
فهناك العيش وبهجته ... فلمبتهج ولمنتهج
فهج الأعمال إذا ركدت ... فإذا ما هجت إذا تهج
ومعاصي الله سماجتها ... تزدان لذي الخلق السمج
ولطاعته وصباحتها ... أنوار صباح منبلج
من يخطب حور الخلد بها ... يظفر بالحور وبالغنج
فكن المرضي لها بتقى ... ترضاه غداً وتكون نجي
واتل القرآن بقلب ذي ... حرق وبصوت فيه شجى
وصلاة الليل مسافتها ... فاذهب فيها بالفهم وجى
وتأملها ومعانيها ... تأت الفردوس وتبتهج
واشرب تسنيم مفجرها ... لا ممتزجا وبممتزج
قدح العقل الآتيه هدى ... وهوى فتولى عنه هجى
وكتاب الله رياضته ... لعقول الخلق بمندرج
وخيار الخلق هداتهم ... وسواهم من همج الهمج
وإذا كنت المقدام فلا ... تجزع في الحرب من الرهج

وإذا أبصرت منار هدى		فاظهر فرداً فوق الثبج
وإذا اشتاقت نفس وجدت		ألما بالشوق المعتلج
وثنايا الحسنا ضاحكة		وتمام الضحك على الفلج
وعياب الأسرار اجتمعت		بأمانتها تحت السرج
والرفق يدوم لصاحبه		والخرق يؤول إلى الهرج
صلوات الله على المهدي		الهادي الخلق إلى النهج
وأبي بكر في سيرته		ولسان مقالته اللهج
وأبي حفص وكرامته		في قصة سارية الخلج
وأبي عمرو ذي النوريـ		ـن المستحي البهج
وأبي حسن في العلم إذا		وافى بسحائبه الخلج
يا رب بهم وبآلهم		عجّل بالنصر وبالفرج

وكان يقرأ قبلها قوله من نظمه :

لبست ثوب الرجا والناس قد رقدوا		وقمت أشكوا إلى مولاي ما أجد
وقلت يا سيدي يا منتهى أملي		يا من عليه بكشف الضر أعتمد
أشكو اليك أموراً أنت تعلمها		ما لي على حملها صبر ولا جلد
وقد مددت يدي بالضر مشتكياً		اليك يا خير من مدت إليه يد
فلا تردنها يا رب خائبة		فبحر جودك يروى كل من يرد

ومن شعره يتشكى من أهل زمانه :

أصبحت فيمن له دين بلا أدب		ومن له أدب عار من الدين
أصبحت فيهم غريب الشكل منفرداً		كبيت حسان في ديوان سحنون

يشير لبيت ذكره الإمام سحنون في الجهاد من مدونته من شعر سيدنا حسان ابن ثابت الأنصاري شاعر النبي صلّى الله عليه وسلّم وهو قوله :

وهان على سراة بني لويٍّ		حريق بالبويرة مستطير

وقال السفلي : إن ابن النحوي (صاحب الترجمة)أقرأ النحو . وممن أخذ عنه

أبو محمد عبد الله بن سليمان بن منصور التاهرتي . وله شعر منه :

عطاء ذي العرش خير من عطائكم وسيبه واسع يرجى وينتظر
أنتم يكدر ما تعطون منّكم والله يعطي فلا منٌّ ولا كدر
لا حكم إلاّ لمن تمضي مشيئته وفي يديه على ما شاءه القدر

وذكر شيخ الإسلام سيدي محمد بيرم الرابع في بعض كنانيشه في شأن صاحب الترجمة : أنه يذكر أن نفسه تاقت إلى الحج في بعض السنين ، وكان ذا عيال ، فصدته زوجته عن الذهاب لفقره وعدم ما يترك من القوت لهم ، فصمم على الذهاب وأخذ بطاقة وكتب فيها :

إن الذي وجهت وجهي له هو الذي خلفت في أهلي
فإنه أرأف مني بهم وفضله أوسع من فضلي

وتركهم بغير شيْ . وذهب ، فاتفق إثر رحيله مرور السلطان على داره فطلب ماء . فجيْ له بماء من دار الشيخ ، فأستحسنه . وسأل عن الدار لمن ، فسئلت المرأة . وأخبرت بصاحب الدار ، وذكرت قصة ذهابه . وأنه لم يترك شيئاً سوى بطاقة بها سطران ، فأمر السلطان باحضار البطاقة فإذا فيها البيتان المذكوران فأفرغ عليهم من الإحسان ما قام بهم أحقاباً ا هـ .

68 – أبو علي الحسن ابن رشيق القيرواني الكاتب بالدولة الصنهاجية

كان أحد أفاضل البلغاء . له التصانيف الفائقة ، والشعر البليغ ، واليد البيضاء في العلوم الأدبية وغيرها . ولد بالمحمدية قرية قرب تونس . ونشأ بها . فعلّمه أبوه صناعة الصياغة . وكانت حرفته التي يشتغل بها في المحمدية . وطلب العلم والأدب فأخذه عن علمّاء قريته حتى ظهرت براعته . وقال الشعر بالمحمدية ، وأنظر لانتشار العلم في تلك القرون حتى في القرى بحيث تخرج نحو ابن رشيق . ثم تاقت نفسه إلى التزيد من العلم والأدب ، فرحل عن بلده إلى القيروان دار العلوم ، فاستكمل واشتهر ، ومدح ملوكها ، واتصل بخدمتهم إلى أن استكتبوه . وانخرط في سلك أعيان الدولة ، ولم يزل بالقيروان إلى أن هجم الأعراب القادمون من مصر لتخريب افريقية

على مدينة القيروان وقتلوا وخربوا . فانتقل صاحب الترجمة إلى جزيرة صقلية ، فاستوطن بمازر منها إلى أن توفي في سنة 463هـ .

وله تآليف جليلة منها **العمدة** في الصناعة الشعرية . قال ولي الدين ابن خلدون : لم يؤلف قبله ولا بعده مثله ، وكتاب **الأنموذج** ترجم فيه لجملة من شعراء افريقية . **وقراضة الذهب** لطيف الجرم كبير الفائدة . وكتاب **الشذوذ في اللغة** ذكر فيه كل كلمة جاءت شاذة في بابها . وله الرسائل الفايقة ، والشعر الجيد .

منه قوله في الأخوة :

أحب أخي وإن أعرضت عنه ... وقلّ على مسامعه كلامي
ولي في وجهه تقطيب راض ... كما قطبت في وجه المدام
ورب تقطب من غير بغض ... وبغض كان من تحت ابتسام

ومن معانيه المبتكرة ، وقد كبر :

إذا ما خففت كعهد الصبا ... أبت ذلك الخمس والأربعونا
وما ثقلت كبرا وطأتي ... ولكن أجر ورائي السنينا

ومنه :

وقائلة ماذا الشحوب وذا الضنا ... فقلت لها قول المشوق المتيم
هواك أتاني وهو ضيف أعزه ... فأطعمته لحمي وأسقيته دمي

ومنه في البرق :

أرى بارقاً بالأبرق الفرد يومض ... يذهب ما بين الدجى ويفضض
كأن سليمى من أعاليه أشرفت ... تمد لنا كفا خضيباً وتقبض
إذا ما توالى ومضه نفض الدجى ... له صبغة المسود أو كاد ينفض
أرقت له والقلب يهفو هفوّه ... على أنه منه أحر وأومض
وبتُّ أداري الشوق والشوق مقبل ... علي وأدعو الصبر والصبر معرض
وأستنجد الدمع الأبيّ على الأسى ... فتنجدني منه جداول فُيض
وأعذر قلبا لا يزال يروعه ... سنا النار مهما لاح والبرق يومض

يظنهما ثغرَ الحبيب وخدَّه فذا ضاحك منه وذا متعرِّض
إذا بلغت منه الخيالات ما أرى فأنت لماذا بالشخوص معرض
إلى أن تفرّت عن سنا الصبح سدفة كما انشق عن فصح من الماء عرمض[1]
وندت إلى الغرب النجوم مروعة كما نفرت عيس من الليل ركض
وأدركها من فجأة الصبح بهتة فنحسبها فيه عيون تمرض
كأن الثريا والرقيب يحثها لجام على رأس الدجى وهو يركض
وما تمتري في المقعة العين إنها على عاتق الجوزاء قرط مفضض[2]

ومنه :

رمى حر قلبي بأجفانه رشا ما درى قدر ما قد رمى
وقد كان قدم احسانه ولكنه قدَّ ما قدما
وهدم بنيان صبري به فما احد هدَّ ما هدما
لئن كان حرم من أنسه حلالاً فيا حر ما حرّما
وإن كان أضرم نار الجوى فلا أشتكي ضر ما أضرما
فتسليم أمري به للقضا ذخرت به أجر ما أجرما

ومنه :

إن كنت تنكر ما منك ابتليت به وأن برء سقامي عز مطلبه
اشر بعود من الكبريت نحو فمي وانظر إلى زفراتي كيف تلهبه[3]

ومن شعره أيضاً :

رأيت بهرام والثريـــا والمشترى في القران كرّه[4]
كراحة خيرت فـراحـت ما بين ياقوتة ودره

(1) عرمض : الطحلب .
(2) المقعة : ثلاثة نجوم فوق الجوزاء (مصححه) .
(3) بعود : ان عود الكبريت وهو المعروف عندنا بالوقيد معروف عند العرب قديماً .
(4) بهرام : المريخ .

وله أيضاً :

والثريا قبالة البدر تحكي   باسطاً كفه ليأخذ جاما

ومن شعره يمدح الأمير تميم بن المعز :

أصح أقوى ما رويناه في الندى   من الخبر المأثور منذ قديم
أحاديث ترويها السيول عن الحيا   عن البحر عن كف الأمير تميم

ومنه أيضاً وذكره في كتابه العمدة يهجو :

وأخرق أكال للحم صديقه   وليس لجاري ريقه بمسيغ
سكت له ضنا بعرضي فلم أجب   ورب جواب في السكوت بليغ

ومن شعره في بلد هجرته صقلية قالوا : إن هذه الكلمة وهي (صقلية) أصلها سيكه بمعنى التين والزيتون عربتها العرب وإلى ذلك يشير صاحب الترجمة بقوله :

أخت المدينة في اسم لا يشاركها   فيه سواها من البلدان والتمس
وعظم الله معنى لفظها قسما   قلد إذا شئت أهل العلم أو فقس

ومن شعره قوله :

رجوتك للأمر المهم وفي يدي   بقايا أمنى النفس فيها الأمانيا
فساومت بي الأيام حتى إذا انقضت   أواخر ما عندي قطعت رجائيا
وكنت كأني نازف البئر طالبا   لإجمامها أو يرجع الماء صافيا
فلا هو أبقى ما أضاف لنفسه   ولا هي أعطته الذي كان راجيا

وقوله :

يا موجعي شتما على أنه   لو فرك البرغوث ما أوجعا
كل له من نفسه آفة   وآفة النحلة أن تلسعا

ومن شعره من قصيدة خاطب بها بعض بني مناد :

من يصحب الناس مطوياً على دخل   لا تصحبوه فخلوا كل تدخيل
لا تستطيلوا على ضعفي بقوتكم   إن البعوضة قد تعدو على الفيل

وجانبوا المزح إن الجد يتبعه ورب موجعة في إثر تقبيل

ومنها :

يا قوم لا يلقيني منكم أحد في المهلكات فإني غير مغلول
لا تدخلوا بالرضا منكم على غرر فتخرجوا الليث غضباناً من الغيل
الا تكن حملت خيراً ضمائركم أكن تأبط شراً ناكح الغول

ومن شعره قصيدة شريفة على حد تعبيره هو عنها في كتابه **العمدة** طالعها :

صحا القلب عن سعدي وعن أم مسعد ولم يشجني نوح الحمام المغرد

يقول فيها :

واعلم أن المجد شيْ مخلد وأن الفتى والمال غير مخلد

ومنها في المديح :

لكفاك أندى من غيوم سواجم وعزمك أمضى من حسام مهند

ومن شعره في قوس البندق :

طير أبابيل جاءتنا فما برحت إلاّ وأقواسنا الطير الأبابيل
ترميهم بمصاطير مسومة كأن معدنها للرمي سجيل
تغلو على ثقة منّا بأطيبها فالنار تقدح والطنجير مغسول

ومنه يصف زرافة أتت من مصر ضمن هدية إلى الأمير الصنهاجي :

وأتتك من كسب الملوك زرافة شتى الصفات لكونها أثناء
جمعت محاسن ماحكت فتناسبت في خلقها وتنافت الأعضاء
يحثنها بين الخوافق مشية باد عليها الكبر والخيلاء
وتمد جيداً في الهواء يزينها فكـأنهاتحت اللواء لواء
حطت مآخرها وأشرف صدرها حتى كأن وقوفها إقعاء
وكأن فهر الطيب ما رجمت به وجه الثرى لو لمت الأجزاء
وتخيرت دون الملابس حلة عيت لصنعة مثلها صنعاء
لونا كلون الزبل إلاّ أنه حلي وجزع بعضه الجلاء
أو كالسحاب المكفهرة خيطت فيه البروق وميضها إيماء

أو مثل ما صدئت صفائح جوشن — وجرى على حافاتهن جلاء
نعم التجافيف التي ادرعت به — من جلدها لو كان فيه وقاء

وفيها يقول أيضاً :

ومحبوبة أبداً لم تكن — مذللة الظهر للراكب
قد اتصل الجيد من ظهرها — كمثل السنام بلا غارب
ململمة مثل ما لمعت — بحناء وشي يد الكاعب
كأن الجواري كنفنها — لخالخ من كل ما جانب

ومن شعره :

لا يبعد الله أبا جعفر — دعابة بت على نارها
وإن تأذيت فيا ربما — تأذت العين بأشفارها

ومن شعره في استبطاء :

أحسنت في تأخيرها منة — لو لم تؤخر لم تكن كامله
وكيف لا يحسن تأخيرها — بعد يقيني أنها حاصله
وجنة الفردوس يدعى بها — آجلة للمرء لا عاجله
لكنما أضعف من همتي — أيام عمر دونها زائله

ومن شعره قوله :

يا رب لا أقوى على دفع الأذى — وبك استعنت على العدو المؤذي
مالي بعثت إلى ألف بعوضة — وبعثت واحدة إلى النمروذ

ومنه قوله من قصيدة يمدح بها المعز بن باديس سنة عشر وأربعمائة :

ذمت لعينك أعين الغزلان — قمر أقر لحسنه القمران
ومشت فلا والله ما حقف النقا — ممّا أرتك ولا قضيب البان
وثن الملاحة غير أن ديانتي — تأبى علي عبادة الأوثان

ومن مديحها قوله :

يا ابن الأعزة من أكابر حمير وسلالة الأملاك من قحطان
من كل أبلج آمر بلسانه يضع السيوف مواضع التيجان

ومن شعره :

في الناس من لا يرتجى نفعه إلا إذا مُسّ بإضرار
كالعود لا يطمع في طيبه إلا إذا أحرق بالنار

ومنه قوله :

أقول كالمأسور في ليلة ألقت على الآفاق كلكالها
يا ليلة الهجر التي ليلها قطع سيف الهجر أوصالها
ما أحسنت جمل ولا أجملت هذا وليس الحسن إلا لها

وقوله :

ومن حسنات الدهر عندي ليلة من العمر لم تترك لأيامنا ذنبا
خلونا بها ننفي القذى عن عيوننا بلؤلؤة مملوءة ذهباً سكبا
وملنا لتقبيل الثغور ولثمها كمثل جنوح الطير يلتقط الحبا

ومنه قوله :

قد أحكمت مني التجا رب كل شيء غير جودي
أبداً أقول لئن كسبـ ـت لأقبضن يديّ شديد
حتى إذا أثريت عد ت الى السماحة من جديد
إن المقام بمثل حا لي لا يتم مع القعود
لا بد لي من رحلة تدني من الأمل البعيد

وقوله :

معتقة يعلو الحباب متونها فتحسبه فيها نفير جمان
رأت من لجين راحة لمديرها فطافت له من عسجد ببنان

وقال يصف الشعر كما في كتابه **العمدة** :

الشعر شيء حسن   ليس به من حرج
أقل ما فيه ذها   ب الهم عن نفس الشجي
يحكم في لطافة   حل عقود الحجج
كم نظرة حسنها   في وجه عذر سمج
وحرقة بردها   عن قلب صب منضج
ورحمة أوقعها   في قلب قاس حرج
وحاجة يسرها   عند غزال غنج
وشاعر مطرح   مغلق باب الفرج
قربه لسانه   من ملك متوج
فعلموا أولادكم   عقار طب المهج

وقال من أثناء قصيدة اعتذر بها إلى الأمير الصنهاجي عن طول غيبة غابها عن ديوانه :

إليك يخاض البحر فعماً كأنه   بأمواجه جيش إلى البر زاحف
ويبعث خلف النجح كل منيفة   تريها يداها كيف تطوى التنائف
من الموجفات اللاتي يقذفن بالحصى   ويرمي بهن المهمه المتقاذف
يطير الرغام الجعد عنها كأنه   من القطن أو ثلج الشتاء ندائف
وقد نازعت فضل الزمام ابن نكبة   هو السيف لا ما أخلصته المشارف
فكيف تراني لو أعنت على الغنى   بجد واني للغنى لمشارف
وقد قرب الله المسافة بيننا   وأنجزني الوعد الزمان المساوف
ولولا شقائي لم أغب عنك ساعة   ولا رام صرفي عن جنابك صارف
ولكنني أخطأت رشدي فلم أصب   وقد يخطىء الرشد الفتى وهوعازف

ومن شعره قصيدة قالها بالمهدية بديهة ساعة وصوله إليها باقتراح من بعض شعراء وقته يقول فيها :

وذيال له رجل طحون   لما نزلت به ويد زجوج
يطير بأربع لا عيب فيها   لظهران الصفا منها عجيج
خرجت به عن الأوهام سبقا   وقلّ له عن الوهم الخروج

إلى الملك المعز أبي تميم   أمر بمن سواه فلا أعيج

ومن قصيدة أخرى في الرحلة بالقفار :

وماء بعيد الغور كالنجم في الدجى   وردت طروقاً أو وردت مهجرا
على قدم أخت الجناح وأخمص   يخال حصى المعزاء جمراً مسعرا
فريداً من الأصحاب صلتا من الكسى   كما أسلم الغمد الحسام المذكرا

وله في ممدوحه الوزير أبي الحسن بن أبي الرجال :

إني لأعجب كيف يحسن عنده   شعر من الأشعار مع إحسانه
ما ذاك إلا أنه درّ النهى   يفد التجار به على دهقانه

ومن شعره هذا البيت الذي جمع فيه أربعة أمثال :

كلٌّ إلى أجل والدهر ذو دول   والحرص مخيبة والرزق مقسوم

وفي مثل ذلك قوله ويتضمن ستة أمثال :

خذ العفوَ وأبِ الضيم واجتنب الأذى   وأغض تسد وأرفق تنل واسخَ تحمد

ومن شعره في تعدد المشبه والمشبه به :

كأن ثناياه أقاح وخده   شقيق وعينيه بقية نرجس

وقال :

بكؤوس حكين من شفَّ قلبي   شفةً لم تذق وثغراً وريقا

وقال :

بفرع ووَجه وقد وردف   كلَيْل وبدر وغصن وحقف

ومن شعره أيضاً قوله وسماه تقسيماً :

إذا أقبلت أقعت وإن أدبرت كبت   وتعرض طولاً في العنان فتستوي
وكلفت حاجاتي شبيهة طائر   إذا انتشرت ظلت على الأرض تنطوي

وممّا أرتجله مستملحاً ما حكاه عن نفسه في كتابه **العمدة** قال : يحكى أن أبا نواس والعباس بن الأحنف والحسين بن الضحاك الخليع ومسلم بن الوليد الصريع خرجوا إلى منتزه لهم ومعهم يحيى بن المعلى فقام يصلي بهم فنسي الحمد لله وقرأ قل هو الله أحد فأرتجَّ عليه في نصفها فقال أبو نواس أجيزوا :

أكثر يحيى غلطا في قل هو الله أحد

فقال عباس :

قام طويلاً ساهيا حتى إذا أعيا سجد

فقال مسلم بن الوليد :

يزحر في محرابه زحير حبلى بولد

فقال الخليع :

كأنما لسانه شُدّ بحبل من مسد

قال : أنشدنا بعض أصحابنا هذه الأبيات على طريق الإستملاح لها والإستظراف قائلاً : هذا الذي يعجز الناس ، فقلت : فما بال عباس وأبي نواس لم يقولا بعد البيت الأول :

ونسي الحمد فما مرت له على خلد

ولا سيما قد كان ذلك حقيقة وكذلك جرت الحكاية فقال : ولمن البيت ؟ فقلت : لابن وقته ا هـ .

ومن شعر صاحب الترجمة قوله :

إذا لم تجد بدّاً من القول فانتصف   بحد لسان كالحسام المهند
فقد يدفع الإنسان عن نفسه الأذى   بمقوله إن لم يدافعه باليد

ومن شعره أيضاً يخاطب أبا الحسن بن أبي الرجال مهدياً له كتابه **العمدة** وختمه به قال :

إن الذي صاغت يدي وفمي وجرى لساني فيه أو قلمي
مما عنيت لسبك خالصه وأخترته من جوهر الكلم
لم أهده إلا لتكسوه ذكراً تجدده على القدم
لسنا نزيدك فضل معرفة لكنهن مصائد الكرم
فاقبل هدية من أشدت به ونسخت عنه آية العدم
لا تحسب الدنيا أبا حسن تأتي لمثلك فائق الهمم

ومن شعره ما رواه عنه علي بن ظافر في كتابه **بدائع البدائه** قال : إن أبا علي الحسن بن رشيق دخل على المعز بن باديس يوماً وفي يده أترجة كأنها واسطة ذهب أو جذوة لهب ، فأشار له الى وصفها فارتجل :

أترجة سبطة الأطراف ناعمة تلقى النفوس بحظٍ غير مبخوس
كأنما بسطت كفاً لخالقها تدعو بطول بقاء لابن باديس

وله أشعار يرثي بها مدينة القيروان .

منها ، بعد تخريب الأعراب لها قصيدة :

كم كان فيها من كرام سادة بيض الوجوه شوامخ الإيمان
متعاونين على الديانة والتقى لله في الإسرار والإعلان
ومهذب جمّ الفضائل باذل لنواله ولعرضه صوان
وأيمة جمعوا العلوم وهذبوا سنن الحديث ومشكل القرآن
علماء إن ساءلتهم كشفوا العمى بفقاهة وفصاحة وبيان
وإذا الأمور تشابهت واستغلقت أبوابها وتنازع الخصمان
حلوا غوامض كل أمر مشكل بدليل حقٍ واضح البرهان
هجروا المضاجع قانتين لربهم طلباً لخير معرس ومكان
وإذا دجا الليل البهيم رأيتهم متبتلين تبتل الرهبان
في جنة الفردوس أكرم منزل بين الحسان الحور والولدان
تجروا لها الفردوس من أرباحهم نعم التجارة طاعة الرحمان
المتقين الله حق تقاته والعارفين مكائد الشيطان

وترى جبابرة الملوك لديهم ... خضع الرقاب نواكس الأذقان
لا يستطيعون الكلام مهابة ... إلا إشارة أعين وبنان
خافوا الإله فخافهم كل الورى ... حتى ضراء الأسد في الغيران
تنسيك هيبتهم شماخة كل ذي ... ملك وهيبة كل ذي سلطان
أحلامهم تزن الجبال وفضلهم ... كالشمس لا تخفى بكل مكان
كانت تعد القيروان بهم كمّا ... عُدّ المنابر زهرة البلدان
وزهت على مصر وحق بهم بأن ... تزهو بهم وزهت على بغدان
حسنت فلما أن تكامل حسنها ... وسما إليها كل طرف ران
وتجمعت فيها الفضائل كلها ... وغدت محل الأمن والإيمان
نظرت لها الأيام نظرة كاشح ... ترمي بنظرة كاشح معيان
حتى إذا الأقدار حم وقوعها ... ودنا القضاء لمدة وأوان
أهدت لنا فتناً كليل مظلم ... وأرادها كالناكح الغيران
أعظم بتلك مصيبة لا تنجلي ... حسراتها أو ينقضي الملوان
حزنت لها كور العراق بأسرها ... وقرى الشآم ومصر والخرسان
وتزعزعت لمصابها وتنكدت ... أسفاً بلاد الهند والسودان
وعفا من الأقطار بعد خلائها ... ما بين أندلس الى حلوان
وأرى النجوم طلعن غير زواهر ... في أفقهن وأظلم القمران
والأرض من وله بها قد أصبحت ... بعد القرار شديدة الميلان
والمسلمون مقسمون تنالهم ... أيدي العصاة بذلة وهوان
يستصرخون فلا يغاث صريخهم ... حتى إذا سئموا من الأزمان
نادوا نفوسهم فلما أنقذوا ... ما جمعوا من صامت وصوان
خرجوا حفاة عائذين بربهم ... من خوفهم ومصائب ألوان
هربوا بكل وليدة وفطيمة ... وبكل أرملة وكل حصان
فتفرقوا أيدي سبا وتشتتوا ... بعد اجتماعهم على الأوطان
أترى الليالي بعدما صنعت بنا ... تقضي لنا بتواصل وتدان
وتعيد أرض القيروان كعهدها ... فيما مضى من سالف الأزمان

ومن شعره يمدح المعز بن باديس وقد ذكر في كتابه **الأنموذج** حيث ترجم لنفسه على

ما نقله عنه ياقوت في كتابه **معجم الأدباء** أن ما تضمنته هذه القصيدة من مدح كانت السبب في دخوله في خدمة الأمير المعز بن باديس ولزوم ديوانه وأخذ صلاته :

لدن الرماح لما يستي أسنتها ... من مجة القيل أو من نصرة البطل
لو أثمرت من دم الأعداء سمر قنا ... لأورقت عنده سمر القنا الذبل
إذا توجه في أولى كتائبه ... لم تفرق العين بين السهل والجبل
فالجيش ينفض حوليه أسنته ... نفض العقاب جناحيه من البلل
يأتي الأمور على رفق وفي دعة ... عجلان كالفلك الدوار في مهل

ومن رثاء صاحب الترجمة قوله :

أما لئن صح ما جاء البريد به ... ليكثرن من الباكين أشياعي
ما زلت أفزع من يأس الى طمع ... حتى ترفع يأسي فوق أطماعي
فاليوم أنفق كنز العمر أجمعه ... لمّا مضى واحد الدنيا بإجماع

ومن هجائه قوله :

قالوا رأينا فراتاً ليس يوجعه ... ما يوجع الناس من هجو إذا قذفا

ومن شعره قوله :

من جفاني فإنني غير جاف ... صلة أو قطيعة في عفاف
ربما هاجر الفتى من يصافيـ ... ـه ولاقى بالبشر من لا يصافي

وأنشد لنفسه في كتاب **فسح اللمح** :

المرء في فسحة كما علموا ... حتى يرى شعره وتأليفه
فواحد منهما صفحت له ... عنه وجازت له زخاريفه
وآخر تجري منه في غرر ... إن لم يوافق رضاك تثقيفه
وقد بعثنا كيسين ملؤهما ... نقد امرىء حاذق وتزييفه
فانظر وما زلت أهل معرفة ... يا من لنا علمه ومعروفه

ومن شعره من قصيدة :

ولو غيرك الموسوم عندي برتبة لأعطيت فيه مدعى القوم ما ادعى
فلا تتخالجك الظنون فإنها مآثم واترك للصنائع موضعا
فوالله ما طولت باللوم فيكم لساناً ولا عرضت للذم مسمعا
ولا ملت عنكم بالوداد ولا انطوت حبالي ولا ولى ثنائي مودعا
بلى ربما أكرمت نفسي فلم تهن وأجللتها عن أن تذل وتخضعا
فباينت لا أن العداوة باينت وقاطعت لا إن الوفاء تقطعا

69 – أبو يحيى تميم بن المعز بن باديس أمير إفريقية

كان أميراً فاضلاً عالماً أديباً ، حسن السيرة ، حميد الآثار ، محباً للعلماء ، معظماً لأرباب الفضائل ، حتى قصدته الشعراء من الآفاق . وكان يجيزهم الجوائز السنية . ولد يوم الإثنين ثالث عشر رجب سنة 422هـ بمدينة صبرة ، وتسمى المنصورية . وفوض له أبوه ولاية المهدية في صفر سنة 445هـ . ولم يزل بها الى أن توفي والده المعز سنة 454هـ رابع شعبان فاستبد بالملك . ولم يزل الى أن توفي ليلة السبت منتصف رجب سنة 501هـ . ودفن بقصره . ثم نقل الى قصر السيلة بالمنستير . وخلف من الأولاد الذكور أكثر من مائة ومن البنات ستين . ذكر ذلك حفيده عبد العزيز في تاريخه **أخبار القيروان** .

وكان شاعراً مجيداً . وله **ديوان** كبير . ومنه :

سلي مطر العام الذي عمَّ أرضكم أجاء بمقدار الذي فاض من دمعي
إذا كنت مطبوعاً على الصد والجفا فمن أين لي صبر فأجعلَه طبعي

ومنه :

إن نظرت مقلتي لمقلتها تعلم مما أريد نجواه
كأنها في الفؤاد ناظرة تكشف أسراره وفحواه

ومنه :

وخمر قد شربت على وجوه إذا وصفت تجل عن القياس
خدود مثل ورد في ثغور كدر في شعور مثل آس

ومنه قوله :

فإما الملك في شرف وعز ... عليَّ التاج في أعلى السرير
وأما الموت بين ظبي العوالي ... فلست بخالد أبد الدهور

ومنه قوله :

فكرت في نار الجحيم وحرّها ... يا ويلتاه ولات حين مناص
فدعوت ربّي أن خير وسيلتي ... يوم المعاد شهادة الإخلاص

ومن شعره أيضاً :

أطلع الحسن من جبينك شمسا ... فوق ورد من وجنتيك أطلّا
وكأن العذار خاف على الور ... د ذبولاً فمدّ بالشعر ظلّا

70 – أبو الحسن علي بن عبد الغني الفهري الضرير الحصري القيرواني

كان عالماً أديباً ، وشاعراً مفلقاً . ولد بالقيروان ، وبها نشأ . فطلب العلوم ، فكان بحراً في البراعة ، ورأساً في الصناعة ، وزعيماً في علمي العربية والقراءات . آمتد باعه وطار صيته ، وسار شعره . وهو ابن خالة أبي اسحاق الحصري .

ولمّا خربت القيروان سنة 449هـ في رمضان انتقل الى الأندلس سنة 450هـ ، فتهادته ملوك الطوائف بها ؛ وتنافسوا في إكرامه . وكان المعتمد بن عباد ملك إشبيلية بعث إليه بخمسمائة دينار ، وهو إذ ذاك بالقيروان ليتجهز بها إليه ويأتيه إلى إشبيلية ؛ فكتب إليه أبو الحسن :

أمرتني بركوب البحر أقطعه ... غيري لك الخير فأخصصه بذا الداء
ما أنت نوح فتنجيني سفينته ... ولا المسيح أنا أمشي على الماء

ثم دخل الأندلس ، وامتدح ابن عباد وغيره . توفي بطنجة سنة 488هـ . له قصيدة نظم فيها قراءة نافع ، وهي قراءة أهل إفريقية بها مائتان وتسعة أبيات . وله ديوان شعر .

ومن قصائده السائرة القصيدة التي أولها :

يا ليل الصبِّ متى غده ... أقيام الساعة موعده

رقد السمّار فأرقه أسف للبين يردده

ويقيتها في الغزل قبل التخلص للمديح هو قوله :

فبكاه النجم ورقّ له مما يرعاه ويرصده
كلف بغزال ذي هيف خوف الواشين يشرده
نصبت عيناي له شركا في النوم فعز تصيده
وكفى عجباً أني قنص للسرب سباني أغيده
صنم للفتنة منتصب أهواه ولا أتعبده
صاح والخمر جنى فمه سكران اللحظ معربده
ينضو من مقلته سيفا وكأن نعاساً يغمده
فيريق دم العشاق به والويل لمن يتقلده
كلّا لا ذنب لمن قتلت عيناه ولم تقتل يده
يا من جحلت عيناه دمي وعلى خديه تورده
خدّاك قد اعترفا بدمي فعلام جفونك تجحده ؟
إني لأعيذك من قتلي وأظنك لا تتعمده
بالله هب المشتاق كرى فلعل خيالك يسعده
ما ضرك لو داويت ضنى صب يدنيك وتبعده
لم يبق هواك به رمقا فليبك عليه عوده
وغدا يقضي أو بعد غد هل من نظر يتروده
يا أهل الشوق لنا شرق بالدمع يفيض مورده
يهوى المشتاق لقاءكم وصروف الدهر تبعده
ما أحلى الوصل وأعذبه لولا الأيام تنكده
بالبين وبالهجران فيا لفؤادي كيف تجلده

ومن شعره قوله :

أقول له وقد حيَّا بكأس لها من مسك ريقته ختام
أمن خديك يعصر قال كلّا متى عصرت من الورد المدام

ومن شعره أيضاً قوله :

يموت من في الأنام طراً ... من طيب كان أو خبيث
فمستريح ومستراح ... منه كما جاء في الحديث

وقوله :

ضاقت بلنسية بي ... وعاد عني غموضي
رقص البراغيث فيها ... على غناء البعوض

قال ابن بسام في **الذخيرة** : إنه كان بحر براعة ، ورأس صناعة ، وزعيم جماعة ، وفد على الأندلس في المائة الخامسة والأدب فيها يومئذٍ نافق السوق ، معمور الطريق ، تهادته ملوك الطوائف تهادي الرياض للنسيم ، وتنافسوا فيه تنافس الديار في الأنس المقيم ، ا هـ .

ومن شعره أيضاً قوله :

لو كان تحت الأرض أو فوق الثرى ... حرٌّ أتيح له العدو ليوذى
فاحذر عدوك وهو أهون هين ... إن البعوضة أردت النمروذا

وقوله :

إذا كان البياض لباس حزن ... بأندلس فذاك من المصاب
ألم ترني لبست بياض شيبي ... لحزني إذ ثكلت على شبابي

ومن شعره أيضاً قوله من قصيدة كما في **عيون التواريخ** :

وهبت قواي للحدق الضعاف ... وإن كانت بسفك دمي تكافي
فكان الضعف قوّتها علينا ... وماذا الطبع إلا للسلاف

ومنها :

ولما أينعت رمانتاها ... ونادى الوصل حيّ على القطاف
تأذت فيهما بفمي فقالت ... شمائل عاشق وفعال جاف

ومن شعره قوله :

الناس كالأرض ومنها هم ... من خشن اللمس ومن لين
وتشتكـي الأرجل منه الوجى ... وأثمد يوضع في العين

ومدح بعض الملوك فأبطأت عليه جائزته وأراد السفر فدخل عليه وأنشده :

محبتي تـقـتضي مقامي ... وحالتي تقتضي الرحيلا
هذان خصمان لست أقضي ... بينهما خوف أن أميلا
ولا يزالان في خصام ... حتى ترى رأيك الجميلا

ومن شعره في وفاة المعتضد أمير إشبيلية وتولي ابنه المعتمد بعده :

مـات عـباد ولكن ... بقي الـفـرع الـكريم
فـكـأن الميت حيٌّ ... غير أن الضاد ميم

ولما اعتزم للرحلة عن القيروان إلى الأندلس وزار قبر أبيه مودعاً له قال :

أبي نيِّر الأيام بعدك أظلما ... وبنيان مجدي يوم متَّ تهدّما
وجسمي الذي أبلاه فقدك إن أكن ... رحلت به فالقلب عندك خيما
سقى الله عينيْ من تعهد وقفة ... بقبرك فاستسقى له وترحما
وقال سلام والثواب جزاء من ... ألم على قبر الغريب فسلما

وأخذ قبضة من تراب قبر أبيه لكي يستصحبها معه في رحلته وقال :

رحلت وههنا مثوى الحبيب ... فمن يبكيك يا مثوى الغريب
سأحمل من ترابك في رحالي ... لكي أغني به عن كل طيب

ومن شعره في رثاء مدينة القيروان من قصيدة :

ألا سقى الله أرض القيروان حيا ... كأنه عبـراتي المستهلات
وكف عنها أكف المفسدين لها ... ولا عدتها من الخيرات عادات
فإنها لذة الجنات تربتها ... مسكية وحصاها جوهريات
أرض بها الخير مجموع مباركة ... لله فيها براهين وآيات
كم من ولي بها لله متقيا ... حياته كلها نسك وإخبات

وكم إمام هدى في مرتقى ملك   قد توّجته المعالي والمهابات

71 – أبو عبد الله محمد بن أبي سعيد ابن شرف الجذامي القيرواني الأديب الفاضل

من أشهر علماء القيروان وفحول شعرائها . فرع العلوم ، وتلاعب بالمنثور والمنظوم . وكان فقيهاً فاضلاً . أخذ عن أبي الحسن القابسي وأبي عمران الفاسي مقدمي علماء عصرهما . وذكره أبو الوليد الباجي فأثنى عليه ، ووصفه بالعلم والذكاء ، وأن علم الأدب من بعض علومه .

له تآليف نفيسة منها **أبكار الأفكار** ، **والأعلام** ، والمقامة المعروفة بـ **مسائل الإنتقاد بلطف الفهم والافتقاد** صنّفها في صورة محادثة مع أبي الريان الصلت بن السكن في نقد بعض أشعار للجاهلية كامرىء القيس وزهير والمولدين كالمتنبي . ألّفها لما دخل الأندلس وحيدة في بابها . وللنظر مجال في بعض انتقاداتها .

ولمّا اشتدت فتنة الأعراب على القيروان خرج منها سنة 447هـ الى الأندلس ، فسكن المرية ، وتردد على ملوك الطوائف بها مادحاً ، فأجلّوه وأسنوا جوائزه ، وعرفوا فضله ، فرفعوا منزلته . وكان من أعقل الناس وأحزمهم . استنهض الحسن ابن رشيق على ما كانت بينهما من المنافرة على الإجتماع في الطريق والاجتياز معاً الى الأندلس ، فأنشده ابن رشيق :

مما يزهدني في أرض أندلس   ألقاب معتمد فيها ومعتضد
ألقاب سلطنة في غير موضعها   كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

فأجابه ابن شرف بقوله :

إن ترد الغربة في معشر   قد جبل الطبع على بغضهم
فدارهم ما دمت في دارهم   وارضِهم ما دمت في أرضهم

ومنه قوله من قصيدة طويلة وقد وفد على الأندلس في زيّ تظهر عليه البداوة :

مطل الليل بوعد الفلق   وتشكي النجم طول الأرق
ضربت ريح الصبا مسك الدجى   فاستفاد الروض طيب العبق

وألاح الفجر خدًّا خجلا جال من رشح الندى في عرق
جاوز الليل الى أنجمه فتساقطن سقوط الورق
واستفاض الصبح فيه فيضة أيقن النجم لها بالغرق
فانجلى ذاك السنا عن حلك وانمحى ذاك الدجى عن شفق
بأبي بعد الكرى طيف سرى طارقاً عن سكن لم يطرق
زارني والليل تاعٍ سدفه وهو مطلوب بباقي الرمق
ودموع الطل تذريها الصبا وجفون الروض غرقى الحدق
فتأنى في إزار ثابت وتثنى في وشاحٍ قلق
وتجلى وجهه عن شعر فتجلى فلق عن غسق
نهب الصبح دجى ليلته فحبى الخد ببعض الشفق
سلبت عيناه حدي سيفه وتحلّى خده بالرونق

ومنها في المدح :

لو سقى حسان إحسانكم ما بكى ندمانه في جلِّق [1]
أو دنا الطائي من حيكم ما حدا البرق لربع الأبرق
أبدعوا في الفضل حتى كلّفوا كاهل الأيام ما لم يطق

وله قصائد يندب بها مدينة القيروان ويبكي زمانه بها ؛ منها :

يا قيروان وددت أني طائر فأراك رؤية باحث متأمل
يا لو شهدت إذا رأيتك في الكرى كيف ارتجاع صباي بعد تكهل
لا كثرة الإحسان تنسي حسرتي هيهات تذهب علّتي بتعلل
لو كنت أعلم أن آخر عهدهم يوم الرحيل فعلت ما لم أفعل

ومن شعره في خراب مدينة القيروان قوله :

ترى سيئات القيروان تعاظمت فجلت عن الغفران والله غافر
تراها أصيبت بالكبائر وحدها ألم تك قدماً في البلاد الكبائر

(1) جلق : دمشق .

ومن شعره قوله :

لك مجلس كملت بشارة لهونا فيه ولكن تحت ذاك حديث
غنّى الذباب فظل يزمر حوله فيه البعوض ويرقص البرغوث

وقوله :

ألحاظكم تجرحنا في الحشى ولحظنا يجرحكم في الخدود
جرح بجرح فاجعلوا ذا بذا فما الذي أوجب جرح الصدود

وقوله أيضاً :

يا خائفاً من معشر لا يصطلى بنارهم
إن تخش من شرارهم على يدي شرارهم
أو ترمِ من أحجارهم وأنت في أحجارهم
فما بقيت جارهم في هواهم جارهم
وأرضهم في أرضهم ودارِهم في دارِهم

ومن شعر صاحب الترجمة أيضاً ما نقله علي بن ظافر في كتابه **بدائع البدائه** عنه (أي ابن شرف) على ما ذكره في كتابه **أبكار الأفكار** ، قال : استدعاني المعز ابن باديس يوماً واستدعى أبا علي حسن بن رشيق الأزدي ، وكنّا شاعرَي حضرته وملازمي ديوانه ، فقال : أحب أن تصنعا بين يدي قطعتين في صفة الموز على حرف الغين فصنعنا في الوقت من غير أن يقف أحدنا على ما يصنعه الآخر فكان الذي صنعته :

يا حبّذا الموز وإسعاده من قبل أن يمضغه الماضغ
لان إلى أن لا مجسّ له فالفم ملآن به فارغ
سيان قلنا مأكل طيب فيه وإلا مشرب سائغ

والذي صنعه ابن رشيق :

موز سريع أكله من قبل مضغ الماضغ
مأكلة لآكل ومشرب لسائغ
فالفم من لين به ملآن مثل فارغ

يخال وهو بالغ للحلق غير بالغ

فأمرنا للوقت أن نصنع فيه على حرف الذال ، فعملنا . ولم ير أحدنا ما عمل صاحبه : فكان ما عملته :

هل لك في موز إذا ذقناه قلنا حبذا
فيه شراب وغذا يريك كالماء القذى
لو مات من تلذذا به لقيل ذا بذا

والذي صنعه ابن رشيق :

لله موز لذيذ يعيذه المستعيذ
فواكه وشراب به يداوي الوقيذ
ترى قذى العين فيه كما يريها النبيذ

قال ابن شرف : فأنت ترى هذا الإتفاق لمّا كانت القافية واحدة والقصد واحداً . ولقد قال من حضر ذلك اليوم لا ندري ممّ نتعجب أمن سرعة البديهة أو من غرابة القافية أم من حسن الإتفاق .

وقال ابن شرف أيضاً : استخلانا المعز يوماً وقال : أريد أن تصنعا شعراً تمدحان به الشعر الرقيق الذي يكون على ساقي بعض النساء فإني استحسنه وقد عاب بعض الضرائر من هذا فيه ، وكلهن قارئات كاتبات ، فأحب أن أريهن هذا وأدعي أنه قديم لأحتج به على من عابه وأسر به من عيب عليه فانفرد كل منا وصنع في الوقت . فكان الذي قلت :

وبلقيسية زينت بشعر يسير مثل ما يهب الشحيح
رقيق في خدلجة رداح خفيف مثل جسم فيه روح
حكى زغب الخدود وكل خد به زغب فمعشوق مليح
فإن يك صرح بلقيس زجاجا فمن حدق العيون له صروح

وكان قال ابن رشيق :

يعيبون بلقيسية أن رأوا لها كما قد رأى من تلك من نصب الصرحا

وقد زاده الترغيب ملحاً كمثل ما يزيد خلود الغيد تزغيبها ملحا

فانتقد المعز على ابن رشيق قوله : يعيبون . قال : قد أوجدت خصمها حجة بأن بعض الناس عابه فكان هذا نقداً ما كنت فطنت له . انتهى كلام مترجمنا في كتابه **أبكار الأفكار** الذي نقله ابن ظافر في كتابه **بدائع البدائه** .

ومن شعر ابن شرف في رثاء مدينة القيروان حين حاق بها ما حاق قوله وقد ارتحل عنها :

كيف يا قيروان حالك لمّا نثر البين سلكك المنظوما
كنت أم البلاد شرقاً وغربا فمحا الدهر وشيك المرقوما
نحن أبناؤها ولكن عققنا بعد أن لم نطق بها أن نقيما
دِمَن كانت البروج وكنا أقمراً في فنائها ونجوما

قال السيوطي في **بغية الوعاة** في شأن صاحب الترجمة إنه كان من جملة أدباء وفحول الشعراء وله كتب مؤلفة مات سنة 518 ا هـ .

72 – الوزير الكاتب أبو الحسن علي بن أبي الرجال

عالم بالأدب ، شاعر مفلق ، بلغ الرئاسة في دولة صنهاجة ، فوزر لهم ، وكان ذا همة ونزاهة ومكارم .

له ألف أبو علي الحسن ابن رشيق **العمدة** في الصناعة الشعرية ، ووشحها باسمه ، ولم يزل مقدم الدولة ، نافذ الرأي ، مسموع الكلمة الى أن انقضت أيامه ، وانصرمت أعوامه . توفي في سنة ...؟

ومن شعره البليغ يتشوق لأهله :

ولي كبد مكلومة من فراقكم أطامنها صبراً على ما أجنّت
تمنتكم شوقاً إليكم وصبوة عسى الله أن يدني لها ما تمنت
وعين جفاها النوم واعتادها البكا إذا عنَّ ذكر القيروان استهلت

ومنه قوله :

ألا ليت أياماً مضى لي نعيمها تكرّ علينا بالوصال فتنعم
وصفراء تحكي الشمس من عهد قيصر يتوق إليها كل من يتكرم
إذا مزجت في الكأس خلت لآليا تنثر في حافاتها وتنظم
جمعنا بها الأشتات في كل بلدة على أنه لم يغش في ذاك محرم

ومنه في صفة كاتب بليغ :

فضل الأنام بفضل علم واسع وعلا مقالهم بفضل المنطق
وحكى لنا وشي الرياض وقد وشت أقلامه بالنقس بطن المهرق

ومنه قوله :

إذا مشقت يمناك في الطرس أسطرا حكيت بها وشي الملاء المعضد
يروق بجيد الخط حسن حروفها ويعجب منها بالمقال المسدد

ومن شعره قوله :

جبر الكسير إذا يهاض جناحه لجأ المطرد مستغاث المملق
جمع الفضائل والمحامد والعلى خلق لعمر أبيك غير تخلق

ومنه قوله أيضاً :

أمن الزمان زمانة العقل فاخش الإله وحل عن الجهل
واعلم بأنك في الحساب غدا تجز بمّا قدمت من فعل

ومن شعره قوله يتشكى من أحوال الناس وقلة ثقتهم وإنصافهم :

أيا رب إن الناس لا ينصفونني ولم يحسنوا قرضي على حسناتي
إذا ما رأوني في رخاء ترددوا إلي وأعدالي لدى الأزمات
ومهما أكن في نعمة حزنوا لها ذوو أنفس في شدة جذلات
ثقاتي ما دامت صلاتي لديهم وإن عنهم أخرتها فعداتي
سأمنع قلبي أن يحن إليهم وأصرف عنهم قالياً لحظاتي
وألزم نفسي الصبر دأباً لعلني أعاين ما أملت قبل مماتي
ألا إنما الدنيا كفاف وصحة وأمن ثلاث هن طيب حياتي

ومن شعره أيضاً قوله من قصيدة طويلة :

غراء واضحة ينوس بقرطها ... جيد حكى جيد الغزال الأعنق
صدت فأغرت بالسجوم مدامعي ... والعين تذرف بالدموع السبق
تشكو البعاد إذا بعدت تصبرا ... وإن ارتجعت إلى الزيارة تفرق
ولقد يبيت أخو المودة لائمي ... في حبها لوم الشفيق المشفق
حتى إذا طلعت فابصر شخصها ... أخزى جهالة لائمي المستحمق
كم قد قطعت بوصلها من ليلة ... وشربت صافية كلون الزئبق
يسعى بها كالبدر ليلة تمه ... سحار ألحاظ رخيم المنطق
آليت أترك ذا وتلك وهذه ... حتى يفارقني سواد المفرق

ومن شعره أيضاً وقد أحسن :

خليلي إن لم تسعداني أقصرا ... فليس يداوى بالعتاب المتيم
تريدان مني النسك في غير حينه ... وغصني ريان وشعري أسحم

وقال يتغزل :

مر بنا يهتز في مشيه ... مثل اهتزاز الغصن الرطب
فمقلتي ترتع في حسنه ... ومقلتاه أحرقت قلبي

وقال :

باكر الراح ودع عنك العذل ... وأسعَ في الصحة من قبل العلل
واغتنم لذة يوم زائل ... فالمنايا ضاحكات بالأمل
ما ترى الساقي كشمس طلعت ... تحمل المريخ في برج الحمل
مائساً كالغصن في دعص نقي ... فاتن المقلة زينت بالكحل

وقال يفخر بقومه بني شيبان :

يا آل شيبان لا غارت نجومكم ... ولا خبت ناركم من بعد توقيد
أنتم دعائم هذا الملك قد ركضت ... قبل الخيول لإبرام وتوكيد
المنعمون إذا ما أزمة أزمت ... والواهبون عتيقات المزاويد

سيوفهم أفقدت كسرى مرازبه في يوم ذي قار إذ جاؤوا لموعود

ومن شعره في العتاب قوله :

وإني لأطري كل خل صحبته وأنت ترى شتمي بغير حياء
ستعلم يوماً ما أسأت لصاحب تكرم أخلاقي وحسن بلائي

وقال :

إذا لم تجد بدّاً من القول فانتصف بحد لسان كالحسام المهند
فقد يدفع الإنسان عن نفسه الأذى بمقوله إن لم يدافعه باليد

قال ابن رشيق في العمدة : إنه جمع أنواع الفضائل وسلبها بعض من رأى ذلك فيه صواباً :

ومن شعره قوله :

وخل لا سبيل لصرم حبله تعرض لي بحتف فرط جهله
رديء الظن لا يأوي لخلق ولا يأوي إليه لسوء فعله
يصدق هاجساً يغري ويغري بتكذيب العيان لضعف عقله
ويشنأ كل ذي دين وعلم وأصل ثابت لفساد أصله

73 – عبد العزيز بن أبي الصلت أمية بن عبد العزيز الداني الأصل المهدوي المنشأ والولادة

قدم أبوه أمية إلى المهدية من بلده ، فقبله أميرها علي بن يحيى بن تميم الصنهاجي ، وأنزله منزلة رفيعة . وولد له بها عبد العزيز صاحب الترجمة . فنشأ في طلب العلم والأدب ، واعتنى به أبوه حتى برع ، وقال الشعر الفائق . كانت له يد بيضاء في الشطرنج . ثم انتقل لمدينة بجاية وبها توفي سنة 546هـ .

ومن شعره وإن نسبه بعضهم لأبيه :

إذا كان أصلي من تراب فكلها بلادي وكل العالمين أقاربي
ولا بد لي أن أسأل العيس حاجة تشق على شم الذُّرى والغوارب

ومنه كذلك :

وقائلة ما بال مثلك خاملا ... أأنت ضعيف الرأي أم أنت عاجز
فقلت لها ذنبي الى القوم أنني ... لمّا لم يحوزوه من المجد حائز
وما فاتني شيء سوى الحظ وحده ... وأما المعالي فهي عندي غرائز

73 مكرر – أبو الصلت أمية بن عبد العزيز

أما والده أمية فقد كان فاضلاً في علوم الأدب . صنف كتاباً سماه **الحديقة** على أسلوب **يتيمة الدهر** للثعالبي . وكان عالماً بفن الحكمة . فكان يقال له : الأديب الحكيم وكان ماهراً في علوم الأوائل . ولد بدانية سنة 460هـ .وقدم الإسكندرية مع أمه سنة 486هـ . وجرت عليه محنة فسجنه الأفضل شاهنشاه ملك مصر . فألّف له وهو في الحبس رسالة **العمل بالاسطرلاب** . وله تآليف مفيدة متقنة منها كتاب **الوجيز في الهيئة**. وكتاب **الأدوية المفردة** . وكتاب في المنطق سماه **تقويم الذهن** . وكتاب سماه **الإنتصار في الرد على علي بن رضوان** في رده على حنين بن إسحاق في مسائله . ولما اشتد به مرض موته وهو بالمهدية أنشد مخاطباً ولده عبد العزيز :

عبد العزيز ، خليفتي ... رب السماء عليك بعدي
أنا قد عهدت إليك ما ... تدريه فاحفظ فيه عهدي
فلئن عملت به فإنـ ... ـك لا تزال حليف رشد

ومن شعره :

عجبت من طرفك في ضعفه ... كيف يصيد البطل الأصيدا
يفعل فينا وهو في غمده ... ما يفعل السيف إذا جردا

ومن شعره وأوصى أن يكتب على قبره وهو آخر شعر قاله :

سكنتك يا دار الفناء مصدّقا ... بأني الى دار البقاء أصير
وأعظم ما في الأمر أني صائر ... الى عادل في الحكم ليس يجور
فيا ليت شعري كيف ألقاه عندها ... وزادي قليل والذنوب كثير
فإن أك مجزياً بذنبي فإنني ... بشر عقاب المذنبين جدير

وإن يك عفو من لدنه ورحمة فثم نـــعيم دائم وسرور

توفي بالمهدية مستهل سنة 529هـ . ودفن بالمنستير .

قال المقري في **نفح الطيب** : أن عمره (أي أمية المترجم له) ستون سنة ، منها عشرون سنة في بلده إشبيلية ، وعشرون في إفريقية عند ملوكها الصنهاجيين ، وعشرون في مصر محبوساً في خزانة الكتب . وكان وجهه صاحب المهدية الى ملك مصر فسجن بها طول تلك المدة في خزانة الكتب ، فخرج في فنون العلم إماماً . وأمتن علومه الفلسفة والطب والتلحين . وله في ذلك تآليف تشهد بفضله ومعرفته وكان يكنى بالأديب الحكيم . وهو الذي لحن الأغاني الإفريقية . قال ابن سعيد : وإليه تنسب إلى الآن . وذكره العماد في **الذخيرة** . وله كتاب **الحديقة** على أسلوب **يتيمة** الثعالبي ا هـ المراد .

ثم ذكر جملة من شعره منه قوله في لابس قرمزية حمراء أي شاشية :

أقبل يسعى أبو الفوارس في مرأى عجيب ومنظر أنق
أقبل في قرمزية عجب قد صبغت لون خده الشرق
كـأنـما جيده وغرته من دونها إذ بدون في نسق
عمود فجر وفوقه قمر دارت به قطعة من الشفق

وقال :

أيها الـظالم المسي ء مدى دهره بنا
ما لهم أخطأوا الصوا ب فسموك محسنا

وقال أبو الصلت أمية (مترجمنا) حاكياً عن نفسه كنت مع الحسن بن علي بن تميم ابن المعز بن باديس بالمهدية في الميدان وقد وقف يرمي بالنشاب فصنعت فيه بديهاً :

يا ملكاً مذ خلقت كفه لم تدر إلا الجود والبأسا
إن النجوم الزهر مع بعدها قد حسدت في قربك الناسا
وودّت الأفلاك لو أنها تحولت تحتك أفـــراسا
كما تمنى البدر لو أنه عـاد لنشابك برجاسا

ومن شعره أيضاً في يحيى بن تميم بن المعز الصنهاجي لما أخمد ثورة على عامله بمدينة

صفاقس ، وعاقب لأجلها أهل صفاقس ، ثم عفا عنهم من قصيدة طالعها :

قضى الله أن يفنى عداك وأنْ تبقى | وتخلد حتى تملك الغرب والشرقا

ومنها :

ورب أناس أججوا نار فتنة | تجنبها الأتقى ويصلي بها الأشقى
وجر عليهم جهلهم حلم مالك | يرقّ ويحنو كلّما ملك الرقا
ولو شاء روى السيف منهم فطالمّا | نضاه فسقاه من الدم ما استسقى
ولكن دعاه الحلم والفضل والحجى | الى أن يكون الأحلم الأكرم الأتقى
سجية مجبول السجايا على الهدى | إذا غضب استأنى وإن ملك استبقى

قال أبو الصلت : أنشدت يحيى هذه القصيدة وخاصته بين يديه وعبد العزيز ابن عمار في الجملة ، وكان في هذه الصناعة أبصر الجماعة ، فقال له يحيى : كيف ترى ما تسمع ؟ قال : حسن الحوك ، محكم السرد . فقال : أتعرف قائله ؟ قال : لا . قال : هو ذاك الجالس ، يشير إليّ ، فعلاه فتور ونفور عن الإستماع بحسب ما يعرض من العوام الرعاع عندما ينشدون لمن جمعهم وإياه مكان وزمان وإن كان في أول جريدة ذوي الإحسان . وإنما عنوا بامتداح القديم وتعظيم العظم الرميم . وسبب ذلك الحسد . فكثيراً ما يعيد الصواب محالاً ، والمياه آلاً ، والقوام اعوجاجاً ، والمليح عذباً أجاجاً ا هـ .

كما ترجم له ياقوت في **معجم الأدباء** وذكر أن من تآليفه كتاب **الديباجة في مفاخر صنهاجة وديوان رسائل وديوان** شعر كبير . وأنه بعد رجوعه الى إفريقية حظي عند يحيى ابن تميم بن المعز ابن باديس صاحب القيروان وأنه ذكر ذلك في رسالة له يذم فيها مصر ، ويصف حاله ويثني على ابن باديس . استشهد فيها بهذه الأبيات في وصف ابن باديس :

فلم استسغ إلا نداه ولم يكن | ليعدل عندي ذا الجناب جناب
فما كل إنعام يخف احتماله | وإن هملت منه علي سحاب
ولكن أجلّ الصنع ما جلّ ربه | ولم يأت باب دونه وحجاب
وما شئت إلا أن أدل عواذلي | على أن رأيي في هواك صواب
وأعلم قوماً خالفوني وشرقوا | وغربت أني قد ظفرت وخابوا

74 – سلام بن فرحان وزير آل جامع أمراء قابس

كان أديباً شاعراً ، شجاعاً ، عالي الهمة ، قويّ النفس ، مدبراً . وزر للأمير مدافع ابن رشيد بن مدافع صاحب قابس ، ولم يزل مدبراً دولته إلى أن داهمهم ما لا قبل لهم به من عساكر الموحدين . فدافعوهم دفاع الأبطال ، وقاتل صاحب الترجمة باذلاً نفسه دون أميره مدافع يوم خروجه منهزماً من قابس الى أن قتل سنة 555هـ .

ومن شعره ، وقاله يوم موته :

أكذا أموت وما بلغت مرادي — بين الصوارم والقنا الميّاد
حيث العيون لوامح وطوامح — ما بين أحباب وبين أعادي

ومن شعره يمدح الأمير مدافع بن رشيد :

ما زلت أفري أديم الأرض منفردا — أطوي المفاوز غيطاناً وآكاما
حتى حططت رحالي في ذرى ملك — غمر المواهب للقصاد بساما
هنّا مدافع أن الله خوله — سعداً ينال به كل الذي راما
قم فافتح الأرض فالأملاك كلهم — سواك أضحوا عن العلياء نياما

75 – الأمير أبو ساكن عامر بن مكي بن كامل من آل جامع أمراء قابس

ولد بقابس ، وبها نشأ ، وأخذ العلم ، وبرع في الأدب . خلص يوم خروج آل بيته من الموحدين واتصل به الفرار إلى دمشق ، فاستوطنها . وكان شاعراً .

من شعره يذكر أيامهم بقابس :

يا جارُ طرفي غير هاجع — والدمع من عيني هامع
ولقد أرقت مسامراً — نجماً بدا في الشرق طالع
متذكراً بصروف دهر — أصبحت فينا قواطع
إني من الشم الألى — شادوا العلى أبناء جامع
أهل المراتب والكتا — ئب والمواهب والصنائع

يتسابقون الى المعا لي كلهم فيها مسارع
ولقد ملكنا قابسا بالمشرفيات القواطع
تسعين عاماً لم يكن فيها لنا أحد منازع
وجنابنا للمعتفين بزهرة المعروف يانع
وإذا شهدنا مجمعاً يومى إلينا بالأصابع
عبثت بنا أيدي الزما ن وأحدثت فينا البدائع

76 – ساكن بن عامر بن مكي من آل جامع

نشأ بقابس في عز بيته . وطلب العلم والأدب ، فبرع ، فكان جامعاً لأشتات الفضائل ، شاعراً . ورد دمشق مع والده عامر ، واستوطنها ، وتوفي بها سنة 591هـ .

ومن شعره :

إذا عنَّ من أهواه أغضي له طرفي وأخفي الذي بي من سقام ومن ضعف
وأكتم عن سرّي هواه صيانة ولو كان في كتمانه أبداً حتفي
مخافة أن يشكو فؤادي صبابة الى مقلتي يوماً فتبدي الذي أخفي

77 – أبو عبد الله محمد بن عبد الجبار الرعيني السوسي

ولد بسوسة سنة 537هـ ، ونشأ بها في طلب العلم والأدب ، فحصل على الغاية ، وانتفع به الناس ، وطال عمره حتى ألحق الأحفاد بالأجداد . وانتقل الى تونس فاستوطنها الى أن توفي بها في 22 ذي القعدة سنة 622هـ .

ومن شعره يمدح أبا محمد بن عبد الله جدّ الملوك الحفصيين سلاطين تونس من قصيدة ، مطلعها :

جردت عزمك صارماً مسلولا ماء ولكن لا يبلّ غليلا

ومن شعره يخاطب بعض الرؤساء وقد قدم له فرساً أشهباً ليركبه :

أركب بإقبال السعادة أشهبا مثل الصباح إذا يشوب الغيهبا
ما شاب من أمد السنين وإنما لاقى سناك فلاح يحكي الأشهبا
قد ألجموه بالثريا فانبرى ينقض في ليل العجاجة كوكبا

ذكر مترجمنا السيوطي في **بغية الوعاة** ناقلاً في شأنه عن أبي حيّان في **الارتشاف** : أنه من نحّاة تونس . وقال أبو محمد عبد الله التجاني في رحلته في شأنه : إن له شعراً حسناً والموجود منه قليل . وقال : إنه شيخ شيوخه وإن من شعره ما أنشده له ابن سعيد في **خزانة الأدب** :

عكفنا على الكأس في جنة تحاكي بها ميل أغصانها
ورسل النسيم بها سحرة تحرش ما بين ريحانها
أظن تغاريد ألحانها زهتها فأصغت بآذانها

وقد ترجم التجاني في **رحلته** لجملة من شعراء سوسة ثم قال : ونختم هذا الفصل من ذكر سوسة وشعرائها بحكاية ذكرها الحميدي الأزدي ، قال : أخبرنا بعض أصحابنا بالأندلس عن سليمان بن محمد المهدوي الصقلي قال : بسوسة إفريقية رجل أديب شاعر ، وكان يهوى غلاماً جميلاً من غلمانها ، وكان الغلام يتجنى عليه ويعرض عنه ، قال : فبينما هو ذات ليلة يشرب وحده على ما أخبر عن نفسه ، وقد غلب عليه غالب السكر إذ خطر بباله أن يأخذ قبس نار ويحرق عليه داره لتجنيه عليه ، فقام من حينه وفعل ذلك ، واتفق أن رآه بعض الجيران ، فبادروا النار بالإطفاء . ولمّا أصبحوا نهضوا إلى القاضي فأعلموه ، فأحضره القاضي ، وسأله عما فعل فأنشأ يقول :

لما تمادى على بعادي وأضرم النار في فؤادي
ولم أجد من هواه بدا ولا معيناً على السهاد
حملت نفسي على وقوفي ببابه حملة الجواد
فطار من بعض نار قلبي أقل في الوصف من زناد
فاحرق الباب دون علمي ولم يكن ذاك من مرادي

قال : فاستظرفه ، وتحمل عنه ما أفسد ، وأخذ عليه أن لا يعود وخلى سبيله . انتهى ما ذكره التجاني في **رحلته** .

78 – عبد الله بن عبد الرحمان بن علي الفرياني

ولد بمالقة ، وانتقل به أبوه صغيراً الى صفاقس ، فاستوطنها ، فنشأ بها صاحب الترجمة بارعاً في الأدب والعلوم العربية . وقال نفيس الشعر ، وله رحلة الى الشرق والغرب أبعد فيها وكان هجّاء ، من مشاهير شعراء إفريقية ، توفي سنة 609هـ .

من شعره في هجو السعيد سلطان المغرب لما ولي ، وكان السعيد أسود اللون :

كان الخلائف قبل في مراكش صوراً من الكافور تعجب خالصه
فأتى علي بعدهم ختماً لهم كالمسك لوناً ليس فيه خصائصه

ومنه قوله :

أسفاً على مراكش وولاتها لم يبق للأيام فيها رونق
كانوا حماماً فالليالي لم تدع في دارهم الّا غراباً ينعق

قال التيجاني في **رحلته** أن ابن الأبار عدّه في كتابه **تحفة القادم** من هجائي الشعراء وذكره في طليعتهم .

79 – محمد بن حبيب القلانسي

ذكره ابن رشيق في **الأنموذج** وعده ممن له البدائع وهو من فحول شعراء المهدية ، وقد خص شعراءها ابن رشيق بمؤلف خاص سماه « **الروضة الموشية في شعراء المهدية** » حسبما نقل ذلك التيجاني في **رحلته** ، قال : وقد ذكر ابن رشيق في مؤلفه هذا من يطول تعدادهم .

والقلانسي هذا من شعراء الأمير تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي . ومن شعره فيه قوله من قصيدة مدح بها الأمير تميماً المذكور لمّا فتك بعبيد أبيه المعز ، كانت قويت شوكتهم في مدينة المهدية ووقعت بينهم وبين عبيده فتنة . فبينما هم في ذلك دخل عليه شاعره المذكور فأنشده قصيدة حرضه فيها عليهم وكان ذلك في سنة 445هـ منها قوله :

السيف يسبق قبل الحادث العذلا لا تغمد السيف حتى تقتل السفلا
نقل عداتك من دنيا لآخرة فكلهم ظن أن هذا الملك متقلا

80 – ابن مازن

من شعراء القيروان . من شعره في رثاء أبي سعيد خلف بن عمر القيرواني المتوفي سنة391هـ قصيدة يقول فيها :

لقد فجع الورى شرقاً وغرباً ببحر من بحور العلم طام
بمن قد كان في علم ودين عن الإسلام في الدنيا يحامي
وأبصر كل ما فيها حطاماً فصان النفس عن جمع الحطام

81 – أبو بكر عتيق بن محمد الوراق التّميمي

كان شاعراً محسناً وخطيباً بارعاً ، لا يشق له غبار فيهما . قال ابن رشيق : دخلت الجامع فوجدته في حلقة يقرىء الرقائق والمواعظ ، ويذكر أخبار السلف الصالحين ، ومن بعدهم من التابعين ، وقد بدا خشوعه ، وترقرقت دموعه ، فما كان إلا أن جئته عشية ذلك اليوم إلى بيته فوجدته وفي يده طنبور فقلت له : ما أبعد ما بين حاليك في مجلسيك ! فقال : ذلك بيت الله وهذا بيتي ، أصنع في كل واحد منهما ما يليق به وبصاحبه . قال : فأمسكت عنه .

من شعره البديع يصف شاذروانا للمعز بن باديس :

كأنه فلك غصت كواكبه وجه المعز المعلى بينها قمر
إذا بدا فيه قرن الشمس قارنه كأنه منه أو منها به أثر
قد زاحم القوم فاحتل السحاب به فليس يصعد في أرجائها مطر
فرحمة الله عنه غير نازحة ونعمة الله ما فيها به قصر
ترى الغمائم بيضاً تحته بكرا مثل الكواكب فوق الأرض تنتشر

وقال :

كلما أذنب أبدى وجهه حجةً فهو مليء بالحجج
كيف لا يفرط في هجرانه من متى شاء من الذنب خرج

وقال :

بدر له إشراق شمس على غصن سبى قلبي بنوعين
يكاد من لين ومن دقة في خصره يندق نصفين
إدباره ينسيك إقباله كأنما يمشي بوجهين

وقال :

تعبي راحتي وأنسي انفرادي وشفائي الضنا ونومي سهادي
لست أشكو بعاد من صدَّ عني أي بعد وقد ثوى في فؤادي
هو يختال بين عيني وقلبي وهو ذاك الذي يرى في سوادي

وقال في الهجاء وبالغ فيه :

لو أن أكنافهم من حر أوجههم قاموا الى الحشر منها مثل ما رقدوا
خزر العيون إذ ما عوتبوا وإذا ما عاتبوا أبعدوا باللحظ ما قصدوا

82 – عبد الله بن محمد أو محمود النحوي القيرواني أبو محمد المكفوف

ذكره الإمام السيوطي في **بغية الوعاة في طبقات النحاة** ، فقال : كان عالماً بالعربية والغريب والشعر وتفسير أيام العرب وأخبارها ، وكانت الرحلة إليه من جميع بلاد إفريقية لأنه كان أعلم خلق الله بالنحو واللغة والشعر والأخبار . له كتاب في العروض . مات سنة 308هـ .

من شعره ما أجاب به إسحاق بن خنيس :

إن الخنيس يهجوني لأرفعه أخسأ خنيس فإني لست أهجوكا
لم تبق مثلبة تحصى إذا جمعت من المثالب إلا كلها فيكا

83 – عبد الوهاب بن محمد الأزدي المعروف بالمثقال

ذكره ابن رشيق في الأنموذج ، ووصفه بأنه شاعر مطبوع ، قليل التكلف ، سهل اللقاء . خبيث اللسان ، ماجن ، لا يمدح أحداً .

فمن شعره قوله :

خيالك زائري من غير وعد　　وأكثر منك بي برّاً وحبا
فلما أن رآك أطلت بعدي　　ولم تمنح محبك منك قربا
سرى وهناً فقبلني وآلى　　يمين الله لا عذبت صبا
فأحيا مهجة تلفت غراماً　　وقلباً لم يفق دنفاً وكربا
وكان الطيف أرأف منك نفسا　　وألين منك أعطافاً وقلبا

وقال :

هم بالوجوه من البدو　　ر وبالقدود من الغصون
ودروعهم صبغ الحيا　　وسيوفهم لحظ العيون

وله :

لما تناهى وكمل　　وتم لي فيه الأمل
أعرض واستبدل بي　　كذلك الدنيا دول

ومن شعره :

قد زارني طيف من أهوى يعللني　　عند الصباح وخيط الفجر قد طلعا
خلوت شوقاً لعلي أن أقبله　　فالنوم يحدث لي في وصله طمعا

قال ابن رشيق أنشدته من قصيدة لي :

والثريا قبالة البدر تحكي　　باسطاً كفه ليأخذ جاما

وأنشدته أيضاً قولي :

رأيت بهرام والثريــــا والمشتري في القران كره
كراحة خيرت فحارت ما بين ياقوته ودرّه

فاستطرفه وأنشدني :

يا ساقي الراح إسقِ صحبي وواسني إنني أواسي
وانظر إلى حيرة الثريا والليل قد شد باندماس
ما بين بهرامها الملاحي وبين برجيسها المراسي
كــأنها راحــة أشارت لأخذ تفـاحة وكاس

وقال أيضاً :

أهدى إليّ مدامة صفراء صافية حميا
فــكــأنها وحـبـابها بـدر تـكـلل بالثريا
فشربتها مـن كـفـه وسكبت فاضلها عليّا

قال أيضاً :

طاب بالـراح حبيبي قــائلاً بين صـحـابي
هاك خذها يا فتى الـ ـفتيان واسمع من خطابي
فهي من خدي ولحظي ونســيــمـي ورضـابي

وقال في نصراني مات وكان يحبه يسمى سلمان :

أخي بوداد لا أخي بديانة ورب أخٍ في الودّ مثل نسيب
وقالوا أتبكي اليوم من لست صاحبا غدا إن هذا فعل غير لبيب
فقلت لهم هذا أوان تلهفي وشدة أعوالي وفرط كروبي
وما لي لا أبكي حبيباً فقدته إذا خاب منه في المعاد نصيبي
فيا ناصحي مهلاً فلست بمرشد ويا لائمي اقصر فغير مصيب
وسلمان أودى حيث لا أنا حاضر أعلله يوماً بوصف طبيب
وأجعل جنبي تحت جنب مكرم علي وخصر بالنحول خصيب

84 – عبد الرحمان بن محمد الفراسي

ذكره صاحب **فوات الوفيات** فقال في شأنه : إنه من قرية تُعرف ببني فراس جوار تونس إلا أن مستقره تونس وبها تأدب . كان شاعراً ماجناً خليعاً ، كثير المهاجاة ، قليل المداراة ، خبيث اللسان . توفي بمدينة سوسة سقط من سطح وهو سكران فتردّى . وذلك سنة 408هـ وقد نيف على الثلاثين .

من شعره قوله لما ولي القاضي عبد الرحمان بن محمد النحوي قضاء تونس :

يقول فراسي الزمان وما زا ـ ل حيّاً فني قوله يعدل
متى يملك الأرض دجّالها ـ فقد صار قاضيها أحول

فبلغ ذلك القاضي فأحفظه ، ودعاه إليه في رجل خاصمه ، فلما مثل بين يديه سمع دعوى خصمه ، ثم سأله فأقر ، فألزمه أداء الحق ، فامتنع ، وقال : عليّ يمين أن لا أؤديه إلا وقت كذا ، فأطرق القاضي ساعة وقضى عنه ما وجب عليه لغريمه . فلما خرج قيل له : ما صنعت ؟ قال : كنت استحل عرضه فحرمه علي . ونظم في ذلك شعراً فقال :

من كان عندي له مطالبة ـ فإن بيني وبينه القاضي
قاضٍ قضى عني الحقوق على ـ بعدي عنه وفرط إعراضي
فيا لها رقية مسكنة ـ لحيـة شاورته نضناض

85 – عبد الله بن ابراهيم بن مثنى الطوسي المعروف بابن المؤدب

قال صاحب **فوات الوفيات** في شأنه : إن أصله من المهدية (مهدية إفريقية) وهو شاعر مذكور مشهور ، قليل الشعر ، بعيد الغور ، ذا حيلة ، مغرى بالسياحة والكيمياء مقتراً عليه متلافاً إذا أفاد .

خرج مرة يريد صقلية فوقع في أسر الروم وأقام عندهم مدة إلى أن هادن ثقة الدولة ملك الروم وبعث إليه بالأسرى ، فكان ابن المؤدب هذا من جملتهم ، فمدح ثقة

الدولة ورام صلته فلم يصله بما يرضيه تتكلم فيه وبلغ ما قاله ثقة الدولة . فطلبه واختفى ، وطالت المدّة فخرج وهو سكران في بعض الليالي ليشتري نقلاً ، فما شعر إلّا وقد قُيِّد وحُمل إلى ثقة الدولة فقال له : ما الذي بلغني عنك؟ قال : المحال يا سيّدنا . قال : من الذي يقول :

والحر ممتحن بأولاد الزنا ...

قال : الذي يقول :

وعداوة الشعراء بئس المقتنى .

فتنمر ساعة ثم أمر له بمائة رباعي وأمر بإخراجه من المدينة كراهية أن تحمله نفسه على عقابه فخرج ، ثم مدح ثقة الدولة بقصيدة منها :

أبيت أراعي النجم في دار غربة — وبالقلب حزن ناره في تضرم
سأحمل نفسي في لظى الحرب جملة — تبلغها من خطبها كل معظم
فإن سلمت عاشت بعز وإن تمت — إلى حيث ألقت رحلها أم قشعم

وقال وهو في الأسر :

لا يذكر الله قوماً — حللت فيهم بخير
جاهدت بالسيف جهدي — حتى أسرت وغيري

توفي سنة 414هـ، سقط عن دابته فانكسرت فخذه حتى ظهر مخه وعظمه فمات رحمه الله تعالى .

86 – عبد العزيز بن أبي سهل الخشني الضرير

قال ابن رشيق في شأنه : كان مشهوراً بالنحو واللغة جداً ، مفتقراً إليه فيهما ، بصيراً بغيرهما من العلوم . ولم ير قط ضريراً أطيب منه نفساً ، ولا أكثر منه حياءً ، مع دين وعفة . وكان شاعراً مطبوعاً ، سلك طريق أبي العتاهية في سهولة اللفظ ولطائف التركيب ، ولا غناء لأحد من الشعراء الحذاق عن العرض عليه والجلوس بين يديه . مات سنة 406هـ وقد زاد على السبعين .

ومن شعره :

ولست كمن يجزي على الهجر مثله ولكنني أزداد وصلاً على الهجر
وما ضرّني إتلاف عمري كله إذا نلت يوماً من لقائك في عمري

87 – أبو علي الحسن بن محمد بن أحمد التّميمي المعروف بابن الربيب

ويعرف أيضاً بالقاضي التاهرتي لولايته قضاء تاهرت . ولد بالقيروان . وطلب العلم على أعلامها إلى أن برع وفاق ، وتحدث بأنبائه الرفاق .

من شيوخه إمام النحاة بإفريقية جعفر بن محمد القزاز ، وكان له به مزيد اعتناء ، بلغ به غاية المنى . كان أديباً لغوياً شاعراً مقدماً ، قويّ الكلام ، يتكلّف بعض التكلف . أطال ابن رشيق ذيل ترجمته . توفي رحمه الله بالقيروان سنة 420هـ وقد نيف على الخمسين .

وترجم له السيوطي في **بغية الوعاة** نقلاً عن ياقوت قائلاً : إنه قرأ العلم بالقيروان وإن أستاذه القزاز كان محباً له ، فبلغ به النهاية في الأدب وعلم الخبر والنسب ، وإن له في ذلك تأليفاً مشهوراً ، وإنه كان خبيراً باللغة شاعراً مقدماً قوي الكلام يتكلف بعض التكلف .

وكان عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي يروي له ما لم يروَ لأحد من الشعراء . وسئل عن أشعر أهل بلده فقال : أنا ثُم ابن الربيب .

فمن شعره قوله وقد أجاد :

فلما التقى الجمعان واستمطر الأسى مدامع منّا تمطر الموت والدما
لدى مأتم للبين غنى به الهوى فأشجى وقام الشوق فيه فأرزما
تبدّت فأشجت ثم صدت فأسلمت ضميرك للبلوى عقيلة أسلما

وقوله في وصف الجوزاء ، وهو أجود ما قيل في وصفها :

أنظر إلى صورة الجوزاء إذ طلعت كأنها قانص بالدو منحدر
شيحان منتطق عنت له حمر صحر قبيل غروب الشمس أو بقر

فأغرق النزع في قوس براحته الـ ـيمنى وظل لدى الناموس ينتظر

وله من قصيلة يرثي بها المنصور بن محمد بن أبي العرب :

يا قبر لا تظلم عليه فإنه قد كان للراجي سراج ظلام
أعجب لقبر قيد شبر قد حوى ليثاً وغيث ندى وبدر تمام

ومن نثره رسالة كتبها إلى أبي المغيرة أحمد بن عبد الرحمان بن حزم يذكر تقصير أهل الأندلس في تخليد أخبار علمائهم ، ومآثر فضلائهم ، وسير ملوكهم ، ذكرها المقري في **نفح الطيب** وهي تدل على ما كان عليه علماء تونس من القيام بتخليد ذكر عظمائهم وما كان لهم من الصيت البعيد في ذلك حتى صحّ لمترجمنا أن ينحى باللائمة على أهل الأندلس إذ ذاك على إهمالهم هذا الأمر بالنسبة لما كان واجباً عليهم القيام به في ذلك ، ونصها :

كتبت يا سيدي وأجل عددي ، كتب الله لك السعادة ، وأدام لك العز والسيادة ، سائلاً مسترشداً ، وباحثاً مستخبراً ، وذلك أني فكرت في بلادكم إذ كانت قرارة كل فضل ، ومنهل كل خير ونبل ، ومصدر كل طرفة ، ومورد كل تحفة ، وغاية آمال الراغبين ، ونهاية أماني الطالبين ، إن بارت تجارة فإليها تجلب ، وإن كسدت بضاعة ففيها تنفق ، مع كثرة علمائها ، ووفور أدبائها ، وجلالة ملوكها ، ومحبتهم في العلم وأهله يعظمون من عظمه علمه ، ويرفعون من رفعه أدبه ، وكذا سيرتهم في رجال الحرب ، يقدمون من قدمته شجاعته ، وعظمت في الحرب نكايته ، فتشجع الجبان ، وأقدم الهيبان ، ونبّه الخامل ، وعلّم الجاهل ، ونطق العييّ ، وشعر البكي ، واستنسر البغاث ، وتثعبن الحيّات ، فتنافس الناس في العلوم ، وكثر الحذاق بجميع الفنون . ثم هم مع ذلك في غاية التقصير ، ونهاية التفريط من أجل أنّ علماء الأمصار دونوا فضائل أمصارهم ، وخلّدوا في الكتب مآثر بلدانهم ، وأخبار الملوك والأمراء ، والكتاب والوزراء ، والقضاة والعلماء ، فابقوا لهم ذكراً في الغابرين ، يتجدد على مرّ الليالي والأيام ، ولساناً ناطقاً في الآخرين ، يتأكد مع تصرم الأعوام . وعلماؤكم مع استظهارهم على العلوم كل منهم قائم في ظله لا يبرح ، ورابض على كعبه لا يتزحزح ، يخاف إن صنف أن يعنف ، وإن ألِف أن يخالف ولا يؤالف ، أو تخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق . لم يتعب أحد منهم نفساً في جمع فضائل أهل بلده ، ولم

يستعمل خاطره في مفاخر ملوكه ، ولا بلَّ قلماً بمناقب كتابه ووزرائه ، ولا سوّد قرطاساً بمحاسن قضاته وعلمائه ، على أنه لو أطلق ما عقل الإغفال من لسانه ، وبسط ما قبض الإهمال من بيانه ، لوجد للقول مساغاً ، ولم تضق عليه المسالك ، ولم تخرج به المذاهب ، ولا اشتبهت عليه المصادر والموارد . ولكن همّ أحدهم أن يطلب شأو من تقدمه من العلماء ليحوز قصبات السبق بقدح ابن مقبل ، ويأخذ بكظم دغفل ، ويصير شجاً في حلق أبي العمثيل ، فإذا أدرك بغيته واحترمته منيّته ، دفن معه أدبه وعلمه ، فمات ذكره وانقطع خبره . ومن قدمنا ذكره من علماء الأمصار احتالوا لبقاء ذكرهم احتيال الأكياس فألّفوا دواوين بقي لهم بها ذكر مجدد طول الأبد ، فإن قلت : إنه كان مثل ذلك من علمائنا وألّفوا كتباً لكنها لم تصل فهذه دعوى لم يصحبها تحقيق لأنه ليس بيننا وبينكم إلا روحة راكب أو رحلة قارب ، لو نفث من بلدكم مصدور لأسمع ببلدنا من في القبور فضلاً عمن في الدور والقصور ا هـ .

88 – أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم المعروف بالرقيق القيرواني الكاتب

كان رئيس الإنشاء في الدولة الصنهاجية ، المقتعد لذروته السنية ، كما كلف بسفارات خطيرة ، في مرات عديدة ، الى مقر الخلافة الفاطمية المجيدة . قام بها أحسن قيام . وحمد من وساطته فيها النقض والإبرام . وقد كان رحمه الله رافع لواء التاريخ في إفريقية ، وفي مجال الأدب له سهم صائب ، وفكر ثاقب . له فيهما عدة تآليف ، تشهد له بطول الباع ، وسعة الإطلاع . ذكر ياقوت في **معجم الأدباء** : أن منها **تاريخ إفريقية والمغرب** عدة مجلدات وكتاب **النساء** كبير وكتاب **الراح والإرتياح** وكتاب **نظم السلوك في مسامرة الملوك** أربع مجلدّات . ووصفه ابن رشيق بأنه شاعر سهل الكلام محكمه ، لطيف الطبع قويه ، غلب عليه علم التاريخ والأخبار ، وهو في ذلك أحذق الناس ، وكاتب الحضرة منذ نيف وعشرين سنة إلى الآن ا هـ (أي حين تأليف ابن رشيق كتابه **الأنموذج**) ودونك من شعره البديع ، ما هو آنق من وشي الربيع ، فمنه قوله : قال ابن رشيق : وهو من أعجب ما سمعت له من قصيدة يمدح محمد بن أبي العرب :

أظالمة العينين مخلطها سحر وإن ظلم الخدان واهتظم الخصر
أعوذ ببرد من ثناياك قد ثنى إليك قلوباً حشو أثنائها جمر

وما أم ساجي الطرف خفّاقة الحشى ... أطاع لها الحوذان والسلم النضر
إذا ما رآها نصت الجيد نحوه ... أغن قصير الخطو في لحظه فتر
بأملح منها ناظراً ومقلدا ... ولكن عداني عن تقنصها الهجر

يقول في مديحها :

تصباه أبكار العلى ليس أنها ... منعمة هيفاء أو غادة بكر
يخال بأن العرض غير موفر ... على الذم لا أن لا يدال له الوفر

ومنها يصف بلاغته وكتابته :

يوشح ديباج البلاغة أحرفاً ... يكاد يرى روضاً يوشحه الزهر
ويفصح لفظاً خطها من فصاحة ... ويشرق من تحبير ألفاظها الحبر
يصيب عيون المشكلات بديهة ... وتبدي له أعقاب ما غيّب الفكر

قال : ثم ذكر الممدوح فقال :

وملمومة شهباء يسعى أمامها ... شهاب عزيم من طلائعه الذعر
يرجي بنات الأعوجية شربا ... عليها بنو الهيجاء دروعهم الصبر
أسود وغى تحت العجاجة غابها ... سريجيّـة بيض وخطية سمر
صبحت بها دهماء قوم أرتهم ... وجوه الردى حمرا خوافقها الصفر

قال ابن رشيق : ومثل هذه القصيدة في الجودة قصيدة طويلة يتشوق فيها إخوانه بمصر وهي :

حل الريح إن سارت مشرقة تسري ... تؤدي تحياتي إلى ساكني مصر
فما خطرت إلا بكيت صبابة ... وحملتها ما ضاق عن حمله صدري
تراني إذا هبت قبولا بنشرهم ... شممت نسيم المسك في ذلك النشر
وما آنس من شيء خلا العهد دونه ... فليس بخال من ضميري ولا فكري
ليالٍ أنسناها على غرة الصبا ... فطابت لنا إذ وافقت غرة الدهر
لعمري لئن كانت قصاراً أعدها ... فلست بمعتد سواها من العمر
أخادع دهري أن يعود بفرصة ... فينقذ روح الوصل من راحة الهجر

وترجع أيام خلت بمعاهد		من اللهو لا تنفك مني على ذكر
فكم لي بالأهرام أو دير نهية		مصائد غزلان المكايد والقفر
إلى الجيزة الدنيا وما قد تضمنت		جزيرتها ذات المواخير والجسر
وبالمقس فالبستان للعين منظر		أنيق إلى شاطي الخليج إلى القصر
وفي بئر دوس مستراد وملعب		إلى دير مرحنّا إلى ساحل البحر
وكم بين بستان الأمير وقصره		الى البركة الزهراء من زهر نضر
تراها كمرآة بدت في رفارف		من السندس الموشى ينشر للتجر
وكم بت في دير القصير مواصلاً		نهاري بليلي لا أفيق من السكر
تبادرني بالراح بكر غريرة		إذا هتف الناقوس في غرة الفجر
مسيحية خوطية كلما أنثنت		تشكت أذى الزنار من دقة الخصر
وكم ليلة لي بالقرافة خلتها		بما نلت من لذاتها ليلة القدر
سقى الله صوب القصر تلك مغانيا		وإن غنيت بالنيل من سبل القطر

وقال يصف وقعة حربية انتصر فيها الأمير باديس الصنهاجي على عدوه سنة 405هـ :

لم أنس يوماً بشلف راع منظره		وقد تضايق فيه ملتقى الحدق
والخيل تعبر بالهامات خائضة		من سابح الدم مجرى قانى القلق
والبيض في ظلمات النقع بارقة		مثل النجوم تهاوت في دجى الغسق
وقد بدا معلماً باديس مشتهراً		كالشمس في الجو لا تخفى عن الحدق
وإن راحته لو فاض نائلها		وبأسها في الورى أشفوا على الغرق
تجلو عمامته الحمراء غرته		كأنه قمر في حمرة الشفق
لو صوّر الموت شخصاً ثم قيل له		أبو مناد تبدى مات من فرق

ولعل هذه القصيدة استهلها بالغزل الذي منه ما نقله ياقوت في **معجم الأدباء** عن **أنموذج** ابن رشيق ان من مليح كلام صاحب الترجمة قوله من قصيدة :

إذا ارجحنت بما تحوي مآزرها		وخفّ من فوقها خصر ومنتطق
ثنى الصبا غصناً قد غازلته صبا		على كثيبٍ له من ديمة لثق
للشمس ما سترت عنا معاجرها		وللغزال إحورار العين والعنق
مظلومة أن يقال البدر يشبهها		البدر يكسف أحياناً وينمحق

يجلل المتن وجف من ذوائبها جبينها تحت داجي ليلة فلق
كأنها روضة زهراء حالية بنورها يرتعي في حسنها الحدق

قال : وكان قدم (أي صاحب الترجمة) مصر في سنة 388هـ بهدية من نصير الدولة باديس بن زيري الى الحاكم فقال قصيدة يذكر فيها المناهل ثم قال :

إذا ما ابن شهر قد لبسنا شبابه بدا آخر من جانب الأفق يطلع
إلى أن أقرت جيزة النيل أعيناً كما قرَّ عينا ظاعن حين يرجع

يقول فيها بعد مدح كثير ووصف جميل :

هدية مأمون السريرة ناصح أمين إذا خان الأمين المضيع
وما مثل باديس ظهير خلافة إذا اختير يوماً للظهيرة موضع
نصير لها من دولة حاتمية إذا ناب خطب أو تفاقم مقطع
حسام أمير المؤمنين وسهمه وسم زعاف في أعاديه منقع

قال : ومن شعره جواباً عن أبيات كتبها إليه عمار بن جميل وقد انقطع عن مجالس الشراب :

قريض كابتسام الرو ض جمشه نسيم صبا
كعقدٍ من جمان الطـ ـل منظوم وما ثقبا
ومـنـثـور كـنثر الد ر من أسلاكه انسربا
فـأهـدى نشر زهرته فتيت المسك منتهبا
إذا أثماره جـنـيـت جنيت العلم والأدبا
بهزل حين يـنـشـده كـأنك منتش طـربا
حباك به أخ يرعى من العهد الذي وجبا
صديق مثل صفو الما ء بالصهباء قد قطبا
كـنـزت مودة مـنـه كفت أن أكنز الذهبا
إذا عد امرؤ حسباً فحسبي ذكره نسبا
ألذ من الحياة لد يَّ لكن قلبه قلبا
فهان عليه ما ألقى وظن تجلدي لـعبا

جفوت الراح عن سبب　　وكـان لجفـوني سبـبا
فصرت لـوحـدتي كلا　　على الإخـوان مجتـنبـا
وذاك لـتـوبــة أمـلـ　　ـت أن أقضي بها أربا
فها أنا تائب منها　　فزرني تبصر العجبا

قال : وله أيضاً في الغزل :

رئم إذا ما معاريض المنى خطرت　　أجله المتمنى عن أمانيه
يا إخوتي أأقاحى فيه أقبل لي　　أم خط رائين من مسك على فيه
أم حسن ذاك التراخي في تكلمه　　أم حسن ذاك التهادي في تثنيه
أم سخطه أم رضاه أم تجنبه　　أم عطفه أم نواه أم تدانيه
نفسي فداؤك ما لي عنك مصطبر　　يا قاتلي كل معنى من معانيه

وقال يرثي :

أهون ما ألقى وليس بهين　　بأن المنايا للنفوس بمرصد
وإني وإن لم ألقك اليوم رائحاً　　لصرف رزاياها لقيتك في غد
فلا يبعدنك الله ميتاً بقفرة　　معفر خد في الثرى لم يوسد
تردي نجيعاً حين بزت ثيابه　　كأن على أعطافه فضل مجسد
مضاء سنان في سنان مذلق　　وفيك حسام في حسام مهند

توفي رحمه الله سنة 418هـ .

89 — أحمد بن محمد بن عمار بن مهدي بن إبراهيم أبو القاسم المهلوي المقرىء

من علماء المهدية وأدبائها وفد على الأندلس في حدود الثلاثين وأربعمائة . كان عالماً بالقراءات والأدب متقدماً فيهما . أثنى عليه بعض أهل الفضل ، وأنشد له في ظاءات القرآن قوله :

ظنت عظيمة ظلمنا من حظها　　فظللت أوقظها لكاظم غيظها
وظعنت أنظر في الظلام وظله　　ظمآن أنتظر الظهور لوعظها

ظهر وظفري ثم عظمي في لظى لأظاهرن بحظها ويحفظها
لفظي شواظ أو كشمس ظهيرة ظفر لدى غلظ القلوب وفظها

90 - عبد العزيز بن خلوف الحروري النحوي

قال السيوطي في **بغية الوعاة** : إن ابن رشيق وصفه بأنه شاعر مفلق ، له من سائر العلوم حظوظ وافرة ، أغلبها علم النحو والقراءات وما يتعلق بها ، وفيه ذكاء يكاد يخرج عن الحد المحدود . وبقية كلام ابن رشيق فيه : أنه ذو ألفاظ حسنة ومعانٍ متمكنة ، مثقف لنواحي الكلام رطبها ، حلو مذاقة الطبع عذبها ، تشبه في المنظوم والمنثور بأبي علي البصير . قال ومن جيد شعره قوله يصف سحابة :

راحت تذكر بالنسيم الراحا وطفاء تكسر للجنوب جناحا
مرتجة الأرجاء يحبس سيرها ثقل فتعطيه الرياح سراحا
أخفى مسالكها الظلام فأوقدت من برقها كي يهتدي مصباحا
فكأن صوت الرعد خلف سحابها حاد إذا ونت الركائب صاحا

ومن بدائعه يصف مروحة :

ومـروحة إن تأملتها تر فلكاً دائراً في اليد
وتطوي وتنشر من حسنها فتشبه قنزعة الهدهد

ومن شعره قوله وفيه وصف الليل وأجاد المبالغة :

ومن دونها طود من السمر شامخ الى النجم أو بحرٌ من البيض متأق
وأسود لا تبدو به النار حالك وبيداء لا يجتازها الريح سملق

وله من قصيدة مدح بها المعز بن باديس :

الصبر من خلق الرجال وطبعهم والحزن أكثر صابريه نساء

إلى أن قال :

حتى إذا زرت هوادجهم ولي في بعضها لو يعلمون شفاء

الشمس مسلول عليها معجر والغصن مشتمل عليه رداء
تصبو الجمادات الموات لوجهها طرباً فكيف النطق الأحياء
ساروا وقد بنت الأسنة حولها سوراً يحار بحده الجوزاء
من كل أروع كل ما في صدره قلب وما في قلبه سوداء
غيران تضرب بالمهند كله حتى يقال عسى بهذا داء

ومنها في المديح :

لو يستطيع لأدخل الأموات من نعماه فيما نالت الأحياء
سوت رعاياه يدا إنصافه حتى الشوامخ والوهاد سواء
متنوع العزمات ماء مغدق فيهم وعنهم صخرة صماء
ما أنت بعض الناس إلا مثلما بعض الحصى الياقوتة الحمراء
فتحت لنا نعماك كل بلاغة فجرى اليراع وقالت الشعراء

توفي رحمه الله حوالي سنة 430هـ .

91 – أبو محمد عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي

عالم نحرير وأديب كبير ومؤرخ شهير ، له تآليف فائقة وأشعار رائقة ؛ نقل عنه منها الحسن بن رشيق في كتابه **العمدة** في مواضع عدة منه . ومثله إبراهيم الحصري في كتابه **زهر الآداب** .

كان رحمه الله راغباً عن الهجاء فلم يهْج أحداً كما نقل ذلك ابن رشيق في **العمدة** قال عند ذكره لمبحث من رغب من الشعراء عن الهجاء : إن ممن انتحل هذا المذهب في زمانه عبد الكريم النهشلي لم يهْجُ أحداً قط وإن من أناشيده في كتابه المشهور لغيره من الشعراء :

ولست بهاجٍ في القرى أهل منزل الخ... ا هـ .

كما ذكر ابن رشيق في **العمدة** أيضاً : أن صاحب الترجمة من الشعراء أصحاب القصائد المطولة لا يكاد يصنع المقطوعات القصيرة حتى قال : إنه لا يظن أن في جميع أشعاره خمس مقطوعات أو نحوها ا هـ .

وكان رحمه الله يصقل ذهنه بالمناظر النضرة ليجود بها ما يصوغه من بديع الشعر .

قال ابن رشيق في كتابه المذكور : حدثني بعض أصحابنا من أهل المهدية وقد مررنا بموضع بها يُعرف بالكدية هو أشرفها أرضاً وهواء ، قال : جئت هذا الموضع مرة فإذا عبد الكريم يروح هناك قد كشف الدنيا فقلت : أبا محمد ما تصنع ههنا ؟ قال : ألقح خاطري وأجلو ناظري . قلت : فهل نتج لك شيء ؟ قال : ما تقر به عيني وعينك إن شاء الله تعالى .

وأنشدني شعراً يدخل مسام القلوب رقة . قلت : هذا اختيار منك اخترعته ؟ قال : بل برأي الأصمعي ا هـ .

فمما أورده له الحصري في زهر الآداب من شعره واختاره منه قوله :

يا رب فتيان صدق رحت بينهم ... والشمس كالدنف المعشوق في الأفق
مرضى أصائلها حسرى شمائلها ... تروح الغصن الممطور في الورق
معاطياً شمس إبريق إذا مزجت ... تقلدت عقد مرجان من النزق
عن ماحل طافح بالماء معتلج ... كأنما نفسه صيغت من الحدق
تضمه الريح أحياناً وتفرقه ... فالماء ما بين محبوس ومنطلق
من أخضر ناضر والطل يلحقه ... وأبيض تحت قبطَي الضحى يقق
تهزه الريح أحياناً فيمنحها ... الزجر خفق فؤاد العاشق القلق
كأن حافاته نطقن من زبد ... مناطقاً رصعت من لؤلؤ نسق
كأن قبته من سندس نمط ... حسناء مجلوة اللبات والعنق
إذا تبلج فجر فرق زرقته ... حسبته فرساً دهماء في بلق
أو لازورد جرى في متنه ذهب ... فلاح في شارق من مائه شرق
عشية كللت حسناً وساعدها ... ليل يمدد أطناباً على الأفق
تجلي بغرة وضاح الجبين له ... ما شئت من كرم وافٍ ومن خلق

وأورد له أيضاً قوله :

لم أدر معناك لولا المسك والعطر ... وزفـرة للم عـنـده خـفـر
سرى يعارض أنفاس الرياح بما ... تحمل الورد منه وانثنى الزهر

يخفي بثوب الدجى مسراه مستتراً ومن تقنع صبحاً كيف يستتر
كأن أعين واشيه تراقبه فيه فيدمج أخباري فيختصر

وقوله أيضاً :

أهلاً به من زائر متهاد والليل يرفل في ثياب حداد
يتجاوز الرايات يخفق ظلها ويشف ملتف القنا المياد
أنّي اهتدى في ظل أخضر مغدف حتى تيمم بالعناء وسادي
فأرق من كبد المتيم مقدماً في حيث ينبو الحارث بن عباد
معتادة أمنت تمائم حليها والحلي نمام على العواد
وكأنما ياقوتها في نحرها متوقد مما يجن فؤادي

وقوله في وصف حديقة غناء يشقها نهر بإزائها قصر مشيد :

سلام على طيب روغاتنا إلى القصر والنهر الخضرم
إلى مزبد الموج طامي العبا ب يهدف في البان والساسم
تخال به قطماً مغرماً يكر على قطمٍ مغرم
ويسخو فيسحب في ذابل يمان تسهم بالأنجم
كأن الشمال على وجهه بها سقم وهي لم تسقم
ضعيفة رش لنفث الرقي على كبد المدنف المعدم
إذا درجت فوقه درجته في حبب الزرد المحكم
وقد جللته بأوراقها فروع جلت ناطق اليم
علتها الحمام بتغريدها كما سجع النوح في مأتم
كأن شعاع الضحى بينها على السوسن الغض والحيزم
وشائع من ذهب سائل على خسر وانية نعم
ربى تتقفاً من فوقها عزالى الربيع لدى المرهم
على كل مخبية خلة تسد على جدول مفعم
كما فتل الوقف أصداغه وكالأرقم أنساب للأرقم

وكذلك قوله يصف فيلاً ورد في جملة هدية إلى الأمير باديس :

وأضخم هندي النجار تعده ملوك بني ساسان إن رابها أمر
من الورق لا من ضربه الورق ترتعي أضاحاً ولا من ضربه الخمس والعشر
يجيء كطود جائل فوق أربع مضبرة لمت كما لمت الصخر
له فخذان كالكثيبين لبدا وصدر كما أوفى من الهضبة الصور
ووجه به أنف كرواق خمرة ينال به ما تدرك الأنمل العشر
وأذن كنصف البرد يسمعه الندا خفياً وطرف ينقض الغيب مزور
ونابان شقّا لا يريك سواهما قناتين سمراوين طعنهما نثر
له لون ما بين الصباح وليله إذا نطق العصفور أو غلس الصقر

92 – أبو اسماعيل إبراهيم بن غانم بن عبدون القيرواني الكاتب

قال ابن رشيق في شأنه : إنه شاعر كتاني الشعر ، لطيف الألفاظ نظيفها ، رشيق المعاني وجيزها ، قليل المدح والهجاء ، كلف بالمواعظ في نظمه ا هـ .

كانت له رحلة إلى مصر فأقام فيها مدة ، ثم رجع إلى بلده القيروان فاستقر بها ، وبها توفي سنة 450هـ .

فمن شعره في الحكم والمواعظ قوله من قصيدة :

ربما كانت الخلائق إن ضاقـ ـت بخطب معدودة في الخطوب
وتهون الأحداث عند معانٍ لفؤادٍ شهم وصدر رحيب
والصبور الداعي إلى الله محبو ب مجاب من السميع المجيب
فتوكّل عليه يكْفك وآلزم حكم ذي حكمة ورأي مصيب

وقال في ذم البخل :

قل للبخيل وإن اصبحت ذا سعة لأنت بالبخل في ضيق وإقلال
لتأسفن على ترك الندى ندماً إذا تخليت من أهل ومن مال
ومن رأى في العلى من ماله عوضاً أفضى إلى خير إعواض وإبدال

وقال يصف ثريا جامع عقبة في القيروان :

وبجلس تقوى يجلس الناس عنده جلوساً صموتاً فهو أوقر مجلس
قنانيله من وحشة الليل داجياً هداية أبصار وإيناس أنفس
يضيء بها صافي الزجاج كضوئها فتبهر لحظ الناظر المتفرس
كأن القناديل المدارة حولها جفون رنت منهنّ أعين نرجس

93 – عبد الواحد بن فتوح التونسي الكاتب

نشأ بحاضرة تونس وعن جهابذتها أخذ العلم والأدب ثم انتقل إلى مدينة القيروان فصار بها من الكتاب ، كان من الشعراء المجيدين ، قال ابن رشيق في شأنه : إنه شاعر مفلق قوي أساس الشعر كأنه أعرابي بدوي ، يتكلف بعض التكلف ا هـ . كانت وفاته رحمه الله سنة 447هـ .

من شعره في وصف الديك وقد أجاد :

وهب للأطيار ذو خبرة منه بمّا تعرب عن خبرها
قوس جيداً ورقي منبراً دار التي أيقظ من خدرها
مستفتحاً منه بتصفيقة اسـ ـتفتاح ذات الطار في نقرها
فبلبل الطائر في غصنه وأرق الورقاء في وكرها
كـأنـمـا توّج يـاقـوتة فاتحة الشقين من شطرها
كأنما يخطر في حلّة من عدني الوشي لم ينشرها

ومنه في وصف الحمام :

يجتاب أودية السحاب بخافق كالبرق أومض في السحاب وأبرقا
لو سابق الريح الجنوب لغاية يوماً لجاءك مثلها أو أسبقا
يستقرب الأرض البسيطة مذهباً والأفق والسقف الرفيعة مرتقى
ويظل يسترق السماع مخافة في الجو تحسبه الشهاب المحرقا
في الطير قسه بكل حامل ريشة مما يطير تجده منه أعنقا
يبدو فيعجب من رآه لحسنه وتكاد آية عنقه أن تنطقا
مترقرقاً من حيث درت كأنه لبس الزجاجة أو تجلبب زئبقا

94 – أبو القاسم عبد الرحمان بن محمد الحضرمي المعروف باللبيدي

لبيدة المنسوب إليها قرية من قرى الساحل . قال ابن فرحون في **الديباج** : إنه من مشاهير علماء إفريقية ومؤلفيها وعبادها ، تفقه بمحمد بن أبي زيد . وأبي الحسن القابسي . وسمع من شيوخ إفريقية ، وعباد أهل الرباط ، وسمع من الشيخ الفاضل أبي إسحاق الجبنياني وانتفع به ، وأرسله الشيخ لتفقيه أهل المهدية ، روى عنه ابن سعدون وغيره .

كان ذكياً فقيهاً . ألف كتاباً بليغاً في المذهب أزيد من مائة جزء كبار في مسائل **المدونة** وبسطها والتفريع عليها ، وزيادات الأمهات ونوادر الروايات سمّاه **الشرح والتفصيل لمسائل المدونة** وألف أخبار أبي إسحاق الجبنياني رضي الله عنه وفضائله وكتاباً في اختصار **المدونة** سماه **الملخص** .

وكان ينظم الشعر ويحسن القول فمما أنشده لنفسه قوله :

أنت العلي وأنت الخالق الباري — أنت العليم بما تخفيه أسراري
أنت القدير فما في الخلق مقدرة — في وسع عيش وفي بؤس وإقتار
تصني الولاية أقواماً فتلبسهم — ثوب المهابة محروساً من العار
تجول في ملكوت العز أنفسهم — تبلو مدامعهم خوفاً من النار
قد أسلموا الأهل والأوطان وارتحلوا — ما إن ترى مثلهم في نازح الدار
يا طول حزني في تركي لوصلهم — يا لهف نفسي على بعدي وإدباري
لم لا أظل على الأشجان معتكفاً — أدعو المليك بإفصاح وإضمار
عسى المليك يذود النفس عن عطب — يجلو العماء بتوفيق وأنوار

ثم ذكر صاحب **الديباج** أنه توفي سنة 440هـ وسنه ثمان وأربعون سنة . وقد حاز في حياته رئاسة العلم بالقيروان ، وقد عرف بالفضل والتبحر في الفقه ، وبرع في الفتيا رحمة الله عليه ا هـ . وله ابن اسمه أبو بكر ذكره التجاني في **رحلته** وأثنى عليه وقال : إنه كانت له رئاسة وسعة حال ، وكان من أهل الأدب والفهم ، وله شعر حسن وإن ابن شرف ذكره في تاريخه ا هـ .

95 – أبو العباس بن أبي حديدة

كان من كتّاب ديوان الإنشاء في الدولة الصنهاجية . وصفه ابن رشيق بأنه شاعر لطيف ، فكه الشعر ، رائق التشبيه ، مولع به ، قليل التكلف ، قوى المنبج والظرف ، ممن رفض المدح والهجاء . من شعره ما نقل علي بن ظافر في كتابه **بدائع البدائه** عن كتاب **الأنموذج** لابن رشيق : أن ابن حديدة خرج في جماعة من رفقائه طلباً للتنزه فحلوا بروضة قد سفرت عن وجنات الشقيق ، وأطلعت في خضراء من زبرجد الأرض نجوماً من عقيق ، والجو قد أفرط في تعبيسه ، ونثر لغيظه جميع ما كان من لؤلؤ القطر في كيسه ، فقال ابن حديدة :

أو ما ترى الغيث المعرس باكياً   يذري الدموع على بساط شقيق
فكأن قطر دموعه من فوقه   درّ تبدد في بساطٍ عقيق

قال ابن رشيق : وأنشدتيها فأجزتهما بأن قلت :

فأجمع إلى شكليهما بعقيقة   شكلين من حبب وصفو رحيق
فكأنما انتصرا لعبرة عاشق   مهراقة في وجنتي معشوق

وقال ابن رشيق أيضاً : تذاكرت مرة أنا وابن أبي حديدة فيما قيل في دنوَ السحاب ، فعرض لنا قول كشاجم في وصف سحابة :

دنت من الأرض على كلالها   كأنما تسألها عن حالها

فقلت لو أشار إلى العناق لكان أوصف . فأنشدني ابن أبي حديدة في الغد من قصيدة :

يا رب هتان تنوء بثقلها   تسقي البلاد بوابل غيداق
مرت فويق الأرض تسحب ذيلها   والريح تحملها على الأعناق
ودنت فكاد الترب ينهض نحوها   كنهوض مشتاق الى مشتاق
فكأنما جاءت تقبل أرضها   أو حاولت منها لذيذ عناق

96 – أبو حبيب عبد الرحمان بن أحمد

ولد هذا الشاعر بالمحمدية القرية المعروفة بقرب مدينة تونس ، ثم انتقل إلى عاصمة إفريقية ، إذ ذاك مدينة القيروان ، وبها اشتهر أمره ، وسما قدره . قال ابن رشيق في شأنه : إنه خالط الأشراف وأهل الأقدار وبرز في الأدب وصناعتي الشعر والنثر ، فصار صدراً مذكوراً في كل واحد منهما .

فمن شعره رحمه الله قوله يتغزل :

أضحى عذولي فيه من عشاقه ... لما بدا كالبدر في إشراقه
وغدا يلوم ولومه لي غيرة ... منه عليه وليس من إشفاقه
قمر تنافست الجوانح والصبا ... في حبه لتفوز عند عناقه
في خده نور تفتح ورده ... ألحاظه منعته من عشاقه
عرض الوصال وظل يعرض دونه ... وتخلق المعسول من أخلاقه
وغدا محاق البدر موعد بينه ... ورحيله فحققت قبل محاقه

وقال أيضاً في المعنى عفا الله عنه :

وإني على شوقي إليه وصبوتي ... أغار عليه في دجى الليل إذ يسري
فبت ودمعي مزج فيض دموعه ... أقبل ما بين الترائب والنحر
إذا هم أن يمضي جذبت بثوبه ... وأقبلت من خوفي على مقلتي شفري
وكم ليلة هانت على ذنوبها ... بما بات يرويني من الريق والخمر
أقبل منه الورد في غير حينه ... وألثم بدر التم في غيبة البدر
إلى أن بدا نور تبلج في الدجى ... كنور جبين لاح في ظلمة الشعر
وهبت نسيمات الصباح كأنها ... تهب بريح المسك أو خالص العطر
وقد نبه الساقي الندامى لقهوة ... كشعلة مصباح خلا أنها تجري

وقال أيضاً كذلك :

مجرى جفوني دماء وهو ناظرها ... ومتلف القلب وجداً وهو مرتعه
إذا بدا حال دمعي دون رؤيته ... يغار مني عليه فهو يرفعه

97 – بكر بن علي الصابوني

وصفه ابن رشيق في **الأنموذج** بقوله : كان شيخاً معمراً ، شاعراً طبوعاً صاحب نوادر وهجاء ، أقدر الناس على بديهة ، وكان تي الشيبة والثياب ، حسن الصمت والخطاب .

من شعره رحمه الله تعالى قوله :

أمرض بالوعظ القلوب الصحاح   ما قاله الهاتف عند الصباح
أيقظني من رقدتي في الدجى   شخص سمعت القول منه كفاح
يقول : لم ترقد يا غافلا ؟   والدهر إن لم يغد بالموت راح
تركن للدنيا كأن لا براح   منها وتغدو لاهياً في مزاح
ما الدهر والأيام في مرها   إلا كبرق خاطف ثم راح

98 – أحمد بن محمد المعروف بالمتيم الإفريقي أبو الحسن

كان من الشعراء المحسنين . قال ياقوت في **معجم الأدباء** : هو أحد الأدباء الفضلاء الشعراء ، له من التصانيف كتاب **الشعراء والندماء** وكتاب **الإنتصار المنبي عن فضل المتنبي** وغير ذلك ، وله **ديوان** شعر كبير صناعته التي يعتمد عليها الشعر .

من شعره قوله :

تلوم على ترك الصلاة حليلتي   فقلت اغربي عن ناظري أنت طالق
فوالله لا صليت لله مفلساً   يصلي له شيخ جليل ومائق
ولا عجب إن كان نوح مصلياً   لأن له قسراً تدين الخلائق
لماذا أصلي أين مالي ومنزلي   وأين خيولي والحلي والمناطق
أصلي ولا فتر من الأرض تحتوي   عليه يميني أنني لمنافق
بلى إن علي الله وسع لم أزل   أصلي له ما لاح في الجو بارق

وقوله :

قلبي أسير في يدي مقلة تركية ضاق لها صدري
كأنها في ضيقها عروة ليس لها زر سوى السحر

ومن شعره ما أنشده لنفسه :

وفتية أدباء ما علمتهم شبهتهم بنجوم الليل إذ نجموا
فروا الى الراح من خطب يلم بهم فما درت نوب الأيام أين هم

له رحلة إلى المشرق أبعد فيها وممن ذكره الثعالبي وقال : إنه اجتمع به ببخارى ، رحمة الله عليهما .

99 – يعلى بن إبراهيم الأويسي

من كتّاب الدولة الصنهاجية وشعرائها الفحول ، كان ممن يشار إليهم بالبنان . ذكره ابن رشيق في كتابه الأنموذج وكان من ذوي البديهة في الشعر ، نقل علي ابن ظافر في كتابه بدائع البدائه عن ابن رشيق أن كتاب الخراج بالقيروان اجتمعوا بالديوان فوقعت بينهم جرادة فوضعها بعضهم في يده وقال : من يصفها ؟ فقال لهم عبد الكريم النهشلي : قد علمتم أني مرو ولست بصاحب بديهة ، فبدرهم يعلى بن إبراهيم الأويسي ، وهو أصغرهم سناً في ذلك اليوم ، فقال :

وخيفانة صفراء مسودة القرا أتتك بلون أسود تحت أصفر (1)
وأجنحة حمر كأمثال ردنه تقاصر عن أصواف برد محبر

وله يمدح شيخه أبا عبد الله القزاز . وكان شيخه المذكور يقول : ما مدحت بأحب إلي منها – معجباً بها :

نسجت شعاعاً بيننا منها فبتـ ـنا جميعاً تحت ثوب مذهّب
فمزجتها من فيه ثم شربتها ، ولثمتها برضاب ثغر أشنب
في ليلة للدهر كانت غرة يرنو إليها الخطب كالمتعجب
فُتَّ الأنام بها كما فُتَّ الورى سبقا محمد بالفخار الأغلب
أبداً على طرف السؤال جوابه فكأنما هو دفعة من صيب

(1) خيفانة : فيها خطوط مختلفة الألوان . القرا : الظهر .

يغدو مساجلة بغرة صافح ويروح معترفاً بذلة مذنب
فالأبعد النائي عليه في الذي يفتر كالداني إليه الأقرب

نقل ذلك عن ابن رشيق في **الأنموذج** ياقوت في كتابه **معجم الأدباء** غير أنه عبر عنه بيعلى بن إبراهيم الأريسي لا الأويسي كما هو في **بدائع البدائه** لعلي ابن ظافر ولعل الأريسي هو الصواب .

100 – أبو الحسن عبد الكريم بن فضال القيرواني المعروف بالحلواني

هكذا اسمه وكنيته . وصفه في **معالم الإيمان** بأنه فقيه أديب عالم ، كما أنهم ذكروه في عداد الوافدين على الأندلس . قال ابن بسام في **الذخيرة** في شأنه ما نصه : له كلام في النسيب رائق . جواده فيه سابق ، ومديحه أيضاً عليه طلاوة ، وبالجملة فني ألفاظ الحلواني حلاوة . ومن خطه نقلت جملة ما هنا له أخرجت ، قال :

ولما تداني للرحيل وقربت كرام المطايا والركاب تسير
جعلت على قلبي يدي مبادراً فقالوا محب للعناق يشير
فقلت وما لي بالعناق وإنما تداركت قلبي حين كاد يطير

وقال :

تعرضت من شفّني هجره ببدء سلام عليه سفاها
وقلت عساه يرد السلا م فتبلغ نفسي منه مناها
فجاد علي بتقبيله وقد كان أعرض عني وتاها
فكنت كموسى أتى للضيا ء ليقبس ناراً فناجى الإله

وله من قصيدة يذكر بلده القيروان بعد نكبتها بالأعراب :

لله منزلنا بالقيروان محا أيامها البين لا الأيام والقدم
شققت جيب شبابي بعد فرقتها حزناً عليها ولا شيب ولا هرم
إن فرّق الدهر عنها شملنا فلنا يصاحب الخمس إبراهيم معتصم

وأول هذه القصيدة نسيب مدح فيها محمد بن إبراهيم الكتاني بصقلية ، وفي وطنه مدينة القيروان يقول أيضاً ونسبت أيضاً لمحمد ابن شرف :

ليت شعري وليت حرف تمن   ربما علل الفؤاد السقيما
كيف يا قيروان حالك لما   نثر البين سلكك المنظوما
كنت أم البلاد شرقاً وغرباً   فمحا الدهر وشيك المرقوما
نحن أبناؤها ولكن عققنا   بعد أن لم نطق بها أن نقيما
دمن كانت البروج وكنا   أقمراً في فنائها ونجوما

ومن شعره قوله :

وإذا اردت ترى فضيلة صاحب   فانظر بعين البحث من ندمانه
فالمرء مطوي على علاّته   طي الكتاب وصحبه عنوانه
وكذا دليل الجود في إبن محمد   بادٍ بصفح جبينه برهانه
وترى الليالي فاعلات أمره   حتى كأن صروفها أعوانه

وزار بعض إخوانه فحجبه فخاطبه برقعة يقول في فصل منها :

تصديت لقاء سيدي تصدي المحب الكئيب ، للقاء رسول الحبيب ، وطفت ببابه الكريم ، طواف الحجيج بالبيت العظيم ، فحال عثور الجد عن مطالعة القمر السعيد ، ومنع سوء البخت ، عن لقاء الكريم البحت ، فحدست أن سيدي وقته ظفرت يداه بمن يهواه ، فغاب مغيب القمر ، تحت غمام الظفر ، وتعاطياً بكأس الوصال مدامي السرور والجريال ، وضيق بضيق العناق ، مجرى الوشاح والأطواق ، هنأه الله ببلوغ أمانيه ، وهنأنا فيه بما يرضيه ، فحياتنا بسروره مرتبطة ، ونفوسنا بما يشتهيه مغتبطة ، وقال :

يا نفس صبراً فالتغرب ذلة   فتجرعي كأسي أذى وهوان
وإذا نزلت بدار قوم دارهم   فلهم عليك تعزز الأوطان
فالشمس أشرق ما تكون بكبشها   وسقوطها في كفة الميزان

101 – علي بن فضال بن علي بن غالب المجاشعي القيرواني
أبو الحسن يعرف بالفرزدقي

نسب إلى الفرزدق لأنه جدّه . كان إماماً في النحو واللغة والتفسير والسير . له رحلة الى المشرق ، ودخل العراق ، وأقرأ ببغداد مدة النحو واللغة ، وحدث بها عن شيوخ المغرب ، ونقل السيوطي في **بغية الوعاة** عن ابن عبد الغافر أن فضالاً هذا دخل نيسابور واجتمع به فوجده بحراً في علمه ما وجد مثله . مات رحمه الله في ربيع الأول سنة 479هـ .

فمن شعره :

كأن بهرام وقد عارضت ... فيه الثريا نظر المبصر[1]
ياقوتة يعرضها بائع ... في كفه والمشتري مشتر

ومن شعره أيضاً قوله نقلاً عن السيوطي في **بغية الوعاة** :

وإخوان حسبتهم دروعاً ... فكانوها ولكن للأعادي
وخلتهم سهاماً صائبات ... فكانوها ولكن في فؤادي
وقالوا قد صفت منا قلوب ... لقد صدقوا ولكن عن ودادي

والذي في حفظي أن بعد هذه الأبيات قوله :

وقالوا قد سعينا كل سعي ... نعم صدقوا ولكن في فسادي

قال ياقوت في كتابه **معجم الأدباء** أثناء ترجمته وبعد أن ذكر سلسلة نسبه المتصلة بالفرزدق الشاعر المشهور : إنه يعرف بالفرزدقي القيرواني النحوي قال في شأنه : إنه هجر مسقط رأسه ، (أي مدينة القيروان) ، ورفض مألوف نفسه ، وطفق يدوخ بسيط الأرض ، ذات الطول والعرض ، يشرق مرة ويغرب أخرى ، ويركب القفار ، ويأوي إلى ظل الأمصار ، برهة حتى ألم بغزنة فألقى عصاه بها ، ودرت له أخلافها ، فلقي وجه الأماني ، وصنف عدة تصانيف سارت في البلاد ، ثم عاد إلى العراق وانخرط في سلك نظام الملك ، ولم تطل أيامه حتى نزل به حمامه . كان إماماً في النحو والتصريف

(1) بهرام : هو المريخ .

واللغة والتفسير والسير . صنف كتاب التفسير الكبير الذي سماه **البرهان** في عشرين مجلداً وكتاب **النكت في القرآن** ، وكتاب **شرح بأسم الله الرحمن الرحيم** كبير وكتاب **إكسير الذهب في صناعة الأدب وكتاب النحو** خمس مجلدات وكتاب **العوامل والهوامل** في الحروف خاصة ، وكتاب **الفصول في معرفة الأصول** ، وكتاب **الإشارة في تحسين العبارة** ، وكتاب **شرح عنوان الأعراب** ، وكتاب **المقدمة في النحو** ، وكتاب **العروض** ، وكتاب **شرح معاني الحروف** ، وكتاب **الدول في التاريخ** . قال ياقوت : رأيت في الوقف السلجوقي ببغداد منه ثلاثين مجلّداً ويعوزه شيء آخر . وكتاب **شجرة الذهب في معرفة أيمة الأدب** . وقيل : إنه صنف كتاباً في تفسير القرآن في خمس وثلاثين مجلداً سماه كتاب **الإكسير في علم التفسير** . وكتاب **معارف الأدب** كبير في نحو ثمانية مجلدات . وله غير ذلك من الكتب في فنون من العلم . وأقام ببغداد مدة ، وأقرأ بها النحو واللغة ، وحدّث بها عن جماعة من شيوخ المغرب . ثم قال : وذكره (أي صاحب الترجمة) عبد الغافر الفارسي فقال : ورد نيسابور ، واختلفت إليه فوجدته بحراً في علمه ما عهدت في البلديين ولا في الغرباء مثله في حفظه ومعرفته وتحقيقه ، فأعرضت عن كل شيء وفارقت المكتب ولزمت بابه بكرة وعشية .

مات رحمه الله في 12 ربيع الأول سنة 479هـ ودفن بباب أبرز .

وذكر جملة من شعره منه قوله :

لا عذر للصب إذا لم يكن ... يخلع في ذاك العذار العذار
كأنه في خده إذ بدا ... ليل تبدي طالعاً من نهار
تخاله جنح ظلام وقد ... صاح به ضوء صباح فحار

ومن شعره :

خذ العلم عن راويه اجتلب الهدى ... وإن كان راويه أخا عمل زاري
فإن رواة العلم كالنخل يانعاً ... كلِ الثمر منه واترك العود للنار

وقوله :

يا يوسفي الجمال عبدك لم ... تبقَ له حيلة من الحيل
إن قد فيه القميص من دبر ... قد قدّ فيه الفؤاد من قبل

ومن شعره أيضاً قوله :

دوارس آي ما تكاد تبين ... عفاهن دمع للسحاب هتون
وقفن بها مستسلمين فلم يزل ... لسان البلى عن عجمهن يبين
وما خفت أن تبدي خفي سرائري ... موائل أمثال الحمائم جون
على حين عاصيت الصبا وهو طائع ... وارخصت علق اللهو وهو ثمين
أرى المزن يهوى رسم من قد ... هويته فلي وله دمع به وحنين
سقى الله حيث الظاعنون سحائبا ... فقلبي حيث الظاعنون رهين
فكم ضمنت أحداجهم من جآذر ... أوانس ينضوها جآذر عين
وأقمار تم لم ير الناس قبلنا ... بدوراً تثني تحتهن غصون
يجردن من ألحاظهن صوارماً ... مـهـنـدة أجفانهن جـفـون

وله أيضاً :

والله إن الله رب العباد ... وخالص النيّة والاعتقاد
ما زادني صدك إلا هوى ... وسوء أفـعـالك إلا وداد
وإنني منك لفي لوعةٍ ... أقل ما فيها يذيب الجماد
فكن ما شئت فأنت المنى ... واحكم كما شئت فأنت المراد
وما عسى تبلغه طاقتي ... وإنما بين ضلوعي فؤاد

ومن شعره أيضاً :

فـتـنـتـني أم عـمـرو ... وكذاك الصب مفتونْ
قلت جودي لكئيب ... مستهام بك محزونْ
فلوت عني وقالت ... أترى ذا المرء مجنونْ ؟
ما رأى الناس جميعاً ... في كتاب الله يتلونْ :
« لن تنالوا البر حتى ... تنفقوا مما تحبونْ »

وله من كتابه « سر السرور » قوله :

ما هذه الالف التي قد زدتم ... فدعوتم الخوان بالإخوان

ومما روى من شعره قوله :

ما صح لي أحد فأجعله أخاً   في الله محضاً أو ففي الشيطان
إمّا مولٍ عن ودادي ما له   وجه وإما من له وجهان

قال : ومن شعره الذي أورده السمعاني :

أحب النبيء وأصحابه   وأبغض مبغض أزواجه
ومهما ذهبتهم الى مذهب   فما لي سوى قصد منهاجه

102 – أبو محمد خطيب سوسة

من شعره قصيدة مدح بها الأمير تميم بن المعز بن باديس لما فتح مدينة قابس حوالي سنة 489هـ ، وأفتكها من أخيه عمر بن المعز الذي أولاه عليها الأعراب الثائرون على الأمير تميم . فقال أبو محمد يهنيء الأمير تميماً بذلك من قصيدة طالعها :

ضحك الزمان وكان يدعى عابساً   لما فتحت بحد عزمك قابسا
أنكحتها عذراء ما أصدقتها   إلا قناً وبواتراً وفوارسا
الله يعلم ما جنيت ثمارها   إلا وكان أبوك قبلك غارسا
من كان بالسمر العوالي خاطباً   أضحت له بيض الحصون عرائسا

103 – أبو الحسن علي بن محمد بن الحداد الخولاني المهدوي

هو من جلة العلماء . تخرج عليه الفحول ناهيك أن ممن أخذ عنه أبو بكر بن العربي ذكر ذلك المقري في **نفح الطيب** في ترجمته لأبي بكر ، قال : أخذ عنه بالمهدية ، وكان له في الأدب باع مديد ، وسهم سديد .

من شعره قوله في وصف موقعة حربية أوقعها العدو بأهل المهدية وهم في حال غرة استولى فيها العدو على المهدية ، وذلك في أمارة الأمير تميم بن المعز بن باديس سنة 480هـ ، ولجأ الأمير إلى قصره المعروف بقصر المهدي ، ثم وقع الصلح بين الفريقين ،

وكان عدد أسطول العدو في الموقعة المذكورة ثلاثمائة قطعة تشتمل على ثلاثين ألف مقاتل هاجموا المهدية على غرة وعسكر المسلمين غائب عنها . فقال أبو الحسن الخولاني يصف الموقعة من قصيدة طويلة طالعها :

أنى يلم الخيال أو يقف وبين أجفانها نوى قذف

ومنها :

غزا حمانا العدو في عدد هم الدبى كثرة أو النغف[1]
عشرون ألفاً ومثلها ائتلفوا من كل أوب لبئسما إئتلفوا
جاؤوا على غرة إلى نفر قد جهلوا في الحروب ما عرفوا
وهم من العيش في بلهنية وليس للدهر أعين طرف
فأيقضوا من سنات غفلتهم لهم عيون جفونها وطف
في سفنٍ كالجبال ليس لها إلا من السمر والضبا شعف[2]
هبت رخاء رياحهم وجرت كما اشتهت وهي عندنا عصف
فإن ونت في الهبوب حركها مجاذف بالصلال تلتقف

توفي رحمه الله حوالي سنة 490هـ .

104 – أبو عبد الله محمد بن عبد الصمد بن بشير التنوخي المهدوي

هو من أعيان الشعراء ، ونوابغ الأدباء ، من شعراء البلاط الصنهاجي في دولة علي ابن يحيى بن تميم .

من شعره يصف الأسطول الذي جدده الأمير علي بن يحيى المذكور استعداداً لقتال

(1) الدبى : أصغر الجراد ، النغف : الدود .
(2) شعف : الشعف جمع شعفة وهي أعلى الجبل .

روجار صاحب صقلية حين بلغه أنه يهدد بالهجوم على السواحل الإفريقية وأخذ الجو يسوء بينهما من أثناء قصيدة ويمدحه ، وذلك في حدود سنة 510هـ يقول فيها :

وأعددت للأعداء كل مصمم ... يسير إليهم قاصداً وهو أهوج
كمثل الروامي منعة غير أنه ... على تبج الدأماء تسري وتدلج
كأن القنا والنبل في جنباتها ... سيال بأطراف الهضاب وعوسج
يعيد مضيىء الجو أقتم حالكاً ... دخان لظى من نارها يتوهج
إذا نضنضت من ألسن لهيبة ... بمَارج نار يستقل ويعرج
رأيت صلالاً أخرجت من جهنم ... تحرق أكباد العداة وتنضج

وله أيضاً لما تغلب الأمير المذكور على أسطول روجار في مياه بحر قابس المتغلب عليها من آل جامع إذ ذاك رافع بن مكي بن كامل صنيعة روجار فقال في ذلك محمد بن بشير :

سل رافعاً ما الذي أجرى تنصره ... وهل يقي الذل عنه من به وثقا
لو لم ير الروم أهلاً والصليب أباً ... لم يشك من عيشه في قابس رنقا
إنفاقك المال في العلياء ألحقه ... بالقيروان التي يعتدها نفقا
أبدت له عزة للجاهلين به ... وكان ستر عليه قبل فانخرقا
لله فعلك لا للمال تجمعه ... وكيف ذاك وقد شتته مزقا
وكل مال تشاد المكرمات به ... أشد ما هو توفيراً إذا محقا

105 – أبو بكر محمد بن عتيق بن أبي نصر اليمني القيرواني المعروف بان أبي كدية

المتكلم الأشعري مذهباً . درس بالقيروان الأصول على أبي الحسن بن حاتم الأزدي ، من أصحاب أبي بكر الباقلاني ، وبمصر على القضاعي . وقدم الشام وأخذ عنه أبو الفتح نصر الله بن محمد المصيصي . ودخل العراق ، وأقرأ العلوم بالمدرسة النظامية ، وكان صلباً في الإعتقاد ، وسمع بالأندلس من ابن عبد البر . وتوفي ببغداد سنة 512هـ . سمع يوماً قائلاً ينشد أبيات أبي العلاء المعري :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة   وحق لسكان البسيطة أن يبكوا
تحطمنا الأيام حتى كأننا   زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك

فقال رحمه الله يردّ عليه :

كذبت وبيت الله حلفة صادق   سيسبكنا بعد الثرى من له الملك
ونرجع أجساماً صحاحاً سليمة   نتم في الفردوس ما عندنا شك

ومن شعره أيضاً قوله :

كلام إلهي ثابت لا يفارقه   وما دون رب العرش فالله خالقه
ومن لم يقل هذا فقد صار ملحداً   وصار إلى قول النصارى يوافقه

قال ابن الجوزي : إنه كان يحفظ كتاب سيبويه ، ودفن جوار الأمام أبي الحسن الأشعري رحمهما الله تعالى .

106 – سلمان بن عامر أبو القاسم النحوي

ذكره السيوطي في **بغية الوعاة** ناقلاً عن كتاب **المغرب** لابن سعيد قال : ذكره ابن رشيق في **الأنموذج** وذكر أن من شعره قوله من قصيدة يمدح :

تتبع آثار العفاة بنائل   جزيل فلم يترك على الأرض معدما
فكل مليح فيه دون فعاله   وكل بليغ يثني عنه مفحما
ترى زمر الراجين في عقر داره   كأنهم حلوا الحطيم وزمزما

107 – محمد بن عبد الله الكاتب

من كتّاب الدولة الصنهاجية على عهد الأمير علي بن يحيى ، فمن شعره يهنئه لما انتصر اسطوله بميناء قابس على أسطول روجار أمير صقلية وكانت هذه الوقعة من أشد أسباب الوحشة التي وقعت بين الأمير علي بن يحيى وابنه الحسن بعده وبين روجار حتى

أفضت الى تغلب روجار على المهدية وانقراض دولة الصنهاجيين . ولما تمّ لعلي بن يحيى الإنتصار المشار إليه آنفاً هنأه محمد بن عبد الله الكاتب بقصيدة يقول فيها :

ليهن المعالي أن تملك رقيها   علي بن يحيى بالعلى والتكرم
جرى وجري صيد الملوك فبذهم   إلى غاية في المجد لا تتقدم
تصدى إلى الأعلاج في بحر قابس   وسار إليهم في الخميس العرمرم
فولوا على الأدبار كلاً وأجفلوا   بنابٍ نبا عنهم وظفر مقلم

108 – عبد الرحمان بن علي النحوي أبو القاسم

ذكره السيوطي في **بغية الوعاة** ، وأن ابن رشيق قال فيه : إنه شاعر مولع بالطباق والتجنيس والقوافي العويصة ، والغالب عليه علم الشرائع والقرآن ، وعنده من الأصول والخلاف نصيب .

109 – عبد الله بن رشيق القرطبي نزيل القيروان

ذكره ابن رشيق في **الأنموذج** فقال : إنه ارتحل من الأندلس إلى القيروان فاستوطنها واختص بأبي عمران الفاسي وتفقه به . وكان أديباً شاعراً عفيفاً خيراً . له في شيخه أبي عمران المذكور شعر كثير . قال في **الأنموذج** : إنه ذهب إلى الحج فأدى الفريضة وفي انصرافه راجعاً منه مات بمصر بعد اشتهاره فيها بالعلم والجلالة ، وقد بلغ عمره نحو الأربعين سنة ، رحمه الله تعالى ، وذلك سنة 419هـ . وذكر في **الأنموذج** من شعره قوله :

خير أعمالك الرضا   بالمقادير والقضا
بينما المرء ناظر   قيل قد مات وانقضى

وقوله :

سأقطع حبلي من حبالك جاهداً   وأهجر هجراً لا يجر لنا غرضا

وقد يعرض الأنسان عمن يوده ويلقى ببشر من يسر له البغضا

110 – محمد بن محمد ابن أحمد بن محمد الطالي القفصي

قال الشيخ أثير الدين أبو حيان : رأيته بالقاهرة يتكسب بشعره ، وأن له أدباً وأنشد لنفسه :

أنكرتني لما رأت من مقامي وبياض المشيب حال احتلامي
غادة غادرت فؤادي كئيباً وجفوني بلا لذيذ المنام
لا أبالي وإن غدا القلب منها وهو دامٍ بناظر كالحسام

قال : وأنشدني أيضاً لنفسه :

سقى قبة الشافعي الإما م من الكوثر الأعين الجارية
لـه قبة تحتها سيد وبحر له فوقه جارية

قال : يعني بذلك صورة السفينة التي عملت من الرصاص على قبة الضريح ا هـ .

111 – أبو علي بن إبراهيم التوزري الكاتب

كان من أدباء توزر وكتّابها وفحول شعرائها ، من بليغ شعره قصيدة عصماء مدح فيها بلده توزر ووصف فيها تمرها ونخيلها وتقسيم أنهارها الذي وضعه العالم الحكيم ابن الشباط ، وهذا نصها البديع ولفظها الرفيع :

خير البلاد لمن أتاها توزر يا حبذا ذاك الجناب الأخضر
والنخل مثل عرائس مجلوة في سندسيات اللباس تبختر
وكأنما نظم الحلي لنحرها من لؤلؤ وزبرجد يتخير
نشأت لآليء سلكها من ذاتها وتحولت كـزبرجـد يتطور
وترى الزبرجد عسجداً ويواقتاً ذا أحمر قانٍ وهذا أصفر
فإذا انتهى إرطابه أبصرته مترجرجاً والأرى منه يقطر

رطب يريك نواه وهو دوينها	من دونه لشبيهه إذ يبصر
يجنيك من تمر صنوفاً جمة	لا يستقل لوصفها متفكر
أحلى من العسل المصفى طعمه	ومذاقه لا يدعيه السكر
واللوح قد لبست غلائل سندس	تختال في أيدي النسيم وتخطر
حلت هواديها عقود أزاهر	فتبرجت عجباً لمن يتبصر
ملكت عيون الناظرين بحسنها	فدنا إليها كل طرف ينظر
والطير قد رقيت منابر قضبها	خطباؤها تشدو بلحن يسحر
والقضب يثنيها النسيم فتنثني	بعض يقبل بعضه ويقهقر
كعقائل تبغي السرار فتلتقي	تصغي الحديث وتارة تتأخر
والأرض عاطرة ترّف كأنها	غشي نواحيها عبير ينثر
فتأرجت أرجاؤها فكأنما	نثرت يواقيت عليها وجوهر
زهر كزهر كواكب لألاؤها	يزهى به ذاك البساط الأخضر
ذا أبيض يقق وأصفر فاقع	في أزرق زاه وهذا أحمر
والماء تبعثه إليك جداول	قد مدها النهر الزلال الأكبر
نهر تقسم بالسواء ثلاثة	كل على الحد السواء مقدر
صاف على صفة اللجين جرى على	رمل التي عذب زلال كوثر
وكأنما حصباؤها في رونق الم	ـاء الذي يجري عليها جوهر
وخلاله سمط كصفحة خنجر	وكأنه من فضة متطور
ومسارح ومزارع ومباقل	وفواكه من كل نوع يذكر
وجداول تنساب بين أزاهر	كأراقم هجاتها لا تذعر
زرق النطاف يدب في أرجائها	زهر كزهر كواكب إذ تزهر

112 – محمد بن أحمد التيفاشي البنزرتي

شاعر مفلق ، وأديب كبير . كان من خبره أن الخليفة عبد المؤمن بن علي جدّ الخلفاء الموحدين ومؤسس الدولة الموحدية لما فتح إفريقية ودخل بجيشه مدينة بنزرت هنأه بقصيدة بليغة مادحاً ، كان مطلعها قوله :

ما جر عطفيه بين البيض والأسل   مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي

فلما أنشده هذا الطالع استحسنه ، وقال له : أمسك وأمر له بأربعين ألف دينار . وأمره بأن يرجع إليه من الغد . فلما رجع من الغد أنشده البيت المذكور فقال له أيضاً : أمسك ، وأمر له بأربعين ألف دينار ، وأمره أن يرجع إليه من الغد . فلما خرج حسده بعض الناس ، ولعله كان من زملائه الشعراء ، وقالوا له : ما يدريك لعله يرجع فيسلبك هذا المال الذي أعطاك فإن الملوك سريعو التقلب ، فلو فزت بغنيمتك ، فراج عليه بهرج غشهم فهرب . فلما أصبح ولم يأت سأل عنه الخليفة عبد المؤمن فقيل له : لم يجىء ، فقال : قد أساء بنا الظن ، لو جاءنا لأعطيناه حتى ينفد ما بخزائني .

العصر الخامس
من عصور الأدب العربي بإفريقيا
العصر الحفصي
603 هـ ـ 981 هـ

وهذه السنة الأخيرة هي التي استولى فيها سنان باشا على المملكة التونسية واقتلع من عرشها آخر ملوك بني أبي حفص محمد بن الحسن بن محمد بن الحسن بن محمد المسعود الذي كان وأبوه الحسن أيضاً قبله استصرخ كل منهما الإسبان لينصروه على خير الدين باشا الذي كان استولى على البلاد التونسية وأراد انتظامها في سلك الممالك العثمانية ولم يرضَ كل منهما بذلك .

فأما الحسن فأنجده الإسبان بجيش داخل الحاضرة التونسية بأمان أهلها وهم غافلون . وكان من شروط إجابة الإسبان لاستصراخ الحسن الحفصي إباحة الحاضرة لهم ثلاثة أيام فدخلها بجيوشهم بأمان من أهلها وهم على حين غفلة مغترون بهذا الأمان وأسواقهم مفتوحة ، فهجم عليهم جيش الإسبان فاغتالوا النفوس ، ونهبوا الأموال ، وفرّ منها من تمكن من الفرار الى جبل زغوان . يقال : إن ثلث سكان الحاضرة قتلوا ،وثلثهم نجوا . ومن له مال من المأسورين افتدى نفسه ، وقدر الفدية ألف دينار ، وذلك سنة 940هـ ، فتغيرت البلاد وطمست معالمها .

وأما ابنه محمد بن الحسن فإنه لما استصرخ أيضاً الاسبان اشترطوا عليه مقاسمة الحكم بينه وبينهم يوماً بيوم فرضي بذلك ودخل الإسبان الحاضرة أيضاً ، وربطوا خيولهم بسواري جامع الزيتونة ، وألقوا الكتب الموضوعة في خزائنه في الطرقات تدوسها الأرجل ، وذلك سنة 980هـ ، أفاد ذلك الشيخ أحمد بن أبي الضياف في تاريخه رحمه الله .

أما سنة 603هـ فهي السنة التي تولى فيها إمارة إفريقية أول أمير من بني أبي حفص ، وأبو حفص هذا هو قرين عبد المؤمن بن علي وقريعه في صحبة المهدي ابن تومرت مؤسس الدولة الموحدية ، والذي عهد بالخلافة بعده لعبد المؤمن بن علي .

وتعاقبت الخلافة في نسله وحفيده الناصر بن المنصور وهو الذي أولى على إفريقية للإستكفاء به في أمورها أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص سنة 603هـ .

واستمرت إمارة إفريقية في عقبه تابعة للدولة الموحدية برهة من الزمان أولاً ، ثم

استقلت عنها بل زاحمتها بعد ، فأن أبا زكرياء بن عبد الواحد المذكور ولّي إمارتها سنة 925هـ تابعاً للدولة الموحدية ، ثم استقل عنها وبويع بذلك سنة 934هـ .

وعلى عهد هذا الأمير أعني أبا زكرياء وعهد ابنه بعده محمد المستنصر ازدهر العلم والأدب في إفريقية ازدهاراً عظيماً بلغت به تونس وقطانها في ميدان العمران والحضارة مبلغاً لم تبلغه قبل بعد أن ضعف أمر العلم والأدب وانطفأ نورهما بما دهم البلاد أولاً من عبث وتخريب حواضرها بأيدي الأعراب الصعيديين ، وثانياً باستيلاء النورمان عليها كما كنا نقلنا ذلك في الطور قبل هذا عن تاريخ الشيخ محمود مقديش .

ثم إن الله أمتن عليها باستنقاذها بأيدي الموحدين الذين تفرعت عنهم الدولة الحفصية ، فكان أول أمرائها المستقلين وهو أبو زكريا يحيى الحفصي وابنه من بعده أبو عبدالله محمد المستنصر هما منبع عظمة ويمن وإسعاد الأيالة التونسية ، فاصبحت عاصمتها تونس مطلعاً لأقمار العلم والأدب وشموسهما ، وراجت فيها سوقهما ، وبلغت بذلك مناط الثريا ، وذاعت سمعتها العلمية والأدبية والسياسية في الآفاق ، فأمّها أعيان العلماء ، وأفلاذ الأدباء ، والسلطان سوق يجلب إليها ما ينفق فيها وأصبحت تونس محط رحال الأفاضل من الأواخر والأوائل كما قاله المقري في **نفح الطيب** حين ترجم لبعض الأندلسيين النازلين بها ، خصوصاً على عهد هذه الدولة الحفصية ، ذات المفاخر العظيمة ، القائل في شأنها المقري أيضاً أثناء كلام نسجه على نسق كلام لسان الدين بن الخطيب في الإتعاظ بفناء الدول ، وأوله : أين الإسكندر ويونانه ، وشدّاد وبنيانه ، الى أن يقول : وأين الحفصيون ، ومستنصرهم الذي قضى للمعالي الديون . وأبو فارس ، الذي تشنفت بأخباره آذان الطروس والقهارس ، طحنت والله الجميع رحى المنون ، وتأيمت الأزواج وتيتم البنون ، وبقيت القصور العالية خالية ، والرسوم المتكاثرة دائرة ، والسلوك المنظومة متناثرة اهـ .

ومن أسباب وفرة عدد من أمّ تونس في دولة أبي زكرياء وابنه المستنصر من العلماء والفضلاء إكرامهما لمن وفد عليهما منهم ، وإنزالهم بمنازل الحظوة والإعتبار . ولعل لسان الدين بن الخطيب كان ينوي الهجرة الى تونس فحالت المنية دون تحقيق هذا الأرب .

ومن شعر ابن الخطيب قوله من قصيدة يخاطب بها أبا مالك عبد الواحد بن أحمد اللحياني ابن سلطان إفريقية :

أبا مالك أنت تجل الملـ ـوك غيوث الندى وليوث النزال
ومثلك يرتاح للمكرمـ ـات وما لك بين الورى من مثال

حتى أن من فارقها منهم كان يحنّ إليها ويتمنى أنه لم يفارقها لما يجدونه عند ملوكها ، وفي الأوساط التي يعيشون بين ظهرانيها من التبجيل والعناية بهم ، وإفاضة الإحسان عليهم .

قال أبو الحسن علي بن سعيد أحد الوافدين عليها والنازلين بها لما أحوجته الظروف الى مفارقة تونس سنة 666هـ وجاوز حدودها :

رفيقي جاوزنا حدود مواطن صحبنا بها الأيام طلقاً محياها
وما إن تركناها لجهلٍ بقدرها ولكن ثنت عنّا أعنة سقياها
فسرنا نحث السير عنها لغيرها الى أن يمن الله عنا بلقياها

وقد منّ الله عليه بعد ذلك بلقياها فرجع إليها وبها كانت وفاته .

وقال أيضاً حين كان بمصر في رحلته تلك متشوقاً من قصيدة طالعها :

هذه مصر فأين المغرب مذ نأى عني فعيني تسكب
فارقته النفس كرهاً إنما يعرف الشيء إذا ما يذهب

وقال العلامة ابن مرزوق التلمساني حين ودّع أهل تونس معتزماً الرحلة الى المشرق :

أودّعكم وأثني ثم أثني على ملك تسربل بالجميل
وأسأل رغبة منّي لربّي بتيسير المقاصد والسبيل
سلام الله يشملنا جميعاً فقد عزم الغريب على الرحيل

ولابن الخطيب من رسالة بعثها الى العلامة ابن مرزوق المذكور . وهو إذ ذاك بتونس متفيئاً ظل سلطانها الحفصي ، ومتمتعاً بعناية سكانها ، حيث استقر خطيباً لسلطانها ، يقول فيها ما نصه :

وان لله في رعيك لسراً ، ولطفاً مستمراً مستقراً ، إذ ألقاك اليم الى الساحل ، فأخذ بيدك من ورطة الواحل ، وحرك منك عزيمة الراحل ، الى الملك الخلاحل ،

فأدالك من إبراهيم سمياً ، وعرفك بعد الولي وسمياً ، ونقلك من عناية الى عناية ، وهو الذي يقول ، وقوله الحق «ما ننسخ من آية ...» الآية . وقد وصل كتاب سيدي يحمد – ولله الحمد – العواقب ، ويصف المراقي التي حلها المراقب ، وينشر المفاخر الحفصية والمناقب ، ويذكر ما هيأ الله لديه من إقبال ورضا بال ، خصيصي اشتمال ونشوة آمال ؛ وأنه اغتبط وارتبط ، وألقى العصا بعدما خبط ، ومثل تلك الخلافة العلية من تزن الذوات ، المخصوصة من الله تعالى بشريف الأدوات ، بميزان تمييزها ؛ وتفرق بين شبه المعادن وإبريزها ؛ وشبه الشيء مثل معروف ؛ ولقد أخطأ من قال : الناس صنوف ا هـ .

وقال أبو الحسن بن سعيد المتقدم ذكره في تاريخه **المغرب** ، على ما نقله عنه المقري في **نفح الطيب** ، منوّهاً بتونس بعد أن نوّه بمدينة مراكش ما نصه :

وحضرة مراكش هي بغداد المغرب ، وهي أعظم ما في بر العدوة ، وأكثر مصانعها ومبانيها الجليلة وبساتينها إنما ظهرت في مدة بني عبد المؤمن ، وكانوا يجلبون لها صنّاع الأندلس ، وذلك مشهور معلوم الى الآن . ثم قال : ومدينة تونس بإفريقية قد انتقلت إليها السعادة التي كانت في مراكش بسلطان إفريقية الآن أبي زكرياء يحيى بن أبي محمد ابن أبي حفص ، فصار فيها من المباني والبساتين والكروم ما شابهت به بلاد الأندلس ، وعرفاء صناعه من الأندلس ، وتماثيله التي يبني عليها ، وإن كان أعرف خلق الله تعالى باختراع محاسن هذا الشأن ؛ فإنما أكثرها من أوضاع الأندلسيين ، وله من خاطره تنبيهات ظهر حسن موقعها ، ووجوه صنائع دولته لا تجدهم إلا من الأندلس ا هـ .

ونختم هذا الفصل في الدلالة على ما بلغته تونس من الحضارة ومن بعد الصيت في هذه الحقبة من تاريخها ، وهي المائة السابعة بما قاله ابن خلدون في **تاريخه** أثناء ترجمته للأمير أبي عبدالله محمد المستنصر الحفصي ونصه :

وبلغت المملكة الإفريقية وقاعدتها مدينة تونس أوج العلى وبسطة الملك والتنويه في دولة المستنصر ا هـ .

ثم قال بعد أن ذكر ضمه مملكة تلمسان لسلطانه ما نصه :

وارتحل الى حضرة تونس لسبع عشرة ليلة من نزوله قرير العين بامتداد ملكه ، وبلوغ وطره ، والإشراف على إذعان المغرب لطاعته وانقياده لحكمه ، فتطاولت أعناق

الآفاق إليه ، فدخلت في دعوته إشبيلية من أقاليم الأندلس ، وكثير من أقطارها سنة 637هـ . وبعد دخول التتر لبغداد وانقطاع الخلافة العباسية بها بايعه أمير مكة ، وخطب باسمه ، فاستحق لقب الخليفة للمسلمين ، فأصبحت مدينة تونس قاعدة الخلافة .

وقال ابن خلدون أيضاً : كان شأن هذا السلطان (أي المستنصر) في ملوك آل أبي حفص عظيماً ، وشهرته طائرة الذكر ، لما انفسح من أمر سلطانه ، ومدت إليه ثغور القاصية من العدوتين يد الإعتصام به ، وما اجتمع بحضرته من أعلام الناس الوافدين على أبيه ، وخصوصاً الأندلس من شاعر مفلق ، وكاتب بليغ ، وعالم نحرير ، وملك أروع ، وشجاع أهيس ، متفئين ظل ملكه ، متناغين في اللياذ به لطموس معالم الخلافة شرقاً وغرباً على عهده ، وخفوت صوت الملك إلا في إيوانه . فقد كان الطاغية التهم قواعد الملك في شرق الأندلس وغربها ، فاخذت قرطبة سنة 633هـ ، وبلنسية سنة ست بعدها ، وإشبيلية سنة 646هـ. واستولى على بغداد دار خلافة العرب بالمشرق وحاضرة الإسلام سنة 656هـ ، وأفتك بنو مرين ملك بني عبد المؤمن ، واشتملوا على حضرة مراكش دار خلافة الموحدين سنة ثمانٍ وستين . كان ذلك على عهده وعهد أبيه ، ودولتهم أشد ما كانت قوة ، وأعظم رفاهية وجباية ، وأوفر قبيلاً وعصابة ، وأكثر عساكر وجنداً ، فأمله أهل العلم للكرة ، وأجفلوا للإمساك بحقويه ، وكان له من الأبهة والجلال أخبار ، وفي الحروب والفتوح آثار مشهورة ، وفي أيامه عظمت حضارة تونس وكثر ترف ساكنيها وتأنق الناس في المراكب والملابس والمباني والماعون والآنية ، فاستجادوها وتناغوا في اتخاذها وإفشائها الى أن بلغت غايتها ا هـ .

ولابن خلدون في تاريخه أيضاً فصل عقده لاثار المستنصر مع المصانع والهياكل العظيمة يطول بنقله ذيل الكلام لو سقناه في هذا المقام فليرجع إليه من أراد الإطلاع عليه .

وبيعة الشريف أمير مكة المشار إليها آنفاً لسلطان تونس أبي عبد الله محمد المستنصر هي من إنشاء نزيل تونس ثم مكة المكرمة أبي محمد عبد الحق ابن سبعين الصوفي الأندلسي ذكرها إبن خلدون في تاريخه على طولها تشتمل على ضروب من البلاغة ، وفنون من البراعة ، غير أنه زعم فيها أن المستنصر هو المهدي المنتظر ، وقد كتبت تجاه الكعبة الشريفة في الجانب الغربي من الحرم . وكان الحامل لها الى تونس المحدث الراوية أبو محمد

ابن برطله . ولما وصلت الى تونس اهتز لها السلطان المستنصر ، وأحضر لقراءتها الكافة بالقصبة ، وقام بها خطيباً على منبر جامع الزيتونة قاضي الجماعة أبو القاسم محمد بن براء ، وكان يوماً مشهوداً ، وتسمى المستنصر من ذلك اليوم بأمير المؤمنين ، وأمر أن يذكر ذلك في الخطبة ، ويطبع في الذهب ، وفيها تلقب بالمستنصر بالله ، واختار للعلامة (الحمد لله والشكر لله) . وبايعه الناس لذلك البيعة العامة ، واتبع ذلك بردّ المظالم ، واتفق نزول المطر بعد احتباسه في ثالث يوم من هذه البيعة . وفيها يقول الحافظ ابن الأبار الآتي ذكره :

ان البشائر كلها جمعت ... للدين والدنيا وللأمم
في نعمتين جسيمتين هما ... برء الإمام وبيعة الحرم

وفيها يقول بعض شعراء الحضرة التونسية :

اهنأ أمير المؤمنين ببيعة ... وافتك بالإقبال والإسعاد
فلقد حباك بملكه رب الورى ... وأتى يبشر بافتتاح بلاد
وإذا أتت أم القرى منقادة ... فمن المبرة طاعة الأولاد

كما وافته بيعة صاحب المغرب الأقصى أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق . أما أبوه أبو زكرياء فقد بايعه أهل بلنسية ومرسية وشرق الأندلس وأهل إشبيلية وشريش وطريف والمرية وابن الأحمر صاحب غرب الأندلس وأهل سبتة وطنجة وسجلماسة ومكناسة وبنو مرين . واستنجد به أهل شرق الأندلس لما ضيق عليهم العدو الخناق . من ذلك القصيدة الفريدة السينية التي فضحت من باراها ، وكبا بها من جارها ، لأبي عبد الله ابن الأبار الذي ورد رسولاً عن أمير بلنسية زيان مستصرخاً ، وطالعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا ... إن السبيل الى منجاتها درسا

الى أن يقول في مدح أبي زكرياء :

تدبيره وسّع الدنيا وما وسعت ... وعرف معروفه واسى الورى وأسا
قامت على العدل والإحسان دولته ... وأنشرت من وجود الجود ما رمسا
مبارك هديه . باد سكينته ... ما قام إلا الى حسنى ولا جلسا

ومنه القصيدة الدالية البليغة لأبي المطرف بن عميرة لما تغلب العدو على شرق الأندلس ، ومطلعها :

شاقه غب الخيال الوارد   بارق هاج غرام الماجد

يقول فيها :

أنما آل أبي حفص هدى   للورى من غائب أو شاهد
قعدوا فوق النجوم الزهر عن   همم نبهن عزم القاعد
وعن الإسلام ذادوا عندما   فل طول العهد غرب الذائد

ومنه القصيدة الهمزية الغراء لبعض شعراء الأندلس وأولها :

نادتك أندلس فلبِّ نداءها   واجعل طواغيت الصليب فداءها

الى أن يقول :

وفدت على الدار العزيزة تجتني   آلاءها أو تجتلي آراءها

ثم يقول :

تطمو بتونسها بحار جيوشه   فيزور زاخر موجه زوراءها

وإلى أن يقول :

فئة كرام لا تكف عن الوغى   حتى تصرع حولها أكفاءها
وتكب في نار القرى فوق الذرى   من عزة آلوها وكباءها
قد خلقوا الأيام طيب خلائق   فثنت إليهم حمدها وثناءها
ينضون في طلب النفائس أنفساً   حبسوا على أحرارها إقصاءها

فبادر أبو زكرياء وشحن أساطيله بالمدد الى أهل الأندلس وفيها المال والكسى والأقوات ، فوجدوا العدو قد حال دون ذلك بالصلح المنبرم بين أهل بلنسية وعدوهم ، وعلى أن يسلمهم في أنفسهم . وذلك سنة 637هـ . ثم وقع إجلاء أهل الأندلس عامة بعد تغلب العدو عليهم ، وذلك في شهر رمضان سنة 645هـ وهو سبب هجرة الأندلسيين الأولى .

وهذا أبو عبد الله محمد بن أحمد العبدري ذكر في شأن تونس ما شاهده حين مرَّ بها في رحلته الى الحج سنة 688هـ ، وحين قفل منه قال في رحلته حين مروره بها ذاهباً للغرض المذكور ما نصه :

ثم وصلنا الى مدينة تونس مطمح الآمال ، ومصب كل برق ، ومحط الرحال من الغرب والشرق ، وملتقى الركاب والفلك ، وناظمة فضائل البرين في سلك ، فان شئت أصحرت في موكب ، وإن شئت أبحرت في مركب ، كأنها ملك والأرياض لها إكليل ، وأرجاؤها روضة باكرتها ريح بليل ، إن وردت مواردها نقعت غليلاً . وإن ردت فرائدها شفيت حشاً عليلاً ، جليت بها عروس الغروس ، وحليت بها على ممر الدهر الطروس ، الى أن يقول : فاقت بحسن معانيها ، وإتقان مغانيها ، غيرها من المدن ، وطالت وبسطت بنخوتها وانتحت بسطوتها على قواعد الشرق والغرب وصالت ، وترجم حسنها البهيج ، وعرفها الأريج ، عن معناها لو نطقت لقالت :

أنا الغادة الحسناء فاق جمالها	فآلت يميناً لا خطبت على زوج
إذ الغانيات ارتدن وصل بعولة	فما لي ولا فخر الى الزوج من حوج
أعادي إذا ما شئت ظبياً بقفرة	وأطرق نوء اليم في ظلم الموج
وفي لمكدود الحجيج استراحة	فهم يردون الدهر فوجاً على فوج
وإني الى البيت العتيق لسلم	به يرتقي من في الحضيض الى الأوج

ويقول في شأنها أيضاً ما نصه : وما زالت مدينة تونس كلأها الله ذات ملك وفخامة ، وهي الى الآن دار مملكة إفريقية على ضعف المملكة بها ، وانتهائها الى حد التلاشي ، ومع ذلك فقد أربت على البلاد في كل فضيلة .

ويقول أيضاً حين مر بها قافلاً من الحج ما نصه :

ثم وصلنا الى مدينة تونس — حرسها الله تعالى — وهي كما مر ذكرها ، واستقر عند المؤلف والمخالف شكرها ، وهي مؤنسة كاسمها ، ومسعفة على مقتضى رسمها ، وما أنصف من ذمها بالمحال ، وتعسف عليها فقال :

لعمرك ما ألفيت تونس كاسمها	ولكنني ألفيتها وهي توحش

قلت : هذا البيت لبعض ولاة تونس قاله حين ضاق بأهلها الأباة ذرعاً لمقارعتهم

له على بغية وهم من هم لا يغضون جفونهم على القذى .

ووصف العبدري مبانيها وأرباضها بقوله :

وهذه المدينة كلأها الله من المدن العجيبة الغريبة وهي في غاية الإتساع ونهاية الإتقان . والرخام بها كثير ، وأكثر أبواب ديارها معمول عضائده وعتباً ، وجلُّ مبانيها من حجر منحوت محكم العمل ، ولها أبواب عديدة .

وعند كل باب فيها ربض متسع على قدر البلد المستقل ، لو اتفق أن كان بها ماء جارٍ لكانت معدومة النظير شرقاً وغرباً ، ولكن ماؤها قليل . وفي ديارها مصانع لماء المطر ، وهو المستعمل عندهم . وأما الساقية المجلوبة من ناحية زغوان فقد استأثر بها قصر السلطان وجناته إلا رشحاً يسيراً سرب الى ساقية جامع الزيتونة ، يترشف منها في أنابيب من رصاص ، ويستقي منها الغرباء ومن ليس له في داره ماء ، ويكثر عليها الإزدحام .

ثم إنه بيّن كيف جلب ماء زغوان ووصف الحنايا المجلوب عليها فقال :

وأما الساقية المذكورة فهي من جملة غرائب الدنيا ، وهي قديمة من عمل الروم ، مجلوبة من جبال بجنوبي تونس على مسيرة يومين أو نحوهما في أوعار وأودية منقطعة ، وجبال وآكام ، فإذا انتهوا به الى جبل أو تل خرقوه وسربوا الماء فيه ، وإذا انتهوا الى وادٍ أو وهد بنوا له قناطر بعضها فوق بعض ، حتى يستوي مع مجرى الساقية بصخر منحوت أتقن ما يكون من البناء ، وأغربه وأوثقه حتى يتسرب الماء منها في مستوى معتدل . واتصلت الساقية بهذا العمل حتى دارت من وراء تونس الى الغرب ، وانتهت الى مدينة قرطاجنة ؛ وبينها وبين تونس نحو اثني عشر ميلاً . وهي أي قرطاجنة من أعجب مدن الأرض وأغربها لما يحكى عنها من فرط الإعتناء وغرائب الصنعة ، وحسبك أن هذه الساقية من جملة الإعتناء بها ، وأما الرخام فيجلب منها الى كل موضع بإفريقية قديماً وحديثاً ، ولا يفنيه ذلك منها ، وهي الى الآن داثرة لا أنيس بها ، وأهل تونس يخرجون إليها تفرجاً وتعبداً . والقناطر من تونس إليها معطلة وهذه القنطرة تعرف عندهم بالحنايا ، وهي مما يقصر عنه الوصف لفرط إتقانها وغرابتها . ويذكر أن الروم أقاموا في تدبيرها والنظر في وضعها أربعمائة سنة ، وهذا بعيد .

أما عبيد الله البكري فذكر أن عملها فرغ منه حتى استوى جري الماء في أربعين سنة . وقد كان بعض الأمراء وهو أخو القائم بها الآن احتاج الى إصلاح بعض الحنايا بها

مما يلي تونس ليوصل الماء إليها إذ كانت معطلة قبله فأقام في عملها مجتهداً بأقصى ما يمكنه أعواماً عديدة ولم يمكنه ردّ ذلك على ما كان عليه ولا ما يقرب منه بل اقتنع بتسديده كيفما أمكن ا هـ .

قلت : أمير تونس القائم في زمن رحلة العبدري هو أبو حفص عمر بن أبي زكرياء ابن عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص ، تولى الملك سنة 683هـ . وتوفي سنة 694هـ . وأخوه الذي أصلح بعض الحنايا الرومانية وأجرى فيها ماء زغوان الى تونس هو أبو عبد الله محمد المستنصر أمير المؤمنين تولى الملك سنة 647هـ ، وتوفي سنة 675هـ .

ثم إن العبدري أثنى في رحلته ثناء جميلاً على أهل تونس ، فقال ما نصه :

ما رأيت لأهلها نظيراً شرقاً وغرباً ، شيماً فاضلة ، وأخلاقاً حميدة ، وقد كان الأخلق بمن شاهد أخلاقهم أن يطنب في وصفهم ، ويضرب عمن لم يمنحهم الوداد . ولم ينصفهم ، إذ ذاك من بعض واجبهم وأقل مراتبهم ، ولكن الزمان لا يعين على توفية الحقوق ، ولا يتعمد بالفراغ إلا أهل العقوق . وناهيك ببلد لا يستوحش فيها غريب ، ولا يعدم فيها كل فاضل أريب ، يبدأون من طرأ عليهم بالمداخلة ، ويخطبون منه لفضل طباعهم المواصلة ، فهو منهم بين أهل مشفق ، ورفيق مرفق . وقد كان بعض طلبتها وحسباتهم لازمني مدة الإقامة بها وترك لأجلي مهات أموره ، وعرفني بفضائلها . وكان لا ينفصل عني عامة النهار ، وكثيراً ما كنت أمر بمن لا يعرفني من أهلها فأسأله عن الطريق الى ناحية منها فيقوم من حانوته ماشياً بين يدي يسأل الناس عن الطريق ويدلني ، وهو من أغرب ما يسمع من جميل الأخلاق ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . ولولا أني دخلتها لحكمت بأن الصلاح في أفق المغرب قد محي رسمه ، وضاع حظه وقسمه ، ولكن قضى الله بأن الأرض لا تخلو من قائم له بحجة ، يرى سبيل الحق ويوضح المحجة ا هـ .

ويمدح أهل تونس في معرض المقابلة بينهم وبين من لم يؤتوا ما أوتوه من الفضل ، فيقول ما نصه :

فسبحان من خلقهم وأهل تونس في طرفي نقيض ، أولئك في الأوج وأولاء في الحضيض .

ويشير الى تنوع العلوم بتونس فيقول :

لا تنشد بها ضالة للعلم إلا وجدتها ، ولا تلتمس بها بغية إلا استفدتها .

ثم يقول :

وما من فن من فنون العلم إلّا وجدت بتونس به قائمًا ، ولا مورداً من موارد المعارف إلّا رأيت بها حوله وارداً وحائمًا ا هـ .

أما بيوتات العلم بتونس حين وفود العبدري عليها في القرن السابع ومن لقيهم من رجالاتها المعدودين فقد ذكر منهم بيت التجاني المشتهر كثير من أفراده بالعلم والأدب قال ما نصه :

وبيتهم (أي التجانيين) بالعلم شريف شهير ، وقل منهم ومن نسائهم من لا يقول الشعر ، وأما أبو الحسن فهو فيه آية الزمان إجادة معنى ، وتنقيح لفظ ، وسرعة بديهة ، وكثيراً ما يمليه ارتجالاً فيجود ويتقن . وله مشاركة حسنة في العلم ، ورواية حسنة ، ورحلة الى المشرق ، حج فيها . وهو بالجملة من خواص أهل العلم وآحادهم . جالسته كثيراً . وسمعت كلامه في الأدب وغيره . ا هـ .

وقال أيضاً في شأن أبي الحسن علي المذكور ما نصه :

ولقيت بها ، أي بتونس ، الشيخ الأديب الحسيب الكاتب البليغ . ذا الفضائل المذكورة ، والمآثر المأثورة ، شيخ الأدباء ، وأوحد البلغاء ، وزين الناظمين والشعراء ، أبا الحسن علي بن إبراهيم التجاني التونسي . له بيت عريق في العلم والأدب . قال لي بمسجد إقرائه : أنا الثاني عشر مدرساً من آبائي على نسق كلهم معدّ هنا للإقراء . ا هـ .

ثم إن العبدري ذكر في رحلته جمهوراً من علماء تونس وأدبائها ممن اجتمع بهم فيها ذاهباً حين مروره بها الى الحج أو آيباً منه أثنى عليهم ثناء جميلاً ، كما ذكر ما أخذه عنهم ونوّه بعلمهم وأدبهم وكمال أخلاقهم ، مما يطول إيراده هنا ، كما أثنى أيضاً على من لقيهم بها من عدول ومؤدبين وتجار . انتهى ما أردنا سوقه منها .

وهذه الدولة الحفصية الشامخة القدر ، العاطرة الذكر ، التي امتدت ما يقرب من أربعة قرون : 378هـ سنة أي من سنة 603هـ الى سنة 981هـ . وكما قلنا سابقاً قد بلغت في أول أمرها شأواً قصياً وازدهاراً وبسطة ملك ، ثم أخذت في التدهور والإنحطاط ثم الانهيار والتلاشي . أما عهد قوتها وازدهارها وامتداد سلطانها فهو القرن السابع ، بلغت

فيه منتهى سطوتها ، واكتمل ريعان شبابها ، وازدهار المملكة وعمرانها أما زمن تدهورها فالقرنان الثامن والتاسع ففيهما أخذ الضعف يدب في أوصالها وبداية ذلك من أيّام الأمير الثاني عشر من سلسلة ملوكها وهو أبو يحيى زكرياء بن أحمد بن محمد اللحياني المتولّي الملك سنة 711هـ فإنّ هذا الأمير هيّأ أبرز أسباب انحطاطها وذلك بإشراك رؤساء الأعراب في سلطانه بإقطاعهم البلاد ليكونوا ردءً له وقوة على أعدائه المناوئين فعاثوا في إفريقية فساداً . وكان تدبيره هذا وبالاً عليه ، وعلى من بعده ، قاسوا منه ما قاسوا ، وقاست منه البلاد ما قاست .

أما القرن العاشر فهو الذي انهار فيه ملك بني أبي حفص ، خصوصاً بعد أن صار البعض منهم يستنصر بالإسبان أعداء الوطن الأجانب على البعض . وكان مآل ذلك كما هو طبيعي احتلال الإسبان للبلاد ، وذلك سنة 941هـ ، ومقاسمة السلطة فيها بين الفريقين . وفي الحقيقة لم يبقَ لهم من الملك الا إسمه إلى أن أنقذ الله البلاد ، وأمن العباد باستيلاء سنان باشا على الأيالة التونسية ، وضمها الى بقية أخواتها الممالك العثمانية . وذلك سنة 981هـ ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

هذا وأول من ترجم له المؤلف من علماء وأدباء هذا العصر جد الأمراء الحفصيين وهو :

113 – أمير المؤمنين أبو زكرياء يحيى بن عبد الواحد ابن أبي حفص سلطان تونس

ولد بمراكش سنة 599هـ في عز بيته وشرف قبيله . ولما ولي الأمير أبو محمد عبد الواحد والده إمارة إفريقية نقله صغيراً الى تونس ، فأخذ من علمائها العلم والأدب ، وتعلم أدب الملك والفروسية ، فنشأ مستجمعاً لخلال الرئاسة ، حازماً ، ذا دهاء . له مشاركة حسنة في علم الطب ، راجح العقل ، أصيل الرأي ، حسن السياسة ، موفقاً في تدبيره ، اصطنع الرجال واستكثر من الجنود ، وافتتح البلاد ، فأضاف الى تونس عمل قسنطينة ، وفي سنة 632هـ أضاف الجزائر وعملها ، ثم تلمسان وعملها . وأرسل إليه أهل بلنسية ومرسية وشرق الأندلس ببيعتهم ، كمّا أرسل بيعتهم أهل إشبيلية ، وشريش ، وطريف ، والمرية ، وابن الأحمر صاحب غرب الأندلس ، وأهل سبتة ، وطنجة ،

وسجلماسة ، ومكناسة ، وبنو مرين ، وعظمت الأمنة بينه وبين الخليفة في مراكش من بني عبد المؤمن ، وهو الملقب بالسعيد ، حتى عزم كل منهما على ملاقاة صاحبه وانعقاد الإتحاد بينهما لمصلحة المملكتين لولا ما حال دون ذلك من العوارض . ولي صاحب الترجمة سلطنة إفريقية باستدعاء من الموحدين ، وانعقد له الأمر بمدينة قابس بعد أن كانوا يريدون أن يأمّروا أخاه عبد الله في قصة مبسوطة في التاريخ ، وأولى ولده أبا يحيى مدينة بجاية وأعمالها ، وقلده ولاية عهده سنة 625هـ .

وكان من أهل العلم وكتب له وصيته المشهورة التي لا غنى لأرباب الملك والإمارة عن حفظها والعمل بما اشتملت عليه ، وهي الفريدة في تربية أبناء الملوك ، ونصها :

« أعلم سددك الله تعالى وأرشدك ، وهداك لما يرضيه وأسعدك . وجعلك محمود السيرة . مأمون السريرة . أن أول ما يجب على من استرعاه الله تعالى في خلقه . وجعله مسؤولاً عن رعيته في جليل أمرهم ودقيقه . أن يقدم رضى الله عز وجل وعلا في كل أمر يحاوله وأن يكل أمره وحوله وقوته لله تعالى .

وأن يجعل عمله وسعيه وذبه عن المسلمين وحربه وجهاده للمؤمنين بعد التوكل عليه . والبراءة من الحول والقوة اليه . ومتى فاجأك أمر مغلق . أو ورد عليك نبأ مرهق فريض لبك وسكن جأشك . وارع عواقب أمر تأتيه . وحاوله قبل أن ترد عليه . ولا تقدم إقدام الجاهل . ولا تحجم إحجام الأخرق المتكاسل .

واعلم أن الأمر إذا ضاق مجاله ، وقصر عن مقاومته رجاله . فمفتاحه الصبر والحزامة والأخذ مع عقلاء الجيش ورؤسائهم ، وذوي التجارب من نبهائهم . ثم الاقدام عليه . والتوكل على الله فيما لديه . والإحسان لكبير جيشك ولصغيره . الكبير على قدره ، والصغير على قدره ، ولا تلحق الحقير بالكبير فتجري الحقير على نفسك وتغلطه في نفسه ، وتفسد نية الكبير وتوغره عليك ، فيكون احسانك إليه مفسدة في كلا الوجهين ، وتضيع أحسانك ، وتشتت نفوس من معك . واتخذ كبيرهم أباً وصغيرهم إبناً . واخفض لهم جناح الذل من الرحمة . « وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين » . واتخذ نفسك صغيرة ، وذاتك حقيرة ، وحقّر أمورك ولا تسمع أقوال المغلطين بأنك أعظم الناس قدراً . وأكثرهم بذلاً وأحسنهم سيرة وأجملهم صبراً . فذلك غرور ، وبهتان وزور .

واعلم أن من تواضع لله رفعه الله ، وعليك بتفقد أحوال رعيتك . والبحث عن عمالهم . والسؤال عن سير قضاتهم فيهم . ولا تنم عن مصالحهم ، ولا تسامح أحداً فيهم . ومهما دعيت الى كشف ملمة فاكشفها عنهم . ولا تراع فيهم كبيراً ولا صغيراً إذا عدل عن الحق . ولا تراع في فاجر ولا متصرف إلا ولا ذمة . ولا تقتصر على شخص واحد في جميع مسائل الرعية . ولا تقف عند مراده في أحوالهم . واتخذ لنفسك ثقات صادقين مصدقين لهم في جانب الله أوفر نصيب . وفي رفع مسائل خلقه إليك أسرع مجيب . وليكن سؤالك لهم أفذاذاً فإنك مهما اقتصرت على شخص واحد في نقله ونصحه حمله الهوى على الميل ودعته الحمية الى تجنب الحق وترك قول الصدق .

وإذا رفع إليك أحد مظلمة وأنت على طريق فأدعه إليك ، وسلْه حتى يوضح قصته لك ، وجاوبه جواب مشفق مصغٍ الى قوله ، مصيخ الى نازلته ونقله ، ففي اصاختك له أكبر تأنيس . وللسياسة والرئاسة في نفوس الخاصة والعامة والجمهور أعظم تأسيس .

واعلم أن دماء المسلمين وأموالهم حرام على كل مؤمن بالله واليوم الآخر إلَّا في حق أوجبه الكتاب والسنة ، وعضدته الأقاويل الشرعية والحجة ، أو مسلم عاث في طريق المسلمين وأموالهم ، جار على غيه في فساد صلاحهم وأحوالهم ، فليس الَّا السيف ، فإن غبار وقعه لداء الأدمغة الفاسدة دواء .

ولا تقل عثرة حسود على النعمة ، عاجز عن السعي ، فإن إقالته تحمله على القول ، والقول يحمله على الفعل ، ووبال عمله عائد عليك ، فاحسم داءه قبل انتشاره ، وتدارك أمره قبل إظهاره .

واجعل الموت نصب عينيك . ولا تغتر بالدنيا وإن كانت في يديك . فإنك لا تنقلب الى ربك إلا بما قدمته من عمل صالح ، أو متجر في مرضاته رابح .

واعلم أن الإيثار أربح المكاسب ، وأنجح المطالب ، والقناعة مال لا ينفد . وقد قال بعض المفسرين في قوله عز من قائل ﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ : إنه الثناء الحسن في الدنيا على ما خلد فيها من الأعمال المشكورة . والفعلات الصالحة المذكورة . فيكفيك من دنياك ثوب تلبسه ، وفرس تذب به عن عباده .

وأرجو لك مهما جعلت وصيتي هذه نصب عينيك . لم تعدم من ربك فتحاً ييسره

الله على يديك . وتأييداً ملازماً لا يبرح عنك إلا إليك . بمنّ الله وحوله وطوله والله يجعلك ممن سمع فوعى . وأجاب لداعي الرشد إذا دعا . إنه على كل شيء قدير ، وبالإجابة جدير ، ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ا هـ .

ثم توفي ولي عهده وبلغه ذلك ، فجزع عليه ، وحزن جزناً شديداً . وشخص الى بجاية . فمات بطريقه بعنابة لأربعة أيام خلت من ربيع الأول سنة 646 . وكان شاعراً .

ومما اشتهر من شعره يرثي ولي عهده المذكور :

ألا جازعٌ يبكي لفقد حبيبه ... فإني لعمري قد أضر بي الثكل
لقد كان لي مال وأهل عدمتهم ... فها أنا لا مال لدي ولا أهل
سأبكي وأرثي حسرة لفراقهم ... بكاء قريح لا يمل ولا يسلو
فلهفي ليوم فرّق الدهر بيننا ... ألا فرجٌ يرجى فينتظم الشمل
وإني لأرضى بالقضاء وحكمه ... وأعلم ربي أنه حاكم عدل

وعرض عليه شعراء دولته قصائدهم يمدحونه فشرفهم بشهادة لهم بقوله :

ألا إن مضمار القريض لممتد ... به شعراء الغرب أربعة لدّ
فأما المجلي فهو شاعر جمة ... أتى أولاً والناس كلهم بعد
وأما المصلي فهو حبر قضاعة ... بآدابه تزهى الخلافة والمجد
وأما المسلي فالمعاوي إنه ... أتى ثالثاً لكن يلين ويشتد
وبعدهم الكومي أقبل تالياً ... وكم جاء سباقاً مسومه النهد[1]
هم علماء الناس ما عنهم غنى ... وهم شعراء الملك ما منهم بد

ولنذكر مراتب الخيل في الحلبة عند العرب بمناسبة ذكر السلطان أبي زكرياء لها في شعره مع بيان وجه التسمية تتميماً للفايدة فنقول :

إن مراتب الخيل في الحلبة عشرة :

---

(1) النهد : الفرس الجميل -

المجلي وهو السابق ، سمي بذلك لأنه جلّى عن وجه صاحبه الكرب .

والمصلي بعده لأنه وضع جحفلته على صلا المجلي ، والصلا عجب الذنب ويسمى قطاة .

والمسلي ثالث ، سمي بذلك لأنه يسلي عن صاحبه بعض همه .

ثم التالي سمي بذلك لأنه تلا المسلي .

ثم المرتاح ، وهو الخامس أخذاً من الراحة ، وهي الكف ، وفيها خمسة أصابع .

ثم الحَظي لأنه ينال حظاً وإن قل .

ثم العاطف وهو السابع .

ثم المؤمل لدخوله حجرة الرهان لأنها لا يدخلها إلّا ثمانية ويذاد عنها التاسع والعاشر .

ويقال للتاسع اللطيم لأنه لو أراد دخول الحجرة لطم عنها .

ويقال للعاشر السكيت لأن صاحبه يعلوه الخشوع والذلة والسكوت . وكانوا يجعلون في عنق العاشر حبلاً ، ويركبون عليه قرداً يركضه يعيّرون بذلك صاحبه[1] .

ومن شعره أيضاً ما كاتب به كاتبه أبا العباس أحمد بن محمد الغساني صحبة خوخ بعث به إليه :

بعثت بها إليك بنات أيكٍ ... غذاها في الثرى در القطار
لها لونان مخضر عظيم ... وآخر قانىء كالجلنار
ولم تنظر أبا العباس حسناً ... يروقك كاخضرار في احمرار
كمثل الخد أحجمه التلاقي ... فأصبح ورده مثل النضار

114 – محمد بن علي بن محمد بن شبّاط التوزري

ترجم لنفسه في شرحه لتخميس قصيدة الشقراطسي اللامية ، فقال : إن أصله من

(1) أما الشعراء الذين يقصدهم فيأتي ذكرهم في ترجمة ابن عربية .

روم توزر الذين أسلموا ومنّ الله عليهم بهذا الدين القويم . ورحل أبوه علي من توزر فأقام بمدينة قسنطينة ، وولد صاحب الترجمة بها ، ثم رجع به أبوه الى توزر . وهو ابن أربع سنوات ، فنشأ كسلفه في طريق اكتساب العلوم والأدب ، فأخذ عن علماء توزر ولم يأخذ عن غيرهم ، فبرع في العلوم وأصبح إماماً فيها ، انتفع به الناس . واقتبسوا من معارفه .

وكان شاعراً مفلقاً ، من شعره تخميس القصيدة الشقراطسية ويقال : إنه شرحها بثلاثة شروح كبير ووسط وصغير ، كلها جليلة الفايدة ، خصوصاً الكبير والوسط دلّ على تبحره في العلوم . فإنه يتكلم على البيت من جهة اللغة والصرف والنحو والمعاني والبيان والبديع والآثار والتاريخ ، ومن كل علم يمس شرحها . فكان نزهة الناظر . وعنواناً على ما كان في تلك الأعصر من بحور العلم الزاخرة بإفريقية . ابتدأ في الشرح سنة 663هـ في أواخر جمادى الأولى . وتوفي ليلة السبت في 11 ربيع الثاني سنة 681هـ .

وطالع التخميس :

إبدأ بحمد الذي أعطى ولم تسل — وذد به ريب رين الأين والكسل[1]
فالحمد أحلى جنى من طيب العسل — الحمد لله منا باعث الرسل
هدى بأحمد منا أحمد السبل

خلاصة النضر من نضر ومن مضر — وأول الخلق تشفيعاً بلا نظر
من لا نظير له في رأي ذي نظر — خير البرية من بدو ومن حضر
وأكرم الخلق من حافٍ ومنتعل

أنباؤه صادقُ الأنباء صدقها — سلمان أسلم لما أن تنشقها
وقَس مسكها قُس ففتقها — توراة موسى أتت عنه فصدقها
إنجيل عيسى بحق غير مفتعل

كم أمّ شرعتها من أمة وردت — خصت بأسرار ذي الإسراء وانفردت
وسرها ما روت منها وما سردت — أخبار أحبار أهل الكتب قد وردت
عمّا رأوا أو رووا في الأعصر الأول

---

(1) رين : غشاوة ؛ الكسل : الإعياء –

وإتماماً للفائدة أنقل هنا ترجمته التي ذكرها محمد ابن رشيد السبتي وإن كان فيها بعض مخالفة لما تقدم ، وحاصلها قوله رحمه الله :

115 – أبو عبد الله محمد بن علي المصري التوزري المعروف بابن الشبّاط

أحد أعلام العلماء ، وصدور القضاة الفضلاء ، له معارف جمة ، وتصانيف مفيدة ، وكان زاهداً فاضلاً ، نفع الله به . مولده بتوزر ليلة الخميس السادس والعشرين من شعبان المكرم عام ثمانية عشر وستمائة ووفاته يوم السبت حادي عشر ربيع الأخير سنة إحدى وثمانين وستمائة .

شرح قصيدته التي خمس بها الشقراطسية في مجلدات عدة . من شعره ما قاله لما ولد عندهم بتوزر ليلة غرة رجب عام أربعة وسبعين وستمائة جدي أسود غرته بيضاء ، وفيها مكتوب بالأسود بخط بيّن يقرؤه كل أحد ، وأنه ألّف في ذلك تأليفاً سماه **الغرة اللائحة والمسكة الفائحة في الخطوط الصمدية والمفاخر المحمدية** ، وأنه نظم في ذلك قصيدة منها هذان البيتان :

جدي غدا كالجدي أشرق حسنه فمحله فوق السماك الأعزل
رقمت يد الأقدار صفحة خده رقماً بديعاً باسم أكرم مرسل

116 – أبو زيد عبد الرحمان بن محمد بن إبراهيم الأصولي

عالم جليل ، وشاعر نبيل . انتفع الناس بعلمه إقراء وتأليفاً .

ومن تآليفه **نكت الناقد في الأدب** .

ومن شعره الجيد يمدح السلطان أبا زكريا يحيى الحفصي ، ويصف واقعة يعقوب الهرغي الثائر بطرابلس عليه بدعوى المهدوية ، فعوجل أمره وأخذ مع فئته وقتلوا سنة 693هـ . وصلب على باب هوارة من أبواب طرابلس ، وأُتي برأسه فنصب على سور قصبة تونس مع رؤوس الثائرين معه :

لقد عجلت للفاطمي فطامه ... وما سوغته درها البيض والسمر
رجا رفعة فاعتاض منها بمنصب ... نماه به للجذع منصبك الحر
يرى شرفات السور قد قمن نحوه ... يصخن لأمر منه أكذبه الأمر
ضحا فلحرّ الشمس لفح إهابه ... وللريح لا للرّوح في جسمه كر
أتى رهبة لما دعوت إجابة ... فجرده من ثوب نعمتك الكفر
وجاءك منه بعضه متنصلاً ... وخلّف بعضاً حيث لا جاده قطر
يناجي أخاه لا بقول يبثه ... وهيهات عزّ السر فحواه والجهر
فدونك يا يعقوب عقبى منافق ... الى النار عقباها إذا ضمّك الحشر

117 – أبو محمد عبد الحميد بن أبي البركات بن عمر ابن أبي الدنيا الطرابلسي التونسي

ولد بطرابلس سنة 606هـ في منتصف شعبان ، وطلب العلم والأدب ، فبرع في العلوم . وله رحلة الى المشرق للحج ، لقي فيها فضلاء ، واستوطن تونس في مدة الأمير أبي زكرياء ، فأقام بها زماناً ، وعهد إليه بناء مدرسة طرابلس المعروفة بالمنتصرية ، فبناها على أحسن شكل وأظرفه ما بين سنة خمس وخمسين وثمان وخمسين وستماية .

كان في أثناء اقامته لذلك بطرابلس يقرئ العلوم .

وممن قرأ عليه وانتفع به الأستاذ الكبير الإمام الحافظ أبو فارس عبد العزيز بن عبد العظيم الطرابلسي . قرأ عليه كتاب **الإرشاد** لأبي المعالي ، وبعض كتاب **البرهان** له ، وجملة من **المستصفى** للغزالي .

ثم استدعي الى تونس فولي بها الخطط الرفيعة من قضاء الأنكحة والجماعة والخطابة بالجامع الأعظم جامع الزيتونة وغير ذلك من الخطط .

وله تصانيف منها عقيدته الدينية وشرحها ، ومنها كتاب **حلى الإلتباس في الرد على نفاة القياس** ، وكتاب **مزكي الفؤاد في الحض على الجهاد** .

توفي بتونس يوم الجمعة الثاني والعشرين من ربيع الأول سنة 684هـ .

وكان شاعراً ، من شعره :

طرق السلامة والفلاح قناعة ولزوم بيت بالتوحش مونس
يكفيه أنساً أن يكون أنيسه آي القرآن ونوره في الحندس
وإذا رأت عيناه إنساناً أتى فلينفرن نفور ظبي المكنس
ولقلما ينفلك صاحب مقول من زلة أو عثرة في المجلس
تحصي وتكتب والجهول مغفل حتى يراها في مقام المفلس

وأظهر له الخليفة المستنصر في بعض الأوقات تغيراً ، فكتب إليه يستعطفه :

أمولاي ما زلتم تنيلون عبدكم ضروباً من النعماء جلت عن المثل
ولم يبق إلّا العفو وهو أجلّ ما ينال فأكمل لي به منحة الفضل
فما العيش في الدنيا بغير رضاكم بصاف ولا طعم الحياة بمحلول
وقد كدر الإعراض صفو معيشتي فأنكرت أحوالي فأنكرني أهلي
ولي أمل يقضي بغفران زلتي وبالعفو عن جرمي وبالصفح عن فعلي
بقيت تزيد الملك عزاً ورفعة وتحيي رسوم الفضل والدين والعدل
ولا يخطئني منك عفو ورحمة فإنهما ما أخطأ أحداً قبلي
وصلى إله العرش بدءا وعودة على المصطفى من خلقه خاتم الرسل

وذكر التيجاني في رحلته أن له قصيدة طويلة طالعها :

بحمد الله نبتدىء الأمورا ونختم آخراً فيها الحبورا

118 – أبو علي الحسن بن موسى بن معمر الهواري الطرابلسي التونسي

ولد بطرابلس سنة 609هـ ونشأ في طلب العلم والأدب ، فقرأ بها يسيراً . ثم توجه مع أخيه أبي موسى الى المهدية للقراءة بها على أبي زكرياء البرقي ، فلزماه مدة ، ثم عاد أبو موسى الى طرابلس ، وأقام صاحب الترجمة ملازماً للبرقي، وتفقه عليه . واختص به اختصاصاً كثيراً ، ثم استوطن تونس . وكان فقيهاً مُفوهاً خطيباً لسِناً غير أنه كان في لسانه فضول ، كثر امتحانه به . وترقى في دولة الخليفة المستنصر الحفصي ، فولي خطة القضاء في كثير من بلاد إفريقية ، منها ، بجاية وباجة ، وغيرهما ، وولي خطة العلامة الكبرى ، وخطة الأرباع ، والنظر في خزانة الكتب ، وتغير الخليفة عليه فنفاه الى المهدية سنة 667هـ . ثم وقع الرضى عنه بعد عام ، وتوجه الأمر بتسريحه سنة 668هـ . ولما مات الخليفة المستنصر وولي ولده الواثق استدعى صاحب الترجمة سنة 675هـ ، وأمره بالنظر في خزانة الكتب . وسئل عنها حين كانت لنظره أولاً ، فذكر أنها كانت ثلاثين ألف سفر ، وأنه أخذ عنها . ثم أعيد لها ، فوجدها عشرين ألف سفر ، وأنه الآن اختبرها فوجدها تقصر عن ستة آلاف سفر ، فسئل عن موجبه فقال : المطر وأيدي البشر . واستمر على النظر فيها الى أن تغير عليه رئيس الدولة أبو الحسن بن أبي مروان في بعض القضايا ، فأمر بتثقيفه بدار الاشراف مدة ، ثم أخرج . وتوفي بتونس في جمادى الثانية سنة 682هـ .

وله شعر كثير . من شعره مجيباً لأبي عبد الله محمد الفضيلي لما هنأه بسراحه من ثقافه بدار الاشراف ، وكان قد ثقف معه ، وأنشده مرتجلاً :

لئن سرني فك الإسار من الحبس　　　لقد ساءني فقدي لما فيه من أنس
ولو أنني خيرت فيما أريده　　　لآثرت تقديمي سراحك عن نفسي

وأنشد بعض الناس في مجلسه قول أبي الوليد الباجي :

مضى زمن المكارم والكرام　　　سقاه الله من صوب الغمام
وكان البر فعلاً دون قول　　　فصار البرّ نطقاً بالكلام

فأنشد صاحب الترجمة متمماً عليهما :

وزال النطق حتى لست تلقى　　　فتىً يسخو بمرجوع السلام

وزاد الأمر حتى ليس إلا سخي بالأذى أو بالملام

ومن شعره قوله :

لولا إحورار جفون أودعت سقماً ما أمطرت سحب أجفاني الدموع دما
ولا نثرت عقيق الدمع في طلل منه أذاع الذي قد كان مكتتما
شمل السلو شتيت بعد بعدكم وطالما كان قبل اليوم ملتئما
البين يقطع منه كل متصل والشوق ينثر منه كل ما انتظما
والوجد شادٍ بجسمي ما يهدّمه آه على ما بنى فيه وما هدّما
يا من يلوم على ما حل من أسفي هذا اليسير من الأمر الذي كتما
ما خطط النوم في جفني رسم كرى إلا محا السهد ما قد خطّ أو رسما
أنبيكم أنني من يوم بينكم ما زلت للسهد والتذكار ملتزما
أرتاح إن هب ريح من جنابكم أو لاح برق بذاك الأفق وابتسما
أما ومن قدر الأشياء مقتدرا وحبكم وكفى بالحب لي قسما
ما رام قلبي اصطباراً بعد بعدكم ولا تأخر بي عن وجده قدما

ومن شعره وقد أبل الخليفة من مرض :

الله أنعم بعد اليأس بالفرج يا أزمة الدهر عند الشدة انفرجي
شكر الخلايق لا يكفي لأيسرها كفى وسكن من هرْج ومن مرج
بقا الأنام بإبقاء الإمام فكم بصونه صين من مال ومن مهج
إذا رعى الله للإسلام راعيه لم نأس من فقد ذي قدر ولا همج

ومن شعره أيضاً وقد قدم صديق لم يتمكن من زيارته فكتب إليه :

كتبت ولولا الحكم كنت إليكم من الشوق في متن الرياح أطير
وإن يسيراً أن أسير مسلّماً إليكم على وجهي وذاك يسير
وما في صميم القلب من خالص الوفا فسيّان فيه غيبة وحضور

ومن شعره قوله :

آهاً نردد لو تشفي لنا كرباً وبالتعلات نحيا لو قضت أربا

وبالأماني ينال القلب بغيته | وقد تحقق من معتادها كذبا
يرتاح إن لاح برقٌ من جهامتها | وما تراءى له إلا وقد ذهبا
يسر إن مد يوماً حبل بغيته | وما تطاول إلا جذ وانقبضا
إن عز ما يبتغيه فهو في هرج | ويختشى الفقد إن ما يبتغي قربا
وارحمتاه لقلبي كم أجشمه | أمراً يذيب من الأصلاد ما صلبا
وكم يعاني ملمات بأيسرها | يهون المرء من دنياه ما صعبا
وكم تلجلج من أفكاره لججاً | سوداً توجج في أحشائه لهبا
وكم تهب سموم من تنفسه | لو استمرت لما هبت نسيم صبا
أستغفر الله لا أشكو الزمان ولا | أبدي إذا طرقت أحداثه رهبا
ولا أئن لحظٌّ منه أعوزني | ولا أسر إذا ماء المنى انسكبا
أني يسر لبيب إن رأى حلماً | وكيف يطرب من خمر الفنا شربا

119 – أبو القاسم محمد بن علي بن عبد العزيز بن البرا التنوخي المهدوي

ولد بالمهدية سنة 580هـ. ونشأ في طلب العلم والأدب ، فنال الحظ الأوفر ، فكان أحد العلماء الأعلام الحفاظ المشاركين في أنواع العلوم . وكان في أول أمره زاهداً في الدنيا وأبنائها معرضاً عن ملوكها . ثم جرت له محن آلت به إلى مراجعة ما كان معرضاً عنه من الدنيا . فحين أقبل عليها أقبلت عليه . فانتهت إليه بالحضرة التونسية رئاسة العلم ورئاسة القرب من السلطان . وله رحلة للمشرق للحج سنة 622هـ. سمع فيها من جماعة من أفاضل العلماء بالمشرق في الحرمين والقاهرة والإسكندرية . توفي بتونس سنة 677هـ.

ومن شعره وقد ضربت الدنانير العشارية والخماسية سنة 673هـ يمدح المستنصر الحفصي :

بدا الذهب الإبريز من كف ماجد | سمي بالمعالي والكبير كبير
أما قد ترى الأملاك يقصر قدرها | إذا ذكرته والصغير صغير
وتحتقر الدنيا بأجمعها لدى | ندى راحتيه والحقير حقير
«لقد جلّ منه ملكه واعتلاؤه | فليس يضاهي والخطير خطير»

120 – ولده القاسم بن محمد بن علي التنوخي

قال أبو محمد عبد الله التجاني في التنويه به ما نصه : سري النفس علي الهمة حسن الأخلاق وهو الآن يعني سنة 708هـ مخطط بخطة العلامة الصغرى بالحضرة التونسية من أهل المائة الثامنة .

وله شعر ، منه قوله متغزلاً وهو شعر ضعيف :

تبدت فقال القوم قد طلع البدر ... فتاة بقتل العاشقين لها خُبر
سرت فأسرت في فؤاد محبها ... سراير وجدٍ يستبين بها السر
وأحيته إذ حيت ومنت بأمنها ... لنفس كئيب كاد يتلفه الهجر
لها الله من فتانة الحسن طرفها ... يقصر عنه النبل والبيض والسمر
إذا ما بدت طاشت عقول ذوي النهى ... فتقتحم البلوى ويستعذب المر
فكم سلبت لُبّاً وكم أولهت ضنىً ... وكم فعلت بالعقل ما تفعل الخمر
وكم نقضت عهداً وكم عقدت جفاً ... وكم وعدت لكن شيمتها الغدر
ومهما شكوت الحب قالت هو الهوى ... فأوله قرب وآخره قبر

121 – الكاتب أبو العباس أحمد بن إبراهيم القيسي اللُّلياني[1]

نشأ في طلب العلم والأدب ، وكان أبوه مشتغلاً بأعمال المهدية السلطانية ، فسمت همة ابنه أبي العباس لطلب العلم ، فلازم الإمام أبا زكرياء البرقي حتى برع في العلوم ، فكان فقيهاً[2] ، عالماً أديباً شاعراً . ثم نهض للحاضرة التونسية ، فولي بها الأعمال الجليلة . وساعده القدر فبلغ من الرئاسة في الدنيا الغاية القصوى ، غير أنه كان يحدّث نفسه بأمور كثيرة وأعمال كبيرة دلّ عليها قوله :

---

(1) منسوب الى للياتة قرية من قرى المهدية .
(2) قال التجاني : وهو أحد شرّاح المدوّنة .

في أم رأسي حديث لسامعٍ ليس يبصر
فإن تطاول عمري وساعد الجد يظهر
أرى جموعاً صحاحاً ومذهبي أن تكسر

فنمي عنه للخليفة المستنصر. وصادف أن شاع في العامة : ويل للأمة من سبع جمة [1] . فلما كان شهر المحرم سنة 659هـ دخل أبو العباس أحمد بن إبراهيم الغساني على الخليفة المستنصر الحفصي ، وكان ذلك اليوم يوم مطر ، فقال الخليفة مستدعياً للإجازة : (اليوم يوم المطر) أجزيا أحمد فقال (واليوم رفع الضرر) ، فتنبه الخليفة لما سمع وقال : إيه فمّا بعد هذا فقال (والعام عام تسعة . كمثل عام الجوهري) . وكان القبض على الجوهري وقتله سنة 639هـ ، فكانت هذه الإجازة سبباً في القبض على اللياني ، فطولب بدفع الأموال فصار يدفعها شيئاً فشيئاً ، فلما استخلص ما عنده عذب الى أن مات في شهر المحرم من العام المذكور . وكان استصفاء ماله للدولة أحد أسباب حرب ملك فرنسا لويز للخليفة المستنصر فإن صاحب الترجمة لما توفي أدّعى تجار الفرنسيس أنه استدان منهم نحو الثلاثمائة ألف دينار ، وطالبوا المستنصر بقضائها ، ورأى الخليفة أنه لا مستند لهم في دعواهم فاشتكوا لملكهم ، ورغبوه في حرب تونس ، فكان ذلك أحد أسباب الحرب التي قصها علينا التاريخ ، فكان سفك دمه سبباً في إراقة دماء غزار ، ورضي الله عن الخليفة الأول سيدنا أبي بكر الصديق ، فقد كان يمسك لسانه ويقول : هذا الذي أوردني الموارد ، ونعوذ بالله من بطانة السوء ، وعسف الأمراء .

ومن شعر اللياني :

هذا العذيب وهذه نجد أين الذي يقضي به الوجد
ما هكذا حال المحب إذا أعلام ربع حبيبه تبدو
سرّح دموع العين مبتدراً وبذكر ماضي عهدهم فاشد
والثم على شغف مواطئهم إن عاق عن مقصودك البعد
لم أنس يوم وداعهم سحراً والدمع ينثر درّه العقد
هز الصبا أغصان بانهم فتعانقت وتواجد الرند

---

(1) جمة : إسم موضع المهدية .

هذا العنيب بدت لنا علب في ظلها قد خيم المجد
لا يخفق المسعى إذا خفقت أعلامها بل ينجح القصد
فعسى اللقاء يكون مقترناً إن أنجدت كلفاً بها نجد
ولعل ما نرجو يجود به كف الزمان ويسعد الجد

ومنه قوله :

شادن في القلب مرتعه خصه في الحسن أبدعه
لامني فيه أخو سفهٍ بملامٍ لست أسمعه
رُدّ لي قلبي لتعذ له فهو في كفيه أجمعه
هل يُرى دهر يجود به بعدما قد كان يمنعه
وشقيق النفس يتحفني بحديثٍ جلّ موقعه
لفظه در يساقطه وبناني السمع يجمعه

ومن شعره قوله :

خلياني يا صاحبي ونجداً هجتما بالملام شوقاً ووجدا
فلنجدد بين الجوانح وداً مستجداً ما دام ربعاً لسعدى
لا تقولوا من أم سعدى بعيد رُبّ سعدٍ أتى فقرّب بعدا
أهل ودي ما حدت عن حفظ عهدي وهواكم ما غير النأي عهدا
كيف أنسى عهداً كريماً وأنساً بذلا لي من خالص الود شهدا
أرشفاني ما شفّني وشفاني من برود أحبب بذلك وردا
خير عيشٍ مصقولٍ تلك الليالي حبذاه من طيب عيش مفدى
إذ يعاطيني المدامة بدر يخجل البدر نوره إن تبدى
إنّ ديني ومذهبي للتصابي لا أرى غيره مدى الدهر رشدا
فاغتنم رابحاً مسرة يوم ولتبادر سير الزمان مجدا

122 – أبو عمرو عثمان بن عتيق بن عثمان القيسي المعروف بابن عريبة المهدوي

من أعلام العلماء ، كان حافظاً للحديث ، مقدماً في علوم الأدب ، فحلاً من

فحول الشعراء . اشتهر صيته ، وانتشر علمه . له التقدم في الفضائل . ولد بالمهدية سنة 600 ونشأ في طلب العلم ، وله التصانيف المفيدة منها : كتاب **جوامع الكلم النبوية** على طريقة بديعة ، وكتاب **الزهرة في مسند العشرة** ، وكتاب **آثار السحابة في أشعار الصحابة** ، وكتاب **سنن القوم في أدب الليلة واليوم** ، و**المستوفى في رفع أحاديث المستصفى** ، وديوان نظمه المسمى بـ **قصائد المدح وقصائد المنح** ، وغير ذلك من التآليف . خمّس القصيدة الشقراطسية ، وهو سبب وصوله الى الأمير أبي زكرياء الحفصي ، فاستدعاه وأكرمه وأجازه بجائزة سنية . ثم استدعاه مع جماعة من خواصه وشعرائه لنزهة في رياضه المسماة بأبي فهر ، فنظموا في وصفه قصائد ، ورفعوها الى حضرته ، فأجابهم عنها بأبياته المتقدم ذكرها في ترجمته التي مطلعها :

ألا إن مضمار القريض لممتد ... به شعراء السبق أربعة لد(1)

وأراد بشاعر جمة الذي حكم له بالسبق هو صاحب الترجمة . وأراد بحبر قضاعة أبا عبدالله محمد بن الأبار . وأراد بالمعاوي الخطيب أبا القاسم بن محمد بن معاوية اليحصبي كنيته اسمه . وأراد بالكومي أبا زكرياء يحيى بن محمد بن الغليظ .

ولي صاحب الترجمة قضاء تبرسق ، وتوفي وهو قاضٍ بها ثامن عشر المحرم سنة 659هـ ، ودفن بجبل الرحمة هناك .

وشعره مدوّن . ومن شعره يذكر المهدية ويتشوق إليها والى من خلفه بها من أهله وذلك بعد انتقاله منها الى حضرة تونس :

أقول لركب قافل عن معرس ... بجمة تردي بالحمول مساحجه(2)
لك الله أمتعنا عن البلد الذي ... أكابره أسلافنا وأبالجه
وعن وطن لولا العلى وطلابها ... لعز على مثواه أني خارجه
وعن رسم إيوان تداعت عراصه ... ودكت حناياه وخرت معارجه
وما صنع القصر العبيدي والحمى ... وسور المصلي والكثيب وعالجه

---

(1) راجع بقية الدجيات في ترجمة أبي زكرياء أعلاه .

(2) معرّس : موضع النزول آخر الليل ؛ الحمول : المودج ؛ مساحجه : دوابه المسرعة .

وشاطئه أنى تنوع حسنه وخضرمه أنى تدفق مائجه
سلام على المهديتين ففيهما أب بنت عنه قاصر الخطو هاجزه [1]

وله في ذلك من قصيدة يمدح بها الأمير أبا زكرياء ويطلب منه ولاية قضاء بلده :

ذكرت جمة والذكرى تهيجني وأين جمة مني والمستير
وما مناي لياليها التي سلفت ولا مناي مجانيها المعاطير
لكن بها رحم محفوفة يئست من أن تقربني منها المقادير
فإن رأى من أدام الله نعمته عليه لي خطة فيها فمأجور

وله :

نسيم الصبا حدّث عن البان والحمى وعن ساكني حزوى من الخرد الدمى
وعن معهد أقوى من العفر والمهى وعن ركب جيران الغضا أين يمما
أيمم ذات البان أم بطن رامة أم الجزع أم بالأجرع الفرد خيما
ألا فرعى الله الحمى ونسيمه وإن جل ما ألقاه من جانب الحمى
وتيمكم يا أهل نجد فإنني أراكم تلومون المشوق المتيما
أما ولمى لعس الدمى لو لحظتم طلاً بالحمى طلت لواحظكم دما
وذياكم الثغر الذي يستبي النهى تبسمه ما كنتم لي لوما
هجعتم ومن لي بالهجوع فربما ألم به منكم خيال فسلما
أيطرق جفناً بات مني ساهراً ويترك أجفاناً لكم يتن نوما
أغر شنيباً ما أعيذب ثغره وأحلى أليفاظاً وأندى وأرخما

منها :

هو الظبي لكن لا أسمّيه باغماً إذا رشأ ناغاه بل متكلما
تبدي لنا والبدر ليلة تمه فلم أدر من بدر الدجنة منهما
هل النهج الأضوى الذي استكمل السنا أم الغنج الأحوى الذي راق مبسما
ولما استطار البرق قلت لصاحبي أقلبي هفا أم ثغره قد تبسما

(1) هاجزه : متقاربه .

أعار وميض البرق حسن ابتسامه | وما ذا عليه لو أعار له اللما
تعلّم منه خلب البرق خلبه | فمن أيما برق تراه تعلما
تجنى فجئنا خضعاً لجلاله | عسى عطفة نحظى بها ولعلما
يهز الصّبا والدل معطفه كما | تهز الصّبا الغصن الرطيب المنعما
فأبنا وخلفنا طيور قلوبنا | على ثغره العذب المقبّل حوّما

ومن شعره قصيدة هنأ بها الخليفة المستنصر وعزاه في أبيه الأمير أبي زكرياء ، كل بيت منها جمع فيه بين التهنئة والتعزية ، وأولها قوله ، وهو من البحر الطويل :

يلذ الزمان للفتى ثم يوقع | يضرر هذا الدهر ثمت ينفع
لئن قد طوى طود الإمامة مغرب | فلقد جلا شمس الخلافة مطلع

وهذا المصراع الثاني من البسيط . ثم قال كذلك :

فأضاء بالمرحوم ذلكم الثرى | وأنار بالمنصور ذاك المرتع
بسطوا لسان الذكر فيمن بايعوا | وثنوا عنان الصبر فيمن ودّعوا
ورأوا جلال محمد فتباشروا | وتذكروا يحيى الرضي فتفجعوا

123 – ابنه عتيق بن أبي عمرو عثمان بن عتيق القيسي

قال التجاني في الرحلة في تحليته ما نصه : رغب في الطب . وتقدم في حفظ المسائل الفقهية ، وتوجه الى المشرق ، فتخطط هناك ، من رجال الثامنة .

وله شعر حسن ، منه قوله :

يا واحد الحسن أنت السمع والبصر | عطفاك إن فتكت عيناك لي وزر
أبعد ما كان ليلي كله سحراً | صيرته بالتجني ما له سحر
قد رقّ لي في الهوى كل الأنام سوى | من حاز رقي وما لي عنه مصطبر
فإن شكوت له يفتر مبتسماً | عن عشرة قد حواها ثغره العطر
طلع أقاح صباح جوهر برد | در حباب لجين بارق زهر

ولما قضى فريضة الحج وأقام مجاوراً بمكة كتب الى أهله بتونس :

حججت وزرت المصطفى خاتم الرسل نبي الهدى ذا المجد والجود والفضل
ومرغت خدي في مواطيء نعله وقابلت ذاك العز مني بالذل
ومتعت ألحاظي برؤية سيد سري كريم طاهر الذات والأصل
وبوأت نفسي من معادن مكة مكاناً عن الدنيا بأجمعها يسلي
أقام بها قوم يناجون ربهم وقد نبذوا كل العلائق والشغل
فدعوتهم مقبولة وصلاتهم بألف كما قد جاء عن سيد الرسل
وما زلت فيها داعياً متضرعاً لنفسي والأخوان والصحب والأهل

124 – أبو يعقوب يوسف بن علي بن عبد الملك ابن السماط البكري المهدوي

ولد بالمهدية سنة 613هـ ، فطلب العلم والأدب ، وبرع في المعارف ، وتفوق في الأدب .

وكان عالي الطبقة في الشعر . قال التجاني : قصر شعره على مدح رسول الله ﷺ ، فلا يوجد له في غير ذلك شعر إلا التافه النزر مما قاله في صباه . وشعره مدون مشهور . توفي بالمهدية سنة 690هـ في شعبان .

من شعره في ذلك الغرض الرفيع :

سريتم وطَرفي من كرى العزم ما هبَّا وطرف انتهاضي في مدى الحزم ما خبَّا
وثرتم طلاب العزم من دون قاصد قصاراه ذيل الذل يسحبه سحبا
وأخطيتم هالاتكم من بدورها فما عوضت إلا الغياهب والسحبا
وعاني هواكم لا معين له سوى صدى صوته في الربع ما ردد الندبا
ولي مهجة تفنى لتذكاركم أسى وجفن يراعي في مراكبها الشهبا
رحلتم وغادرتم غريباً غروبه تصب مصون الدمع مذ غبتم صبا
وخلفتم داء التواني محالفي وإني لبادي السقم أن يدرك الركبا
وهيجتم هيج الغرام فأنتجت لكم من فحول الصدق في قصدكم نجبا
فسارت وحاديها احتدام زفيرها فما ميزت وعراً ولا فدفداً رحبا

وسيقت وما قاست كلالاً ولا وحبى وقد سُقتم مع كل راحلة قلبا[1]
وما أدلجت تثني الى العشب ليتها ولكنّ في وادي العقيق لها شعبا
فهم جيرة أُخلِق براجي جوارهم ولو باد في البيداء أن يحمد الغبا
منيف على السبع الطباق علاؤهم وإن أسكنوا فيما يراه الورى الترُبا
دعوكم ولم يرضوا سماعي دعاءهم ولو أسمعوني كنت أول من لبّى
ومن كان حفظ العهد سيماه أقبلوا عليه وإلا أسبلوا دونه الحجبا
ومن كفلت أيدي العناية رعيه حمته المقام الرحض والمرتقى الصعبا
ومن عاقه نيل المقادير لم تطق بأرض المنى أقدام إقدامه قربى
على أنني لا أنزل اليأس ساحتي وقلبي على بعدي بهم يهم حبا
وقد جاء أن المرء مع من أحبه عن الصادق المصدوق فيما به أنبا
فحسبي رجائي أن يمنّوا بعطفهم وأن يعقبوا للبعد من وصلهم قربا
ولَمْ لا ونيران القِرى في ذُراهم تنادي الى ناديهم العجم والعربا
ولا غرو أن يلقى الطفيلي ماجد بوجه به يلقى المعارف والصحبا
وإن هم جفوني سوف أهدي إليهمُ سلامي لعلي بالرضى منهمُ أحبى
ومَن صَدّ عنه الحب فليُفشِ مدحه فإن امتداح الحب يستنزل الحُبا
وما القصد والمعني بالرمز والكنى سوى مَن على كل النبيّين قد أربى
ومن شاهدت عيناه من ملك ربه وآياته ما يعجز الكتب والكتبا
فسبحان من أعطى النبي محمداً من الفضل ما لم يعطه قبل من نبا
فيا غوث من غال الحمام حُماته ويا خير من آوى اليتامى ومن ربى
أحاشيك يا كل المنى أن تذودني عن الحوض يوم العرض أو أمنع الشربا
ورب كريم غض عن ود وأغل حياء إذا وافاه إذ يبتغي الشربا[2]
لئن قصرت خطوي إليك خطيئتي وذبّبني الأوزار عن بابكم ذبا
فمن شيمة العبد الفرار لربه ومن شيم السادات أن يغفروا الذنبا

(1) وحبى : الحفا .
(2) الشربا : بالكسر الماء — مصححه .

ومنه قوله :

رعي الحقوق كما علمت حقيق — والصبر عن واد العقيق عقوق
ولأهل ذياك الحمى بقلوبنا — شغف يفوق نفوسنا ويشوق
ولذكركم بردٌ على طيّ الحشا — تُشفى به مرضاهم وتُفيق
قوم بهم طاب النسيم بطيبة — حتى انثنى كالمسك وهو فتيق
وغدا ثراها للشفاه مراشفاً — وبقاعها كل البقاع تفوق
وقرارها أشهى الى عشاقها — من شاطىء يأوي إليه غريق
وسما بأشرف مرسل وأعز من — شرفت به فئة وعز فريق
هو صفوة الله الشفيع ومن له — خُلُق بكل المكرمات خليق
سند العصاة إذ الصحائف أفصحت — ونبا أب وأخ وفرّ رفيق
هو أحمد ومحمد والمصطفى — والمجتبى والصادق المصدوق
كم ذا أؤمل أن أزور ضريحه — والحظ يكبو والقضاء يعوق
ويد المشيب تناولت حلل الصبا — فاخلولقت وفشا بها التمزيق
لكنه ذخري لموقف فاقتي — ومضاجعاه الصهر والفاروق
صلى عليه الله ثم عليهما — ما زان جيد حمامة تطويق
وأرت تباشير الصباح تبسماً — وأنقاد غصن للنسيم وريق

ومن شعره أيضاً في مدح الرسول ﷺ هذه القصيدة ونصها :

لعل نسيات الضحى والأصائل — تودي الى مغنى الحبيب رسائلي
وتهدي إذا مرت سحيراً بربعه — سلامي الى بدر بطيبة آفل
علي لدى الأعلى للملك أصبحت — منازله تعلو مجر المنازل
وكل الأماني في غدو رواسم — الى رسمه أو في رواح رواحل
إذا يمم الحادي بها حضرة العلا — أرتك انسياب الفلك تحت المحامل
وألقت الى كف السرى مقود الكرى — كما بالطوي طابت لطي المراحل
وإن مال ذو وجد الى شعبه هوى — تجدها لذاك الشعب أول مائل
وما سوقها بل شوقها يستحثها — حثيث أخي الإملاق يدعى لنائل
ومن عجب هوجٍ تهيج بها الصبا — صبابة عذرى لطيف الشمائل

وتهوى بروقاً بالعقيق تألقت كما جردت بيض بأيدي الصياقل
حنيناً لمن في كفه سبح الحصى وأنسى خطاب النصب سحبان وائل
وكم آية دلت على صدقه فما ألب لها الإنكار في لب عاقل
وكم قاصد أقصى مدى معجزاته تلقاه بحر لا يحد بساحل
رسول أتى والغي وارت غيومه نجوم الهدى والرشد عن كل غافل
ووافى ودين الكفر قامت دعاته بإبطال تحقيق وتحقيق باطل
فلما بدت آياته وهباته بدا النقص فيما أبرموا في المحافل
وضاق الفضا ضيق اللحود عليهم فما بال الا وهو رهن البلابل
تلي كتاباً شرع ذي العرش شرعه وحد المناص فيه حد المناجل
تولى أمين الوحي جبريل حمله فأكرم بمحمول إليه وحامل
حوى وعد وهاب وإنفاذ قاهر وتنزيه قدوس وأحكام عادل
ووعظ بأهوال المعاد مخوفاً وعلماً بأنباء القرون الأوائل
ودينا الى دار المقامة مدنياً وبشرى بشكر السعي من كل عاقل
وزجراً بما يلقاه من زاغ من لظى إذا قيد قوم نحوها بالسلاسل
وفي كل ما يتلو الرسول دلالة على صدقه من واضحات الدلائل
هو المصطفى من قبل تكوين آدم على الخلق من آبائهم والحلائل
حبيب وحبات القلوب كناسه إذا بوّئ المحبوب خير المنازل
له غاية من صحبه وهو ليثها لديهم مرير الموت عذب المناهل
صدور إذا حلوا بناد وفي الوغى صدورهم تلقى صدور العوامل
أشداء والهيجاء حام وطيسها ذوو رحمة بالآنسات الأرامل
وكم من عديم صار فيهم كمترف وكم من غريب صار فيهم كآهل
كذا فليكن حسن الثناء لسادة متى أملوا لم يخلفوا ظن آمل
على من به سادوا الورى وعليهم سلام كنشر الروض بين الخمائل
فحتى متى أشتاقهم وتغرني أماني وإمهال بتسويف باطل
وما المرء إلا ظاعن مترحل معار لأوقات تمر قلائل
وإسفار صبح الشيب عن ليل لمتى دليل على ظلٍ من العمر زائل
ولما تقضت في التواني شبيبتي وأصبحت من جرائها في حبائل

ولم يبق لي إلا التفاني بأدمع | على طول تفريطي هوام هوامل
وكل يرى أن المديح وسيلة | لكل كريم من أجل الوسائل
مدحت الشفيع المصطفى غير قائم | بمعشار ما يحصى له من فضائل
وما المدح فيمن يحسن المدح باسمه | وأوصافه إلا لتحصيل حاصل
ولكنه جهد المقل لقاصر | عن الفرض في تعظيمه والنوافل
ألم يك قول الله في رفع ذكره | وهل بعد قول الله قولٌ لقائل

وله أيضاً في نفس هذا الغرض الشريف :

أعد الحديث فليس بالمملول | عن خير مبعوث وخير رسول
واملأ مسامعنا بطيب حديثه | فهو الشفاء لحرّ كل غليل
وادأب عليه مصلياً ومسلماً | فكذا أتى في محكم التنزيل
واخصص بترداد السلام ضريحه | في كل شارقة وكل أصيل
وإذا رأيت العيس تحدى نحوه | فاختر مواطئهن للتقبيل
واشفع بمن حملت على أوكارها | من حامل لغرامه محمول
واصحبهم بالقصد إن ونت الخطى | ورأيت باع الطول غير طويل
فعسى ينالك من زكاة زكائهم | ما قرر القرآن لابن سبيل
ومن اقتدى بالصدق في أنحائه | قادته عزمته بغير دليل
ومن اشرأب الى لقاء حبيبه | جذب المقادة من يد التعليل
وأماط سوف ومج ريقة رقة | بلها العزيمة من فم التأميل
حتى يرى البيداء وثبة خائف | والميل من قصر دوين الميل
كل الجمال متى أرى لك زائراً | متبوئاً لذراك خير مقيل
فرحاً بمغناك المقدس تربة | فرح المحب مبشراً بقبول
مترنحاً طرباً ترنح منتش | هزت معاطفه شمال شمول
فهناك أظفر بالأماني والمنى | وعلى الوجود أصول حين وصولي
وتهزني من طيب طيبة نفحة | فيطيب لي طربي وجرّ ذيولي
وإذا أسأت تأدباً بحماكم | عفواً فإني غبت عن معقولي
من ذا يرى حرم الحبيب فيهتدي | لتميــز المعـلوم والمجهول

قمر له هضبات مكة مطلع والروضة الفيحاء أفق أفول
جاءت نعوت كماله منصوصة في الذكر والتوراة والإنجيل
وبه تشفع آدم لإلهه لما أحس بحالة التحويل
وأتى بمبعثه المسيح مبشراً يوصي به للجيل بعد الجيل
وبليلة الأسراء أكمل فضله ناهيك من فضلٍ ومن تكميل
وإليه نلجأ في المعاد لاننا نأوي لظل للنجاة ظليل
ما زال في الأصلاب ينقل نوره حتى تبلج في أعز قبيل
من نبعة للجود روض نبتها وفروع مجد فارع وأصول
صيد تحل من الأكابر هامها وتحل منها مفرق الإكليل
فانجاب غيم الغيب عند ظهوره كالشمس في جوٍّ تلوح صقيل
وأذل من بالكفر حامل عزة وأعز بالإيمان كل ذليل
ألف الجميل فما يقابل سائلاً إلا بوجه كالسراج جميل
لا يعدم السارون إن نزلوا به رياً لصاد أو قرىً لنزيل
سمح يشاكل حسنه إحسانه لا تعتريه ملالة المسؤول
يلقى الأرامل واليتامى إن نأت عنهم عشيرتهم بكف كفيل
ويبيحهم من حبه وحبائه ما يحمل المثري على التطفيل
هذا الفخار ومن يكن ذا وصفه فالمدح فيه كقطرة في النيل
وعلى أولى الألباب طراً أن يروا بذل النفوس له أقل قليل
فعليه من ذي العرش كل تحية وعلى صحابته ذوي التفصيل
ما أفرع الروض الحيا وتضوعت رياً نسيم في الغدو عليل

وله أيضاً في الغرض نفسه رحمه الله :

أعلمت أنك يا ربيع الأول تاجٌ على هام الزمان مكلل
مستعذب الإلمام مرتقب اللقا كل الفضائل حين تقبل تقبل
ما عدت إلا عدت عيداً ثالثاً بل أنت أحلى في القلوب وأجمل
شرفاً بمولد مصطفى لما بدا أخفى الأهلة نوره المتهلل
وحويت مذ أصبحت ظرف زمانه ظرفاً به في برد حسنك يرفل
وملكت أنفسنا بلطف شمائل بجميلها نفس العليل تعلل

وإذا حدا الحادي بمنزله الحمى فالقصد سكان الحمى لا المنزل
فضل الشهور علا وفاخرها فإن شمخت بأطولها فأنت الأطول
واستثن منها ليلة القدر التي بثنائها نزل الكتاب المنزل
وأصخ لقول الله فيها إنها من ألف شهر في الإثابة أفضل
واستكمل البشرى فإنك لم تزل لك في القلوب مكانة لا تجهل
لم لا وعشرك واثنتاه أريننا قمراً به شمس الضحى لا تعدل
ومن العجائب بدر تم يستوي لتمام عشر واثنتين ويكمل
ويفوت أقمار السماء لأنها للنقص من بعد الزيادة تنقل
وكمال هذا البدر لا يعزى الى نقص ولا عن حاله يتحول
بل نوره يزداد ضعفاً كلما طفق المحاق سنى البدور تبدل
ويقي عثار الغير واضح رشده ويبين من سبل الهدى ما يشكل
وتراع أفئدة العداة له كما يرتاع من شاكي السلاح الأعزل
فتى تحيط بوصف بدر نبوة وافى وليل الكفر داجٍ أليل
فجلا عن الآفاق غيهبها كما يجلو صداً العضب الحسام الصيقل
وهدى الى كنف النجاة سراجه فعشا المحق به وضلّ المبطل
وتضافرت أيدي الزمان فصيرت شيع النفاق وضعفهن مذلل
وشدت بألسنِ حالها الأكوان من طرب له : هذا النبي المرسل
هذا الذي هو للمناصب علقم ولما حض الود الرحيق السلسل
وعلى الأرامل واليتامى إن خشوا أن تبلو الصفحات ستر مسبل
وإذا انثنى الأقران عن وقع القنا فهو الملاذ لمن كبا والمعقل
وهو الشفيع المستجار بجاهه والأم عمن أرضعته تذهل
قسماً بمرسله إلينا رحمة إني عليك معول ومعول
لا أدعي علماً ولا عملاً ولكني بجاه محمد أتوسل
فلربما صدّ الكريم حباءه إن كان في ندمائه متطفل
صلى عليه الله ما هبت صبا ليلاً وما نفحت سحيراً أشمل
وعلى صحابته وصفوة آله ما لاح برقٌ أو ترنم بلبل

بعض من نبغ في المائة الثامنة

ثم نبغ في المائة الثامنة أعلام أنبتتهم رياض تونس الأدبية . كانوا غرة ، وفي أعين مجدها قرة . نسرد جملة منهم ونجلب شيئاً من أشعارهم :

فنهم التجانيون وكان بيتهم بحاضرة تونس مطلعاً لبدور العلماء والكتاب الشعراء ، تناوبوا خطط الدولة الحفصية ، وتقدموا في كتابتها ، ودسوت رئاستها باستحقاق ، واضطلاع بالعلم والأدب . وكان العلم والأدب والشعر مستفيضاً في كبيرهم وصغيرهم وذكورهم وإناثهم ، فلقد نقل التاريخ أن صبيين من بيتهم خرجا يتفسحان ، فجلسا يستريحان عند حنايا ماء زغوان ، فقال أحدهما وقد رأى انهدام بعض الحنايا لكرور الأيام وتعاقب الأعوام وقيام بعضها على أصوله :

تمتع من بقايا للحنايا .

فقال الآخر :

بأبدع منظر تصبو إليه .

فقال الأول :

تأمل صنع أرسمها البواقي .

فقال الآخر :

وقد مد الفناء لها يديه .

فقال الأول :

كسطر بعض أحرفه تمحّى .

فقال الآخر :

وبعض لاح مضروباً عليه .

125 – فمنهم أبو عبد الله محمد بن إبراهيم التجاني

ولد بتونس ، وبها نشأ في عز بيته ومجادة سلفه في طلب العلم والأدب ، فأخذه

عن علماء بلده وفضلاء قطره ، فبرع في المعارف . وأضاف ما اكتسب من المجد الى تليد فخره السالف .

وشعره فائق الطبقة ، منه قوله مخاطباً بها السلطان الحفصي ، وهو أبو يحيى زكرياء ابن اللحياني ، ولم يكن إذ ذاك سلطاناً إنما كان رئيس الدولة الحفصية والسلطان حينئذ أبو عبدالله محمد المنتصر ، ثم صار إليه الملك بعد ذلك وهو بجزيرة جربة سنة 707هـ لغرض فتحها ، وكان مع السلطان ابن صاحب الترجمة عبد الله التجاني صاحب الرحلة المشهورة :

على ذلك المجد الصميم سلام كما فضّ عن أذكى المسوك ختام
ومازجه نشرٌ من الروض قد جرى عليه نسيم واستهل غمام
وإلا كما قصَّ الرواة حديثهم وردد منه في الندي كلام
فكل يوافي عنكم بمحاسن إذا كَلَّ عنها النثر ناب نظام
فكم قائل قد شك إذ شم ريحه أدارَين أم دار لكم ومقام
فليت الصبا تُهديه عني إليكم وتشدو به فوق الغصون حمام
ولما توجهتم وجدت ركابكم وسرج للجرد العتاق لجام
أقمنا وللسلوان عنا ترحل وللشوق ما بين الضلوع مقام
فلو كانت الآمال أجنحة لنا لطرنا ولكن لا جناح يرام
أمولاي كل الناس يشكو بشوقكم ولكنني للمشتكين إمام
يذكر فيكم كل شيء رأيته جميل به يعنى وفيه يهام
ولكنني ألقاه في الناس ناقصاً وفيكم زيادات له وتمام
وبي للتلاقي شوق سرب ضوامىء وأين قُراح الماء وهو جمام(1)
وقد صدّها عن ورده خوف صائد فهن حيام حوله وهيام
فيا ليتني أدري متى الدهر مسعني بذاك فتشفى لوعة وغرام
أجاهد أشواقي جهادك للعدى فكل يلتقي الجيش وهو عرام
ولكن لك السيف المصمم في الوغى وسيفي في تلك الحروب كهام(2)

(1) جمام : بالكسر جمع جمة معظم الماء .
(2) كهام : كليل .

وكان السلطان وجّه إليه مكتوباً بخطه الشريف يعرّفه فيه بحالة ابنه عبد الله معه ، ويصفه بما يليق بذاته الشريفة ، ومرتبته المنيفة من المجاملة والأغضاء ، فأجابه عن ذلك بمكتوب نصه :

يا نسمة الفجر والأزهار قد رويت | مما أدار عليها الوابل الساقي
والروض قد أمسك الإمساك منه ندى | نمت عليه به أنفاس أحباق
ولا قرارة إلا قررت خبراً | بأن دارين منا رأي إحداق
لو أنه نشر طيب للتجارة قد | سيقت لطائمه منه بأوساق[1]
والنور تسري إلينا من مجامره | أنفاس ندٍّ ولكن دون إحراق
بالله هبي على ناد تبوأه | من الندى في يديه سحب أرزاق
فإن ظفرتِ بقربٍ منهم فصفي | بألسن الورق في الأوراق أشواقي
ولتسألي لي وعداً باللقاء عسى | وعد التلاقي يجلي ما أنا لاق
وقبّلي يا نجومَ الأفق راحته | عنّي فبين الدراري قدرها الراقي
يا راحلين وقلبي راحل معهم | عني وإن كان لي جسم هنا باق
لولا رجاء التداني لم أعش زمناً | فرداً ولا وصفت بالصبر أخلاقي
عسى الليالي التي بالبعد قد حكمت | يجلى دجاها من اللقيا بإشراق
لله رقعة مولى قد علقت بمَا | أولت من النعمة العظمى بأعلاق
تضمنت ذكر مولود ووالده | من مالك لها بالفضل سباق
بالأمن واليمن والإقبال ما بقيت | دنياهمَا لها من أجلها باق

« يأيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم » . ويا شكر الأيادي إني لا أبرح عن شكر هذه اليد ولا أريم . ومن لي بأن أقوم بواجب حقها . أو أستطيع السلوك في لاحب طرقها . وهي خطتها يد أعلى الله قدرها . فما يقدر أحد أن يقدّرها قدرها . تصول بالقلم والحسام . وتصوب على الأنام كصوب الغمام بالنعم الجسام . ولما وصلت العبدَ أحرف مولاه . وأولاه وأولى ولده من لا والد ولا ولد له من التشريف بذكرهما فيها ما أولاه ، لم يجد لها كفياً ، ولا عملاً مرضياً ، إلا تضرعاً الى من تمد إليه أيدي الرغبات ،

(1) لطائمه : جمع لطيمة وعاء المسك .

وتستمد من فضله المنح الجزيلة من الهبات . فقلت يا أرحم الراحمين ، اجعل السلام على تلك الغرة ، واستلام تلك اليمين الكرة بعد الكرة ، من المتراحمين . ثم رفعت البراءة المباركة على رأسي إكليلاً ، وأوسعتها شوقاً لليد التي خطتها لثماً وتقبيلاً . ولم أزل أتنعم بمطالعتها بكرة وأصيلاً . ثم وصلت الدعاء بأن قلت اللهم إن يكن في علمك الخير التام له في بلوغ ما أمّ له وأمّله . فهوّن عليه فيه كلّ صعب . وروّه من نمير لطفك بكل عذب . واسعد غيبته وسيره على أتم وجوه السلامة . وأعم الكرامة . وأنله خيراً وافراً جزيلاً . وإلّا فاثن عزمه عما أمه ورُدّه الى وطنه رداً جميلاً . وانسأ له أجلَه ، حتى تسني ذلك له ، في الوقت الذي تؤمن فيه الغوائل . وتتساوى في تهوين صعوبته وتسهيل حزونته الأواخر والأوائل ، والبكر والأصائل . فأنت يا ربنا تعلم ما للإسلام ولامة سيدنا محمد نبيك عليه أفضل الصلاة والسلام في نظره السديد المبارك السعيد من الخير التام والصلاح العام . وناهيك به من دعاء تنزه عن السمعة والرياء . ورفعت به الأيدي الى رافع السماء .

ومن شعر صاحب الترجمة ما خاطب به ابنه أبا محمد عبد الله وهو في رحلته مع مخدومه أبي يحيى زكرياء اللحياني بقابس ضمن كتاب إليه :

حملتم القلب إذ جدّ الرحيل بكم ... من الصبابة ما لا تحمل الإبل
فلو سلكتم سبيل الحزم ما عجزت ... إذ ذاك مني على دمع النوى الحيل
لكن عراني ذهول يوم بينكم ... كما يكابد من أحبابه رحلوا
فالله يجمع منا الشمل عن عجل ... فالخير أجمل ما في نيله العجل

ومن شعره أيضاً ما صدر به صحيفة وجهها الى إبنه المذكور أثناء رحلته المومأ إليها تتضمن ما جادت به قرائح خلّانه من الفضلاء الأدباء بتونس تجديداً منه لعهود الوداد ورغبوا من صاحب الترجمة أن يصدرها بشعر من نظمه فقال :

سلام من الرب الرحيم ورحمة ... مجددة تترى على عابد الله
وإني لمعمود الفؤاد بذكره ... إذا مالها عن ذكر أحبابه اللاهي
فيا ربنا اجمع شمل أحبابه به ... فلا منية تدني الأماني إلا هي

ومنه مخاطباً أبا يحيى زكرياء اللحياني وبعث به الى ابنه صاحب الرحلة وهو في رحلته ليرفعها إليه :

الا أيها المولى المبارك سعيه تنبه لما خولته من محاسن
كفيت قديماً أهل قابس فتنة غوتهم بسعي منك للنجح ضامن
ولما أقمت الآن في يغمراسن إقامة مجتاز به غير قاطن

ثم قال :

وحسبي تلمسان التي أبصرت بها عجائب صنع الله عين المعاين

ومن شعر صاحب الترجمة وخاطب به أبا محمد عبد الله بن أحمد الازدي العسيلي حين ورد على تونس :

يا نفحة الزهر الجنى إذا سرت غبّ انسكاب السحب بالأمواه
زيدي بحمل شذا المسوك تعطراً ثم اقصدي الأزدي عبد الله
بتحية تصف التشوق عن أخٍ عقد الوداد لديه ليس بواه
وصفي له وصفي له بمحاسن هي حلية الأسماع والأفواه
القادم المتقدم الحبر الذي جلت مناقبه عن الأشباه
أدب يهز السامعين ومنطق عذب وظرف حاز كل ثناه
وافى فكلل لفظه أسماعنا بجـ ـواهر هي في البلاغة ما هي
أعلم فديت أبا محمد إنني ممن نهاه عن السلو نواه
إن التنائي والتواصل ممكن داء يعز دواؤه ودواهي
هب أن قربك عاق عنه عوائق إن الترسل للدنو مضاه
ولقد بعثت لك النظام لأنني أدريه عندكم وجيه الجاه
فلعل فكرك أن يعللني بما يهديه من ذاك الطراز الباهي

فأجابه عنها الفقيه الأديب أبو محمد العسيلي المذكور كما في رحلة التجاني بقوله :

يا روضة الأدب التي جاءت كما حيى الحيا زهر الرياض الزاهي

126 – ابنه أبو محمد عبد الله بن محمد التجاني التونسي

ولد بتونس ، وبها نشأ ، وطلب العلم والأدب ، فبرع في العلوم ، وبذ الأقران ،

فكان فارس المعارف ، بليغ زمانه . ازدان به سلك كتاب الدولة الحفصية ، واختاره السلطان أبو يحيى زكرياء الحفصي لصحبته وكتابة سره في سفرته سنة 706هـ لفتح جزيرة جربة وإنقاذها من يد العدو ، ثم الحج بعد ذلك ، فقام بأعباء ما أنيط به فحمد سيرته وشكر اضطلاعه حتى كاتب والده يقرض أعماله ، ويحمد خصاله ، وبقي في هذه السفرة مدة عامين وثمانية أشهر .

وله تآليف في الأدب والتاريخ وغير ذلك ، منها كتاب الدر النظيم ، ورحلته المشهورة . وكان شاعراً بليغاً اعترف له الأقران برئاسة الشعر والنثر . من شعره في شيخه أبي فارس عبد العزيز بن عبيد الطرابلسي الإمام الأوحد مودعاً :

سقى ربوعك يا مغني طرابُلُس ... حياً يحييك منه كل منبجس
فكم يد لك في تأنيس مغترب ... شطت به الدار عن أنس وعن أنس
أقمت فيك على حكم النوى زمناً ... كأنني فيه للسلوان في عرس
لو لم يكن لك عندي في الزمان يد ... أثني عليك بها ما امتد في نفسي
إلا ملاقاة من حزت الفخار به ... عبد العزيز الإمام العالم الندس
محيي العلوم ومحصيها ومبرزها ... من حلي ألفاظه في أحسن اللبس
ومحرز الشيم الغر التي كرمت ... ففاه بالمدح فيها كل ذي خرس
يجلو إذا أشكلت في العلم مسألة ... ذهناً يجلي سناه كل ملتبس
نعمت من قربه لما اتصلت به ... بوقت أنس من الأيام مختلس
والله يحفظه غوثاً لمستبق ... لكشف نازلة نوراً لمقتبس

ومنه يمدح الجانب الرفيع النبوي عليه السلام :

كم أنت في الملقاة ذا استغراق ... ونذير شيبك مؤذن بفراق
ولقلما يجدي المتاب إذا أتى ... داعي الحمام وقيل هل من راق
يا صاحِ دعوة ناصح لك مشفق ... والنصح يقبل من ذوي الإشفاق
بادر الى التقوى بدار مسارع ... وانهض الى الطاعات نهض سباق
واغنم من الأيام مهلة ساعة ... قبل التفاف الساق منك بساق
حدثت نفسك بالبقاء ولم يكن ... في هذه الدنيا ليبقى باق
كل بها فانٍ ومنقرض ولا ... بقياً لغير الواحد الخلاق

واترك أناساً آثروا لذاتهم ... واستمتعوا من دهرهم بخلاق
علقت نفوسهم بنزر عاجل ... فاستبدلوه بأنفس الأعلاق
عِوَض كَلَا عِوَض وبيع كله ... غبن وسعي ظاهر الإخفاق
يأيها الإنسان إنك كادح ... كدحاً وأنت لما كدحت ملاق
والمرء مجزي بما هو فاعل ... وجزاؤه جارٍ على استحقاق
فنعيم ذي الطاعات غير مكيف ... وعذاب ذي العصيان غير مطاق
لله أقوام أطاعوا ربهم ... ووفوا بما أعطوه من ميثاق
عظمت لهم همم وعزت أنفس ... فسمت بهم نحو المحل الواقي
قومٌ لو اطلع الملوك عليهم ... لسعوا لخدمتهم على الأحداق
من كل بدر أفقه محرابه ... لا يختشي أبداً لحاق محاق
يسمو إذا نام الأنام لورده ... فيبوء منه الليل ذو إشراق
خطبوا النعيم ببذلهم لنفوسهم ... والخلد لا تعطى بغير صداق
لم تحصل الأخرى لهم إلا وقد ... خرجوا عن الدنيا خروج طلاق
إن لم أكن بالفعل ملتحقاً بهم ... فالحب فيهم مقتضٍ للحاق
يا رب بالهادي الذي أرسلته ... نوراً أفضت سناه في الآفاق
هادٍ أتى والجهل قد عم الورى ... والكفر قد غطاهم برواق
فجلا لهم سبل الهدى وأنالهم ... من عزة كانت بهم وشقاق
ولقد حباه الله كل فضيلة ... وأناله العليا على الإطلاق
بنزول طست فيه طهر فؤاده ... وعروج جسم وامتطاء براق
وكفى له شرفاً بأن الله قد ... أثنى على ما حاز من أخلاق
يسّر لنا فيما به كلفتنا ... عوناً لنتمثل امتثال وفاق
وامنن علينا بالوصول لقبره ... فهو الشفاء لقلبي المشتاق
يا ليت شعري هل أراني ساعياً ... في شد أكوار وحدو نياق
فلكم تؤخر عزمي الأقدار من ... فرق تسير لقبره ورفاق
قسماً بعزته ورفعة قدره ... إني لزورته لبالأشواق
لاهمَّ إنـا لائذون بجاهه ... فهو الشفيع لنا وأنت الواقي
صلى عليه الله ما هبت صَبا ... وترنمت وُرْق على أوراق

ومن شعر صاحب الترجمة أيضاً ما صدر به كتاباً منه خاطب به ابن عمه الفقيه الأكرم أبا زكرياء ابن الفقيه الأجلّ أبي الحسن علي التجاني :

إذا الله حيى معشراً بتحية ... يقصر عنها المسك في الطيب والند
فحيي بني عمي الذين فخارهم ... فخاري ومجدي حين أسمو بهم مجدي
وخصص منهم من تخصص فيهم ... بأوصاف فضل ليس يحصرها العد
أبا زكرياء الرضي الأرفع الذي ... له مني الشوق والمجد والود
أحبتنا هل يجمع الدهر بيننا ... فقد طال هذا النأي واتصل البعد
يذكرنيكم أنس يوم مضى لنا ... وعهد ائتلاف حبذا ذلك العهد
فيبدو قليلاً من غرام أحبتي ... وفي القلب للأشواق أضعاف ما يبدو
فقد بلغت مني النوى كل مبلغ ... فني أدمعي ودق وفي أضلعي وقد
فهل تقرب اللقيا وينصرم النوى ... وينجز للآمال من قربكم وعد
لئن جمعت أيدي التفرق بيننا ... فقد تمت النعمى وقد كمل السعد

ومن شعره ونثره مخاطباً ابن عمه أيضاً أبا الفضل محمد بن أبي الحسن علي بن إبراهيم التجاني ، ونصه :

حبكم في الحشا مقيم ... فما يروم الذي يلوم
أما درى العاذلون جهلاً ... إن عذاب الهوى نعيم
هل عند من عنده فؤادي ... أن غرامي به عميم
يبيت من لوعتي خلياً ... ومنه بي المقعد المقيم
أحبابنا هل ينال حظاً ... من وصلكم من بكم يهيم
هبوا لأجفاننا مناماً ... فعهدها بالكرى قديم
لازمها بعدكم سهاد ... تعرف مقداره النجوم
وعللوا بالرضى فؤاداً ... به لهجرانكم كلوم
يظنه عذلي سليماً ... وهو بفرط الأسى سليم
إن حكم الدهر بافتراق ... فوقعه بالحشى أليم
فكل شيء الى كتاب ... قدره القادر الحكيم
هاك أبا الفضل من سلامي ... مسكاً رسولي به النسيم

واعلم بما بي من اشتياق إليك مقداره عظيم
وإن طلبت بعلم حالي وأنت عندي بها عليم
فإنني في اتصال نعمى بشكرها الدهر لا أقوم
منعم في جناب مولى بقربه تبعد الهموم
لله منه غمام جود عمّ الورى صوبه العميم
كم كف بؤس الورى بكف تعجز عن جوده الغيوم
ينثر أمواله ولكن شمل المعالي به نظيم
ايه نداء حواه قلب مازجه وِدك الصميم
هل ترتجي للزمان عدلاً فإنه في النوى ظلوم
قد علم الله من ودادي ما أنا راعٍ له مديم
وإن عندي لحفظ عهدي طريقة نهجها قويم
وإن تحل بيننا فيافٍ يقصر عن جوبها الرسيم
فإن ذكراك كل حين في الفم والقلب لا تريم
لقد تدانت لنا قلوب وإن تناءت لنا جسوم
فنسأل الله جمع شمل فهو لطيف بنا رحيم

هذه – أعزكم الله – أبيات صدرت عن قلب منقسم ، وفكر بتولد التبلد متسم ، قد أعاره الهوى اتباعاً ، وأعادته النوى شعاعاً ، فكلما أردت جمعه . وطلبت أن أرأب صدعه ، طرقه من هوائج الفكر ، ولواعج الذكر ، ما يفرق منه ما لأمت ، ويشتت ما نظمت ، ولربما جذبه الحنين الى الوطن ، وجذبه التشوق الى الأهل والسكن ، فيطلب الصبر وهو جد متمنع ، ويروم التصنع . ولات حين تصنع ، وكيف يحجب الوجد وهو ذو استبانة ، أم كيف يطلب الصبر وقد أبانه أي إبانة ، وكنت في حول ثواء ثويته تقضي لبانة ، فكيف بثواء أحوال ولقاء أهوال ، بمثلها يسأم السائم ، ويعدم صبره القلب الهائم ، ولكن مشاهدة هذا المولى الذي أنا في كرمه أمسي وأصبح ، وبنعمه أغبق وأصبح ، تنسي الأهل الوطن ، ونتسلى عن كل ماشط وشطن ، فلا ندم على ما عدم من رآه ، ولا تغرب من يَممه ولو خلف الأهل وراه ، وإن فضل الله تعالى لكفيل بأن يجعل مدّة الفرقة قليلة ، وأن يعلّل بالقرب منّا أنفساً عليلة ، فيعيدها وقد بلغت التراقي ، ويفيدها من اللقاء الطيب الراقي :

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا
وإني لأرجو الله حتى كأنما أرى بجميل الظن ما الله صانع

والله أسأل أن يزيد جدكم جده ، وأن يديم مدتكم في السعادة ممتدة ، اهـ .

وقد أجابه ابن عمه أبو الفضل هذا بقصيدة فريدة ، سأذكرها إن شاء الله في ترجمته ، طالعها :

من لمشفوق معنى ذكر العهد فحنّا

وخاطبه الأديب أبو محمد عبدالله بن أحمد الأزدي العسيلي بقصيدة طالعها :

يا نسيم الصبا ديوني فاقض إن بلغت الحمى وإلا فأمض

فأجابه أبو محمد صاحب الترجمة عن ذلك بقوله :

قل لبرق جلا الظلام بومض ذاهب في السرى لأرض فأرض
غير مستشعر لقلب سكوناً لا ولا لائذ لجفني بغمض
أيها البرق أنه نحو العسيلي سلاماً تؤد آكد فرض
ولتبلغه أنني ذو اشتياق قد قضى لي أليمه أن سأقضي
لست أرضى على البعاد لعهد مبرم العقد أن يشاب بنقض
وصنيع الإله عندي سما عن أن تقوم الشفاه منه ببعض
مع مولى فاق البرية طولاً تتعاطى المنى فيعطي فيرضي
أحرز المجد بين جود بعرض مستباح الحمى ويخل بعرض
من أتاه يشكو لجدب وبؤس آب في عيشه بخصب وخفض
رائداً بأرض الجميم لديه وارداً من جمامه غير برض
وهو يهدي إليك منه سلاماً ينسك المسك عرفه اثر فض
لم يزل عنك سائلاً كل حين وعلاه بمثل ذلك تقضي
زاده الله مكنة وسعوداً بأمر الدهر كيف شاء فيمضي
يا صفي الذي محضت علاه كل صفو من الوداد ومحض
ها كها أقبلت إليك حياء ترتجي أن تعيرها لحظ مغض

وخاطب الأديب الفقيه أبا محمد عبد الله العسيلي المذكور أول وروده على تونس بقوله رحمهما الله تعالى :

أأبا محمد الذي أخباره ... في الفضل ترويها الثقات مسلسله
لله درك من وحيد بلاغة ... شاق الكلام منظماً أو رسله
لا زال في الأفواه ذكرك طيباً ... وإذا أحب الله عبداً عسله
وإليكها أبيات خل مخلص ... قد ضمن الطرس الوداد وأرسله
وأتى بها عن خاطر متوحش ... ومتى أجبت فقد أتحت الأنس له

فأجابه بقوله :

أحبيي الأسمى سميي والذي ... من دون ما رد وَهَبْتُ النفس له
أهديت لي من روض نظمك زهرة ... وسقيتها من ماء طبعك سلسله
يا حسنها من أسطر قد نشطت ... ذهني وقد كان التبلد كسله
جاءت بخط أشبهت نوناته ... أصداع فرع في الخدود مسلسله
فيها رأيت السحر لا ما حدثوا ... عن طرف خشف لم يفارق مأسله
ورويت حديث الفضل عنك محققاً ... فرفعت مسنده إليك ومرسله

وخاطب صاحب الترجمة صديق له بأبيات يقول في طالعها :

لعمرك لو أن الرياح تحملت ... جسوماً لسارت بي لنحوك ريح
وكم لك عندي من صريح مودة ... لعلمي بأن الود منك صريح

وكان هذا الصديق سمياً له أيضاً فأجابه عنها بقوله :

رأى بارقاً تحت الظلام يلوح ... فناح اشتياقاً والكئيب ينوح
تألق من أرض الأحبة موهناً ... فحن فؤاد بالبعاد قريح
وطالبه أهل الملام بسلوة ... فلم يك منه للسلو جنوح
رعى الله إخواناً إذا ما ذكرتهم ... تسابق دمع العين وهو سفوح
لئن نزحوا عن ناظري فما لهم ... مدى الدهر عن قلبي المشوق نزوح
وبلغ عبد الله عني تحية ... مرددة تغدو له وتروح
سميي، الذي أصفيته بمودة ... له خالص من ودها وصريح

أعلل آمالي بقرب مزاره ومن دون ما أرجو مهامه فيح
لقد أتعب البين المشت قلوبنا فهل بعده من أوبة فتريح

ومن شعره ما كاتب به وهو في رحلته بتوزر أبا محمد عبد الواحد بن أبي يغمور الهنتاتي ، وهو بنفزاوة :

يا نسمة صدرت عن روضة ظهرت في برد رقم وشته السحب منثور
فكلما يممت في سيرها جهة مرت بذيل على الأزهار مجرور
أنهى اشتياقي وتسليمي لمجد أبي محمد بن أبي زيد بن يغمور
وأعلميه بما يطوي الضمير له من اعتماد وتعظيم وتوقير
وإنني بين قلب للوداد له مفرغ وفم للشكر مقصور
وقرري ذاك تقريراً أثبته ولست فيه بمحتاج لتقرير
لا زال في نعم موصولة وعلا باق وحظ من الإسعاد موفور

ومن شعر صاحب الترجمة أيضاً ما أجاب به الأديب الفقيه العلامة أبا بكر بن شبرين السبتي الذي كان اجتمع به في تونس سنة 703هـ وقد أثنى عليه في رحلته ثناء جماً مجيباً له عما خاطبه به يصف استيلاء العدو على بلده سبته ، ونص جوابه له المشار إليه :

حدّث عن الحادث الذي وقعا تلف مصيخاً له ومستمعا
وهاك ما قد سمعت منه وإن تركت قلبي بذاك منصدعا
هل معهد الأنس كيف كان فقد عهدته للكمال مجتمعا
وهل حمى العز فيه محترم أم سلب العز منه وانتزعا
وأي ناس هناك أعهدهم على المعالي جميعهم طبعا
وكل طلق اليدين مبتسم أرضع در السماح فارتضعا
تلفيه كالنجم رفعة وسنا لا بل كبدر الدجى إذا طلعا
باكرهم حادث ففرقهم وأذهب الناس والبلاد معا
وجر عدوانهم فجرعهم به من الهم والأسى جرعا
يا ليت شعري وفي المنى سعة إن أبقت الحادثات مستمعا
هل يرجع الدهر ما مضى فلكم قد عاد من ذاهب وكم رجعا
أم لا يرى عائداً فواأسفي على زمان مضى وواجزعا

هيهات تم القضاء وارتفعت مطامع النفس عندما ارتفعا
فلست مما طلبت عودته أول من في المحال قد طمعا
عهدي بهم والشجون تقلقهم لا جنب منهم يزور مضطجعا
منتشراً في البلاد نظمهم يأمن رأي السلك بعدما انقطعا
أمر من الله لا مرد له لم يبق كهلاً منهم ولا يفعا
وخدعة تم أمرها فمضت وكم سديد الآراء قد خدعا
هاك سلامي على البعاد أبا بكر فقلبي إليك قد نزعا
وثق بود أدين فيك به ملتزماً منه كل ما شرعا
إن حالَ خِلٌّ عن المودة أو أجاب داعي السلو حين دعا
فاعلم بأني والصدق من شيمي ممن رأى حفظ عهده ورعا
وأنني ما قطعت ذكرك بل ما زلت للشكر فيك منقطعا
أقسمت بالركن والمقام ومن قد طاف بالبيت نحوها وسعى
ما طاب لي بعدك البقاء ولا وجدت لي في الحياة منتفعا

أما قصيدة الأديب ابن شبرين المخاطب بهذه القصيدة فطالعها :

يا أيها الراكب الذي طلعا لقيت مستوطناً ومنتجعا

ومن مؤلفات صاحب الترجمة أبي محمد عبد الله التجاني صاحب **الرحلة التجانية** الشهيرة **نفحات النسرين في مخاطبة ابن شبرين** وهو أبو بكر محمد بن أحمد بن شبرين الجذامي السبتي المذكور آنفاً قال في شأنه ، وملاقاته به في تونس : إن هذا الرجل من أعظم من رأيت تحقيقاً ، وأحسنه في النظم والنثر طريقاً ، قال : وقد كنت اجتمعت به في تونس ، وإن من شعره يستجيز العلامة الحافظ ابن الأبار الذي ستأتي ترجمته ضمن هاجرة الأندلس الى تونس المستقرين بها المخططين فيها :

إن رأي سيدي الذي حاز في العلـ ـم وفي الحلم والعلا كل غايه
وحوى المجد عن جدود كرام كلهم في السماح والجود آيه
أن أرى عنه بالإجازة أروي كل ما فيه لي تصح الروايه
من حديث وكل نظم ونثر وفنون له بهن درايه
فله في ذاك الثناء من الله ومنا الثناء دون نهايه

دام في رفعة وعز وسعد وأمان ومكنة وحمايه
ما تولى جيش الظلام هزيماً وعلت للصباح في الأفق رايه

فأجابه الحافظ ابن الأبار بقوله :

أيها الصاحب الصني مباح لك عندي فيما نصصت الروايه
إن عناني إسعاف قصدك فيها فلكم لم تزل بها ذا عنايه
ولها شرطها فحافظ عليه ثم كافىء وصيتي بالكفايه
وتمام الإخلاص جهدك لاقيـ ـت من الله عصمة وحمايه

127 – شقيقه أبو العباس أحمد بن محمد التجاني التونسي

ولد بتونس ، وبها أبدر هلاله ، وظهر فضله وكماله . طلب العلم والأدب فبرع ، وملك أبكار المعاني وفرع . فكان نسيجَ وحده في الأدب شعراً ونثراً .

فمن شعره وكتب بها الى أخيه عبد الله وهو في سفرته مع السلطان :

لأهل الحِمى أصبو وإن جد لائم وإني على وِرد به الدهر حائمُ
وما القلب خالٍ من هَوى ساكن اللِوى وإن أقفرت منهم وأقْوت معالم
عليّ لهم جفن من اللمع مُتْرَعٌ وقلبي على حكم الصبابة هائم
حمى الله قلبي كم يحنّ الى الحمى ويُطربه عهدُ اللوى المتقادم
يحنّ اشتياقاً أو يجنّ صبابة إذا لاح ضحّاكٌ من البرق باسم
وإن غردت ورقاء في غسق الدجى يميل بها غصن من الأيك ناعم
يذكّر عهداً قد تقضى نعيمه كأن لياليه المواضي مواسم
الا في ضمان الله قلبي فقد غدا يشب عليه منْ لظى الشوق جاحم
وبالنفس أفدي جيرة قد تحملوا فلا القلب مرتاح ولا الجفن نائم
نأوا فنأى صبر المتيم إثرهم وأي اصطبار بعد حب يلازم
سرَوا يقطعون البيد والليل عاكف كأنهم فيه نجوم عوائم
على كل متلاء الذراعين جسوة سواء لديها سهلها والمخارم[1].

---

(1) متلاء : متحركة ؛ جسوة : شديدة ؛ المخارم : الطرق الصعبة .

جديلية الآباء موثوقة العرى ... سليمة ما نيطت إليه القوادم[1]

ويا قاتلَ الله المطي فإنما ... نأت بأحبائي المطيُّ الرواسم

لقد خلّفوا من بعدهم ذا صبابة ... يروح ويغدو وهو بانٍ وهادم

إذا ما جرى ذكر العقيق جرت له ... دموع حكت لون العقيق سواجم

فيا جيرة الوادي نداء متيم ... تعدّى عليه الدهر والدهر حاكم

أعندكم أني على العهد ثابت ... إذا ضيّع العهد القديم مُصارم

وأني على رعي الذمام مُحافظ ... وأني على حفظ الوداد مداوم

ويا مزمع الترحال يحمل كوره ... على بعد ما ينوي قلاص سواهم[2]

لك الله عون والنجاح موافق ... وبلغت في دنياك ما أنت رائم

تحمَّلْ رعاك الله عني تحية ... كما انشقَّ عن زهر الرياض كمائم

تضَوّعُ في وسط النديّ كأنما ... تنشّق مسكاً من شذاها العرائم

وإن سرت مجتازاً بأربُع دمّر ... ولاحت به للعين منك المعالم

فخصص بها الأسمى شقيقي وإنني ... بحكم النوى والبعد فيه لراغم

وصِف ما ألاقي بعده من تشوُّق ... ووجد غدت تتقد منه الحيازم

تمثله الأشواق لي فكأنه ... وإن كان ناءٍ بين عينيَّ قائم

وما ظبيات ضرّم القيْظُ لوحها ... فهُن على ورد السراب حوائم

إذا لاح برق في عَنان سحابة ... فهن لما يلتاح منه شوائم

رأت نطفة زرقاء في قلب صخرة ... ممنّعة قد غادرتها الحمائم

يفيء عليها الظل كلّ عشية ... وتسترها أغصان دوح نواعم

بأعظمَ من شوقي لرؤيته التي ... بها أملي يدنو وسعدي يلائم

أألحْبابَنا بالسخط منّي لا الرضى ... عدتْني نجودٌ عنك وتهائم

لقد طال هذا البعد واشتطت النوى ... وجار علينا الدهر والدهر ظالم

إذا ما تذكرتُ الليالي التي مضت ... تخيّلتَ أني في ادّكاريَ حالم

أحنُّ لمسرى البرق من نحو أرضكم ... إذا ما سرى والليل أسود ساحم

---

(1) القوادم : أي من خيار الإبل .

(2) كوره : الرحل – مصححه .

وكم هيجت شوقي سواجع أيكة ... يجاوبها إلف لها ويناغم
أطارحها رجع الحنين صبابة ... وأعرب عن وجدي وهن أعاجم
فيا ليت شعري هل يعود بقربكم ... زمان نعمنا فيه والشمل ناظم
ويا حبّذا دهر قضى باجتماعنا ... كريم وأيام تولت كرائم
بحيث قطعنا العيش وهو مُهنّاً ... ونلنا الأماني والزمان مُسالم
تباري عليها العفر جراً كأنما ... قوائمها عند النجاء قوادم
وكم قد أدرنا أكؤس المنّ والمُنى ... علينا وما غير السرور منادم
فهل مُبلغٌ ذاك السرور الذي مضى ... سلاماً تؤديه الرياح النواسم
إذا حملته عطّر الجوّ عرفُه ... كما خطرت يوماً عليك لطائم
سقى الله صوب المزن أعلام دمّر ... وروى رُباها العارضُ المتراكم
ولا زال ممطور الثرى مخصب الذُّرى ... تردد فيه اللحنَ وُرقٌ حمائم
إذا السُّحْب أذرى فوقه الدمع أصبحت ... تضاحك للأزهار فيه مباسم
وما طلبي سقياه إلا رعاية ... لمن حله والدهر مُعط وحارم
ومن أجل من حل الحِمى يذكر الحمى ... وإلا فما تجدي الربوع الطواسم
فيا نائياً عني ومثواه في الحشا ... ومن أعجب الأشياء ناءٍ ملازم
الى م نوى لا يستطاع احتمالها ... وحتى م بُعد هوله متفاقم
الأزورة تهدي الشفاء على النوى ... ويهدي لنا منها المسرة قادم
ومن ليَ باللقيا ودون منالها ... فياف تحامي جوبَهن المناسم
أروح وأغدو والصبا متنسم ... عسى خبر يأتي به منك ناسم
وكم لي على بعد النوى من تحية ... تحملها عني البروق البواسم
فيا ليتني طارت بكوري على النوى ... خواف شديدات القوى وقوادم
لأحظى بحظ لي برؤياك مقنع ... وإني إذا ما نلت ذاك لغانم
أحن إذا ما مر ذكرك خاطراً ... بقلبي كما حنت نياق روائم
عسى الله أن يدني إيابك عاجلاً ... فيحسم ذاك البعد والبين حاسم
ومما يسلي النفس أنك مودع ... بحيث تحاماك الخطوب الهواجم
ومن يك بالمولى العماد اعتقاله ... فقد نكبت عنه الدواهي الرواسم
همام توقاه الأسود مهابة ... وتحسد كفيه البحار الخضارم

عماد بني الدنيا ومولاهم الذي | يصادر عنهم من عدا ويصارم
من آل أبي حفص الذي قد غدا به | حمى الدين في أمن وذل المراغم
حمى حوزة الإسلام قدماً بعزمه | فعز له بالله تلك العزائم
لقد سمحت تلك الربوع بماجد | نمته الى العليا جدود أكارم
يقاسمه في ماله كل مجتد | وليس له في مجده من يقاسم
كريم إذا ما السحب ضنت بقطرها | حليم إذا ما حف بالحلم راقم
يرى البخل عصياناً إذا سال سائل | كأن عطاياه فروض لوازم

ومنها في مدح السلطان :

يذكر يوم الجود والروع حاتماً | وعمراً ومَن عمرو لديه وحاتم
حوى قصب العلياء والغاية التي | يرى كل خلق دونها وهو فاحم
فمن كأبي يحيى ندى وشجاعة | إذا أمه عاف ودارت ملاحم
هو الجود حتى لو تخلف مجتد | لسارت إليه من نداه المكارم
لقد غاب عن ترشيش إذا غاب أنسها | ولاقت من الأشواق ما لا تنادم
تغير منها كل حسن وأصبحت | يلوح لها وجه من الشوق قاتم
حياة أبي يحيى حياة بني الدُّنى | وآراؤه في كل خطب عواصم
فلا زال في عز وسعد مجدَّد | تقابله الأيام وهي خوادم
ودام على مر الليالي وكرّها | ينادي مجيباً للمنى مَن ينادم

128 – أبو الفضل محمد بن أبي الحسن علي التجاني

ولد بتونس ، وربي في مهد العز وفرش المجادة ، وطلب العلم والأدب ، فحصل على الحظ الأوفر ، واشتهر فضلاً وبراعة . وكان كاتباً ، شاعراً بليغاً ، فقيهاً ، اقتعد دست الكتابة في الدولة فبان فضله فيها واتضح تفوقه على المتأدبين بالحضرة . فعلت منزلته في الدولة وعرفت مرتبته العليا .

ومن شعره قوله يخاطب ابن عمه عبد الله وهو في صحبة السلطان أبي يحيى بطرابلس جواباً عن مكتوبه :

أهدي سلام الوُدّ خيرَ رفيق ... من هو أوحدُ أسرتي وفريقي
ومقام عبد الله نجل محمد ... في قومه سام على العيّوق(1)
ندب تجلى من جلالة سندس ... وأقام للعلياء أنفقَ سوق
وازدان بالفضل الذي هو مرضع ... لبني الأفاضل ليس بالممذوق
زانت فتاةَ السن منه فتوةٌ ... قد ضمخت أخلاقه بخلوق
ومعارفٌ تُدرَى لهن عوارف ... فيها حقيق بجدُّه بحقوق
أما مواثيق العهود فإنها ... أبداً لديه مُميزةٌ بوثوق
ومشارع الوُد التي أروى بها ... ما أمطرتها خُلَّبات بروق
هي ما علمتُ موالدٌ ومراضع ... وزكاء فرع من زكاء عروق
ودليل تأكيد الوداد رسائل ... تقضي بعهد في الوداد وثيق
تدنو على شحط الربوع كأنها ... شمس تعم ببهجة وشروق
أو كالحيا الهتان تروي مُمحِلاً ... فيعود بعد المحل خد أنيق
ولرب قافية أتت قاقية ... تقفو لها الشعراء نهج طريق(2)
فلئن تمكن من طريقته امرؤ ... فلها مكان ليس بالمطروق
أنت الذي تجلو المعاني جلوة ... يصبو الحجى لجمالها المرموق
ولعل معنى زانه اللفظ الذي ... تكسو كغصن في الرياض وريق
وافت تهنّي لي بأسعد رتبة ... رُفعت بجَرّ سوابغ التوفيق
ومقدم بالله شرط قضية ... قرنت بها الآمال بالتصديق
وأجل ما آثرته حظ أتى ... عفواً بدون الظن والتعليق
هي نظرة من نحو خير خليفة ... غاظت أبا زيد بخير عتيق
ما كنت لولا أن عين رضاهم ... نظرت بأيسر ما جرى بحقيق
فسُررت إذ طُوِّقت نعماه التي ... قد قام فيها شاهداً تصديقي
وكفاية الآثار قد قابلتها ... بفصيح قول في الثناء طليق
هو نشوة أنا منه صاحب نشوة ... ومُواصل لصبوحه بغبوق
لا أشتكي إلا نواك فإنني ... من أجل حادثها أغصّ بريقي

(1) العيّوق : نجم —.
(2) قاقية : طويلة —.

سحقاً لدهر لو قضى بتآلف ... لغدا مكان الإلف غير سحيق
أقصي ولولا ما دعوه أبا الورى ... لعققته ويقلّ فيه عقوقي
أعليه نذر لا يزال يني به ... أن يعقب التجميع بالتفريق
لم أنس سيل الدمع يوم فراقنا ... وغريقنا متمسك بغريق
ما إن ذكرت البين إلّا بان مِن ... نفسي ومن نَفَسي دخان حريق
فالله أسأل أن ينظم شملنا ... عقداً ويجمع نازحاً بمشوق

وما ذاك على الله بعزيز ، وقرب الإمكان متعلق بخير مجيب ومجيز ، فعما قريب نتلقى هذا الإمكان . ويعود الشمل منتظماً كما كان . بفضل الله تعالى وهذا الزمن الذي أوقع ريباً ، واشتعل الرأس به شيئاً ، سرعان ما تقهقر القواطع منه مقصره ، وتمحو ليله آية النهار مبصره . وتلتي حبلاه من سقط الفرقة مضغه . ويرجع راجع الشباب صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة . وإذ كان يعيده حامل كلام ، ويرده واصل سلام . فما ظنك به حين تقبل الركائب ، ويلتقي المقيم والآئب ، وترى القافل الذي شد ما أثقل رحله ، يلقي الزاد فما زاد حتى نعله ، فتراح الركائب من جذب البرى ، ويراح الى جنة القرب ونار القرى . وحينئذ تتصل الأفراح . وأنشد من صد عن نيرانها فأنا ابن قيس لا براح . والله المرجو أن يعود ذلك الزمان ، وعليه سبحانه في تحقيق الرجاء التكلان . ثم نثوب الى واجب الشكر ، وشكر الواجب الذكر ، وغرس ثمرة الإحسان . إذا تعهد بعهد الإنسان ، كانت ثمرتها وهي الثناء ذائعة ، ولم تكن ثمرة تلك الغروس ضائعة . وكلما يلحق الغرس من نضرة ونعمة . تلبسها ملابس نعمة . فلغارسه ينسب . ومن جملة مكارمه يحسب . وذلك الجلال المولى أمن الله مهجته . ويمن الله وجهته . لا يشك أني غرس نعمته . وأحد المعتزين بخدمته . وعنايته قديماً هي التي أصارتني الى خدمة هذا المقام الكريم الذي طوقت نعمه فمدحت . وسقيت ديمه فشكرت ومرحت . بآية منه سقت دوحي غمامها . فبشكره أعزه الله يغرد على لساني حمامها . وعن ثغور منحه تفتر مباسمها . كما أنه عن منثور مدحه لا تفتر نواسمها . فمادح ثنائي لا يثني عن تغريد وتلحين . وثمر برّ طيبات ممادحه لا تزال تؤتي أكلها كل حين . فقرروا عند سيادته — حفظها الله — ما يجب تقريره . وكرروا من معاد ذلك ما تحسن إعادته وتكريره . والله سبحانه يبلغكم أملكم . ويختم بالصالحات عملكم . ويسهل سبيلكم . ويجعل اليمن المصاحب دليلكم .

وكتب إليه أيضاً وهو بزنزور في هذه السفرة جواباً عن كتاب أيضاً :

لَمعَ البرق فشِمتُه وبدا سرٌّ كتمتُه
وسرى نحويَ سرّ وبعجب ما فهمتُه
مُعلِماً خلعة وُدّ من وداد قد علمته
كاشفاً عني قِناعاً بدموعي قد رقمته
هل الدمع لبرق بلَظَى نار وسمته
وأطار القلب مني وبودي لو زممتُه
فهو للوجد مضيف وعلى الشوق ضممتُه
أفرد التركيب بالتحـ ـليل لما أن قسمته
فلديّ الجسم والقلـ ـب لدى خِلّ عدمته
سار شرقاً فدحت الشـ ـرق من عزم دهمته
ثم حياني برَوْح وبريحان شممتُه
بكتاب صح في الود دليلاً قد أمّتُه
كم أسمت الطرف مر تاحاً إليه ولثَمتُه

وهل أعزكم الله للقلب ارتياح . إلّا إذا كان لشمس القرب التياح . فحينئذ تتجلى ظلمه . ويشهر بناره علمه . فنور القلب لا يبقي ظلاماً . وينادي نور القرب « يا نار كوني برداً وسلاماً » . والأسباب التي تدني السامع ، وتني القاطع ، شوق من خافق الجناح أو كتب تتصل به أشعة شمسه . أو سر لا ينشر دفينه من رمسه . وأقواها سبباً ، وأقربها نسباً ، تعارف الروحين في مبدأ أول ، وتوحد الإثنينية بقلب غير قلب وحال غير حول ، وهذا هو النسب . الذي تحمد فيه النسب . ولكل حال مودتنا بحسب هذا الإتصال تتصل . فهذا هو الفصل المميز الذي يمتاز عن جنسه ولا ينفصل . والمرجو منكم أن تبلغوا للمولى المعظم – سلمه الله – سلامي . وتؤدوا له ما يجب من توقيري وإعظامي . ولو كنت عنده أعزه الله سليم العقد . سالماً من النقد . لأقدمت على مخاطبة جلاله . وجريت عادتي في ترسيل الكلام وإرساله . وفي التأليف الذي رفعت الى مجده المرتفع محفوظه ومخفوضه ، وأديت الى مقامه المحمود معروضه ومرفوضه ، وهو المصنف الذي خصصته بسيادة العلماء . وسميته **الناسخ** . وأستحيي أن أذكر الأحياء . دليلي على العادة ، في تلك العبادة . زمان إسعاد السعادة . ولا جرم أن الجرم للحظ التعس . وأن الفراسة لا ترد بطش الدهر المفترس . والأمر لله وحده وحتى الآن ليس لي عيش إلا في

بركته . ولا دعاء إلا في كلاءة الله له في سكونه وحركته . فهو مبدأ الحياة لي وتمامها . وكفه لي بوكفها طالما رواني غمامُها . وقد اتصلت من نحو برقة بروق . لا تنبض معها عروق . غير أنكم وإن أجريتم في مرعى خصيب . ومسعى للخير مصيب . قد أحضركم السفر في مكان مكين . واستندتم الى ربوة ذات قرار ومعين . فمن اليقين أنك لا تظمأ فيها ولا تضحى . وإنك تقطع كل يوم بسيماً فطر وأضحى . كل ذلك بمقاربة ذلك الجناب . وأعمال السير والسرى في مصاحبة ذلك الركاب . والله تعالى يصحبكم الخير والخيرة . ويصون لحفظ محاسن الجود تلكم الذخيرة . ويديم اليمن المصاحب لأمركم مدبراً ومديراً . ويقيم لكم في أرض تحلّونها روضة وغديراً .

وقد أجابه ابن عمه المخاطب بما ذكر على الروي والقافية بقوله :

ثم عما قد كتمته   ما من الدمع سجمته
وشجا الشوق فؤاداً   لم يطعني حين أمته
سمته الصبر فحال الـ   ـوجد عمّا منه سمته
أيها الإخوان والسلـ   ـوان ذنب ما اجترمته
قسماً فيكم بشوق   مذ تفرقنا لزمته
ما تذكرت فؤادي   بعدكم الا رحمته
لا ولا مر بفكري   ذكركم ليلاً فنمته
ولقد جدد وجدي   بارق للغرب شمته
هاج لي ذكرى نعيم   مع من أهوى نعمته
وأفاد القلب قرباً   قلبه لما فهمته
من كتاب أوجب الأنس   وقد كنت عدمته
أحرزت كفي منه   غنمها حين غنمته
جاء فالاً باقتراب   بعد بعدٍ قد سئمته
معلماً لي بوداد   كنت من قبل علمته
فمددت القول في الشكـ   ـر عليه وأدمته
وتمَثلت يَميناً   رسمته فلثِمته
يا إمامي وحفيدي   علم ما فيه إئتممته
فز وحز كل علاء   واحو ما رمت ورمته

وابق مخصوصاً بفضل أنت منحاه وسمته

لما وصلني كتاب سيدي الذي أعترف بإحسانه ، وأغترف من بحر بيانه ، وصل الله سعوده ، وأنجز من الآمال موعوده ، قابلته بما يجب له من إجلال وتعظيم ، وظفرت يداي منه بكتاب كريم ، وعندما حللت طبعه ، وحللت ربعه ، علمت أن من البيان لسحراً ، وإن من الدر ما يكون له بعض الصدور بحراً ، فلثمته عوضاً عن اليَمين التي رسمته ، ورسمته من المحاسن بما وسمته ، واتخذته سميراً متاجي ، أرفعه طوراً على رأسي تاجاً ، وأتخذه تارة إماماً فيما أحاول من صياغة هذه الصناعة ومنهاجاً ، ثم لما فهمت خطابه ، وأردت أن أكتب جوابه ، استشعرت بقصور فارتكبت بين جواب لا أرتضيه جواباً ، وإغفال ليس في حكم التأدب صواباً ، فقلت : الأول تعرض للإفتضاح وأبانة لقصور عن اتضاح . والثاني ولله العصمة إخلال بحقوق ، ووقوع في عقوق ، فرأيت أن خطب الأول أقرب ، وأن المغترف بقصوره لا يثرب ، مع أن إغضاء المخاطب عن المعترف معروف ، وطرف رضاه عن المساوي مصروف فأجبته بما أجبت ، وكتبت وما أدري أأخطأت أم أصبت . غير أني لم أفعل إلا وأنا على ما ذكرت معول ، ولم أقدم إلا وأنا على ما قدمت متكل ، وحق لمن شغلت النوى فكره ، واستلب فراق الأخلاء الأجلاء مثلك صبره ، أن يتجاوز عن هفواته ، ويقبل ما صدر منه على علاته . ومعاذ الله أن تكون هذه شكوى من تبرم بحالة ، أو سئم من حله وترحاله ، فقد أصبحت بحمد الله بملازمة من رفهتني أياديه ، ورفعتني خدمة ناديه ، بين مراد مكثب ، ومراد مخصب ، غير أن الإنسان يقوم بعذره ، ويقوم بزعمه سبباً لقصور فكره وضعف نظمه ونثره ، وأعرف سيدي أني بلغت مخدومنا أعزه الله سلامه ، وأوضحت له إشارته في ذلك الفضل أمامه ، فذكر أن العقد كما كان سليم ، وأن النقد نبذ بالعراء وهو سقيم ، وهو مثنٍ عليكم ، ومهد سلامه إليكم ، والله يحفظ على سيدي كماله ، ويبلغه آماله ، ويحرس احتواءه على الفضل واشتماله .

ومن شعر صاحب الترجمة ، أي أبي الفضل محمد التجاني ، مجيباً ابن عمه أبا محمد التجاني صاحب الرحلة عما خاطبه به من القصيدة المتقدم ذكرها ، والتي طالعها :

حبكم في الحشا مقيم الخ . قوله :

من لمشغوف معنى ذكر العهد فحنا

راعه الدهر ببين بعدما كان اطمئنا
أبصر الربع قواء فبكى شوقاً وأنا
وتمشي مشي ولها ن به يقرع سنا
وشجاه هاتف فو ق الربى غنى فعنا
إلفه دان فلو فا رق إلفاً ما تغنى
أطرب الروح وأبرد ت شجوني حين ثنى
فهي من فرط ارتياح دون راح تتثنى
وتذكرت زماناً بالتداني مر عنا
وحديثاً ما أحيلا ه وسراً منه صنا
وبصدري ميت سر مدرجاً فيه أجنا
لست فيه بضنين عندما يعمل ظنا
أيها الأحباب ما بنـ ـتم ولكن نحن بنا
أطلعوا من قربكم صبـ ـحاً فليل البعد جنا
وانظرونا نقتبس من نوركم ما نتمنى
ما عليكم لو نظرتم نظرة الإشفاق منا
وسمحتم لقريح الـ ـقلب بالسلوان ظنا
لم يزل كل معنى يجلب الود معنى
راكباً في كل فن منه ذيالاً وفنا
لا يحاشي من فنون الـ ـود والإخلاص فنا
هل أمان من زمان فرض البعد وسنا
سن أغياراً وغارا ت النوى والبين شنا
ورمانا بسهام بعد ما كان مجنا
خاننا العهد وما للـ ـعهد والميثاق خنا
وجرى جري سبوق للنوى لا يتأنى
نال منا بافتراق بعد ما كنا أمنا
وعناء ترك الأبـ ـدان وهناً حين عنا
عقل العقل بتسريـ ـح مناصات فجنا

عندما شدت رحال ضعف الصبر فلنا
كيف بالصبر وأني بجميل الصبر أنى
ولعل الدهر ينسخ ما كان استسنا
ويعيد الشمل منظوماً كما كنتم وكنا
وإذا ما الله سنى عقد أمر يتسنى

سبحانه لا إله سواه ، وبإرادته يوقع الدهر ما نواه ، فمن يعتب الدهر أو يسبه ، في النار حصيدة لسانه تكبه ، فهو عبد بتصريف مالكه يتصرف ، ونكرة بإضافته الى أعرف المعارف يتعرف ، فلا ذنب ينسب إليه ، ولا أحد يعتب عليه ، سواء أنأى أو قرب ، وأهل أو غرب ، وسهل أو صعب ، وضم الشتيت أو شعب ، له أن يتحكم حكم الوصي ، ويستقصي حكمه في القريب والقصي ، وذو الحجى يستمسك بحلمه وعلمه ، ويسلم نفسه لحربه وسلمه ، ويرى أن لا حجة له في اعتراضه على افتراضه ، ولا سبيل لاحتكامه في أحكامه ، ولا قدرة على صرفه عن طرفه ، ولا حيلة في خديعته عن شريعته ، لا جرم أنه يجرم ويتوب ، ويحرم ويثيب ، وينجح إذ يجمع ، ويبخل ثم يسمح ، أحواله غير مقصورة على انفراد صورة ، ولا مبنية على اتحاد نية ، لا يدوم على حالة ، من إيجاب أو إحالة ، ولا يبقى على نسق ، في إصباح أو غسق ، بل يتلون تلون الحرباء ، ويتكون تكون الجرباء ، بينما تطلع نجومها ، يأفل نجومها ، فنجومها أبداً تطلع وتغيب ، ونيراتها لا يدوم لها الطلوع ولا المغيب ، وكذا الدهر مهما أعد للنوى طريقاً ، وجرع بضاعة الفرقة فريقاً ، أبان الى الدنو أسرع راجع وأشبهت عاقبته عاقبة دواء نافع ، وقد مدت النوى منكم باعها ، حتى كادت الأيام تتناسى طباعها . وعند هذا التناهي يقصر متطاولها ، ويقرب من الأماني الصادقة بكم متناولها ، مع نجح الطلب ، وحسن المنقلب ، إن شاء الله تعالى ، والله سبحانه لطيف بخلقه ، حاكم على الدهر وخلقه ، يقضي وفي قضائه لطف ، ويؤكد إرادته وفي تأكيده عطف ، ألا تراه كيف يسر لمولانا المعظم ، ما سره من الشمل المنظم ، وذلك بانفراج المتضايقين ، شوق وخلد واجتماع المتضايفين ، والد أعزه الله ، وولد بعدما كانت النفس شعاعاً فعاد الشمل بذلك نظيماً ، وأصبح غيظ الدهر الذي لا يكاد يكظم كظيماً ، وعما قريب ينظم به شمل الأوامر والأمور ، وتلحق بركته وهو مقيم ببلده سائر المعمور ، وقد طال عهدي بتقبيل راحته ، واستئان قلبي مع تعبه من راحته فهي راحة عهدتها كالعادة جوداً ، وكنت بها

ممطوراً مجوداً ، أيام كنت من خاطر الخطير ببال ورزقت منه حظي في قبول وإقبال ، والزمان يقبل ويعرض ويصح ويمرض ، وأنا أنتظر هذا الوجود أن يجود وأرتقب تلك السعود أن تعود ، فلي بضاعة ولاء تثمر بوفورها مربحي ، وتعمر بموالاة تجرها ممساي ومصبحي ، والله أسأل أن لا يمد بفرقتكم مدة البين ، وأن يعود بعودكم قلبي الى جسدي فما جعل الله لرجل من قلبين ، إنه المنعم والقادر ، وعند أمره يقف الوارد والصادر . ا هـ .

ومن شعره يصف إحدى عشياته بموضع بقابس يعرف بساحة عنبر :

أذكُرْ عشيّتنا بساحة عنبر والجو يتحفنا بنكهة عنبر
حيث النخيل عرائسٌ بسط الحيا بُسطاً لها من أخضر ومن أصفر
والشمس تستحيي فتستر وجهها عنا بسترٍ للعروس محبّر
والنّور بين مفضّض ومذهّب والنوُّر بين مُدَرهم ومدنّر
والنهر والعذراء رحن سوابغاً إذ صُفّت الغابات صفّ معسكر[1]
والبحر يرمقنا بمقلة أزرق والبر يرمقنا بمقلة أعفر
في جنة لو نِلتُ من خُلد بها قصدي بلغتُ الى النعيم الأكبر
ومحلّ أنس قلت بين رياضه برياضة قادت كأبهى منظر
ملنا بمنعرج المصلّى نحوه حذر الرقيب وليته لم يحضر
تجري أحاديث الصبابة والصّبا بأرقّ من مسرى الصَّبا المتعطِّر
ويدير كاسات المحبة بيننا فنميل منها بالحلال المسكر
حتى إذا ولّى العشيّ وآن أن نمتار من نظر المراد الأنظر
قمنا نجر من العفاف سوابغاً لمّا نغيّرها بصبغة منكَر
يوم بقابس جنة الدنيا وفي قلبي لشوق البين حرقة معصر

129 – أبو الحسن علي بن إبراهيم التجاني

ولد بتونس ، وبها نشأ رفيع البيت سامي المجد ، فطلب العلم والأدب عن علمائها ، فظهرت براعته . واتسعت في العلم والأدب بضاعته . فأفاد وكرع في معين علومه

(1) العذراء : إسم موضع بها .

طلاب العلم الصواد . وله رحلة الى المشرق للحج لقي فيها الأعلام ، وكان مع ذلك شاعراً مجيداً .

من شعره وقد أقام بطرابلس على غير اختياره مدة ثم توجه الى الحج . وذلك سنة 684هـ يمدح أهل طرابلس بحسن المجاملة ، ولقاء النزيل بالبر وخير معاملة :

لأهل طرابلس عادةٌ　　من البر تنسي الغريب الحميا
حللت بها مكرهاً ثم إذ　　أقمت بها أبدلوا الهاء ميا

وترجم له الجلال السيوطي في **بغية الوعاة** ووصفه بالنحوي ، وقال هو استاذ تونس يقرأ عليه النحو والأدب قال : وقال في **المسالك** إن أبا حيان عده في نحاة البصرة ، وإن من شعره :

إن الذي يروي ولكنه　　يجهل ما يروي وما يكتب
كصخرة تنبع أمواهها　　تسقي الأراضي وهي لا تشرب

130 – أبو عبد الله محمد بن عبد الله الهواري التونسي

نشأ بتونس ، وطلب العلم والأدب فبرع ، فكان عالماً أديباً فقيهاً صوفياً ، خيراً نزيهاً . شاعراً .

وله شعر رائق ، منه مخاطباً أبا محمد عبد الله التجاني وهو بطرابلس بقصيدة منها :

ومن السعادة وصل خل صالح　　عن كل فعل سيء ينهاني
من لي بخل كان يؤنس وحشتي　　ويؤمّني بالبشر إذ يلقاني
صاحبتُه في الله أحسن صحبة　　فشكرت منه كل ما ولاني
ورأيت منه تودداً ومحبة　　وفضائلاً زادت على الحسبان
لا غرو إن حاز الكمال فإنما　　وقفُ الكمال على بني التجاني
كم زهرة في روضة سمحت به　　فرأيت بستاناً لدى بستان
فوداده عندي نضير دائم　　وثناؤه غض بكل أوان
أمقدم الآباء دون منازع　　وسلالة الحسباء والأعيان

وأجلّ حبر قد سما في عصرنا بالعلم والآداب والإتقان
قد جاءني منكم كتاب سرني بالبشر والترحيب إذ حياني
إني لأحيا إذ سمعت بذكركم فيميتني شوقي إذا أحياني
ولربما أدمى جفوني ذكركم فأخال قلبي فاض من أجفاني
فالله يجمع شملنا بلقائكم ويزينكم بالعفو والغفران
وعليكم مني سلام دائم متعطر ما اهتز غصن البان

ومنه يجيبه عن كتاب وشعر :

كتابكمُ أهدى من الجود ما أهدى فلا تحسبوا أني نقضت لكُم عهدا
سرى لي بسرّ منه عَرف معرّف أفاد لمسراه الصبابة والوجدا
حباني بحب سيّد فيه ماجد به شرّف الله السيادة والمجدا
نسيم الصبا بالله سرْ بتحية فضضتُ بها من شكره المسك والندا
أحيي بها عبد الإله على النوى وأدرج أثناها له الشكر والحمدا
كأني به لمّا جرى البينُ بيننا ومد حجاب البعد ما بيننا مدّا
يقول جفا أو ملّ أو مال أو سلا وحال عن الإخلاص أو نسي الودا
غرامي غرامي بالحبيب وإن نأى وحبي له حبي دنا لي أو صدّا
وإني لمشتاق إليك وصابر إذا لم أجد مما أكابده بُدّا
إذا خطرت ذكراك يوماً بخاطري وجدت لجر الشوق في إثرها بَرْدا
ألا نفحة منكم تبرّد باطني فإن بقلبي من أليم النوى وقْدا
ألا موعد منكم يعلل مهجتي فأرتاحُ للقيا وأستنجزُ الوعدا
لئن جاءني يوماً بشير بقربكم وهَبتُ له نفسي وأهوِنْ بها نقدا
وإني لأستجدي ودادك إنه أجل نفيس والأفاضل تُستجدى
وإني لأستجدي سلامك جالياً لما جر أنسي والأكارم تستهدى
وإني لأستدعي جوابك راغباً ليُفتح بابُ القرب من بعد ما سُدّا
لقد ضيع الأصحاب عهدي ولا نَوى وأنت بظهر الغيب تحفظ لي الودّا
سأشكركم شكر الرياض لسحبها وانظم فيكم من حُلَى مجدكم عقدا
وأجهد في شكري لمجدكم عسى بفضلكم أن تقبلوا مني الجهدا

وقد أجابه أبو محمد عبد الله التجاني صاحب **الرحلة** عن قصيدته هذه بقصيدة على رويها وقافيتها نصها :

إن لم تفض بدمائها أجفاني ... لفراق من أهوى فما أجفاني
أو لم أواصل ذكر إخواني فقد ... أصبحت معدوداً من الخوان
من مبلغ عني السلو بأن لي ... في الحب قلباً غير ذي سلوان
عندي لأحكام الوداد شريعة ... أضحى القصي بحكمها كالداني
لا أرتضي إلا الوفاء طريقة ... ما الغدر من خلقي ولا من شأني
ولئن نسيت فلست أنسى صاحباً ... يصل التذكر لي ولا ينساني
خلي الذي عزت به هوارة ... عزى بصحبته على أخداني
من قد صرفت إليه وجه مودتي ... وصرفت لحظي عن فلٍ وفلان
ذا المنزع الاحلى الذي أجرى به ... في الناس حالته على ميزان
ذات قد اختصت بكل فضيلة ... فاختصها بالشكر كل لسان
يسدي تفضله الى إخوانه ... ويعد فيه الفضل للإخوان
كم خصني من نصحه بفوائد ... أهدى الى حليها فهداني
ولكم أبان لي الحقائق فكره ... فأقام صورتها مقام عيان
ولقد أتاني من لدنه على **النوى** ... كتب أتاني الأنس حين أتاني
قد وفيت فيه البلاغة حقها ... ما بين ألفاظ وبين معان
جمع الصنيعة والصناعة مازجاً ... تبيين **إحسان** بحسن بيان
ورأيت في أقصى الصحيفة أسطراً ... ألفن بين الحسن والإحسان
من ماجد أسدي إلى أياديا ... ما لي بواجب شكرهن يدان
جاءت تقرر من كريم وداده ... ما حل من قلبي أجل مكان
لما قرأت **خطابها** ففهمته ... ناديت والسراء ملء جناني
قد أتحفتني بالوداد بنو أبي ... زاك ففخراً يا بني تجاني

ومن شعر صاحب الترجمة أي أبي عبد الله محمد الهواري ما كاتب به صاحب **الرحلة التجانية** المار ذكره جواباً عما كان خاطبه به . قال التجاني في **رحلته** : كتب الى الفقيه الأجل الأفضل أبو عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالهواري ، وأظنه وقف على مطلع قصيدة الفقيه البليغ أبي الفضل (يعني به ابن عمه) القافية ، فأشار إليه ، وعول

في مطلع قصيدته هذه عليه :

أهدي سلام الود خير حبيب … من عد أول فاضل وحسيب
أهداه عبد الله نجل محمد … فخر الزمان إمام كل أديب
فأعاد لي أنساً مضى وأفادني … بمصنف من نظمه وغريب
وكفاية أبدت فصيح بيانه … برسالة طبعت على التهذيب
هي درة الغواص جلت قيمة … ويتيمة عزت لدى التقليب
حلت فجلت كل هم كان بي … ودنت فاقصت زفرتي ولهبي
صدرت عن الفكر الصقيل عن الحجى … عن صدر حبر بالعلوم رحيب
ما كتبه إلا الكتائب أقبلت … ترتج بالترهيب والترغيب
يا أيها الحل الرضا الأوفى الذي … ما نأيه عن خله بقريب
لله درك من رئيس فاضل … متيقظ متحفظ محبوب
شرفت مقداري ببعث قصيدة … هزت لها الأدباء عطف طروب
فكأنها روح أتى ذا كربة … ومدامة دارت على شريب
بادرتها كلفاً بها فلثمتها … ولقيتها بالبشر والترحيب
لما اجتهدت أصبت في مدحي لكم … بلسان صدق جل عن تكذيب
فلنا بنثرك والقريض كليهما … أجران جاءا لاجتهاد مصيب
في بعث ما تهدونه من كتبكم … مسلاة قلب ظل في تعذيب
لا تحسبوا أني سلوت ودادكم … في حالة الإبعاد والتقريب
أخذت على قلبي حقوقك موثقاً … رعي له يبقى بقاء عسيب
فاحضر وغِب عني فَودّك ثابت … أرعاه فيك بمحضر ومغيب
فإذا ذكرتك خالياً فكأنما … جمعت لي الأفكار كل حبيب

فأجابه عنها التجاني المخاطب بها بقوله :

إن أقض من أسف فغير عجيب … فرط اشتياق وابتعاد حبيب
ما قلت قد بلي التفرق فانقضى … إلا وجدده جديد خطوب
ولقد شجا نفسي وأضرم لوعتي … وأثار أشجاني وهاج كروبي
برق بدا والليل أرخى سجفه … والبدر شمر ذيله لغروب

أجرى حديث القرب صادق فاله ... ففهمته من لفظه المقلوب
يا بارقاً أعدى الفؤاد بخفقه ... وطوى الضلوع على لظى ولهيب
الله والعهد القديم ونسبة ... يرعى نسيب مثلها لنسيب
فلقد تشابهنا انسكاب مدامع ... ولزوم سهل واجتناب سهوب
إن أنت جزت على ربوع أحبتي ... فاشرح لهم شوقي وفرط وجيبي
واخصص أبا عبد الإله محمداً ... بتحية كثنائه في الطيب
أبلغه أن القلب بعد بعاده ... لم يخل من حزن ولا تعذيب
ذا السيرة المثلى الذي قد جل عن ... مثل يرى فيها له وضريب
كم من يد أسدى إليّ على النوى ... لم يسله عن ذاك طول مغيب
متضمناً نثراً ونظماً أزريا ... حسناً بكل مخيل وخطيب
قد أودعت جمل المحاسن منه في ... لفظ وفي معنى وفي أسلوب
وأراد مني أن أجيب وإنه ... لمدى يقصر عنه كل أديب
فأجبته ولو استطعت توقفاً ... فيما أراد لكنت غير مجيب
لكن لوازم حقه وفروضه ... حكمت علي بذاك حكم وجوب
فبعثته والخوف يقصر خطوه ... يرنو بلحظ للحياء قريب

131 – أبو إبراهيم إسحاق بن حسينة التونسي

نشأ بتونس ، وأخذ العلوم والأدب عن علمائها حتى ظهر فضله . وكان محصلاً على الحظ الأوفر من العلوم ، أديباً بارعاً في الكتابة والشعر . انخرط في سلك كتاب الدولة الحفصية ، وصاحب السلطان أبا يحيى زكرياء الحفصي في سفرته سنة 706هـ لفتح جزيرة جربة . ثم أذن له في الرجوع الى تونس سنة 707هـ .

ومن شعره يودع السلطان ويعتذر عن فراقه :

سخا بنفسي عن إيثار صحبتكم ... يومُ الوداع وما لي منكم خَلَفُ
إلّا فؤاداً كطير حلّ في قَفَص ... ودمعه مثل منهلّ الحيا يكِفُ
أكفّها عن مجاريها فيبعثها ... حادٍ من الوجد يحدوها فلا تقَف

خلالها زفرة تشتدّ طالعة تكاد من حرها الأضلاع تنقصِف
علمُ اليقين بأني إن صحبتكم أردى وشيكاً ولم يمهلنيَ التلَف (1)
فقلت ما صحبة دان تصرفها بعدي بفرقة وقت ما له طرف
وفي رجوعي رجاء للبقاء به أرجو حصول التلاقي حين تنصرف
فاختار عندك بعداً بعده صلة على اتصال ببعد الدهر يكتنف
فانظر بعين اعتبار ما أتيت به يقيم لي العذر في عليائك النصف
واترك مقالة أقوام ذوي غرض يردهم قصدهم عن بعض ما عرفوا

ومنه يصف سبخة توزر السواخة المعروفة بتاكمرت وما لقيه مع السلطان في قطعها :

قطّعنا التاكمرتَ سُرى وسِرنا صبيحةَ يومنا حتى الزوال
فلا تسأل لِما قاسيت فيها من الأهوال والكُرب الثقال
عَناءٌ ليس يشبهه عناء يضيق لديه متسع المقال
وليل لا تسير به نجومٌ كأن نيطت الى بعض الجبال
وأرياح تُصمّ الأذن منها تهب عن اليمين أو الشمال
تصد عن طريق القصد قصدي وتضرب حُرّ وجهي بالرمال (2)
ولا أستطيع فتح العين فيها لبعض الأمر إلّا باحتيال
وأجهد في دفاع النوم عني لخوفي من سقوط أو ضلال
وما زلنا نكابد في سُرانا مهالك لا تقابل بالحيال
الى أن لاحت الغابات ظهراً بظاهر توزر مثل الخيال
فهنّأ بعضنا بعضاً سروراً ونلنا راحة بعد الكلال

ومنه جواباً لأبي محمد عبد الله التجاني عن أبيات غير قوافيها وصرفها الى مدحه :

يا نسمة الروض الذي نظمت له زهراً نحلّاه يدُ الأمواه
سيري مبلّغة على شحط النوى طيب السلام لمجد عبد الله

(1) وشيكاً : قريباً .
(2) القصد : الإستقامة .

الفاضل الأسمى الرضي الأسنى الذي   حاز العلى والفضل دون مُضاه
وتحمّلي مني إليه تحيّة   كالمسك أو ذكراه في الأفواه
وصِفي الذي قاسيت بعد فراقه   فلقد دهتني من نواه دواهي
الله — عبد الله — يعلم أنني   بوداد مثلك في الزمان أباهي
وبعثت هذا الطرْس نحوك قاصداً   تقرير ود فيك ليس بواه
لا زلت في نعم تجل وعزة   وعلو مقدار ورفعة جاه

ونص ما خاطبه به أبو محمد التجاني المذكور الذي هذه القصيدة جواب عنه هو قوله :

يا نسمة الروض الذي حاكت له   أيدي الغمام ملابس الإبراق
سيري مبلغة على شحط النوى   طيب السلام الى علا إسحاق
الفاضل الأسمى الرضا الأسنى الذي   حاز العلا والفضل باستحقاق
وتحملي مني إليه تحية   كالمسك نم شذاه في الآفاق
يزداد منها من تنشّق عرفها   طيباً متى ما زاد في استنشاق
وصفي له بعد التفرق قدر ما   لاقيت من وجد ومن أشواق
الله يا إسحاق يعلم أنني   للشكر في علياك ذو استغراق
وبعثت هذا الطرس نحوك قاصداً   تقرير ود مبرم الميثاق
فأتى يبين إليك صدق مودتي   إن الخطاب على البعاد تلاق
لا زلت في نعم تجل ورفعة   ولك الإله من المكاره واق

ولصاحب الترجمة جواباً لأبي محمد التجاني أيضاً :

أعبد الله قد حزت المعالي   وفقت كبار أعلام الرجال
ملئت نباهة وملئت علماً   وأكثر من ترى من ذاك خال
فأنت أمام أهل العلم طراً   لك التقديم في هذا المجال
ولما أن أتاني منك كتب   سررت بأن حالك خير حال
وأن عهدتنا في حال نعمى   وقاه الله من عين الكمال
وأبقاه لإسداء الأيادي   وتشييد المكارم والمعالي
وقلتم كيف حالكم وحالي   وقد فارقتكم بعد اتصال

فحالي كلها غم وكرب فوا أسفي لما قضت الليالي
فدمع العين لا يرقا وقلبي له وجد حكى وخز النبال
وكيف أظن أمر الصبر هيناً وأن الوجد عنا ذو انفصال
وأن فراقكم يبلي فينسي سوى ذكرى إذا خطرت ببال
فكان بعكس ما قدرت فيه فلا تبخل بتكرير السؤال
فقلبي لا يفارقه التياع كما يصلي بحر النار صال
فلولا أن سني لم يعني وأن بناء جسمي ذو اختلال
لكان الجسم عندكم كقلبي ولم أحفل بأهل أو بمال

ومن شعر صاحب الترجمة أيضاً يخاطب أبا محمد عبد الله التجاني قوله :

أعبد الله فقت ذوي المعالي حباك الله أياماً سعيدة
ونلت منال آباء كرام لهم في المجد آثار حميدة
أردت إليك إرسالاً بشعر لأسمع من جوابك لي مديدة
فإنك مستمد من بحور سواحلها غدت مني بعيدة
فإن جاوبت عن نظم بنظم بعثت بقطعة أيضاً جديدة
فلا أبقى لأطلب منك نظماً ولا أبقيت تطلب لي قصيدة

فأجابه أبو محمد التجاني بقوله :

أمحرز كل منقبة حميده ومن لم نلف في الدنيا نديدة
أعنت على النظام بحسن طبع وأفكار مؤيدة سديدة
وتسألني الجواب وإن فكري ليقصر عن مجاريك الحميدة
فمهد لي على التقصير عذراً وهوّن من مطالبك الشديدة
ودُم في عزة وبلوغ قصد وسعدٍ دائم وعلي جديدة

ومن شعر صاحب الترجمة قصيدة خاطب بها أبا زكرياء يحيى بن اللحياني يطالعها :

عرِّج يا صاح على الطلل واسكب أجفانك في الحلل

ولأبي محمد التجاني صاحب الرحلة قصيدة عارض بها هذه القصيدة في نفس

الغرض المقولة فيه مخاطباً أبا يحيى زكرياء أيضاً بقصد رجوعه الى الحضرة التونسية وعدم دخوله الى مدينة طرابلس لجدبٍ أصابها في تلك السنة مع نزول علة شديدة بالسلطان المذكور إذ ذاك تمنعه من التوغل في سفره ، ونصها :

طلعت كالبدر المكتمل ... فتوارى البدر من الخجل
وآمال اللحظ تمايلها ... عن غصن البان المعتدل
حوراء يحار الصب بها ... ويخلي السلوة كل خلي
حكمت بهواها في فلم ... يعدل في الإمرة حين ولي
فأبحت النفس لما احتكمت ... وحميت السمع عن العذل
جمعت أشتات الحسن فقد ... زادت في الحسن على المثل
كأبي يحيى تلقى منه ... أشتات الفضل لدى رجل
مولى زهت الأيام به ... ونحلت من بعد العطل
ينميه أبو العباس الى ... حسبٍ في مرقى المجد علي
شرف بالإرث تملكه ... فتنقل أحسن متقل
بأس كالنار إذا اضطرمت ... وندى كالغيث المنهطل
قد ألقى الله بحكمته ... بيديه مقاليد الدول
يمضي الآراء مسددة ... في قول أنفذ أو عمل
مولاي قصيدة ممتدح ... وافاك بشعر مرتجل
طلبت إيضاح فضائلكم ... فحكت منها بعض الجمل
فإذا أحسنتُ فذاك لكم ... وإذا قصرتُ فذلك لي
وافت علياك معارضة ... «عرّج يا صاح على الطلل»
مع أن قصيدة أولنا ... فاتت سبقاً شأو الأول
وارجع لمحل حال بما ... يشكو لفراقك من علل
فأقم للدين تجدده ... في عز باقٍ متصل
واخلع أثواب السقم بما ... تكسي للصحة من حلل
فشروط الحج قد ارتفعت ... لزوال القدرة والسبل
عهدي بعبيدك فيه وقد ... مدوا يد داعٍ مبتهل
يرجون ثواءك عن كثب ... ودنو نقائك عن عجل

كانوا من عهدك في ظلل فغدوا من بعدك في خلل
فأنلهم منك مرادهم وانقع بالقرب صدى الغلل
واجمع شملاً بالأهل فقد ماتوا شوقاً قبل الأجل
واسعد واصعد وتسام وزِد وترقَّ ونل أقصى الأمل
والله يوفق رأيك في حلّ أزمعت ومرتحل

132 – الكاتب أبو عبد الله محمد بن يعيش التونسي

أنبتته رياض الحاضرة التونسية . وكان عالماً بالعلوم العربية ، فقيهاً أديباً ، شاعراً ، ناثراً .

من شعره وكاتب به أبا محمد عبد الله التجاني في سفرته مع السلطان أبي زكرياء سنة 707هـ .

شجاك الربع إذا ظعن الحبيب فأنت وإن نشأتَ به غريب
إذا بعُد الأحبة عن محلٍّ فما عيش بساحته يطيب
وكيف يطيب عيشٌ بعد خِلٍّ نأى فجميعنا صَبٌّ كئيب
بقرب أبي محمد المفدّى وأوبته السرور لنا يؤوب
عليه تحية ما انهلّ غيث على روضٍ فمال به قضيب

فأجابه أبو محمد التجاني بقوله :

عسى الزمن الذي ولى يؤوب فقد سئمت من الشوق القلوب
إذا ما قلت قد قرب اجتماع قضى بتفرق خطب ينوب
وأعظم من ترى أسفاً وحزناً حبيب قد نأى عنه حبيب
أبا عبد الاله نداء خل هواك له من الدنيا نصيب
رعاك الله من راعٍ لعهدي وإن طال التباعد والمغيب
أتتني منك أبيات حسان بها للفضل قد جمعت ضروب
أفادتني من إسمك حين وافت وطيب حديثها عيشاً يطيب

وأهدت لي الوداد على التنائي ففرت بعد كرتها الكروب
فثق مني بإخلاصٍ وودٍّ جديد ليس تبليه الخطوب
وإن تكُ مدة البعد استطالت فيرجى بعدها الفرج القريب

ومنه وكاتبه به أيضاً في شعبان سنة 707هـ :

بالقلب من ألم الفراق كلومُ فعذابه من أجل ذاك أليمُ
ولِلَوْعةِ الأشواق بين جوانحي نارٌ لها بمدامعي تضريم
جرَّبتُ كلَّ عظيمة حكمت بها أيامنا ولصرفها تحكيم
فوجدتُه دون الذي حكمت به في المعْلَوات وفي المكارم خيمُ[1]

منها :

أعلم فديتك إنني مذ غبت عن عينيّ لم يطرقها التهويم
وافى جوابك لي فقمت مبادراً للقائه ولمثل ذاك أقوم
حاز الفضائل والمكارم طرسُه فعليه من حُلل البهاء رسوم
أهدى لقلبي كل ما أحببته فكأنما هو بالضمير عليم
بيني وبين أكابر لك ذمة رعْيي ورعيُهم لها معلومُ
ومودة الآباء يحفظ عهدها من كان ذا كَرَم وأنت كريم
فالله يجمع شملنا بكمُ على خيرٍ ويحفظ عزّكم ويديم
ومن اليعيشي السلام عليكم ما مال غصن حين هبّ نسيم

أجابه عنها المخاطب بها بقصيدة على رويها وقافيتها نصها :

ألم الفراق على النفوس عظيم من ذا بعبء الصبر فيه يقوم
سلني بما أحببت من أنبائه فلديّ قلب بالشجون عليم
لله إخوان نعمت بقربهم زمناً وأيام الوصال نعيم
غاض الزمان دنوّنا فأعاده بعداً فشتت شملنا المنظوم

(1) خيمُ : سجية — .

لكنها الأقدار تجري بالذي شاء الإله وحسبنا التسليم
قسماً بما أضمرته من ودهم إني لقلبي بعدهم لرحيم
ولقد وجدت وقد فقدتهم أسى صبري بحكم وجوده معدوم
ومنعت جفني بعدهم سنة الكرى أنى يكون لهائم تهويم
ويظن من لم يدرِ ما بي من أسى قلبي سليماً منه وهو سليم
وأشد من آسى بفرقته أبو عبد الإله فقربه مغنوم
فهو الذي نازعته كأس الهوى صرفاً فلا لغو ولا تأثيم
ذو الفضل والعلياء والشيم التي وجه الزمان بحسنها موسوم
ذاتٌ قد انتسبت بزاكي طبعها للفضل فهو أخ لها وحميم
أخذ الوفاء سجية فضميره أبداً على حفظ الوداد مقيم
ودليل صدق وداده كتب له يصل الوداد وصولها ويديم
ولرب نظمٍ جاءني من نحوه جمع الفضائل طرسه المختوم
وافى فقرر ذمة مرعية ورسوم وِدّ عهدهن قديم
فالله يحفظ مجده وكماله وينيله ما يبتغي ويروم
وعلى علاه تحية ما ينقضي منها ورود نحوه وقدوم
تسري معطرة إليه كما سرى سحراً على زهر الرياض نسيم

133 – أبو عبد الله محمد بن أبي بكر البلوي المعروف بابن أبي سلام التونسي

نشأ بتونس ، فطلب العلم والأدب ، ولازم علماءها ، فبرع وبان كماله ، وكان عالماً فاضلاً ، أديباً شاعراً .

من شعره ، وقد كاتب به أبا محمد عبد الله التجاني ، وهو في صحبة السلطان أبي يحيى زكرياء مجدداً لعهد الوداد :

سلام محبٍ قد أتى طَيَّ طرسه وزارك عبد الله في ثوب نفسه
فخذه عن الزاكي المحب لكم فقد عدته العوادي عن أداه بنفسه

وبلغ الى المولى العماد تحية معطرة تحكي طهارة قدسه

أجابه أبو محمد التجاني بقصيدة نصها :

أتى فأتى القلب المشوق بأنسه نظام رأيت الدر في طي طرسه
كما زار صبّ عاشقاً بعد بعده وعاد رجاء آملاً بعد يأسه
كتاب أتى من لم يزل متشوقاً لإتيانه والدهر يقضي بحبسه
فقبّله تقبيل ذي كلف به ونقله من راحتيه لرأسه
رعى الله من راعى ذمامي على النوى ومن يومه في الود لي مثل أمسه
أبا عابد الله الأجلّ الرضا الذي سما قدره عن قدر أبناء جنسه
لقد حاز أشتات الفضائل واكتسى ملابس حمد زانهن بلبسه
إذا ضيع العهد القديم مضيع وباع وداداً من أخيه ببخسه
فلابن أبي ذاك عهود زكية ترفعن عن شك السلو ولبسه
أدام له الله السيادة والعلا وبلغه أقصى أماني نفسه

134 – أبو العباس أحمد بن عبد الله الرصافي التونسي

من أبنائها الذين شادوا مجدها الأسمى ، واشتهروا أدباً وعلماً . بذّ الأقران ، وازدان به الزمان . أخذ عن أساتيذها العظام ، فكان فارس الشعر والنظام ، فقيهاً أديباً ، بليغاً مجيداً . بذلك ترجمه التجاني في **الرحلة** .

من شعره قوله مخاطباً له :

سلام زكي يحسد المسك عرفه ودارين تهوى أن تمر بداره
يسير ويسري كي يوافي رضى أبي محمد الأسنى بحسن بداره

فأجابه أبو محمد التجاني بقوله :

رعى الله من أجلى الأسى باذكاره ومن قرب آمالي بقرب مزاره
خليل رعى عهدي وإن أقْصَت النوى دياري بماضي حكمها عن دياره
أتى نظمه صبابه شيقاً له يعاني الأسى في ليله ونهاره

فأذهب عنه حزنه وأناله | من البر والتأنيس فوق اختياره
ومن كأبي العباس فضلاً ووصفه | يزيد على الأخبار عند اختباره
فأسأل ربي أن يمنّ بقربه | وينظم منا الشمل بعد انتشاره

135 – أبو القاسم بن محمد بن الجلوم التونسي

ترجمة التجاني بالفقيه الأديب . ومن شعره مخاطباً له بهذه الأبيات :

أذكى السلام وأزكاه وأشذاه | بعطر العنبر الشّحري مسراه
يمرّ مرّ نسيمات الصباح على | ذاك المحيّا أعز الله محياه
من ذي وداد وذي شوق وذي كلف | بحبك الدهرَ يا من لست أنساه
بيني وبينك ودٌّ لم أخنه أبا | محمد فارْعَه إني لأرعاه
نفسي فداك لئن شطَّ المزار لقد | أدنتك مِن كبد المشتاق ذكراه
لئن أعلل آمالي فأنشدها | كم من أمور صعاب فرج الله
فلا تزال تحياتي مرددة | عليك ما رددت ذكراك أفواه

136 – أبو عبد الله محمد بن عمر بن راس الحجلة التونسي

ترجمه التجاني في رحلته بقوله : الفقيه المتصوف ، الأديب الفاضل .

ومن شعره يخاطبه :

أحبة قلبي ذبت في حبكم وجداً | ولم أستطع للدمع صرفاً ولا ردّا
وبين مكانينا من الرمل والرُّبى | متالف تنضّي ما يقاد وما يحدى
فهل تأتينّا من جنابكم الصبا | فأنشق من أرواحها المسك والندّا
فعهدي بريّاكم وطيب نسيمها | يعيش بها في الترب من سكن اللحدا
سلام على ذاك الجلال فإنني | رأيت سلام الله أفضل ما يُهدى

أجابه أبو محمد التجاني بقوله :

حيا الفؤاد على بعد فأحياه خِل أبت غير حفظ العهد علياه
أهدى إليّ سلاماً من لدنه فقد أهدى إليَّ الأماني حين أهداه
وقد كساني ثياب الأنس ضافية طرسٌ كسته ثياب الوشي يمناه
دنا فأدنى سروراً كان قبل نأي وصادف الحزن ذا قرب فأقصاه
قد استوى الناس في استحسان جملته لما استوى لفظه حسناً ومعناه
يا غائباً حاضراً في حال غيبته فكلما شئت أن ألقاه ألقاه
أما الوداد الذي قررت صحته فإنني مثلما ترعاه أرعاه
ما حلتُ عن حب من أحببت منقلباً ولا نسيت هوى من كنت أهواه
فثق بود صحيح من أخ ثقة باقٍ على حفظ عهد ليس ينساه
ودُم أبا القاسم الأسنى حليف علا واسعد وفُز واحوِ أقصى ما تمناه

فأجابه بقوله :

سلام يحاكي المسك في الطيب والندى على ماجد قد فاق أهل العلا مجدا
حباني بطرس منه مشتمل على معاني معالٍ لست أحصرها عدّا
فقرر وداً لم يزل متقرراً وأهدى من الإخلاص والبر ما أهدى
إذا الناس عدوا كان أحلاهم حلى وأفضلهم ذاتاً وأكرمهم عهدا
أدام له الله السيادة والعلى وأصحبه التوفيق واليمن والسعدا

137 – أبو عبد الله محمد الجزري التونسي

ترجمه التجاني بقوله : صاحبنا الفقيه الأفضل .

ومن شعره ما كتبه إليه من قوله :

أيها الماجد الرضي إن نظمي لست أرضى بأن يحل لديك
فعسى الفضل في القبول وفي الصفـ ـح إذ الصفح صار منك إليك

فأجابه التجاني بقوله :

أيها الخِل ان نظمك وافى مبدياً ما من الوداد لديكا
فتامّل جواب خِلٍّ محب فيك شاك نواك مثنٍ عليكا

وعلى مجدك الصميم سلام طيب العرف قدر شوقي اليكا

138 – أبو زيد عبد الرحمان بن أبي القاسم بن نزار السهمي التونسي

ترجمه التجاني بقوله : الشيخ الأديب الفاضل ومن شعره يخاطبه :

وصلت تحية نازح بوساطة فكأنها نشر الرياض مع الصَّبا
وكأنما يهدي النسيم مع الشذى منها لناشقه ثناك الطيبا
وكأن عبد الله إذ حيّا بها عيسى بغير نبوة لكن نَبا
فعليه منّي ردها لو أنّني جُبت القفار بها لكان الأوجبا

ومن شعر صاحب الترجمة مخاطباً أبا محمد التجاني أيضاً ومن كان برفقته في رحلته مع أبي يحيى زكرياء بن اللحياني قوله :

حي المعاقل والرعان لجمعها رعياً للمر إذ رعى الأحبابا[1]
سكنوا الرعان وأسكنوه فما لهم ساروا الغداة بخلبه خلايا[2]
من أجل من حلّ الحمى أهوى الحمى وأحب لي في لابه إلبابا
وجدي بهم وجد أفاق به قوي عزم اللحاق بهم نوى إيجابا
مولى كبدر والنجوم صحابه نجل وخدن أو حشا الأصحابا
حلوا بآفاق العلاء كواكباً إسعادها يستبعد الألبابا
سيعود منزلنا الشمال كما بدا وظهورها من أن يرى منجابا
وكذا الثوابت نورها يسعى بها تأبى الجفاء وتألف الآدابا
تكني من المولي جلالة قدره عن أن أجل بذكره الإسهابا
ولدى المفدي حكمة نبوية تبري السقام وتذهب الأوصابا
وحوى البلاغة والبراعة آنساً عبد الإله وقد شأى الأترابا
فالله يسعدنا بهم ويأمنهم وينيل كلاً منهم الآرابا
وعليهم مني السلام مقبلاً ترباً يرب نواله الأترابا

---

(1) المعاقل : جمع معقل ، أي حصن . الرعان : جمع رعن ، أعلى الجبل . دمر : جبل بغمراس .
(2) خلبه : أي قلبه .

وكان عنوان الكتاب من شعره أيضاً ونصه :

للسيدَيْن أخ ونجل بارع | إسحاق مع عبد الإله يسلما
لا زال كل منهما متحلياً | بالفضل والآداب دأباً مكرما

وقد أجاب أبو محمد عبد الله التجاني بأبيات نصها :

أحَمِلتَ عرْفَ المسك يا ريح الصبا | أم ساق نشرك لي حديثاً طيبا
فلقد أعاد الروح روحك إذ سرى | من بعد ما قد قاربت أن تذهبا
هي تحفة وفت بنو سهم بها | سهمي وأولوني الحباء المحسبا
دعت الحياة فأقبلت منقادة | واستدنت الأمل القصي فأكثبا
وأتت إلي وقد حوى إيضاحها | جملاً أعادت لي السرور مقربا
يا ماجداً أعددته لي سيداً | وأعده كبراً وإجلالاً أبا
هاك السلام على النوى من ذاكر | لك بالجميل مشرقاً ومغربا
واصحب أبا زيد جديد سعادة | تثني الأبي من المطالب مصحبا

139 – أبو بكر بن فتح الغماري النفزاوي شاعر نفزاوة

نشأ ببلده ، وطلب العلوم والأدب فبرع . وكان فقيهاً عالماً بالعربية . أديباً شاعراً . وكان له تقدم في حسن الخط ، انفرد فيه بطريقة اخترعها لم تعرف قط في أنواع الخط المعدودة . وبرع فيها في وقته جماعة من أهل الجريد أخذوها عنه . وكان ظريف المنزع ، حلو المحاورة ، لطيف الإشارة . وكان مقيماً بطرة من نفزاوة .

ومن شعره هذه الأرجوزة خاطب بها أبا محمد عبد الله التجاني لما حلّ بنفزاوة مع مخدومه السلطان أبي زكرياء الحفصي يسليه عن غربته ، منها :

إرباْ بنفسٍ حُرّة عن ذكر ما | يبلبل البال لسُكّان الحمى
وعدّ عن رقة طبع عُذري | فما لذي عقل به من عذر
وإنما الإنسان بالشهامة | فدم بها حفت بك الكرامة
واحتملِ القسوة والبداوة | وأهلها ما دمت في نفزاوة
طبع المياه والهواء والبلد | قل عائذاً بقلّ هو الله أحد
إن هي إلّا سفرة ستسفر | عن حسن عقبى مع وفر يفر

لو بعث في أثنائها دنياكا | وأنت ذو ملك وما أدراكا
بجلسة بين يدي عماد | وُقّيت فيها أعين الحساد
ونظرة لوجهه مشتقة | من نضرة النعيم فاعلم وأفقه
كنت على ما بعت منه رابحاً | فاضمم على يقينك الجوانحا
زهر النجوم حاسدات موضعك | إي والذي بفضله قد رفعك

وأنت بالتمييز جد عالم | بين الذي رأيت من عوالم
فاحكم بعقل راجح وفهم | تجدك فزت بأجلّ سهم
فاشكر يزدك الله من إكرامه | والحسب المرضي من أمامه
بأفضل الخصلة والمراتب | أضحى لك الخير ويمن راتب
صابر على التأويب والإدلاج | ودائم الألجام والإسراج
واقطع مداها فدفداً ففدفداً | واصغ لحادٍ في مغانيها حدا
واشرب زلالاً لا زعاقاً آسن | وعدْ عن تعتيق كل ماجن
كذاك حتى تبصر المعالما | من دار ترشيش صحيحاً سالما
كبر هناك ساجداً لله | سجود عبدٍ حامدٍ أواه
واستقبل الأعراس والأفراحا | وعاط من تهواهم الأقداحا
قرير عين باجتماع الشمل | وأنس النوى بعد بطيب الوصل
بأسعد المولي العماد المحسن | كهف بني الدنيا وحيد الزمن
أدام ذو العرش له السعودا | وأرغم الشانيء والحسودا
وخص كلاً منه بالإنعام | ما سبح الرعد من الغمام

إيه أخا الفضل العميم ذكّر | مقامهم بعبدهم وقرر
فإنه يرتقب الوعودا | مؤملاً جودهم العتيدا
عساهم أن يجبروا الكسيرا | كان الإله لهم نصيرا
وأفضل الصلاة والتسليم | على النبيء المصطفى الكريم

ومن شعر صاحب الترجمة ما خاطب به التجاني صاحب **الرحلة** لما نزل هو ومخدومه السلطان الحفصي ببلده طرة من أعمال نفزاوة ، ورفع يومئذ قصيدة مطولة للسلطان الحفصي لم يذكرها صاحب الرحلة كاتبه بقوله :

يا أيها السيد والمستفاد جوهرة أحسد فيها العباد
خاطبت ذاك المجد أثناء ما رفعت للمولى الأجل العماد
وإن علمي أنه صائر إليك تقريراً عن الإعتماد
منتظر منه الجواب الذي أنا الثرى وهو انسكاب العهاد
مسافراً منه تزودت من رضاه زاداً ما له من نفاد
وأنت زودني مقيماً فلي من فضل سعي صالح خير زاد
زادان ذا يغني لأدنى مدى وذاك يبقى ذخره للمعاد
ودُم لعَين الأدب المنتقى قرير عين قرة في السواد

قال التجاني صاحب الرحلة ولما ناولنيها رسوله ارتجلت له في الحال :

يا نسمة الروض سقته العهاد صوب حياً روى الربى والوهاد
وحدقت أزهاره أعيناً مرادها رؤية ذاك المراد
أنهي إلى عُـلْـيَـا ابن فتح إذا بلغته عني السلام المعاد
قولي لمن أفردت علياءه مني بودّ صادق واعتقاد
إن لم نكن قبل اجتمعنا فقد رأته قبل العين عين الفؤاد
وجّه نحوي رقعة برة قد نظمت نظماً يهز الجماد
نظم بديع اللفظ مستحكم المـ ـعنى شديد الأسى سهل القياد
قرر فيه بيننا ذمة باقية الرسم ليوم التناد
فثق بود من أخ مخلص يراك أسنى صاحب مستفاد

وهاكها من شاعر لم يزل ... يهيم من ودك في كل واد
مشتغل الخاطر قد قسمت ... أفكاره أيدي النوى والبعاد
ما بين تحنان الى موطن ... قد طوحتني عن ذراه البلاد
وفرط وجدٍ بأناس به ... محضتهم مني صريح الوداد
وابق مدى الأيام في عزة ... وأنعم ليس لها من نفاد
ما غردت ورقاء في أيكة ... وهزت الريح قضيباً فماد

ولما وصلت هذه القصيدة إلى صاحب الترجمة أجاب عنها بقوله :

أراحة غبٌ أليم العنا ... أم سنة بعد طول السهاد
أم فجأة الوصل عقيب الجفا ... أم مستطاب الري بعد الحراد
أم رقعة من بها سيد ... طابت بها الأذكار في كل ناد
أشعرني البشري وحسبي بما ... قرر من ود وحسن اعتقاد
أيتها النفس اتكالاً على ... من رفع السبع الطباق الشداد
وفعل مولي شد ركن العلى ... مطرزاً أعلامها بالجهاد
أيـده الله بـأيـد لـه ... فعلى العوالي والسيوف الحداد
وأنت يا أفضل من يرتجى ... لفضل سعي صالح مستفاد
داركك الله بـألـطـافـه ... مقرباً شملك بعد البعاد
صابر لك الخير ضروب النوى ... واقطع مسافات الربى والوهاد
فعن قليل سوف تلقي الأولى ... محضتهم منك صريح الوداد
قرير عين بالذي شئت من ... قرب وساد بعد طول السهاد
وفضل نعمى بردها سائغ ... ما انهل قطر فوق قطر وَجَاد
وصل صلاة الله للمصطفى ... خير شفيع ضامن الخلد هاد

وذكر صاحب **الرحلة** المذكورة أن صاحب الترجمة لما رفع قصيدته المشار إليها سابقاً الى أبي يحيى الحفصي تعرض في أثنائها الى ذكره ، أي الى ذكر صاحب الرحلة فقال :

هذا انتصاب العبد خيفة ناقد ... أو ذي معارف يستطبل بياني

لا سيما ولديك جهبذ نقدها والويل من مُجاجها التجاني
الفاضل الفطن الجلي في المدى والأخصل المختار خصل رهان
بأبي محمد استقل رواؤها وشفى الروي منها صدى الظمآن
غواص لجهتها ومخرج ما بها من لؤلؤ رطب ومن مرجان
ومقلد الأجيال كل سنية أربت على الياقوت والعقيان
ولربما أهدى إلى جميل ما منه بظهر الغيب قد أولاني
فلأجعلنْ مما عناني شكره وأسجلنْ فيه هموم عناني

قال التجاني صاحب الرحلة بعد أن ساق هذه الأبيات وما قبلها : ولما رأى ما لجواني المتقدم من الحنين الى الوطن ، والتشوق الى المسكن والسكن ، كتب إلي بهذه الأرجوزة المزدوجة مداعباً ومنبهاً ، على حسن التوسط له وساقها ، وقد ذكرناها سابقاً . ثم قال التجاني في رحلته عن نزوله مع أبي يحيى الحفصي بمنزل بشرى . فقال : نزلنا بجنة من جنانها ، ووصل إلينا بهذا المنزل الفقيه الأجل أبو بكر بن فتح يعني صاحب الترجمة من مستقره طرة بسبب وعد بإحسان كنت وعدته إياه عن مخدومنا ، فبينما أنا بداخل هذه الجنة إذ دفع إلي بوابها براءة ، ففتحتها فإذا فيها :

لقاؤك فتح فهل لابنه وقد حلّ بابك إذن كريم
فخذ منه فألاً بمقلوبه تفاءل كل حسود رجيم

(مقلوب فتح حتف) قال : فخرجت إليه بنفسي وأدخلته ، وذلك أول اجتماعي به . فرأيت شيخاً ظريف المنزع ، حلو المحاورة ، لطيف الإشارة ، فأنست بمذكراته تلك العشية ، وطلب مني رؤية مخدومنا ، فلم تمكن تلك الليلة بسبب مرض كان يشكو منه . فواعدته من الغد وأمرت البواب أن يعرّفني به إذا وصل . وأصبحنا يوم الثلاثاء ، فلما كان عشية هذا اليوم دفع إلي أحد المتصرفين براءة من أبي بكر بن فتح فإذا فيها هذه الأبيات :

وقفت بباب عز لا يسامي ملياً وقفة الرجل الذليل
لوعدٍ كان منه قرّ عيني جميل جاء عن سعي جميل
وكان القصد تسليمي على من إليه قطعت ميلاً بعد ميل
على كبر وضعف أنت تدري بما عاينْت منه ومن نحول

وما آليت عند الباب جهداً | معيناً للملاطف والسؤول
فأبدى الوازعون هناك تجهاً | وقالوا ما لقصدك من سبيل
فرحت وقيت حالي لست أدري | دبيري ما أيمم أم قبيلي
وها أنا قد عزمت على انطلاقي | الى ظفف وليسوا بالقليل
تركتهم على قدم الترجي | وكل مد شالفة التليل
الى فرج قريب من إيابي | كما يرد الطبيب على العليل
فما ظني إذا ما قيل أكدي | على بحر الندى أمل المعيل
هناك شماتة الأعداء تأتي | بإجهازٍ يضيق بها مقولي
وداعاً يا عياذي فاحتفظني | لعهدٍ قد وثقت به مثيلي
سلام سالمتك يد الليالي | وعيش العز في ظل ظليل
وبلغ دمت تسليمي ولثمي | هنالك موطىء الشرف الأثيل

قال صاحب الرحلة فأخبرت أنه وصل ولم يكن البواب الموصى به حاضراً فلم يعرفه غيره من البوابين ، فدفعوه عن الوصول إلي ، وصادفت أبياته مني ضجراً وضيق نفس بسبب عارض عرض لي ، فقلت أجيبه وخرجت إليه عما في نفسي مستريحاً بذلك :

أمحرز غاية الشرف الأثيل | ومن قد جلّ عن سعي مهيل
أتتني منك أبيات حسان | شمائلها أرق من الشمول
يعز علي ما بينت من | وقوفك موقف الرجل الذليل
فأقسم بالهدايا مشعرات | تجوب الأرض ميلاً بعد ميل
إذا اشتكت السري بلسان حال | تقرر بالوخيد أو الذميل
تؤم بسيرها أسنى محل | به نزل الكتاب على الرسول
لو أنك بالذي استحققت تجزي | لما جوزيت إلا بالجزيل
وها أنا أشتكي لعلاك شكوى | تبثك بعض ما بي من غليل
أرى الأيام تمنعني مرادي | وتلوي بي لقصد مستحيل
وأطلب للعلا فيها وصولاً | فيصعب للعلا فيها وصولي
ويمضي الأمر غيري وهو دوني | وأمري لابس ثوب الخمول
وإن تك قد أنالتني قليلاً | فمثلي ليس يقنع بالقليل
وما طلبي لها إلا لعلي | أسوء عداي أو أرضي خليلي

وليس ينال حظ باجتهاد ولا تجري على قدر العقول
فحسب المرء تسلم وصبر يمم منهما أهدى سبيل
ولكن لي على الأقدار دين لوت بقضائه لي المطول
وإن هي بلغتنيه فكم لي مع الأيام من خبر طويل
خرجت عن المراد الى حديث نفشت بشرحه نفث العليل
أودع ودك الأصفى فإني دعاني للنوى داعي الرحيل
وأطلب منك زاداً من دعاء تواصله ومن ذكر جميل
وقد أصفيت نحوك باعتقاد صحيح من فؤاد لي عليل

قال التجاني وسعيت تلك الليلة في إنفاد ما كان وعد به من الإحسان إليه، فأنفذ له. وكانت تلك الليلة التي اجتمعت به فيها أول اجتماع وآخر افتراق منه آخر اجتماع به اهـ.

140 – أبو القاسم الرحوي التونسي

ولد بتونس، وبها نشأ، فطلب العلم عن علمائها، فبرع في علوم العربية، وغلب عليه الأدب، فكان شاعراً مفلقاً، سابق حلبة شعراء عصره، انتشر صيته، واعترف الأدباء بفضله، معدوداً في فحول شعراء تونس. مدح الملوك وأخذ جوائزهم.

ولما استولى السلطان أبو الحسن علي المريني على تونس وإفريقية واحتل القصبة بتونس، فسكن بالقصر واندفع شعراء الحضرة يهنئونه بالفتح كان صاحب الترجمة سابقهم في تلك النوبة. ثم لما قصد القيروان بعساكره العظيمة وقاتلته الأعراب، فتمت عليه الهزيمة الشنعاء على مدينة القيروان، فالتجأ السلطان أبو الحسن للقيروان، فحاصروه بها وكثر إرجاف الناس بتونس، وكانوا فريقين موالياً له يشيع ما يؤذن برجوعه بالكرة، ومعادياً يشيع خلاف ذلك. ويتخرص الفريقان بنصوص الأجفار وأحكام النجوم، ونحو ذلك من التسور على ما عمي عنهم من الغيوب، فأنشد في ذلك صاحب الترجمة قصيدة همزية يتبرأ من دعاوي الفريقين ويندد بمذهبهم السقيم ويذكر ما صار إليه الحال بتونس. وكان حياً سنة 779هـ.

ومن شعره يهنيء السلطان أبا الحسن المريني باستيلائه على إفريقية. ولما كان الإسلام جنسية جميع المسلمين لا يهمهم تبدل الدول ما كانت إسلامية فلا عجب من مدح شعراء تونس لأبي الحسن وقد استولى على بلدهم خصوصاً وهو مَن هو علماً وسياسة وقوة، لم شعث الإسلام، وضمّ جامعتهم بالمغرب:

أجابك شرق إذ دعوت ومغرب ... فمكة هشت للقاء ويثرب
وناداك مصر والعراق وشامه ... بداراً فصدع الدين عندك يشعب
وحيّتك أو كادت تحيي منابر ... عليها دعاة الحق باسمك تخطب
فسارع منا كل دانٍ وشاسع ... الى طاعة من طاعة الله تحسب
وتاقت لك الأرواح حباً ورغبة ... وأنت على الآمال تنأى وتقرب
ففي البلدة البيضاء لبّاك معشر ... وأنت بأفق الناصرية ترقب
ووافتك من ذات النخيل وفودها ... فلقّاهم أهل لديك ومرحب
ولم تتلكّأ عن إباء بجاية ... ولكن يُراض الصعب ثُمّت يُركب (1)
تأبت فلما أن أطلّت عساكر ... ترى الشهب منها تستباح وتنهب
فبادَر منهم مذعن ومسلّم ... وأذعن منهم شاغب ومؤلب
وما تونس إلا كمصر مروع ... وفي حرم أمست لديك تسرب
وما أهلها إلا بغاث لصائد ... وبالعز منها استنسروا وتعقّبوا (2)
وقد كنت قبل اليوم كهف زعيمهم ... فها أنت كهف للجميع ومهرب
فكان يرى أن الزمان أداله ... بكم فأجاب العيش والعيش مخصب
كذلك إبن طائع وإن اعتلت ... به السنُّ أحوالاً وأنت له أب
وما ذاك إلا أن عدلك ينتمي ... الى الخلفاء الراشدين وينسب
تساميت في مُلْك ونُسْك بخطة ... حذاءك محراب لديها ومركب
إذا لذّ للأملاك خمر مدامة ... فلذّ لك القرآن يُتلى ويُكتب
وإن أدأب القوم الصبوح فإنما ... على ركعات بالضحى أنت تدأب
وإن جملوا الشرب الغبوق فإنما ... شرابك بالإمساء ذكر مرتب
وإن خشنت أخلاقهم وتحجبوا ... فما أنت فظ بل ولا متحجب
لقد كرمت منك السجايا فأصبحت ... إذا ما أمرّ الدهر تحلو وتعذب
كما شيدت بيتاً ذوابة معشر ... يزيدهم قحطان فخراً ويعرُب (3)
هم التاركو غلب القساور خضعاً ... وعن شأوهم كفت عبيد وأغلب

---

(1) تتلكّأ : تبطيء .
(2) بغاث : ضعاف الطيور - .
(3) ذوابة : أعلا عزّهم وشرفهم .

هم الناس والأملاك تحت جوارهم ... هم العظم والأرض العظيمة مغرب
هم المالكو الملك العظيم فبيتهم ... على كاهل السبع الشداد مطنّب
لقد أصبحت بغداد تحسد بأسهم ... ودجلة ودّت أن تكون مناسب
تجلت ببيت المجد منهم كواكب ... لقد جلّ منها شارق ومغرب
فللّه منهم ثلة مغربية ... يروم بناها الأعجمي فيعرب
لقد قام عبد الحق للحق طالباً ... فما فاته منه الذي قام يطلب
وأعقب يعقوباً يؤم سبيله ... فلم يخطه وهو السبيل المنجب [1]
وخلف عثماناً فللّه صارم ... به بان للإسلام شرع ومذهب
فكم في سبيل الله شنّ إغارة ... لها شاد أهل الكفر أمست تخرّب
ولما أراد الله إتمام منه ... تقلدها منا مطيع ومذنب
أبى لك للدين الحنيفة آية ... تعرّى بها عن لامع الحق غيهب [2]
فجئت بما يرضى به الله سالكاً ... سبيلاً الى رضوانه بك يذهب
وقمت بأمر الله حق قيامه ... يناضل عنه منك نصل مدرّب
وأصبح أهل الله أهلاً وشيعة ... لكم ولهم منكم مكان ومنصب
وحلّ بأهل الفتك ما حلّ عزمهم ... وقام لديهم واعظ مترقّب
وجاهدت في الرحمان حق جهاده ... فراهب أهل الكفر بأسك يرهب
وأنقذت من أيد الإغارة أمة ... وأولى جهاد كان بل هو أوجب
فأصبحت الدنيا عروساً يزفها ... لأمرك من جاري المقادير مغرب
فلا مصر إلّا قد تمناك أهله ... ولا أرض إلّا بادكارك تخصب
وما الأرض إلّا منزل أنت ربه ... وما حلها إلّا الودود المرحب
تملكت شطر الأرض كسباً وشطرها ... وراثاً فطاب الكل إرث ومكسب
بجيش على الألواح والماء يمتطي ... وجيش على الضمر السوابق يركب
وجيش من الإحسان والعدل والتقى ... وذاك لعمر الله أغلى وأغلب
فلا مركب إلّا يزين راكباً ... ولا راكب إلّا به أزدان مركب

---

(1) المنجب : الواضح .
(2) أبى لك : كذا بالأصل ، ولعلّه أبانك – .

ولا رمح إلَّا وهو أهيف خاطر ولا سيف إلَّا وهو أبيض قاضب
فكم كاتب خطيه ودواته ولم يقر خطاً يغتدي وهو يكتب [1]
يمر على الأبطال وهو كأنه هزبر وأبطال الفوارس ربرب [2]
وكم كاتب لا ينكر الطعن رمحه خبير بأيام الأعارب معرب
له من عجيب السحر بالقول أضرب وفي هامة القوم المضارب مضرب
فها هو في الأقوال واشٍ محبر وها هو في الأمثال ثاوٍ مجرب
ومن ساحب برداً من العلم والتقى عليه ذيول الداودية تسحب
له صبغة في العلم جاءت بأصبغ وشهبان فهم لم يشمهن أشهب
فيا عسكراً قد ضمّ أعلام عالم به طاب في الدنيا لنا متقلب
هم الفيئة العلياء والمعشر الذي إذا حلّ شعب فهو للحق مشعب [3]
لك الفضل في الدنيا على كل قاطن ومرتحل أنّى يجيء ويذهب
ويا مالكاً عدلاً رضى متورعاً مناقبه العلياء تُتلى وتكتب
شرعت من الإحسان فينا شريعة تساوى بها ناءٍ ومن يتقرب
وأسميت أهل النسك إذ كنت منهم فنك أخو التقوى قريب مقرّب
وأعليت قدر العلم إذ كنت عالماً ففيه وفي طلابه لك مأرب
فمدحك محتوم على كل قائل ومن ذا الذي يحصي الرمال ويحسب
فللّه كم تعطي وتمطي وتجتبي فللبحر من كفيك قد صحّ منسب
فلا برحت كفاك في الأرض مزنة يطيب بها للخلق مرعى ومشرب
ولا زلت في علياء مجدك راقياً وشانئك المدحوض يُنكى وينكب
توافي على أقصى أمانيك آمناً فلا برّ يستعصى ولا يتعصب

وقصيدته الهمزية هي قوله :

استغفر الله كل حين قد ذهب العيش والهناء

(1) خطيه : رمحه .
(2) ربرب : قطيع من الظبا .
(3) مشعب : جامع -.

أصبح في تونس وأمسى والصبح لله والمساء
الخوف والجوع والمنايا يحدثها الهرج والوباء
والناس في مربة وحرب وما عسى ينفع المراء
فبعضهم قد رأى عليا حل به الهلك والتواء
وآخر قال سوف يأتي به إليكم صبا رخاء
والله من بعد ذا وهذا يقضي لعبديه ما يشاء
يا راصد الخنس الجواري ما فعلت هذه السماء
مطلتمونا وقد زعمتم أنكم اليوم أملياء
مرّ خميس على خميس وجاء سبت وأربعاء
ونصف شهر وعشر ثان وثالث ضمه القضاء
ولا نرى غير زور قول أذاك جهل أم ازدراء
إنا الى الله قد علمنا أن ليس يستدفع القضاء
رضيت بالله لي إلّهاً حسبكم البدر أو ذُكاء
ما هذه الأنجم السواري إلا عباديد أو إماء
يقضي عليها وليس تقضي وما لها في الورى اقتضاء
ضلت عقول ترى قديماً ما شأنه الجرم والفناء
وحكّمت في الوجود طبعاً يحدثه الماء والهواء
الله ربي ولست أدري ما الجوهر الفرد والخلاء
ولا الهيولى التي تنادي ما لي عن صورة عراء
ولا وجود ولا انعدام ولا ثبوت ولا انتفاء
وليس أدري ما الكسب إلا ما جلب البيع والشراء
وإنما مذهبي وديني ما كان والناس أولياء
إذ لا فصول ولا أصول ولا جدال ولا ارتياء
ما تبع الصدر واقتفينا يا حبذا كان الإقتفاء
كانوا كما يعلمون منهم ولم يكن ذلك الهذاء
يا أشعري الزمان إني أشعرني الصيف والشتاء
أنا سأجزي بالشر شراً والخير عن مثله جزاء

وإنني إن أكن مطيعاً فربَّ أعصي ولي رجاء
وإنني تحت حكم بار أطاعه العرش والثراء
لو حدث الأشعري عمن له الى رأيه انتماء
لـقـال أخبرهـم بـأني مما يـقـولونـه بـراء

141 – محمد بن محمد البلوي الأندلسي الأصل

قال في **الإحاطة** : كان ذا قدم في الفقه ، عارفاً بالأصلين ، شاعراً مجيداً ، فصيحاً بليغاً في الخطبة ، حسن الوعظ ، سريع الدمعة . لقي جلة ، وقرأ بتونس حتى برع . ولازم القاضي ابن عبد السلام بها في الفقه . ثم رجع الى الأندلس ، فتولى خطابة جامع بلش ، وأقرأ به فانتفع الناس به . توفّي بها سنة 750هـ.

ومن شعره في النسيب قوله :

خال على خدك أم عنبر ولؤلؤ ثغرك أم جوهر
لو جُدْتَ لي منك برشف اللمى لقلتُ خمر عسل سكر
دعني في الحب أذب حسرة سفك دم العاشق لا يُنكر

142 – أبو عبد الله محمد الظريف التونسي

نشأ بتونس ، فطلب العلم والأدب ، فبرع ، وكان وحيد عصره اشتهر بالفضل ، وظهرت على يده كرامات ، فكان معتقداً في عصره ، معروفاً باستجابة الدعاء ، صوفياً ، متبعاً للسنّة ، ومع ذلك كان شاعراً مفلقاً . توفي يوم الخميس في 11 جمادى الأخيرة سنة 787هـ ، ودفن بالجبل المبارك جبل المنار من مرسى قرطاجنة ؛ ولا زال ضريحه مزاراً .

ومن شعره قصيدته في مدح الجناب النبوي الرفيع ضمنها ألقاب الطبوع الموسيقية ، ويسميها بعض الأدباء بناعورة الطبوع ، وهي تدل على شيوع علم الموسيقى بتونس قديماً

حتى كان لفضلاء ذلك العصر إلمام به ، والقصيدة نصها :

من سفك دمعي ومن تحبير أجفاني صغت الهوى حلية من حرِّ نيران
ومن نحولي ومن سقمي وشدة ما ألقاه من فرط أشواقي وأشجاني
رثى العذول لحالي حين أبصرني من بعد ما كان بالتعنيف ينهاني
وصل الحبيب فلا أبغي به بدلاً ليس التبدل والسلوان من شأني
من لامني في الهوى والحب قلت له إليك عني فإن الحسن أدماني
فربَّ روضة إنس قد مررت بها مخضرة ذات أفنان وأغصان
قطوفها تنعش الأرواح دانية كجنة ذات روح ذات ريحان
تخلل الماء في أنهارها فغدَت تزهو بوردٍ ونسرين ونعمان
في روضة قد شدت من كل ناحية بلابل لم تدع صبراً لإنسان
فقام فيها خطيب فوق منبره يشكو الغرام بتغريد وألحان
مزوق الصدر مخضوب البنان له من الزبرجد والياقوت لونان
سود مناكبه بيض جوانحه له من المسك والكافور ثوبان
مطوق الجيد في أطراف مقلته أشعة من بهاء خده القاني
فأطرب الطير في أوكارها فغدت شوقاً تجاوبه من كل بستان
جس الرهاوي وجرّ الذيل من طرب وتاه في الرمل أحياناً فأحياني
وأصبهان غدا يحكي بصيكته محير الحال مزموماً بهجران
فهاجني ما بكى أهل العراق على فَقْد الحسين ففاضت منه أجفاني
يشكو النوى ودموع العين تسبقه حتى رثيت له شوقاً فأبكاني
والرصد أشعل في قلب العليل جوى وماية أحرقت قلبي وأكتاني
والاصبعين غدا يحكي بصولته حتى أذاب فؤاد المدنف العاني
فقلت ما بك صف لي ما ابتليت به ما بال جسمك مكلوم الحشا فانِ
هيجت لي لوعة في القلب ساكنة خفض قليلاً فقد هيجت أحزاني
فقال أبكي لإلف كان يألفني وكنت أهواه في الدنيا ويهواني
قضى الزمان بضعفي حين فارقني كما تراني فريداً فوق أغصان
فلا تلمني على طول البكاء فقد يحق لي النوح في سرّي وإعلاني
وهكذا لم أزل أبكي الدموع دماً حتى ألاقي الثرى في طي أكفاني

فقلت أحسنت لا خانتك أجنحة ... ولا مررت ببازي وعقبان
ولا نعاك غراب يا حمام ولا ... حصلت في فخ صياد وسجّان
كن واثقاً بجميل الصبر وأرضَ بما ... يقضي الإله فحال الدنيا ضدان
لا الحزن يبقى ولا الأفراح دائمة ... فشرب الدهر لا يصفو لإنسان
ناشدتك الله يا طير الأراك إذا ... جاد الزمان بوصل بعد هجران
وناسمتك نسيمات الرياض ضحى ... ورنحتك غصون الأثل والبان
ورش ريشك ماء الوردوانبعثت ... روائح الند من نجد لنعمان
وساعدتك الليالي في تصرفها ... وبات شملك مجموعاً بخلّان
وجئت طيبة والوادي وجزت على ... وادي العقيق فبلغ حاجة العاني
سلم على المصطفى المختار من مضر ... خير النبيين من سادات عدنان
الهاشمي الذي فاضت فضائله ... خير البرية من قاصٍ ومن دانِ
وقل له : يا رسول الله يا أملي ... يا عمدتي يا رجائي عند ميزان
متى أمرغ خدي عند تربتكم ... متى يساعدني دهري وأزماني
جسمي بتونس موثوق بزلته ... والقلب في الشرق بين الرند والبان
وكل عام أرجي أن أزوركم ... والذنب عن قرب تلك الدار أقصاني
والوقت ضاع وعمري ما شعرت به ... حتى مضى بين تفريط ونسيان
وليس لي قوة أرجو الوصال بها ... والكف صفر وحال الدهر أعياني
ولا معي عمل أرجو النجاة به ... إلا غرامي وأشواقي وأشجاني
يا أشرف الخلق يا كهفي ومعتَمَدي ... يا أنس قلبي ويا روحي وريحاني
مضى الزمان ولا قدّمت صالحة ... وقد تماديت في غيّ وطغيان
إن زرت قبرك هذا العام يصلح أن ... أدعى أديباً ظريفاً بين إخوان
وإن طردت بذنب عن زيارتكم ... وصدّني عنه إجرامي وعصياني
أموت والقلب مشتاق لزورتكم ... ما لي شفيع سوى حبي وإيماني
وكن شفيعي في يوم الجزاء إذا ... عز الصديق وقلت حيلة الجاني
يا رب بالمصطفى المختار من مُضر ... أقِلْ عثاري وعاملني بغفران
واغفر لوالدتي وارحَم مقام أبي ... من حيث أحسن آدابي وربّاني
واغفر لمشيختي ما أسلفوه كما ... بثّوا علوماً بتحقيق وتبيان

بجاه أحمد خير الخلق كلهم ... محمد المصطفى من آل عدنان
عليه أزكى سلام الله ما طلعت ... شمس وما حن مشتاق لأوطان
كذلك الآل والأصحاب كلهم ... والتابعون لهم يوماً بإحسان

ومن شعره قوله :

ليس الظريف بكامل في ظرفه ... حتى يكون عن الحرام عفيفا
فإذا تعفف عن محارم ربه ... فهناك يدعوه الأنام ظريفا

143 – أبو عبد الله محمد بن عرفه الورغمي التونسي

ولد بتونس سابع عشر رجب ليلاً سنة 716هـ ونشأ في طلب العلم ، فأخذ عن علماء تونس الأعلام ، وبرع في العلوم ، فصار إماماً فيها شرعية وأدبية ورياضية . فأقرأ بالجامع الأعظم ، وتخرج عليه العلماء حتى أصبح شيخ الشيوخ . وكان العلم الفرد في الفقه . وحامل راية المذهب المالكي بالآفاق ، فإليه الرحلة في الفتوى والإشتغال بالعلم ، فكانت الأسئلة ترد إليه من الأندلس والمغرب والمشرق في العلوم .

وألف التآليف الفائقة المفيدة انتفع بها شرقاً وغرباً . منها المختصر الكبير في الفقه المسمى بـ **المبسوط** في أربعة أجزاء ضخام ، جمع فيها المذهب بضبط وتحرير لم يسبق إليه : حتى أن حدوده أفردت بالشرح ولم يجسر أحد من العلماء على شرحه . ومنها **مختصر في علم المنطق** ومختصر آخر في الفرائض ، وآخر في أصول الدين عارض به **الطوالع** للقاضي البيضاوي ونظم قراءة يعقوب .

جمع الناس التآليف من تقاريره في دروسه التفسير والحديث وغيرهما . لم يقبل الولاية الحكمية بل اقتصر على الإمامة بجامع الزيتونة منقطعاً للإشتغال بالعلم مدة حياته . أجمع الناس على محبته عامتهم وخاصتهم ، لا يغشى السلطان إلّا إذا استدعاه في الأمور . كان ملجأ للغرباء والعامة في قضاء حوائجهم عند السلطان ، لا يتولى أحد في ولاية شرعية إلا بعد إشارته واختياره ، مسموع الكلمة ، وكان ذا غنى ، أوقف ماله كله في وجوه البر من فكاك الأسارى وغيره . كان نظر خزانة الكتب بالجامع إليه . ولما أراد السفر الى الحج حاسب عنها من استخلفه في النظر فيها ، فكانت ستين ألف مجلد ،

فقال : إنّا لله ! تلاشت كتب الخزانة . وكان سفره للحج سنة 792هـ ولما وصل الى مصر تلقاه علماؤها وأرباب المناصب بالإكرام ، واجتمع به سلطان مصر الملك الظاهر فأكرمه وأوصى أمير الركب بخدمته .

توفي بتونس يوم الثلاثاء تاسع عشر جمادى الأولى سنة 803هـ [1] عن سبع وثمانين سنة إلّا شهرين . ودفن بمقبرة الجلاز .

وكان شاعراً ، ومن شعره قوله في حضور مجلس الدرس للمنتهين من التلامذة وما ينبغي لهم وللشيخ في درسه :

إذا لم يكن في مجلس العلم نكتة ... وتقرير إيضاح لمشكل صورة
وعزو غريب النقل أو فتح مقفل ... أو إبداء أشكال نتيجة فكرة
فدع سعيه واطلب لنفسك واجتهد ... وإياك تركاً فهو أقبح خلة

ومنه قوله قرب وفاته :

بلغتُ الثمانين بل جزتُها ... فهان على النفس صعبُ الحِمام
وآحاد عصري مضوا جملة ... وعادوا خيالاً كطيف المنام
وأرجو به نيل صدر الحديث ... بحب اللقاء وكره المقام
وكانت حياتي بلطف جميل ... لسبق دعاء أبي في المقام

ومن شعره أيضاً بيتان عقد فيهما قول الصديق رضي الله عنه في ذات الباري جلّ وعلا (العجز عن الإدراك إدراك) وهما :

ألا إن إدراك الحقيقة معجز ... وإدراك نفس العجز عين الحقيقة
كما قاله الصديق أول قائل ... بفكرٍ سديد أو بحسن بديهة

144 - أبو زيد عبد الرحمان بن خلدون الحضرمي

ولد بتونس ، وبها نشأ ، وكانت ولادته غرة رمضان سنة 732هـ . فطلب العلم

(1) اعتمدت في هذا التاريخ صاحب كفاية المحتاج وإن أخبرني الثقة أن الموجود في كتابة ضريحه إنه توفي عشرين جمادى الأخيرة سنة ٨٠٠ . ولعله الأصح فليعتمد .

والأدب عن علمائها ، فبرع وفاق ، فكان فقيهاً ، عالماً بجميع العلوم الشرعية والأدبية والرياضية . وكان حسن الخلق ، جم الفضائل ، رفيع القدر ، عالي الهمة ، قوي الجأش ، طامحاً للرئاسة ، شاعراً مفلقاً .

له التآليف البديعة منها تاريخه المشهور المسمى بكتاب **العبر** اخترع فيه أسلوباً عجيباً من التحدث عن العلوم ، وتنقيح الفهوم ، وأعراض البشر ، دلّ على تبحرّ في العلوم . ومنها شرح **البردة** شرحاً بديعاً دلّ على تفننه وغزارة حفظه . ولخص كثيراً من كتب[1] ابن رشد **ومحصول** الفخر ، وألف في أصول الفقه والمنطق والحساب . ولي الكتابة بالدولة الحفصية ، ثم توجه الى فاس وأصابته محنة ، فاعتقل بها ثم سرح ، وقدم الى غرناطة ، ثم الى بجاية ، وولي بها حجابة أميرها أبي عبد الله الحفصي مع خطابة جامع القصبة بها ، ثم رجع الى مسقط رأسه تونس ، فأقام بها وأكبّ على الإقراء بجامع الزيتونة ، ومدح سلطانها بقصائد ، وقدم إليه تاريخه كتاب **العبر** موشحه بإسمه ، ثم رحل الى مصر فأولاه الملك الظاهر برقوق قضاء المالكية بها ، وتصدر بالأزهر للإقراء ، فكان يسلك في إقرائه مسلك الأقدمين ، كالفخر والغزالي ، وينكر طريقة علماء العجم في الإختصار ، ويقول : إن اختصار الكتب في الفنون والتعبد بالألفاظ على طريقة العضد وغيره من محدثات المتأخرين والعلم وراء ذلك ، وقد عرف بنفسه آخر تاريخه . مات وهو قاضٍ بمصر سنة 808هـ لأربع بقين من رمضان عن ست وسبعين سنة إلا شهراً ، ودفن بمقبرة الصوفية .

ومن شعره يخاطب السلطان أبا عنان وهو في اعتقاله :

على أي حال لليالي أعاتب ... وأي صروف للزمان أغالب
كفى حزناً إني على القرب نازح ... وإني على دعوى شهودي غائب
وإني على حكم الحوادث نازل ... تسالمني طوراً وطوراً تحارب

ومنها في التشوق :

سلوتهم إلا أدكار معاهد ... لها في الليالي الغابرات غرايب

---

(1) هذا يرد ما نقل من أن تلاخيص ابن رشد في الرياضات أحرقت وانعدمت من أيدي الناس ولم يبق منها إلا ما كتبه تلاميذه اليهود في اللغة العبرانية كيف وهذا صاحب الترجمة قد اختصر كثيرا منها وهو بعده بنحو المائتي سنة فاستفد ذلك .

وأن نسيم الريح منهم يشوقني إليهم وتصبيني البروق الخوالب

ومنه يمدح السلطان أبا العباس أحمد الحفصي يوم قدم له تاريخه :

هل غير بابك للغريب مؤمل أو عن جنابك للأماني معدل
هي همة بعثت إليك على النوى عزماً كما شحذ الحسام الصيقل
متبوأ الدنيا ومنتجع المنى والغيث حيث العارض المتهلّل
حيث القصور الزاهرات منيفة تعنو لها زهر النجوم وتحفل
حيث الخيام البيض ترفع للقرى قد فاح في أرجائهن المندل[1]
حيث الحمى للعز في ساحاته ظل أفاءته الوشيج الذبل[2]
حيث الرماح يكاد يورق عودها مما تعل من الدماء وتنهل
حيث الجياد أملن شجعان الوغى مما أطالوا في المغار وأوغلوا[3]
حيث الوجوه الغر حجبها الحيا والبشر في صفحاتها يتهلل
حيث الملوك الصيد والنفر الأولى عزّ الجوار لديهم والمنزل
من شيعة المهدي بل من شيعة التوحـ ـيد جاء به الكتاب مفصل
شادوا على التقوى مباني عزّهم لله ما شادوا بذاك وأثلوا
بل شيعة الرحمان ألقى حبهم في خلقه فسموا بذاك وفضلوا
قوم أبو حفص أب لهم وما أدراك والفاروق جدّ أول
نسب كما اطردت أنابيب القنا وأتى على تقويمهن معدّل
سامٍ على هام الزمان كأنه للفجر تاجٌ بالبدور مكلل
فضل الأنام حديثهم وقديمهم ولأنت إن تصبو أعز وأفضل
وبنوا على قلل النجوم ووطدوا وبناؤك العالي أشد وأطول
ولقد أقول لخائض بحر الغلى والليل مدثر الجوانب أليل
ماضٍ على غول الدجى لا يتقي منها وذابله ذبال مشعل
متقلب فوق الرماح كأنه طيف بأطراف المهاد موكل

(1) المندل : نوع من الطيب
(2) الذبل : الرماح الرقيقة
(3) المغار : موضع الإغارة - .

يبغي منال الفوز من طرق الغنى ويرود مخصبها الذي لا يمحل
أرح الركاب فقد ظفرت بواهب يعطي عطاء المنعمين فيجزل
لله من خلق كريم في الندى كالروض حياه ندى مخضوضل
هذا أمير المؤمنين إمامنا في الدين والدنيا إليه الموئل
هذا أبو العباس خير خليفة شهدت له الشيم التي لا تجهل
مستنصر بالله في قهر العدى وعلى إعانة ربه متوكل
سبق الملوك الى العلى متمهلاً لله منك السابق المتمهل
فلأنت أعلى المالكين وإن غلوا يتسابقون الى العلاء وأكمل
قائس قديماً منهم بقديمكم فالأمر فيه واضح لا يجهل
دانوا لقومكم بأقوم طاعة هي عروة الدين التي لا تفصل
سائل تلمسانا بها وزناتة ومرين قبلهم كما قد ينقل
واسأل بأندلس مدائن ملكها تخبرك حين استأنسوا واستأهلوا
واسأل بذا مراكشا وقصورها فلقد تجيب رسومها من يسأل
يأيها الملك الوفي يا ذا الذي ملأ القلوب وفوق ما يتمثل
لله منك مؤيد عزماته تمضي كما يمضي القضاء المرسل
حيث الزمان يحث أعظم حثه فافتر عنه وهو أملح أعضل[(1)]
والشمل من أبنائه متصدع وعلى خلافتهم مضاع مهمل
والخلق قد صرفوا إليك قلوبهم ورجوا صلاح الحال منك وأمّلوا
فعجلته لما انتدبت لأمره بالبأس والعزم الذي لا يُمهل
ذللت منه جامحاً لا ينثني سهلت وعراً كاد لا يتسهل
وألنت من شوس العتاة وذدتهم عن ذلك الحرم الذي قد حلّلوا[(2)]
كانت لصولة صولة ولقومه يعدو ذويبُ بها ويسطو المعقل
ومهلهل تسدي وتلحم في التي ما أحكموها فهي بعد مهلهل

والمراد بصولة هنا صولة بن خالد بن حمزة أولاد أبي الليل ، وذويب هو ابن عمه أحمد بن حمزة ، والمعقل فريق من العرب من أحلافهم ، ومهلهل هم بنو مهلهل بن

(1) أعضل : غليظ .
(2) شوس : متكبّري .

قاسم أنظارهم وأقتالهم[1] . ثم رجع الى وصف العرب :

عجب الأنام لشأنهم بادون قد ... قذفت بجيهم المطي الذلل
رفعوا القباب على العماد وعندها ... الجرد السلاهب والرماح العسل[2]
في كل طامي الرب منعقد الحصا ... تهدي للجته الظماء فتنهل[3]
حيا شرابهم السراب ورزقهم ... ريح يروح به الكميّ ومنصل[4]
حي حلول بالعراء ودونهم ... قذف النوى إن يضعنوا أو يقبلوا
كانوا يروعون الملوك بما بدوا ... وغدت ترفه بالنعيم وتخضل[5]
فبدوت لا تلوي على دعة ولا ... تأوي الى ظل القصور وتهزل
طوراً يصافحك الهجير وتارة ... فيه بخفاق البنود تظلل
وإذا تعاطى الضمر في يوم الوغى ... كأس النجيع فبالصهيل تعلل
مُخشوشناً في العز معتملاً له ... في مثل هذا يحسن المستعمل
تفري حشا البيداء لا يسري بها ... وكف ولا يهدى إليها جحفل[6]
وتجر أذيال الكتائب فوقها ... تختال في السمر الطوال وترفل
ترميهم منها بكل مدجج ... شاكي السلاح إذا استعار الأعزل
وبكل أسمر غصنه متأود ... وبكل أبيض شطؤه متهدل
حتى تفرق ذلك الجمع الأولى ... عصفت بهم ريح الجلاء فزلزلوا
ثم استملتهم بنعمتك التي ... خضعوا لعزك بعدها وتذللوا
ونزعت من أهل الجريد غواية ... وقطعت من أسبابها ما أوصلوا
ونظمت من أمصاره وثغوره ... للملك عقداً بالفتوح يفصل
فسددت مطلع النفاق وأنت لا ... تنبو ضباك ولا العزيمة تنكل
بشكيمة مرهوبة وسياسة ... تجري كما يجري فرات سلسل

(1) أعداءهم أو مقاتلوهم .
(2) السلاهب : الخيل العظيمة الطويلة ، العسل : المهتزة .
(3) الرب : لعلّ أصله الربب وهو الماء الكثير .
(4) منصل : السيف .
(5) بدوا : أي سكنوا البادية .
(6) وكف : سحاب — .

عذُب الزمان لها ولذّ مذاقه من بعد ما قد مرّ منه الحنظل
فضوى الأنام لعز أروع مالك سهل الخلائق ماجد متفضل
وتطابقت فيه القلوب على الرضى سيان منها الطفل والمتكهل
يا مالكاً وسع الزمان وأهله عدلاً وأمناً فوق ما قد أملوا
فالأرض لا يخشى بها غول ولا يعدو بساحتها الهزبر المشبل
والسرب يجتابون كل تنوفة سرب القطاما راعهن الأجدل (1)
سبحان من بعُلاك قد أحيا المنى وأعاد حلي الجيد وهو معطّل
فكأنما الدنيا عروس تُجتلى فتميس في حلل الجمال وترفل
وكأنَّ مطبقة البلاد بعدله عادت فسيحاً ليس فيها مجهل
وكأن أنوار الكواكب ضوعفت من نور غرته التي هي أجمل
وكأنما رفع الحجاب لناظري فرأى الحقيقة في الذي يتخيل

ومنها في العذر عن مدحه :

مولاي غاضت فكرتي وتبلدت مني الطباع فكل شيء مشكل
تسمو الى درك الحقائق همّتي فأصد عن إدراكهن وأعزل
وأجد ليلي في امتراء قريحتي فتعود غوراً بعد ما تسترسل
فابيت يختلج الكلام بخاطري والنظم يشرد والقوافي تجفل
وإذا امتريت العفو منه جاهداً عاب الجهابذ صنعه واسترذلوا
من بعد حول أنتقيه ولم يكن في الشعر لي قولٌ يعاب ويهمل
فأصونه عن أهله متوارياً أن لا يضمهم وشعري محفل
وهي البضاعة في القبول نفاقها سيان فيه الفحل والمتطفل
وبنات فكري إن أتتك كليلة زهراء تخطر في القصور وتخطل (2)
فلها الفخار إذا منحت قبولها وأنا على ذاك البليغ المقول

ومنها في ذكر الكتاب المؤلف لخزانته :

---

(1) تنوفة : مفازة .
(2) تخطل : تبختر - .

وإليك مِن سيَر الزمان وأهله ... عبراً يدين بفضلها من يعدل
صحفاً تترجم عن أحاديث الألى ... درجوا فتجمل عنهمُ وتفضّل
تبدي التبابع والعمالق سرها ... وثمود قبلهمُ وعاد الأول
والقائمون بملة الإسلام من ... مضر وبربرهم إذا ما حصلوا
لخصت كتب الأولين بجمعها ... وأتيت أولها بما قد أغفلوا
وألنت حوشي الكلام كأنما ... سرد اللغات بها لنطقي ذلّلوا
وجعلته لسوار ملكك مفخراً ... يبهى الندي به ويزهو المحفل
والله ما أسرفت فيما قلتُه ... شيئاً ولا الإسراف مني يحمل
ولأنت أرسخ في المعالي رتبة ... من أن يموه عنده متطفل
فلاك كل فضيلة وحقيقة ... الناس تعرف فضلها إن بدلوا
والحق عندك في الأمور مقدم ... أبداً فماذا يدعيه المبطل
والله أعطاك التي لا فوقها ... فاحكم بما ترضى فأنت الأعدل
أبقاك ربك للعباد تربّهم ... فالله يخلقهم ورعيك يكفل

ومنه يهنيه بالبرء من انحراف ألمّ به :

ضحكت وجوه الدهر بعد عبوس ... وتخللتنا رحمة من بوس
وتوضحت غرر البشائر بعد ما انبهمـ ... ـت فأطلعها حداة العيس
صدعوا بها ليل الهموم كأنما ... صدعوا الظلام بجذوة المقبوس
فكأنهم جنات عدن في الورى ... نشرت لها الآمال من مرموس
قرت عيون الخلق منها بالتي ... شربوا النعيم لها بغير كؤوس
يتمايلون من المسرة والرضى ... ويقابلون أهله بشموس
من راكب وافى يحيي راكباً ... وجليس أنس قاده لجليس
ومشفع لله يؤنس عنده ... أثر الهدى في المعهد المأنوس
يعتدّ منها رحمة قدسية ... فيبوء للرحمان بالتقديس
طب بإخلاص الدعاء وإنه ... يشفي من الداء العيا والبوس[1]
يا ابن الخلائف والذين بنورهم ... نُهجت سبيل الحق بعد دروس

(1) والمعني به إمام الجامع الأعظم جامع الزيتونة بتونس عمّره الله .

والناصر الدين القويم بعزمة طردت إمامتها بغير عكوس
هجر المنى فيها ولذات المنى في لذة التهجير والتغليس
حاط الرياسة بالسياسة فانطوت منه لأكرم مالك وسيوس
أسد يحامي عن حمى أشباله حتى ضووا منه لأمنع خيس
قسماً بموشي البطاح وقد غدت تختال زهواً في ثياب عروس
والماثلات من الحنايا جثماً بالبيد من طعم وقن جديس
وخز البلى منها الغوارب والذُّرى فلقتن خزراً بالعيون الشوس
لَبقاك حرز للأنام وعصمة وحياة أرواح لنا ونفوس
ولأنت كافل ديننا بحماية لولاك ضُيِّع عهدها وتنوسي
الله أعطاك التي لا فوقها وحباك حظاً ليس بالمركوس
تعنو الوجوه إليك قبل وجوهنا سيان من رأس ومن مرؤوس[1]
فإذا أقمت فإن رعبك راحل يحمي على الأعداء كل وطيس
وإذا رحلت فللسعادة آية تعتادها في موكب وخميس
وإذا الإدالة في الكمال تطابقت جاءت بمسموع لها ومقيس
فأنعم بملكك دولة عادية تشني الأعادي بالعذاب البيس
وإليكها مني على خجل بها عذراء قد حليت بكل نفيس
عذراك قد طمس الشباب ونوره وأضاء صبح الشيب بعد طموس
لولا عنايتك التي أوليتني ما كنت أُعنى بعدها بطروس

ولما حل صاحب الترجمة بغرناطة خاطب ذا الوزارتين ابن الخطيب بما أجابه عنه ابن الخطيب ، وهو هذه الأبيات :

حللت حلول الغيث في البلد المحل على الطائر الميمون والرحب والسهل
يميناً بمن تعنو الوجوه لوجهه من الشيخ والطفل المهدأ والكهل
لقد نشأت عندي للقياك غبطة تنسي اغتباطي بالشبيبة والأهل

(1) في هذا البيت من سوء الأدب ما لا يخفى ، كيف والله تعالى يقول : « وعنت الوجوه للحي القيوم » فنعوذ بالله من زلقات اللسان .

ومن نثر صاحب الترجمة ما قرض به حاشية الدماميني على شرح لامية العجم للصفدي ونصه :

الحمد لله وقفت على هذا الكتاب ، روضة المنتاب ، ونزهة المجتاب ، وشفاء الجاهل والمرتاب ، والكفيل لقريح الفؤاد بالرضا والأعتاب ، فإذا البحر يعب عبابه ، والتنقيح الصريح قد تمحض لبابه ، والفخر للفئة العلمية قد تظاهرت أسبابه وروض المعارف ، ذو الفضل الوارف ، قد استجد شبابه ، وما لصاحب هذه الأردان ، أن لا يكون له بالعجز يدان ، ويشمخ بأنف بني عبد المدان ، فيبعد في جو الكمال بمطاره ، وينفق سوق المعارف بنضاره ، ويستبيح حمى المعقول والمنقول بغاية أنظاره ، فقد بذت السوابق جياده ، وأفحم فحول البيان نسبه وزياده ، وقام في منبر البلاغة خطيباً فاهترت له أعواده ، وتناول العلم من آفاقه فدان له قياده ، إن هذا إلا سحر يؤثر ، وبحر تنتظم درره في لبات الكمال إذ ينثر ، وإنها لذخيرة العصور ، وخبيئة الكمال في طي الصدور ، زين الله وجود مؤلفه وهو زين الوجود ، وحفظ الله معارفه التي سارت في التهايم والنجود ، ووفر حظه من بركة الركوع والسجود ، وألقى عليه ملابس الكرم والجود ، بمنّه وكرمه ؛ قاله محبه العارف بكماله ، عبد الرحمان بن محمد بن خلدون الحضرمي وفّقه الله تعالى وأعانه على الإنصاف والإعتراف بمنه وجوده ، اهـ .

145 – محمد بن خليفة بن عمر الوشتاني التونسي عرف بالأبي

نشأ في طلب العلم بتونس ، فأخذ عن علمائها الأعلام . وكان ملازماً للإمام محمد ابن عرفة . تلقى عنه علومه ، وكان ابن عرفة يحسب له حساباً في مجلس الدرس لذكائه ، فبرع في جميع العلوم ، وتصدر لبث العلوم ، فانتفع الناس به ، وألف **تفسير القرآن وشرح صحيح مسلم** بن الحجاج جمعها من دروس شيخه ابن عرفة ، فقد قال : كنت أقيد زوائد إلقاء الإمام (يعني ابن عرفة) وفوائده في دروس التفسير والحديث والتهذيب كل يوم نحو الورقتين مما ليس في الكتب . **ولذلك** لما قال ابن عرفة :

إذا لم يكن في مجلس الدرس نكتة وتقرير إيضاح لمشكل صورة

الأبيات الثلاث . أجابه الأبي صاحب الترجمة ارتجالاً بما يأتي ، وقد ترجمه الحافظ ابن حجر بقوله : عالم المغرب بالمعقول ؛ وترجمه غيره بقوله : الفقيه العالم

المحقق الجامع بين المعقول والمنقول ، ذو التصانيف الفائقة .

وكان شاعراً ، فمن شعره يجيب شيخه ابن عرفة عن الأبيات التائية الثلاثة المتقدمة في ترجمته ارتجالاً :

يميناً بمن أولاك أرفع رتبة ... وزان بك الدنيا بأكمل زينة
لمجلسك الأعلى كفيل بكلها ... على حين ما عنها المجالس ولت

ومنه قوله يقرض مختصر شيخه :

أيا طالبين العلم يبغون حفظه ... تعالوا فإن العلم هانت سبيله
فهذا هُدِيتم للصواب ابن عرفة ... أتاكم بوضع لم يشاهد مثيله
فدونكم مغن عن الكتب كلّها ... وإن قل حجماً والعيان دليله
وحل من التحقيق أرفع رتبة ... وهذب مبناه فصحّت نقوله
وأحكم من كل الحقائق رسمها ... فلا خلل يخشى لديه حلوله
ورد من التاريخ والنقل واهياً ... وأورد تنبيهاً يحق قبوله
فإن جاء فرضاً من يريد اعتراضه ... فدع سعيه إن التعسف قيله

توفي بتونس سنة 828هـ .

146 – أبو زكرياء يحيى بن خلدون التونسي

ولد بتونس ، وبها نشأ . وطلب العلم والأدب ، فبرع فيها ، وازدان به بيته ، رفيع العماد في الفضل والعلم . وكان شاعراً مجيداً . ثم لما خرج أخوه أبو زيد عبد الرحمان من تونس مسقط رأسه لطلب العلى خرج هو لذلك في عيال أخيه ، وأول صهوة اقتعدها للمعالي صحبتُه للأمير أبي عبد الله محمد بن أبي زكرياء الحفصي عند إجلابه على بجاية واستيلائه عليها من يدعمه ، وذلكْ في رمضان سنة 765هـ ، وكان كتب بخطه عهد ولاية الحجابة عنه متى حصل على ولاية بجاية لأبي زيد بن خلدون . فلما تم ذلك له أناب أخاه يحيى ، وكان أصغر سناً منه ، واستدعاه من الأندلس لذلك . ثم لما دالت الدولة لابن عمه أبي العباس أحمد الحفصي على بجاية أكرم صاحب الترجمة وأخاه أبا

زيد ثم تنكر لها بسبب وشايات . وفطن أبو زيد ففاز بنفسه ثم بدا للأمير أبي العباس في أمرهما فقبض على أبي زكرياء يحيى بن خلدون فاعتقله بعنابة ، وكبس بيوتهما لظن ذخيرة بها ، فلم يجد ثم تخلص من السجن فقدم على أخيه أبي زيد ببسكرة . وكان أبو حمو أمير تلمسان استدعى أبا زيد عبد الرحمان بن خلدون لوزارته بمكتوب بخطه ، فتفادى عن تجشم أهوالها ، وبعث أخاه يحيى صاحب الترجمة كالنائب عنه . فلما وصل الى تلمسان أحله محل التكرمة والتبجيل واستكفى به في إدارة دولته ، واضطلع بأعباء وزارته الى أن طلب أبو تاشفين من أبي حمو ولاية وهران من أبيه وقد أولى عليها أخاه أبا زيان ، فأسعفه أبوه ظاهراً ، وعهد الى كاتبه يحيى بن خلدون بماطلته في كتابها حتى يرى المخلص من ذلك ، فجعل يُماطله حتى أغرى بعضُ الأوباش من بطانتهم أبا تاشفين به بدعوى أن يحيى بن خلدون إنما ماطله بالكتاب خدمة لأخيه أبي زيان وإيثاراً له عليه ، فاستشاط أبو تاشفين غضباً ، وترصّد له مع رهط من الأوغاد منصرفة من القصر إلى بيته بعد صلاة التراويح في إحدى ليالي رمضان سنة 786هـ ، فطعنوه بالخناجر حتى سقط عن دابته ميتاً ، فلمّا بلغ الخبر أبا حمو صبيحة الليلة ، قام في ركائبه ، وبثّ الطلب عن أولئك الرهط في جوانب المدينة ، ثم بلغه أن ابنه أبا تاشفين صاحب الفعلة ، فأغضى ، فضاع دم يحيى ابن خلدون رحمة الله عليه في سبيل الوشايات بين قوم أهملوا حرمة الدماء ، واتخذوا قوله عزّ وجلّ : « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس » ظهرياً ، ودفن بتلمسان شهيداً مظلوماً . وعند الله تجتمع الخصوم . وأول ما يقضي في الدماء كما ورد .

ومن شعره يمدح أبا حمو رفعها إليه ليلة الميلاد النبوي الذي كان يحتفل به الأمير المذكور احتفالاً جليلاً ، وذلك سنة 778هـ :

ما على الصب في الهوى من جناح　　　أن يرى حلف عبرة وافتضاح
وإذا ما المحب عِيل اصطباراً　　　كيف يُصغي الى نصيحة لاح
يا رعى الله بالمحصب ربعاً　　　آذنت عهده النوى بانتزاح

وهي طويلة .

وتمامها :

كم أدرنا كأس الهوى فيه مزجاً　　　رب جو من الجوى في المزاح

هل الى رسمه المحيل سبيل يا حداة المطي تلك الطلاح
نسأل الدار بالخليط ونسقي ذلك الربع بالدموع السفاح
أي شجوٍ عاينت بعد نواها من أسى لازم وصبر مزاح
أهل ودي إن رابكم برح وجدي من صبى بارق وبرق لياح
فاسألوا البرق عن خفوق فؤادي والصبا عن سقام جسمي المتاح
يا أهل الحمى نداء مشوق ما له من هوى الدمى من براح
طالما استعذب المدامع ورداً في هواكم عن كل عذب قراح
عاده بالطلول للشوق عيد من حمام بنوحهن صداح
من لقلب من الجوى في ضرام ولجفن من البكا في جراح
ولصب يهيجه الذكر شوقاً فهو سكراً يرتاد من غير راح
وليال قضيت للهو فيها وطراً والشباب ضافي الجناح
راكباً في الهوى ذلول نقاب ساحباً في الغرام ذيل مزاح
ونجوم المنى تثير الى أن روح الصبر سربها الصباح
أي مسرى حمدت لم أخل منه بسوى حسرة وطول افتضاح
وإخساري يوم القيامة إن لم يغفر الله زلتي واجتراحي
لم أقدم وسيلة فيه إلا حب خير الورى الشفيع الماحي
سيد العالمين دنيا وأخرى أشرف الخلق في العلا والسماح
سيد الكون من سماء وأرض سره بين غاية وافتتاح
زهرة الغيب مظهر الوحي معنى النور كنه المشكاة والمصباح
آية المكرمات قطب المعالي مصطفى الله من قريش البطاح
أول الأنبياء تخصيص زلفى آخر المرسلين بعث نجاح
صفوة الخلق أرفع الرسل قدراً وسراج الهدى وشمس الفلاح
من لميلاده بمكة ضاءت من قرى قيصر جميع الضواحي
وخبت نار فارس وتداعت من مشيد الايوان كل النواحي
من رقي في السماء سبعاً طباقاً ورأى آي ربه في اتضاح
ودنا منه قاب قوسين قرباً ظافراً في العلا بكل اقتراح
من هدي الخلق بين حمر وسود وجلا غين ليلهم بالصباح

من يجير الورى غداً يوم يجزي   كل عاصٍ وطائع باجتراح
من إلى حوضه وظل لواه   يلجأ الناس بين ظام وضاح
أحمد المجتبي حبيباً وإني   فوق عز الحبيب مرمى طماح
في أناجيله المسيح تلاه   باسمه والكليم في الألواح
ولك حجة وبرهان صدق   في سماع أتى بها والتماح
إن في النجم والنبات لآيا   بهرت والجماد والأرواح
معجزات فتن المدارك وصفا   وحساباً كالزهر أو كالصباح
يا رواة القريض والشعر عجزاً   ما عسى تدركون بالإمداح
إنما حسبنا الصلاة عليه   وهي للفوز آية استفتاح
يا إلهي بحق أحمد عفواً   عن ذنوب جنيتهن قباح
وأدم دولة الخليفة موسى   ذي المعالي المبينة الأوضاح
مفخر الملك مستقر المزايا   مظهر اللطف ذو التقى والصلاح
ناصر الحق خاذل الجور عدلاً   ملجأ الخائفين بحر السماح
يتلقى الندى بوجه حيي   ويلاقي العدى بيأس صفاح
وله المكرمات إرثاً وكسباً   حاز حمداً بها معلي القداح
من علا باذخ وفخر صميم   وكمال بحث ومجد صراح
وأحاديث في المعالي حسان   رويت عنه في العوالي الصحاح
عاقد صفحة العلا كل حين   فائز فيه سعيه بالرباح
للندى والهدى يروح يغدو   أي مغدي الى العلا ومراح
ملك تشرق الأسرة منه   في سماء السرير نور صباح
وإذا ما علا بعالي العوالي   صهوة الجرد فهو ليث الكفاح
لبس الدهر منه حلة حسن   وثنى للسرور عطف مراح
وعلى عاتق الخلافة منه   طرز فخر يسبي النهى بالتماح
ورث الملك شامخاً عن سراة   شيدوا ركنه بأيدي الصفاح
من بني القاسم الذين تحلوا   بالمعالي واستأثروا بالفلاح
فرعوا هضبة الخلافة مجداً   رفعوا سقفه على الأرماح
نشروا راية المفاخر حمداً   خافق النور بالربى والبطاح

يا إماماً بذ الملوك جلالاً   وجمالاً فديت بالأرواح
أنت شمس الكمال دمت عليها   في اغتباق من المنى واصطباح
وبنوك الأعلون أنجم سعد   زاهرات بنورك الوضاح
وأبو تاشفين بدر منير   زانه الله بالخلال الصباح
أكمل العالمين خلقاً وخلقاً   أشرف الناس في الندى والكفاح
وبكم زينت سماء المعالي   واهتدى الناس في الدجى والصباح

ومن شعره الأبيات التي على لسان جواري المنجانة ، وتسمى في عرفنا التونسي بالمنقالة ، أمره بنظمها أبو حمو أمير تلمسان ، فإن صاحب الترجمة قال في تاريخه الذي سماه **تحفة الوراد في أخبار الملوك من بني عبد الواد** ، أمرني أيده الله أن أنظم أبياتاً على لسان الجواري المعرفات لساعات المنجانة الغريبة الشكل ففي كل ساعة تخرج جارية من المنجانة وفي يدها أبيات فيها اسم الساعة الزمانية فقلت في ذلك :

الساعة الأولى :

أمولى الملوك وأعلى الأمم   ومن جوده العالم الكل عم[1]
مضت ساعة ليت لو تنثني   فإن الحياة بكم تُغتنم
ولله وجهك لما بدا   وقد خلته البدر في الأفق تم
عليه لأجل التقى هيبة   وفيه من الفضل بشر الكرم
أقمت بمولد خير الورى   سروراً لكم بالمعالي حكم
طويت الفؤاد على حبه   وفعلك هذا على ذاك نمّ
قبلت السعادة دنيا وأخرى   وحزت المفاخر دون الأمم
فدم ما حييت لنا مالكاً   يطيعك عرب الورى والعجم

الساعة الثانية :

أخليفة الرحمان والملك الذي   تعنو لعز علاه أملاك البشر
لله مجلسك الذي يحكي عُلى   بك مالكي أفق السماء لمن نظر
أو ما ترى فيه النجوم زواهراً   وجه الخليفة بينهن هو القمر

(1) غفر الله لهذا الشاعر فيما سلكه من الإغراق ، ووسم ممدوحه بما لا يصدق إلّا على خير البرية ﷺ . وأظن أن المقري إنما ترك كثيراً من هذه الأبيات ، ولم يذكره في أزهاره لما رآه فيها من المجرفة .

والليل منه ساعتان قد انقضت   تثني عليك ثنا الرياض على المطر
لا زال هذا الملك منصوراً بكم   وبلغت مما ترتجي أسنى الوطر

الساعة الثالثة :

أمولاي يا ابنَ الملوك الألى   لهم في المعالي سني الرتب
تولت ثلاث من الليل أبقت   لك الفخر في عجمها والعرب
فدم حجة الله في أرضه   تنال الذي شئته من أرب

الساعة الرابعة :

يا مالكاً في المعالي   ومالك الفضل أجمع
مولاي دمت علياً   مضت من الليل أربع
لا زلت تفني الأعادي   وللمفاخر تجمع

الساعة الخامسة :

يا أمير المسلمينا   وجمال العالمينا
والذي حاز المعالي   كلّها دنيا ودينا
قد مضت لليل خمس   حسنها راق العيونا
وانقضى النصف فآها   هكذا تمضي السنونا
دمت في عز وسعد   خالداً ملكاً مكينا

الساعة السادسة :

يا واحداً في علاه   من بأسه في عساكر
ستّ من الليل ولت   ما إن لها من نظائر
دامت لياليك حتى   الى المعاد نواضر

الساعة السابعة :

يا من له الفضل طبع   والفخر فيه سجيه
مرت من الليل سبع   ما إن لها مثنويه
لا زلت والشمل جمع   يعليك رب البريه

الساعة الثامنة :

يا أكرم الخلق ذاتا ... وأشرف الناس أسره
مـرت ثمان وأبـقت ... في القلب مني حسره
فيهنّ كـان شبـابي ... أخـا نـعيم ونضره
ولّى بها الدهر عني ... ترى لها بعد كَرّه
فـالله يـبقيك مولى ... يطيل في السعد عمره

الساعة التاسعة :

يا أوحد الناس في مجدٍ وفي شرف ... وأفضل الخلق في بأس وفي كرم
مولاي تاسعة الساعات قد ذهبت ... والليل من بعدها قد عاد ذا هرم
كذا نمر ولا يدري الزمان بنا ... وينقضي العمر في اللذات والندم
من كان ذا عمل في البر مثلكم ... يا فوزه يوم تُخشى زلة القدم
لا زلت ذا عزة والملك ذا شرف ... بكم وأنتم من الأيام في نعم

الساعة العاشرة :

يا مالك الخير والخيل التي حكمت ... له بعز على الأيام مقتبل
هذا الصباح لقد لاحت بشائره ... والليل ودّعنا توديع مرتحل
لله عشر من الساعات باهرة ... مضين لا عن قِليً منا ولا ملل
كذا تمرّ ليالي العمر راحلة ... عنّا ونحن من الآمال في شغل
نمسي ونصبح في لهو نُسَرّ به ... جهلاً وذلك يدنينا من الأجل
والعمر يمضي ولا ندري فواأسفاً ... عليه إذ مرّ في الآثام والزلل
يا ليت شعري غدا كيف الخلاص به ... ولم نقدم له شيئاً من العمل
يا رب عفوك عما قد جنته يدي ... فليس لي بجزاء الذنب من قبل
يا رب انصر أمير المؤمنين أبا ... حمو الرضي وأنله غاية الأمل
وابقِ في العز والتمكين مدّته ... وأعِل دولته الغرا على الدول

وصورة هذه المنجانة على ما ذكره صاحب **الدر والقيان في بيان شرف بني زيان** أنها خزانة ذات تماثيل من اللجين بأعلاها أريكة تحمل طائراً فرخاه تحت جناحيه وفيها أرقم

خارج من كوة بحلو الأريكة وبصدرها أبواب مجوفة عدد ساعات الليل الزمانية ، بجانب طرفيها بابان نجوفان ، ودون رأس الخزانة قمر يسير على خط استواء بسير نظيره في الفلك ويسامت أول كل ساعة باباً مرتجاً فينقضّ من البابين الكبيرين عقابان بفم كل صنجة صفر ، يلقيها الى طست من الصفر مجوف بوسطه ثقب يفضي الى داخل الخزانة فيرند الأرقم نهش أحد الفرخين فيصفّر له أبوه فهنالك يفتح باب الساعة الراهنة وتبرز منه جارية محتزمة كأظرف ما أنت راءٍ ، بيمناها إضفارة[1] فيها اسم ساعتها منظوماً ، ويسراها موضوعة على فيها كالمبايعة للأمير .

147 – أبو الفتح محمد بن عبد السلام التونسي نزيل دمشق

ولد بتونس ، وبها نشأ ، وطلب العلوم ، فبرع فيها ، واشتهر فضلاً . رحل الى المشرق فحج ، ثم دخل الشام فاستقر بدمشق الشام . أخذ عنه علماء المشرق وتخرج به كثير من فضلائهم . وله شهرة ذائعة في شيوخ علماء المائة العاشرة لأخذهم عنه العلوم وانتفاعهم به هم وشيوخهم ، وكان شاعراً مفلقاً . توفي أواخر المائة العاشرة .

ومن شعره يرثي تونس وأهلها بعد واقعة الحسن الحفصي وجوان بن جاكمو قائد الجيش الإسبنيولي . ويذكر عيث الأعداء الإسبنيول فيها بالقتل والسبي وما صارت إليه بعد ما كانت عليه من العمران والعلم والفخامة . نذكرها بتمامها عبرة وتذكرة ، وهي قوله :

سلوا البارق النجدي عن سحب أجفاني ... وعما بقلبي من لواعج نيران
ولا تسألوا غير الصبا عن صبابتي ... وشدة أشواقي إليكم وأشجاني
فما لي سواها من رسول إليكم ... سريع السُّرى في سيره ليس بالواني
فيا طالما الأسحار ما قد تكفلت ... بإنعاش محزون وإيقاظ وسنان
وتنفيس كرب عن كئيب متيم ... يحنّ الى أهلٍ ويصبو لأوطان
فلله ما أذكى شذا نسمة الصَّبا ... صباحاً إذا مرت على الرند والبان
وسارت مسير الشمس وهنا فأصبحت ... من الشرق نحو الغرب تجري بحسبان

(1) إضفارة : قطعة من الكاغذ فيها إسم الساعة .

وقد وقفت بالشام وقفة حامل ... نوافج مسك من ظباء خراسان
لترتاض في تلك الرياض هنيأة ... وتزداد من أزهارها طيب أردان
وما قربت حتى تضاعف نشرها ... بواسطتي روح هناك وريحان
فكم نحوكم حملتها من رسالة ... مدونة في شرح حالي ووجداني
وناشدتها بالله إلا تفضلت ... بتبليغ أحبابي السلام وجيراني
تحية مشتاق الى ذلك الحِمى ... وسكانه والنازحين بأضعان
سقى الله هاتيك الديار وأهلها ... سحائب تحكي صوب مدمعي القاني
وحيا ربوع الحي من خير بلدة ... تخيرها قدماً أفاضل يونان
هي الحضرة العليا مدينة تونس ... أنيسة إنسان رآها بإنسان
لها الفخر والفضل المبين بما حوت ... من الأنس والحسن المنوط بإحسان
لقد حل منها آل حفص ملوكها ... مراتب تسمو فوق هامة كيوان
وسادوا بها عظم الملوك وشيدوا ... بها من مباني العز أفخر بنيان
وكان لهم فيها بهاء وبهجة ... وحسن نظام لا يعاب بنقصان
وكان لهم فيها عساكر جمة ... تصول بأسياف وتسطو بمران
جيوش وفرسان يضيق بها الفضا ... وتحجم عنها الفرس من آل ساسان
وكان لأهليها المفاخر والعلى ... وكان بها حصناً أمان وإيمان
وكان على الدنيا جمال بحسنها ... وحسن بنيها من ملوك وأعيان
وكانت لطلاب المعارف قبلة ... لما في حماها من أئمة عرفان
وكان لأهل العلم فيها وجاهة ... وجاه وعز مجده ليس بالفاني
وكان بواديها المقدس فتية ... تقدس باريها بذكر وقرآن
ومن أدباء النظم والنشر معشر ... تفوق بناديها بلاغة سحبان
وكانت على الأعداء في حومة الوغى ... تصول بأبطال وتسطو بشجعان
وما برحت فيها محاسن جمة ... ومن كل نوع أهل حذق وإتقان
الى أن رمتها الحادثات بأسهم ... وسلّت عليها سيف بغي وعدوان
فما لبثت تلك المحاسن أن عفت ... وأقفر ربع الأنس من بعد سكان
وشتت ذاك الأنس من بعد جمعه ... كما انتثرت يوماً قلائد عقيان
فأعظم برزه خص خير مدينة ... وخير أناس بين عجم وعربان

لعمري لقد كادت عليها قلوبنا ... تضرم من خطب عليها بنيران
وقد عمّنا غمّ بعظم مصابها ... وإن خصني منه المضر بجثماني
وما بقيت فيها علمناه بلدة ... من الشرق إلا ألبست ثوب أحزان
فصبراً أخي صبراً على المحنة التي ... رمتك بها الأقدار ما بين إخوان
فما الدهر إلا هكذا فاصطبر له ... رزية مال أو تفرق خلّان
أأحبابنا إن فرق الدهر بيننا ... وطال مغيبي عنكم منذ أزمان
فإني على حفظ الوداد وحقكم ... مقيم وما هجر الأحبة من شاني
ووالله والله العظيم ألِيَّة ... على صدقها قامت شواهد برهان
لقد زاد وجدي واشتياقي إليكُم ... وبرّح بي طول البعاد وأضناني
فلا تحسبوا أني تسليت بعدكم ... بشيء من الدنيا وزخرفها الفاني
ولا أنني يوماً تناسيت عهدكم ... بحال ولا أن التكاثر ألهاني
ولا راقني روض ولا هشَّ مسمعي ... لنغمة أطيار ورنّة عيدان
ولا حلّ في فكري سواكم بخلوة ... ولا جلوة ما بين حور وولدان
ولا اختلجت يوماً ضمائر مهجتي ... لغيركم في سر سري وإعلاني
ولو لم أسل النفس بالقرب واللقا ... لأدرج جسمي في مقاطع أكفاني
فما أنا من عودي إليكم بآيس ... فما اليأس إلّا من علامة كفران
عليكم سلام الله في كل ساعة ... تحية صب لا يدين بسلوان
مدى الدهر ما ناحت مطوقة وما ... تعاقب بين الخافقين الجديدان

لا ريب أن قصيدة أبي الفتح المتقدمة قد أبانت عن مجمل ما حصلت عليه مدينة تونس في تلك العصور من البهجة والعمران ، وما لملوكها من الفخر المتأثل والمجد ، وما أثروا بها من مباني العز وما كانت عليه من حسن النظام ، ووفور العساكر ، وما كان لأهلها من المفاخر . وكانت لطلاب العلوم والمعارف قبلة يولون وجوههم شطر أئمة عرفانها . وكان بها من الأدباء وفرسان الشعر والنثر من يفوق بالبيان بلاغة سحبان الى غير ذلك من جماع المحاسن ، ومستكملات الفخامة ، فرمتها الأيام بسهام البغي ، وسلّت عليها سيوف العدوان ، فما لبثت تلك المحاسن أن عفت وتشتت ذلك الشمل . وأحرِ بأن يقفز ربعها من العلماء والأدباء ، وقد ضاع منها دفعة مائة وعشرون ألفاً أو يزيدون بين أسير وقتيل . فلا عجب أن انقطع منها فرسان الأدب جملة باستلحام أهلها ، واستيصال

شاقتهم في هذه الفاجعة ، واضمحلال كتبهم ومحرراتهم في الأدب وتراجم الرجال وغيرهما من العلوم ، حيث أعدمتها جيوش الإسبان إلقاء في الطرقات ، وتمزيقاً تحت أرجل الخيل ، مما تتبرأ منه الإنسانية ومحبّو العلوم والمعارف ، مما بقي وصمة في تاريخ أولئك المتوحشين .

ولقد طال بحثي عن تراجم أدباء تونس وشعرهم فيما بين الثامنة والحادية عشرة فلم نظفر من تراجمهم إلّا بشيء نزر مع أنّا نتحقق أن ذلك الزمان قد بلغ به نَفاق سوق الأدب بتونس غايته القصوى نظراً لاستبحار عمرانها ، وفيضان المعارف في ربوعها ، وكثرة العلماء المتخرجين بمدارسها ، ورواج بضاعة الأدب بين ملوكها . وليس من سبب في خفاء أنباء أولئك عنا غير الطامة الكبرى من تلك الحروب ، وما أنتجته من المصائب والكروب ، فأتت على الأثر والعين ، ووقعت أخبارهم في ظلمة ليل الغابرين ، فكانت الحسرة عليهم ضعفين ، فليت إذ طويت أعمارهم ، نشرت لدينا بصحائف التاريخ أخبارهم . ولكن متى يكون ذلك وهم مصداق قول الوزير ابن الخطيب :

وأنفاسنا سكنت دفعة كجهر الصلاة تلاه القنوت

ولكن لا يسع مع ذلك إلا التصبر ، والإتعاظ بما صار إليهم أمرهم والتدبر . فرحمة الله على تلك الأرواح الطاهرة . ونرجو أن يبوئها الله بما ابتلاها مقعد صدق في الآخرة .

ثم لما تراجع عمران تونس وعاودها العلم والأدب بعد انقطاعها في المائة الحادية عشرة نشأت ناشئة من الأدباء ولم تتلقف ذلك من جالية الأندلس ومُهاجري غرناطة ، إذ هم قوم قد وفدوا على تونس بعادات الإسبانيين ولسانهم وزيّهم فهم كما قال أبو الطيب :

ولكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان

وما راجعوا اللسان العربي والزي والعادات الإسلامية إلا من أهل تونس . وما ذكرنا ذلك إلا للتنبيه على ما يزعمه بعضهم من أن البضاعة الأدبية بعد الألف من مستجدات مُهاجري الأندلس ، وهو خطأ مبناه جهل ما كان عليه الأندلسيون حين قدومهم على تونس من العجمة التي أكرهوا عليها بعد استيلاء عدوهم على بلادهم ،

ومضى عليهم دهر حتى أصبح لسانهم وقلمهم إسبنيولياً ، ونسوا لغتهم مما قصه التاريخ ، وأثبته تفصيلاً بعض ناشئة الأندلسيين بتونس في تأليف له في عمود النسب النبوي الكريم .

ذكر جملة من شعراء صقلية ومالطة :

ولما كانت صقلية من توابع المملكة التونسية وبعساكرها فتحت وقد استعمروها ، فنتج منها علماء فضلاء ، وأدباء حكماء . ومثلها جزيرة مالطة ، ففخرهما يرجع لأمهم المملكة التونسية ، فلا مندوحة عن ذكر ما أمكن من أدبائها وبعض الأشعار المنسوبة إليهم تكميلاً للفائدة ، وقضاءً لحق اللحمة المتأكدة . وكان فتح صقلية سنة 212هـ في إمارة زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب على يد القاضي أسد بن الفرات صاحب المدونة المعروفة بـ**الأسدية** التي رواها من علم مالك بن أنس إمام الأئمة عن عبد الرحمان بن القاسم ، ومات وهو محاصر لسرقوسة في 13 رجب من سنته وكان فتح مالطة سنة 255 في إمارة أبي الغرانيق محمد بن أحمد بن محمد بن الأغلب .

فمن شعراء صقلية

148 – أبو العرب مصعب بن محمد بن أبي الفرات القرشي الزبيري الصقلي

كان إمام الأدب في عصره ، شاعراً مفلقاً ، اشتهر وسار ذكره حتى رغب المعتمد ابن عباد ملك الأندلس من الطوائف في انتقاله إليه ، ووجه إليه بخمسمائة دينار ، وأمره أن يتجهز بها الى حضرته ، فكتب إليه أبو العرب يعتذر عن القدوم عليه بخوفه من السير براً وبحراً وقد ظهر الفساد فيهما ، فالبحر بتحرش الروم وتلصصهم فوق لججه ، والبر بإغارات الأعراب وفساد السبل بحرابتهم ، قوله :

لا تعجبن لرأسي كيف شاب أسى ... وأعجب لأسود عيني كيف لم يشب
البحر للروم لا يجري السفين به ... إلا على غرر والبر للعرب

وكانت ولادته بصقلية سنة 423هـ ، وبها نشأ وأخذ العلوم عن علمائها ، وقال الشعر

الفاتق وخرج منها لما تغلب عليها العدو سنة 464هـ قاصداً المعتمد بن عباد بإشبيلية ؛ ولم يوقف على وفاته في أي سنة غير أنه كان حياً بالأندلس سنة 507هـ .

149 – أبو القاسم علي بن جعفر الشنتبريني السعدي الصقلي

ولد في صفر سنة 433هـ بصقلية ، وطلب العلم والأدب على علمائها ، كابن البر اللغوي وأمثاله وأجاد في النحو غاية الإجادة ، وكان أحد أئمة الأدب في عصره خصوصاً اللغة ، وصنف التصانيف النافعة ، منها : كتاب **الأفعال** أحسن فيه كل الإحسان ، وله كتاب **أبنية الأسماء** وكتاب **الدرة الخطيرة في المختار من شعر شعراء الجزيرة** ، يعني صقلية ، بالإطلاع عليه يعلم مقدار ما بلغ الأدب بها .

ولما أشرف روجار على تملك صقلية قوض صاحب الترجمة خيامه منها ، ورحل عنها ، متنقلاً في البلاد الى أن وصل الى الديار المصرية ، فألقى عصا التسيار واستقرت به الدار سنة 500هـ ، وبالغ أهل مصر في إكرامه .

وكان شاعراً مفلقاً ، ابتدأ قول الشعر سنة 446هـ في سن الحداثة . توفي بمصر في صفر سنة 515هـ .

ومن شعره قوله وهو من الحكم النافعة :

فلا تنفدن العمر في طلب الصِّبا ولا تشقين يوماً بسُعدى ولا نعم
ولا تندبن أطلال مية باللوى ولا تسفحن ماء الشؤون على رسم [1]
فإن قصارى المرء إدراك حاجة وتبقى مذمات الأحاديث والإثم

ومنه :

يا من رمى النار في فؤادي وأنبط العين بالبكاء [2]
إسمك تصحيفه بقلبي وفي ثناياك برء دائي

(1) رسم : مجرى الدموع .
(2) أنبط : أنبع .

أردد سلامي فإن نفسي لم يبق منها سوى الذَّماء[1]
وأرفق بصب أتى ذليلاً قد مزج اليأس بالرجاء
أنهكه في الهوى التجني فصار في رقة الهواء

150 – أبو محمد عبد الجبار بن أبي بكر بن حمديس الأزدى الصقلي

ولد بصقلية ، وبها نشأ وبرع . ولما تغلب عليها روجار رحل عنها الى الأندلس سنة 471هـ ، ومدح المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية ، فأحسن جائزته .

ولما قبض أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين على المعتمد وسجنه بأغمات من أرض المغرب سمع أبياتاً عملها المعتمد في شأن اعتقاله ، فأجابه عنها بما يأتي . وكان شاعراً مفلقاً . ثم تقاذفت به البلاد الى أن توفي سنة 527هـ بجزيرة ميورقة ، وقيل ببجاية عن ثمانين سنة .

ومن شعره يجيب المعتمد بن عباد :

أتيأس من يوم يناقض أمسه وشهب الدراري في البروج تدور
ولما رحلتم بالندى في أكفكم وقلقل رضوى منكم وثبير[2]
رفعت لساني بالقيامة قد أتت فهذي الجبال الراسيات تسير

وله من قصيدة يتشوق الى بلده صقلية :

ذكرت صقلية والأسى يجدد للنفس تذكارها
فإن كنت أخرجت من جنة فإني أحدّث أخبارها
ولولا ملوحة ماء البكاء حسبت دموعي أنهارها

ومنه :

قم هاتها من كف ذات الوشاح فقد نعى الليل بشير الصباح

(1) الذَّماء : بالفتح بقية النفس – .
(2) قلقل : زلزل – .

باكِر الى اللذات واركب لها سوابق اللهو ذوات المراح
من قبل أن ترشف شمس الضحى ريق الغوادي من ثغور الأقاح

ومنه في صفة نهر :

ومطّرد الأجزاء يصقل متنه صباً أعلنت للعين ما في ضميره
جريح بأطراف الحصى كلما جرى عليها شكا أوجاعه بخريره
كأن جباناً ريع تحت حبابه فأقبل يلقي نفسه في غديره
كأن الدجى خط المجرة بيننا وقد كللت حافاته ببدوره
شربنا على حافاته دون سكرة نقبّل شكراً منه عين مديره

ومن شعر صاحب الترجمة ابن حمديس يصف داراً بناها المنصور بن أعلى الناس ببجاية قوله من قصيدة :

أعمر بقصر الملك ناديك الذي أضحى بمجدك بيته معمورا
قصر لو أنك قد كحلت بنوره أعمى لعاد الى المقام بصيرا
واشتقّ من معنى الجنان نسيمه فيكاد يحدث بالعظام نشورا
نسي الصبيح مع الفصيح بذكره وسما ففاق خورنقاً وسديرا
لو أن بالإيوان قوبل حسنه ما كان شيئاً عنده مذكورا
أعيت مصانعه على الفرس الأولى رفعوا البناء وأحكموا التدبيرا
ومضت على الروم الدهور وما بنوا لملوكهم شبهاً له ونظيرا
أذكرتنا الفردوس حين أريتنا غرفاً رفعت بناءها وقصورا
فالمحسنون تزيدوا أعمالهم ورجوا بذلك جنة وحريرا
والمذنبون هدوا الصراط وكُفّرت حسناتهم لذنوبهم تكفيرا
فلك من الأفلاك إلا أنه حقر البدور فأطلع المنصورا
أبصرته فرأيت أبدع منظر ثم انثنيت بناظري محسورا
فظننت أني حالم في جنة لما رأيت الملك فيه كبيرا
فإذا الولائد فتحت أبوابه جعلت ترحب بالعفاة مريرا
عضت على حلقاتهن ضراغم فغرت بها أفواهها تكبيرا
فكأنها لبدت لتهصر عندها من لم يكن بدخولها مأمورا

تجري الخواطر مطلقات أعنة فيه فتكبو عن مداه قصورا
بمرخم الساحات تحسب أنه فرش المها وتوشح الكافورا
ومحصب بالدر تحسب تربه مسكاً تضوع نثره وعبيرا
تستخلف الأبصار منه إذا أتى صبحاً على غسق الظلام منيرا

ثم ذكر بركة فيه عليها أشجار ذهب وفضة ترمي فروعها المياه . وتفنن فذكر أسوداً على حافاتها تقذف بالمياه أيضاً ، فقال :

وضراغم سكنت عرين رئاسة تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشى النضار جسومها وأذاب في أفواهها البلورا
أسد كأن سكونها متحرك في النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنها أقعت على أدبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها ناراً وألسنها اللواحس نورا
فكأنما سلت سيوف جداول ذابت بلا نار فعدن غديرا
فكأنما نسج النسيم لمائه درعاً فقدر سردها تقديرا
وبديعة الثمرات تعبر نحوها عيناي بحر عجائب مسحورا
شجرية ذهبية نزعت إلى سحر يؤثر في النهي تأثيرا
قد صولجت أغصانها فكأنما قبضت بهن من الفضاء طيورا
وكأنما تأبى لوقع طيورها أن تستقل بنهضها وتطيرا
من كل واقعة ترى منقارها ماء كسلسال اللجين نميرا
خرس تعد من الفصاح فإن شدت جعلت تغرد بالمياه صفيرا
وكأنما في كل غصن فضة لانت فأرسل خيطها مجرورا
وتريك في الصهريج موقع قطرها فوق الزبرجد لؤلؤاً منثورا
ضحكت محاسنه إليك كأنما جعلت لها زهر النجوم ثغورا
ومصفح الأبواب تبراً نظروا بالنقش فوق شكوله تنظيرا
تبدو مسامير النضار كما علت تلك النهود من الجنان صدورا
خلعت عليه غلائلاً ورسية شمس ترد الطرف عنه حسيرا
وإذا نظرت إلى غرائب سقفه أبصرت روضاً في السماء نضيرا

وعجبت من خطاف عسجده التي | حامت لتبني في ذراه وكورا
وضعت به صناعها أقلامها | فأرتك كل طريدة تصويرا
وكأنما للشمس فيه ليقة | مشقوا بها التزويق والتشجيرا
وكأنما اللازورد فيه مخرم | بالخط في ورق السماء سطورا
وكأنما وشوا عليه ملاءة | تركوا مكان وشاحها مقصورا

ثم مدح المنصور بعد ذلك وختم القصيدة بقوله :

يا مالك الأرض الذي أضحى له | ملك السماء على العداة نصيرا
كم من قصور للملوك تقدمت | واستوجبت بقصورك التأخيرا
فعمرتها وملكت كل رئاسة | منها ودمرت العدى تدميرا

قال المقري في **نفح الطيب** بعد أن ساقها قلت : لم أر لهذه القصيدة من نظير ، في معناها اليانع النضير ، ولفظها العذب النمير ، الذي شمر فيه قائلها عن ساعد الإجادة أي تشمير ، غير أن عندي فيها عيباً واحداً وهو ختمها بلفظ التدمير : وعلى كل حال فالحسن والإحسان ، يقادان في أرسان ، لعبد الجبار بن حمديس (صاحب الترجمة) ذي المقاصد الحسان ، وخصوصاً في وصف المباني والبرك ، فما أبقى لسواه في ذلك حسناً ولا ترك . ا هـ .

ومن ذلك قوله في وصف بركة تجري إليها المياه في شاذروان من أفواه طيور وزرافات وأسود وكل ذلك في قصر أطنب في وصفه من قصيدة طريفة :

والماء منه سبائك من فضة | ذابت على درجات شاذروان
وكأنما سيف هناك مشطب | ألقته يوم الحرب كف جبان
كم شاخص فيه يطيل تعجباً | من دوحة نبتت من العقيان
عجباً لها تسقي الرياض ينابعاً | نبعت من الثمرات والأغصان
خصت بطائرة على فنن لها | حسنت فأفرد حسنها من ثان
قس الطيور الخاشعات بلاغة | وفصاحة من منطق وبيان
فإذا أتيح لها الكلام تكلمت | بخرير ماء دائم الهملان
وكأن صانعها استبد بصنعه | فخر الجماد بها على الحيوان

أوفت على حوض لها فكأنها ‏ منها على العجب العجاب روان
فكأنها ظنت حلاوة مائها ‏ شهداً فذاقته بكل لسان
وزرافة في الجوف من أنبوبها ‏ ماء يريك الجري في الطيران
مركوزة كالرمح حيث ترى له ‏ من طعنة الحلق انعطاف سنان
وكأنها ترمي السماء ببندق ‏ مستنبط من لؤلؤ وجمان
لو عاد ذاك الماء نفطاً أحرقت ‏ في الجو منه قميص كل عنان
في بركة قامت على حافاتها ‏ أسد تذل لعزة السلطان
نزعت الى ظلم النفوس نفوسها ‏ فلذلك انتزعت من الأبدان
وكأن برد الماء منها مطفيء ‏ ناراً مضرمة من العدوان
وكأنما الحيات من أفواهها ‏ يطرحن أنفسهن في الغدران
وكأنما الحيتان إذ لم تخشها ‏ أخذت من المنصور عقد أمان

ثم قال المقري : وهاتان القصيدتان لابن حمديس كما في المناهج مع طولها تدلان على الإبداع الذي ابتكره ، والإختراع ما ولج سمع أحد من الفضلاء إلا شكره لما أسكره ، وذكر المقري أيضاً أن من شعره قوله في دار بناها المعتمد على الله :

ويا حبذا دار قضى الله أنها ‏ يجدد فيها كل عز ولا يبلى
مقدسة لو أن موسى كليمه ‏ مشى قدماً في أرضها خلع النعلا
وما هي إلا خطة الملك الذي ‏ يحط إليه كل ذي أمل رجلا
إذا فتحت أبوابها خلت أنها ‏ تقول لترحيب بداخلها أهلا
وقد نقلت صناعها من صفاته ‏ إليها أفانينا فأحسنت النقلا
فمن صدره رحباً ومن وجهه سنى ‏ ومن صيته فرعاً ومن حلمه أصلا
فأعلت به في رتبة الملك نادياً ‏ وقل له فوق السماكين أن يعلى
نسيت به إيوان كسرى لأنني ‏ أراه له مولى من الحسن لا مثلا
كأن سليمان بن داود لم تبح ‏ مخافته للجن في صنعها مهلا
ترى الشمس فيه ليقة تستمدها ‏ أكف أقامت من تصاويرها شكلا
لها حركات أودعت في سكونها ‏ فما أتبعت في نقلهن يد رجلا

ولما عشينا من توقد نورها تخذنا سناه في نواظرنا كحلا

وذكر المقري في **نفح الطيب** نقلاً عن صاحب الترجمة أنه حكى عن نفسه فقال : أقمت بإشبيلية لما قدمتها على المعتمد بن عباد مدة لا يلتفت إليّ ولا يعبأ بي ، حتى قنطت لخيبتي مع فرط تعبي ، وهممت بالنكوص على عقبي ، فإني لكذلك ليلة من الليالي في منزلي ، إذا بغلام معه شمعة ومركوب فقال لي : إفتح الطاق التي تليك ، ففتحتها فإذا بكوي زجاج على بعد والنار تلوح في بابيه ، وواقدة تفتحها تارة وتسدهما أخرى ، ثم دام سد أحدهما وفتح الآخر فحين تأملتهما قال لي : أجز :

أنظرهما في الظلام قد نجما

فقلت :

كما رنا في الدجنة الأسد

فقال :

يفتح عينيه ثم يغلقها

فقلت :

فعل امرىء في جفونه رمد

فقال :

فابتزّه الدهر نور واحدة

فقلت :

وهل نجا من صروفه أحد ؟

فاستحسن ذلك ، وأمر لي بجائزة سنية وألزمني خدمته . ا هـ .

(ذكر جملة أخرى من شعراء صقلية)

وهم من اختارهم الحسن بن علي ابن منجب بن سليمان الكاتب المعروف بابن الصيرفي من المتخل من الدرة الخطيرة في شعراء الجزيرة مما ليس في اختيار بن الأغلب وإن لم نعلم جلية أمرهم وتواريخ وفياتهم لكن نذكرهم عنواناً على درجة الأدب بصقلية قبل سقوطها بيد العدو.

فنهم :

151 – أبو القاسم بن يخلف الكلبي

من شعره قوله من قصيدة يفخر فيها :

عهدي ببؤس رُباك وهو نعيم ... أيام أنت على الحسان كريم
أيام فيك من الكواعب جنة ... معشوقة ومن الوشاة جحيم

منها :

وأهاجني برق يشوق الى الحِمى ... قلب المشوق فلا يزال يهيم
حسنت به الدنيا فكل قرارة ... روض وكل صبا يهب نسيم
تلك الرياض المحييات نفوسَنا ... أنفاسُها لا الشيح والقيصم
سعياً لأيام الربيع وحسنها ... لو أن ذاك الحسن كان يدوم
طابت حدائقها ورق كأنها ... جودي النثير ولفظي المنظوم
وأنا الذي حازت مناسبه العلى ... وأناف منها محدث وقديم
شرفي سماء للسماء منيفة ... وخلائقي فوق النجوم نجوم
ما دمت فالفخر المؤثل دائم ... فإذا عدمت فإنه معدوم

152 – أبو عبدالله محمد بن عبد الله بن الحسين بن القطاع ينسب في بني الأغلب

من شعره قوله من قصيدة يفتخر فيها :

نحن بنو الأغلب سُدْنا الورى ... طرّاً ببذل النائل الغمر[1]

---

(1) النائل : العطاء – .

والضرب بالبيض رؤوس العدى   والطعن في اللبات بالسمر
إن فَخر الناس عَلَوْناهم   بالبذل والإقدام والصبر
والحسب السامي الذي تاجه   في هامة الإكليل والغفر
والبيت من سعد ومن خندف   أكرم بذاك البيت والنجر[1]

وله يصف الخمر :

ساعفت القهوة بالأنس   فدع ركوب البازل العنس[2]
ودع بكاء العين في مربع   قد بليت أطلاله درس
وباكر الراح التي قد مضى   جرس لها من بعدما جرس
لا أدع اللذة في حينها   قد يصبح المرء فلا يمسي
إن لم أنل منها حياتي فهل   أنالها في ظلمة الرمس
تـعلني بالراح وحشية   لكنها من فتنة الأنس
فبتّ أجني ضرباً من جنى   شفاهها الباردة اللعس
ثم أدارت بيننا قهوة   أعذب في النفس من النفس
كأنما الأقداح في كفها   كواكب في دارة الشمس
كم عقلت من ألسن نُطُق   وأطلقت من ألسن خُرس

153 – أبو إسحاق إبراهيم بن محمود القسري

من شعره قوله من أول قصيدة :

أي طيف من لامعات البروق   بات يسري بين الحمى والعقيق
لا وبرق الثغور والشبم العذ   ب من الريق والرضاب الرحيق
ما عققت العقيق لكن دموعي   لفراق العقيق مثل العقيق
أناصب الى الحمى مستهام   بمهاة النقى وريم الشقيق

---

(1) خندف : قبيلة منسوبة لليلى بنت حلوان ؛ النجر : الأصل .
(2) العنس : الصلب – .

154 – أبو علي الحسين بن أحمد بن زيادة الله السعدي

من شعره قوله من قصيدة يتغزل :

لولا صعوبة أبواب وحراس ... وفاضحات قيود ذات وسواس
وخيفة من عيون غير غافلة ... للناس قد وكلت بالرعي للناس
لجئت نحوك زواراً على شغف ... إما على الوجه أسعى أو على الراس
حتى نكون جميعاً من تواصلنا ... كالخمر والماء ممزوجين في كاس

155 – أبو عبد الله محمد بن سدوس النحوي

من شعره قوله :

تطاول هذا الليل حتى كأنما ... هو الدهر لا صبح ينير ولا فجر
وضنَّ علي الطيف بالوصل في الكرى ... فيا عجباً حتى الخيال له هجر

وله :

يقولون طال الليل جهلاً ولم يطل ... ولكن أشواقي إليك تطول
ولي أدمع كالقطر تبكيك كثرة ... ونوم إذا نام الخليّ قليل

156 – الأمير أبو الحسن المقداد بن الحسن الكلبي من أمرائها

من شعره قوله :

كن بديعاً كما خلقت بديعاً ... حسن الوجه يا قبيح الفعال
وامتثل من عزيز آل علي ... شيمة كي تكون فرد الكمال

157 – الكاتب أبو الحسن أحمد بن نصر

من شعره قوله من قصيدة يعتذر للمهدي العبيدي :

يا من إليه عيون الناس ناظرة   يرون تعظيمه تعظيم باريه
إن كان وجدك عن ذنب أتيت به   فإن عفوك يمحي ذنب جانيه
أو كان ذلك عن واشٍ وشى كذباً   فأنت عصمة من يُبلى بواشيه
وإن يكن عبدك المحسود منقطعاً   ولم يكن أهل ما قد كنت توليه
فما تقول لنعمى أنت واهبها   وما تقول لعبد أنت هاديه
وما تقول لصبر أنت معدنه   وما تقول لوجدٍ أنت واديه
الله يعلم أني لم أدع سبباً   إلا بلغت الذي ترضى به فيه
فانظر إلي بعينٍ منك راحمة   فقد أذاب فؤادي ما أقاسيه

158 – الكاتب أبو الحسن علي بن بشري

من شعره قوله :

مالكتني المدامة الخندريس   وغزال يرنو وغصن يميس
إنما تملك النفوس فتعصي   ناصحيها ما تشتهيه النفوس
قد ألفت الصبا وإن لحظتني   فيه من عاذل لواحظ شوس
رب يوم لهوتُ فيه بأبكا   ر حسان كأنهن شموس
حضرتنا السعود فيه وغابت   عن ذُرانا فلم تضره النحوس

وله يصف البرق :

بدا البرق من نحو الحجاز مذكراً   بسلمى وسعدى والتذكر يُنصب
يلوح على لون الدجى فكأنه   سيوف على زرق الثياب تقلب
فلله برق عذب القلب لمعُه   أكل محب بالبروق معذب

159 – الكاتب أبو علي الحسين بن أحمد

من شعره قوله :

يا شراباً من رقة كالسراب ... راحتي في ارتشافه وعذابي
ناولتني ما أسأرته بكأس ... كمشيبي ونشوة كالشباب
صان منها الزجاج مثل الذي صا ... ن من الوجنتين شفّ النقاب
فكأن الزجاج دمع التجني ... وكأن المدام خمر التصابي

وله :

وكأس من الماء مخروطة ... تنير لها مثل نور النهار
تبدت وفي وسطها جمرة ... تكاد تصدّعها بالشرار
فحسبك من عجب ما تراه ... بتأليف ما بين ماء ونار

160 – أبو عبد الله الحسين بن أبي علي القائد

من شعره يصف عود الغنا :

ومعاهد آنسنني بأوانس ... يدنو السرور بها وفيه شطون
خُمص البطون صدورها أفواهها ... جعلت لها بدل النهود عيون
وذوات ألسنة أسر حديثها الشد ... اجي وأفصح قولها الملحون
يصدرن عنها عن صدور ما بها ... لما تثير من الحديث دفين
مضمومة ضم الحبيب مخمّش ... منها صدور تارة وقرون[1]
يضربن عند عناقهن فمن رأى ... أن العقاب مع العناق يكون
فكما ضربن وما لهن جناية ... فكذا لهن وما ألمن أنين
تدعو بألسنها السرور كما دعا ... حسن الثناء بجوده سرفين[2]

---

(1) مخمّش : مضروب ؛ قرون : أطراف العود – .

(2) سرفين : لعلّه إسم ممدوحه .

وله يمدح الأمير أحمد بن ثقة الدولة بغزوة :

على العادات فاجر مع الأعادي ... ونادٍ يجبك منهم كل ناد
فما لحصونهم منكَ امتناع ... ولو أن البناء بناء عاد
فكم من معقل للعين سامٍ ... سلكت إليه منهاج الرشاد
وقد حارت نفوس القوم فيه ... الى أن قام فيهم منك هاد
فأصعدت الخيول الى الروابي ... وأنزلت الوعول الى الوهاد
وكم أخرجت منها من كمين ... ومن عضب ومن طرف جواد
يغلّ يديه خوفك عن شَباه ... فيضحى كالموثق في صفاد[1]
لقد أوردتم بالسيف ماء ... به ارتوت الطُّلى وهم صوادي[2]
كأن رؤوسهم كانت نباتاً ... أبادته سيوفك بالحصاد
وكم أهدى إليك من الدراري ... حسامك حين مرّ على الهوادي
وأما رومة فإلى قريب ... يصبّحها بداهية الحداد
عبيدك من تؤوم من الأعادي ... وأرضك ما تروم من البلاد
فدونك يا عميد الملك فاعمد ... تنل إن رمتها ذات العماد
صَرفتَ عن الأغاني والغواني ... هواك الى العوادي والأعادي[3]
وقدمت الركاب على كعاب ... مخضبة الترائب بالجساد
وكم باتت جفونك ساهرات ... سهاداً يقتضي طيب الرقاد
ومن يك في اللذاذة ذا اجتهاد ... فإنك ذو اجتهاد في الجهاد
وبين يديك طاعن كل قرن ... وها أنا طاعن بشَبَا الوداد
ومن شام الظبا منهم فإني ... أشيم ظبي ثنائي واعتقادي
يداك البحر تدفق بالمنايا ... وأخرى تستهان بها الأيادي
وما بدع تخالف حالتيه ... ففي أسرارها ما في الغوادي
لقد أضحكت أحوال المعالي ... صلاحاً لا يخاف من الفساد

---

(1) شَباه : طرف سيفه .
(2) الطُّلى : الأعناق — .
(3) بهذا تسود الملوك ويحمد منها السلوك .

161 – الكاتب أبو القاسم عبد الرحمان بن الحسن

من شعره يصف البرق :

ولما بدا للعين من جانب الحِمى   لوامع برقٍ شاق نحوك شائق
كأنك فيها ماثل وكأنما   ديار الحِمى بين البراق بوارق
فيا حبذا برق بأرضك لائح   ويا حبذا طيف لوصلك طارق

162 – أبو يوسف يعقوب بن علي الزبيدي

من شعره قوله :

متى تنقضي عن ناظريك المدامع   وهذي ديار من سليمى بلاقع
ولم يبق من سلمى ولا من وصالها   سوى زائر عند الهجود يطالع
ألا بأبي تلك البراقع بل به   وجوه حسان غيّبتها البراقع
ضعفت عن الشكوى غداة تحملوا   فأظهرت البلوى الدموعُ الهوامع
ألا ليت شعري والزمان مفرّق   أأيامنا بالرقمتين رواجع

163 – الفقيه أبو حفص عمر بن مازوز بن جليل

من شعره قوله :

إذا سبّني وغد تزايدت رفعة   وما العار إلا أن تراني أساببه
ولو لم تكن نفسي علي كريمة   لأمكنتُها من كل وغدٍ تجاوبه
كفى حزناً لي أن وغدا مخاطبي   وبالوغد فخراً لو يراني نخاطبه

164 – أبو الحسن علي بن محمد بن الخياط الربعي

شاعر فصيح اللسان ، مشهور بالإحسان ، وحدة الجَنان ، وجودة البيان ، ماهر في اللغة والأدب ، حافظ لأشعار العرب ، وكان في عصره يشبه بجرير بن الخطفا . مدح

الملوك الكلبيين ، وكان عندهم عليّ القدر ، نابهَ الذكر..

من شعره يمدح الأمير ثقة الدولة يوسف بن عبد الله وولده تاج الدولة وسيف الملة جعفر من قصيدة ، وقد تخلص لمدحه :

طرق الخيال وساء ما طرقا | أخذ الرقاد وخلّف الأرقا
عندي سرائر لو نفثت بها | في صخرة لتقطعت قلقا [1]
حبّ صُليت به وأكتمه | لو مسّ أبكم حرُّه نطقا
ولقد صبرت له فأوسعني | قلقاً وأثخن مهجتي حرقا
ولعلني إن قلت بي علق | تعد الوشاة بقصتي حلقا
وأنا الرهين بحب ساحرة | ملأت يدي ببشرها ملقا [2]
نظمت لها أيدي ملاحتها | خرز القلوب بجيدها نسقا

منها وتخلص :

ملك تضم الأرض قبضتُه | حتى تكون جميعها طبقا [3]
يغزو بأدهم في العجاج ترى | لمع السيوف بجسمه بلقا [4]

ومن شعره يهني بسلامة ولد ملكه من جدري أصابه :

لا يطمعنك في السلو تكهلي | أنا من علمت على الغرام الأول
إن كان غرك ذا الوقار فإنه | كالطيب يعبق في القميص وقد بلي
نسك نصبت به حبالة مطمع | متعود قنص الغزال الأكحل
ولربّ مأربة لبست لها الدجى | وقضت بها وطراً لطافة مدخلي
أسري كما تسري النجوم لحاجتي | والناس بين مدثر ومزمل
ولقد تعبدني على حريتي | رشأ تنعم في الرحيق السلسل
ممن يصون عن الأكف ثماره | بخلاً ويحجبه عن المتأمل

---

(1) قلقاً : إنزعاجاً .

(2) ملقاً : وداداً ولطفاً —

(3) طبقاً : غطاء .

(4) بلقاً : سواد مع بياض — .

داريتُ قسوته بحسن تلطفي ... والصعب تعطفه يد المتحيل
وإذا بليت بهاجر فاصبر له ... فالماء ينبط من صفاء الجندل
لأسابقن غداً لتهنئة العلى ... ولآخذن بشارة المستعجل

منها ، وتخلص لممدوحه :

ولأهدين الى الخلافة إنها ... تعلى وتحمد بعد أحمد في علي
سردت يد الجدري فوق أديمه ... حلق الدروع مقدرات المدخل
ولَقَبْلها لِبس الدروع مسوماً ... في موكب كِدر العجاجة جحفل
الله هنّأك السلامة في الذي ... سيء العدو به كما سُرّ الولي
داويتَ بالصدقات معضل دائه ... والبر يدفع كل داء معضل

ومنه قوله :

لا تعجبن لرتبة أشرارها ... يعلُون والأخيار فيها تسفل
فالناقصون هم الذين علوا بها ... والراجحون هم الذين تنزلوا
أو ما ترى الميزان يعلو خفة ... في كفة ويحط فيها الأثقل

ومنه قوله :

إن سبّ الملوك من شُعب المو ... ت فإياك أن تسبَّ الملوكا
إن عَفَوْا عنك بالذنوب أهانو ... ك وإن عاقبوا بها قتلوكا

165 — الكاتب أبو محمد عبد العزيز بن عبد الرحمان

كاتب مبرز ، وشاعر مفلق ، متصرف في فنون الشعر ، كان يشبّه بأبي العتاهية .
من شعره قوله متغزلاً :

بالله يا طاوسة انطلقي ... فاستعطفي أخلاقه الوحشه
قولي لها عبد العزيز بكى ... فسقى بأدمعه الثرى العطشه
وتناول القرطاس يكتب ما ... يلقى فخانته اليد الرعشه

ومنه قوله :

أخلو به وأعِفّ عنه كأنني ... حذَرَ الدنية لست من عشاقه
كالماء في يد صائم يلتذه ... حملاً ويصدف عن لذيذ مذاقه

166 – الكاتب أبو الحسن علي بن عبد الرحمان

من شعره يمدح اليازوري وزير العبيدي صاحب مصر :

يمينك أندى العارضين سحابا ... وحزمك أمضى الضاريين ذبابا
وأنت أعم الناس طَوْلاً وسؤدداً ... وأطيبهم جرثومة ونصابا
وأشرعهم يوم اللقاء أسنة ... وأمرعهم يوم العطاء جنابا
شهادة برّ لا يُحابى بمثلها ... ألا ربما كان السحاب مُحابا
حللت بدار الملك ثم قطنتها ... كما قطن الليث الغضنفر غابا
وأثبتها بالسمهرية والظبى ... طعاناً نفى عنها العِدى وضرابا
وفجرت فيها للنُّضار جداولاً ... وسطرت فيها للسماح كتابا
يقولون إن المزن يحكيك صوبه ... مجاملة ها قد شهدت وغابا
وكم أزمة عمّ البرية بؤسها ... فهل ناب فيها عن نداك منابا
همت ذهباً فيها نداك عليهمُ ... وضنّت يداه أن ترش ذهابا
ولو كان للأسياف عزمك ما نبت ... ولا ناط بالخصر النجاد قرابا
تغار من المجد المعالي وتنتمي ... الى إسمك حبات القلوب طرابا
وما زلت ترضي الله في نصر دينه ... بمالكة ترجي الأسود غضابا
إذا طويت كانت وغى وقساطلاً ... وإن نشرت كانت ظبى وحرابا (1)
وما أنت إلا مطعم النصر أينما ... أغرت على نهب رزقت نهابا
وأبلج ميمون النقيبة لو دعا ... الى نصره وحش الفلا لأجابا
أجلّ ملوك الأرض من ظلّ لاثماً ... تراباً علته رجله وركابا

---

(1) قساطلاً : جمع قسطل وهو الغبار .

شفى حلباً من جود كفك ماطر   إذا لم تصب فيها المواطر صابا[1]
علوتَهُم بالمرهفات كأنما   قددتَ عليهم بالبروق سحابا
وأطلعت سحباً من بنانك ثرة   تفيض عليهم نائلاً وعقابا[2]

167 – أبو محمد القاسم بن عبد الله التميمي

من شعره قصيدة يذكر فيها فتنة أهل صقلية وشدة حربهم فيما بينهم ، وفتنهم ، ودخول الإفرنج إليهم :

أبيت وجفني من جفائك نائم   وقلت بما قالته فيك اللوائم
وعهدي بذاك الدر غير مثقب   فكيف أجادته بفيك النواظم
وعندي حديث لو أمنت أذعته   ألا حبذا غيب تعيه المناسم
وإذ كان لا يهديك إلا مدامعي   فلا قرّ لي نهر من الدمع ساجم
رعى الله أياماً لنا ولياليا   بخيف منى والنائبات نوائم
زمان تصيد اللهو أشراك مهجتي   ومرعاك في قلبي الذي بك هائم
لو أنك في حل الشباب حللت لي   ولكن أيام المشيب محارم
بمكة إلفي والحصيب به أخي   وفي مصر لي نجل سقته الغمائم
وماذا عسى قلبي وعندك قدره   فتأخذه للبين هذي المقاسم
سقى الله هيم الغرب لا بعض هامه   كما يمنع الغمض السليم المنادم
وما كنت أسقي الغرب لو كان لم تكن   صقلية منه وإن لام لائم
وإني لمنهم واجد غير أنه   وشى بيننا واشٍ من البين غاشم
رزينا بذات البين حتى كأننا   نرى أن من يبغي سوى البغي آثم[3]

(1) صاب : أمطر .

(2) ثرة : غزيرة الماء

(3) هذا هو الداء العضال الذي تمرض به الأمم الأسلامية عند تأذن الله بانقراضها وهو قوله تعلى « وإذا اردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً »وليس من دواء ألا التوبة والرجوع إلى أوامر الشرع ونواهيه ونبذ الفسوق ودواعيه وإذا تتبعت الممالك الإسلامية الساقطة لا نجد لها داء غير ما أصاب صقلية مما أشار إليه الشاعر في هذه القصيدة فانا لله وأنا إليه راجعون .

يغير الفتى منا على مال نفسه ... ويقتله عدواً أخوه الملائم
يجور دليل القوم عن سبل رشده ... ويمضي على المكروه من هو نادم
كما أنت مسرور بما هو جازع ... كما سئم المحزون والقلب واجم
نجر فضول السابغات كأننا ... أراقم باضت فوقهن نعائم
كأن فُويق البر أمواج لجة ... وكالريح فيهن العتاق الصلادم
معارف إلا أن تكون حواسراً ... إذا روحت يوماً ظباها الملاحم
نروح ونغدو في أمور لو أنه ... رأى بعضها ما عاود النوم حالم
كأن بحاراً بالوغى وكأنما ... معاركنا طول الزمان مواسم
فطوراً نذود الموت عنا وتارة ... نموت كما مات الحياة الأكارم
فلو كان سلماً ذلك الحرب بيننا ... ثلاثين عاماً ضامناً منه ضائم
ونعفر طوع المجد كل مدجج ... يراوغه بالطعن كعب وحاتم
وكانت بلاد الروم طوع سيوفنا ... إذا رامها منا على البعد رائم
فإن نال منا الناس أو قل كثرنا ... فقد تقتل الحمى وتُردي السمائم
سليني عن الإفرنج إن شئت واسمعي ... حديثاً كنشر الروض والروض ناعم
أتونا ولكن بالدروع أُساودا ... ولكن أتينا والسيوف عزائم
على كل مشكول الطريد كأنما ... قوائمه عند الطراد قوادم[1]
إذا ما علا منا على الظهر فارس ... فليس بعيداً أن تطير القوائم
سماء وأرض من جناحٍ وحافر ... وليل وصبح جحفل وصوارم
فلا دجن إلا أن تثور عجاجة ... ولا مزن إلا أن تخر جماجم
كأنهم قد أحجموا حين أقدموا ... وغير عجيب غابة وضراغم
كأن من الآبار كانت وجوههم ... فعادت عليهم والأنوف رواغم
كأن من الأفعال كانت وجوههم ... ولكن عوالينا الحروف الجوازم
هو النصر حتى كل أعزل رامح ... وحتى قرون الغانيات عمائم
وقد تسعد الأقوام شقوة غيرهم ... ألا رب أعراس دعتها مآتم
إذا كان لا ينجيك أنك هارب ... فلم يبق حزم غير أنك هاجم

---

(1) كل مشكول : أي فرس مقيّد ؛ الطريد : المطارد والمعنى أن مطارده كالمقيد لشدة سيره — .

فقد يقتل المرء ابتغاء حياته وأكثر من يبغي المنية سالم
وطيب حياة المرء في عز موته وما الموت إلا أن تهون الكرائم
وقد يجهل الإنسان في بعض حِلمه ويحمل عنك الظلم أنك ظالم
وما السيف ألا ما غراره حلية وإن رثّ منه غمده المتقادم
كأنك في دنياك ما زلت جاهلاً إذا كنت لم ينفعك أنك عالم
فلا تتزود غير ما أنت واجد إذا رحت يقظاناً كأنك نائم

168 – الكاتب أبو عبد الله محمد بن الحسن الطوبي

من شعره قوله :

شمس الضحى من فوق أزراره والغصن في عقدة زناره
سراج أهل الدير من حسنه يجلو دجى الليل بأنواره
كأنما هاروت في طرفه يبث سحراً بين أشفاره
أحرقني ظلماً بنار الهوى نجّاه رَبُّ العرش من ناره

ومنه قوله :

أيها الناس لي حديث عجيب وهو مستظرف لعمري غريب
زار في ليلة المحاق فعادت ليلة النصف حين زار الحبيب

وله في السقام يمدحه :

سأشكر ما بقيت سقام جسمي فلولاه لأعوز ما طلبت
أزارني الحبيب على بعاد فأهلاً بالسقام ولو هلكت

وله في النحول :

يا من لجسم تقضّى حراكه والسكون
فعاد شكلاً بسيطاً تزلّ عنه العيون
يخفى عن الموت لطفاً فما يكاد يبين

فلو تجسم يوماً تناولته المنون

وله :

صبرت يا هند عنك إذ خنت من لم يخنك
يا هند إن كنت قربي فالهند أقرب منك

وله يشبه أربعة بأربعة :

فمُه فيه لؤلؤ بشقيق فوقه خاتم له من عقيق
وله في جفونه حدّ سيف مرهف الشفرتين عضب رقيق
فإذا رمت أن أقبل فاه صد عما أريد خوف الطريق

ومنه قوله :

ألا يا لائمي مهلاً فما لومك لي عدلا
كما لا تقبل العذر كما لا أقبل العذلا

169 – أبو محمد عبد العزيز بن الحسين بن الحباب الأغلبي السعدي الصقلي المعروف بالقاضي الجليس

قال في **فوات الوفيات** في شأنه ما نصه : مات سنة إحدى وستين وخمسمائة ، وقد أناف على السبعين . وتولى ديوان الإنشاء للفائز مع الموفق بن الخلال : ومن شعره :

ومن عجب أن الصوارم والقنا تحيض بأيدي القوم وهي ذكور
وأعجب من ذا أنها في أكفهم تأجج ناراً والأكف بحور

وقال أيضاً رحمه الله تعالى :

حيا بتفاحة مخضبة من شفني حبه وتيمني
فقلت ما إن رأيت مشبهها فحمرّ من خجلة ، فكذّبني

وقال :

وأصل بليتي ما قد عراني من السقم الملح بعسكرين

طبيب طبه كغراب بين   يفرق بين عافية وبيني
أتى الحمى وقد شاخت وباخت   فعاد لها الشباب بنسختين
ودبرها بتدبير لطيف   حكاه عن سنين أو حنين
وكانت نوبة في كل يوم   فصيرها بحذق نوبتين

وقال أيضاً :

يا وارثاً عن أب وجد   فضيلة الطب والسداد
وحاملاً رد كل نفس   همّت عن الجسم بالبعاد
أقسم لو قد طببت دهراً   لعاد كوناً بلا فساد

وقال :

قد أهملت كل الأمور فما   تعني بمصلحة ولا تعنى
ضدان مختلفان ما لهما   إلا فساد أمورنا معنى
تأتي وتكتب ذا وتكشط ذا   فنعود بعدهما كما كنا

وقال :

رُبّ بيض سالمن باللحظ بيضاً   مرهفات جفونهن جفون
وخدود للدمع فيها خدود   وعيون قد فاض منها عيون

وقال :

حبذا متعة الشباب التي يعـ   ـذر في حبها خليع العذار
إذ بنات الخمار أمتع ليلي   وبنات الخمار ألهو نهاري
والغواني لا عن وصالي غوان   والجّواري الى جِواري جوار

وكان القاضي الجليس ابن الحباب (صاحب الترجمة) كبير الأنف ، وكان الخطيب أبو القاسم هبة الله بن البدر المعروف بابن الصياد مولعاً بأنفه وهجائه . وذكر أنفه في أكثر من ألف مقطوع ، فانتصر له أبو الفتح قادوس فقال :

يا من يعيب أنوفنا   الشم التي ليست تعاب
الأنف خلقة ربنا   وقرونك الشم اكتساب

وقال الجليس يرثي والده ، وقد غرق في البحر بريح عصفت :

وكنت أهدي مع الريح السلام له ... ما هبت الريح في صبح وإمساء

وقال رحمه الله تعالى :

ألَمّتْ بنا والليل يزهي بلمة ... دجوجية لم يكتهل بعد فوداها
فأشرق ضوء الصبح وهو جبينها ... وفاحت أزاهير الصبا وهي رياها
إذا ما اجتنت من وجهها العين روضة ... أسالت خلال الروض بالدمع أمواها
وإني لأستسقي السحاب لربعها ... وإن لم تكن إلا ضلوعي مأواها
إذا استعرت نار الأسى بين أضلعي ... نضحت على حرّ الحشا برد ذكراها
وما بي أن يصلى الفؤاد بحرّها ... ويضرم إلا أن في فيّ القلب سكناها

170 – عبد الله الكتامي الصقلي

قال يعرض بالقاضي إبراهيم بن مالك من أبيات :

كنا نخاف من العمال جورهم ... والآن نخشى من العمال والقاضي
وليس في الأرض من قاضٍ ولا حكم ... قاضي السماوات عن أفعاله راضي

فبلغ ذلك القاضي مالك ، فاستحضره وسأله عن البيتين ، فأنشدهما وأضاف إليهما بيتاً ثالثاً وهو :

إلا أن ابن مالك القاضي فإن له ... سيفاً من العدل في أحكامه ماضي

171 – عمر بن خلف بن مكي الصقلي

قال في **بغية الوعاة** للسيوطي(*) في شأنه : الإمام اللغوي المحدث . كذا ذكره في **البلغة** . وقال من تصانيفه : **تثقيف اللسان** دال على غزارة علمه وكثرة حفظه . رثى

(*) ص 361 . ط 1 . مطبعة السعادة 1326 .

قضاء تونس وخطابتها ، فكان يخطب الخطبة البديعة وله :

يا حريصاً قطع الأيام في بؤس عيش وعناء وتعب
ليس يعدوك من الرزق الذي قسم الله فأجمل في الطلب

من شعراء مالطة

172 – أبو القاسم بن رمضان المالطي من أدباء مالطة

ذكره الشيخ زكرياء بن محمد القزويني في كتاب **آثار البلاد وأخبار العباد** ناقلاً عنه أن بعض المهندسين بمالطة اتخذ لملكها صورة تعرف بها أوقات ساعات النهار ، وكانت ترمي بنادق على الصناج فقال لعبد الله بن السمنطي : أجز هذا المصراع :

جارية ترمي الصنج

بها القلوب تبتهج

الخ ، الأبيات الآتية في حيز ذكره قال: كأنه يقرؤها من حفظه ، ما رأيت غير ذلك من ترجمته .

173 – أبو محمد عبد الله بن السمنطي المالطي منهم أيضاً

قال الشيخ زكرياء القزويني في كتابه **آثار البلاد** لما ذكر مالطة ما نصه : ينسب إليها ابن السمنطي الشاعر المالطي ، كان آية في نظم الشعر على البديهة . قال أبو القاسم بن رمضان المالطي : اتخذ بعض المهندسين بمالطة لملكها صورة تعرف بها أوقات ساعات النهار ، وكانت ترمي بنادق على الصناج فقلت لعبد الله بن السمنطي : أجز هذا المصراع :

جارية ترمي الصنج

فقال :

بها القلوب تبتهج

كـأن من أحكمـهـا الى السماء قد عرج
وطـالع الأفلاك عن سر البروج والـدرج

كأنه يقرؤها من حفظه اهـ .

شعراء مهاجرة الأندلس

وهنا يجدر بنا أن نذكر طائفة من جلة العلماء وأفذاذ الأدباء والشعراء من مهاجرة الأندلس الى تونس اتخذوا القطر الافريقي لهم وطناً امتزجوا بسكانه ، وانتظموا في سلك ذوي الرتب العليا به ، اختاروه لهم وطناً ثانياً آواهم في حياتهم ، واحتضن رفاتهم بعد مماتهم ، فأصبحوا كآحاد أبنائه الأصليين نذكر من هؤلاء :

174 – الحافظ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن عبد الله بن ابي بكر ابن الأبار القضاعي الأندلسي البلنسي نزيل تونس والدفين بها

قال المقري في **نفح الطيب** في ترجمة الفقيه الكاتب المحدث الأديب الشهير هو حافظ متقن في الحديث والأدب . له تصانيف ، منها : كتاب في متخير الأشعار سماه **قطع الرياض** ، **وتكلة الصلة** لابن بشكوال ، **وهداية المعترف في المؤتلف والمختلف** ، **وكتاب التاريخ** ، **وتحفة القادم** في شعراء الأندلس ، **والحلة السيراء في أشعار الأمراء** . وقال ابن سعيد في **القدح المعلي** في شأنه : كاتب مشهور ، وشاعر مذكور . كتب عن

ولاة بلنسية . وورد رسولاً حين أخذ النصارى بمخنق تلك الجهات وأنشد قصيدته السينية :

أدرك بخيلك خيل الله أندلساً   إن السبيل الى منجاتها درسا

وعارضه جمع من الشعراء ما بين مخطيء ومحروم ، وأغرى الناس بحفظها إغراء بني تغلب بقصيدة عمرو بن كلثوم ، إلا أن أخلاقه لم تعنه على الوفاء بأسباب الخدمة ، فقلصت عنه تلك النعمة ، وأخر عن تلك العناية ، وارتحل الى بجاية ، وهو الآن بها عاطل من الرتب ، خال من حلي الأدب ، مشتغل بالتصنيف في فنونه ، متنفل بواجبه ومسنونه . ولي معه مجالس آنق من الشباب ، وأبهج من الروض عند نزول السحاب . ومما أنشدني من شعره :

يا حبذا بحديقة دولاب   سكنت الى حركاته الألباب
غنى ولم يطرب وسقى وهو لم   يشرب ومنه العود والأكواب
لو يدّعي لطف الهواء أو الهوى   ما كنت في تصديقه أرتاب
وكأنه مما شدا مستهزيء   وكأنه مما بكى نداب
وكـأنـه بـنـشـاره ومـداده   فلك كواكبه لها أذناب

وقال المقري في نفح الطيب أيضاً في شأن صاحب الترجمة ما نصه : هو الإمام الحافظ الكاتب ، الناظم الناثر ، المؤلف الراوية ، أولاه الكتابة ببلده بلنسية أبو عبد الله ابن السيد أبي حفص بن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي ، فكتب له ، ثم لابنه أبي زيد ، ثم كتب للأمير أبي مردنيش ، ولما نازل الإسبان بلنسية بعثه الأمير زيان بن مردنيش مع وفد أهل بلنسية بالبيعة للسلطان أبي زكرياء يحيى ابن عبد الواحد بن أبي حفص ويستصرخونه لدفع عادية العدو عن بلنسية ، فأنشد السلطان أبا زكرياء قصيدته السينية ونصها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلساً   إن السبيل الى منجاتها درسا

وهب لها من عزيز النصر ما التمست ... فلم يزل منك عز النصر ملتمسا

وحاش مما تقاسيه حشاشتها ... فطالما ذاقت البلوى صباح مسا

يا للجزيرة أضحى أهلها جزراً ... للحادثات وأمسى جدها تعسا

في كل شارقة إلمام بائقة ... يعود مأتمها عند العدى عرسا

وكل غاربة تخاف نائبة ... تثني الأمان حذاراً والسرور أسى

تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم ... إلا عقائلها المحجوبة الأنسا

وفي بلنسية منها وقرطبة ... ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا

مدائن حلّها الإشراك مبتسماً ... جذلان وارتحل الايمان مبتئسا

وصيرتها العوادي عائثات بها ... يستوحش الطرف منها ضعف ما آنسا

فمن دساكر كانت دونها حرساً ... ومن كنائس كانت قبلها كنسا

يا للمساجد عادت للعدى بيعاً ... وللنداء غدا أثناءها جرسا

لهفي عليها الى استرجاع فائتها ... مدارساً للمثاني أصبحت درسا

وأربُعاً نمنمت أيدي الربيع بها ... ما شئت من خلع موشية وكسا

كانت حدائق للأحداق مؤنقة ... فصوح النصر من أدواحها وعسا

وحال ما حولها من منظر عجب ... يستجلس الركب أو يستركب الجلسا

سرعان ما عاث جيش الكفرواحربا ... عيث الربا في مغانيها التي كبسا

وابتز بزتها مما تحيّفها ... تحيف الأسد الضاري لما افترسا

فأين عيش جنيناه بها خضراً ... وأين غصن جنيناه بها سلسا

محا محاسنها طاغ أتيح لها ... ما نام عن هضمها حيناً ولا نعسا

ورج ارجاءها لما أحاط بها ... فغادر الشم من أعلامها خنسا

خلا له الجو فامتدت يداه الى ... إدراك ما لم تطأ رجلاه مختلسا

واكثر الزعم بالتثليث منفرداً ... ولو رأى راية التوحيد ما نبسا

صلْ حبْلَها أيها المولى الرحيم فما ... أبقى المراس لها حبلاً ولا مرسا

وأحيي ما طمست منه العداة كما ... أحييت من دعوة المهدي ما طمسا

أيام صرت لنصر الحق مستبقاً ... وبتّ من نور ذاك الهدي مقتبسا

وقمت فيها لأمر الله منتصراً ... كالصارم اهتز أو كالعارض انبجسا

تمحو الذي كثف التجسيم من ظلم ... والصبح ماحية أنواره الغلسا
وتقتضي الملك الجبار همته ... يوم الوغى جهرة لا ترقب الخلسا
هذي رسائلها تدعوك من كثب ... وأنت أفضل مرجو لمن يئسا
وافتك جارية بالنصر راجية ... منك الأمير الرضا والسيد الندسا
خاضت خضارم يعليها ويخفضها ... عبابة فتعاني اللين والشرسا
وربما سبحت والريح عاتية ... كما طلبت بأقصى شدة الفرسا
تؤم يحيى بن عبد الواحد بن أبي ... حفص مقبلة من تربة القدسا

ومدح السلطان أبا زكرياء الحفصي أيضاً بقوله :

ملك تقلدت الأملاك طاعته ... ديناً ودنيا فغشاها الرضا لبسا
من كل غادٍ على يمناه مستلماً ... وكل صادٍ الى نعماه ملتمسا
مؤيد لو رأى نجماً لأثبته ... ولو دعا أفقاً لبى وما احتبسا
تالله إن الذي ترجي السعود له ... ما جال في خلد يوماً ولا هجسا
إمارة يحمل المقدار رايتها ... ودولة عزها يستصحب القعسا
يبدي النهار بها من ضوئه شنباً ... ويطلع الليل من ظلمائه لعسا
ماضي العزيمة والأيام قد نكلت ... طلق المحيا ووجه الدهر قد عبسا
كأنه البدر والعلياء هالته ... تحف من حوله شهب القنا حرسا
تدبيره وسع الدنيا وما وسعت ... وعرف معروفه واسي الورى وأسا
قامت على العدل والإحسان دولته ... وأنشرت من وجود الجود ما رمسا
مبارك هديه باد سكينته ... ما قام إلا إلى حسنى ولا جلسا
قد نوّر الله بالتقوى بصيرته ... فما يبالي طروق الخطب ملتبسا
بري العصاة وزاش الطالبين فقل ... في الليث مفترضاً والغيث مرتجسا
ولم يغادر على سهل ولا جبل ... حياً لقاحاً إذا وافيته بخسا
فرب أصيد لا تلني به صيداً ... ورب أشوس لا تلفي به شوسا
الى الملائك ينمي والملوك معاً ... في نبعة أثمرت للمجد ما غرسا
من ساطع النور صاغ الله جوهره ... وصاغ صيقله إن يقرب الدنسا
له الثرى والثريا خطتان فلا ... أعز من خطتيه ما سما ورسا

حيث الذي باع في الأخطار يركبها | إليه محياه إن البيع ما وكسا
إن السعيد امرؤ ألقى بحضرته | عصاه محترماً بالعدل محترسا
فظل يوطيء من أرجائها حرماً | وبات يوقد من أضوائها قبسا
بشرى لعبد الى الباب الكريم حدا | آماله ومن العذب المعين حسا
كأنما يمتطي واليمن يصحبه | من البحار طريقاً نحوه يبسا
فاستقبل السعد وضاحاً أسرته | من صفحة فاض منها النور وانعكسا
وقبل الجود طفاحاً غواربه | من راحة غاص فيها البحر وانغمسا
يا أيها الملك المنصور أنت لها | علياء توسع أعداء الهدى تعسا
وقد تواترت الأنباء أنك من | يحيى بقتل ملوك الصفر أندلسا
طهر بلادك منهم إنهم نجس | ولا طهارة ما لم تغسل النجسا
وأوطيء الفيلق الجرار أرضهم | حتى يطأطيء رأساً كل من رأسا
وأنصر عبيداً بأقصى شرقها شرقت | عيونهم أدمعاً تهمي زكاً وخسا
هم شيعة الأمر وهي الدار قد نهكت | داء متى لم تباشر حسمه انتكسا
فاملأ هنيئاً لك التأييد ساحتها | جرداً سلاهب أو خطية دعسا
واضرب لها موعداً فالفتح ترقبه | لعل يوم الأعادي قد أتى وعسى

قال المقري في **نفح الطيب** فبادر السلطان أبو زكرياء الحفصي بإعانتهم وشحن الأساطيل بالمدد إليهم من المال والأقوات والكسى ، فوجدهم في هوة الحصار الى أن تغلب الطاغية على بلنسية ، ورجع ابن الأبار بأهله الى تونس .

وكان تغلب العدو على بلنسية صلحاً يوم الثلاثاء السابع عشر لصفر من سنة ست وثلاثين وستمائة . فهزت هذه القصيدة من الملك عطف ارتياح ، وحركت من جنابه أخفض جناح ، ولشغفه بها وحسن موقعها منه أمر شعراء حضرته بمحاكاتها . وحال العدو بين بلنسية وبينه ، وتعاهد أهلها مع النصراني (أي الإسبان) على أن يسلمهم في أنفسهم ، وذلك سنة سبع وثلاثين وستمائة . ا هـ .

ومدح السلطان أبا زكرياء الحفصي أيضاً بقوله :

تحلت بعلياك الليالي العواطل | ودانت لسقياك السحاب الهواطل
وما زينة الأيام إلا مناقب | يفرعها أصلان بأس ونائل

إذا الطول والصول استقلا براحة ترقت لها نحو النجوم أنامل

قال المؤرخون : إن السلطان أبا زكرياء لم يتمكن من إنجادهم إلا بالمؤن والذخائر الحربية في مراكب بحرية ، ولم يرسل إليهم جيوشاً وعساكر . ولما استولى الإسبان على بلنسية رجع ابن الأبار (صاحب الترجمة) الى تونس غبطة بإقبال السلطان عليه ، فنزل منه بخير مكان ، ورشحه لكتب علامته في صدور مكاتباته ، فكتبها مدة ، ثم أراد السلطان صرفها لأبي العباس أحمد الغساني لكونه يحسن كتابتها بالخط المشرقي ، وكان هذا الخط آثر عند السلطان من الخط المغربي ، فغضب ابن الأبار أنفة من إيثار غيره عليه ، بل إنه تجاوز الغضب الى الإفتيات على السلطان في وضع علامته في كتاب أمره بإنشائه . وكان الترسل يومئذ مقصوراً عليه ، وأمره أن يبقي موضع العلامة منه لكاتبها ، فجاهر بالرد ووضعها استبداداً وأنفة ، وعوتب على ذلك فاستشاط غيظاً ، ورمى بالقلم ، وأنشد متمثلاً :

اطلب العز في لظى وذر الذل ولو كان في جنان الخلود

ونمي ذلك الى السلطان ، فأمر بلزومه بيته . ثم استعتب السلطان بتآليف رفعه إليه فيم عوتب من الكتاب وأعتب ، وسماه **أعتاب الكتاب** . واستشفع فيه بابنه المستنصر ، فعفا السلطان عنه ، وأقال عثرته ، وأعاده الى الكتابة . ولما توفي السلطان رفعه أمير المؤمنين المستنصر الى حضور مجلسه ، ثم حصلت له أمور معه كان آخرها أنه تقبض عليه ، وبعث الى داره فرفعت إليه كتبه أجمع ، فألقى أثناءها رقعة بها أبيات منها :

طغى بتونس خلف سموه ظلماً خليفة

فاستشاط السلطان لها ، وقيل : الذي غاظه بيت آخر في هجوه وجده مكتوباً بخطه في بعض أوراقه وهو :

عقّ أباه وجفا أمه ولم يقلّ من عثرة عمه

فأمر بامتحانه ، ثم بقتله ، فقتل في منتصف المحرم سنة 658هـ ، ومولده ببلنسية سنة 595هـ . ا هـ . ملخص كلام المقري رحمه الله .

ثم قال : إن ابن سعيد في كتابه **المغرب** قال في شأنه أي ابن الأبار : إنه حامل

راية الإحسان ، المشار إليه في هذا الأوان ، ثم ساق جملة من شعره ، فمنه قوله :

لو عن لي عون من المقدار   لهجرت للدار الكريمة داري
وحللت أطيب طيب من طيبة   جاراً لمن أوصى بحفظ الجار
حيث استبان الحق للأبصار   لما استثار حفائظ الأنصار
يا زائرين القبر قبر محمد   بشرى لكم بالسبق في الزوار
أوضعتم لنجاتكم فوضعتم   ما عادكم من فادح الأوزار
فوزوا بسبقكم وفوهوا بالذي   حملتم شوقاً الى المختار
أدوا السلام سلمتم وبرده   أرجو الإجارة من ورود النار

ومن شعره أيضاً :

رجوت الله في اللاواء لما   بلوت الناس من ساه ولاه
فمن يك سائلاً عني فاني   غنيت بالإفتقار الى إلهي

ومن شعره أيضاً قوله :

أمري عجيب في الأمور   بين التواري والظهور
مستعمل عند المغيـ   ـب ومهمل عند الحضور

وسبب قوله هذا أن ملك تونس كان إذا أشكل عليه شيء أو ورد عليه لغز أو معمّي بعث إليه فيحله ، وإذا حضر عنده لا يكلمه ولا يلتفت إليه .

ومن شعره أيضاً مخاطباً الوزير أبا عبد الله محمد بن الحسين بن سعيد وزير ملك تونس يستدعي منه منشوراً ، قوله :

لك الخير ألحقني بخيريّ روضة   لأنفاسه عند الهجوم هبوب
أليس أديب الروض يجعل ليله   نهاراً فيذكو تحته ويطيب
ويطوي مع الإصباح منشور نشره   كما بان عن ربع المحب حبيب
أهيم به عن نسبة أدبية   ولا غرو أن يهوى الأديب أديب

وقوله في الخسوف :

نظرت الى البدر عند الخسو ... ف وقد شين منظره الأَزْيَنُ
كما سفرت صفحة للحبيـ ... ـب بحجبها برقع أَدْكَنُ

وقوله أيضاً :

ألم تر للخسوف وكيف أبدي ... ببدر التم لماح الضياء
كمرآة جلاها القين حتى ... أنارت ثم ردت في غشاء

وقوله :

والثريا بجانب البدر تحكي ... راحة أومأت لتلطم خدا

وله شعر كثير أورد المقري منه جملة وافرة في مواضع من كتابه **نفح الطيب** . ومن شعره في واقعة يعقوب المرغي الثائر بطرابلس على أبي زكرياء الحفصي وعصابته ، وما آل إليه أمرهم قوله :

وعصابة قطفت رؤوسهم الظبي ... قطف البنان أزاهر البستان
غدروا وما شعروا بأن وراءهم ... للحق أنصاراً على البهتان
فانظر الى هاماتهم مسودة ... كالليل غير بوارق الأسنان
تبدو من السور المنيف بصفحة ... بيضاء كالشامات والخيلان

175 – قاضي الجماعة بتونس أبو العباس أحمد بن محمد الأزدي المعروف بان الغماز

ولد سنة 609هـ ، ونشأ في طلب العلم فأخذ عن علماء تونس حتى علا كعبه ، وبعُد صيته ، وكان له اعتناء بلقاء العلماء ، فأجاز له خلايق من أهل المغرب والمشرق . وكان فقيهاً عالماً بالقضاء ، حسن الأخلاق ، معروفاً بالعدالة والنزاهة . انتفع به الناس وتخرج عليه جمع من أهل العلم والأدب . ولي قضاء الجماعة بالحاضرة مرات حمدت في جميعها سيرته ، وكان شاعراً مجيداً .

ترجمه ابن فرحون رحمه الله في كتابه الديباج المذهب بما نصه :

أحمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن عبد الرحمان بن سعد بن سعيد بن محمد ابن علي بن مكنف الخزرجي الأزدي المعروف بابن الغماز الأندلسي الشيخ الإمام قاضي القضاة بتونس .

كان موصوفاً بالعلم والفضائل والرئاسة . ولي قضاء الجماعة نحو سبع ولايات ، فحملن فيه سيرته . وتوفي وهو على ولايته . واعتنى بلقاء رجال الحديث . وأجاز له خلائق من أهل المغرب والمشرق . كان فقيهاً فاضلاً ديّناً حسن الخلق معروفاً بالعدالة والنزاهة .

روى عن جماعة من الجلة منهم الحافظ أبو الربيع سليمان بن سالم الكلاعي ، والفقيه المقرىء أبو عبد الله محمد بن مسعود الأزدي الشاطبي ابن صاحب الصلاة ، والفقيه المحدث أبو الحسن بن خيرة البلنسي ، والفقيه المحدث المقرىء أبو الحسين أحمد ابن محمد الأنصاري الإشبيلي المعروف بابن السراج ، والفقيه العالم أبو العباس أحمد بن محمد اللخمي العزفي السبتي .

وكتب له جماعة من علماء المشرق منهم : محمد بن أحمد بن محمد بن يس بن محمد الدمياطي ، عرف بابن فضل ؛ والإمام العلامة أحمد بن محمد بن عمر الأنصاري القرطبي ، وأحمد بن قيمان بن عبد الله ، وأحمد بن سليمان بن أحمد المرجاني الإسكندري المغربي ، وإبراهيم بن طرخان السنجاري ، وإسماعيل بن عبد الواحد العسقلاني ، وإسحاق بن أبي بكر الطبري المكي ، وعز الدين بن عبد السلام السلمي ، وعبد الوهاب بن عساكر الدمشقي ، وأبو القاسم عبد الرحمان سبط الحافظ أبي الطاهر السلفي ، وعبد العظيم بن عبد القوي المنذري زكي الدين الإمام الحافظ ، والإمام الحافظ علي بن وهب ابن مطيع القوصي الشهير بأبن دقيق العيد ، وسليمان بن خليل المكي إمام المقام وخطيب الحرم ، ويحيى بن عبد الله أبو الحسن العطار رشيد الدين الحافظ ، ويعقوب بن أبي بكر بن محمد بن إبراهيم الطبري ، وعلي بن أحمد بن علي القسطلاني ؛ وغير هؤلاء نحو المائة من المشاهير ا هـ .

وكان صاحب الترجمة زيادة عن جمعه بين العلم والأدب معروفاً بالعدالة والنزاهة ، انتفع به الناس ، وتخرجوا عليه ، شاعراً مجيداً . فمن شعره قوله في التربية والوعظ :

يا منفق العمر في حرصٍ وفي طمع ... الى متى قد تولى وانقضى العمر
الى متى ذا التمادي في الضلال أما ... تنهاك موعظة لو تنفع الذكر
بادر متاباً عسى ما كان من زلل ... وما اقترفت من الآثام يغتفر
وجنب الحرص واتركه فما أحد ... ينال بالحرص ما لم يعطه القدر
ولا تؤمل ما ترجو وتحذره ... من ليس في كفه نفع ولا ضرر
واحذر هجوم المنايا واستعدّ لها ... ما دام يمكنك الإعداد والحذر

ومن شعره في حسن الظن بالله :

وقالوا أما تخشى ذنوباً أتيتها ... ولم تك ذا جهل فتعذر بالجهل
فقلت لهم هبني كما قد ذكرتم ... تجاوزت في قول وأسرفت في فعل
أما في رضا مولى الموالي وصفحه ... رجاء ومسلاة لمقترف مثلي

ومنه قوله في ابن له صغير رأى هلال الشهر بصومعة جامع الزيتونة فأراه لعدول الرؤيا . فلما أخبروه بذلك أنشد ارتجالاً :

توارى هلال الأفق عن أعين الورى ... وأرخى حجاب الغيم دون محياه
فلما تصدّى لارتقاب شقيقه ... تبدّى له دون الأنام فحيّاه

ومن شعره قوله :

هو الموت فاحذر أن يصيبك بغتة ... وأنت على سوء من الفعل عاكف
وإياك أن تمضي من الدهر ساعة ... ولا لحظة إلا وقلبك واجف
وبادر بأعمال تسرك أن ترى ... إذا نشرت يوم السحاب الصحائف
ولا تيئسن من رحمة الله إنه ... لرب العباد بالعباد لطائف

ومنه أيضاً قوله :

من كان يعلم لا محالة أنه ... لا بد أن يودي وإن طال المدى

هلا استعد لمشهد يجزي به من قد أعد من اهتدى ومن اعتدى

وآخر ما أنشده لنفسه في اليوم الذي مات فيه وذلك ليلة عاشوراء سنة 693هـ :

أدعوك يا رب مضطراً على ثقة بما وعدت كما المضطر يدعوكا
دارك بعفوك عبداً لم يزل أبداً في كل حال من الأحوال يرجوكا
طالت حياتي ولما أتخذ عملاً إلا محبة أقوام أحبّوكا

وكان مولده سنة 609هـ ، وتوفي وهو قاضي الجماعة بتونس سنة 693هـ كما أسلفنا . ورثى من شعراء تونس بقصائد فرائد تولى جمعها في سفر تلميذه أبو الحسن عليْ التيجاني التونسي .

176 – أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد التونسي

عالم أديب ، شاعر مجيد ، متبحر في المعارف . له تآليف ، منها كتاب كنوز المطالب في الأدب . ومن شعره وقد حلّ في بعض سفراته بطرابلس ، فبكر يوماً الى المدرسة التي أنشأها بها السلطان المنتصر الحفصي سنة 658هـ على يد أبي محمد عبد الحميد ابن أبي الدنيا على أحسن وضع وأظرف صنع ، فدخل صاحب الترجمة إليها ، وقعد مسرّحاً طرفه في روضة حبق فيها ، حبس حاستي الشم والبصر عليها ، فأنشد :

يا حبذا نسمة هبت لناسمها غب الكرى سحراً من روضة الحبق
حبستها عندما هبت وقد نعشت ببلة من نداها روح منتشق
قرنفل الهند قد وافى التجار به محافظين على نشرٍ له عبق
فعندما فضّه الداريّ ذكرني بطيبه طيب عيش مرّ لي أنق
بتونس أنّس الرحمان ساحتها وسقّيت أبداً بالعارض الغدق
ولا أموت الى أن ألتقي قمراً للحسن مطلعه من ذلك الأفق

177 – أبو عمران موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد

عالم أديب جليل القدر. نوّه بشأنه ابنه أبو الحسن على صاحب كتاب **المغرب** على ما نقله عنه صاحب **نفح الطيب** في الجزء الأول منه فليرجع إليه من شاء.

حلّ صاحب الترجمة هو وابنه علي بتونس في إمارة أبي زكرياء، فانخرط في سلك الكتابة لولي عهده الأمير أبي يحيى. ثم عزله وعزل ابنه علياً المذكور أيضاً عن الكتابة وقراءة المظالم بسبب الوشاية بهما إليه من ابن عمها الرئيس محمد بن سعيد وزير أبي زكرياء الناشئة عن أقاويل الحساد الكاذبة. ثم سافرا الى الإسكندرية، فوصلاها في 27 ربيع الأول من سنة 639هـ. فأقام صاحب الترجمة بها، وذهب ابنه علي إلى القاهرة. وكتب إليه أبوه موسى وصية جامعة مطولة نظماً ونثراً، ذكرها المقري في **نفح الطيب** يقول في طالع القصيدة منها:

أُودِعُكَ الرحمانَ في غربتك   مرتقباً رحماه في أوبتك

ثم رجع الى تونس وبها كانت وفاته كما سيأتي. أما أبوه صاحب الترجمة فتوفي بالإسكندرية يوم الإثنين في 8 شوال عام 640هـ، وكانت ولادته في غرناطة في رجب عام 573هـ. وكان شاعراً مجيداً. ومن شعره قصيدة مدح بها أبا زكرياء الحفصي سلطان تونس يقول فيها:

بشري ويسري قد أنار المظلم   نجماً وقد وضح الصباح المعلم
ورنت عيون الأمن وهي قريرة   وبدت ثغور السعد وهي تبسم
فارحل لتونس واعتقد أعلام من   قوي الضعيف به وأثرى المعدم
حيث المعالي والمعاني والندى   والفضل والقوم الذين هم هم
أجري الى الغايات ملء عنانهم   سبقاً وبذهم الجواد المنعم
ساد الإمام الملك يحيى سادة   أعطى الورى لهم القياد وسلموا
إن الإمارة قد غدا يقتادها   يقظي وأجفان الحوادث نوم
لله منك مبارك ذو فطنة   برعت فأحجم عندها من يقدم
يقظان لا وانٍ ولا متقاعس   كالدهر يبني ما يشاء ويهدم
إن صال فالليث الهصور المقدم   أو سال فالغيث المغيث المثجم

أعلى منار الحق حين أماله قومٌ تبرأت المنابر منهم
أعلى الإله مكانه وزمانه والنصر يقدم والسعادة تخدم

178 – أبو بكر محمد ابن الفقيه أبي العباس أحمد بن عبد الله المعروف بابن سيد الناس

ترجمه صاحب **ذيل الديباج** بقوله : الشيخ الفقيه الحافظ الخطيب اللغوي . كان راوية للحديث ، حافظاً له . إذا أقرأ الحديث أسنده الى أن ينتهي به الى النبيّ ﷺ ، ثم يتكلم على رجاله الصحابة والتابعين فمن بعدهم واحداً واحداً ، ويعرّفهم نسباً وإسماً وصفة وتاريخاً الى شيخه ، فيذكر ما فيه ، وأنه لقيه وقرأ عليه وسمع منه ، ثم يذكر لغة الحديث ، وغريبه ، وفقهه ، والخلاف العالي ودقائقه ، ورقائقه ، والمستفاد منه بفصاحة .

أقرأ بإشبيلية ثم إن أمير إفريقية المستنصر بالله استدعاه ، ولما قدم عليه سأله قراءة آية من القرآن فاستفتح بالإستعاذة ، ثم قرأ « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لأنفضوا من حولك » فكان ذلك سبب حظوته عنده وأجزل عطيته .

وقال أيضاً في شأن صاحب الترجمة : إنه كان يستظهر ستة آلاف حديث بأسانيدها ويذاكر بها مع ما يتبعها من لغة ونحو .

كان رأى النبي ﷺ في منامه مسح بيده الكريمة على صدره ، قال فما حفظت شيئاً ونسيته قال : وكان رحمه الله يكتب جيداً ، وينظم حسناً . توفي في 13 جمادى الآخرة سنة 657هـ ا هـ .

ذكرناه في عداد مهاجرة الأندلسيين الى تونس من الشعراء العلماء وإن لم نطلع على شيء من شعره لقول صاحب **ذيل الديباج** السابق في شأنه : أنه كان ينظم حسناً .

179 – أبو المطرف أحمد بن عبد الله بن عميرة المخزومي

سلفه من جزيرة شقر من كورة بلنسية . ولد في شهر رمضان سنة 580هـ ، وتوفي ليلة الجمعة الموفية لعشرين من ذي الحجة سنة 658هـ في تونس .

كان رحمه الله عمدة العلماء ، وقدوة البلغاء ، وصدر الجلة الفضلاء . قرأ على علماء الأندلس كأبي علي الشلوبين النحوي ، وابن عات ، وأبي الخطاب بن واجب ، وأبي الربيع بن سالم ، وابن نوح ، وابن حوط الله ، وغيرهم من العلماء . وأجاز له جماعة من علماء المشرق .

وكان شديد الولوع بالرواية فأكثر من سماع الحديث وأخذه عن أهله ، ثم تفنن في العلوم ، وبرع في المعقولات وأصول الفقه . ومال إلى الأدب ، وبرع فيه براعة عُدّ فيه من مجيديه نظماً ونثراً ، فارس ميدانهما الذي لا يجاري ولا يباري ، له وعظ على طريقة ابن الجوزي ، ورسائله عجيبة ، خاطب بها الملوك من الموحدين والحفصيين وغيرهم . وله تآليف علمية وتاريخية منها في واقعة تغلب الروم على ميورقة ، ومنها تآليف تعقب فيه على الإمام الرازي في كتابه المعالم ، وغير ذلك .

ذكر المقري في نفح الطيب أنه ورد على مدينة مراكش مع أمير المؤمنين الرشيد حين قفوله من مدينة سلا فاستكتبه مدة يسيرة ثم أولاه القضاء بمدينة سلا ، ثم نقله منها الامير المذكور الى مدينة مكناسة ، ثم إنه توجه الى سلا فأخذ ماله وتوجه مع قافلة بني مرين إلى إفريقية . وكان رحمه الله منذ فارق الأندلس متطلعاً إلى سكنى إفريقية معمور القلب بذلك . ولما قدم تونس مال إلى صحبة الزهاد والصالحين وأهل الخير مدة من الزمان . ثم ولي القضاء بالأربس ، ثم بقابس مدة طويلة . ثم استدعاه أمير المؤمنين المستنصر بالله الحفصي وأحضره مجالس أنسه ، وأدخله مداخلة شديدة حتى تغلب على أكثر أمره .

وفي شأن صاحب الترجمة يقول ابن الأبار في كتابه **تحفة القادم** :

فائدة .

هذه المائة والواحد بني بالفئة الذي اعترف له الجميع ، واتصف بالإبداع فماذا يتصف بالبديع ، ومعاذ الله أن أحابيه بالتقديم ، لما له من حق التعليم ، كيف وسبقه الأشهر ، ونطقه الياقوت والجوهر ، تحلت به الصحائف والمهارق ، وما تحلت عند المغارب والمشارق ، فحسبي أن أجهد في أوصافه ، ثم أشهد بعدم إنصافه . هذا على متناول العموم والخصوص لذكره ، وتناوب المنظوم والمنثور على شكره . ثم أورد جملة من شعره ، منها فيما يكتب على قوس :

ما أناء معتقل القنا إلا لأن   يحكي تأطر قامتي العوجاء
تحنو الضلوع على القلوب وإنني   ضلع ثوى فيها بأعضل داء

قال : وله وقد أهدى إليه ورد :

خذها إليك أبا عبد الإله فقد   جاءتك مثل خدود زانها الخفر
أتتك تحكي سجايا منك قد عذبـ   ـت لكن تغيير هذا دونه الغير
إن شمت منها بروق الغيب يانعة   فسوف يأتيك من ماء لها مطر

قال وكتب إليّ مع تحفة أهداها مكافئاً عن مثلها :

يا واحد الأدب الذي قد زانه   بمناقب جعلته فارس منصبه
بالفضل في الهبة ابتدأت فإن تُعر   طرف القبول لما وهبت ختمت به

قال : وله ارتجالات بقصر الإمارة ببلنسية ، وأنا في صحبة بعض الجمع وقد حجم صاحب لنا من أهل النظم والنثر وهو الأمير زيان بن مردنيش ، وأحسن الى الحجام بالخصوص ولم يحسن إليه هو ، وقد رفع إليه شعراً :

أرى من جاء بالموسى مواسي ... وراحة ذي القريض تعود صفرا
فهذا مخفق إن قص شعراً ... وهذا منجح إن قص شعرا

وله أيضاً :

هو ما علمت من الأمير فما الذي ... تزداد منه وفيه لا يرتاب
لا تتقي الأجناد في أيامه ... فقراً ولا يرجو الغني الكُتّاب

وله أيضاً :

سلب الكرى من مقلتي فلم يجيء ... منه على نأي خيال مطرق
أهفو ارتياحاً للنسيم إذا سرى ... إن الغريق بما يرى يتعلق

قال : وله بعد انفصاله من بلنسية عن وحشة في ذي القعدة سنة 628هـ :

أسير بأرجاء الرجاء وإنما ... حديثي طريقي طارق الحدثان
وأحضر نفسي إن تقدمت خيفة ... بغض عنان أو بغض زمان
أيترك حظي للحضيض وقد سرى ... لإمكانه فوق الذرى جبلان
وأخبط في ليل الحوادث بعدما ... أضاء لعيني منهما القمران
فيحيي آمالي حياة معادة ... وإن عزيزاً عزه لمكاني
وقالوا اقترح إن الأماني منهما ... وإن كنّ فوق النجم تحت ضمان
فقلت إذا ناجاهما بقضيتي ... ضميري لم أجفل بشرح لسان

وله أيضاً :

وأجلت فكري في وشاحك فانثنى ... شوقاً إليك يجول في جوال
أنصفت غصن البان إذ لم تدعه ... لتأودٍ مع عطفك الميّال
ورحمت در العقد حين وضعته ... متوارياً عن ثغرك المتلالي
كيف اللقاء وفضل وعدك سينه ... أبداً تخلصه للإستقبال
وكماة قومك نورهم ووقيدها ... للطارقين أسنة وعوالي

قال المقري : ومما يستولي على الخواطر ، ويروي رياض الأفكار بسحب بلاغته المواطر ، قوله رحمه الله تعالى يخاطب أبا الحسن الرعيني سنة 634هـ :

يا صاحبي والدهر لولا كرة … منه على حفظ الذمام ذميم
أمنازعي أنت الحديثَ فإنه … ما فيه لا لغو ولا تأثيم
ومروض مرعى منأي فنبته … من طول إخلاف الغيوم هشيم
طال اعتباري بالزمان وإنما … داء الزمان كما علمت قديم
مجفو حظ لا ينادي ثم لا … ينفك عنه الحذف والترخيم
وأرى إمالته تلوم وقصره … فإلام يلغي المد والتفخيم ؟
وعلام أدعو والجواب كأنما … فيه بنص قد أتى التحريم ؟
لم ألق إلا مقعداً غير الأسى … فلدي منه مقعد ومقيم
وشرابي الهم المعتق خالصاً … فتى يساعدني عليه نديم
غارات أيام على جوارح … فعديها في طبعه التحكيم
ولواعج يحتاج صالي حرها … أمراً به قد خص إبراهيم
ولقد أقول لصاحب هو بالذي … أدركت من علم الزمان عليم
لا بأس من روح الإله وإن قَست … يوماً قلوب الخلق فهو رحيم

ولما حصل الرزء ببلنسية بعث بكتاب الى الشيخ أبي جعفر بن أُمية ، ومما جاء فيه هذه القصيدة ، وهي قوله :

ألا أيها القلب المصرح بالوجد … أما لك من بادي الصبابة من بد ؟
وهل من سلو يرتجى لمتيم … له لوعة الصادي وروعة ذي الصد
يحنّ الى نجد وهيهات حرّمت … صروف الليالي أن يعود الى نجد
فيا جبل الريان لا ري بعدما … عدت غير الأيام عن ذلك الورد
ويا أهل ودي والحوادث تقتضي … خُلُويَ عن أهل يضاف الى الود
ألا متعة يوماً بعارية المنى … فإنّا نراها كل حين الى الرد
أمن بعد رزء في بلنسية ثوى … بأحنائنا كالنار مضمرة الوقد
يرجي أناس جنة من مصائب … تطاعن فيهم بالمثقفة الملد
ألا ليت شعري هل لها من مطالع … معاد إلى ما كان فيه من السعد

وهل أذنب الأبناء ذنب أبيهم   فصاروا الى الإخراج من جنة الخلد

وكتب إلى سلطان إفريقية الأمير أبي زكرياء الحفصي الوارث ملك بني عبد المؤمن في تلك النواحي ، المستولي على البلدان والضواحي ، وكان لأهل الأندلس أمل في أخذه بثأرهم ، وضم انتشارهم ، مكتوباً يستنجد به نظماً ونثراً . ونص النظم المشار إليه قصيدة غراء من شعره البديع وهي :

شاقه غب الخيال الوارد   بارق هاج غرام الهاجد
صِدْقُ وَعْد للتلاقي ثم ما   طرقا إلا بخلف الواعد
وكلا الزورين من طيف ومن   وافد تحت الدياجي وارد
لم يكن بعد السري مستمتع   فيه للرائي ولا للرائد
وشديد بث قلب هائم   يشتكيه عند ربع هامد
بالأمير المرتضى عز الهدى   وثني عطف المسلي الواجد
وبه أصحب ما كان يرى   حاملاً أنف الأبي الشارد
إنما الفخر لمولانا أبي   زكرياء بن عبد الواحد
ملك لولا حلاه الغر لم   يجر بالحمد لسان الحامد
ولو أن العذب أبدى رغبة   عنه لم يشفِ غليل الوارد
فضله مثل سني الشمس وهل   لسني الشمس يرى من جاحد
قهر البغي بجد صادع   ما تعداه ووجد صاعد
إنما آل أبي حفص هدي   للورى من غائب أو شاهد
قصروا فوق النجوم الزهر عن   همم نبهن عزم القاعد
وعن الإسلام ذادوا عندما   فل طول العهد غرب الذائد
أي فخر عمري المنتمي   ورثوه ماجداً عن ماجد
ما الفتوح الغر إلا لهم   بين ماضٍ بادىء أو عائد
في محيا لاحق من سابق   وعلى المولود سيّما الوالد
وليحيي راجح الحكم الذي   ترك الطود بعطفي مائد
عقد أُحسابِهِمُ تمّ لَهُ   مثل ما تم حساب العاقد
أيها الجامع ما قد أحرزوا   جمع من همته في الزائد

هذه الأمة قد أوسعتها ... نظراً يكلأ ليل الراقد
لم تزل منك بخير طارف ... ريشه تال قدامي تالد
ولهم منك ليوم حاضر ... وغداً رأي البصير الناقد
أرشد الدر لأولى نظر ... بالورى رأي الإمام الراشد
وتولاه بتوفيق الأولى ... سعداً من عاقد أو عاهد
وله في الله أوفى كافل ... بالذي يبقى وأكفى عاضد

ومن شعر أبي المطرف صاحب الترجمة يمدح الرسول عليه الصلاة والسلام حين انصرف من قبر أبي لبابة بشر أو رفاعة بن عبد المنذرالأنصاري دفين مدينة قابس . وكان ولي قضاءها من طرف الخليفة المستنصر بالله الحفصي :

خبر الأحبة ما ألذ مساقه ... وجنى القطيعة ما أمر مذاقه
وهوى القلوب لها عليه شواهد ... سبقت بناطق حالها استنطاقه
أي المنازل إن ذكرت عهودها ... فتهيج من كلف بها أشواقه
يعتاده منها جوى بين الحشا ... والصدر رقرق دمعهُ وأراقه
ويبيت منها كالسلام وما له ... أرق إذا مد الظلام رواقه
حمل الغرام وما استقل بحمله ... قبل النوى فالآن كيف أطاقه
ورمت به الأقدار كل تنوفة ... لم تأله لجالها إغراقه
قلب تشاكينا الفراق لديه والـ ... ـأشهى لنا أن لا تسام فراقه
وموارد حملت أجنة آجن ... يلقي بها طعم النوى من عاقه
خفق الجوانح دونه ويرد من ... أفضى إليه مع الصدى إخفاقه
ما زلت أقطعها مهامهُ لم تزل ... بالصبر حتى مرنت أخلاقه
حتى وقفت وما أقفت بمنزل ... كالظلم في صدري أرى آفاقه
وقبست من شوقي لقابس جذوة ... شبت على قلب سواها شاقه
من بلدة في العين أظلم جوها ... مع أنها ما أنكرت إشراقه
قد كان منظرها يروق بعين من ... يشكو النوى لو أن شيئاً راقه
لكن بقبر أبي لبابة لي هوى ... ما من هوى في النفس إلا فاقه
أمل بنفسي لو ظفرت بتربة ... فجعلت أثمد ناظري دُقاقه

وتمثل القبر الكريم بمقلتي فدنوت منه والتزمت عناقه
فوثاق ذنبي أرتجي لفكاكه من فك خير العالمين وثاقه
صلى الإله على النبيء محمد وأناله بجواره استحقاقه
وعلى صحابته وعترته التي لزمت رضاه واقتفت أخلاقه
وقضى لنا من بطئنا في سيرنا يوم الجزاء على الصراط لحاقه

180 – علي بن مؤمن بن محمد بن علي أبو الحسن بن عصفور النحوي الحضرمي الإشبيلي

قال السيوطي في **بغية الوعاة** : حامل لواء العربية في زمانه في الأندلس . قال ابن الزبير : أخذ عن الدباج والشلوبين ، ولازمه مدة ، وتصدى للإشتغال مدة بعدة بلاد . وجال بالأندلس ، وأقبل عليه الطلبة ، وكان أصبر الناس على المطالعة لا يمل من ذلك . قال الصفدي : لم يكن عنده ورع ، جلس في مجلس وشرب ، فلم يزل يرجم بالنارنج إلى أن مات . قلت : هو من مهاجرة الأندلس إلى تونس ، وبها مات في 24 من ذي القعدة سنة ثلاث وقيل تسع وستين وستمائة . وقبره معروف في تربة بسوق القماش أمام محل إدارة مشيخة جامع الزيتونة المعروفة في القديم بمحكمة ابن عصفور . أما ولادته ففي سنة 597هـ .

له من التآليف **الممتع** في التصريف . كان أبو حيان لا يفارقه . **والمقرب** شرحه لم يتم . **شرح الجزولية** ، **مختصر المحتسب** ، **ثلاث شروح على الجمل** ، **شرح الأشعار الستة** وغير ذلك .

من شعره :

لما تدنست بالتفريط في كبري وصرت مغري بشرب الراح واللعس
أيقنت أن خضاب الشيب أستر لي إن البياض قليل الحمل للدنس

وله رحمه الله ذرية بتونس تنسب إليه ، أدركنا بعضهم وهو آخرهم .

181 – أبو الحسن حازم بن محمد القرطاجني الخزرجي

قال المقري في **نفح الطيب** في شأنه ما نصه : الناظم الناثر ، وإن ممن أخذ عنه الحافظ ابن رشيد الفهري وقد ذكره في **رحلته** وأثنى عليه . كما أن العبدري أثنى عليه في **رحلته** أيضاً ، وقال : حازم وما أدراك ما حازم ، وقال المقري : إنه (أي حازم) والحافظ أبو عبد الله ابن الأبار فرسا رهان ، غير أن ابن الأبار كان أكثر منه رواية . ولد حازم سنة 608هـ ، وتوفي ليلة السبت في 24 رمضان سنة 684هـ في تونس . وذكر في **نفح الطيب** أن له عدة تآليف وأنه عرف به في كتابه **أزهار الرياض** . وذكر قصيدة له مدح بها سلطان تونس أبا عبدالله محمد المستنصر الحفصي ، نصها :

أمن بارق أوري بجنح الدجى سقطاً ... تذكرت من حل الأجارع فالسقطا
وبان ولكن لم يبن عنك ذكره ... وشط ولكن طيفه عنك ما شطا
حبيب لو أن البدر جاراه في مدى ... من الحسن لاستدنى مدى البدر واستبطا
إذا انتجعت مرعى خصيباً ركابه ... غدا لحظ عيني يشتكي الجدب والقحطا
لقد أسرعت عني المطي بشاذن ... تسرع في قتل النفوس وما أبطا
ظننت الفلا دار ابن ذي يَزَنٍ بها ... وخِلت المحاريب الهوادج والغبطا
فكم دمية للحسن فيها وصورة ... تروق وتمثال من الحسن قد خطا
حمائل لاحت كالخمائل بهجة ... سقيط الحيا فيهن لا يسأم السقطا
توسد غزلان الأوانس والمها ... به الوشي والديباج لا السدر والأرطى
ولم يُسْبِ قلبي غير أبهرها سني ... وأطولها جيداً وأخفضها قرطا
أيا ربة الأحداج سيري فتعلمي ... وما بك جهل إن سهمك ما أخطا
فني تستبيني ما بعينك من عنا ... كجسمي وعنوان الهوى فيه مختطا
فلم أر أعتى منك لحظاً وناظراً ... لقلبي ولا أعدى عليه ولا أسطا
سقى الله عيشاً قد سقانا من الهوى ... كؤوساً بمعسول اللمى خلطت خلطا
وكم جنة قد ردت في ظل كافر ... فلم أجز ما أولاه كفراً ولا غمطا
وكم ليلة قاسيتها نابغية ... إلى أن بدت شيباً ذوائبها شمطا
وبت أظن الشهب مثلي لها هوى ... وأغبطها في طول ألفتها غبطا
على أنها مثلي عزيزة مطلب ... ومن ذا الذي ما شاء من دهره يعطى

كأن الثريا كاعب أزمعت نوى وأمت بأقصى الغرب منزلة تخطى
كأن نجوم الشقعه الزهر هودج لها عن ذرا الحرف المناخة قد حطا
كأن رشاء الدلو رشوة خاطب لها جعل الأشراط في مهرها شرطا
كأن السهى قد دق من فرط شوقه إليها كما قد دقق الكاتب النقطا
كأن سهيلاً إذ تناءت وأنجدت غدا يائساً منها فأتهم وأنحطا
كأن خفوق القلب قلب متيم تعدّى عليه الدهر في البين واشتطا
كأن كلا النسرين قد ريع إذ رأى هلال الدجى يهوي له مخلباً سلطا
كأن الذي ضم القوادم منهما هوى واقعاً للأرض أو قض أوقطا
كأن أخاه رام فوتاً أمامه فلم يعد أن مد الجناح وأن مطا
كأن بياض الصبح معصم غادة جنت يدها أزهار زهر الدجى لقطا
كأن ضياء الشمس وجه إمامنا إذا ازداد بشراً في الوغى وإذا أعطى
محمد الهادي الذي انطلق الورى ثناء بما أسدى إليهم وما أنطى
همام غدا شمس المعالي وبدرها وقد أصبحت زهر النجوم له رهطا
جميل المحيا مجمل طيب ذكره يعاطي سروراً كالحميا ويستعطى
إذا ما الزمان الجهد أبدى تجهماً أرانا الحياء الطلق والخلق السبطا
كلا أبوي حفص نماه إلى العلا فأصبح عن مرقاته النجم منحطا
بسيماه تدري أن كعباً جدوده وإن هو لم يذكر رزاحاً ولا قرطا
إذا قبض الروع الوجوه فوجهه يزيد لكون النصر نصلاً له سبطا
به تترك الأبطال صرعى لدى الوغى كأن قد سقوا من خمر بابل إسفنطا
تراه إذا يعطي الرغائب باسماً له جذل يربى على جذل المعطى
وكم عنق قد قلدت بنواله فريداً وقد كانت قلادتها لطا
متى ما تقس جود الكرام بجوده فبالبحر قايست الوقيعة والوقطا
يشف له عن كل غيب حجابه فتحسبه دون المحجب ما لطا
تطيع الليالي أمره في عصاته وتردي أعاديه أساودها نشطا
وتمضي عليهم سيفه وسنانه فتبري الكلى طعناً وتفري الطلى قطا
فكيف ترجت غرة منه فرقة غدا عزها ذلاً ورفعتها هبطا
وكم بالنهي والحلم غطى عليهم الى أن جنوا ذنباً على الحلم قد غطى

فأمطاهم دهم الحديد وطالما   أبانهم دهم الجياد وما أمطى
ودام لهم هدياً ولكنهم أبوا   بغيهم إلا الضلالة والخبطا
وكان لهم يبغي المثوبة والرضا   ولكن أبوا إلا العقوبة والسخطا
ولو قوبلت بالشكر منه مآرب   لما اعتاض منها أهلها الأثل والخمطا
هو الناصر المنصور والملك الذي   أعاد شباب الدهر من بعدما اشْمَطَّا
أصاخت له الأيام سمعاً وطاعة   وأحكمت الدنيا له عهدها ربطا
فلا بد من أن يملك الأرض كلها   وأن تملأ الدنيا إيالته قسطا
ويغزو في آفاق أندلس العدى   بجيش يخط الأرض من قبله خطا
وكل جواد خف سنبكه فما   يمس الثرى إلا مخالسة فرطا
يؤم بها الأعداء ملك أمامه   من الرعب جيش يسرع السير إن أبطأ
ويرمي جبال الفتح من شط سبتة   بها فتوافي سبقاً ذلك الشطا
بحيث التقى بالخضر موسى وطارق   وموسى به رحلاً لغزو العدى حطا
وسعيك ينسي ذكر سعيهما به   ويوسع سعي المشركين به حبطا
ويوقع بالأعداء أعظم وقعة   بها تملأ الأسماع طير الملا لغطا
تجاوب سحم الطير فيها وشهبه   كما راطن الزنج النبيط أو القبطا
وتنكر فيها الجو والأرض أعين   ترى الجو ناراً والصعيد دماً عبطا
فتخضب منهم من أشابت نجومها   نصول ترى منها بفود الدجى وخطا
ويحسم أدواء العدا كل صارم   حسام إذا لاقى الطلا حده قطا
وكل كمي كلما خط صفحة   بسيف غدا بالرمح ينقط ما خطا
شجاع إذا التف الرماحان مثلما   تقلقل في أسنان مشط يد مشطا
إذا ما رجت منه أعاديه غرة   رأت دون ما ترجو القتادة والخرطا
فيجدع آناف العداة بسيفه   وينشقها بالرمح ريح الردى قسطا
يبيد الأعادي سطوة ومكيدة   فيحكي الأسود الغلب والأذؤب الملطا
سرى في طلاب المعلوات ولم يزل   يمد يداً مبسوطة وندى بسطا
ولو نازعت يمناه جدباً شماله   لبوساً من الماذي لأنفق وانعطا
يصول بخطي لكل مراسة   به أثر يعزوه للحية الرقطا
متى تبصر الآكام فرعاً كواسياً   بهن وقد أبصرن عارية مرطا

إذا نسبت للخط أو لردينة نسبن الى العليا ردنيه والخطا
كماة حماة ما يزال إلى الوغى حنين لهم ما حن نضو وما أطا
عليهم تسيج السابغات كأنها جلود عن الحيات قد كشطت كشطا
إذا لمع للشمس لاحت عليهم رأيت صلالاً ألبست حللا رقطا
تزحزح كالزاروق ليناً ومثله ترى نقطة من بعد ما طرحت خطا
جيوش إذا غطى البلاد عبابها وأمواجها غطت نفوس العدى غطا
فكم قد حكت في حصر حصن ومعقل وشاحاً على خصر فأسعفه ضغطا
وخيل كأمثال النعام تخالها لإفراط لوك اللجم تبغي لها سرطا
تخيلها فتخاً إذا ارتفعت وإن سحن بماء خلتها خفة بطا
فينعق منها مرط كل عجابة فوارع لا يسأمن مراً ولا رطا
وكم خالطت سمر الرماح وأوردت مياهاً غدت حمر الدماء لها خلطا
يجرونها ليل السرى فإذا دعوا نزال امتطوا منهن أفضل ما يمطى
فكم جنبوها خلف معتادة السرى عوارف لم تسمع لها أذن فحطا
وكم وسمت أعناقهن أزمة بطول السرى حتى تظن بها علطا
إذا أوقدت ناراً بقذف الحصى حكت وبحر الدجى طام سفيناً رمت نفطا
إمام الهدي أعليت للدين معلماً وسمت العدا من بعد رفعتهم حطا
وألقحتهم عقم المنى عن خيالها فما ولدت عقماً ولا نتجت سقطا
وصيرتم في عقلة سارح الفدا وسرحتم الآمال من عقلها نشطا
ومن كان يشكو سطوة الدهر قد غدا بعدلك لا يعدى عليه ولا يسطى
ففي كل حال تؤثر القسط جارياً على سنن التقوى وتجتنب القسطا
فبوركت سبطاً جده عمر الرضا وبورك من جد غدوت له سبطا
تلوت الإمام العدل يحيى فلم تزل تزيد أمور الخلق من بعده ضبطا
فردتم وضوحاً بعده واستقامة وتوطئة نهج السبيل الذي وطا
وما كان أبقى غاية غير أنه حُبيت بما لم يحب خلق ولم يعطا
إذا دول الأملاك في الفخر نظمت على نسق عقداً فدولتك الوسطى

وله في الأمير المذكور هذان البيتان :

في كل أفق من صباح دجاكم نور جلا خيط الظلام بخيطه

راقت محاسن مجدكم فبهن ما   كسيته من حبر المديح وريطه

كما أن له فيه القصيدة المقصورة الذائعة الصيت التي عارض بها مقصورة ابن دريد رحمهما الله تعالى . والتي طالعها :

يا ظبية أشبه شيء بالمها   ترعى الخزامى بين أشجار النقا
لقد جمعت الظلم والاظلام إذ   واريت شمس الحسن في وقت الضحى

ومن شعره قصيدة طالعها :

لم تدر إذ سألتك ما أسلاكها   أبكت أسى أم قطعت أسلاكها

وعارضها أبو عبد الله التجاني التونسي بقصيدة بديعة أولها :

ساحر الألحاظ يا فتاكها   فتياً حواز الصد من أفتاكها

182 – أبو الحسن علي بن موسى بن عبد الملك بن سعيد العنسي

الغرناطي القلعي من أهل قلعة يحصب ، وتسمى قلعة بني سعيد نسبة لجدهم ، وكان متولياً لأمور هذه القلعة التابعة لدولة علي بن يوسف بن تاشفين ، ثم استبد بها عبد الملك بن سعيد سنة 539هـ .

قال ابن الخطيب في **الإحاطة** على ما نقله عنه المقري في **نفح الطيب** في شأن صاحب الترجمة : إنه سكن تونس ، وهو واسطة عقد بيته ، وعلم أهله ، ودرة قومه ، وإنه المصنف الأديب ، الرحالة الإخباري العجيب ، المتمتع بالخزائن العلمية ، وتقييد الفوائد المغربية والمشرقية ؛ أخذ عن أعلام إشبيلية ، كأبي علي الشلوبين ، وأبي الحسن الدباج ، وابن عصفور . وله تآليف كثيرة ، منها : **المشرق في أخبار المشرق** ، وتمم كتاب **المغرب في أخبار المغرب** ، وهذا الكتاب بدأه جده عبد الملك بن سعيد وتمم عليه ابنه محمد ثم ابنه موسى بن محمد ثم أتمه علي بن موسى صاحب الترجمة ، قال المقري في **نفح الطيب** : إن عبد الملك بن سعيد المذكور آنفاً كان وزيراً ليحيى بن غانية ، ومدبر شؤونه . ولما توفي بغرناطة فر عبد الملك الى قلعة يحصب التي سميت قلعة بني سعيد ، واستبد بها سنة 539هـ . وإن حافظ الأندلس أبا محمد عبد الله بن إبراهيم بن

الحجاري وفد عليه بها ، وقدم إليه كتابه **المسهب في غرائب المغرب** سنة 530هـ . ابتدأه من فتح الأندلس الى تلك السنة 530هـ ، في ستة أجزاء ، فكلف به عبد الملك وزاد عليه وعلي من بعده ما أغفله الحجاري فيه ، وسماه **المغرب في محاسن المغرب** . ولصاحب الترجمة علي بن سعيد كتاب آخر سماه بـ **المرقصات والمطربات** ، وكتاب **الطالع السعيد في تاريخ بني سعيد** . ذكر فيه تاريخ بيته وبلده . وفي مدح قومه بني سعيد يقول الحجاري :

قوم لهم في فخرهم ... شرف الحديث مع القديم
ورثوا الندى والبأس ... والعليا كريماً عن كريم
من كل وضاح به ... يجلي دجى الليل البهيم

كما له كتاب سماه **المرزمة** ، لا يعلم إلا الله ما قيده فيه . يقال : إن فيه وقر بعير من الكراريس ، كما له ديوان شعر متعدد الأسفار . استقر علي بن سعيد هو وأبوه موسى في تونس ، وتولى كل منهما الكتابة في الدولة الحفصية على عهد السلطان أبي زكرياء الذي كان الرئيس الأعلى لدولته أبو عبدالله محمد بن الحسين بن سعيد . وهذا الرئيس ابن عمهما ، جده أبو الحسين من مهاجرة الأندلس الى تونس . كان صاحب الأشغال بمدينة القيروان ، ونشأ بها مع جده المذكور بعد وفاة أبيه الحسين ، وانتقل بعد وفاة جده الى مدينة تونس . اتصل بالأمير أبي زكرياء الحفصي ثم بابنه المستنصر إلى أن صار الرئيس الأعلى لدولته . وساءت الظنون بين هذا الرئيس وابني عمه صاحب الترجمة أبي الحسن علي وأبيه موسى ، بسبب وشايات من أعدائهما وحسادهما ، وكل ذي نعمة محسود . فسعى بهما ابن عمهما المذكور لدى السلطان أبي زكرياء ، فعزلها عن الكتابة له .

وقد ذكر في **نفح الطيب** نقلاً عن صاحب الترجمة علي بن سعيد : أن سبب التغير بينه وبين ابن عمه المذكور أن ملك إفريقية (أي أبا زكرياء) استوزر لأشغال الموحدين أبا العلي إدريس بن جامع ، فاشتمل علي وأولاني من البر ما قيدني ، وأمال قلبي إليه مع تأكيد ما بينه وبين ابن عمي من الصحبة ، فلم يزل ينهض الي ويرفع أمداحي للملك ، ويوصل رسائلي إليه منبهاً علي ، مرشحاً لي إلى أن قبض الملك على كاتب عسكره ، وكان يقرأ بين يديه كتب المظالم ، فاحتيج إلى من يخلفه ، فنبه الوزير علي ، مع أني كنت من كتّاب الملك ، فقلدني قراءة المظالم وأنعم علي بدار الكاتب ، فوجد الوشاة متسعاً من

القول ، فقالوا وزوروا من الأقاويل المختلفة الى أن سعى في تأخير والدي عن الكتب للأمير الأسعد أبي يحيى ابن ملك إفريقية ، ثم سعى في تأخيري ، فتأخرت عن الكتابة ، وعن قراءة المظالم فانفردت للكتابة للوزير المذكور ، وفوض إليّ جميع أموره ، وأولاني من التأنيس ما أنساني تلك الوحشة ، ومن العز ما أنقذني من تلك الذلة .

وقد سافر صاحب الترجمة علي بن سعيد إلى المشرق مرتين أولاهما صحبة أبيه موسى بسبب الحادث المشار إليه آنفاً . ووصلا إلى الإسكندرية في هذه السفرة في 27 ربيع الأول سنة 639هـ . وعند وصوله إليها سافر منها وحده إلى القاهرة . وعندما أراد الذهاب إليها زوده أبوه موسى بوصية بديعة نظماً ونثراً ، ذكرها المقري في الجزء الأول من **نفح الطيب** على طولها ويقول في طالع القصيدة المشتملة عليها :

أودعك الرحمان في غربتك ... مرتقباً رحماه في أوبتك

الخ .

وبقي أبوه في الإسكندرية . وبها توفي في سنة 640هـ . وبعد إقامة علي بن سعيد بالقاهرة اجتاز بحلب والبصرة وبغداد ، ودخل أرجان وحج ، وعاد الى إفريقية ، فنزل بإقليبية من البلاد التونسية في 1 جمادى سنة 652هـ ، وحل بتونس فخدم السلطان أبا عبد الله محمد المستنصر ، ونال عنده درجة رفيعة من الحظوة . ثم جفاه بسبب جراءة منه في خدمة مالية . ثم رضي عنه ، وعاد إلى حسن النظر إليه ، فكانت جفوة أعقبها انتشال .

أما سفرته الثانية إلى المشرق فكانت سنة 666هـ. ورجع إلى تونس أيضاً ، فأقام بها إلى أن توفي تحت البر والعناية به في حدود سنة 685هـ ، ومولده بغرناطة ليلة عيد الفطر سنة 610هـ .

ومن شعره يمدح أبا زكرياء الحفصي :

الأفق طلق والنسيم رخاء ... والروض وشت برده الأنداء
والورد قد مالت عليه غصونه ... فكأنما هو مقلة وطفاء
وبدا نثار الجلنار بصفحه ... فكأنما هو حية رقطاء
والشمس قد رقمت طرازاً فوقه ... فكأنما هي حلة زرقاء

فأدِر كؤوسك كي يتم لك المنى   واسمع الى ما قالت الورقاء
تدعوك حي على الصبوح فلا تنم   فعلى المنام لدى الصباح عفاء

وقال في أبيات أيضاً خاطبه بها لما جهز ولده الأمير أبا يحيى بعسكر :

وقد أرسلته نحو الأعادي   كما جردت من غمد حساما

ومن شعره في واقعة حال حين عزل بوشاية من ابن عمه ، لما سبق ، فاستخلصه لكتابته وفوض إليه أموره الوزير أدريس ابن جامع :

فرد على العيش بعد ذهابه   وآنسني بعد انفرادي من الأهل
وقالوا إذا ما الويل فاتك فاقتنع   بما قد تسنى عندك الآن من طل
ووالله ما نعماه طل وإنما   تأدبه غيث تجود على الكل
رآني ظمأ في الهجيرة ضاحياً   فرقّ وآواني الى الماء والظل

قال : ولم يزل الوزير لا أزال الله عني رضاه يحمي جانبي إلى أن أصابتني فيه العين فأصابه الحين :

وطيب نفسي أنه مات عندما   تناهى ولم يشمت به كل حاسد
ويحكم فيه كل من كان حاكماً   عليه ويعطي الثأر كل معاند

قال : وقلت أرثيه :

بكت لك حتى الهاطلات السواكب   وشقت جيوباً فيك حتى السحائب
فكيف بمن دافعت عنه ومن به   أحاطت وقد باعدت عنك المصائب
ألا فانظروا دمعي فأكثره دم   فلا تذهبوا عني فإني ذاهب
وقولوا لمن قد ظل يندب بعده   وفاؤك لو قامت عليك النوائب
لعمرك ما في الأرض واف بذمة   أيصمت إدريس ومثلي يخاطب
دعوتك يا من لا أقوم بشكره   فهل أنت لي بعد الدعاء مجاوب
أيا سيداً قد حال بيني وبينه   تراب حوت ذكراك منه الترائب
لمن أشتكي إن جار بعدك ظالم   علي وإن نابت جنابي النوائب
لمن أرتجي عند الأمير بمنطق   تحف به حولي المنى والمواهب

قال في نفح الطيب وهي طويلة منها قبيل الختم :

وقد كنت أختار الترجل قبل أن يصيبك سهم للمنية صائب
ولكن قضاء الله من ذا يرده فصبراً فقد يرضي الزمان المغاضب

ومنها ، وهو آخرها :

وإني أدري أن في الصبر راحة إذا لم تكن فيه على مثالب
وإن لم يؤب من كنت أرجو انتصاره عليك فلطف الله نحوي آيب

وقال يودع ابن عمه الرئيس محمد بن سعيد :

وداع كما ودعت فصل ربيع يفض ضلوعي أو يفيض دموعي
لئن قيل في بعضٍ يفارق بعضه فإني قد فارقت فيك جميعي

فأرسل إليه الرئيس إحساناً ، واعتذر ، قال صاحب الترجمة : ولسان حاله يقول :

أحبك في البتول وفي بنيها ولكني أحبك من بعيد

ومن شعر صاحب الترجمة حين خرج من حدود إفريقية (البلاد التونسية) :

رفيقي جاوزنا حدود مواطن صحبنا بها الأيام طلقاً محياها
وما إن تركناها لجهل بقدرها ولكن ثنت عنا أعنة سقياها
فسرنا نحث السير عنها لغيرها الى أن يمن الله يوماً بلقياها

ومن شعره في التين ، وهو بتونس :

ألا مرحباً بالتين لما أتى يسحب من ليل عليه الوشاح
ممزق الجلباب يحكي ضحى هامة زنجي عليه جراح
وإن تصحفه فلا مرحباً ما قد أتى تصحيفه بانتزاح

وقال يمدح ملك إفريقية ويهنئه بقتل ثائر من زناته يدعي إنه من نسل يعقوب بن المنصور :

برّح بي من ليس عنه براحْ ومن رأى قتلي حلالاً مباحْ

وصرح الدمع بحبي له ... وما لقلبي من هواه سراح
ظبي عدمت الصبح مذ صدني ... وكيف لا يعدم وهو الصباح
مورد الخد شهي اللمى ... منعم الردف جذيب الوشاح
تظنه من قلبه جلمداً ... ومنه للماء بجفني انسياح
لردفه أضعف من صبه ... ولم أزل من لحظه في كفاح
نشوان من ريقته عربدت ... أجفانه بالمرهفات الصفاح
فها أنيني خافت مثل ما ... أنا أثير مثخن بالجراح
يا قاتلي صداً أما تستحي ... أن تلزم النجل بأرض السماح
من ذا الذي ينجلي في تونس ... والملح فيها صار عذباً قراح
وأصبحت أرجاؤها جنة ... مبيضة الأبراج خضر البطاح
لولا ندى يحيى وتدبيره ... ما برحت تعبر منها النواح
لكن تلاه سحب كلما ... حلت بأرضٍ حلّ فيها النجاح
هذا وقد آمن من حلها ... وحقها من غربة وانتزاح
كم شتتوا من قبل تأميره ... وحكمت فيهم عوالي الرماح
يا سائراً يبغي بلوغ المنى ... باكر ذرا يحيى وقل لا رواح
وحيِّه بالمدح فهو الذي ... يهتز كالهندي حين امتداح
بالشرق والغرب غدا ذكره ... يحث من حمد وشكر جناح
ساعده السعد وأضحت لها الآ ... مال تجري بغير اقتراح
ويسر الله له ملكه ... من غير أن يشهر فيه السلاح
وكل ما كان على غيره ... ذا منعة أمسى له مستباح
وكم طموح عندما قام بالأمر ... رأى القهر مجلي الجماح
كف بكف للندى والردى ... بها معان وهي خرس فصاح
حتى لقد أحسن من سعده ... تجري على ما يرتضيه الرياح
قولوا ليعقوب فماذا جنى ... وابن أبي حمزة ماذا استباح
وقد أصبحا من فوق جذعين لا ... يؤنسهم غير هبوب الرياح
واسأل عن الداعي الدعي الذي ... حاول أمراً كان عنه الصراح
أكان من صيره والدا ... بزعمه أمل فيه فلاح

شكراً لسعد لم يدع فرقه قد صير الملك كضرب القداح
راموا بلا جاه ولا محتد ما حزت بالحق فكان افتضاح
زناتة يهنيكم فعلكم عاجلكم ثائركم باجتياح
كفى الذي قدمتم آخرا والخير لن يبرح للشر ماح
عهدي به في موكب الملك ما بينكم نشوان من غير راح
يحسب أن الأرض ملك له ورأسه ملك لسمر الرماح
غدا بعز الملك لكنه أهون مملوك على الأرض راح
جاؤوا به يمرح في عزه وهم أزالوا عنه ذاك المراح
توقعوا في القرب منه الردى من خلطة الأجرب يخشى الصحاح
فأسرعوا نحوك يبغون ما عودتهم من عطفه والتماح
فغادروه جانباً عذره لطائر البين عليه يناح
فالحمد لله على كل ما سنى له السعد برغم اللواح
مثلك لا ينقذ ما شاءه فلست تأتي الدهر إلا صلاح
لا زلت في عز وفي مكنة وفي سرور دائم وانفساح

ومن شعره يمدح ابن عمه الرئيس أبا عبد الله محمد بن سعيد ويشكر عما يذكره ، نورد بعضها ، فأما طالعها فقوله :

آه مما تكن فيه الجوانح ودموعي على نواه سوافح

ثم قال بعد غزلها :

يا كريماً أتى من الجود مالاً كان يدري فوحدته المدائح
وعلا كل ذي علاء وأضحى نحو ما لا يرونه الناس طامح
قد أتاني إحسانك الغمر في أثـ ـر سنواه فكنت أكمل مادح
فاض بحر النوال منك ولا سا حل يبدو ولم أزل فيه سابح
حلل مثلما كسوتك في المد ح يميت العدى ومال وسائح
أورد الورد منطقي كل شكر حين أضحى طوع البنان مسامح
لون خد الحبيب حين كسوه حلة الحسن بالعيون اللوامح
شفقٌ سال بين عينيه صبح حسنه قيد اللحاظ السوارح

لم أجد فيه من جماح ولكن ثنائي عليك ما زال جامح

الى أن يقول مخاطباً له :

يا سماكاً بمسكة القلم الاعـ لى بدا بين أنجم الملك رامح
رفع الله للكتابة قدراً بعدما كابدت توالي الفضائح

وختمها بقوله داعياً :

دمت في رفعة سعد مدى الد هر ولا زال طائر منك سانح

ونقل في **نفح الطيب** عنه : إن الوزير ابن جامع لما استخلصه لكتابته وفوض إليه أموره لم يزل عنده في أسرّ حال لا تكدير فيها ، قال : إلا ما بلغني من أن ابن عمي لا يزال يسعى في حقي بما أخشى مغبته وخفت أن يطول ذاك فيسمع منه : ولا ينفع دفاع الوزير المذكور عني ، فرغبت منه في أن يرفع للملك إني راغب في السراح إلى المشرق برسم الحج :

ومن بلّه الغيث في بطن وادٍ وبات فلا يأمن السيولا

فلم يسعفني بذلك ولامني على تخوفي وقلة ثقتي بحمايته ، فرفعت إليه هذه القصيدة :

هل الهجر إلا أن يطول التجنب ويبعد من قد كان منه التقرب
وتقطع رسل بيننا ورسائل ويمنع لقيانا نوى وتحجب
ولو أنني أدري لنفسي زلة جعلت لكم عذراً وما كنت أعتب
ولكنكم لما ملكتم هجرتم وذنبتم في الحب من ليس يذنب
إلى الله أشكو عذركم وملالكم وقلباً له ذاك التعذب يعذب
فلو أنه يجزيكم بفعالكم لكان له عنكم مراد ومطلب
ولكن أبى أن لا يحن لغيركم وأن لا يرى عنكم مدى الدهر مذهب
فهلّا رغبتم أنه في ذراكم غريب وليس الموت إلا التغرب
لزمتك لما أن رأيتك كاملاً جمالاً وإجمالاً وذاك يحبب
وإني لأخشى أن يطول اشتكاؤه لمن إن أتى مكراً فليس يثرب
فلم يسع إلا في ارتياح وراحة وغيري وقد آواه غيرك يتعب

فأنت الذي آويتني ورحمتني | وذو الرحم الدنيا لناري يحطب
فما مر يوماً لا يريد مصيبة | عليك وبالتدبير منك يحبب
وهبه ثبوتاً لا يحيل أما ترى | بحر حبال في الحجارة يرسب
وهبه له سداً فكم أنت حاضر | أحاذر خرقاً منه أن يتسيبوا
وما إن أرى إلا الفرار مخلصاً | وما راغب في الضيم من عنك يرغب
فأنهي إلى الأمر العلي شكيتي | وإن خطوب الدهر نحوي تخطب
ولا تطمعوني في الذي لست نائلاً | فلا أنا عرقوب ولا أنا أشعب
الا فلتمنوا بالسراح فإنه | لراحة من يشقى لديكم وينصب
سلوا الكأس عني إذ تدار فإنني | لأتركها هماً ودمعي أشرب
ولا أسمع الألحان حين تهزني | ولو كان نوحاً كنت أصغي وأطرب
فديتكم كم ذا أهون بأرضكم | أهذا جزاء للذي يتغرب
أنحل على أن ما سواك يصيخ لي | فهل لي مما كدّر العيش مهرب
تقلص عني كل ظل ولم أجد | كما كنت ألقي من أود وأصحب
أذو طمع في العيش يبقى وحوله | مدى الدهر أفعى لا تزال وعقرب
أجرتني أنج بالفرار فإنه | وحقك من نعماك عندي يحسب
فلا زلت يا خير الكرام مهنأ | فعيشي منه الموت أشهى وأطيب
وصانك من قد صُنت في حقه دمي | وغيرك من ثوب المروءة يسلب

183 – أبو بكر محمد بن الحسن بن يوسف بن الحسن بن حبيش اللخمي المرسي نزيل تونس ودفينها

ذكر في **نفح الطيب** ترجمته نقلاً عن تلميذه ابن رُشيد الفهري في رحلته المسماة بـ **ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة** ونص ما به الحاجة منها قوله : أما النظم فبيده عنانه ، وأما النثر إن مال إليه توكف له بنانه ، مع تواضع زائد ، على صلة مخبر عائد . ولقيته بمنزله ليوم أو يومين من مقدمي على تونس ، فتلقى بكل فن يونس ، وصادفته بحالة مرض من وعثاء في رجله عرض . وعنده جملة من العواد ، من الصدور الأمجاد ، فأدنى وقرب ، وسهل ورحب ، وتفاوض أولئك الصدور ، في فنون من الأدب كأنها

الشنور ، الى أن خاضوا في الأحاجي ، واستضاؤوا بأنوار أفكارهم في تلك الدياجي ، فخضت معهم في الحديث ، وأنشدتهم بيتين وضعتهما ، وأنا حديث لقصة بلغتني عن أبي الحسن سهل بن مالك ، وهو أنه يسائل أصحابه وهو في المكتب ويقول لهم : أخرجوا إسمي ، فكل ينطق على تقديره ، فيقول لهم ، إنكم لم تصيبوه مع إنه سهل ، فنظمت هذا المعنى فقلت :

وما إسم فكه سهل يسير ... يكون مصغراً نجماً يسير
مصحفه له في العين حسن ... وقلبي عند صاحبه أسير

وكان الشيخ أبو بكر على فراشه ، فزحف مع ما به من ألم الى محبرة وطرس وقلم ، وكتب البيتين بخطه ، وقال للحاضرين : إرووا هذين البيتين عن قائلها . ومن شيوخ ابن حبيش (صاحب الترجمة) أبو عبد الله بن عسكر المالقي ، كتب له ولأخيه أبي الحسن بخطه إجازة جميع ما يجوز له وعنه روايته ، وضمن آخرها هذه الأبيات :

أجبتكما لكن مقراً بأنني ... أقصر فيما رمتما عن مداكما
فإنكما بدران في العلم أشرقا ... فسلم إذعاناً وقسرا عداكما
فسيرا على حكم الوداد فإنني ... أجود بنفسي أن تكون فداكما

قال ابن رشيد المتوفي سنة 721هـ: وقد جمع صاحبنا أبو العباس الأشعري لابن حبيش (صاحب الترجمة) فهرسة جامعة . ولما وقف عليها ابن حبيش كتب في أولها ما نصه :

الحمد لله حق حمده ، أحسن هذا الفاضل فيما فعل . أحسن الله إليه ، وبالغ فيما جمع بلغ الله تعالى به أشرف المراتب لديه ، غير إني أقول واحدة ما سريرتي لها بجاحدة . وصرح بمقال لا يسعني كتمه بحال : والله ما أنا للإجازة بأهل ، ولا مرامها لدي بسهل ، إذ من شرط المجيز أن يعد فيمن كمل ، ويعد العلم والعمل ، اللهم غفراً كيف ينيل من عدم وفراً أو يجيز من صبح صدره من المعارف قفراً ، وصحيفته من الصالحات صفراً ، وكيف يرتسم في ديوان الحلة ، من يتسم بالأفعال المخلة . ومتى يقترن الشبه بالإبريز ، أو يوصف السكيت بالتبريز ، ومن ضعف النهي، مجانسة الأقمار بالسهي ، ومن أعظم التوبيخ ، تشييخ من لا يصلح للتشييخ ، وإن هذا المجموع يروق ويعجب ، ولكنه جمع لمن لا يستجوب ، وإن القراءة قد تحصلت ، ولكن القواعد ما

تأصلت ، وإن القارىء علم ، ولكن المقروء عليه عدم ، ولقد شكرت لهذا السري ما جلب ، وكتبت مسعفاً له بما طلب ، وقرنت الى دره هذا المخشلب ، قلت : وحليي عطل ، ونطقي بطل ، مكره أخاك لا بطل . والله سبحانه وتعالى ينفع بما أخلص له عند الإعتقاد ، ويسمح للبهرج عند الإنتقاد . كتبه العبد المذنب محمد بن الحسن بن يوسف ابن حبيش اللخمي ، حامداً لله تعالى ، ومصلياً على نبيه الكريم المصطفى ، وعلى آله أعلام الطهارة والهدى ، ومسلماً تسليماً ا هـ .

وكتب أيضاً رحمه الله : لعل جواب استجازة المسؤول مبذول إن شاء الله تعالى على التنجيز ، ولكن شروط الإجازة موجودة في المجاز معدومة في المجيز . والله تعالى يصفح بكرمه ومنه ، ويشكر كل فاضل على تحسين ظنه . وهو المسؤول سبحانه أن يحفظ مهجاتهم ، ويرفع بالعلم والعمل درجاتهم ، ويمتع بالكمال الرائق المعجب ، ويقر بالنجيبين عين المنجب ، كتبه ابن حبيش ا هـ .

وقال السيوطي في **بغية الوعاة** في شأنه ما نصه :

الأستاذ الأديب الراوية النحوي ، ولد في 1 جمادى الأولى سنة 615هـ . وسمع بن أبي الحسن بن قطرال ، وغيره . وكان إماماً في الأدب ، وله تآليف . وانقطع في آخر عمره للعبادة وأجاز لأبي حيان . مات رحمه الله بتونس . كان حياً في سنة 679هـ . وكان أديباً كما تقدم .

ومن شعره قوله :

قالوا : تصبّر عن الدنيا الدنية أو ... كن عبدها واصطبر للذل واحتمل
لا بد من أحدِ الصبرين ، قلت : نعم ... الصبر عنها بحول الله أنفع لي

وحضر ليلة مع بعض الجلة ، وطفىء السراج ، فقال ارتجالاً :

اذْكِ السراج يرينا غرة سفرت ... فباتت الشمس تستحيي وتستتر
أو خلة فكفانا وجه سيدنا ... لا يطلب النجم من في بيته قمر

واجتاز بعض الغلمان فسلم عليه باصبعه . فقال أبو بكر في ذلك ، وأشار في البيت الثالث الى أن والد الغلام كان خطيب البلد :

مر الغزال بنا مروعاً نافراً ... كشبيهه في القفر ريع بصائله

لثم السلامى في السلام تستّراً ثم انثنى حذر الرقيب لراصده
هلا تكلف وقفة لمحبه ولو انها قصراً كوقفة والده

وكتب الى محبه بقوله :

متى ما ترم شرحاً لحالي تبيينا فصحف على قلبي علومك تحيينا

أراد أني بحبك مولع ، وهو تصحيف وقلب لقوله : (علومك تحيينا) .

184 – أبو عبد الله محمد بن العطار القرطبي عرف بالمفرحي

كان فاضلاً شاعراً . من شعره يتشوق الى بطحاء قابس ، وكان جامعها الأعظم بتلك البطحاء المتسعة التي هي سرة قابس :

لهفي على طيب ليالٍ خلت بجانب البطحاء من قابس
كأن قلبي عند تذكارها جذوة نار في يدي قابس

وحيث ذكرنا جملة من مهاجرة الأندلس الى تونس المتخذين لها داراً وقراراً فلنذكر بقية أدباء تونس في العصر الحفصي الذي نحن بصدد الكلام عليه .

185 – الرئيس أبو عبد الله محمد بن الحسين بن سعيد الأندلسي الأصل

يتصل نسبه بسيدنا عمار بن ياسر رضي الله عنه ويستفاد من كلام نقله المقري في **نفح الطيب** أن أبا صاحب الترجمة وهو الحسين بن سعيد كان قائماً بأعمال ملك إفريقية في حدود سنة 600هـ . وعليه فله سلف في خدمة الدولة الحفصية .

وقال ابن خلدون في شأن صاحب الترجمة : أصل هذا الرجل من بني سعيد ، رؤساء القلعة المجاورة لغرناطة ، وكان كثير منهم قد استعملوا أيام الموحدين بالعدوتين الأندلس والمغرب الأقصى . وكان جده أبو الحسين سعيد صاحب الأشغال بالقيروان . ونشأ حفيده محمد هذا في كفالته ، وهلك سعيد ببونة سنة 604هـ . فرجع حفيده محمد لتونس وصاحب إفريقية لذلك العهد الشيخ محمد بن أبي حفص ، فاعتلق بخدمة ابنه أبي

زيد عبد الرحمان . ثم اتصل بالأمير أبي زكرياء لأول استبداده ، فتغلب على هواه ، وكان مبختاً في صحابة الملوك . ولما ولي المستنصر بالله أجراه على سننه ا هـ .

تولى هذا الرئيس كتابة العلامة لأبي زكرياء الحفصي سلطان إفريقية . ولما توفي أبو العباس أحمد الغساني أولاه عوضاً عنه ، وفوض إليه أمور الدولة .

ونقل المقري ترجمة هذا الرئيس عن كتاب **المغرب** لابن عمه علي بن سعيد ، ونص ملخصها :

الرئيس الأعلى ، ذو الفضائل الجمة ، أبو عبد الله محمد بن الحسين بن أبي الحسين سعيد بن الحسين بن سعيد بن خلف ، قال : واجتماع نسبنا (أي صاحب الترجمة وصاحب كتاب **المغرب**) في سعيد بن خلف ؛ قال صاحب **المغرب** : وهو (أي صاحب الترجمة) الآن قد اشتمل عليه ملك إفريقية اشتمال المقلة على إنسانها ، وقدمه في أموره تقديم الصعدة لسنانها ، وأقام لنفسه مدينة حذاء حضرة تونس ، واعتزل فيها بعسكر الأندلس ، الذين صيرهم الملك المنصور إلى نظره ، وهو كما قال الفتح صاحب **القلائد** فقد جاء آخرهم ، فجدد مفاخرهم انتهى محل الحاجة منه . ويؤخذ مما ذكرنا أن هذا الوزير كانت وزارته انضم إليها قيادة فريق من عساكر الدولة الحفصية ، ولذا كان ابن عمه علي بن سعيد صاحب كتاب **المغرب** هنأه بقصيدة قالها فيه لما قدم من حركة هوارة ، وهي قوله :

أما واجب أن لا يحول وجيب	وقد بعدت دار وحنّ حبيب
وليس أليف غير فكر وحسرة	ودمع على من لا يرقّ صبيب
وخفق فؤاد إن هفا البرق خافقاً	وشوق كما شاء الهوى ونحيب
ويعذلني من ليس يعرف ما الهوى	وعذل مشوق في البكاء عجيب
ألا تَعِس اللوام في الحب قد عَمُوا	وصموا ودائي ليس منه طبيب
يرومون أن يثني الملام صبابتي	ولست إلى داعي الملام أجيب
وفائي إذا ما غبت عنكم مجرد	وغيري ذو غدر أوان يغيب
ولو لم يكن مني الوفاء سجية	لكنت لغير ابن الحسين أنيب
سموءل هذا العصر حاتم جوده	مهلبه إن مارسته حروب
فتى سير الأمداح شرقاً ومغرباً	أبو دلف من دونه وخصيب

إذا رقم القرطاس قلت ابن مقلة وإن نظم الأشعار قلت حبيب
وإن نثر الأسجاع قلت سمية وإن سرد التاريخ قلت غريب
وما أحرز الصولي آدابه التي إذا ما تلاها لم يجبه أديب

ومنها :

وأما إذا ما الحرب أخمد نارها فقيه تلظى مارج ولهيب
فكم قارع الأبطال في كل وجهة نحاها وكم لفت عليه حروب
وكائن له بالغرب من موقف له حديث إذا يتلى تطير قلوب
بمراكش سل عنه تعلم غناءه وقد ساءهم يومٌ هناك عصيب
إذا ما ثني الرمح الطويل كأنه مدير لغصن الخيزران لعوب
وإن جره أبصرت نجماً مجرراً ذؤابته منها الكماة تذوب
يهم به ما إن يزال معانقاً له راكعات ما تحور كعوب
محمد لا تبدِ الذي أنت قادر عليه وخف عيناً علاك تصيب
نفوذ سهام العين أودى بمصعب وطاح به بعد الشبوب شبيب
ألا فهنيئاً إن رجعت لتونس فأطلعت شمساً والشفار غروب
كواكبه تبلو إذا ما تركتها وقد جعلت مهما حضرت تغيب
إذا سدت في أرضٍ فغيرك تابع علاك ومهما ساد فهو مريب

ومنها :

كفاني أني أستظل بظلكم ومن هاب ذاك المجد فهو مهيب
فأصلك أصلي والفروع تباينت بعيد على من رامه وقريب
وحسبي فخراً أن أقول محمد نسيب علي جلَّ عنه نصيب
تركت جميع الأقربين لقصده على حين حانت فتنة وخطوب
رأيت به جنات عدن فلم أبل إذا وصلتنا للخلود شعوب
فقبلت كفاً لا أعاب بلثمها وأيدي الأيادي للمهن وجوب
وكيف وليس الرأس كالرجل فرّقت شيات لعمري بيننا وضروب
ولو كان قدري مثل قدرك في العلا لحقّ بأن يعلو الشباب مشيب
ولولا الذي أسمعت من مكر حاسد أتاك بقولٍ وهو فيه كذوب

لما كنت محتاجاً لقولي آنفاً تخليت من ذنب وجئت أتوب
إذا كنت ذا طوع وشكر وغبطة فمن أين لي يا ابن الكرام ذنوب
لقد كنت معتاداً ببشر فما الذي تقلدته حتى يزال قطوب
أآن رفع السلطان سعيي بقربكم أخلا عن ورد لكم وأخيب
فأحسب ذنبي ذنب صخر بدارها الى البر عند الخابرين معيب
وحاشاك من جور علي وإنما أخاطب من أصفو له فيشوب
صحاب هم الداء الدفين فليتني ولم أدنُ منهم للذئاب صحوب
كلامهم شهد ولكن فعلهم كسم له بين الضلوع دبيب
سأرحل عنهم والتجارب لم تدع بقلبي لهم شيئاً عليه أثيب
إذا اغترب الإنسان عمن يسوءه فما هو في الإبعاد عنه غريب
فدارك برأب منك ما قد خرقته ليحسن مني مشهد ومغيب
ولا تستمع قول الوشاة فإنما عدوهم بين الأنام نجيب
فيا ليت أني لم أكن متأدباً ولم يك لي بين الكرام ضريب
أأشكوك أم أشكو إليك فما عدت عداتي حتى حان منك وثوب
سأشكر ما أولي وأصبر للذي توالى على أن العزاء سليب
فدُم في سرور ما بقيت فإنني وحقك مذ دب الوشاة كئيب

وذكر المقري في **نفح الطيب** في شأن صاحب الترجمة أنه حظي عند السلطان ملك إفريقية أبي زكرياء يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص . وأن السلطان المذكور لما مات وحدثت فتنة بموته واختلاف فيمن يلي الأمر بعده . ثم استقرت الدولة لابنه محمد المستنصر الذي عبّر عنه في **نفح الطيب** بابنه الشهير الكبير القدر ممدوح حازم القرطاجني بالمقصورة ، فسخط عن الوزير وعبر عنه بالرئيس ابن سعيد (أي صاحب الترجمة) وقبض على دياره وأمواله ، وصيره كالمحبوس ، فكتب إليه رقعة يطلب الإجتماع به في مصلحة الدولة ، فأحضره وسأله ، فأخبره بأن أباه صنع داراً عظيمة تحت الأرض ، وأودع فيها من أنواع المال والسلاح ما جعله عدة وذخيرة للسلطان ، ولم يترك على وجه الأرض من له علم بهذا الوضع الذي أودعه نفائس أمواله غيري .

قلت : هذا يدل على مكانة هذا الرئيس عند السلطان أبي زكرياء حيث جعله أمينه على هذا السر الخطير ، ثم قال : وأوصاني أنه إذا انتقل الى جوار ربه ، إذ توقع أن تقع

فتنة بين أقاربه ، أنه إذا انقضت سنة واستقر الأمر لأحد من ولدي أو من يتقن أنه يصلح لأمور المسلمين فأطلعه على هذه الذخائر فربما فنيت الأموال بالفتنة ، فلا يجد القائم بالأمر ما يصلح به الدولة إذا تفرغ للتدبير والسياسة . ففرح السلطان (أي المستنصر) وبادر الى تلك الدار ، فرأى ما ملأ عينه ، وسر قلبه ، وخرج الرئيس ابن الحسين والخيل تجنب أمامه ، وبذر الأموال بين يديه ، وأعاده الى أحسن أحواله وجعله وزير الدولة كما كان أبوه مفوضاً أموره إليه ، وقال السلطان : إن من أوجب شكر الله على أن أفتتح المال بأن أؤدي منه للرعية الذين نهبت دورهم واحترقت في الفتنة التي كانت بيني وبين أقاربي وخسروه . وأمر بالنداء فيهم ، وأحضرهم ، وكل من حلف على شيء قبضه وانصرف ا هـ .

توفي صاحب الترجمة رحمه الله يوم الأربعاء 11 شوال من سنة 669هـ . ومن شعره يصف نهراً على شطه نَوْر ، نزل به مع أبي يحيى بن أبي زكرياء ، وولي عهده في بعض حركاته ، أو أمر بوصفه ، فقال :

ونهر يرف الزهر في جنباته ... ويثني النسيم قضبه ويقنطر
يسيل كما عن الصباح بأفقه ... وإلا كما شيم الحسام المجوهر
عليه ليحيى قبة هل سمعتم ... بقرصة شمس حلّ فيها غضنفر
فإن قلت هذي قبة لعفاته ... فقل ذلك الوادي الذي سال كوثر

ومن شعره ما حكاه عنه ابن عمه علي بن سعيد ، قال : لما أنشد أبو عبد الله ابن الأبار كاتب ملك إفريقية لنفسه :

لله دولاب يدور كأنه ... فلك ولكن ما ارتقاه كوكب
هامت به الأحداق لما نادمت ... منه الحديقة ساقياً لا يشرب
نصبته فوق النهر أيدٍ قدرت ... ترويحه الأرواح ساعة ينصب
فكأنه وهو الطليق مقيد ... وكأنه وهو الحبيس مسيب
الماء فيه تصعد وتحدر ... كالمزن يستسقي البحار ويسكب

حلف أبو عبد الله بن الحسين ابن عمي (أي صاحب الترجمة) أن يصنع في ذلك شيئاً فقال :

ومحنية الأضلاع تجثو على الثرى ... وتسقي بنات الترب در الترائب
تعد من الأفلاك إن مياهها ... رجوم لرجم المحْل ذات ذوائب
وأعجبها رقص الغصون ذوابلاً ... فدارت بأمثال السيوف القواضب
وتحسبها والروض ساق قنية ... فما برحا ما بين شادٍ وشارب
وما خلتها تحنو بتحنانها الصدى ... ومن فوق متنيها الطراد المذانب
فخذ من مجاريها ودهمة لونها ... بياض العطايا في سواد المطالب

ثم كلفت أن أقول في ذلك وأنا أعتذر بأن هذين لم يتركا لي ما أقول :

وذات حنين لا تزال مطيقة ... تئن وتبكي بالدموع السواكب
كأن أليفاً بان عنها فأصبحت ... بمربعه كالصب بعد الحبائب
إذا ابتسمت فيها الرياض شماتة ... ترعها بأمثال القسي القواضب
فكم رقصت أغصانها فرمت بها ... نثاراً كما بددت حلْي الكواعب
لقد سخطت منه الثغور وأرضت القـ ... دود ولم تحفل بتثريب عائب
شربت على تحنانها ذهبية ... ذخيرة كسرى في العصور الذواهب
فهاجت ليَّ الكأس ادكار مغاضب ... فهاجيتها وجداً بذاك المغاضب
فلا تدع التبريز في كثرة الهوى ... فلولاي كانت فيه إحدى العجائب

فالمقطوع الوسط من المقاطيع الثلاثة هو من شعر صاحب الترجمة ومن شعره أيضاً ما أجاب به ابن عمه علي بن سعيد لما كتب إليه أبيات بحضرة تونس حين نقل إليه بعض الحساد ما أوجب تغيره اعتذاراً وتنصلاً ، وهي أي أبيات علي بن سعيد :

ومن بعد هذا قد أتيت بزلة ... أبا حسن أن لا تضيق بها صدرا
وعلمك حسبي بالأمور فإنني ... عهدتك تدري سر أمري والجهرا
وقد أصلح الله الأمور بسعيكم ... ونيتكم صلحاً على البشر والبشرى
ولم يبق لي إلا رضاك فإنْ به ... كتبت ولو حرفاً أطبت به العمرا
فبُقِيتَ كهفاً للجميع وموئلاً ... لا زلت ما زال الزمان لنا سترا

قال فكتب إليّ (أي صاحب الترجمة) هذه الأبيات وبعث إليّ بما يذكر :

أكُفّ الصبا حفت جني زهر الربا ... سؤالك عن مضني يسامي بك الزهرا

بعثت بمثل الزهر في مثل صفحة ... لذلك ما قلدتها الشذْر والدرا
معانٍ لها أعنو وأعني لها فكم ... وقفت عليها العين والسمع والفكرا
فلو عرضت للبحر لم يلفظ الدرا ... ولو عارضت هاروت لم ينفث السحرا
أبا حسن هنئت ما قد منحته ... ضروباً من الآداب تجلي بها الدهرا
ودونك بحر أمن ودادي تلاطمت ... به زاخرات المد لا يعرف الجزرا
فإن خطرت في جانب منك هفوة ... فلا تحسبْن أني أضيق بها صدرا
يزل جواد عندما يبلغ المدى ... ويعثر بالرمث النسيم إذا أسرى
فدع ذا وخذها شائبات قرونها ... عروباً لعوباً جائراً حكمها بكرا
ولو غادرت أوصافها متردماً ... لشنفت من أشعارها أذن الشعرى
ألا فاحجبنها عن صديق معمم ... فإن قصارى العمر إن يبكي العمرا
ومن كان ذا حجر ونبل ورقة ... فلا يخلوْن إلا على الخمرة الحمرا
قرنت بها صفراء لا تعرف الهوى ... ولا ألفت وصلاً ولا عرفت هجرا
ولا ضمخت نضخ العبير وإن غدت ... تؤخره لوناً وتفضحه نشرا
وإن خلتها بنت الظليم أظلها ... فقد فرش الإذخر من تحتها تبرا
لها نسب بين الثريا أو الثرى ... وسل برباها المزن والغصن والنضرا
فشربا دهاقاً وانتشاقاً ولا ترم ... عن البيت فترا أو تقيم به شهرا

قال : وله في الخشلكان :

هو الأهلة لكن ... تدعونه خشلكانا
فإن تفاءلت صحف ... تجد حبيبك لانا

قال : ومن نظمه وقد نزل علي من قدّم له مشروباً أسود غليظاً وخروباً وزبيباً كثير الغصون ، جاءت به عجوز في طبق :

ويوم نزلنا بعبد العزيـ ... ـز فلا قدّس الله عبد العزيز
سقانا شراباً كلَون الهنا ... ء ونقلنا بقرون العنوز
وجاءت عجوز فأهدت لنا ... زبيباً كخيلان خد العجوز

186 – ابن أبي الحواجب المهدوي

عده التجاني في رحلته من شعراء المهدية . وكان هجاء ، قال في قاضي المهدية في عصره حين ذبح قرداً لإذايته :

غرائب الدهر قد كثرن ولا أغرب من حكم ذابح القردة
أحل ذبح القرود محتسباً وحرم الفضل بئسما اعتمده

فنفاه الأمير أبو زكرياء الحفصي الى المشرق .

187 – أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عثمان الزناتي المعروف بالحنفي

من شعراء المهدية وعلمائها . ولد بها وهو معدود من أعيانها . ارتحل إلى المشرق ودرس بدمشق مدة . ثم انتقل إلى الموصل ، فانتحل مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه ، واشتغل به حتى صار فيه إماماً . اشتهر به فلا يعرف في إفريقية إلا بذلك ، ولم يكن في تلك العصور كلها حنفي ببلاد إفريقية غيره . ولما عاد من المشرق لزم سكنى المنستير المتعبد المشهور بالفضل إذ ذاك . فأقام بها تحت جراية من الأمير أبي زكرياء رحمه الله . وكان إذا وفد على الحضرة التونسية يجتمع بالأمير أبي زكرياء ويجالسه . وكان شاعراً . من شعره يذم بلده المهدية ويصف أهلها بالبخل :

إذا حل بالمهدية الضيف نازلاً يروم القرى زفت إليه الكوامل
صحاف حكت عن أم موسى فؤادها يغالط فيها حسه ويماطل
إذا حسروا عنها المناديل أنشدت وما السيف إلا غمده والحمائل

ولما ذبح قاضي المهدية بلده قرداً لإذايته وقال فيه ابن أبي الحواجب بلديه البيتين السابقين :

غرائب الدهر قد كثرن الخ .

قال الحنفي (صاحب الترجمة) في ذلك على الوزن والقافية :

عاب عليه صنيعه نفر وما درى الجاهلون ما قصده
يذبح من كان شبه صورته لكي ترى في الوجوه منفرده

توفي رحمه الله في 13 صفر من سنة 655هـ.

188 – أبو إسحاق إبراهيم الغساني

كان فاضلاً صالحاً عالماً أديباً ، يقول الشعر . ومن شعره يمدح أمير إفريقية أبا محمد ابن أبي حفص من قصيدة :

وماذا عسى المداح أن يمدحوا به وفيك خصال ليس تحصر بالعد
نهارك في تدبير ما يصلح الورى وليلك مقسوم على الذكر والورد

قال المؤرخ أحمد بن الشماع : إن صاحب الترجمة كان من الصالحين ، وذكر البيتين السابقين وعقب عليهما إنهما يدلان على فضله وصلاحه .

189 – إبنه أبو العباس أحمد بن إبراهيم الغساني

هو الفقيه الأديب الكاتب للإنشاء والعلامة الكبرى في الدولة الحفصية . والمستفاد من كلام المؤرخين أن هذه الوظيفة في الدولة المذكورة تساوي الوزارة الكبرى الآن حيث إن تصريف مهام الدولة منوطة بمتوليها كما أن كتب العلامة بمنزلة وظيفة الوزير صاحب الطابع ، فصاحب الترجمة في المعنى ذو وزارتين . وكان يكتب العلامة التي هي بمنزلة الختم أو الطابع بالخط المشرقي بما نصه : « من الأمير أبي زكرياء بن أبي محمد بن الشيخ أبي حفص» .

قال المقري في **نفح الطيب** في شأنه ما نصه . ولما ذكر ابن سعيد في **المغرب** ترجمة الكاتب الرئيس المجيد أبي العباس أحمد الغساني ، كاتب ملك إفريقية أي المملكة التونسية ، لأنها بهذا الإسم كانت تعرف ، قال بم أصفه ؟ ولو أن النجوم تصير لي نثراً لما كنت أنصفه وكفاك أني اختبرت الفضلاء من البحر المحيط الى حضرة القاهرة فما رأيت أحسن ولا أفضل عِشرة منه . ولما فارقته لم أشعر إلا برسالة منه قد وافتني بالإسكندرية

من حضرة تونس وفيها قصيدة فريدة منها :

إيه أبا الحسن استمع شدوي فقد يصغي الحمام إذا الحمام ترنما

ثم سرد بعضاً من القصيدة وسنأتي بها قريباً إن شاء الله تعالى بزيادة على ما ذكر منها في المغرب . انتهى كلام المقري . إلا أنه لم يذكرها بعد ، غير أنه ذكر بعد بعض شعره في عدة مواضع ، منها ما نقله عن ابن سعيد في **المغرب** ، ونصه :

قال (أي ابن سعيد) : دخلت تونس مع أبي العباس الغساني حماماً وفيه غلمان في نهاية الحسن فقلت مخاطباً :

دخلت حماماً وقصدي به تنعيم جسم فغدا لي عذاب
قلت لظى فاعترضت حوره وقلت عدن فنهاني التهاب
وأنت في الفضل إمام فكن في الحكم ممن حاز فصل الخطاب

فقال :

لا تأمن الحمام في فعله فليس ما يأتيه عندي صواب
فلا أرى أخدع منه ولا أكذب إلا ان يكون السراب
يبدي لك الغيد كحور الدمى ويلبس الشيخ برود الشباب
ظن به النار فلا جنة للحسن إلا ما حوته الثياب

ومن شعر صاحب الترجمة أبي العباس أحمد الغساني ما خاطب به أبا العباس أحمد بن إبراهيم القيسي اللبلياني رئيس الكتاب في مجلس حضره عنده مع بعض إخوانه من الكتّاب :

يا سابق الناس الى غاية في ذيلها يعثر صوب الغمام
إخوانك الكتّاب يرجون أن يلفي بكم شملهم ذو انتظام
فاطلع على الشرب فهم أنجم مرتقبات منك بدر التمام
وسرهم منك بسر المنى وزرهم عند اختلاط الظلام

فبعث لهم اللبلياني دناً وشمعاً ، وكتب إليهم من نظمه :

دام لإخواني بلوغ المنى في خفض عيش وحميد انتظام

وقرب الدهر لهم كل ما راموه من أنس بغير انصرام
في لذة معسولة المجتنى وغبطة موصولة بالدوام
ما أشوق الصب الى أنسكم وأشغف اللب بذاك المقام
لكنه عاق الفتى عذره فالشيخ منه عوض والسلام

فراجعه الغساني صاحب الترجمة بقوله :

قد قبل الشيخ بعذر الفتى فتى المعالي والرئيس الهمام
وأمطرتنا من شماء الندى يد له بيضاء تجلو الظلام
لا زال يهدي لأودائه أسنى الأيادي وأجل النظام

ثم نقل عن ابن سعيد أيضاً في **المغرب** قوله : حضرت ليلة أنس مع كاتب ملك إفريقية أبي العباس أحمد الغساني ، فاحتاجت الشمعة أن تقط فتناول قطها غلام ببنانه ، فقلت :

ورخص البنان دعاني لأن يقط السراج بمثل العنم

فقال :

ولم يهب النار في لمسه ولا احتاج في قطه للجلم

فقلت :

وما ذاك إلا لسكناه في فؤادي على ما حوى من ضرم

فقال :

تعود حر لهيب به فليس به من أوار ألم

وذكر المقري أيضاً : أن صاحب كتاب **المغرب** المذكور أنشد فيه للغساني (صاحب الترجمة) في خسوف القمر مما قاله ارتجالاً :

كأن البدر لما أن علاه خسوف لم يكن يعتاد غيره
سجنجل غادة قلبته لما أراها شبهها حسداً وغيره

وذكر من نظم صاحب الترجمة ونثره ما خاطب به ابن سعيد في آخر رسالة ،

ونصها :

وعند حامل هذه الأحرف – سلمه الله تعالى – كنه خبري ، واستيعاب ما قصر عنه قلمي ، فضاقت بحمله أسطري ، لتعلم ما أجده وأفقده من تشوقي وتصبري ، وإني لا أزال أنشد حيث تذكري وتفكري :

يا نائياً قد نأى عني بمصطبري   وثاوياً في سواد القلب والبصر
إذا تناسيت عهداً من أخي ثقة   فاذكر عهودي فما أخليك من فكري
واردد عليّ تحياتي بأحسنها   تردد علي حياتي آخر العمر

وكانت وفاة صاحب الترجمة أبي العباس أحمد الغساني رحمه الله سنة 668هـ. أما ولادته فكانت في حدود سنة 600هـ.

190 – أبو عبد الله محمد الشبلي

من الشعراء البارعين والأدباء البارزين ، وكان من كتّاب المولى أبي زكرياء الحفصي ، ملك إفريقية . فمن شعره البديع قوله متغزلاً :

مد إلي الكأس من لحظه   لا يحوج الشرب الى الكأس
ومنذ حياني بكأس فلم   أيأس ولكن كان لي الآسي
وقال ، لولا الناس قبلته   ما أشأم الناس على الناس

191 – أبو علي عمر بن عيسى ابن الشيخ أبي حفص

أولاه ابن عمه أبو زكرياء يحيى بن عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص والياً على بجاية . ثم نقله منها الى بونة (أي عنابة) ، وكان يقال لها أيضاً مدينة العناب . ثم أولاه على مدينة المهدية (أي مهدية تونس) . وعده أبو محمد عبد الله التجاني في رحلته من شعراء المهدية المجيدين ، وقال : إنه وقف على ديوان شعره في مجلدين . بقي رحمه الله والياً على المهدية الى أن توفي بها في 12 صفر من سنة 646هـ.

فمن شعره قصيدة له وجهها الى قبر المصطفى ﷺ :

وله من قصيدة يمدح بها ابن عمه الأمير أبا زكرياء :

وإن من أقبح شيء يرى   عقيلة يملكها وغد
أو حلة تلبسها غادة   وجيبها في صدرها لبد

فكان الأمير أبو زكرياء وشعراؤه يتضاحكون بذلك . ومما ينسب إليه من الشعر قوله :

يكفيك يا معتقل السمهري   ما نالنا من طرفك الأحور
إن كنت من جندك في قلة   فأنت من لحظك في عسكر

192 – أبو عبد الله محمد بن الشيخ الصالح أبي تميم المقري بن سليمان

أولاه الخليفة محمد المستنصر بالله الحفصي والياً على صفاقس سنة 665هـ ، فلقي بها شدة وعناء ، فهجاها لذلك بأبيات ، وكان يجيد قرض الشعر ، وهي قوله :

صفاقس لا صفا عيش لساكنها   ولا سقى أرضها غيث إذا انسكبا
ناهيك من بلد من حل ساحتها   عانى بها العادِيَيْن الروم والعربا
كم ظل في البر مسلوباً بضاعته   وبات في البحر يشكو الأسر والعطبا
وليتها فتولتني الهموم وقد   لقيت في أرضها من أمرها نصبا
قد عاين البحر قبحاً في جوانبها   فكلما همّ أن يدنو لها هربا

يشير في البيت الأخير إلى كثرة مد بحرها وجزره ، ويتخذ منه وسيلة إلى هجوها لما لقيه أثناء ولايته عليها من العناء والبلاء ، حسبما يشير إليه بالأبيات قبلها على العكس من قول شاعرها علي بن حبيب التنوخي الذي مدحها بذلك حين قال :

سقياً لأرض صفاقس   ذات المصانع والمصلى
تحمي القصير إلى الخليج   بقصرها السامي المعلى
بلد يكاد يقول حيـ   ـن تزوره أهلاً وسهلا
وكأنه البحر يحـ   ـزر تارة عنه ويملا
صب يريد زيارة   فإذا رأى الرقباء ولى

فكلا الشاعرين نطق بما وجده في نفسه من أحوالها .

إليك ألقي بعذر محتشم مرتحل القلب ساكن القدم
أصبح من قصده علي أمل ومن لظى شوقه علي ألم
يتبع ركب الهدى إليك أسى ما شئت من حسرة ومن ندم
برح شوق به إليك فما ينفك ما لم يزرك في ضرم
ألوي به عن بلوغ نيته حكم زمان عليه محتكم
فعزمة تلتوي على عقب وهمة تسرتمي إليّ أمم
يا خير من تنقل المطي له عذري في اللبث غير متهم
عبدك لو يستطيع جاب إليـ ـك القفر في غيهب من الظلم
يمسح ما بين حمص منه إلى يثرب براً بوجهه وفم
ولي ذنوب قد عقتني ثقلاً لولا أذى ثقلهن لم أقم
يرجوك يا شافع البرية أن تشفع فيه لبارىء النسم
عسى قبول لديك يلحقني بـقبرك المستـنير والحرم
وصاحبيك اللذين خصهما بنعمة القرب منك ذو النعم
فقد توسلت بالذي لك عند الله من رفعة ومن عظم
صلى عليك الإله ما أتصفت أوصافه بالجلال والكرم

ومن شعره ما كتب به إلى الحافظ ابن الأبار مع تمر أهداه إليه :

أتتك خليقات بحسن الخلائق بها غنية عن كل ما في الحدائق
خليلات جبار حكت وسط دوحه خوافق بالمران بين الفيالق

وله أيضاً يصف صناباً أهدى إليه وملغزاً فيه من أبيات :

بعثت بما أشتهي يا ابن عم فدمت ودامت لديك النعم
بأبيض كالمحض لكنه به شدة تستثير القرم
لسطوته سورة بالأنو ف وليس لعمرك مما يشم
شفاء ولكن نعما الشفا ء لمن كان يشكو بداء البشم
وقد يجتري الجفلى باليسيـ ـر منه ولكن لأمر يذم

193 – السلطان الكبير العلي القدر أمير المؤمنين أبو عبد الله محمد ابن المولى المستنصر بالله ابن الأمير أبي زكرياء يحيى ابن الشيخ أبي محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص

يتصل نسبه فيما زعموا بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – . وجده الشيخ أبو حفص أحد أصحاب المهدي بن تومرت العشرة ، وخليفة المهدي بن تومرت هو عبد المؤمن بن علي مؤسس الدولة الموحدية المشتقة منها الدولة الحفصية ، ثم المستقلة عنها . وأول من استقل عنها أبو زكرياء بن عبد الواحد لما ضعفت الدولة الموحدية ، وذهبت ريحها . ولما توفي أبو زكرياء المذكور ليلة الجمعة في 22 جمادى الآخرة سنة647هـ بويع لابنه ولي عهده المولى محمد المستنصر بالله ، وسنه إذ ذاك إثنان وعشرون سنة . وأمه رومية اسمها عطف .

بويع أولاً ببونة (عنابة) . أخذ له البيعة عمه محمد اللحياني على الخاصة وسائر العسكر . وبعد وصوله الى حضرة تونس بويع البيعة العامة ، وذلك يوم الثلاثاء في 3 رجب عام 647هـ ، وتسمى بالأمير ولم يتسم بأمير المؤمنين إلا يوم الإثنين في 24 ذي الحجة من سنة 650هـ ، وذلك حين قدمت عليه البيعة من مكة شرفها الله على يد الشيخ أبي محمد عبد الحق بن سبعين ، وكان الواصل بها المحدث الراوية أبو محمد بن برطلة ، وأنشد بعض الشعراء في هذه البيعة قوله :

أهنأ أمير المؤمنين ببيعة ... وافتك بالإقبال والإسعاد
فلقد حباك بملكه رب الورى ... فأتى يبشر بافتتاح بلاد
وإذا أتت أم القرى منقادة ... فمن المبرة طاعة الأولاد

وقدمت عليه أيضاً بيعة الشام والأندلس . في يوم الإثنين الوارد فيه على الأمير المستنصر البيعة المومأ إليها رأى الأمير المذكور أن الإقتصار على لفظ الأمير قصور ، فتسمى بأمير المؤمنين ، وأمر أن يذكر ذلك في الخطبة ، ويطبع في الذهب . وفي ذلك اليوم تلقب بالمستنصر بالله واختار للعلامة « الحمد لله والشكر لله » ، فبايعه الناس بذلك البيعة العامة ، وأتبع ذلك بردّ المظالم ، واتفق أن المطر كان احتبس ، وفي ثالث يوم من هذه البيعة نزل المطر فهنأه الشعراء بذلك .

ثم رأى شيخ الدولة أبو سعيد عثمان المعروف بالعود الرطب حين تقرر من أمر العلامة ما تقرر أن الأوامر السلطانية قد تنفذ في أمور صغيرة لا ينبغي الكتب بمثلها عن الخليفة . فقسم الكتب إلى علامة صغيرة وكبيرة . فالأوامر الكبيرة الصادرة عن الخليفة تكتب بالعلامة التي وقع الإختيار عليها ، والكتب الصغيرة التي يكبر قدر الخليفة عندما تكتب عمن يعينه الخليفة لذلك ، وتنفذ بعلامة أخرى تشعر بأن ذلك عن أمر الخليفة . فانقسمت العلامة الى كبرى وصغرى . فالكبرى موضعها أول الكتاب بعد البسملة ، والصغرى معلمة في آخره لصدوره عن الخليفة .

وفي سنة 668هـ قرئت بيعة صاحب المغرب الأقصى الأمير يعقوب بن عبد الحق علي المولى المستنصر . وبذلك اعتبرت خلافته قد كملت على أتم وجه حيث بايعته سائر البلاد المغربية ، ومن البلاد المشرقية مكة المكرمة وبلاد الشام وغيرهما . وبذلك صارت الحضرة التونسية قاعدة للخلافة الإسلامية ، كما كانت المهدية التي هي من أعمال تونس قاعدة للخلافة الإسلامية ، أيضاً في القديم على عهد الدولة العبيدية قبل انتقال بني عبيد إلى مصر .

وفي يوم الأحد رابع جمادى الآخرة سنة 675هـ ابتدأ السلطان المستنصر بالله صاحب الترجمة المرض الذي مات منه ، وكان إذ ذاك مسافراً فأصابه المرض وهو بعين أغلال ، فنقل الى حضرة تونس في محفة على أعناق الرجال ، في خسوف القمر وأدخل إلى القصبة وكثر إرجاف الناس بموته ، حتى أنه جعل يوم عيد الأضحى في محفة من خشب وأصعد الى قبته فرآه الناس ، وتجلد لإظهار حركة علم منها أن فيه بقية . ومن ثم عاد إلى منزله ، وتوفي من ليلته بعد صلاة العشاء الأخيرة ليلة الأحد في 11 ذي الحجة عام 675هـ ، فكانت إمارته ثمانية وعشرين عاماً وخمسة أشهر وإثني عشر يوماً رحمه الله تعالى .

وقد نوه المؤرخون به وبالحضرة التونسية على عهده تنويهاً عظيماً نقلنا بعض ما قاله بعضهم في مقدمة هذا العصر الحفصي الذي نحن بصدد الترجمة لبعض من ازدهر بهم من فحول الشعراء . وكان المستنصر بالله الحفصي صاحب الترجمة يجيد الشعر . فمن شعره ما نسبه أبو حيان بسنده إليه ، كما في **نفح الطيب** ونصه :

ما لي عليك سوى الدموع مُعين   إن كنت تغدر في الهوى وتخون

من منجدي غير الدموع وإنها لمعينة مهما استغاث حزين
الله يعلم أن ما حملتني صعب ولكن في رضاك يهون

ونقل المقري أيضاً في **نفح الطيب** : أن هذا السلطان (صاحب الترجمة) كان في بعض متصيداته ، فكتب لوزيره أبي عبد الله الرئيس ابن سعيد ، المتقدم ترجمته ، يأمره بإحضار الأجناد لأخذ أرزاقهم ، قوله :

ليحضر كل ليث ذي منال زكا فرعاً لإسداء النوال
غدا يوم الخميس فما شغلنا بأُسْد الوحش عن أُسْد الرجال

ونقل أيضاً ما نصه : وحكى أن السلطان المذكور عرض مرة أجناده ، وقيل بل سلم عليه الموحدون يوم عيد بتونس ، وفيهم شاب وسيم اسم جده النعمان ، فسأله السلطان عن اسمه ، وأعجبه حسنه ، فخجل وآحمرّ وجهه وازداد حسناً ، فقال السلطان هذا المصراع :

كلمته فَكَلّمَتْ صفحة خده

وسأل من الحاضرين إجازة هذا المصراع ، فلم يأتوا بشيء ، فقال السلطان مجيزاً شطره :

فتفتحت فيه شقائق جده

قال المقري : وهذا من البديع لما فيه من التورية والتجنيس ا هـ .

ومن شعره أيضاً ما خاطب به ابن سيد الناس مسائلاً عن حاله :

ما حال عينيك يا عين الزمان فقد أورثني حزناً من أجل عينيكا
وليس لي حيلة إلا الدعاء فيا ربي براوي الصحيحين حنانيكا

وقد أجابه الحافظ أبو المطرف بن عميرة المخزومي الشاعر خدمة عن الحافظ أبي بكر بن سيد الناس بقوله :

مولاي حـــالها والله صـــالحة لما سألت فأعلى الله حاليكا
ما كان من حضر أو كان من سفر حتى تكون الدراري دون نعليكا

194 – أبو عمر أحمد بن مالك بن سعيد المير اللخمي النشابي

شاعر مجيد ، وأديب بارع . من شعره قوله حين نزل الأمير أبو يحيى في بعض حركاته بموضع فيه نهر وعلى شطه نور وقال في وصفه الرئيس محمد بن سعيد كما سبق ذكره في ترجمة هذا الرئيس :

ونهر يرف الزهر في جنباته   ويثني النسيم قضبه ويقنطر

الخ .

عطف عليه صاحب الترجمة في ذلك بقوله :

وأرض من الحصباء بيضاء قد جرت   جداول ماء دونها تتفجر
كما سبحت تبغي النجاة أراقم   على روضة فيها الأقاح المنور
وإلا كما شقت سبائك فضة   بساطاً على حافاته الدر ينثر

195 – أبو علي يونس

أديب أريب ، وسهمه في الشعر مصيب . من شعره قوله يصف النهر السابق ذكره ، ولعله كسابقه من كتبة المستنصر الحفصي وبطانته :

أنظر الى منظر يسبيك منظره   ويزدهيك بإذن الله مخبره
ومعجب معجب لا شيء يشبهه   خرير ماء نمير تم منهره
كأنما فرشت بالدر صفحته   فالماء ينظمه طوراً وينثره
كأن خلجانه قدت على قدر   لمائها قسم يجري مفجره
أحل سيدنا المأمون قبته   بحوزه فغدا يزدان جعفره[1]

---

(1) جعفره : لعلّ المراد به النهر لأنّ من أسمائه الجعفر .

196 – أبو العباس أحمد بن يامن

أحد أدباء الحضرة التونسية ومن رجال حاشية المستنصر الحفصي كسابقيه، ولعله من كتابه أيضاً .

يحكى أن السلطان المذكور خرج في رمضان يوماً يتنزه صحبه رجال حاشيته في بعض الأماكن البهجة النضرة ، فتعرض له أسد يريد الفتك به ، فقتله الأمير المذكور ، كما أنه صلى التراويح وسأله الإمام عما أشكل عليه فأفتاه فأنشد صاحب الترجمة في واقعة الحال هذه قوله :

لله در خليفة الله الذي ما زال يرغم خصمه إرغاما
ما إن رأيت ولا سمعت بمثله يفتي الإمام ويقتل الضرغاما

197 – أبو الحسن علي بن بلال الكاتب

من شعراء تونس وأدبائها . ذكر التجاني في رحلته أنه عزم على التوجه الى المشرق برسم الحج وأخذ في تهيئة أسبابه . ولما وصل الى طرابلس صرفه الدهر هناك في بعض الخدم ، وأقام بها مدة نظم في أثنائها وترياته (مراده بها مقاطيع عدد أبيات كل مقطوع منها وتر) يصف فيها اشتياقه الى تلك الأماكن المكرمة ، ويطلب التخلص مما عاقه عن بلوغ مقصده ، ثم تهيأ له السفر فانفصل وحج وذلك سنة 681هـ . ثم قفل راجعاً فمات في طريقه وهو قافل – رحمة الله عليه – وذكر التجاني من هذه الوتريات المشار إليها قوله :

سرى فرساً في سيره ولو أنه خلّي من الأوزار سار ولم يرسُ
سعى سعي طماح لأبعد غاية فكانت له دار المقام طرابلسُ
سينضى ركاب العزم عنها مجرداً لأفضل من دانت له الجن والأنس

198 – أبو عبد الله محمد المزدوري الهنتاني

من شعراء تونس أيضاً . ذكر التجاني في رحلته أنه اضطرته الحال الى الخروج من تونس والسكنى بوذرف وفيها يقول :

هذي عيون وذرفُ دَ ع العيونَ تَذْرف
بدلت من أرضي بها وأسني وا أسني

199 – أبو عبد الله محمد بن الشيخ صالح بن تميم الحامي

كان فاضلاً أديباً لبيباً . يجيد قرض الشعر . من شعره يذكر إيقاع السلطان محمد المستنصر بن أبي زكرياء الحفصي بالثائرين عليه من قبيلة رياح من أثناء قصيدة :

فيا حسن ما قرّت به أعين الورى رؤوس رياح في رؤوس رماح
فهذي دماء المارقين مباحة وهذا حمى الإسلام غير مباح
بمستنصر يرمي العدى بكتائب تعم نواحي أرضهم بنواح

200 – أبو العباس أحمد بن محمد بن الإمام

من أهل العلم والفضل . وكان شاعراً وأديباً . من شعره يرثي أبا مروان عبد الملك ابن عوانة المتوفي سنة 676هـ من قصيدة :

أبى الدهر إلا أن يكون مفرقاً فلا تأخذن منه حياتك موثقا
يمر زماناً إن حلا لك ساعة ويفسد بالتفريق ما أصلح اللقا
ويعزل إن ولي يكدّر إن صفا ويمنع إن أعطى ويظمي إذا سقى
وكم من صحيح قد أتاح له الضنا ومن ذي نعيم قد أتاح له الشقا
وكم من مسرات أعاد مآتما وكم غصصاً يوم التفرق ذوّقا
وكم من سليم في سرور وغبطة أبات سليماً لا تسلمه الرقى[1]

يقول فيها يرثي المتوفى :

ومَن لأصول الفقه إن جاء سائل لقد كان نظارا لقد كان مفلقا
ومن لأصول الدين يحمي ذمارها إذا سامها باغٍ بإفك ممحزق
ومن لعلوم الفقه من بعد فقده لقد كان يبدي الحق من كل ما انتقى

(1) سليم : من السلامة ضد العطب . سليماً : ملسوع .

ومن بعد للآثار عند خصاصه لقد كان في كل الأحايين منفقا
ومن بعد ذاك الحبر للدين والدنى لقد كان مثل الغيث يرجى ويتّقى
ومن بعد للأخذ الجميل بديهة إذا أرعد الدهر المؤون وأبرقا
لقد كان زين القيروان وإنها لزين بلاد الله غرباً ومشرقا

201 – أبو زكرياء يحيى بن عتيق الهواري

كان من أهل الفقه والدين . من شعره في رثاء محمد بن سحنون المتوفى سنة 696هـ :

أيا سوسة الغراء نورك يلمع بنور إمام في ترابك يضجع
بك العلّم المشهور في الناس فضله إمام جليل القدر طود مرفع
له فضل نسك في العباد وخشية يقوم بآي الذكر والناس هجع
وذاك ابن سحنون محمد الذي إليه من الأبصار ذا الخلق يفزع
لذوكالة الغراء يعزى وإنه لشمس الضحى والبدر في الأفق يطلع
لقد كان للإسلام كهفاً وملجأ تكف به عنا البلايا وتدفع
توفته أملاك المهيمن طيباً مقيل له أعلى الجنان ومرتع
فيا فوز من صلى عليه وزارُهُ في الفوز والغفران والخلد يطمع

202 – أبو زيد عبد الرحمان بن محمد بن علي الأنصاري الأسدي المعروف بالدباغ

هو المؤرخ الراوية ، قال العواني في ترجمته : إنه روى عن القاضي أبي زكرياء البرقي ، وعن القاضي ابن عبد الجليل الأزدي ، والقاضي أبي محمد عبد الله بن برحله الأنصاري ، وأبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن عثمان ، وعن أبي موسى عيسى بن سامة ابن علي الحضرمي ، وغيرهم ينوفون عن ثمانين عالماً . كان رحمه الله معنياً بالآثار جامعاً لها . كتب بخطه منها كثيراً ورواه .

كان أنيس المجالسة ، كثير الحكايات ، حافظاً للحديث ، عارفاً بالأخبار . له

تآليف منها **معالم الإيمان في مناقب المشهورين من علماء القيروان** الكتاب الذي ذيل عليه العلامة ابن ناجي ، وكتاب **تاريخ ملوك الإسلام** وكتاب **جلاء الأبصار في مناقب الأنصار** رضي الله عنهم ، إلى غير ذلك .

كان عادلاً عالماً عارفاً بالحديث ، حافظاً ومعتنياً بالآثار جامعاً لها .

قال العبدري في رحلته في شأنه : إنه الشيخ الفقيه المحدث الراوية المتفنن . كان ذا سمت وهيئة وسكون ظاهر ، محباً لأهل العلم ، حسن الرجاء ، بر اللقاء . لم يؤثر الكبر في جسمه على علو سنه ، ولا تغير ذهنه ولا حواسه . مولده سنة 605هـ ذا عناية واهتمام بالعلم . موطأ الأكناف ، لين الجانب ، جميل العشرة ، على سنن أهل العلم والفضل . أوجد وقته رواية ودراية . لقيت من بره وحسن خلقه ما لم أخَلْ مثله باقياً . تنيف شيوخه على ثمانين وألف . فيهم برناجاً .

قال : ومن عجيب خلقه أني ما طلبت منه جزءاً لأنقل منه إلا وهبه لي . أعطاني عدة أجزاء ، وفوائده وفوائد شيوخه . وقال لي : أنت أولى بها . له مجموعات وتآليف ، ونظم كثير وجيد ، ومشاركة في العلوم النقلية والعقلية . ألف تأليفاً حسناً في سفرين فيمن دخل القيروان من الفضلاء سماه **معالم الإيمان وروضة الرضوان في مناقب المشهورين من صلحاء القيروان** ا هـ من الديباج المذهب .

ثم قال إن تاريخ لقاء العبدري له في حدود سنة 689هـ كما في رحلته ا هـ .

ودار صاحب الترجمة كانت تعرف بخلف الله المتزلي . وسبب تسمية جده بالدباغ هو أنه قدمه السلطان لقضاء الجماعة ، وكتب له الظهير بقضاء بلده القيروان ، وبعث له به . فلما علم أن الظهير يرد عليه في وقت الضحى بكّر الى دار الدباغة ، ونزع ثيابه وتحزم وأخذ يعالج الجلود . فلما وصل الرسول الى داره ولم يجده بها ولا في المسجد بحث عنه فدل على موضعه ، وقال له : نحب البشارة . فرد عليه بقوله : إرجع بظهيرك وقل لمن بعثك به : وجدته دباغاً ، فلا يليق القضاء به . فلما عرفوا ذلك من أمره قالوا : نعرف أن صناعة دباغة الجلود ما هي صناعته وإنما قصد بذلك الهروب من القضاء لنجاة نفسه .

توفي صاحب الترجمة رحمه الله سنة 699هـ ، ودفن بمقبرة باب تونس بالربوة التي دفن فيها أسلافه ، وتسمى مشاهد قبورهم بسلسلة الذهب . فهم قوم جمعوا بين العلم

والعمل والورع . وكان رحمه الله يقول الشعر ، ويجيده . كتب على تأليفه جلاء الأفكار قوله :

كتبت جلا الأفكار في فضل معشر ... بهم عز دين الله في الشرق والغرب
إلهي فحقق للأسيدي ما رجا ... بتأليفه واغفر له سائر الذنب
وبوئه والقاري ومن هو سامع ... وكاتبه أعلى المقامات في القرب

ومن شعره يصف نفسه ، ويذكر فضل الأنصار وانتماءه إليهم – رضي الله عنهم – من قصيدة ، أذكر منها ما وجد :

إني امرؤ ذو همة ملكية ... ما إن لها تحت الكواكب موضع
ما لي إلى غير الفضائل مسلك ... دوماً ولا دون المعالي منزع
أشبهت آبائي الكرام فإنهم ... أبداً بغير الفضل لم يتضلعوا
ما فيهم إلا بعير شارد ... رقّ الندى سمح اليدين سميدع
وأبي أسيد بن الحضير كفى به ... فخراً ومجداً فضله لا يدفع
ذاك الذي نزلت ملائكة السماء ... لقراءة القرآن منه تسمع
وأضاءت المنشلة في غسق الدجى ... في كفه لما ادلهم المهيع
نسب كأن الصبح منه تنفست ... أنواره والشمس منه تشعشع
من مبلغ الأنصار عني أنني ... أحمي الحمى وأذب عنه وأدفع

ومنه يخاطب جاره أبا مروان عبد الملك بن عوانة يستعينه على إصلاح ما أنهرش من داره المعروفة بخلف الله المنزلي . وكان أبو مروان جواداً :

بنفحة تندى حسينية ... تفتح للمكروب باب الفرج
تأتي لإصلاح ربوع عفت ... لعل ذي الأزمة أن تنفرج
وعادة الله بنيل المنى ... ما ضاق أمر قط إلا انبلج

203 – السلطان أبو عبد الله محمد المستنصر الثاني بن الواثق بالله بن محمد المستنصر الأول بن أبي زكرياء الحفصي المشتهر بأبي عصيدة

سبب هذه الكنية المشتهر بها أن أباه لما قتل هو وبنوه فرّت إحدى جواريه حاملاً به الى زاوية الشيخ أبي محمد المرجاني ، فوضعت صاحب الترجمة في بيت الشيخ ، فسماه الشيخ محمداً وعق عنه ، وأطعم الفقراء يومئذ عصيدة الحنطة ، فاشتهر من أجل ذلك بأبي عصيدة ، ثم صار بعد اختفائه عنده إلى قصور آله ، ونشأ في ظل الخلفاء من أهل بيته حتى شب ، وبقيت له مع الشيخ المرجاني ذمة ، وهي السبب في تأميره ؛ وذلك أن الخليفة قبله ، وهو أبو حفص عمر بن آل أبي حفص عهد أولاً لولده عبد الله ، فتحدث الموحدون عن صغر سنه ، وإنه لم يبلغ الحلم ، فبعث السلطان أبو حفص للشيخ الفقيه الصالح أبي محمد المرجاني ، وتحدث معه في ذلك ، وفاوضه في شأن العهد ، وقص عليه نكير الموحدين لولده ، فأشار عليه الشيخ بصرف العهد إلى محمد الواثق ، فقبل إشارته ، ووقع الإتفاق على ذلك ، فأخرج محمد بن الواثق إلى الشيخ المرجاني ، فبارك عليه ، وبويع البيعة الخاصة في يوم الأربعاء الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة أربع وتسعين وستمائة 694هـ .

ولما توفي السلطان أبو حفص بمرض أصابه يوم الجمعة في 24 من ذي الحجة المذكور سنة 694هـ بويع صاحب الترجمة البيعة العامة ، وتلقب حينئذ بالمستنصر بالله . وكان رحمه الله أديباً شاعراً ، عالماً بضروب السياسة ، حالاً منها بالمكانة المكينة . قمع الثوار ، وانتصر عليهم من الكعوب الثائرين عليه بسبب قتل العامة لهداج بن عبيد الكعبي بجامع الزيتونة لدخوله للجامع بخفيه ، فزجره بعض الناس عن ذلك فقال : دخلت بهما والله على السلطان فاستعظم ذلك منه العامة ، وقتلوه وجروه في طرق تونس . وكان من رؤساء الكعوب وكانوا قد أضروا بالسبل ، وعثوا في الأرض فساداً ؛ فحقد العامة عليهم ، وفعلوا ما أسلفنا . ولما بلغ خبر قتله الى قومه ازدادوا طغياناً ، وثاروا على السلطان . فخرج إليهم الوزير أبو عبد الله بن يرزكين بالعساكر ، فهزمهم واستتبت الراحة .

ولصاحب الترجمة وقائع تاريخية تدل على حسن سياسته ودهائه مبسوطة في كتب

التاريخ . وفي عهده صنع المنجنيق بتونس في صفر سنة 709هـ بدار الصناعة بتونس ، ورمي به هناك ثلاثة أحجار .

ووردت عليه في 11 ذي الحجة الزرافة هدية من مصر في جفن التاجر أبي القاسم القنبي .

وكانت وفاة صاحب الترجمة في 13 ربيع الآخر من عام 709هـ المذكور ، فكانت إمارته أربعة عشر عاماً وثلاثة أشهر وأربعة عشر يوماً – رحمه الله .

من شعره ما خاطب به العلامة ابن الحباب لما دخل عليه ، وكان قد فرغ من الأكل فباسطه بهذين البيتين :

لقد فاتك الجدي يا بن الحباب بخبز سميد كثير اللباب
ولم يبق منه سوى عظمه وذاك لعمري طعام الكلاب

قالوا ولما وصل صاحب الترجمة في إنشاد البيتين إلى قوله : طعام ، بادره الفقيه الفقيه ابن الحباب بقوله : طعامكم طعامكم . وفي هذا قالوا تورية لطيفة تدل على شدة ما كان بين ابن الحباب وصاحب الترجمة من كمال الألفة التي سمحت لابن الحباب بمثل هذه المباسطة ، وإلا فما كان ينبغي أن يقع مثل ذلك مع سلطان مطلق النفوذ . ولذا كان أهل السياسة يقولون : إذا داعبت الملك فأجمل الأدب ، ووفه حق اللعب .

204 – محمد بن محمد بن عبد الرحمان الجليل بن عبد الرحمان بن عبد الله ابن يوسف القرشي الهاشمي المالكي الجعفري التونسي

الشهير بابن القويع . نزيل مصر ، الملقب فيها بزكي الدين أبي الفضل ويكنى أيضاً بأبي عبد الله ، ويلقب بركن الدين ، شيخ المالكية بالديار المصرية والشامية . لم يخلف بعده مثله في فنونه . العلامة الإمام ، المحقق البارع ، المتفنن المتقن ، جامع الفضائل . ولد بتونس في رمضان سنة 664هـ ، وقرأ النحو على يحيى بن الفرج بن زيتون ، والأصول على محمد بن عبد الرحمن قاضي تونس . ولي مدرساً في المدرسة الناصرية . قال الشيخ أمير الدين أبو حيان : لم أر له نظيراً في تفننه وإتقانه واطلاعه واستحضاره . كل ما تعرفه يجيد فيه من أصول وحديث وفقه وأدب ولغة ونحو وعروض وأسماء رجال

وتاريخ وشعر للعرب والمولدين والمتأخرين وطب وحكمة ومعرفة خطوط خصوصاً خطوط المغاربة ، قد مهر في ذلك وبرع . وإذا تحدث في شيء من ذلك كله تكلم على دقائق ذلك الفن ، وذكر قصصاً تنبيء عن ذلك . ثم قال : وكان حسن التودد إلى الناس من غير حاجة . وكان يتصدق سراً على أناس مخصوصين . وكان ألثغ ببدل الراء همزة ، وكان إذا رأى أحداً يضرب كلباً ينتهره ويقول له : أما إنه لشريكك في الحيوانية . وكان خطه على وضع المغاربة وليس بحسن ا هـ .

كما ترجم له صاحب **ذيل الديباج** فقال أثناء الترجمة له : إنه قدم دمشق سنة تسعين (أي وستمائة) فسمع بها من ابن القواس ، وأبي الفضل بن عساكر ، وجماعة . ودرس بالمنكوتمرية . وأعاد بالناصرية وغيرها ، ودرس الطب بالميرستان ، وكان يتوقد ذكاءً ، ومهر في فنون حتى إذا تحدث في شيء من العلوم سلم له في دقائقه وغوامضه ، حتى يقول القائل : إنه أفنى عمره في ذلك . وكان التقي السبكي يقول : ما أعرف أحداً مثله . وقال ابن سيد الناس : لما قدم قعد بسوق الكتب والشيخ بهاء الدين بن النحاس هناك ومع المنادي ديوان ابن هانيء ، فنظر فيه ابن القويع فترنم فيه بقوله :

فتكاتِ لحظك أم سيوفَ أبيك   وكؤوسَ خمر أم مراشفَ فيك

فقرأ بنصب الجميع ، فقال له ابن النحاس : يا مولانا هذا نصب كثير . فقال له بشدة أنا أعرف ما تريد من رفعك ، على أنها أخبار لمبتدآت مقدرة ؛ والذي ذهبت إليه أنا أغزل وأمدح التقدير : أقاسي فتكات لحظك ، فقال له : يا مولانا فلم لا تتصدر وتشغل الناس ، فقال له : وأي شيء هو النحو حتى يذكر . وكان فيه بادرة وحدة ، وناب في الحكم بالقاهرة ثم تركه قائلاً : يتعذر فيه براءة الذمة . وكان كثير التلاوة حسن الصحبة ، كثير الصدقة سراً ، يتودد الى الناس من غير حاجة ، ولا يتخلى عن مطالعة كتاب الشفاء لابن سينا كل ليلة من غير سآمة ولا ملل . شرح ديوان المتنبي وغيره ، والقويع بضم القاف على ما اشتهر على الألسنة وبفتحها إسم طائر . ا هـ .

قلت : هو من شيوخ الشيخ عبدالله المتوفى ذكره «خ» في ترجمته . له من التصانيف تفسير سورة ق في مجلد ، وغيره . توفي رحمه الله بالقاهرة سنة 738هـ . ومن شعره :

جوى يتلظى في الفؤاد استعاره   ودمع هتون لا يكف انهماره
يحاول هذا برد هذا بصوبه   وليس بماء العين تطفأ ناره

ولوعاً بمن حاز الجمال بأسره … فحاز الفؤاد المستهام إساره
كلفت به بدري ما فوق طوقه … ودعصي ما يثنى عليه إزاره
غزال له صدري كناس ومرتع … ومن حب قلبي شيحه وعراره
من السمر يبدي عند ميا بخده … إذا ما بدا ياقوته ونضاره
جرى سائحاً ماء الشباب بروضه … فأزهر فيه ورده وبهاره
يشب ضراماً في حشاي نعيمه … فيبلو وبأنفاس الصعاد شراره
وينثر دمعي فيه نظم مؤشر … كنور الأقاحي حفَّه جلناره
يعل بعذب من برود رضابه … تفاوح فيه مسكه وعقاره
ويسهر أجفاني بوسنان أدعج … يحير فكري غنجه واحوراره
حكى مني ضعفاً أو حكى مني موثقاً … وخصراً نحيلاً عال صبري اختصاره
معني بردف لا ينوء بثقله … فيا شد ما يلقى من الجار جاره
على أن ذا مثر وذلك معسر … ومن محنتي إعساره ويساره
تألف من هذا وذا غصن نابه … توافت به أزهاره وثماره
تجمع فيه كل حسن مفرق … فصار له قطباً عليه مداره
زلال ولكن أين مني وروده … ولدن ولكن أين مني اهتصاره
وسلسال راح أين مني كأسه … وغودر عندي سكره وخماره
وبدر تمام مشرق الضوء باهر … لأفقي مني مَحقه وشراره
دنا ونأى فالدار منه بعيدة … ولكن تعدى صده ونفاره
وحين درى أن شد سري حبه … أحل به البلوى وساء اقتداره

ومن هذه القصيدة الفريدة قوله :

حكت ليلتي من فقدي النوم يومها … كما قد حكى ليلي ظلاماً نهاره
كتمت الهوى لكن بلمعي وزفرتي … وسقمي تساوى سره وجهاره
ثلاث سجلات علي بأنني … إمام غرام جلّ كيف استتاره
أؤدي بنظمي في العذار وتارة … بمن إن تغنى القرط أصغى نواره
وجل الذي أهوى عن الحلي زينة … وعنها تفادى أن يدب عذاره
أراحة نفسي كيف صرت عذابها … وجنة قلبي كيف منك استعارة

ومن شعره يمدح الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد :

ولو غير الزمان يكون قرني ... للاقى الحتف من ليث جريّ
تحاماه الكماة إذا ادلهمت ... دجى الهبوات في ضنك حميّ
وطبقت الفضاء فلا ضياء ... سوى لمعان أبيض مشرفيّ
وأرقدت العيون وكل طرف ... عَمٍ إلا لِأسمر سمهريّ
ويعتقد الرماح قدود هيف ... فيمنحها معانقة الهديّ
هنالك ترى الفتى القرضي يحمي ... حمى للمجد والحسب السنيّ
ويعلم أن أصلاها سمياً ... تقرع بالنضار الجعفريّ
وأن لِوا الجعافرة استبدلت ... به يمنى الهمام القويعيّ

ومن هذه القصيدة قوله في المديح :

الى صدر الأيمة باتفاق ... وقدوة كل حبر ألمعي
ومن بالإجتهاد غدا فريداً ... وحاز الفضل بالقدح العليّ
وما هو والقداخ وتلك غبٌّ ... وهذا نال بالسعي الرضيّ
صبا بالعلم صباً في صباه ... فأبدى بهجة الصب الصبيّ
فأتقن والشباب له لباس ... أدلة مالك والشافعيّ

ومنها :

ونور جلالة يرتد عنه ... رسول الطرف بالحبس العييّ
ومن كثرت صلاة الليل منه ... سيَحسن وجهه قول النبيّ

205 - الأمير أبو عبد الله محمد ابن السلطان المتوكل على الله أبي بكر ابن الأمير أبي زكرياء الحفصي

أولاه أبوه أبو بكر أبو يحيى على قسنطينة ، فقام بالأمر فيها إلى أن توفي بها يوم الأربعاء الخامس عشر من ذي الحجة عام 737هـ ، بمرض أصابه ، وهو فقد شهية الطعام ، وسنه إذ ذاك يقرب من ثلاثين عاماً . وترك من الأولاد سبعة ، فتوجه أحدهم

وهو الأمير أبو العباس أحمد ، وسنه إذ ذاك إحدى عشرة سنة ، إلى جده بتونس السلطان أبي يحيى يطلب منه الإنعام عليه وعلى إخوته بقسنطينة ، فرحب به ، ودعا له ، وأسعفه بمرغوبه ، وعقد لكبير إخوته وهو الأمير أبو زيد عبد الرحمن على كل عمل أبيه لنظر القائد نبيل مولاهم ، لمكان صغره . وصار الخليفة أبو يحيى يتفقد أحوالهم .

كان صاحب الترجمة يقول الشعر ، ومن شعره في ذم الخمر قوله :

ما الخمر إلا شبهة للفتى ... وللمعالي أصبحت ناهبه
تزري بعقل المرء من حينها ... لا أحسن الله لها عاقبه

206 – أبو عبد الله محمد بن عمر بن علي بن إبراهيم المليكشي التونسي

ذكره صاحب **نيل الابتهاج** . وقال أبو محمد التجاني في رحلته في شأنه : قال الحضرمي في مشيخته : كان صدراً في الطلبة والكتاب ، فقيهاً ، كاتباً ، أديباً ، راوية ، متصوفاً ، فاضلاً ، صاحب خطة الإنشاء بتونس ، شهيراً ذا تواضع وإيثار وقبول حسن . رحل وحج .

وقال أيضاً فيه : فيه له شعر رائق ، ونثر فائق ، وكتابة بليغة ، وتآليف مستطرفة . ذكره خالد (أي البلوي) في رحلته فأثنى عليه ا هـ .

كان صاحب الترجمة صاحب العلامة على عهد السلطان محمد أبي عصيدة . أما ولادته فكانت سنة 641هـ . وترجم له أيضاً لسان الدين بن الخطيب في **الإكليل** بما نصه على ما نقله عنه المقري في **نفح الطيب** : كاتب الخلافة ومشعشع الأدب الذي يزري بالسلافة . كان بطل مجال ، ورب روية وارتجال . قدم على هذه البلاد (أي الأندلسية) وقد نبا به وطنه ، وضاق ببعض الحوادث عطنه ، فتلوم بها تلوُّم النسيم بين الخمائل ، وحل فيها محل الطيف من الوشاح الجائل . ومكث مدة إقامته تحت جراية واسعة ، وميرة يانعة . ثم آثر قطره فولى وجهه شطره ، واستقبله دهره بالإنابة ، وقلده خطة الكتابة ، فاستقامت حاله ، وحطت رحاله . وله شعر أنيق ، ورحلة الى الحجاز سعيها في الخير وثيق ، ونسبها في الصالحات عريق .

ومن شعره قوله :

رضاً نلت ما تهوين من كل ما يهوى فلا توقفني موقف الذل والشكوى
وصفحاً عن الجاني المسيء لنفسه كفاه الذي يلقاه من شدة البلوى
بما بيننا من خلوة معنوية أرق من النجوى وأحلى من السلوى
قفي أتشكى لوعة البين ساعة ولا يك هذا آخر العهد بالنجوى
قفي ساعديني عرصة الدار وانظري الى عاشق ما يستفيق من البلوى
وكم قد سألت الريح شوقاً إليكم فما حنّ مسراها عليّ ولا ألوى
فيا ريح حتى أنت مما يغار بي ويا نجد حتى أنت تهوى الذي أهوى
خلقت ولي قلب جليد على الهوى ولكن على فقد الأحبة لا يقوى

وحدّث بعض من عنيَ بأخباره أيام مقامه بمالقة واستقراره : أنه لقي بباب الملعب من أبوابها ظبية من ظبيات الأنس ، وقينة من قينات هذا الجنس ، فخطب وصالها ، وأتقى بفؤاده نصالها ، حتى همّت بالإنقياد ، وانعطفت انعطاف الغصن المياد ، فأبقى على نفسه وأمسك ، وأنف من خلع العذار بعدما تنسك ، وقال :

لم ننس وقفتنا بباب الملعب بين الرجا واليأس من متجنب
وعدت فكنت مراقباً لحديثها يا ذُل وقفة خائف مترقب
وتدللت فذللت بعد تعزز يأتي الغرام بكل أمر معجب
بدوية أبدى الجمال بوجهها ما شئت من خد شريق مذهب
تبدو وتبعد نفرة وتجنياً فتكاد تحسبها مهاة الويرب
ورنت بلحظ فاتن لك فاتر أقضى وأمضى من حسام المضرب
وأرتك بابل حسنها بجفونها فسبت وحق لمثلها أن تستبي
وتضاحكت فحكت بنيّر ثغرها لمعان نور ضياء برق خلب
بمنظم في عقد سمطيْ جوهر عن شبه نور الأقحوان الأشنب
وتمايلت كالغصن أخضله الندى ريان من ماء الشبيبة مخصب
تثنيه أرواح الصبابة والصبا فتراه بين مشرق ومغرب
أبت الروادف أن تميل بميله فرست وجال كأنه في لولب
متتوج بهلال وجه لاح في خلل السحاب بحاجب ومحجب
يا من رأى فيها محباً مغرماً لم ينقلب إلا بقلب قلب

ما زال مذ ولّى يحاول حيلة	تدنيه من نيل المنى والمطلب
فأجال نار الفكر حتى أوقدت	في القلب نار تشوق وتلهب
فتلاقت الأرواح قبل جسومها	وكذا البسيط يكون قبل مركب

وقال :

أرى لك يا قلبي بقلبي محبة	بعثت بها سري إليك رسولا
فقابلهْ بالبُشرى وأقبل عشيّة	فقد هب مسك للنسيم عليلا
ولا تعتذر بالقطر أو بَلل الندى	فأحسن ما يأتي النسيم بليلا

توفي عام أربعين وسبعمائة بتونس رحمه الله تعالى انتهى . وكانت وفاته غرة المحرم .

207 – أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر العبدري التونسي

هذا الفاضل التونسي المولد والمنشأ والوفاة ، شاطبي الأصل . ترجم له ابن الخطيب في **الإكليل** بما نصه : غذي نعمة هامية ، وقريع رتبة سامية ، صرفت الى سلفه الوجوه ، ولم يبق من إفريقية إلا من يخافه ويرجوه ، وبلغ هو مدة ذلك الشرف ، الغاية من الترف ، ثم قلب له الدهر ظهر المجن ، واشتد به الخمار عند فراغ الدن . ولحق صاحبنا هذا بالمشرق بعد خطوب مثيرة ، وشدة كبيرة ، وامتزج بسكانه وقطانه ، ونال من اللذات به ما لم ينله في أوطانه ، واكتسب الشمائل العذاب ، وكان كابن الجهم بعث الى الرصافة ليرق فذاب . ثم حوم على بلده تحويم الطائر ، وألم بهذه البلاد إلمام الخيال الزائر ، فاغتنمت صفقة وده لحين وروده ، وخطبت موالاته على انقباضه وشروده ، فحصلت منه على درة تقتنى ، وحديقة طيبة الجنى .

أنشدني في أصحاب له بمصر قاموا ببرة :

لكل أناس مذهب وسجية	ومذهب أولاد النظام المكارم
إذا كنت فيهم ثاوياً كنت سيداً	وإن غبت عنهم لم تنلك المظالم
أولئك صحبي لا عدمت حياتهم	ولا عدموا السعد الذي هو دائم
أغني بذكراهم وطيب حديثهم	كما غردت فوق الغصون الحمائم

وقال أيضاً :

أحبتنا بمصر لو رأيتم   بكائي عند أطراف النهار
لكنتم تشفقون لفرط وجدي   وما ألقاه من بعد الديار

208 - أبو عبد الله محمد العتاب التونسي

شعره حسن الديباجة عذب المقاطيع ، منه قوله يخاطب ذا الوزارتين لسان الدين ابن الخطيب في بعض الأعياد :

بيمن أبي عبد الإله محمد   تيمّن هذا القطر وانسجم القَطر
أفاض علينا من جزيل عطائه   بحوراً تديم المد ليس لها جزر
وآنسنا لما عدمنا مغانياً   إذا ذكرت فالقلب حل به ذعر
هنيئاً بعيد الفطر يا خير ماجد   كريم به تسمو السيادة والفخر
ودمت مدى الأيام في ظل نعمة   تطيع لك الدنيا ويعنو لك الدهر

209 - أبو عبد الله محمد بن أحمد بن إبراهيم المرادي العشاب

قال المقري في **نفح الطيب** : إنه قرطبي الأصل ، تونسي المولد والمنشأ . ونقل ترجمته عن لسان الدين بن الخطيب في **الإكليل** ، ونصها : جواد لا يتعاطى طلقه ، وصبح فضل لا يماثل فلقه ، وكانت لأبيه رحمه الله تعالى من الدولة الحفصية منزلة لطيفة المحل ، ومفاوضة في العقد والحل ، ولم تزل تسمو به قدم النجابة ، من العمل الى الحجابة . ونشأ ابنه هذا مقضي الديون ، مفدي بالأنفس والعيون ، والدهر ذو ألوان ومارق حرب عوان ، والأيام كرات تتلقف ، وأحوال لا تتوقف ، فألوى لهم الدهر وأنحى وأغام جوهم بعقب ما صحا ، فشملهم الإعتقال ، وتعاورتهم النوب الثقال ، واستقرت بالمشرق ركابه ، وحطت به أقتابه ، فحج واعتمر ، واستوطن تلك المعاهد وعمر ، وعكف على كتاب الله تعالى فجود الحروف ، وقرأ المعروف ، وقيد وأسند ، وتكرر الى دور الحديث وتردد ، وقدم على هذا الوطن قدوم النسيم البليل ، على كبد

العليل . ولما استقر به قراره ، واشتمل على جفنه غراره ، بادرت الى مؤانسته ، وثابرت على مجالسته ، فاجتليت للسر شخصاً ، وطالعت ديوان الوفاء مستقصى ، وشعره ليس بحائد عن الإحسان ، وبديع النكات الحسان . ا هـ . ولم يذكر شيئاً من شعره ، وكفى بشهادة ابن الخطيب له فيه بالإحسان .

210 – أبو عبد الله محمد بن الحسن بن راجح الشريف

قال ابن الخطيب في **الإحاطة** مترجماً له ما محصله : محمد بن علي بن الحسن بن راجح الحسني باعترافه ، تونسي ، أبو عبد الله ، يعرف بابن راجح ، صاحب رواء وأبهة ، نظيف البزة ، فاره المركب ، مطفف مكيال الإطراء ، جموح في إيجاب الحقوق ، مترامٍ الى أقصى آماد التوغل ، سخي اللسان بالثناء ، مرسل لعنانه في كل المحافل ، متواضع ، متودد ، فكِه ، مطبوع ، حسن الخلق ، عذب الفكاهة ، مخصوص حيث حل من الملوك والأمراء بالأثرة ، وممن دونهم بالمداخلة والصحبة . ينظم الشعر ويحاضر بالأبيات ، ويقوم على تاريخ بلده ويثابر على لقاء أهل المعرفة والأخذ عن أولي الرواية .

قدم الأندلس عام 750هـ ، مفلتاً من الوقيعة بالسلطان أبي الحسن ، فمهد له سلطانها كنف برّه ، وآواه الى سعد رعيه ، وتأكدت بيني وبينه صحبة . كتبت إليه أول قدومه بما نصه : أحلو حلو أبيات ، ذكر أن شيخنا أبا محمد الحضرمي خاطبه بها :

أمن جانب الغربي نفحة بارح	سرت منه أرواح الجوى في الجوانح
قدحت بها زند الغرام وإنما	تجافيت في دين السلو لقائح
وما هي إلا نسمة حاجرية	رمى الشوق منها كل قلب بفادح
رجحنا لها من غير شك كأنها	شمائل أخلاق الشريف ابن راجح
فتى هاشم سبقاً الى كل غاية	وصبر مغار الفتل في كل فادح
أصيل العلى جم السيادة ذكره	طراز نضار في برود المدائح
وفرقان مجد يصدع الشك نوره	حبا الله منه كل صدر بشارح
وفارس ميدان البيان إذا انتضى	صحائفه أنست مضاء الصفائح
رقيق كما راقتك نغمة ساجع	وجزل كما راعتك صولة جارح

إذا ما اجتبى مستحضراً في بلاغة ... وخوض خضم القول منه بسابح
وقد شرعت في مجمع الحفل نحوه ... أسنة الحرب للعيون اللوامح
فما ضعضعت منه لصولة صادع ... ولا ذهبت منه بحكمة ناصح
تذكرت قساً قائماً في عكاظه ... وقد غص بالشم الأنوف الجحاجح
ليهنك شمس الدين ما حزت من علي ... خواتمه موصولة بالفواتح
رعى الله ركباً أطلع الصبح مسفراً ... لمرآك من فوق الربى والبطائح
ولله ما أهدته كوماء أوضعت ... برحلك في قفر عن الأنس نازح
أقول لقومي عندما حط كورها ... وساعدها السعدان وسط الأباطح
ذروها وأرض الله لا تعرضوا لها ... بمعرض سوء فهي ناقة صالح
إذا ما أردنا القول فيه فمن لنا ... بطوع القوافي وانبعاث القرائح
بقيتَ مني نفس وتحفة قادم ... ومورد ظمآن وكعبة مادح
ولا زلت تلقى البر والرحب حيثما ... أرحت السرى من كل غادٍ ورائح

فأجابني (أي صاحب الترجمة) بما نصه :

أمن مطلع الأنوار لمحة لامح ... تعاد لمفؤود عن الحي نازح
وهل بالمنى من مورد الوصل يرتوي ... غليل عليل للتواصل جانح
فيا فيض عين الدمع ما لك والحمى ... ورفد الحمى والشيح شيح الأشائح
مرابع آرامي ومورد ناقتي ... فسقياً لها سقياً لناقة صالح
سقى الله ذاك الحي ودقاً فإنه ... حمى لحات العين عن لمح لامح
وأبدى لنا حور الخيام تزف في ... حلى الحسن والحسنى وحلي الملامح
ترى حَلْيَ تلك الحُور للحور مهيع ... يدل وهل حسم لداء التبارح
ويا دوحة الريحان هل لي عودة ... لعفو عفار الأنس بين الأباطح
وهل أنت إلا حلة حاتمية ... تغص نواديها بغادٍ ورائح
أقام بها الفخر الخطيب منابراً ... لترتيل آيات الهدى والمدائح
وشفع بالإنجيل حمد مديحه ... وأوتر بالتوراة شفع المدائح
وفرّق بالفرقان كل فريقة ... نأت عن رشاد فيه محض النصائح
وهل هو إلا للبرية مرشد ... لكل هدى هادٍ لأرجح راجح
فبشرى لسان الدين ساد بك الورى ... وأورى الهدى للرشد أوضح واضح

متى قلت لم تترك مقالاً لقائل وإن لم تقل لم يُغن مدح لمادح
فمن حام بالحي الذي أنت ربه وعام ببحرٍ من عطاياك طافح
يحق له أن يُشفع الحمد بالثنا ويغدو لذاك البحر أسبح سابح
ويا فوز ملك دمت صدر صدوره وبشرى له قد راح أربح رابح
بآرائك اللآتي تدل على الهدى وتبدي لمن خصصت سبل المناجح
ملكت خصال السبق في كل غاية وملكت ما ملكت يا ابن الجحاجح
مطامع آمال لأشرف همة أقل مراميها أجل المطامح
فدونكها يا مهديَ المدح مدحة مواهب هاتيك البحار الطوافح
فخذ هاشمي الفخر يا خير مسبل على الخلق أغضاء ستور التسامح
ودم خاطب العليا بها خير خاطب وأتوق توّاق وأطمح طامح

ثم ذكر ابن الخطيب أن وفاته (أي صاحب الترجمة) يوم الخميس سنة 765. وقد ناهز السبعين، ودفناه بروضة باب البيرة، عفا الله تعالى عنا وعنه، انتهى.

وقال في **نفح الطيب** في شأنه أيضاً ما نصه: قال ابن خاتمة: حدثني الشريف الأديب أبو عبد الله ابن راجح التونسي مقدمه علينا بالمريه، قال سجن القاضي أبو عبد الله بن عبد السلام شاباً وسيماً لحق تعين عليه فأنشدت مداعباً:

أقاضي المسلمين حكمت حكماً غدا وجه الزمان به عبوسا
سجنت على الدراهم ذا جمال ولم تسجنه إذ غصب النفوسا

فأجابني بأن قال: إنما شكاه لي أرباب الدراهم دون أرباب النفوس.

ومن شعر صاحب الترجمة ما ذكره لسان الدين بن الخطيب قال: كتب إلي أبو عبد الله بن راجح التونسي بما يظهر من أبياته، وهي:

أما والذي لي في حلاك من المجد ومالك ملاكي لدي من الرفد
لقد أشعرتني النفس أنك معرض عن المسرف الآتي لفضلك يستجدي
فإن زلة مني بدت لك جهرة فصفحاً فما والله أذنب عن قصد

فراجعته بقولي:

أجلك عن عتب يغض من الود وأكرم وجه العذر منك عن الرد

ولكنني أهدي إليك نصيحتي — وإن كنت قد أهديتها ثم لم تجد
إذا مقول الإنسان جاوز حده — تحولت الأغراض منه الى الضد
فأصبح منه الجد هزلاً مذمماً — وأصبح منه الهزل في معرض الجد
فما اسطعت قبضاً للعنان فإنه — أحق السجايا بالعلاء وبالمجد

211 – أبو يحيى أبو بكر بن عقيبة القفصي

قال في **ذيل الديباج** في ترجمته ما نصه : عالمها (أي قفصة) ، كان علّامة بارعاً ، ورجلاً صالحاً . أخذ عن ابن عرفة وأبي مهدي الغبريني وغيرهما . وله أسئلة في فنون كتبها للإمام ابن مرزوق الحفيد ، فأجابه عنها بجزء سماه **اغتنام الفرصة في محادثة عالم قفصة** ، وقفت عليه قال القاضي أحمد القلشاني : كتب إلي الفقيه الصالح أبو يحيى بن عقيبة مخاطباً لي من قفصة وأنا بقسنطينة :

عليك أُخيي بالتقى ولزومه — ولا تكترث ما فيه زيد ولا عمرو
فزهرة ذي الدنيا سريع ذبولها — وفي نهي طه النبيء لنا ذكر
وكن منشداً ما قال بعض أولي النهى — فكم حكمة غراء قيدها الشعر
إذا المرء جاز الأربعين ولم يكن — له دون ما يأتي حياء ولا ستر
فدعه ولا تنفس عليه الذي أتى — وإن مدّ أسباب الحياة له العمر

ونقل عنه البسيلي في تفسيره قال : ولم أقف على تاريخ وفاته رحمه الله ا هـ .

212 – الإمام الحافظ الرحالة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن جابر التونسي

أصله من وادي آش من بلاد الأندلس . ولد سنة 673هـ بتونس ، وتوفي بها سنة 749هـ بالطاعون . وهو ابن الإمام المحدث جابر بن محمد بن قاسم بن أحمد القيسي . قال المقري في **نفح الطيب** : إنه (أي صاحب الترجمة) شيخ نبيل ، ممتع ، رحال ، متقن ، قال الخطيب ابن مرزوق : عاشرته كثيراً سفراً وحضراً ، وسمعت بقراءته وسمع بقراءتي . وقرأت عليه الكثير . فأول ما قرأت عليه بالقاهرة ، وقرأت عليه بمدينة فاس ،

وبظاهر قسنطينة ، وبمدينة بجاية ، وبظاهر المهدية ، وبمنزلي بتلمسان . وقرأت عليه أحاديث عوالي من تخريج الدمياطي ، وفيها الحديث المسلسل بالأولية ، وسلسلته عنه من غير رواية الدمياطي بشرطه ، ثم قرأت عليه أكثر كتاب الموطأ رواية يحيى . وأعجله السفر فأتممته عليه في غير القاهرة ثم قال بعد كلام : قال ابن مرزوق ما صورته ورويت عنه ، وأنشدني لأبي محمد ابن هارون :

لا تطمعن في نفع آلك إنه ضرر وقل النفع عند الآل
أقصر رويداً إن ما أعلقته بالآل من نفع كمثل الآل

ثم قال بعد هذا ما نصه : وسمع بمصر على جماعة ، وكتب بخطه كثيراً ، وله معرفة بالحديث والنحو واللغة والشعر ، وله نظم حسن . وأخذ القراءة عن ابن الزيات . وترجمة الحافظ ابن جابر رحمه الله واسعة مشهورة . وقد ذكرناه في غير هذا الكتاب بما جمعناه ا هـ .

وهو من أشياخ لسان الدين بن الخطيب كما أن ابن فرحون ترجم له في **الديباج المذهب** وذكر أنه كان رحمه الله عظيم الوقار والأبهة ، قويم السمت ، وأنه ولد ونشأ بتونس ، ثم جال بالبلاد المشرقية والمغربية . واستكثر من الرواية حتى أصبح راوية الوقت ، وإن من كتب عنهم من الشيوخ نحو من مائة وثمانين من أهل المشرق والمغرب . وإن له تآليف حديثية أغرب فيها بما دل على سعة خطى وانفساح رحلة . وله أسانيد كتب المالكية يرويها الى مؤلفيها . وله تآليف مفيدة. مما ينسب إليه من الشعر هذا التخميس ، ولا أدري هل الأصل لغيره والتخميس له فقط أو إنهما له . ونص ذلك :

تبسم نشر المسك في كل مشهد وأشرق بدر بالضيا المتوقد
أقول وقلبي بالصبابة مرتد سلام على أرضٍ حوّت جسم أحمد
فانعم بها أرضاً بها خير مرقد
بها يشتفي الإنسان من كل معضل فإن تفتخر أرض بشيء وتمتلي
فطيبة قد خصت بأشرف مرسل وأكرم بها أرضاً غدت خير منزل
نبي كفيل لليتامى ومقصدي
عليه صلاة الله ثم سلامه به عن جميع الكون زال ظلامه
وطيبة حقاً زاد فيها احترامه لقد شرفت إذ حل فيها مقامه

وسادت على كل القرى بمحمد

تجدّ لها العشاق أسرع خطوها وتعلن بالوجد العظيم وشجوها
وتكثر أمطار الدموع بصحوها سألتك يا حادي النياق لنحوها
ترفق بصب قلبه في توقد

محب من الوجد المعظم مائد لقد صاده في ساحة الحب صائد
ألا إنه صبٌّ لوجدٍ يكابد كئيب عراه الشوق والوجد زائد
بشوق إليكم لم يزل في تسهد

فيا قاطعاً في سيره كل فدفد يريد حمى طه الرسول الممجد
ويطوي الفيافي باشتياق مجدد فبالله إن عاينت قبر محمد
ولاحت لك الأنوار في كل مشهد

فبلغ سلاماً مثل بدر قد اكتمل الى حضرة الهادي المعظم في الأزل
وإن شئت أن تعطي الأماني عن عجل فقف خاضعاً في حضرة المصطفى تنل
مرادك يا هذا بإكباد حسد

تنعم بروضٍ بالمكارم مزهر ولُذْ برسول حائز كل مفخر
وقف بالحمى مستنشقاً نشر عنبر وسلسل دموع العين ما بين منبر
وقبر بقلب خاشع متجرد

تنعّم بروض مشرف أيها الفتى وإن فاتك الآن المنى فإلى متى
فخاطب رسولاً جاء بالدين مثبتاً وقل يا أجل المرسلين ومن أتى
بدين الهدى قمعاً لباغٍ ومعتد

لقد فاز كل الرسل منك بوصلهم وقدرك يا مختار فائق فضلهم
ومثلك يا مختار ليس كمثلهم أما أنت حقاً خاتم الرسل كلهم
وأولهم خلقاً وأعظم مرشد

ألا يا رسولاً رد بالقهر من عتوا سألتك فاشفع لي وقوم معي جنوا
فأنت ملاذ الخلق من فضلك اعتنوا وأنت شفيع المذنبين إذا أتوا
حيارى ونادوا في القيامة سيدي

ببابك عبد يرتجي العفو والقرى وغفران ذنب أذهب النوم والكرى
عساه بعطف منك يرقى الى الذرى فيا سيد السادات يا أشرف الورى

ومن قد أتى للناس هادٍ ومهتد

تعطف على صب تزايد كربه وضاق من الذنب المعظم قلبه
فيا سيداً بالفخر علّاه ربه عبيدك مسكين تعاظم ذنبه

ولم يدر ماذا يفعل الحق في غد

نوالك يا طه به القلب يغتني وقدرك يا خير الورى شامخ سني
وأني عبيد فيك بالمدح يعتني فخذ بيدي يا أكرم الخلق واكفني

مهمات دهر خائن جائر ردي

أيا سيداً حاز الفخار المعظما وساد الورى من أهل أرض ومن سما
عليك إله الخلق كثر أنعما وصلى إله الخلق ربي كلما

لنا سجعت ورق بصوت مغرد

وزادك تسليماً جزيلاً يماثل يلوح كبدر التم إذ هو شاعل
وينهل كالقطر الذي هو هامل كذا الآل والأصحاب ما قال قائل

سلامٌ على أرض حوت جسم أحمد

213 – أبو العباس أحمد الشماع

ذكر العلامة الشيخ أحمد بن أبي الضياف في تاريخه **إتحاف أهل الزمان** أنه (أي صاحب الترجمة) من تلاميذ الإمام ابن عرفة ، وأنه قريع الإمام البرزلي في مسألة العقوبة بالمال المشهورة ، وأنه كان قاضي المحلة وخطيب جامع القصبة .

كان رحمه الله من أهل العلم والفضل والتفوق فيهما مع كمال النبل ، ممن يباهي بهم السلطان أبو فارس عبد العزيز الحفصي ، ويقدره حق قدره ، ويدني مجلسه منه ، حتى أنه يستدعيه لحضور مجلسه في كثير من الأوقات للقراءة ، سيما حين يحضره من يرد عليه من فحول علماء الأندلس والمغرب الأقصى . ذكر ذلك ابنه (أي ابن صاحب الترجمة) في تاريخه المسمى بـ **الأدلة البينة النورانية عن مفاخر الدولة الحفصية** ، وذلك يدل على شفوف منزلته عند السلطان أبي فارس ، واعترافه له بالإحراز على قصبات السبق .

وأبو فارس رحمه الله ذكر ابن الشماع في تاريخه المذكور أنه كان ملازماً لقراءة العلم

في مجلسه حضراً وسفراً ، متأدباً ، شديد الأدب عند قراءته للحديث الشريف ، حتى أنه يجلس على الحصير حين قراءته . وصاحب التاريخ المذكور يقول في ترجمته للسلطان أبي فارس المذكور : إنه شاهد منه ذلك مراراً أيام حضوره مع والده (صاحب الترجمة) في مجلسه ، كما ذكر أن السلطان أبا فارس تصدر عنه في مجالسه العلمية هذه حين القراءة نكت تدل على جودة فهمه وقوة ذهنه . وكان هذا السلطان أيضاً مولعاً بتمييز الرجال .

ويظهر من كلام ابن صاحب الترجمة في التاريخ السابق ذكره أن والده المترجم له كان متولياً منصب الحسبة لقوله أثناء ترجمته للسلطان أبي فارس عبد العزيز أنه (أي أبا فارس) كان خالص المحبة للوالد (أي المترجم له) رحمهما الله . وكان له نعم العون على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لأن ذلك من وظيفة المحتسب ، إلا أن يكون مراده عونه على ما يقوم به من الوعظ في خطبه بجامع القصبة .

وكان صاحب الترجمة شاعراً . ومن شعره يمدح السلطان المذكور حين قطع الخطايا عن الرعية من قصيدة يقول فيها ، وهذا أولها :

أيا ذاك الإمام ومن إليه	تناهى العز والشرف الخطير
ومن عظمت وقائعه وجلّت	صنائعه فتم به السرور
على آساس مجدك في البرايا	وجدك والتقى نصب السرير
شددت الملك بالتقوى فتمت	خصال المجد وانتظم النفير
وشيدت المنابر إذ بناها	بنو حفص فعز لك النظير
عززت بنصرة عند الأعادي	ظفرت وفزت والله النصير
عقدت العزم في ترك الخطايا	فمثلك لا يجار ولا يجور
وأشهدت العباد بذاك طراً	فلم يضررك حاسد أو كفور
فوفِ بما عقدت ولا تماطل	فلا تدري متى يأتي السفير
ولا تتبع هوى من لا يبالي	بما يؤذيك فالمولى غيور
فقد وضح السبيل لمن أراد	وإن الحق مركبه يسير
وإن الحق لا يعتاض عنه	ولا معه مثيل أو نظير
حدود الله كافية لزجر	ومن قد قال : لا تكني كفور

قال : وعدد أبياتها ستة وسبعون بيتاً .

ومن شعره أيضاً في الحث على الجهاد مخاطباً السلطان أبا فارس :

تروح ليالي النصر فينا وتغتدي	لحرمة ذي الجاه العظيم الممجد
وأشرف خلق الله مجداً ومحتداً	وخير نبي ضمه الحشر والندي
وأشرف مبعوث وأكرم مرسل	وأفضل آتٍ بالهدي والمهند
فشدّ مطايا العزم واقصد محمداً	نبيّك يا عبد العزيز بن أحمد

ويقول فيها مخاطباً ولي العهد أبا عبد الله بن السلطان أبي فارس ، وكان من المثابرين على الجهاد . أنشأ أساطيل كثيرة أغار بها على أرض العدو ، وشحنها بالخيل والرجال ونكل بهم :

ويا عدّة التوفيق والفضل والهدى	وخير مليك في الزمان مؤيد
تلقب بالمنصور في البأس والندى	وفي الفضل كهف المسلمين محمد
شددت القوا والعزم من خير ملكه	أفديك من برّ على البر مسعد
أذكرك الله الذي عز شأنه	وسلطانه من سيد وابن سيد

الى أن يقول فيها :

وأسألك اللهم ذا الطول آية	من النصر تستعدي على كل معتد
تخص بها عبد العزيز ونجله	وأعوانهم في الحق من كل مهتد
بحرمة كهف العز والمصطفى الذي	رفعت بناه فوق كل مشيد
محمد المحمود في كل مشهد	وأصحابه من راكعين وسجّد
عليه سلام الله ما دامت الدنى	وما ذكر الرحمان في كل مسجد

وولي العهد هذا توفي في حياة أبيه سنة 833هـ في شهر رجب . كما أن صاحب الترجمة توفي أيضاً في نفس هذه السنة 833هـ في شوال .

214 – الشيخ عبد الجليل بن محمد بن عيسى عظوم

هو من عائلة عظوم الشهيرة بالفضل والعلم والتقلب في المراتب الشرعية بمدينة القيروان العاصمة الأولى للقطر الإفريقي ، من إمامة وقضاء وفتوى وغيرها . وهو

صاحب كتاب **تنبيه الأنام على علو مقام نبينا عليه الصلاة والسلام**، وهو كتاب جليل يدل على تبحره في الحديث الشريف. جمع فيه إلى ما تضمنه من الصلاة عليه ﷺ كثيراً من فضائله عليه الصلاة والسلام، ومناقبه الجليلة وشمائله السنية: التزم فيه السجع.

أما أبوه فصاحب كتاب **الدكانة** و**المباني اليقينية** وغيرهما.

توفي صاحب الترجمة في عام 960هـ، على ما نص عليه بعضهم، ونقل شيخنا العلامة سيدي محمد الصادق النيفر عمن وثق به أن وفاته بعد الألف. فالله أعلم بالحقيقة.

من شعره ما أفادنيه شيخنا العلامة النحرير سيدي محمد البشير النيفر نقلاً من خط حفيده الشيخ قاسم صاحب **البرنامج والأجوبة** أنه لما أصابت شوكة عينه وعجز أهل زمانه عن إخراجها قال هذين البيتين متوسلاً بالنبيء ﷺ:

أنت الملاذ وأنت الغوث للبشر ... من معجزاتك رد العين للنظر
فانظر إليّ لعلّي أن أرى فرجاً ... فإن وجهك يبري شدة الضرر

فرأى النبيء ﷺ في النوم، فأزالها بيده الشريفة.

وأن من شعره أيضاً قوله:

يا خير من يرتجي العاصي شفاعته ... كن شافعاً ومجيراً لابن عظوم
وكيف لا أرتجي خير الأنام ولي ... في مدحه خير منثور ومنظوم

وقوله:

ومن لي بأن الله يغفر ما جنت ... يداي وما أزلفته بلساني
وكيف تمسُّ النار جسمي وراحتي ... تخط مديح المصطفى وبناني

وقوله:

جنيت من المآثم كل نوع ... وأنت على اجتنائيها رقيب
إذا لم يسمح المولى بعفو ... رجائي في محمد لا يخيب

وقوله :

رأيت المصطفى في النوم حقاً بداري آخذاً بيدي اليمين
وقبلني وبشرني وآلى على نيل الشفاعة باليمين

وقوله أيضاً :

ولو أن ملكي للجنان وما حوى من الحور والولدان والخلد في غد
لما عدلوا عندي جناح بعوضة إذا لم أرَ وَجْهَ الحبيب محمد

ومن شعره رحمه الله أيضاً مبتهلاً الى الله عز وجل هذا المخمس ، ولا أدري هل جمعيه له أو أن الأصل له والتخميس لغيره ، قال :

مولاي عبدك بالعصيان منك أسا ومن نوالك يوماً قط ما أيسا
أضحى المقل ينادي بكرة ومسا يا رب ضقت ولكن أرتجيك عسى
شدائد الضيق عند اليأس تنفرج
لا زلت أدعوك بالإشراق والأصل وفي النوائب إن ضاقت لها حيلي
وأسأل العفو والغفران عن زللي وأطرق الباب حتى يا منى أملي
يكون للضيق من رحماك لي فرج
يا كاشف الضر عن أيوب حين دعا وفارج الهم عن يعقوب إذ خضعا
ألطف بعبدك يا من فضله اتسعا وأنت يا نفس صبراً لا تمت جزعا [1]
فاللطف تحت جميل الصبر مندرج
إياك يا نفس ترجو غيره أحداً أو تتخذ في البرايا دونه سندا
بل حَسِّن الظن في الباري تنال هدى ولذ بحبل الرجا لا تيأسي أبدا
فعندما يتناهى الضيق ينفرج

(1) نفس : النفس مؤنثة عاملها في هذا المصراع وما بعده معاملة المذكر ، ولعل ذلك بتأويل .

215 – أبو العباس أحمد بن محمد المعروف بالخلوف الملقب بشهاب الدين

قيرواني الأصل ، تونسي الدار والوفاة . كان عالماً فقيهاً صوفياً أديباً أريباً كاتباً شاعراً مفلقاً ، قطب دائرة الأدب في عصره . من مداحي الحضرة النبوية ، ومن شعراء البلاط الحفصي على عهد أبي عمرو عثمان بن أبي عبد الله الحفصي . له فيه القصائد العصماء ذات التشابيه البليغة والأساليب البديعة . كانت وفاته – رحمة الله عليه – سنة 891هـ . وطائفة من ديوانه عالية الطبقة مطبوعة .

ومما يحكى في ترجمة حياته أن السلطان أبا عمرو عثمان الحفصي السالف ذكره المتوفى سنة 893هـ كان وجه معه الصرة (أو المال المحبس على فقراء المدينة المنورة الذي كان يوجه كل سنة إليهم ويوزع عليهم) ومقدارها ألف دينار ذهباً ؛ وأصابه في طريقه الطويل تعطيل . وطالت مدة سفره ، فنفد جميع ما معه من المال حتى اضطر الى الأخذ من مال الصرة ، فلم يصل الى المدينة المنورة حتى أتى على جميعه . ولما قرب من طيبة وضع قصيدة بليغة في مدح المصطفى ﷺ تنوف عن مائة وخمسين بيتاً أتمها عند وصوله إليها ، وطالعها :

الله أكبر حسب العبد مولاه	إن الذي قد سمعناه شهدناه
هذا الضريح الذي فيه الحبيب ثوى	أكرم به من ضريح طاب مثواه

ولما دخل الحرم النبوي – على صاحبه الصلاة والسلام – أنشدها أمام الروضة المشرفة وبفراغه من إنشادها سمع منادياً ينادي يا ابن الخلوف التونسي ، فقصده فإذا هو أمير المدينة ، وفي يده ورقة ناوله إياها فإذا فيها مكتوب ما نصه : «وصلني من سلطان تونس ألف دينار ذهباً بواسطة أحمد بن الخلوف» . فابتدره ابن الخلوف بقوله : ما عندي دنانير فأجابه الأمير بقوله : أمسك الوصل فإني لم أطلب منك الدنانير لأن من وجهت إليه ﷺ وقف علي البارحة وقال لي : اكتب وصلاً وامض فيه واملي علي ما قرأته فيه ، وقال لي : لا تطلبه في الدنانير فإنها وصلتني ، فكيف أطلبها منك الآن . فلما وصل صاحب الترجمة الى تونس راجعاً استضافه السلطان أبو عمرو في منزله وقال له : إن النبيء ﷺ وقف علي ليلة كذا ، وهي الليلة التي دخل

فيها المدينة ، وكان مستبشراً مقبلاً علي ﷺ قائلاً لي : إن الهدية التي بعثت بها إلي مع ابن الحلوف وصلتني – جازاك الله خيراً – فتبسم صاحب الترجمة وحكى له قصته بتمامها ، فقال له السلطان : أتمنى أن أرسلك كل عام ويقع لك مثل ما وقع وأرى النبيء ﷺ مقبلاً علي داعياً لي بالمجازاة بالخير .

ومن شعر صاحب الترجمة مادحاً السلطان المذكور قصيدة عصماء شأنه في عامة قصائده الرنانة طالعها :

سجدت لكعبة قدك الأغصان ... وسمت لساحر طرفك الغزلان

ومن بديعياته في سلطانه المذكور هذه القصيدة الفريدة الذي ضمنها ما شاءه له ذوقه السليم وطبعه المستقيم . قال رحمه الله :

رأى البرق تعبيس اللدجى فتبسما ... وصافح أزهار الربى فتنسما
ورق لواء البرق لما تلاعبت ... سوابق خيل الريح في حلبة السما
وأوتر رامي الجو قوس سحابه ... وأرسل نحو الأرض بالقطر أسهما
وقد بلّ أردان الثرى دمع مزنه ... تناثر في أسلاكها فتنظما
وجرّ على هام الربى ذيل وبله ... فدبج أثواب الرياض وسهما
تلوى بأكناف السحاب فخلته ... حباباً تلوى أو حباباً تلوما
وخطَّ بطرس الجو سطراً مذهباً ... فنقطه قطر الغمام وأعجما
وشاب لجين الطل عسجد بارق ... فدنّر أزهار الربيع ودرهما
وشمر كف الروض أكمام نوره ... ووشّح أعطاف الغصون وعمما
ودار بساق الغصن خلخال جدول ... كما صور التجعيد للنهر معصما
الى أن أماط الفجر فضل لثامه ... ونوّر بالأسفار ما كان أظلما
ونبّه داعي الصبح إذ هبت الصبا ... لواحظ زهر كنَّ في الليل نوما
فحوضته بحراً من النور آخذاً ... بقصته أسقيه من شدة الظما
فأصبحت أعلوه أغر محجلاً ... كحيل أديم المتن ألمظ أرثما
أراعي انبشقاق الفجر من أبرق اللوى ... وأرعى طلوع الشمس من جانب الحمى
وأعطف أعناق المطي معرجاً ... وانشق أنفاس النسيم ميمما
ولم أنتدب إلا سهاماً مفوّقاً ... وعوجاً ومرّاناً وقلباً مصمما

وأبيض بسام القرند مجوهراً وأسمر مصقول السنان مقوّما
وأشهب يعبوباً طمرّاً مضمراً طموحاً مروعاً أعوجياً مطهما
جرى هازئاً بالبرق والريح مسرعاً فدارك ما عن نيل أدناه أحجما
تضمخ بالكافور والمسك وارتدى رداء ظلام بالصباح تسهما
أشم لجين المتن أعين سابحاً أقب غليظ الساق أجرد صلدما
قصير المطا والرسغ أتلع صافناً طويل الشوى والذيل أعظم شيظما
تخيل سرحاناً وساير كوكباً ولاحظ يعفوراً ولاعب أرقما
فأسرج لما أن توثب جارحاً وألجم لما أن تثوب ضيغما
فلم أر بدراً مسرجاً ذا محاسن سواه وبرقاً بالثريا ملجما
وأورق ضخم الكف أعوج بازلاً وشرق رحب الباع أفود أبهما
ذلولاً لعوباً شدقياً مكلثما أموناً صموتاً أرجلياً حثمثما
إذا خب عاينت الحرون وداحساً وإن سار أنساك الجديل وشدقما
قرّيتُ به فود الفلاة ولم أزل أروح وأغدو طائراً ومحوما

ومن شعره قوله في الجناب النبوي عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم :

يا مصطفى قبل العوالم كلّها والكون لم يبرز من التكوين
أيطيق مثنٍ حصر وصفك بعدما أثنى عليك الله في التبيين

216 – أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل خروف التونسي

ذكره صاحب كتاب **جذوة الإقتباس فيمن حلّ من الأعلام مدينة فاس** الشيخ ابن أبي العافية الشهير بابن القاضي ، وترجم له بقوله ملخصاً : إنه نزيل مدينة فاس ، وشيخ الجماعة بها . أخذ عنه أبو العباس المنجور وغيره . كان معقولياً بيانياً ، وله معرفة بالأصلين . رحل الى المشرق فأخذ به عن جماعة ، ككمال الدين الطويل ، وعبد العزيز بن فهد المكي ، وغيرهما . وامتحن بالأمر فخلصه منه أبو العباس المريني بواسطة أبي عبد الله اليسيتني . فكان إذا كتب الى المريني وراسله كتب إليه : معتق إيالتكم خروف . قال صاحب التاريخ المذكور : ومما ألفيته بخط أبي عبد الله خروف

المذكور من نظمه ما نصه : هذه الأبيات الثلاثة : أولها لا يعلم قائله ، والبيتان الأخيران لكاتبها نزيل محروسة فاس محمد بن أبي الفضل خروف التونسي :

أعدْ ذكر نعمان لنا إن ذكره هو المسك ما كررته يتضوع
وإن جئت نعماناً فسل عن أُهَيْلِهِ فقلبي عليهم بالنوى يتقطع
سقى الله جيراناً به صيب الحيا ولا زالت الأنوا به تتنوع

نقلتها من خطه توفي بمدينة فاس سنة ست وستين وتسعمائة ا هـ رحمه الله .

217 – أبو الطيب التونسي

كان عالماً أديباً يقرئ كتاب الوعظ بتونس في جامع الزيتونة وذلك قبل أن يدخلها الإسبان . ثم لمّا دخلوها ذهب إلى مدينة فاس فاستوطنها ، أفاد ذلك صاحب **جذوة الإقتباس** ، وذكر أن من شعره ما أجاب به الشيخ الفقيه مفتي فاس وخطيب جامع القرويين بها أبا الحسن علي بن موسى ابن هارون المضغري عن أبيات للشيخ المفتي المذكور خاطبه بها يسليه فيها عن استيلاء الأعداء الإسبان على وطنه تونس . ونص ما أجاب به :

أيها الشيخ الفقيه المعتبر سيد العصر وصدر المجلس
قد تفضلتم بنظم كالدرر حل من قلبي محل النفس
هاجني الشوق اقتفاء للأثر أنا عن إدراكه كالمفلس
كلما هب نسيم في السحر ورنت أطياره للغلس .

ونص الأبيات التي خاطبه بها المفتي المذكور نقتصر على بعضها وهو :

شائك الغيث إذا الغيث انهمر حضرة الأنس البديع المؤنس
لم يكن إلا كلمح للبصر أو بريق لاح لي من تونس
يا لها من فجعة جاء الخبر أنها شقيقة الأندلس
كم خدود في وجوهٍ كالقمر جادها دمعٌ جرى من نرجس
حالكات غيرت منها الصور ذل أسر بعد عز الأنفس
أصبحت أسرى بأيدي من كفر ملكت رقابهم بأفلس

218 – الشيخ أبو عبد الله محمد بدر الدين السوسي

وجدت بخط الوالد سيدي محمد النيفر – رحمه الله – أن صاحب الترجمة هو الذي اشتهر عقبه بلقب الهدة ، وأنه حفيد الشيخ أبي العباس أحمد السوسي شارح مقدمة ابن هشام ، وعصري الشيخ الرصاع شارح **حدود** الإمام ابن عرفة الفقهية . أما مترجمنا فهو تلميذ الشيخ الرصاع المذكور ، وإن هذه العائلة المشتهرة أولاً بلقب السوسي ، ثم بلقب الهدة ، مبدأ العلم فيهم من المائة الثامنة ، أما تقلدهم الخطط فمن المائة العاشرة كما وجدت بخط الوالد – رحمه الله – نقلاً من خط الشيخ أحمد بن عبد الله بن أحمد بن الشيخ أحمد الهدة السوسي ، وصف مترجمنا بالإمام العالم العلامة النحرير الفهامة المشهور بالولاية والصلاح ، وأنه كان مفتياً ببلده سوسة في القرن العاشر الهجري ، وخطيباً بجامعها الأعظم ، وأنه كان من مداح رسول الله ﷺ . خمّس بردة البوصيري ثلاث مرات ، قلت : يظهر من تلقيبه ببدر الدين كما يدل قوله من أثناء قصيدة سنذكرها :

إني امتحنت البرايا بمشرق ومــغــارب

أنه كان ارتحل الى المشرق ، ولعله لطلب العلم أو للحج فإن مثل هذا اللقب الذي لقب به وهو بدر الدين اعتيد في الأعصار الغابرة أن يلقب به من ارتحل الى المشرق فيلقب فيه بمثل ذلك ثم يشتهر به ، كتلقيب الشيخ عبد الرحمان بن خلدون بوَليّ الدين ، وتلقيب الشيخ علي بن سعيد صاحب كتاب **المغرب** بنور الدين . ولهذا رأيت في **نفح الطيب** للعلامة المقري كثيراً من المغاربة أندلسيين وغيرهم من لُقب بمثل هذه الألقاب إذا حلّ ببلاد المشرق فيقول المقري في شأنه : ولقب من ألقاب المشارقة بكذا لأن أمثال هذه الألقاب كان التلقيب بها في المغرب بجميع أنحائه نادراً في تلك العصور .

ولصاحب الترجمة شعر بديع جيد منه قوله يوصي ولده رحمه الله :

بني الزمان أجتنبهم أباعداً مع أقارب
إن الأقــارب قــالوا في اللسع مثل العقارب
أحرى الأباعد فابعد عن كلهم لا تقارب

إلا امرءاً ذا صلاح ... تصفو لديه المشارب
فجانب الناس طراً ... أعاجماً مع أعارب
يسلم لك الدين حتماً ... فلن ترى من محارب
إني امتحنت البرايا ... بمشرق ومغارب
فلم تر العين خلاً ... بسيفه عنك ضارب
إن تدعه عند خطب ... في الحين أدبر هارب
وإن يسالمك يوماً ... فني غداة يُحارب
أهل الوفا قد توفوا ... فربعهم ظل خارب
لم ألف في الألف إلفاً ... عند التنائي مقارب
هذي نصيحة صدق ... من والد ذي تجارب
فاقبل بني مقالاً ... تظفر بنيل المآرب

رجع الى ذكر شعراء علماء تونس

وإذ قد ذكرنا جملة من شعراء الجزيرتين صقلية ومالطة اللتين هما من توابع البلاد التونسية نحو الثلاثمائة سنة فلنرجع الى ذكر شعراء علماء القطر التونسي فيما بعد الألف من الهجرة الشريفة فإنه بعد أن انقطعت تلك الفتن ، وتصرمت ليالي هاتيك المحن ، وأخذت البلاد تراجع عمرانها ، وتجذب بما بسط فيها من الأمن سكانها ، بعد أن تفرق من أخطأته من أهلها الظبي في بلاد الله أيادي سبا ، والتمسوا علومهم الغزيرة ، ومدينتهم المستنيرة ، وعهدهم بها متدفقة الحياض ، مخصبة المروج مزهرة الرياض ، فألْفَوا نبتها قد صوّح وماءها براض ، حاشا حبات نبتت في جميل سيل خطوبها المفعم . أبقاها الله ليبعث منها ميت العلم ، وبها منّ على هذا القطر وأنعم .

كان منهم الشيخ قاسم عظوم ، بحر المنقول والمعقول من العلوم ، والشيخ الفقيه علي عبيد مفتيها . وإمام الجامع الأعظم فيها . والمفتيان الشيخ قشور والنفاتي في عصابة قاموا بإحياء مواته . والتهمم بنشر رفاته . الى أن أينع روضه . وتدفق للوارد حوضه . حتى وصل الى حد تدريجاً تكاملت فيه كتيبته . وتراجعت إليه بهذا القطر شبيبته . هذا بالنظر الى العلوم . أما الأدب فإن أول من اشتهر به فيما علمت بعد

الألف الأريب العالم ، والمجدد لتونس من علوم الأدب المعالم ، الفقيه المتفنن أبو علي إبراهيم ابن العالم الفقيه عبد اللطيف الغرياني فاعتنى بالآداب وخصوصاً علم البديع ، ونظم بديعيته المزرية بوشي الربيع ، أودع فيها أنواع البديع وألقابها ، فرغ منها ليلة الميلاد النبوي الكريم بتونس سنة 1030هـ ثلاثين وألف ، وسماها **ترصيع البديع في مدح الشفيع** عارض بها بديعية الشيخ الإمام أبي سعيد شعبان الموصلي ، نذكر منه جملة :

(حسن) البراعة في (استهلال) ذي كلم ... بمدح طه الرسول الطاهر الشيم
وبالنقا ومنى (التشبيب) يعذب لي ... والمنتقى وأثيلات (بذي) سلم
سلْ عن جماهم وزر سلَعاً وكاظمة ... ترى اصطباري على تركيب هجرهم
(تتميم) وصلي بهم جبر لما (نقصوا) ... و(قلب) قلبي لحزني جبر فعلهم
فالقلب واللب في سقم وفي قسم ... (لطي) نشرهم تطريف وعدهم
(فشوشوا) الود حتى صرت محترقاً ... (محرف) الحال في عدم وفي عدم
فالعين (تلحق) حين الصب في نظر ... وإن (تضارع) منع الجمع حار في
سألت (رفو) اصطباري إذ تحرف عن ... عهد الأحبا فعن صبري بوعدهم
أو (استعر) لي درعاً أستعين به ... لعدم صبري بمزج الدمع ضر دمي
(تلفتوا) وانثنوا عني مجاهرة ... يا سعد كن منشداً نظمي بوصفهم
دلوا فؤادي لعشقي في محاسنهم ... و(جنحوا) القول واستعدوا بدلهم
فلا تلمني (فإيجاب) الغرام بهم ... غصب ولمني إذا نرضى بسلبهم
فليس فيهم (دليل) يهتدون به ... لوصل حبلي (فأوجب) نني عدلهم
(يرشحون) مقالاتي بنصحهم ... وشيئاً فيا ليتهم (جادوا) (لصدقهم)
لأن وصلهم قطع وبذلهم ... منع وترتيب هجوي (لاختراعهم)
هجوتهم مظهراً (مدحي) لأنهم ... أبطال حرب بلا كلم لمتطم
ويبسطون أياديهم لمستلم ... (مواربين) بلا عذر بدا بهم
يُشار فيهم (بإيهام) لما فعلوا ... من الدنو فهم حصن بلا شمم
ولم (أنزه) عذولي في تعرضه ... عشقي مخافة تعذيبي ولم ألم
يريد (تسليم) عذلي العاذلون فقل ... هيهات هيهات أن نصغي لقولهم
(تفننوا) في صفات الظبي واجتنبوا ... ذم الغزال فحسن الجيد كالعلم
(ولفقوا) العذل لا بالعدل فاتهموا ... (وعنتوا) عذلهم (تصحيف) عذلهم

خذوا مثال الهوى (فالإكتفاء) به — يكفي بدمع الحزين الصب غيرهم
(واستعطفوا)وانصفوا واستلطفوا وقفوا — (وفوفوا) وصفوا وأرفوا بلا تُهم
عشقي دهاني فقلت اترك مودتهم — (هازلتني) و(تريد) (الجد) هِم بهم
وقلت ضرك هذا الحب (تهكم) بي — يا حب كن ساكناً في قلبه الوخم
(عاتبت نفسي) على العصيان في كبري — وهمت لولا رجائي ضرني وهمي
ندمي على ما مضى مني وضاق به — (صدري) فصحت من التفريط واندمي
وضرني صمت عذالي و(غايرني) — لو رددوا العذل أحيوني بذكرهم
قد كنت في ترح أبكي مقابلة — فصرت في فرح أحكي لهم خدمي
وعلّني البعد و(التذييل) مذ هجروا — والوصل يشفي سقام الحبِ خذ حكمي
(تهيأت) محني من طول فرقتهم — ولم يطل فرحي من عرض صدهم
عتبي ونحبي وكربي حل مصطبري — فيهم عليهم ومنهم (طي نشرهم)

وهي زهاء مائة وسبعين بيتاً وله نظم في ألقاب البديع سماه **حسن الترصيع في ألقاب البديع** مطلعه :

أسائل ألقاب البديع يسارع — لنظمي لها سرداً وأنت المطالع
فخذها كعقد الدر في جيد خودة — تزين اللآلي نورها فيه ساطع
وكن ناظراً فيها بعين الرضى وإن — بدا النقص كمل أنت إذ ذاك دافع
فإني الى الحق المبين لمذعن — ومن لم ير الإيضاح فهو المنازع
براعة الإستهلال بالقول جامع — وحسن بيان الطي والنشر ناجع
فجنس ولفّق قلبه بمطرف — وحرّف على التشويش يرفا المضارع
وركّب وجنح بالمصحف لاحقاً — وعكسك طرد الإزدواج تقاطع
ونقصك تمم موضحاً ومؤدياً — وإن تقطع الموصول فالحذف واسع

وهي نحو الأربعين بيتاً ، ونظمها في بحر الرجز ، وسماه **النظم الرفيع في ألقاب البديع** وأوله :

أبدأ بأسم الله في النظام — مصلياً على النبي التهامي

يقول في تعداد الألقاب :

إن تستهل وشح البراعة	والنقص تمم تلحق ارتفاعه
وقلبك المطرف المشوش	تحريفه بطي نشر ينعش
وارف بالإستعارة المضارعة	تحسن في التفاتك المتابعة
ونفيك الشيء بإيجاب لنا	مخترع التسليم تلفيق دنا
وسلبك الإيجاب والمواربه	يرشح الإعنات والمعاتبه

وهو نحو ستة وأربعين بيتاً .

أما خبره فإني لم أقف على جليته فلم يمكني الحديث على حياته . ولعله أحد الإربعة الذين وجههم يوسف داي للصلح مع الجزيريين بعد الحرب معهم سنة 1037هـ في شأن الحد الفاصل بين الإيالتين ، فتم على يدهم .

والأربعة هم : الشيخ إبراهيم الغرياني ، والشيخ رمضان أفندي ، والشيخ تاج العارفين البكري إمام الجامع الأعظم ، والشيخ البركة إبراهيم الجديدي .

ونشأت ناشئة من الأدباء في المائة الحادية عشرة لم نقف على ترجمتها إلا نزراً منهم سنذكره استفدنا ذلك مما وجدناه من التواريخ الشعرية المنقوشة بألواح الرخام على التُّرب التي بناها دايات الترك ومباني الخيرات ، وفيها أشعار بديعة الحوك ، عجيبة الصياغة والسبك . مثل تاريخ تربة أحمد داي سنة 1055هـ الذي مطلعه :

أمولاي يا من ملكه ليس ينفد	الى بابك الأعلى سعى الداي أحمد
وخلف داراً للفناء مصيرها	وسار الى دار البقا وهي أحمد

ومثل الأشعار المنقوشة بميضاة سوق الترك التي بناها صاحب الخيرات الرئيس أبو الحسن علي ثابت التونسي المنشأ ، الطرابلسي الأصل . ونقلت الآن الى البستان العمومي بباب الخضراء [1] وغير ذلك إلا أن أهلها جهلنا خبرهم إما لأنهم لم يُعتنَ بجمع أخبارهم لضعف العلم في تلك المدة أو أنهم أرخوا ولم أظفر بمن لحياتهم ذكر ، فاندرجوا مع جملة من غبر .

ثم جاءت الدولة المرادية وقد أيفع فن الأدب ، ونبغ من الشعراء شرذمة لا تقصر فيه عن بلوغ الأرب . وأشهر من عرفنا منهم أبو عبد الله محمد بن أبي دينار ، ومنهم الشريف السوسي ، مؤرخ صومعة جامع الزيتونة الأعظم لما بناها الأمير محمد باي

(1) لعله يقصد حديقه البلفدير .

المرادي زيادة وإصلاحاً ، ومنهم المفتي بالقيروان الشيخ أبو عبد الله محمد العروي ، فقد ذكر ابن أبي دينار أن له أشعاراً رائقة امتدح بها الأمراء المراديين . وما زال الأدب بالقطر التونسي سوقه تنفق ، وشمسه على آفاقه تشرق . الى أن جاءت الدولة الحسينية ، ذات الآثار السنية ، فبلغ أشده واسترجعت البلاد فخرها الأدبي الذي كان لها منذ مدة فنشأت شعراء ، ألقت إليها البلاغة مقاليدها بلا مراء ، من كل عالم ندس ، صح أن نفاخر به شعراء الأندلس . إذا نثر فنثاره الدر ، وإذا نظم فنظامه الأنجم الزهر . ودونك ما سنشنّف به سمعك ، من أشعار بعض هؤلاء الأعيان ، ونقصّ عليك من خبرهم ما تقرّ به العينان .

العصر السادس

من عصور الأدب العربي بتونس

عصر الدايات

(981هـ - 1041هـ)

وَلْنشِر بكلمة الى حالة القطر التونسي العلمية والأدبية والعمرانية في هذا الطور الأدبي الذي أشير إليه آنفاً وهو :

هذا العصر يبتدىء من استيلاء سنان باشا رحمه الله على الإيالة التونسية وإجلائه الإسبان المتحكمين فيها عن ربوعها ، وتخليصها من آخر ملوكها السلاطين الحفصيين المحتمين بالإسبان الذين قاسموهم ملك البلاد ، وهو محمد بن الحسن باقتلاعه من كرسي ملكها وإرساله الى الأستانة عاصمة الخلافة العثمانية فبقي بها هناك الى أن مات ، وضمها الى بقية الممالك التابعة للدولة العثمانية بعد قتال سنان باشا وجيشه الباسل لكل من جيوش الإسبان وأعراب البادية أنصار السلاطين الحفصيين بزعمهم ، المقتسمين للبلاد بالإقطاعات الصادرة لهم من ضعفاء الملوك الحفصيين ، المظهرين لطاعتهم احتفاظاً بما في أيديهم ، القائمين لأجل ذلك بنصرتهم لتبقى لهم إقطاعاتهم ، وبذلك تم نظم البلاد التونسية في سلك الممالك العثمانية وذلك على عهد السلطان سليم خان رحمه الله .

ولما تم النصر لسنان باشا في البلاد واستقر الأمن في تونس وسائر أطراف البلاد جعل لها نظاماً محكماً بعد أن أبقى بها أربعة آلاف من الجيش التركي لحفظ الأمن بها ، ورأس على كل مائة من الجيش بطلاً من الأبطال سمي الواحد منهم دايا . قال حسين خوجه في تاريخه الداي معناه باللغة التركية : بطل محمود الخصال . فكان عدد هؤلاء الدايات أربعين ، يترأس على هؤلاء الأربعين أحدهم يسمى بالباشا ، وذلك لتدبير مصالح البلاد . كما جعل أميراً على جباية الوطن يسمى بايا . ثم إن الأمر استقر بعدُ على أن ينتخب أولئك الأربعون دايا منهم لحكم البلاد . وانتهى هذا النظام بظهور الدولة المرادية سنة 1041هـ .

وفي أيام هؤلاء الدايات وخصوصاً أيام عثمان داي الذي ولي سنة 1007هـ ، وتوفي سنة 1019هـ ، تراجع للبلاد بعض عمرانها خصوصاً لما وفد على تونس مهاجرة الأندلس سنة 1016هـ ، فارّين بدينهم من الإسبان لما أجلوهم عنها حين تم استيلاؤهم عليها فأكرمهم التونسيون وخصوصاً أميرهم إذ ذاك عثمان داي المذكور وآخى بينهم وبين التونسيين ، وأقطعهم ما أرادوا من الأراضي ، فعمّروا البلاد وأسسوا فيها مدناً

وقرى كثيرة ، مثل بلدة سليمان ، وما حواليها من القرى ، وتستور ومجاز الباب وسوى هذه من قرى كثيرة ، ومهدوا الطرق إليها ونشطت بهم الحرف التي يحسنونها سيما صناعة الشاشية ، وهي مرتبطة بعدة صنائع أخرى ، فحصلت البلاد بذلك على ثروة عظيمة إذ كانت سوقها نافقة في بلاد كثيرة ، وكانت ضعيفة زمن الحفصيين فاستأنفت البلاد عمراناً وثروة واسعة بأولئك المهاجرين الأندلسيين . وهذه هجرتهم الثانية الى تونس والأولى إليها أيضاً كانت سنة 645هـ . كما كان عدل عثمان داي وعدل يوسف داي بعده ورفقهما بالرعية من أسباب ازدهار العمران بالبلاد التونسية . كما بدأت تنشط الحركة العلمية بها والأدبية على عهدهما بورود الشيخ أحمد أفندي من أرض الروم بعد أن كان يتقلص ظلّهما من تونس . وكان عالماً متفنناً ولوعاً يبث العلم في صدور الرجال .

وممن أخذ عنه بالحاضرة التونسية الشيخ محمد الغماد ، والشيخ أبو يحيى الرصاع ، والشيخ أحمد براو الحنفي ، وكان من الأدباء ، والشيخ أبو القاسم البجائي في جماعة يطول ذكرهم .

أما شعراء هذا العصر بالقطر التونسي ، فقد أشير آنفاً الى عدم العثور على أسماء كثير منهم ، وعدم العثور على تراجم من عرفت أسماؤهم منهم ، فلنذكر كلمة حول العصر الذي يليه وهو :

العصر السابع

عصر الدولة المرادية

1041هـ - 1114هـ

ذكر الشيخ أحمد بن أبي الضياف في **تاريخه** أن أولية هذه الدولة وشبابها ازدان واستفحل بالخلال الحميدة من الكرم والتواضع والأخلاق الجميلة ، والأعمال الجليلة من إعانة الضعفاء وردع المفسدين والضرب على أيدي المعتدين ومجالسة العلماء وإكرامهم ، والعمل بنصائحهم ، والمثابرة على جمع الكلمة ، والبعد عن أسباب الفرقة .

من أمراء هذه الدولة الذين لهم ولوع بنشر العلم في هذه الربوع محمد بن مراد باي . قال الشيخ أحمد بن أبي الضياف في **تاريخه** : إن هذا الباي المرادي كانت له مشاركة في العلم ، ومحبة في العدل ، وشدة على أهل الجور ، أمنت البلاد في أيامه أمناً لا عهد لها بمثله . وله آثار ناطقة بفخامته ، منها جامعه الذي ضاهى به بعض جوامع القسطنطينية ، ورتب به دروساً في علوم مختلفة . ممن درس به العلامة الشيخ محمد قويسم ، وهو المعروف بجامع سيدي محرز ؛ وبنى مدارس لطلبة العلم منها في بلد الكاف وباجة وقفصة وتوزر والقيروان ، وأوقف عليها أوقافاً نافعة . ثم أخذت الدولة المرادية بعد ذلك في الإدبار والهرم بما داخلها من الشحناء بين الأخوين ، والتحاسد وسفك الدماء بمجرد الأغراض ، وقسمة بلاد الله وأهلها كالسوائم ، والتخريب ، وهتك الحرم ، وقتل العلماء والتمثيل بهم ، وتدمير الأفاضل بتأمير الأراذل ، والقتل بمجرد الغضب ، والإستهزاء بأهل الفضل والدين ، والبعد عن قانون الشرع ورائحة الآداب ، والحكم بالمشيئة المطلقة ا هـ . واستفحل الهرم فيها بولاية رمضان بن مراد باي سنة 1108هـ .

أما أهل العلم والأدب بهذا العصر فجمّ غفير منهم الشيخ محمد الخضراوي المتوفى سنة 1144هـ ، وأبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني المعروف بابن أبي دينار الشاعر والمؤرخ .كان حياً سنة 1092هـ صاحب تاريخ **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس** ، والشيخ محمد بن إبراهيم فتاته المتوفى سنة 1115هـ ، والشيخ محمد قويسم صاحب كتاب **سمط اللآل** المتوفى سنة 1114هـ ، ومنهم الشيخ محمد زيتونة صاحب الحاشية على **تفسير أبي السعود** المتوفى سنة 1138هـ ؛ وغيرهم من الفحول وقد عددنا هؤلاء

من رجالات هذا العصر المرادي ، وإن كان بعضهم أدرك العصر الحسيني لكن أصل نشأته في العصر المرادي ، وفيه قضى معظم حياته فلذلك لا جرم نعده من رجاله - رحمة الله على جميعهم - .

219 – أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني الأصل التونسي القرار المعروف بابن أبي دينار

ولد بالقيروان ، وبها نشأ . حوى علماً وأدباً جماً . بذ أدباء عصره ، وأساطين بلغاء مصره ، حتى اشتهر شعره . استوطن بحاضرة تونس . وكان فقيهاً مشاركاً في العلوم ، أديباً شاعراً مجيداً . مدح الأمير مراد باي وأبناءه . اعتنى بالتاريخ فألف فيه تاريخه المسمى بـ**المونس في أخبار إفريقية وتونس** سنة 1092هـ ، أرخ فيه المراديين عن مشاهدة لأكثرهم إلى ذلك التاريخ ، وذكر فيه بعض علماء ذلك العصر وكتابه في آخره . لم أقف على وفاته .

ومن شعره يمدح الأمير علي باي بن مراد باي ويهنّيه بختان أخيه وابن عمه :

أتاك هناء بالختان مشاب	وطالع سعد مقبل وشباب
أقامه فوق النيرين فمن يرم	صعوداً لمرقاه رماه شهاب
فلا تخش كيداً من علو فإنه	وحقك من سهم القضاء مصاب
علوت على دست الرئاسة يا علي	فطأها كما تبغي فأنت مثاب
تباشرت الدنيا لبشرك في العلى	فكم كبد للحاسدين تذاب
وجددتَ بالدار الجديدة موسماً	سما عن بني حفص حضرت وغابوا
وبالقبة الحمراء عيشك يانع	يروقك منها سائغ وشراب [1]
منازل أفراح لديك تجددت	تشرف منها منزل وقباب
حللت بها كالبدر بين كواكب	ونورك بادٍ ما عليه ضباب

---

(1) القبة الحمراء تسمى بذلك من زمن المراديين ، بل فيما يظن من زمن الحفصيين لأنها من قصورهم جددها المراديّون .

مفاخر عن جد بجد وعن أب وراثة مجد ليس ذاك عجاب
وبابك مفتوح لقصد مكارم وقد سد عن نيل المكارم باب
تهنأ بهذا العز والدهر طائع لديك وهاتيك الحواسد خابوا
لك الله ما أبهى وأبهر سؤدداً لغيرك عندي لا تشد ركاب
وإن كنت في سن الشبيبة فالعِدى وحقك من صولات بأسك شابوا
وإنك بحر المكرمات لمن يَرِد وغيرك فيه بلقع وسراب
فمن يرتجي عفواً لديك يناله وللضد يا نجل الكرام عذاب
إذا ما بدا يوماً جلالك طالعاً تُمَد الى ذاك الجلال رقاب
ترفّق فإن الرفق منك سجية وإنك ما تدعو إليه يجاب
تروِّع أبطالاً وتؤمن خائفاً وإنك في ذي الحالتين مهاب
فبأسك آساد العرين مروع إذا مد ظفر من سطاك وناب [1]
فكم من أعادٍ من لِقاك تحيروا وضاقت عليهم بيدة ورحاب
وإن غرقوا في بحر بأسك فلتكن نثاة عليهم ما عليك عتاب
وإن جنت الأيام عنك فإنها أنابت وللجاني لديك متاب
فلا تبتئس من كيد ضد فإنما عليك من المولى الكريم حجاب
ولا زلت في دست الرئاسة والعلى ورأيك في كل الأمور صواب
وعمرك في عز وربعك عامر وربع أعاديك البغاة خراب
وذكرك ما بين المحافل ذائع يغني به ... ورباب [2]
فخذ من ثنائي ما استطعت فإنه بجهد مقلٍ قد جفاه صحاب
أقلد در المدح جيدك والثنا كما الدر في جيد الملاح سخاب
فأنت محل المدح إن جاء مادح وكل الذي فوق التراب تراب

ومنه مجيباً أبا عبد الله محمد الشرفي الصفاقسي عن أبيات مدحه بها :

لمثلك ما يقال ولا مثيل فهذا الفخر والعقل الجميل

---

(1) سطاك : سطوتك .
(2) بياض بالأصل - .

أيا قمراً تبدى في علاه لرائيه وليس له أفول
ومَن أحيا وحيّر في نظام علاه الفخر والفضل الجليل
بعقل تَحسد العقلاء فيه ونقل قد تحير له العقول
إذا الفصحا قد اشتهروا بقول فأنت القصد تعلم ما تقول
إليك تشد أكوار المطايا ونحو حماك قد نزل الرعيل
وفي شرف المعالي أنت شمس لناظرها تلوح ولا أفول
بنو الشرفي إن فرضوا لمجد فريضتهم لمجدك قد تعول
سقى قبر النبي أبقاك فينا من الرحمات وابلها هطول
وأسقى فرعه بالجود حتى يميل لنا وعنّا لا يميل
متى نحظى بوصل واجتماع وتهنا فلا كتاب ولا رسول
وإن أمتّت بنا حال وحالت علمنا الود منكم لا يزول
تعيش على الدوام بكل خير لك التوفيق والعمر الطويل
مودة من مضى في الناس ماتت وأحياها لنا الحبر النبيل

220 - الشيخ المفتي المالكي أبو عبد الله محمد بن إبراهيم فتاتة

نشأ هذا الإمام في طلب العلم فجدّ بفكر ثاقب ، وهمة اقتعدت ذروة الكواكب ، فانتظم عقدها بنحره ، وازدان صدر عصره بدُرّ فخره ، وبدا على أقرانه فضله ، ووضح في الجهابذة النقاد نُبُله ، فتصدر للإقراء بجامع الزيتونة فتدفقت معارفه للوراد . وعمت سحب علمه الحاضر والباد ، فجدد ربعاً منه دارساً ، وجلّى من تحقيقه عرائساً ، فنفقت سوقُه ، وتوشجت في الحضرة التونسية عروقه ، فتخرج عليه جهابذة أعلام ، نشرت على الأقطار الإفريقية خير الأعلام . ألحق الأصاغر بالأكابر ، وانتهت إليه رئاسة العلم .

لما أخر الأمير مراد باي الشيخ أبا الفضل المسراتي لأسباب سياسية أراد تولية صاحب الترجمة فتوى المالكية عوضه فامتنع من قبولها تباعداً عن الوقوع في الأخطار .

واستعفاه من ذلك مستعطفاً له بقصيدة غرّاء يقول فيها :

قسماً بنور جمال طلعتك التي تروي بشاشتها ظما المرتاد
لمهامه الأمر الذي أدعى له فيح تبيد رواحلي وجنادي

فأعفاه ثم اضطر لتوليته فألزمه بقبولها ، فقبلها مكرهاً . ورأى أهل عصره أنها تعينت عليه فقام بأعبائها صادعاً بالحق ، فأرضى الخالق والخلق ، وأحرز فيها قصبات السبق .

وامتحن في واقعة خلاف الأخوين الأميرين علي ومحمد إبني الأمير مراد باي لما دخل محمد باي الى تونس سنة 1089هـ ، وقبض على جماعة ، من أعيان أهلها منهم المفتيان صاحب الترجمة والشيخ يوسف درغوث المفتي الحنفي ، واعتقلهما وأراد قتلهما ، ففر صاحب الترجمة ليلاً ، وقتل الشيخ يوسف درغوث مظلوماً رحمه الله . ثم انفرجت الأزمة وبقي في خطته معظماً موقراً ملحوظاً بعين الكمال .

ومع ما له من التفوق في العلوم كان شاعراً مجيداً . توفي سنة 1115هـ .

ومن نثره مقرضاً سمط اللآل للشيخ قويسم ونصه :

« الحمد لله إن خيرَ كلام يفتَح به المقال . وأيمنَ ذكر يصدَّر به كلّ أمر ذي بال . حمداً لله الملك المتعال . وثناء ذي العزة والجلال . الذي أبدع الكائنات بقدرته الظاهرة . واخترع المصنوعات بحسب إرادته الباهرة .

والصلاة والسلام على خاتمة الرسالة العامة ، والنبؤة التامة ، محمد المبعوث بالآيات القاطعة ، المؤيد بالمعجزات الباهرة الساطعة ، وعلى آله الأخيار ، وأصحابه الأبرار ، ما تعاقب الليل والنهار .

وبعد فقد وقفت على ما تيسر من هذا المجموع الغريب ، والأنموذج المونق العجيب ، جمع صاحبنا وأخينا في الله الشيخ الفقيه الأفضل ، العلامة الزكي الأشمل ، أبي عبد الله محمد ، ويعرف بقويسم ، ضاعف الله لي وله الحسنات ، وغفر لي وله الخطايا والسيئات ، بمنّه فألفيته روضاً أينعت ثماره ، وعبقت بأريج المسك أزهاره ، فاشتمل على مباحث أثارت الأدلة الواضحة من أماكنها ، وقنصت الأوابد من غوامض مكامنها ، فأحسن به مجموعاً قد أشرقت معانيه ، وعلت على الفلك الأعلى مغانيه ، فلله درّ ناظم عقوده ، وراقم بروده ، فلقد ضمّنه من مُلَح

المسائل وقواطع الدلائل ما تقرّ به عيون أولي الألباب .

ومن نوادر الأخبار ، ورقائق الأشعار ، ما يستظرفه أولو الألباب . فلا زال في فلك الفضائل بدراً منيراً ، وفي سماء العلى هلالاً مستنيراً :

لله مجموع سما رتبة ... على السهى والأنجم الزهر
حوى حلى أهل النهى والتقى ... والأدب البارع والفخر
كأنه في حسنه روضة ... حفت بأنواع من الزهر
نظرت في آدابه نظرة ... أزاحت الأشجان عن صدري
وعاد لي أنسي الذي كان لي ... مصاحباً في سالف الدهر
هِمْتُ وما نلت له غاية ... وهل يُنال الكوكب الدري
ما وقعت عيني على مثله ... قط وهذا غاية الأمر

ومن شعر صاحب الترجمة قصيدة توجه فيها الى الله تعالى لما قتل ابنه الشيخ العلامة حموده فتاة مظلوماً – رحمه الله – على عهد رمضان باي المرادي قتله مغنيه المسمى مزهوداً المتغلّب على أمره . وقد استجاب الله دعاءه قبل مضي العام من قتل ولده المظلوم رحمهما الله . ونص طالع القصيدة المشار إليها :

إليك رسول الله وجهت آمالي ... وألقيت يا سؤلي ببابك أحمالي

ومنها قوله :

وخذ لِيَ حقي من ظلوم أصابني ... بسوء وعجِّلْ ذاك يا رب في الحال
ومزّقه يا ذا البطش كل ممزق ... على الفور يا جبّار من غير إمهال
وسلّط عليه منك كل بلية ... تعاجله في الأهل والنفس والمال
ودمّره تدميراً وصيّره مثلة ... ذليلاً حقيراً كاسر الذهن والبال
وكده وشتّت شمله وأمحُ ذكره ... وأحله في هون وبؤس وإذلال
بجاه أولي العزم الكرام وفضلهم ... وجملة أصحاب النبي مع الآل

221 – الشيخ أبو عبد الله محمد قويسم صاحب سمط اللآل

ولد بتونس ، وبها نشأ في طلب العلم ، فأخذ عن علمائها الجلة ، وقد ذكر منهم جملة في آخر **سمط اللآل** مترجماً عن فضلهم .

منهم أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل اللبني أخذ عنه أصول الفقه والمصطلح .

ومنهم أبو عبد الله محمد بن مصطفى الحنفي ، أخذ عنه النحو وعلم أصول الدين ، وذاكره في العلوم الرياضية ، وكان قد قرأها بمصر .

ومنهم أبو الحسن علي بن عبد الرحمان التاجوري النعاس ، أخذ عنه **مختصر خليل** .

ومنهم الشيخ عاشور بن قاسم أخذ عنه علمي الحديث والعروض والقوافي والأدب .

ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد برأو الربعي ، أخذ عنه كتاب **الشفا** للقاضي عياض .

وبرع صاحب الترجمة واشتهر في العلوم ، وانتشر صيته ، فتصدر للإقراء ، وتخرج به كثير من العلماء . وكان يسكن بالربض ، فكان يقري العلم بجامع أبي محمد الحفصي ، ولما بنى الأمير محمد باي المرادي جامعه أمام زاوية سيدي محرز جعل فيه رواية صحيح البخاري ، وأولى صاحب الترجمة مدرساً . وكان ربما حضر درسه فإذا فرغ رفع محمد باي نعل صاحب الترجمة تيمناً بخدمته ، وهو لا يعرف أنه الأمير حتى قال لبعض تلاميذه يوماً وقد رفع له الأمير محمد باي نعله ما ألطف هذا المملوك ظناً منه أنه من المماليك ، فقال له التلميذ : يا سيدي إنه هو الأمير محمد باي .

وكان ورعاً يأكل من عمل يده ، فكان يحترف ببيع الرياحين والزهور بدكان بباب السويقة في غير أوقات بث العلم .

ألف **سمط اللآل في تراجم ما اشتمل عليه كتاب الشفا من الرجال** . ليس له في بابه نظير في أحد عشر جزءاً ضخاماً . فرغ من تأليفه سنة 1100هـ ، وقد تركه في مسودته فألقته يد المقادير الى من كان يخفيه ، ويضن به على أهله كتماً للعلم ، وحباً

للإستيثار ، وكاد أن يتلاشى أسوة غيره من محررات التونسيين ، فقيض الله من نشر رفاته من ذوي الغيرة العلمية ، فتلطف في استخراجه من يد مانعه ، واستنسخه ورده إليه ، فظهر للعلماء ديواناً ممتعاً ، وتأليفاً بالفوائد مترعاً ، فتسابق علماء عصره في مدحه وتقريضه ، وأشادوا بذكره فطلعت شمسه بعد أن كادت أن تكور بيد الإضمحلال ، ولا يزال الى الآن قليل المداولة لقلة نُسَخه بسبب تقاصر الهمم في استنساخه . وقد اختصره تلميذ تلامذته أبو العباس أحمد بن أبي راوي في جزءين . وبالجملة فكتاب سمط اللآل من غرر تآليف التونسيين التي فاقوا بها .

وكان أديباً شاعراً مجيداً . توفي سنة 1114هـ ، ودفن بداره بالحفير من ربض باب السويقة من تونس . وقبره مزار معروف العين .

ومن شعره ينبه على بعض فضائل كتاب **الشفا** لعياض ، وطرزها باسمه ، ويذكر تأليفه **سمط اللآل** وترتيبه ومسلكه فيه :

مآثر خير الخلق عند ذوي النقل ... مثبتة الأركان محكمة الأصل
حكاها أناس طبّق الأرض فضلُهم ... ولم يدركوا شأو الإمام أبي الفضل
مداركه تنبي بإكماله وقد ... غدا بالشفا يزهو عن الشكل والمثل
مشارق أنوار الحديث تمهدت ... قواعده منها فيا لك من فحل
درايتها فيها أمان من الردى ... وتحقيقها حرز منيع من الجهل
قضى قاسم الأرزاق في العلم والحجى ... له بوفور العلم والدين والعقل
وإن شئت تحقيقاً لما قد ذكرته ... فلا تسألن عن فضله غيرَ ذي فضل
يُنبيك عن فحواه علماً وقد غدا ... كمثل غمام في البطائح منهل
سما لمراقي النجم مطلبه وفي ... طلاب المعالي كان مقصده الأصلي
معانٍ نفت ما فيه هضم وريبة ... لجانب رب الخلق أو جانب الرسل
عليهم صلاة ليس يدرك حصرها ... بقطر ولا وبل غزير ولا رمل
وناظمها في صدر عشر بدا اسمه ... وأحرفه حمر مبرقعة الشكل
يقول وحسبي خيرة الله في الذي ... أروم وإن عز المرام على مثلي
تراجم أهل العلم والفضل في الشفا ... ومن هو فيه من ذوي العقد والحل
ومن هو في العليا بوصف نبوة ... ومن هو في السفلى كمثل أبي جهل
على حسب الترتيب في أحرف الهجا ... بمصطلح يعزى الى الشرق في النقل

وما لم أجد فيه مقالاً لقائل فلي أسوة من تركه بالألى قبلي
ولو رام هذا القصد غيري تركته لوصني بالتقصير عن رتب الفضل
ولكنه يرعى الهشيم من الكلأْ إذا صوح النبت المنعم في الأصل
ومن ينتظم في سلك أهل فضيلة وإن كان من أهل التطفل يستعلي
على أن ذا التأليف ينصف نفسه وأقواله في الجد مرمى وفي الهزل
وكل كلام فيه لين وشدة سوى قول معصوم فيا لك من قول
وحسبي ربي في أموري كلها وأسأله الإمداد في الصعب والسهل

ومن شعره متوسلاً الى الله تعالى بكتاب الشفاء :

بذاتك يا ذا العلى والجلال ومن قد حُبي بسنيّ الخلال
محمد الهاشمي الذي به لا يخيب لديك السؤال
وآي الشفا وكتاب الشفا وما عدّ فيه له من خصال
تكرّمْ علينا ببرء السقام ونيل الذي نرتجي في المآل
وكن حصننا من جميع الهموم أيا خير كاف ويا خير وال

وله رحمه الله مؤرخاً وفاة شيخه أبي عبد الله محمد براواً ومطرزاً اسمه به :

وبعد فهاك نظماً في ضريح حوى علماً وضمّ رفيع قدر
مآثر مَن به زادت وضوحاً وسارت في البلاد مسير بدر
حكت لما استنارت ضوء شمس برابعة فعمت كل قطر
منوهة بوصف حلاه حتى أزالت عن سماه كل خدر
محمد اسمه يدعى براواً براه الله من نظر وفكر
دعا جل العلوم فطاوعته مذللة ولبته بقسر
قضى رب العباد له بفهم لفن النحو يحكي فهم عمرو (1)
وفي فن الحديث له أياد فحدث عن إمام مثل بحر
يريك من النكات أجل معنى بلفظ مونق كالسحر يجري

(1) عمرو : إسم سيبويه .

سما في عصره ورعاً وعلماً فأصبح في البلاد فريد عصر
محاسن علمه، ذا النظم منها ونجل الصقر قد يدعى بصقر
وناظمها المبين من حروف مبرقعة بصدر العشر حمر
يقول سألت ربي بابتهال لشيخي أن ينعمه بقبر
ويجعل تربه مسكاً ذكياً ينم عليه مثل عبير عطر
ويجمعنا وإياه بروض أريض بالجنان بغير ذعر
وتاريخ الوفاة سهغ بسين من الإهمال نالت فضل وفر[1]
وبالأعجام حرف الغين يحيى لك ورفيع الجالي يثري[2]
وصلى الله ربي كل حين على المختار من سود وحمر
صلاة لا يرام لها انقطاع ولا عد برمل أو بقطر
وآل المصطفى والصحب طراً ومن والاه في عسر ويسر

222 – الشيخ أبو عبد الله محمد زيتونة

ولد بالمنستير سنة 1081هـ ، ثم انتقل الى تونس لطلب العلم ، فأخذه عن علماء عصره ، وتبحر في المعارف ، واستوى على صهوة التحصيل في علمي المعقول والمنقول ، وتصدّر لبث العلم ، فارتوى من معينه الجم الغفير ، وانتهت إليه رئاسة العلم بتونس ، بل المغرب قاطبة . لم ير في عصره أحفظ منه ولا أقوى عارضة ، دخل المشرق فحج ، وجاور ، وأقرأ العلوم به . وابتدأ حاشيته على **تفسير أبي السعود** هنالك بعد أن كان شرح الديباجة بتونس . ثم رجع الى مسقط رأسه ومنبت غراسه . ولي مشيخة المدرسة المرادية التي بسوق القماش بعد المناظرة مع علماء عصره المزاحمين له . وقد شرط محبسها أن لا يتولى مشيختها إلّا أعلم أهل العصر . فعقد له مع منازعيه مجلس علمي ، حضره جلة علماء جامع الزيتونة ، فكان السبق فيها لصاحب الترجمة ، فوليها باستحقاق .

(1) سهغ : 1065 .
(2) كذا بالأصل .

وله تآليف كثيرة منها **حاشية على الوسطى** في جزءين ، **وشرح على السلم** ، **وشرح على البيقونية** ، **وشرح على الألفية** لم يكمل ، وغير ذلك .

ومع هذا العلم الغزير ، والفضل الباهر الذي حصل عليه كان مكفوف البصر . وسبب كفّ بصره أنه خرج هارباً من تونس فركب مركباً موسوقاً ملحاً ، وكان في شدة الشتاء فأثر ذلك في بصره فكف . أتم **الحاشية العظيمة على تفسير أبي السعود** العمادي في أجزاء عدتها عشرون كان يمليها من حفظه على تلاميذه فيكتبون عنه كل يوم ما يعجزهم نسخاً فضلاً عن التأليف .

وكان شاعراً أديباً ، توفي سنة 1138هـ ، ودفن بمقبرة الجلاز ، وقبره معروف بها .

ومن شعره يمدح المرحوم الحاج مصطفى خوجه قارة باطاق الذي استنسخ نسخة من أصل **سمط اللآل** للشيخ محمد قويسم ، وأخرجه من يد الذي كان باخلاً به وهو المسودة بخط المؤلف فكتبها منه ورده لصاحبه ويتضمن الثناء على سمط اللآل :

أحْيَيتَ آثاراً غدَون دوارساً ... وحميت أطلالاً بقيْن طوامسا
وهزمت أجناد الهوى لحواسد ... لجمال بهجته خضعن نواكسا
ورفعت أستاراً فهلل حسنه ... في الخافقين مكبراً ومجالسا
أبرزته للأفق بدراً نيّراً ... فرمتْ لواحظُه القلوب نواعسا
ونشرت في غرر الطروس محاسناً ... برزت لأرباب العقول عرائسا
وسرَين في جنح الظلام أهلة ... فتوقدت في الداجيات فوانسا
قد أصبحت في الأفق فجراً طالعاً ... تهدي الجهابذ رُحّلاً وجوالسا
تشفي القلوب بسرها وشفائها ... تجلو العمى تغني الفقير البائسا
بتراجم لرجال فضل جاهدوا ... في الله حق جهاده المتنافسا
بذلوا نفوسهم ليوثاً في الوغى ... دون الورى للنائبات عوابسا
أبرزته فبلغت أقصى مقصد ... في الدين بين العالمين منافسا
وزهدت في الفاني لتأخذ باقياً ... فغدوت فيه رابحاً لا واكسا
وكشفت ساق الجد فيما تبتغي ... فجنيت من روض الجنان غوارسا
ورفعت أعلام الحديث بمنبر ... فكسيت أردية القبول ملابسا

وأقمت إفضالاً بأصدق عزمة ... لترى فراديس النعيم مجالسا
فاهنأ فأنت مع الذين تحبهم ... من خير خلق الله ثَمتَ جالسا
لا زلت ملحوظاً بعين عناية ... ما دام ذكر الله قلبك حارسا
يا مصطفى لمحبة الهادي ومن ... نسخ الكتاب لمن يروم موانسا
نعمتنا بجماله ورحمتنا ... بمقاله وأزلت منا هاجسا
هذا هو السعي الجميل وغيره ... يوم الحساب يعود ربعاً دارسا
والحمد لله الذي من فضله ... أبهرت علماً كان ليلاً دامسا

ومن شعره يمدح الإمام البخاري وكتابه **الجامع الصحيح** :

هذا الكتاب بشرع أحمد ينطق ... ولشمل أرباب الضلال يمزق
ولِقَدِّه بين الغصون تمايل ... ولبدره بين النجوم تألقَ
ولثغره البسام نظم لآلىء الآ ... ثار يهديها لمن يتشوق
وبخده ورد الصحاح ونحره الفتـ ... ـان أزهار الحسان تنمق
وبلحظه شهب الشريعة أرسلت ... للواهيات بجنح دجن تفلق
ولساعديه على الأعادي سطوة ... فصلّوا بها نار السعير فأحرقوا
قد أصبح المقطوع مقصوعاً وبر ... ق ضعيف كلّ خلبٌ متفرِّق (1)
وضعوا على صفح التراب خدودهم ... وتيقنوا بجلاله وتحققوا
وبنانهم كتبت على وجناته ... ما أسندت حفاظه أو علقوا
فروى لنا عنه مسلسل شعره ... عن جفنه عن باسم يتفتق
عن نظم در عن جنابذ لؤلؤ ... عن عارض بسحيق مسك يعبق (2)
شرح الغريب فجيده مع ساعد ... لمحبه متمنطق ومعلق
برزت بدور التمّ من مشهور ما ... يحوي فروض المستفيض مرونق
فعلا على شرف الظهور وضده ... بين الأئمة نازل مترحلق
ومعنعنات جماله نقلت لنا ... أن الكريم لمن رواه موفق

(1) مقصوعاً : محقراً – مصححه .
(2) جنابذ : زهرات تشبه زهر الرمان – .

وعيون أخبار النبي محمد ... من روضه بين الورى تتدفق
سمحت به نفس البخاري الذي ... خضعت له شم الأنوف وأطرقوا
ما مسلم في جنب ما صدعت به ... أفجاره ما البيهقي الأصدق
ما الترمذي وما أبو داود في ... منوال ما أبدى وما هو ينسق
ما لابن ماجة حين يبدو حسنه ... يغضي الجفون ولا جموع تحدق
بكتابة في مجلس لمحدث ... ما للنسائي برقه لا يخفق
مع أنهم فازوا بكل فضيلة ... في نقل أخبار الرسول ودققوا
ما ذاك إلّا أن شمس جماله ... بهرت عقول العارفين فأحدقوا
وغدت لدار المصطفى تسعى على ... رأس بأذيال الرضى تتعلق
وحوَت شريعة أحمد في أحمد التر ... تيب والإخلاص منه يصدق
سبحان من جعل البخاري جامعاً ... لنعوت أرباب الكمال يحقق
والحمد لله الذي نعماؤه ... جلّت عن الإحصاء فيما يخلق

ومن شعر صاحب الترجمة ما كتب على أول ورقة من تفسير سورة الجن من حاشيته على تفسير **أبي السعود** العمادي المسماة بمطالع السعود :

أطلت الكلام بتحقيق ذا ... لأن مقاماته تصعب
فخذْه بجد ولا تَلْحَني ... بتطويل ما قلم يكتب
لأني محب لخير الورى ... وقلبي لأمداحه يطلب
ونفسي بنشر لأوصافه ... وطيب الثناء له تطرب
فأرجوه كهفاً لتفريج ما ... يعنّ من الخطب أو يكرب
لأن الزمان وأبناءه ... أناخوا بي الهم واستعذبوا
وسيف القطيعة قد جردوا ... من الغمد فوراً لكي يضربوا
فوا أسفاً عن زمان مضى ... ومن ذا الزمان لمن أهرب
وما أشتكي من صروف الزما ... ن ولكن من ابنه العقرب
فذاك زمان لعبنا به ... وهذا زمان بنا يلعب
فكم محنة عمّنا خطبها ... وقد عز من همها المهرب
وكم منحة في دهور مضت ... أتتنا وقد حصل المأرب

ومن شعره أيضاً هذه القصيدة التي ختم بها الجزء الثالث من حاشيته المذكورة ونصّها :

إلاهي لك الحمد الذي أنت أهله ... على نعم ما كنت قط لها أهلا
متى زدت تقصيراً تزدني تفضلاً ... كأني بالتقصير أستوجب الفضلا
فنعمت لي قلباً ونوّرت باطناً ... وروحتني مالاً وزكيتني أصلا
وكرمتني فرعاً وأبرزت نشأتي ... بأحسن تقويم وجودتني فعلا
وصيرتني عبداً بلقياك مؤمناً ... وعلمتني ما لم يكن حاصلاً قبلا
وأظهرتني أعجوبة الصنع قالباً ... به تفرغ الأسرار تهدي به العقلا
وحولتني من كل نوع نعائماً ... عظاماً فلا أحصي لها البعض والكلا
وأعليتني فوق السماكين منزلاً ... وأعددت لي يا رب في جنة نزلا
وعرفتني مجداً لأكرم مرسل ... علا فخره الأملاك والكمّل الرسلا
وألهمتنا تصديق ما جاءنا به ... فقد فزت إذ صدقته القول والفعلا
وألقيت لي في كل قلب محبة ... وقد كنت بين الناس مبتذلاً كَلا
وأدخلتني روض المعالي تفضلاً ... فقد كان قلبي قبل يبتدر الجهلا
وأنزلتني من جنة العلم منزلاً ... به صار معروف الحقيقة من حلا
فحصلت عرفاناً نفى كل ريبة ... وصرت به قد أعرف العقد والحلا
وأعطيتني عقلاً شريفاً منوراً ... عرفت به من كل شاردة نقلا
وإني لأرجو منك فوزاً مؤملاً ... بخاتمة الإيمان تحمل لي الرحلا
وتمحو بها عني مآثم جمة ... وتهدي بها قلباً عن الشكر قد كلا
فمن أين لي حمد يوفي بحقها ... وأنت الذي كونت بعضي والكلا
وخففت بالغفران ظهراً مثقلاً ... بأحمال وزر لا يطيق لها حملا
فسبحانك اللهم ذو الجود دائماً ... إليك مددنا الكف لا تبقها محلا

ومن شعر ونثر صاحب الترجمة ما قرض به تقريض الشيخ محمد فتاتة المذكور في ترجمته وهو المفتي المالكي في عصره الذي قرض به كتاب **سمط اللآل** للشيخ محمد قويسم ، قال صاحب الترجمة مقرضاً لذلك التقريض :

تدبر ما أفادكه الجنان ... وحبره بذا الطرس البنان

وسيره بدجن الأفق بدراً | إليه صبا على الرغم البيان
فأصبح طالعاً فجراً منيراً | بروضة مجده الحور الحسان
لذهن من إمام ساد علماً | به فينا قد انتشر الأمان
وأبرز حسن تحرير ونقل | بدرسٍ كان يشهده العيان
فكم من مشكلات حل فينا | ومعضلة نأى عنها اللسان
ونازلة أتاح لها جواباً | بتحقيق الدليل لها يُدان
ومن يأتيه يشكو ضرّ دهر | وهول شدائد فوراً يعان
فيا لله أيام تقضّت | بحضرته وقد سعد الزمان
وقد صارت كأحلام بنوم | وأضحت والفؤاد لها رهان
شربنا من فصاحته كؤوساً | من الآداب هيأها الدنان
وعرفنا حقيقة كل علم | إذا يثنى لساحته العنان
وخلّف فانياً وغدا لدار | بها يبقى فسكنه الجنان

من رقائق زينت سطوراً ، ودقائق جملت سجعاً وشطوراً ، وعرائس أبكار تاهت جمالاً ، وغوارس رياض أفكار سقتك من رحيق كؤوس البلاغة زلالاً عتقتها يد إمام برع في عصره بلاغة وفصاحة ، وبلغ من التحرير الغاية رقة وسماحة ، فاعتلى من التحقيق أعلى مقام ، واغتذى من ثدي التدقيق فطابق بين مقتضى الحال والمقام ، واحتوى من كل فن على مهمه وجمع شتاته ، شيخنا وسيدنا ومولانا المرحوم بكرم الله أبي عبد الله محمد بن إبراهيم فتانة جمل الله فسيح رياض ضريحه بملابس الرضوان ، وشمل كريم سعادته بمسيره على أحسن حال الى جنة رضوان ، وجمع له بين شهود جماله وجلاله ، وأسكنه أعلى الفراديس مع مصطفاه وآله ، ﷺ وعليهم أجمعين ما تبسم محبوب وتهلل وجهه لمحبه ، وفاز عبد من الله بمزيد رضاه وقربه ا هـ .

ومن شعره ونثره أيضاً ما قرض به كذلك تقريض الشيخ عبد الكبير ابن الشيخ يوسف درغوث لكتاب **سمط اللآل** وهو إذ ذاك المفتي الحنفي قال : هذه بنات أفكار ، وعرائس أبكار ، نفائس سجع برزت من وراء أستار جالسة على منابر العز متنافسة ، سائرة بين أغصان الرياض متمائسة ، مرتضعة من ثدي الأدب رحيق الزلال ، منبهة على عظيم مقدار **سمط اللآل** ، سالكة منه مسلك الإجازة ، فيما زبر التأليف وأجازه :

نمقتها يد المحاسن فضلاً — من همام موضح المشكلات
صادع بالدليل في كل خطب — ناصر الحق قدوة الأثبات
شيخ الإسلام جامع لعلوم — واسع الصدر فاتح المعضلات
كاشف الكرب راحم لفقير — رافع القدر دافع المذهلات
من أتاه يروم فك عقال — من مهمّ لبّاه بالإثبات
شكر الله سعيه وحباه — حين يلقاه روضة الجنات

علم أرجاء البسيطة التونسية ، ومفتي الديار الإفريقية ، المنفرد بين أهل عصره في العلوم العقلية والفقهية بالرئاسة المالكية والحنفية سيدنا الهمام ومولانا العلامة الإمام المتصدي لأجوبة النوازل تصدي الأسد ، أبي عبد الله المشتهر بالكبير في طاعة مولانا الكبير ، ونصرة شرع السراج المنير ، ابن العلم الأكبر ورئيس الفتيا الأشهر ، ومحرر الدلائل ، ومقرىء المسائل وموضح المشكلات لكل سائل ، المرحوم بكرم الله سيدي يوسف درغوث . رحم الله السلف ، وأدام ذكرهم بالخلف . ا هـ .

223 – الشيخ أبو عبد الله محمد الخضراوي

هذا الأستاذ من مشاهير ناشئة العلم بتونس ، المشيدين صرحه . أخذ عن علمائها فجلّى ، وحاز القِدْح المعلَّى . حتى أصبح فريد دهره ، ووحيد عصره ، علامة الأعلام ، والأوحد الإمام . أحيا ما دثر من المعارف بهذا القطر فازدهرت رياضه ، وتدفقت للوراد حياضه . أخذ عنه الجم الغفير ، وتخرج به في العلوم المأمور والأمير . انتهت إليه الرئاسة العلمية في زمانه ، فلا تحل المعضلات إلا ببنان بيانه . وجه عنايته للأمير علي باشا فحصل على الحظ الأوفر من العلوم العربية حتى جمع من تقاريره على **التسهيل** للإمام ابن مالك شرحاً جليل الفوائد ، سني العوائد . قرضه صاحب الترجمة وأثنى عليه ثناء عاطراً ، ولا زال صاحب الترجمة غيث العلم الصيب ، والبلد العلمي الذي يخرج نباته الطيب . تضرب من الإبل إليه الأكباد ، وتؤمه طلاب العلوم من أقاصي البلاد . وبحره العجاج يتلاطم موجه . ونجم فضله متواصل عروجه . إلى أن توفي بعد أن بث في صدور الرجال من العلوم ما لا تنقطع معه الأعمال .

وكان شاعراً مجيداً . كانت وفاته سنة 1144هـ .

ومن شعره مقرضاً شرح تلميذه الأمير علي باشا على **التسهيل** :

قسماً بمّا أبداه من تحقيقه		في حل مشكله ومن تدقيقه
وبِورده العذب الزلال ومن غدا		متعللاً بصبوحه وغبوقه
أو من غدا مترشفاً لصبابة		من عذب منهله وكأس رحيقه
وبديع نسج ما له من مشبه		في وشي مذهبه وفي تنميقه
ولطيف مزج فائق في لطفه		نسم الصبا والماء في ترويقه
إن العيون لنحوه ترنو كما		يرنو أخو مقة الى موموقة
وكذا القلوب لمجده تعنو كما		يعنو المحب الى لقاء عشيقه
مستهترين بحبه وجداً فما		لهم محيد عن سلوك طريقه
روض حوى من كل زهر ما تشا		من ورده وبهاره وشقيقه
ما شئت من غصن نضير مونق		يهتز في غلوائه وسبوقه
ما شئت من أنهار عذب سلسل		يقضي التعجب من حلاوة ذوقه
جمع تجمع فيه علم النحو من		بعد الشتات لشمله وفريقه
أعظم به جمعاً أحاط بما حوى		مثل الحمام حمته ربقة طوقه[2]
ما بين أحكام وتعليلاتها		تبدو كنجم ضاء بعد خفوقه
وشواهد وقواعد ضاعت شذى		كالمسك في ضوعاته وعبوقه
طلبوا له مثلاً فأعياهم ولم		يجدوا فأضحى عادماً لشقيقه
يحوي مسائل أشكلت في النحو في		مفهومه وكذاك في منطوقه
يبدي دقائق لا ترى في غيره		من حادث في كتبه وعتيقه
لا زال من أهدى لنا أبحاثه		تُهدى الأنام بلامعات بروقه
يبدي لنا في العلم أحسن ما يرى		في حل مشكله وفي تفتيقه
وحبا الجميع بفضله الفردوس مع		جمع النبي المصطفى وفريقه
وكذاك رب النظم يرجو الله في		اتباعه للمصطفى ولحوقه
صلى عليه الله ما أبدى لنا		تحقيق دين الحق بعد زهوقه

ومن شعره يرثي الشيخ زيتونة رحمهما الله :

قلب يذوب ومهجة تتقطع وأسى يزيد ومقلة لا تهجع
ولهيب نيران تضرم وقدها يصلى بجمرتها الحشى والأضلع
وتلهف وبكا وفرط كآبة ومدامع مسفوحة لا تقلع
لهجوم خطب هائل مستعظم ما ريء أهول قط منه وأفظع
انهدّت الأركان بعد هجومه وغدت لطلعته الجبال تصدع
وأغبرت الخضرا وأظلم نورها بعد الضياء فشمسها لا تطلع
لم يلف قلب للأنام أولي النهى إلّا وللتأثير فيه موقع
أو تلق منهم كابراً أو صاغراً إلّا تراه هائماً يتوجع
فكأن كلاً منهم ذو مأتم وكأنما الأرواح منهم تُنزع
لمّا نعى الناعي إمام أولي النهى شيخ الأنام ومن إليه المفزع
زيتونة الأسمى الرفيع مقامه بحر له في كل علم مشرع
أحيا علوم الدين بعد دثورها وغدا به شمل المعارف يجمع
بجميل تدريس وفهم ثاقب وجليل تصنيف يفيد وينفع
وعلوم تفسير وحفظ واسع وتقى وموعظة وقلب يخشع
ما بين منقول ومعقول معاً فالعلم فيه قد تجمع أجمع
مَن بعدَه للمشكلات وحلّها يُعنى إليه ومن إليه المفزع
كيف السلو وقد غدا من بعده ربع المعارف وهو قفر بلقع
فعليه فلتبكِ الأنام جميعهم وعليه فليتوجع المتوجع
لا غرو إن فجع الزمان بفقده فالدهر قدماً بالأفاضل يفجع
فسقى الإله ضريحه من رحمة ديماً تسح على ثراه وتهمع
ما دام يرجى عفوه عن خلقه فهو الذي يرجى وفيه يطمع

224 – الشيخ أبو العباس أحمد الشريف

من بيت شرف مشهور ، ذي فضل مأثور . ولد بتونس سنة 1091هـ في منبت عز ونزاهة ، وعَلاء أثيل ووجاهة ، فأخذ العلم عن علمائها الأعلام ، مصابيح

الظلام ، فجلّى في ميادين التحصيل ، بفهم ثاقب وفكر أصيل . وكان بارعاً في العلوم العربية ، وله قوة معرفة بالنحو والبيان وتفوق في الأدب . أولاه الأمير حسين ابن علي تركي مؤسس العائلة الحسينية قضاء الجماعة بتونس ، فمكث فيها أياماً ، ثم خلي عنها ورجع الى الإشتغال بالتوثيق وبث العلم . ولم تزل تلك سيرته الى أن توفي .

وكان شاعراً بليغاً ومن شعره مضمناً :

معنّى بكم نفسه سادتي ببحر المديح لكم غائصه
يهزها الشوق وجداً لكم فتضحي لتذكاركم راقصه
ونفس صديقكم لم تزل على المدح في مجدكم حارصه
إذا ما قبلتم قريض الذي أتاكم على نية خالصه
فقد ضاء شعري على بابكم كما ضاء درٌّ على خالصه

ومنه قوله من تخميس على البردة :

أمير عمري قد ولت عساكره وجيش شيبي غار اليوم أكثره
لكن أنا لست أرعاه وأحذره لو كنت أعلم أني ما أوقره
كتمت سراً بَدَالِي منه بالكتم

225 – الشيخ أبو عبد الله محمد بن عمر سعادة

ولد بالمنستير سنة 1088هـ ، وبها نشأ ثم قدم إلى تونس ، فأخذ عن علمائها حتى تدفق حوضه ، وأزهر روضه . ثم سمت نفسه للإستكمال ، بملاقات الرجال . فسافر إلى المشرق ودخل مصر ، ومكث بالأزهر ملازماً به جلة من شيوخه كالشيخ محمد الزرقاني ، والشيخ منصور المنوفي ، والشيخ علي النشرتي ، ثم رجع إلى مسقط رأسه . ومربع إيناسه . فتصدر بجامع الزيتونة فأفاد ، وقلد عقود تحقيقه الأجياد ، معروفاً بحوز السبق فقيهاً أصولياً . ولي قضاء الحاضرة والفتوى على مذهب إمام الأئمة مالك بن أنس فشفى الأوام ، واعترف بفضله الأعلام ، وصدع بالحق بين الأنام . ومع ذلك كان لسان الأدب ، وعيبة علوم العرب ، شاعراً ناثراً ، فما العقود إلّا شعره . ولا نثار اللؤلؤ إلا نثره . نظم مناسك الحج نظماً بديعاً ، وله حاشية على

شرح الأشموني على الألفية أظهر فيه طول باعه ، وقوة حفظه واطلاعه . توفي سنة 1171هـ .

من نظمه ونثره ما قرض به شرح الأمير علي باشا على التسهيل ، ونصه :

« الحمد لله الذي أحيا موات رياض الأدب بعد أن يبست ثماره اليانعة ، وأترع حياض عرفانه بسلسبيل عيون المعارف النافعة ، وأبدع بما اطلع من كمام نور أزهاره من الأنوار الساطعة . أحمده أن جعل اللسان العربي قانون أسرار المعاني الفارعة ، ومفتاح علوم المعاني المنطوية فيها البارعة . وجمع جوامع تلخيص البيان وأساس البلاغة الهامعة ، ومعدن لآلي قاموسها المحيط بلغاتها الجامعة . وخصه من بين الألسن بتسهيل الفوائد الشاسعة ، وتكميل المقاصد المستصعبة بايضاح الأدلة القاطعة . وأشكره أن أنار الوجود بورثة الأنبياء الأخيار ، وأطلعهم على مخبئات المعاني وغرائب الأسرار ، فافترعوا بأفكارهم أبكار معانيها ، واقترحوا بأفهامهم غرائس مغانيها ، وطوقوا أجياد الأفاضل بلآلي تلك الفضائل ، وهذبوا نتائج التحصيل تهذيب الأماثل . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الناصب على وحدانيته الأدلة القواطع ، شهادة عبد يعدها لمحور أوزاره وفي النجاة بها طامع .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله المخصوص بجوامع الكلم والكلم الجوامع . صلى الله وسلم عليه أكرم مرسل وأجلّ شافع ، صلاة وسلاماً دائمين ما سجعت السواجع ، واتصل بهما الإعلان على رؤوس المنابر والصوامع ، وعلى آله ذوي الحسب الباذخ الناصع ، وأصحابه ذوي المناقب الشائقة والكرم الواسع .

وبعد فإن العلوم وإن تباينت موضوعاتها ، وانتشرت مفردات كلمها ومجموعاتها ، فعلم العربية منها بمنزلة الرأس من الجسد . والموضح لما أنبهم من تراكيبها وشرد ، لا يدخل الى غيره إلّا من بابه ، ولا يعول على فهم معانيه الغامضة إلّا بتيار عبابه ، ولا تقتنص شوارده إلّا بشرك أسبابه ، ولا يماط نقاب عرائس مخدراته إلا بتسهيله ولبابه . فالخالي منه بزوايا الإهمال طريح ، وأنى يلتفت إلى من عدم التمييز بين المعتل والصحيح . وأدغم أفعل التفضيل في تصريف أفعاله ، واستوى عنده التعريف والتنكير في موصول أحواله ، ولا يرى الحال غالباً متنقلة ، ولا العمدة في هذا الفن مرفوع المنزلة . وقد كنت أظن أن لا يقدم لحلبته إلّا السكيت واللطيم ، والمجلي في

ميادينها لإحراز الخصل عديم . وأن ليل الجهل بقواعده مدلهم ، وفرسان بلاغته عدا عليهم الدهر المصطلم . حتى ورد علي هذا الكتاب المعنون ب **دفع الملم . عن قراءة التسهيل بجلب المهم** . فعلمت أن ذلك الظن لا يصدر إلّا ممن وهَم . وأن الأقدار تنبت الأفاضل . ولا تقصرُ الفضائل على الأوائل . والقطر لا يعدم من الأماثل . وقد يعقب قطر الطل سح الوابل . فعقدت التوبة من ذلك لنفسي ، وحكمتُ بتكذيب ظني وحدسي ، والتفت الى هذا الكتاب الغريب متصفحاً مطاويه ، مستشرفاً لما كمنَ من شريف المعاني فيه . فإذا هو كتاب بهرت أسراره ، وظهر على غيره خناره ، وأشرقت من شموس معارفه أنواره . وطما بحر معانيه يقذف بالآلي تياره ، ورياض أدب صدح بلبله وهزاره ، وبدا آسه وجلناره . وثمار معانيه قطوفها دانية ، وبدور مبانيه عن درر النحو غانية ، تجر بوجازة لفظها الجامع ، على سائر شروح **التسهيل** مطارف الحسن الرائع . يقضي بتصفحها بأنها نتيجة الدهر في العصر . وفريدة التجر في الفضائل الصدر . قلت :

تخجل بدر التم في طلعته ... وتسلب الناسك في بردته
نتائج أنتج عشقي بها ... للّهو ميلاً وإلى صبوته
ورد مني عنفوان الصبا ... بعد تناسيه إلى جدته
طربت من حسن حديث لها ... ما طرب القانون في رنته
أو بلبل يهتز عطفاه من ... زهو فيشدو في عُلى دوحته
أو الهزاز المتصابي بما ... يدعوه للتغريد في نغمته
وملت للتشبيب في حسنها ... ميل جميل لحلى بثنته
واستهترت بي أريحيـــة ... فصرت كالمفتون في ميته
وقلت : يا منية قلبي صلي ... صبّاً يرى التسويف في تويته
حلاك في الطرس أمسك شذى ... أم عنبر قد ضاع في نفحته
أم هو في كافور طرس بدا ... تدبيج خيلان على صفحته
قالت وقد سدد لي لحظها ... سهماً يحط النسر من قنته
لولا جنون وهوى غالب ... فيك فما تنفك عن هفوته
رماك مزبور لأقلامي الـ ... ـلدن بما كالرمح في طعنته (1)

(1) اللدن : جمع لدن وهو اللين .

هـذي نكـات بادلاتها تحمي حمى المنطق من سقطته
تزيح من ينظرها منصفاً تريح من مال إلى لحدته
يزينها التوضيح والجمع والتسـ ـهيل ما حادت على سنته
نمقها الباشا علي الذي كواكب العلياء من أسرته
فمن يحم حول حماها ومن ينازع الليث لدى أبوته
لحظتها حينئذ لحظ من ينقد إبريزاً على حكته[1]
فراقني من طي طرس لها مستعذب قد رق في صنعته
سكرت من راووق دنٍّ لها لا تلم الشيخ على سكرته
فـإنـه مـعـتـقـد حلّه مذ قد حلا معناه مع رقته
فغبت عن حسي ومدّت يدي لقطف نور الزهر من وجنته
فـانتهرتني مـن مطاولها شواهد دلت على صحته
وقلن لي مثلك من يخطب البا شا عروساً في عُلَى عزته
كلّلها بالدر من لفظه ودل معناه على فطنته
تسجد أهل الفضل مها تلوا تلك البراعات الى كعبته
فقلت إني باذل مهرها روحي ومالي لعُلَى عزته
فقلن إن أعطيت هذا فما نراه شيئاً في عُلَى همته
وقلن إن حاولت ما تشتهي لا تلم الباشا على سطوته
فقلت كلا إنه ماجد يهتز للآداب مع رفعته
فبتُّ أستعذب من لفظها تعذيب إنساني في مقلته
أقسمت لو عاينه مَن غدا شرحاً له لأختال في مشيته
عوذت من وشي حُلى برده بسورة الإخلاص في حكمته
ودام في المجد لنا سالماً من نفثة النفاث في عقدته

ومن شعر صاحب الترجمة يرثي الشهيد يوسف درغوث المفتي الحنفي :

خطب ألم ومصرع قد حيرا قد حل من أعلامنا أعلى الذرى
وتسابقت في الحتف فرسان له فحوى السباق لها هماماً أكبرا

(1) حكته : مرة من حك .

وتفتّت منه القلوب وأيقنت | أن الدنى غرّارة لا تشترى
مشمونها سلب النفوس ومن يبع | أخرى بها يوماً فقد خسر الشرا
أو ما تراها قد أبادت يوسفاً | مفتي الأنام فصار من تحت الثرى
درغوث من ورث الفضائل كابراً | عن كابر فسما الى أعلى الذرى
في مذهب النعمان كان محققاً | وله اليد الطولى على كل الورى
وخطيب جامع يوسف وفصيحهم | مهما رقى عند الخطابة منبرا
قل للحوادث هكذا حكم القضا | من رام خلداً بعده فقد افترى
أيُسَرُّ ذو عقل بفقد قرينه | ولحوقه لا شك فيه ولا افترا
فالله يرزق أهله صبراً على | ما نالهم من ذا المصاب وأضجرا
وينيلهم من بعده توفيقه | ويمنّ بالفتح المبين لمن قرا
صبراً بني فلا يفيد تضجر | عن فائت فالصبر أجمل ما يرى
فأبوكما أفضى لفضل إلهنا | فالله يمنحه جزاً خير الورى
ويحلّه جنات عدن رحمة | منه واسأله له أن يغفرا

ومن شعره يمدح حسين باي حين أسس الدروس بجامع الزيتونة على لسان الجامع الأعظم المشار إليه :

فقام لسان الدين ينشد قائلاً | أمير الهدى حقاً حسين الممجد
أقام عمادي بالعلوم ونشرها | فأصبح ربعي نوره يتوقد
ومن جاء مستفت ليعلم حكم ما | دهاه يجدْ علماً صحيحاً ويرشد
وكل مصلٍّ قد سها في صلاته | بنقصٍ وزيدٍ عالماً كيف يسجد
أما نظرت عيناك أعلام سؤددي | لهم في طروس العلم بحث يسدد
وقد شد أحلاس المطايا إليهم | وتحقيقهم في كل فن مجدد
وكل سليم العقل تشرق شمسهم | عليه وذو جهل سقيم وأرمد
فلا زال من أحيا العلوم وأهلها | حسين له ذكر جميل يردد
وأبقاه في أوج الفضائل سامياً | أمير فخار من له الأمر يسند
مهاباً على كل الملوك مرفّعاً | يفوز لما يرجى ويحظى ويسعد

ومن شعره يمدحه أيضاً حين أسس مدرسة النخلة وكانت فندقاً خرباً صار قذراً

فطهّر فناء جامع الزيتونة من ذلك بتأسيسها ، يشير الى ما ذكرنا :

فأصبح هذا الجامع الفرد حافلاً | بشرقيه قد زال عنه فساد
بمدرسة للعلم أسس ركنها | حسين الذي أثنت عليه عباد
فجاءت على شكل يروقك حسنه | وتمّ بها للطالبين مهاد
كما زال من غربيه معدن الخنا | بأخرى بناها في القديم مراد
فصار ثناء الخلق للكل شاملاً | بما أسسوه للعلوم وشادوا
وهل يحيي ذكر المرء من بعد موته | سوى صدقات للمعاد تفاد
ولا سيما بث العلوم ونشرها | ففي ذاك أجر للأمير يزاد

226 – أبو عبد الله محمد الشرفي ابن المؤدب الصفاقسي

ترجمه الشيخ محمود مقديش في تاريخه بقوله : كان رحمه الله رئيساً في علوم الدين من فقه وحديث وتفسير وتوحيد وعربية بأنواعها ، وأصول فقه وسبر ومغاز وغير ذلك . تفقه ببلده صفاقس على الشيخ النوري والفراتي ثم دخل المشرق فأخذ عمن لقي من علماء الأزهر وأخذ علوم الرياضة من حساب وفلك وغيرهما عن نادرة وقته أبي العباس أحمد الشرفي الصفاقسي ، نزيل مصر . وأتقن معرفة أعمال الأرباع الجيبيّة والمقنطرة ، وانفرد في صفاقس بتلك الصناعة ، فأخذها كثير من الناس عنه . ولما رجع الى صفاقس وظهر فضله ، وانتشر علمه ، فانتفع به الناس . بنى له الأمير حسين باي بن علي مؤسس العائلة الحسينية مدرسة بصفاقس قرب المسجد الأعظم بها . وأولاه مشيختها فعمرت بالطلبة واقتبسوا من علومه . وعمّر حتى ألحق الأصاغر بالأكابر . وكان شاعراً مُجيداً غالب شعره في الجد . توفي لأربع عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة سنة 1157هـ .

من شعره ما أرخ به المدرسة المذكورة :

سعد الزمان وأشرقت أنواره | وبدا السرور وهذه آثاره
بحسين بن علي باي الذي | طابت بطيب فِعاله أخباره
يا حبذا للعلم مدرسة بنى | بصفاقس فعلا بذاك مناره

فأفتر رونقها البديع وحسنها	روضاً تضوّع نوره وبهاره
في عام شـ1126ـوقك للبنا تاريخها	يا من سما بين الملوك فخاره
لا زلت أهلاً للفضائل والعلى	ما دام دهر ليله ونهاره

ومنه قوله في الغرض نفسه :

لله درّك يا فخر الملوك ومن	غدا بمهجته للخير ملتمسا
أنشأت للعلم في ذا العصر مدرسة	يحيا بها من علوم الدين ما اندرسا
حسين بن علي الباي أسسها	من لم يزل لضياء المجد مقتبسا

ومنه يمدح ابن أبي دينار الشاعر المتقدم ذكره :

وقائلة أرى الأيام ولّت	وأعقب زهر بهجتها الذبول
وأودى كل ذي أدب ولب	وصال الغمر فينا والجهول
فناداها الزمان وقال كلا	ضللت إذا وقد وضح السبيل
ثكلتك ها أبو دينار أضحى	له بين الورى ذكر جميل
له أدب يحيّر كل لبّ	ويدهشه إذا أنشأ يقول
له في حلبة الأدباء شأو	بعيد ليس يدركه الفحول
إذا ابتدروا لنيل المجد فيه	أبا دينار أنت له كفيل
فإن طلعت لهم فيه نجوم	فشمسك فيه ليس لها أفول
لقد أصبحت في ذا العصر شمساً	تضيء بك البصائر والعقول
عليك تحية ما فاح روض	وما طالت غصون أو تميل

227 – الشيخ أبو عبد الله حموده الريكلي

أصل آبائه من مهاجرة الأندلس ، وولد هو بتونس ، وبها نشأ طالباً للعلم ، فأخذه عن علمائها الجلة . هداة الأمة وحماة الملة . حتى ظهر فضله ، وتبين نبله ، فتصدر لبثّ العلم فكان إمام المعاني والبيان ، حائز قصب السبق في علوم الدين واللسان . فقيه أوانه ، ونحرير زمانه . ولي مشيخة المدرسة المرادية ، وقضاء الجماعة

المالكية ، وإمامة الخمس بجامع الزيتونة وخطب به خلفاً عن أبي الغيث البكري . وكان أديباً جيد النثر والشعر . توفي سنة 1161هـ .

ومن شعره يقرّض **شرح التسهيل** للأمير علي باشا باي على إثر نثر رائق :

يزهو على أقرانه في حلل	من حلل الجمال في مهجته
غصن إذا ما لاح في بهجته	فالبدر يخفى من سنا طلعته
وعلم في حسنه منفرد	ليخجل الشمس ضيا وجنته
قد فاح ريح الزهر من أفنانه	وقد توارى المسك من عطرته
وحمرة الخد لدى بهائه	قد فاق لون الورد في روضته
واللؤلؤ المنظوم في مبسمه	والسلسبيل العذب في كلمته
أنتج لي من حبه عود الصِّبا	بعد تناسيه إلى نشأته
فأخنع الصالح من عشقته	واقتضب العابد من خلوته
واهتز أطيار الصبا في فنن	لرنة العيدان في جنته
ومن رحيق الحسن قد ناولني	طربت وانتشوت من جرعته
فلامه العاذل جهلاً قلت مه	لا تلم العدل على نشوته
حلّ لنا أن ننتشي مدعياً	فلْتَسَلْ العالم عن علته

228 – الشيخ أبو محمد عبد الله السوسي

ولد بالمغرب الأقصى . ثم قدم الى تونس في طلب العلم ، فلازم جهابذتها ، منهم الشيخ الصفار ، فتملأ علماً ، وفاق أقرانه ذكاء وفهماً . ثم سمت نفسه للحج فاجتمع بعلماء جلة من أهل المشرق استمد من شمسهم بدره . ثم رجع الى إفريقية وقد ازدان بها عصره ، فألقى عصا تسياره بالقيروان ، فالتزم بها الإقراء ، واشتهر بغزارة العلم ذكراً . فلما كانت دولة الأمير علي باشا نقله الى حاضرة تونس اغتباطاً به مغموراً بإحسانه ، منوهاً لسان تبجيله بشأنه . وكان بحراً للوراد ، يشفي أوام العاطش للمعارف الصاد . ولم يزل منهل اغتراف . وكعبة علم يُلاذُ بِهِ ويطاف .

وكان أديباً شاعراً ، ومن شعره يمدح الجناب النبوي الرفيع ويتشوق إلى طيبة الطيبة :

أحنُّ وما إلى وطني اشتياقي	ولا شوقاً إلى كاسات ساق
ولا طرَباً لرنات المثاني	مجاوبـة بـألحان رقـاق
ولا للغانيات ولا جياد	يسابقن الرياح لدى السباق
ولا للروض قد حفت بزهرٍ	يكلّ الطرف منها بائتلاق
ولا لسماع اسجاع القماري	على دوح تخللها السواقي[1]
ولكن طيبة المختار طه	علت شرفاً على كل الآفاق
إلهي أوثقت رجلي ذنوبي	عن الحرمين فاحلل لي وثاقي
أعني كي أموت بها إلهي	بجاه المصطفى بدر اتّساق
على دين حنيفي معافى	من الأهوال ساعة كشف ساق
وصلّى الله ما هجر السرور	قلوب العاشقين الى التلاقي
على المختار خير الخلق طُرّاً	وأفضلهم جميعاً باتّفاق
وآل ثم صحب ثم تال	بإحسان الى يوم المساق

229 – الشيخ أبو العباس أحمد بن مصطفى الطرودي

ترجم له الشيخ محمد بيرم الرابع في كتابه **التراجم المهمة في الخطباء والأئمة الذي لم يكمله** بما ملخصه : أنه ولد بتونس ، وحفظ القرآن الكريم ، وجوّده على الشيخ سيدي أحمد عزوز . وأخذ الفقه والفرائض على سيدي محمد الكفيف ، والعربية والتوحيد عن سيدي محمد الغماري ، والحديث ومصطلحه عن سيدي محمد الصفار ، وخصوصاً **صحيحي** البخاري ومسلم ، ورواية ودراية عن الشيخ سيدي سعيد المحجوز . ووصف الشيخ بيرم المذكور صاحب الترجمة بالعالم الفاضل الورع الكامل القاضي الأعدل ، وأن علي باشا أولاه القضاء سنة 1156هـ قاضياً حنفياً ، والقاضي المالكي إذ ذاك الشيخ الفاضل المجمع على علمه وديانته أبو محمد حمودة الريكلي الأندلسي ، وعزله لصمم أصابه سنة 1161هـ ، وأن مما وليه من المناصب إمامة جامع

(1) القماري : جمع قمرية وهي ضرب من الحمام – .

القصر ثم خطبته ثم خطبة جامع بارود ثم خطبة الجامع الباشي التي توفي عنها طاعناً في السن يوم الأربعاء في 29 شوال عام 1174هـ . ويظهر من كلام الشيخ بيرم أنه ولي الخطبة بجامع باردو ثم عزله عنها علي باشا ، وتولى بعدها إمامة جامع القصر ثم خطبته ثم خطابة الجامع الباشي ، كما أنه تصدر للتدريس بجامع الزيتونة حين صار من أجَلّ علماء المسلمين . كما ولي التدريس بمدرسة القائد مراد ، ثم تدريس المدرسة اليوسفية ، وذكر في كتابه المذكور : أنه وقف على مجلد بخط صاحب الترجمة جمع فيه ما كتبه على أبواب من **صحيح البخاري** لأختام مجالس الرواية بجامع القصر على العادة المألوفة بتونس عند الأقدمين من الإقتصار في الأختام المشار إليها على ما يليق بالعامة من ذكر فضائل الأعمال ، والإقتصار على حل ظاهر الحديث من غير غوص في تقريره .

وكان صاحب الترجمة ينظم الشعر ، ومن شعره مادحاً الفتاوَى الخيرية وصاحبها هذه القصيدة :

يا خير دين الله نلتَ مفاخراً	جلّت عن التعداد والحسبان
حيّاك مولانا بألف تحية	وسقى ضريحك وابل الغفران
وجزاك من خير الجزاء بفضله	دار المقامة جنةَ الرضوان
لله كم من واقعات مسائلَ	أعيت كُماة العلم والفرسان
من مصر والشام الشريفة أرسلت	وافت لحضرتكم مع الركبان
وكذا من إسلمبول زيدت بهجة	دار الخلافة من بني عثمان
عذراء لم يكشف نقابَ جمالها	أحد من الأمثال والأقران
أوضحت مشكلها بفتواك التي	كقلائد الياقوت والمرجان
أفرغتها في قالب التحقيق قد	تهدي الورى لشريعة الرحمان
حوت الأصول مع الفروع وأيدت	ما حررت ببدائع البرهان
شهدت عقول الراسخين بأنها	في غاية التحقيق والإتقان
يا رب بالعلم الشريف وأهله	وبجاه من قد جاء بالفرقان
اغفرَ لناظمه عبيدك أحمد	وأقِلْه عثرته لدى الميزان
ثم الصلاة على النبيء وآله	كنز الهداية رحمة المنان
ما حررت أقلام أعلام الهدى	بطروسها علماً مدى الأزمان

230 – الشيخ محمد الصغير ابن العارف بالله سيدي علي داود النابلي

ترجم له صاحب **ذيل بشائر أهل الإيمان** بالعالم العارف مستجمع دقائق العلوم والمعارف . ولد بنابل سنة 1067هـ . حفظ القرآن العظيم ، وتفقه على أبيه . ثم رحل لزغوان ، فأخذ عن علمائها العلامة الشيخ محمد الحجيج الأندلسي ، والشيخ ساسي المقري ، والشيخ محمد بن عبد الله السوسي الماسي الأزهري .

ثم رحل إلى مدينة تونس واستقر بالمدرسة المرادية ، وأخذ عن جلة علماء عصره كالشيخ عبد القادر الجبالي ، والعلامة الشيخ سيدي سعيد الشريف ، والعلامة سيدي أحمد الشريف ، والشيخ محمد الغماد ، والمحقق الشيخ محمد فتاتة ، والشيخ قاسم الغماري ، والشيخ العواني ، وغيرهم . وأجازوه وأثنوا عليه فحصل على علمي المعقول والمنقول ، ومهر في علوم العربية والفقه وأصوله والحديث ومصطلحه ، ثم عاد لبلده ، وتصدر للتدريس بها برهة من الزمان حسبة لله ، فأفاد وأجاد ، وتخرج به خلق كثير . ثم سافر إلى الحج سنة 1115هـ ، ودخل مصر ، واجتمع بجلة علماء الأزهر ، فاستفادوا منه ، وأخذوا عنه . واجتمع في الحرمين الشريفين بعلماء وقته وأهل الطريقة والحقيقة . ثم عاد إلى بلده واتخذ بيتاً بداره اختصه بالتدريس وإفادة المريدين صباحاً ومساءً . وهو شيخ مربٍّ للطلبة في الظاهر والباطن ، وأوقاته عامرة بالعلم والذكر ، لا يفتر عن تلاوة القرآن ، تاركاً ما لا يعنيه . ثم التزم التدريس بالجامع الكبير ببلده ، فأفاد وأجاد ، وتخرج عليه الجم الغفير ، وبابه مزدحم الناس في المشكلات الشرعية ، وهو مرجع لأهل بلاده كلهم في مهمات أمورهم ، دأبه إصلاح ذات البين . يطعم الطعام ، ويترفق بالأرامل والأيتام ، محب للفقراء ، مسموع الكلمة عند الأمراء . اتفق الناس على صلاحه ومحبته . اجتمعت فيه الخصال الحميدة من العلم والوقوف عند حدود الله لا تأخذه في الله لومة لائم . لطيف الذات ، ظريف الشكل والصفات ، آخذاً بطريق القوم ، له ميل إلى الخمول ، سالك مسلك أهل الحقيقة ، له معرفة بمناقب الصالحين وأخبار الناس ا هـ ملخصاً .

وله شعر حسن منه ما خدم به الجناب النبوي الرفيع عليه الصلاة والسلام من قصائد فرائد ، ومنها تخميسه على البردة يقول فيه من أثنائه :

تثني الهوى وتريق الدمع من مُقَل   وحال خديك لا ينفك عن بلل
لا والذي خلق الإنسان من عجل   لولا الهَوى لم ترق دمعاً على طَلَل
ولا أرقت لذكر البان والعلم

ومن شعره مخمّساً لأبيات للشيخ الرصاع قيل : إنها من إملاء الخضر عليه السلام ، تتلى لتفريج الكرب :

إليك شكوى لمكروبٍ ومُلتهفٍ   يشكو إليك ومن يشكو إليك كُفي
فانظر لحالي فحالي عنك غير خفي   يا رب إن العدى يسعون في تلفي
ويزعمون بأني لست بالناجي
سعوا لهلكي وحتّي عندما غضبوا   وقابلوا جميع المكر وانتصبوا
حتى أرادوا وظنوا أنهم غلبوا   رجوتك الله في إبطال ما طلبوا
فأنت يا رب غوث الخائف الراجي
أمسى الفؤاد عليلاً من عداوتهم   وفي الحشاء جراح من مقالتهم
لا يهتدون سبيلاً من ضلالتهم   بك استجرت أجرني من شماتتهم
قصدت بابك قصد الخائف اللاجي
شاهت وجوههم لما جروا ضرري   سيرجعون على الأعقاب والدبر
عوناً عليهم إلهي خالق البشر   فقد توسّلت بالمختار من مضر
من جاء بالفوز من قرب ومعراج
فوّضت أمري لمن لم يتخذ ولداً   فلا أخاف عدواً جارَ أو حسدا
بجاه خير نبي جاء عنه هدى   يا رب صلِّ عليه دائماً أبدا
ما لاح بدر الدجى في ظلمة الداجي

ومنه مخمّساً هذه المنفرجة حين اشتد به الألم بصدره ، فشفي بإذن الله تعالى :

أحبتي لأطبًّا الوقت دلّوني   فقلت حسبي إلهي مبتدي كوني
لا عن سؤال تعالى الله أنشأنا   في أحسن الخلق سوّانا وأبدأنا
وأنه واحد في الملك أنبأنا   لذلك سبحانه إن شاء أبرأنا
أراكم إن أراد الموت تحيوني
هبني جزعت لما ألقاه من قلق   أما ترى الليل إذ يجلوه بالشفق

فهو المهيمن رب الناس والفلق   ففي حماه محل الفضل خلوني

وله مجيباً الشيخ العالم محمد سعادة ، وذلك أن الشيخ سعادة المذكور ذكر في كتابه المسمى بـ **قرة العين** أنه لما توجه إلى الإسكندرية للحج وانكسرت به السفينة ، فقيل له في معرض التسلية العبارة المتداولة بين الناس (دفع الله ما كان أعظم) فنظم في شأنها هذا السؤال :

إليك قطب النهى سؤالاً   نحاك شخص به وأمّم
فأنت كشّاف مشكلات   وأنت في عصرنا المقدم
وذاك قول الورى لشخص   إذا يصاب الفتي ويسقم
آجرك الله في مصاب   ما دفع الله كان أعظم
هل هذا صحيح وهل بنص   أثبت في كتب من تقدم
لعبدكم قيل ذاك لما   دهاه خطب به تألّم
وقلبه منه فيه شيء   ببادىء الرأي لا يسلّم
أجب فلا زلت في المعالي   تجر ثوب التقى وتُكْرَم

وبعث به إلى شيخه العلامة سيدي محمد الزرقاني شارح الموطأ فلم يأت منه جواب . فلما رجع إلى تونس اطلع على السؤال المذكور الشيخ الصغير داود (صاحب الترجمة) ، فأجابه بقوله :

إن الجواب لمن توهّمْ   يبدو إذا ما الفتى تفهمْ
إذ كل خطب وإن تناهى   في غيب مُبديه منه أعظم
وكون هذا مكان هذا   عين الدفاع فلا توهم
فقول من قال للتسلّي :   ما دفع الله كان أعظم
صحيح معنى لكل حبر   يقال نثراً نعم وينظم
وفي حديث لو اطلعتم   إلى تمام الحديث مغنم
يفيد من يبتغي جواباً   وحسبنا الله وهو أعلم

231 – الشيخ عبد القادر بن خالد بن زيد بن خالد العيسي الجبالي

ترجم له في **ذيل بشائر أهل الإيمان** بما خلاصته : أنه ولد في جبل أبي عيسى من جبال مطاطة ، وارتحل إلى تونس صغيراً لرؤيا رآها : أن النبيء ﷺ ، أذنه في الرحلة إلى تونس ، فدخلها ، وحفظ القرآن العظيم فيها ، وحصل على العلوم عقلية ونقلية ، وبرع في الفقه والأصلين والنحو والمنطق وفنون البلاغة والحديث . أخذ العلم عن الشيخ الغماد الكبير ومَن في طبقته ، وأجازوه ، وأثنوا عليه ، وتصدر للتدريس بأماكن متعددة ، ثم جلس بالجامع الأعظم في درس مرتب ، فاستفاد منه خلق كثير ، وتخرّج عليه الفحول . كان رحمه الله فقيهاً ، متفنناً في جميع العلوم ، ديّناً صالحاً . يحب الفقراء ، وينتمي إلى الصالحين . وكان مشهوراً بالفتح ، يقرىء من غير نظر ولا مطالعة ، وما قصد أحد درسه إلا ظهرت عليه أسرار النتاج .

له تآليف منها **شرح على شواهد المغني** في أربعة مجلدات ، وشرح على **شواهد مقدمة ابن هشام** . وله حواشٍ ، ورسائل كثيرة ، وكان له ولوع بخدمة الجناب الرفيع . له قصائد كثيرة في مدحه واعتنى خاصة بالبردة فخمّسها ثلاثة عشر تخميساً يقول في بعضها :

يا قاضي الحب لا تحكم على عجل إن الهوى قد قضاه الله في الأزل
ولي من العذر ما قد قيل في المثل لولا الهوى لم ترق دمعاً على طلل
ولا أرقت لذكر البان والعلم

كما له تخميس على قصيدة الشقراطسية . قال : وكان موصوفاً بالشجاعة في شبابه ، فاضلاً ، من الذين لا تعد مزاياهم . وكان يتحرى أكل الحلال . توفي رحمه الله عند شروق شمس يوم السبت لعشر من ذي القعدة سنة 1122هـ ، ودفن بالزلاج قرب المغارة الشاذلية من جوفيها ، وقبره عند الناس مشهور مزار .

232 – الشيخ أبو العباس أحمد برناز

قال حسين خوجة في **ذيل بشائر أهل الإيمان** : إن هذا اللقب ، وهو برناز ، معناه باللغة التركية كبير الأنف ، وحلاه بقوله : صاحب النقل الصحيح ، والفكر

الصائب الرجيح ، من هو في كل فن بالتدقيق ممتاز ، الشيخ المولى سيدي أحمد برناز . وفي موضع آخر بالعلامة الفاضل القدوة الكامل . وفي موضع آخر بالإمام العلَم الهام . وعبر عنه شيخ الإسلام محمد بيرم الثاني في كتابه **تراجم المفتين** بالإمام، وذكر أنه قرأ على الشيخ علي الصوفي مفتي الحنفية المتوفى سنة 1143هـ : وأن الشيخ يوسف درغوث الأصغر المتوفى سنة 1143هـ أخذ عنه ، وأنه صاحب الكتاب المسمى بـ **الشُّهب المحْرِقة** .

وكان يقول الشعر ، ومن شعره قوله يهنيء الأمير حسين بن علي حين احتفل بترشيح ابنه محمد للإمارة بعده :

حسين الأمير رأى نجله ... أميراً بعين الحياة القريرة
فيهنيه بل والبرايا معاً ... بملك مديد نحا حسن سيرة
ولم لا ويرويه عن والد ... حليم عفيف زكي السريرة
فلنا نجل سعد نشأ في السعـ ... ـود وضم لذاك السجايا العطيرة
ومخبرة الفرع من أصله ... تزكي الفروع الأصول الشهيرة
محمد الباي ابن الأمير ... حسين مسامت شمس الظهيرة
هنيئاً لك الملك عن والد ... بصير به فاق أهل البصيرة
تعمّر في دوحه برهة ... من الدهر في طيبات غزيرة
ويعتد فرعك في مده ... بحسن امتداد الخصال النضيرة
وأسأل ربي بقاء لكم ... بدوراً تلتها الدراري المنيرة

233 – الشيخ أبو عبد الله محمد بن الوزير السراج

أسرته من الأسر الوافدين من الأندلس على الحاضرة التونسية ، وهذا الشيخ نعته حسين خوجه في كتابه **ذيل بشائر أهل الإيمان** بالفاضل وبالفقيه النبيه ، والأريب البارع . وهو صاحب التاريخ المشهور بـ**تاريخ الوزير السراج** المحتوى على ثلاثة أجزاء لم تطبع الى الآن . وكانت وفاته سنة 1149هـ على ما أفادنيه شيخنا العلامة النحرير سيدي محمد البشير النيفر أبقاه الله ، مستفيداً ذلك من أبيات رثاه بها الشيخ ابن منصور نصها :

يا صاحِ إن وافيت قبر محمد هذا الوزير فقف له ببكاء
واسترحم المولى له بتأسف وامزج دموعك ساعة بدماء
قد كان في الدنيا إماماً عارفاً متواضعاً بتلطف وذكاء
وإذا أتى بجواهر من لفظه يا خجلة الفصحاء والبلغاء
كيف التصبر بعد قول مؤرخ : نُعيَ المؤرخ مُبْكم الأدباء

سنة 1149 هـ

من شعره ما كتب على ضريح آخر الأمراء المراديين مراد باي ، وهو أيضاً تاريخ انتهاء الدولة المرادية بوفاة آخر أمرائها :

واستغفِرِ المولى له ما أرّخوا فيه تمام ملوك دار مراد

245 205 96 481 87

سنة 1114 هـ

ومن شعره يرثي أبا بكر البكري إمام جامع الزيتونة :

أبو بكر أحزننا موته وكان لدينا رواء الأوام
وكان قديماً خديم الحديـ ـث فسار بعز لدار السلام
تقـدم ممتثلاً للـقضا وإن التقدم شأن الإمام
فبادر بنصب الأكف دعاً بجر النعيم ورفع المقام
فسلك أحاديثه عدها الـ ـهداة وقد أرّخوه الختام

سنة 1072 هـ

ومن شعره يرثي الشيخ علي بن أبي بكر بن تاج العارفين البكري إمام جامع الزيتونة أيضاً ، وهو آخر الخطباء البكريين به :

توفي علي ويا طالما على منبر الفضل قدماً خطب
وأمّ الأنام كما أمّه ذوو فاقة فانثنوا بالأرب
وإذ ما تمطى جواد الفنا وسار فأرّخ : تمام الخطب

642 481

سنة 1123 هـ

ومن شعره أيضاً ما قاله للنقش على ضريح الشيخ محمد بن حسين برناز ، ونصه :

ألا رحم الله هذا الشهيد كما طاب ذكر ثناه السعيد
محمد برناز المرتدي رداء الشهادة يوم الوعيد
فأم الهداة بيوم الوفاة لدار النجاة كقصر مشيد
وكان إماماً بدار الدنى فراح الخطيب الشكور الحميد
ويكفيه بشرى جميل الثنا وقد أرّخوه : مليك شهيد

سنة 1084 هـ

وقوله (الشهيد) لأنه قُتل أثناء فتنة وقعت في تونس ، نهبت فيها دور من جملتها دار الشيخ محمد برناز ، ونهب أثاثه وكتبه ، وقُتِل – رحمة الله عليه – في الثامن عشر من صفر عام 1084هـ .

ومن شعر صاحب الترجمة أيضاً مؤرخاً وفاة الشيخ عبد الكبير درغوث :

ذا ضريح ضم كنزاً بعلوم الثقلين
كان في الفتيا كبيراً كاسمه في الخافقين
لقبوه درّغوث صدقوا من غير مين
مدّ من نهر الفتاوي للورى نضاختين
حلّ في جنة عدن ونعيم خالدين
فاسأل المولى لديه بخضوع الراحتين
عللا من نهر عفو وجنى من وجنتين
إن من قد أرّخوه : كان يدري المذهبين

71 224 838

سنة 1133 هـ

ومن شعره أيضاً مهنئاً الأمير حسنين بن علي بالإحتفال بابنه الأمير محمد الرشيد باي لما رشحه للملك بعده حين بلغ سنّ الخامسة عشرة من عمره بقوله :

أمير السعادة يهْنيكم شباب الولاية بعد المشيب

وأيـام ملكك ألبستها ... على العز ثوب الجمال العجيب
وبارق عزك أبدى السنا ... بأفق افتخارك نجلاً نجيب
مليك تخال سنا وجهه ... ضحى الشمس من فوق غصن رطيب
ألم تـر باسم أيامه ... تبشرنا بالزمان الخصيب
محا غيث أيام إقباله ... خطيئة ذاك الزمان الجديب
روى سنن الملك عن والد ... له في الولاية جاه مهيب
وإن البراعة والسيف في ... يديه لنعم السميع المجيب
تخال الثنا ناشراً فضلكم ... على منبر السعد خير خطيب
فطاب الهناء وكل امرىء ... يذوق بذكرى ثناكم يطيب
فلله شكرٌ ينزه أن ... يحيط به غير رب مجيب
لكم خالص المدح مني كما ... تعودت منكم بأوفى نصيب
تمسكت طـيِّب أذيـاله ... فرفّ لديكم بمسك وطيب
هنيئاً وبشرى بتاريخه : ... وباي بنصر وفتح قريب

312 494 212 19

سـنة 1137 هـ

ومن نثره في وصف المدفع نقلاً من تاريخه قوله :

«كنز الفرج ، وهداية المنهج ، وقاطع الحجج ، والمؤذن بالفلج . وإني عند الغسق من الصبح أنتظر الأرج ، مستقيم غير ذي عوج ، ذو معارج وليس فيه عرج ، يؤذّن في غير أوقات الصلاة ولا حرج . إذا اخترقت كبده أظهر أي هرج ، ومتى غلبت الصفراء على سوداته أحدثت فيه حرارة باطنية ، فيها علامات المنية ، وطال عليه التحشي وأعقبه القذف . ومن العجب يمسي سالماً وينتقل أمامه إمامة إلى الحتف ، تجد في وصفه مجالاً متسعاً ، وإذا تنفس يتلى عليه « يريكم البرق خوفاً وطمعاً» ، صامت جاهل عديم السمع ، وترى منه اللفظ المركب المفيد بالوضع ، جَماد ، لا يتحرك أصلاً ، وما تقدم لفظاً إلّا تأخر فعلاً . يهوي الأبراج والقصور ، وهو المملود والمقصور . وغاية الأمر أن وصفه ليس له حد ، ومن بعضه أنه أبكم «ويكلم الناس في المهد» ا هـ .

هؤلاء بعض الشعراء التونسيين في العصر المرادي ، وبعضهم نشأوا فيه وأدركوا العصر الحسيني الذي يليه فهم مخضرمون بين العصرين المذكورين . وفيما يلي نذكر رجال العصر الحسيني بعد أن نتعرض بكلمة وجيزة عن هذا العصر فنقول :

العصر الثامن

عصر الدولة الحسينية

1117هـ - 1376هـ

يمتد هذا العصر من سنة 1117هـ إلى إعلان النظام الجمهوري بالإيالة التونسية من طرف مجلس الأمة في 28 ذي الحجة من عام 1376هـ الموافق ليوم 25 جويلية سنة 1957م ، أي أن هذا العصر دام قرنين وستين سنة وسبب انتصاب الدولة الحسينية على كرسي البلاد التونسية ، أن جدّ هذه العائلة الأمير حسين بن علي ، بويع أميراً على تونس بيعة شرعية ، كما قال الشيخ أحمد بن أبي الضياف في تاريخه **إتحاف أهل الزمان** فلم يطلب هو هذه الولاية ، ولا سفك لأجلها دماء المسلمين ، ووصفه في التاريخ المذكور بأنه كان شجاعاً تقياً كريماً كثير المآثر والخيرات ، محبباً إلى الناس معظّماً للعلماء والصالحين ، رفيقاً بالرعية ، مؤثراً للعدل والإنصاف من نفسه ، عالماً بتنزيل السياسة في منازلها . كانت أيامه كالخصب بعد الجدب ، والأمن بعد الرعب ، والسلم بعد الحرب ، سعدت المملكة وأهلها بيمنه ، وامتلأت أيديهم بالمكاسب ، فأثاروا الأرض وَعَمَرُوها بالحبوب والأشجار ، وخفف عنهم المغارم ، وقوّى فيهم الأمل ، وأغراهم بالعمل ، فتنافسوا في الصناعات ، والخلال الحميدة . والناس على دين ملوكهم . كاد أن يكون الترف في أيامه معدوماً . أما من تولى بعده الإمارة ، فنهم المحسن ومنهم المسيء . ومن أراد أن يطّلع على تفصيل سيرهم فليرجع إلى التاريخ المشار إليه يجد فيه ما يشفي غليله . ثم آل الأمر بهذه الايالة إلى نصب الحماية الفرنسية عليها في سنة 1298هـ أي سنة 1881هـ بالتاريخ المسيحي . ثم انتهت باعتراف الحكومة الفرنسية باستقلال تونس استقلالاً تاماً في مارس عام 1955هـ . ولله الحمد .

أما الحالة العلمية والأدبية في هذا العصر فكانت مزدهرة . قال الشيخ أحمد بن أبي الضياف في تاريخه المذكور نقلاً عن **التاريخ الباشي** للشيخ حمودة بن عبد العزيز ما نص محل الحاجة منه : إلى أن كانت الطبقة التي في أيام المولى حسين باي ابن علي فألقى العلم عندهم عصا التسيار ، وصاروا رحلة لطالبيه ونجعة لمرتاديه ، فكان منهم حافظ المغرب أبو عبد الله محمد زيتونة المتوفّى سنة 1138هـ ، وعالم إفريقية على الإطلاق أبو عبد الله محمد الخضراوي المتوفى سنة 1144هـ ، وخلق كثير . واتّفق خروج جماعة من أيمة الهدى وأعلام الدنيا في نواحي عمله كالإمام أبي الحسن علي النوري الذي طبقت تصانيفه المفيدة الآفاق ، وأبي فارس عبد العزيز الفراتي رديفه في

ذلك ، كلاهما من صفاقس ، وأبي إسحاق إبراهيم بن عبد الله الجمني الذي أطبق الكافة على ولايته وعلمه بجزيرة جربة . كما ذكر أيضاً أن الطبقة التي أخذت عنهم ، وهم الناشئون في عصر ولاية علي بن حسين باي ، لم تقصر عن بلوغ شأوهم ، كقاضي الجماعة أبي محمد حمودة الريكلي المتوفى سنة 1161هـ الذي يعد العهد بوجود مثله علماً وديانة وعدالة ، والمفتي أبي عبد الله محمد سعادة المتوفى سنة 1171هـ ، شيخ السيرة والأدب ، والمحقق شيخ الجماعة أبي الحسن علي سويسي المتوفى سنة 1154هـ ، ووالدنا محمد بن عبد العزيز المتوفى سنة 1160هـ ، والراوية المطّلع أبي عبد الله محمد المكودي ، وواحد المغرب علماً وديناً وورعاً أبي عبد الله السوسي الوافد علينا من المغرب الأقصى ، إلى غير هؤلاء من الأعيان المهرة والعلماء الجلة . ا هـ المراد .

ومما نشّط الحركة العلمية ووفّر عدد أقطابها ما كان للأمراء الحسينيين من تبجيل أهل العلم ، وترتيب الجرايات لهم ، وبناء المدارس لطالبي العلم . والملوك سوق يجلب إليها ما ينفق فيها ، فإن حسين بن علي مؤسس هذه الدولة كان كما سبق ذكره معظماً للعلماء كما قال المؤرخ حسين خوجة : له رغبة في تكثير أهل العلم وطالبيه . بنى مدارس لسكنى الطلبة ، وعيّن بها مدرسين في الحاضرة وفي مختلف جهات المملكة التونسية . ففي الحاضرة أسس المدرسة الحسينية الكبرى ، وأول مدرّس أولاه التدريس بها العلامة أبو عبد الله محمد الخضراوي سنة 1126هـ ، والمدرسة الحسينية الصغرى في الجهة المعروفة الآن بتربة الباي ، وأول مدرّس بها عيّنه الشيخ الفقيه العالم أبو عبد الله محمد جعيط . ولما بنى الجامع الجديد رتب به أربعة مدرسين : خطيبه الشيخ أبا العباس أحمد بن مصطفى الحنفي ، والفقيه أبا الفلاح صالح بن سليمان الجربي ، والفقيه أبا عبد الله محمد الحرقافي الحنفي ، والعلامة أبا العباس أحمد الشريف المعروف بإمام جامع دار الباشا . وأوقف على ذلك أوقافاً كافية ، وبنى مدرسة بمدينة صفاقس ، وأول مدرس بها العالم الفقيه أبو عبد الله محمد بن محمد الشرفي ، ومثلها بالقيروان أولى مدرساً بها العلامة المحقق الشيخ عبد الله بن محمد السوسي ، أصله من بلاد سوس المغرب الأقصى . وفي سوسة جدد بناء الزاوية القادرية وجعلها مدرسة لسكنى الطلبة ، وصدر بها للتدريس الشيخ العالم قاسماً المؤرّخ الأنصاري ، وبنى أيضاً مدرسة ببلد نفطة ، رتب مدرساً بها الشيخ العالم علي

المقدمي ، رتب له ولطلبتها وخدمتها مرتبات بحسبهم . وفي مدينة توزر أحيا رسوم مدرستها التي بناها محمد باي المرادي ، فكان يتفقدها ، ويعتني بمن بها ، وكذلك المدرسة التي في قابس من بناء محمد باي المرادي المذكور أحيا حسين بن علي باي معالمها ، وقوى من بها على طلب العلم . وفعل مثل ذلك بمدرسة محمد باي المرادي أيضاً التي ببلد الكاف ، ومثل ذلك بمدرسة باجة ، وهي أيضاً من بناء محمد باي المرادي المذكور . وقام حسين باي أيضاً رحمه الله بإعانة أهل العلم على بثه في جهات مختلفة كبلد قفصة وبلد القطار .

أما الجامع الأعظم جامع الزيتونة فذكر حسين خوجة في تاريخه **ذيل بشائر أهل الإيمان** أنه قبل دولة هذا الأمير حسين بن علي ، لم يكن فيه غير ثمانية دروس في اليوم مرتّبة من أهل الخير الأقدمين (أي أنها قائمة على أوقافهم) والآن (أي في سنة 1137هـ) بحمد الله فيه من الدروس (أي في كل يوم) قدر الثلاثين حصلت منهم البركة وعمّ الإنتفاع بهم ا هـ المراد .

ثم لما أفتك الملك من حسين بن علي ابن أخيه وابن تربيته علي باشا بن محمد سار على غراره في تكريم العلم وأهله . ذكر الشيخ أحمد بن أبي الضياف في تاريخه في شأن علي باشا المذكور : أنه كان مع شدته يعظم العلماء ، ويتجاوز لهم ما لا يتجاوزه لغيرهم . وكان هو نفسه من العلماء حريصاً على نشر العلم . بنى عدة مدارس بالحاضرة منها المدرسة الباشية ، قرب الجامع الأعظم ، والمدرسة السليمانية ، ومدرسة بير الحجار ، ومدرسة حوانيت عاشور . وجاء من بعده ابنا عمه محمد الرشيد وعلي ابنا حسين بن علي ، فسارا بنفس هذه السبيل .

كان لمحمد الرشيد محبة وتعظيم للعلماء ، يجالسهم ويباسطهم ، ويحن إلى مسامرتهم . وقد كان هو مشاركاً في العلوم مشاركةحسنة مولعاً بالتاريخ والأدب ، شاعراً .

وأخوه علي هو باني المدرسة الجديدة ، والمكتب المعتلي على الساباط حذوها لعلوم القراءات . ومن مآثره جعل مرتبات للمدرسين بالجامع الأعظم كما أشار إليه الشيخ أحمد بن ابن الضياف في تاريخه .

ثم أربى على الجميع أحمد باشا الأول مؤسس نظام التعليم في جامع الزيتونة ، وجاعل عدد مدرسيه قاراً خمسة عشر من علماء المالكية ، ومثلهم من علماء الحنفية . ثم زاد طبقة ثانية عدد أفرادها إثنا عشر ، ستة مالكية وستة حنفية . وبهذا النظام كثر الوافدون من الطلبة على جامع الزيتونة ، فاستبحر العلم في تونس في شكل لم يسبق له نظير . وتوفر عدد العلماء والأدباء فيها ، فازدانت بهم البلاد وسعدت العباد .

234 – الأديب الشيخ محمد ابن الشيخ محمد بن محمد الشريف الشوثري شهر العياضي

أديب جليل ، وفاضل نبيل . نشأ بتونس طالباً للعلم ، فأخذه عن علمائها الأفاضل . ذكر منهم في ترجمته لنفسه الشيخ الخضراوي وأبا العباس أحمد الماكودي . أخذ عنه **مغني اللبيب والقطب على الشمسية والتسهيل بشرح علي باشا** . ومنهم الشيخ منصور المنزلي قرأ عليه **مختصر الشيخ السنوسي** المنطقي **والمطول** للسعد . ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز ، قرأ عليه **مختصر خليل** ونبذة من **المحلي** من لواحق القياس وغيرهم . ذكرت ذلك لتعلم ما كان يدرس من الكتب العالية التي أكثرها الآن مهجور الدراسة ولما استكمل نصاب التحصيل تصدر لبثّ العلم فأفاد ، وزين بدرّ تحقيقه عواطل الأجياد . وكان فارس النظم والنثر . ألف كتابه **مفاتيح النصر في التعريف بعلماء العصر** ، للأمير علي باشا باي ، وابتدأ بترجمة الأمير المذكور ، ثم ذكر أولاده الأمراء يونس ومحمد وسليمان . ثم ذكر نيفاً وعشرين عالماً من علماء تونس . ذكر أنه ابتدأ تأليفه في شوال سنة 1153هـ . ولم نقف على سنة وفاته ، ولا أكثر مما ذكرت في ترجمته .

من شعره مضمناً مصراعاً أولاً من بيتين للمصحفي سنذكرهما :

وظبي غدا ما له مرتع　　سوى أنه في فؤادي رتع
هو البدر حسناً ولكنه　　بأفق حشاي وقلبي طلع
يعذب بالصد قلبي وما　　درى أن قلبي به قد ولع

ويمنعني الوصل مع رفعتي　　　وكل وضيع بذاك انتفع
ولا عجب في الذي قد جرى　　　هو السعد كم من وضيع رفع

وبيتا المصحفي هما :

هو السعد كم من وضيع رفع　　　فقاتل بسعد وإلا فدَع
أضيف الى المصحف إسمي ومن　　　أضيف الى ذي ارتفاع ارتفع

ومن شعره يمدح الأمير علي باشا :

زارتك تخطر كالقضيب قواماً　　　خود تزيد الى المحب غراما
حوراء لو أهدت إلى البدر الضيا　　　عند التمام لما اختشى الإظلاما
أهدت لعاشقها السقام لأنها　　　ملأت لواحظها المراض سقاما
خطرت تجر ذيولها فكأنها　　　الروض أهدى زهره البساما
كالبدر وجهاً واللآلي مبسماً　　　والظبي لحظاً والقضيب قواما
فكأنها شمس تدير بكفها　　　بدراً منيراً إذ تدير الجاما
في حبها عاصيتُ قول لوائمي　　　أو كيف يسمع عاشق لواما
كم بت ذا وجد وقلبي خافق　　　ويزيدني شوقي له تهياما
ولكم سهرت الليل طوعاً للهوى　　　ومنعت لحظي أن يذوق مناما
ولكم وقفت على رسوم ديارها　　　وسكبت من دمعي عليه غماما
ووقفت أنتظر الحبيب فلم أجد　　　أحداً عدا الغزلان والأراما
وسهرت ليلي والنجوم كأنها　　　درر علمن من النحور نظاما
ورأيت وجه الصبح لاح فخلته الـ　　　ـباشا أبا الحسن العلي مقاما
ملك إذا ما لاح يخجل وجهه　　　قمر السماء ويدهش الضرغاما
ملك جواد عادل نصبت له　　　أيدي السعادة في العلاء خياما
ذو همة عربية وضخامة　　　عجمية قد زانت الأياما
جمع الندى والحلم والإغضاء عن　　　ذنب الجني والعفو والإكراما
لم تدر راحته المخيم فخرها　　　إلّا الندى والسيف والأقلاما
ملك همام رأيه وسماحه　　　بحر وشمس تطرد الإظلاما
تخشى ملوك الأرض سطوة بأسه　　　لو شاهدوه لقبّلوا الأقداما

كم غارة كان الخليل لنارها ... وبه غدت برداً له وسلاما
فتراه يوم الحرب ليثاً ضارياً ... وتراه في يوم النوال غماما
ملك تجمعت المعالي عنده ... وعلى الملوك تقسمت أقساما
طود العلوم الشامخات ومن غدا ... في كل فن سيداً وعصاما
لو كان في الزمن المقدم لم يكن ... في النحو يوماً سيبويه إماما
أحيا دروس العلم بعد دروسها ... وأشاد شرع محمد وأقاما
فافخر به قد شيد الملك الذي ... لولاه أهدم ركنه إهداما
أكرم بدولته المعظمة التي ... قد ألبست ثوب البها الأياما
فبه تهذنت البلاد وأشرقت ... وغدت جفون الظالمين نياما
يرعى رعيته بعين رعاية ... ويحافظ الصلوات والأحكاما
يا أيها الملك الذي ملا البلا ... د بعدله وتنعمت إنعاما
فإذا تشيعنا بحبك إننا ... يوم القيامة لا نرى الآثاما
وإذا رأينا المجد سار بوفده ... يوماً فأنت له غدوت مقاما
طوقت أجياد الأنام محاسناً ... وكسوتهم من فضلك الإنعاما
لا زلت نوراً يهتدي بضيائه ... مَن ضلّ في ليل الخطوب وهاما

235 – الشيخ مسعود الباجي

ولد بباجة ، وطلب العلم بها ، فأخذ شيئاً منه . ثم انتقل الى تونس سنة 1141هـ للتضلع في العلوم ، فقرأ على جهابذتها كأبي عبد الله محمد سعاده وغيره ، فامتلأ وفاضه ، وازدهرت رياضه . وكان فقيهاً له اليد الطولى في العلوم العربية . متقدماً في فن المنطق . دخل المشرق حاجاً . ولما رجع أقام بمصر وأخذ عن علمائها وأجازوه . ثم آب الى تونس فلازم بث العلم بجامع الزيتونة فنثر الفرائد ، وأثنت حقائب المستفيدين على ما منح من الفوائد .

وكان شاعراً مجيداً . من شعره :

ولما رعى ظبي الفلاة عشية ... حشاشة قلبي حين حنّ له القلب
صبوت له رغماً على غيظ عُذّلي ... ومن ذا يرى هذا الجمال ولا يصبو

236 – الأمير أبو عبد الله محمد الرشيد ابن الأمير حسين باي ابن علي تركي

ولد هذا الأمير النبيل في ذي الحجة سنة 1122هـ على فرش الإمارة التونسية تحت سرادقات العز ، وأتى والده الأمير على شوق ، وترقّب لوارث من صلبه وتوق . ولما وصل سن التأديب أوكله إلى المعلمين فلم يجاوز سن الصبا ، حتى كان لأخبار كمال نجابته نبأ . قد عرف سياسة الملك ، ونظم آداب الرئاسة في سلك . وأخذ من كل علم بطرف ، وعرف الدهر من تحققه بالتقدم ما عرف . فأناط به والده قيادة المحال ، ورشحه لإدارة جلائل الأعمال . ليكون ولي عهده ، ووارث الأمر من بعده . فقاد الجنود ، وعرف بالرأي المحمود . وشكرت آثاره في البلاد ، وبذر إحسانه في الرعية فأثمر أثيل الوداد . حتى أنه لما حلت الطامة ، وابتليت بإمارة ابن عمهم العامة . والتجأ صاحب الترجمة بعد مصارعة الحمام ، إلى قطر الجزائر « برأس طمرة ولجام[1] » لم يعدم ثمرة ذلك البذر . فجنى منهم عند إمكان الكرة ثمر النصر . فاسترد ملكه المغصوب ، وارتاحت الإيالة انقياداً لابن أميرهم المحبوب . وألقت عصاها واستقر بها النوى ، واسترد تراثاً عليه عدوه احتوى . في ذي القعدة سنة 1169هـ ، فحق له أن ينعت بصقر الدولة الحسينية ، كما نعت عبد الرحمان الداخل بصقر بني أمية . ومع ما كان له من شرف الحسب والنسب . له اليد الطولى في علوم الأدب . معدوداً في علماء عصره ، معروف الإجادة في نثره وشعره . وله ديوان شعر صغير الحجم ، متداول بين الأدباء ، وترجمته تكفل ببسطها التاريخ . توفي في إمارته سنة 1172هـ .

ومن شعره قصيدته الميمية المسماة بمحركات السواكن ، إلى أشرف الأماكن . يذكر فيها البقاع المطهرة ويحن إليها . ونص بعضها :

هل زورة تشفي فؤاد متيم ... يا أهل مكة والحطيم وزمزم
أو حظوة بالجزع والخيف الذي ... ما خلته حيناً تجافاه فمي
أنى أنا وبذي الحليفة موردي ... وببانة الجرعاء ثم مخيمي

---

(1) مَثَل يُضرب لمن رجع من سعيه خائباً – .

أو بالحجون وذي طوى لي ضجعة ... حيث الهوى عذب لذيذ المطعم
يا هل لطِرفي نحوهم من نجعة ... ولَطْرفي الأرِقِ انتشاء النّوم
ومتى أواصل وخد سيري في كدا ... حتى أرى الآمال ذات تبسم
فعساي أرمي من منى جمراتها ... وأبرد الجمرات من قلب ظمي
يا هل بذات الأثل يوماً مرتع ... وببطن رامة مربع المستسلم
يا بارقاً قد لاح لي من بارق ... بالله صافحني بكفٍّ مسلّم
بالله أدِّ تحيتي يا نسمة ... لأهيل وديّ من محب مغرم
وإذا مررت على رُبى أم القرى ... أبلغ لهم شوقي وفرط تتيم
ما إن يطيب العيش لي حتى أرى ... وبحومة التنعيم صفو تنعمي
رِقّي لِرِقّي يا لُيَيْلَى واعطفي ... نصب الحشى هدفاً وماقط رمي
من لي بأن أحتل بطن تهامة ... فبروق حالي باطراح المأثم
يا هل يطوف بمضجعي من طيفها ... لو كنت أحسب في عديد النوم
واحرّ قلبي لم أطق صبراً على ... ليلى وأنّى لي بها في الموسم
كيف التأسي واصطباري خانني ... عن جيدها الحالي وبارق معصم
فالصبر فانٍ والفؤاد بزفرة ... والشوق باقٍ ذو لهيب مضرم
ولطالما اشتاق الفؤاد لطيبة ... شوق العليل الى الدواء المحكم
كم برهة قضيتها في لوعة ... ذا عبرة تهمي ولكن بالدم
ولكم ليالٍ بتُّ أرعى زهرها ... والفكر ساهٍ والحشى في مأتم
ما إن قطعت سوادها وبياضها ... إلّا بصبر طعمه كالعلقم
هل بعد ليلى لي مرامٌ يرتجى ... أم بعد طيبة بغية في مغنم
من لي بها ويقبلة في خالها ... وأقول يا خضراء دومي واسلمي

وهي طويلة قد اعتنى بشرحها جهابذة من العلماء منهم الشيخ محمد الشافعي الباجي بشرح نفيس ممتع .

وتمامها :

لا أبتغي بدلاً بها أبداً ولا ... أهلاً يعز ولا ذوات المحرم
أوليست الآمال قدماً والمنى ... وعُرى وثاق الحب لم تتصرم

قسماً بها لولا العوائق كنت أوّ ل واصل لجنابها المستعظم
ولأهجرنّ الأهل والأوطان والـ ـملك المعظم هجر من لم يندم
أبغي بذاك رضاء خالقنا ومن يرضى عليه فيا له من مكرم
ورضاء طه المصطفى خير الورى من خصّ بالأسرا بليلٍ مظلم
علم الهدى مُسدي الندى مردي العدى والشرك مسدول الرداء الأسحم
يا خير من وطأ الثرا طُرّاً ومن هو أصدّق المخلوق دون توهم
إني مشوق هائم بك مولع شاكي الحشى ذا عبرة وتحمم
يا نخبة الرحمان يا من نوره من قبل طينة آدم المتقدم
قلبي إلى أرجاء طيبة طائر ينشي وينشد سجعه بترنم
يا سر إيجاد الوجود ورحمة للكون أعرابيّة والأعجمي
أو يغلب الخوف الرجاء وأنت لي ركن شديد عصمة المستعصم
يا صفوة المختار إني لائذ بك مستجير للكريم الأكرم
ممّا جنت أيدي الصبا من جهلها والنفس في شهواتها كالضّيغم
إن لم تغثه وسيلة بشفاعة تنجيه أخرى من عذاب جهنم
وتغثه في دنياه من مكر العِدى وتنجّه من كيد من لم يرحم
فمن الذي يرجوه عبدك سيدي ومن الذي لأسير ذنب معدم
أنت الذي تُرجى لكل ملمة ولكشف ما أوهى قواي وأعظمي
أبلغ عبيدك منه ما يرجوه في الـ ـدارين وأنصره بنصرٍ مبرم
وأعطف عليّ بهمّة نبوية تجرى القضاء على المراد الأعظم
ليتمّ لي الترحال نحوك آمناً كيد العدوّ الظالم المتظلم
فجميع خلق الله أفجعهم بأنـ ـواع البوائق والعذاب المؤلم
ما بات من ذنب على ندم ولم يقلع وأكد فعله بتصمّم
يا رب إن طويتي طُويت على رفق العباد وبرّهم بالأنعم
وكما علمت خلوصها فأرحم بها أمماً ترجّي سيل فضل مفعم
وأرحم عبيداً لا يروم الملك إلا لـلـسـعـاد وزاده المستغنم
لي أربع أرجوك تنجيني بها وأفوز بالإسعاد يوم المغنم
حب النبي وآله وصفاء با طنة وإنّي للنبي الهادي سمي

ثم الصلاة على النبي وآله		وصحابه الغرّ الكرام الأنجم
ما أمَّ مشتاق وخفق للحمى		من كل مغبر ملبّ محرم

ومن شعر صاحب الترجمة القصيدة القافية التي مطلعها :

أمولاي إن النفس لما تعودت		جميلك راحت بالفواضل تنطق
إذا كان فضل الناس يشكر لازماً		ففضلك ربي منه أولى وأخلق
أقمنا بقدر الجهد قائم شرعنا		فترشيش أضحى علمها يتدفق
وجرت ذيول الفخر عن نظرائها		فلا الشام يحكيها وما هو جلق
كذاك عراق عرقت منه غرة		وأمس سدير مبكتاً وخورنق
فما في جميع الأرض مصر يفوقها		وليس لنا نيل عليها محلق
لئن ردني ربي إليها بفضله		لأجرى لها نهراً كما النيل يدفق
أتونس بعد الأنس نالتك وحشة		فسحي دموعاً بل دماً يترقرق
ويا أهلها كم قد بلغتم من منى		وأيامكم أعياد والأمن مطلق
أبى الله أن تُعفى ديار أعزة		وتدرس آثار المعالي وتُمحق
عزيز ديار الشرق صار غريبها		بمصر بها يرجو سعوداً ويشرق
ومن كان معروفاً غدا متنكراً		فكيف حياة بعدما زال رونق

وشرحها أبو الفلاح شيخ الشيوخ سيدي صالح الكواش ، واختصره العلامة رئيس أهل الفتوى المالكية أبو العباس الشيخ أحمد بن حسين كما أخبرني بذلك ابنه العلامة شيخنا سيدي حسين .

ومن شعره في فوارة أحدثها ببستانه بالجزائر :

فوّارة بعثت حباباً طالعاً		نحو الدراري فأنثنى بجمان
وتدير قوساً منحنٍ في بركة		لصفائها خيل السماء اثنان

وفيها يقول بعض جلسائه :

لك الله من فوارة دام حسنها		ولا عطلت من رائق السلسل الراقي

كأن الزلال العذب منها وصوته شفاء شجٍ ترجيه هينمة الراقي

وقال فيها مفتي الجزائر لما أطلعه على ما قيل فيها وقد زاره في بستانه المذكور :

ولله روضٌ مشرقٌ جاده الحيا على طرب حث المدام به ساق
كأن به الأنبوب يزعج ماءه قضيب من البلور قام على ساق

وتذكرت ، والشيء بالشيء يذكر ، ما قيل في خصّة جعلها أخو صاحب الترجمة الأمير علي باي بمقصورته باردو ، فقال فيها العلامة الشيخ أبو عبد الله محمد الشحمي :

ونضّاخة تجري بعذبٍ كأنها قضيب من البلور في جسد الدر

فقال العلامة سيدي عبد الكبير الشريف مجيزاً :

وإن انسكاب الماء في جنباتها كفيض يد الباشا بنائله الغمر

فقال الشيخ محرز مجيزاً وكان كاتباً :

كأن مثار الماء معصم غادة أساورها تلك الجفان من الدر

وقال فيها أبو الحسن الغراب :

ونضاخة في الأوج يعلو صعودها كقطعة بلّور تضمنها ثلج
حكت برّ مولانا المعطر بالثنا فمن أمّة قد نال منه الذي يرجو

ومن شعر صاحب الترجمة قوله متحمساً :

أيشبهنا في العالمين قبيل ونيل عُلانا ما إليه سبيل
أرى العزّ لا يؤوي سوى بيت مجدنا ولا في حمانا يستذلّ ذليل
وأعراضنا بين الأنام جواهر وجوهرنا في الخافقين يسيل
صوارمنا تصغى على طول دهرنا لها في رؤوس الدارعين صليل
إذا استقبل الأعداء صارم سيفنا فماضيه بالنصر العزيز كفيل
وإن نحن سرنا في كماة جيوشنا وللخيل وقع في الثرى وصهيل
تكاد جبال الأرض من عظم بأسنا تذوب على سطح الثرى وتميل

دع الجبن والإحجام في طلب العلى فللموت وقت ليس عنك يحول
فما العار فيمن مات للعز طالباً وليس حياة بالحذار تطول
لكل خليل في الورى رأي خلّه وليس لنا غير الحسام خليل
وليس سوى نهر المجرة يشتفي لنا إن ظمئنا للورود غليل
ولم ندّرع شيئاً سوى الصبر وحده فليس لنا في الدهر منه بديل
ولم نعتمد إلا على الله وحده له العروة الوثقى إليه نؤول

237 – الشيخ محمد الشافعي بن محمد بن القاضي الشريف المالكي الباجي الأصل

نشأ هذا الفاضل طالباً للعلم ، فأخذه عن علماء تونس بجدّ لا يعرف الفتور . حتى كشف عن مخدراته الستور ، فتملأ علماً ، وبرع ذكاء وفهماً . ثم تصدّر لإفادة المعارف فوسم بين أقرانه ، بإجادتها فاقتطف المجتنون من نور رياضه ، وكرعوا من سلسبيل حياضه ، ما أمطاهم متن العُلى ، وقلدهم من جيد تعاليمه محاسن الحلى ، فكان بحراً يتدفق . وشعلة تحقيق وتحرير نورها يتألق . وكان وحيد الدهر ، في صناعتي الشعر والنثر . قد حمل رايتها ، وملكت كفه غايتها . ثم اختص برأس الدولة الحسينية ، ومؤسس مجادتها السنية ، وامتزج بأبنائه الملوك ، واسطة عقد السلوك . فلما ألمّ بهم الحادث ، وعبثت بدولتهم الكوارث ، تمسك صاحب الترجمة بغرزهم ، واحتمى بمنيع حرزهم ، واحتمل معهم مضض الغربة ، وانتصب معهم دريئة لتلقي نكبات الزمان وحربه . وكان يسليهم بأدبه ، ويجلي عنهم الغموم بعلمه لا بنشبه . ويكتب عن الأمير محمد الرشيد باي في الأغراض ، وقاد صعاب المقاصد في ذلك وراض . وشفى من صدر البيان أواماً ، وقضى في صحبتهم بالجزائر اثنين وعشرين عاماً ، استطلعوا فيها خبايا سريرته ، فحمدوه في السراء والضراء على سيرته . فلما انجلت الخطوب ، وتبسم لهم الدهر القطوب ، واسترجعوا الحق المغصوب ، وألقت الإمارة عصاها فاستقر بها النوى ، واستوى بشر عراقها على دستها واحتوى . كان صاحب الترجمة متفيئاً ظلالهم ، وملتحفاً بضافٍ من لباس جلالهم . فعاود مرابع ناسه ، ومعاهد مطالع إيناسه . فعرضت عليه الخطط السنية العلمية ،

فأعرض عنها إعراض من فحص أخلاق الدنيا الدنية . وعلم عقبى الرئاسة ، فأحكم من قربها إياسه . واختار أن يقطن بجبل المنار ، متفرغاً للعبادة شأن العقلاء الأخيار ، فأجري عليه رزقه ، ونفعه ببركة أتباع الحق صدقه ، محفوظ المنزلة ، مسموع الكلمة ، ملحوظاً بعين الإجلال ، معتبراً في كُمّل الرجال . شرح قصيدة الأمير محمد الرشيد باي الميمية المسماة بمحركات السواكن بشرح سماه **إبداء النكات** بسط فيه القول وأشبع ، وحسبك به ديوان أدب به الأنفس تتمتع . دلّ على طول باعه في العلوم العربية ، وامتداد نفس نفسه الأدبية . ولقلة العناية بمؤلفات التونسيين وزهادة أغلبهم في ذلك لكساد العلم وغلبة الجهل ، وربما نشأ عن المنافسة العصرية لم ينتشر هذا الشرح على نفاسته في الأدب ، حتى إني لا أعرف غير نسخة واحدة منه ، نصفها ملك ونصفها الثاني حبس بخزنة جامع الزيتونة ، رام مالك النصف الأول استنساخه لتكمل نسخته فألفاه قد ضاع من خزنة الجامع ، وعوّض بغيره . ولا أدري أتوجد غيرها أم لا . وهكذا أكثر مؤلفات التونسيين تضمحل بهاته الأسباب ونحوها مع نفاستها . وأزهد الناس في العالم أهله وجيرانه ، ولكن التونسيّون أفرطوا في ذلك للأسباب التي ذكرنا .

وكان صاحب الترجمة فقيهاً أصولياً ، قد حل من كل علم خصوصاً علم البلاغة مكاناً قصياً ، ولم يزل في منزلته السنية ، إلى أن حلت به المنية .

ومن شعره وكتب نسجاً بالراية التي صنعها الأمير محمد الرشيد باي بالجزائر البديعة الشكل وأهداها لحسين باي قسنطينة المتكفل بإنجاده والمتأمر بنفسه على أجناده لما حان إيابه لاسترداد البلاد :

سمح الزمان بغثه وسمينه	هذا حسين تاجه بجبينه
ناهيك راية عزة أهدت كما	أهدى الصبا رياه من نسرينه
طابت بك الدنيا كما طاب الكرى	والمندل الهندي في دارينه [1]

ومنه في فوارة أنشأها الأمير محمد الرشيد باي في إيوانه الذي أبدعه ببستانه بالجزائر أيام تغرّبه عن وطنه ومفارقته لسكنه :

---

(1) المندل : عود الطيب ؛ دارينه : موضع يُجلب إليه الطيب .

يا رب فوارة أبدت لنا عجباً يحكي نضاراً مذاباً ناره الجاري
لها شهاب من الماء الزلال له كسف تساقط بين الماء والنار[1]

قال صاحب الترجمة : ولهذين البيتين حديث حسن . وذلك أن المولى أيده الله قعد ليلة بإيوانه الذي أنشأه ببستانه في الجزائر أيام تغرّبه عن وطنه ومفارقة سكنه وقد كلل بهاؤه بسرج اللهب ، وشيدت جدرانه بمذاب الذهب . وتأرّج بالند نسيمه ، وتضرّج بالهزل والجد نديمه . والروض سندسي الغلائل ، عبقري الشمائل ، نسيمه معتل ، ونوره مكلل بالظل . والبدر نضاري الأديم ، يريح نفساً ، ويجلب أنساً ، ويستفصح من سروره ورقاً ، ويستومض من حبوره برقاً . وأحاطت به أصحابه للسمر ، إحاطة الهالة بالقمر . وقد كان حفظه الله أبدع بهذا الإيوان فوارة ، كأنها من الحسن معارة . أعدها لنبع الماء وبل الصدا ، وحين جرى ماؤها في سبيلها ، وانهل عذب سلسبيلها ، لم تلبث أن بدا حشاها ، وباحت بما في أحشاها . تمج مجاجاً ، عذباً ثجاجاً . دبر في بطنها فصعد ، وانفصل لكمال الأمد . بلغ النسرين علواً ، والنيرين سمواً . ثم عاد نقط ، وجواهر تلتقط ، بلون السرج ملونة ، ومن النار مكونة . فاهتز اهتزاز من ظفر بأرب ، وغولب فغلب ، وأخذ القلم على البديهة وكتب . ا هـ .

ومنه :

قصرت ذوائبه كليل مسرة لا تعجبوا فالوجه منه ربيع
في ليله ميل إلى قصر المدى ميل القلوب لمن له التوديع

ومنه :

لا غروّ أن قصرت ذوائب من بمغـ ـناطيسه انجذبت له الأبصار
أو ما محياه الربيع شمائلاً طابت لياليه وهنّ قصار

ومنه يمدح الجناب النبوي الكريم ندبه لذلك الأمير محمد الرشيد باي :

ألم يأن للمشتاق أن يعلم الرسا ويعري عن البيد الرواسم والرسا

(1) كسف : جمع كسفة وهي القطعة من الشيء – .

وهل آن إلقاء العصا نحو رامة ويأنس آراماً بأرجائها بغما
فيقضي مراداً من كدا وتهامة ويشفي فؤاداً من سعاد ومن أسما
وينتشق الريحان من نحو حاجر فناهيك من نحر وناشقه شما
أيا بارقاً يسطار وهناً بعالج أضاء به الأدنى من الكون والأسما
أأنت أم الحسناء شالت لثامها وقد حظرت عنها التلثم واللثما
وما شاقني إلّا حمائم سجع يسجعن للضلّيل وابن أبي سلمى [1]
يرددن شجواً فوق أفنان أيكة كأن عنانا تنقر الزير والبما [2]
ويا راكب الوجناء إن زرت وادياً وجاوزت أطواداً به أنفاً شمّا
تحمل سلاماً مسك دارين نفحة إلى قمر من بين آفاقه نما
ويا أهل ودّي هل لذي الهجر عندكم بلاغ وهل أحظى بوصلكم يوما
فلا عجب أن ذاب فيكم متيم إذا زمزم الحادي وإجماله زمّا [3]
ويا لائمي أغريتني مذ عذلتني فلا عذل مسموع لدي ولا لوما
فلا تعذلوا القلب الكليم فتنصروا على صبره الوجد المبرح والكلما
كتمت هواهم مذ كلفت بحبهم ولكن دمعي بالحقيقة قد نما
وتسعدني مهما هممت بزورة عذاقرة أدماء تستعقب السهما [4]
إذا انبعثت تفري الفلا بخفافها فخطوتها واللحظ مبتدرا المرمى
مناسمها في البيد كف مشعوذ فليست تحيط العين من كنهها علما
إذا اتهمت فالسيل أزعجه السما وإن أنجدت صكت بذروتها النجما
تبلغني داراً دوين فنائها وجوه تراءت في طلاقتها جهما
ديار الذي أرسى من الدين ما رسا له الخطة العلياء والرتبة العظمى
ديار الذي أجدى وجالد للهدى وصال على الأعداء واهتز واهتمّا
هو المصطفى الهادي لمن ضل رحمة هدى العرب العرباء والعجم العجما
فيا خير من والى وولّى ومن علا ويا خير من صلّى ويا خير من أمّا

---

(1) الضليل : امرؤ القيس .
(2) عنانا : لعله أراد جارية الناطفي المشهورة في كتب الأدب ؛ الزير : الدقيق من الأوتار ؛ البم : الغليظ من أوتار المزهر – .
(3) زمّ : شدّ رحالها .
(4) عذاقرة : الناقة الشديدة .

رفعت إلى مبرور بابك قصتي ومسألتي فأفرج لي الحادث الجما
هو الحادث الجليّ والنازل الذي حمى عن مآقينا الكرى عندما حما
فلا ملجأ إلّا إلى بابك الذي به تكسب النعما وتنكشف الغما
تفردّت في العلياء غير مزاحم كما أن نظمي فيك قد غلب النظما
وماذا عسى يثني عليك وقد ثنى عليك الذي أجلى بك الغبن والغيما
فما حملت أنثى ولا وضعت فتى كأنت وكان البيض في مثل ذا عقما
إليك وهل يلجأ لغيرك عائذ من الواصل البغضاء والقاطع الرحما
عليك سلام الله ما قام عابد وقال خطيب فوق منبره أما

ومن شعره في دالات الربيع قوله :

يُهنّيك مقتبل الربيع بسبعة قد أفصحت بلغاتها الأطيار
دير وديباج ودنٌ دمية والدفّ والدولاب والدينار

وفي فاءات الصيف يقول :

هيأت للصيف إن وافى مرافقه سبعاً بها يزدهي الإنسان والجان
فيء وفلس وفتيان وفاتنة وفوطة وفراديس وفنجان

وفي خاءات الخريف يقول :

عليك إذا جاء الخريف بسبعة فهن له من أن يجور أمان
خيام وخِلٌ ذو صفا وخريطة وخود وخمر خادم وخوان

238 – رئيس الكتاب أبو العباس أحمد الأصرم القيرواني الأصل

نشأ هذا الأديب في طلب العلم فاقتطف من زهره يانعاً ، ورفع عن غرائسه براقعاً ، وأناره متألق من برقه ساطعاً . حتى امتلأت حقائبه ، وبلغ منه مآربه . وبهرت محاصيله ، وصال صولة البزل فصيله . وضرب في كل فن بسهم مصيب ، وخصّ في قسم حظوظها بأوفر نصيب . وجلّى في حلبة الأدباء ، وتميز بين أقرانه منها

بأجزل حباء . فكان فارس الكتابة ، والخائض من يمّ الأدب عبابه . ما شئت من شعر كأنه القلائد ، في نحور الغواني الخرائد . ونثر كالروض جاده المطر ، فازدانت أماليده بشذى الزهر . اختصّ بالدولة الحسينية ، واقتعد منها ذروة سنية . وانضاف الى أشبال الإمارة ، وانتشق من نجد جودهم بهاره وعراره . ولما حلّت الحادثة ، وداهمتهم بفظائعها الكارثة . كان صاحب الترجمة ممن صاحب ركابهم ، ولازم في السراء والضراء أعتابهم ، حتى كان يحمل الأمير محمد الرشيد باي على كاهله إذا أعياه المشي حتى بلغ منجاته من الجزائر ، فحفظوا ذلك العهد ، وأولوه خير جزاء من بعد . فاقتعد دست رئاسة الكتابة ، لما أتاح الله إلى تونس معهم إيابه . فأثل مجداً بها لأهل بيته ، أشاد في الأقطار التونسية بصيته . غير أنه لم يطل بها إلمامه ، حتى اقتطفه من سعادته حمامه . فتوفي ولا يزال الأمراء الحسينيون يرعون لآله عهد أبيهم ، حتى جعلوا رئاسة الكتاب فيهم . فتداولها خلفهم عن السلف ، إلى أن خفّ قطين تأهّلهم وزرع اضطلاعهم بها جفّ . وكل شيء فإلى زوال ، والملك لله الكبير المتعال .

ومن شعره مقرضاً قصيدة مخدومه محركات السواكن :

بنت فكر لما أماطت خماراً	ثمل الناظرون منها خمارا[1]
كاعب ناهد عقيلة شعر	تخذت حلة البيان شعارا
أطلعت زهرها شموس طروس	فعجبنا من الدراري نهارا
وبدت في سمائها بدرَ تمٍّ	ليس فيها سوى المداد سوارا
شمس مجد تطلعت من نظام	تستبيح الألباب والأفكارا
بلحاظ من البديع مراض	نفثت في خلالها الأسحارا
لا تقل إنها استعارت من البد	ر سناها فالبدر منها استعارا
ألبستها يد البلاغة والملـ	ـك حلاه فبذّت الأقمارا
ذات دل قرت بحجر مليك	في مجالي الفخار ما إن يجارى
رام صوغ القريض شبه لجين	فابى أن يكون إلّا نضارا
زينت بامتداح خير البرايا	عبق المدح سوسناً وبهارا

(1) خمارا : ألم الخمر ولعلّ المراد الثمل .

سددت قوسها لرمي الملما ت كأني بها تدلت فرارا
أيها السيد الهمام المفدّى راضع المجد خالصاً ....[1]
أظهر الدهر منك معنى ولولا ظلمه للورى انتحى الإظهارا
فلئن قام عن علاه عساه ينتضي منك ذابلاً خطارا[2]
فلتدم سالماً لنا والمعالي نحو ذاك الذرى تحثّ المهارا

ومن شعره في فوارة بإيوان بستان مخدومه الأمير محمد الرشيد باي بالجزائر باقتراح منه :

وفوّارة حاكت بوشي رحيقها حباباً نضيداً يفضح الأنجم الزهرا
تحاكي إذا أنهلت بسلسال مائها كريم أناسٍ في العطا ينثر الدرا

239 – أبو الحسن علي الغراب الصفاقسي

ولد بصفاقس ، وبها نشأ ، فأخذ العلوم والأدب ، واشتهر فضلاً وذكاء . ترجمه الشيخ محمود مقديش في تاريخه بقوله : كان فقيهاً عدلاً ، ذا حظ في علم الحساب والميقات والمنطق ، وأما علوم التاريخ والبلاغة فحدث عن البحر ولا حرج . وأما تورياته وتشبيهاته واستعاراته وكناياته فأمر مشهور . من وقف على كلامه ، اعترف بفضله ونباهة شأنه ، وألحقه بالشعراء المجيدين المتقدمين . اعترف بفضله أهل الفضل شرقاً وغرباً . قال أبو القاسم الأديب المصري : لا أعلم أحداً في هذه الأعصار المتأخرة أدرك شأو الغراب لا من المشارقة ولا من المغاربة . والحق ما قاله فإن جميع الأدباء من ذوي الفضل والإنصاف مقرون بفضله وعلو طبقته . ولما رحل شيخه أبو الحسن الأومي الى مصر كاتبه صاحب الترجمة بقصيدة امتدح فيها علماء الجامع الأزهر ، ونوّه بشأن الشيخ العلامة أبي المحاسن يوسف الحفني محشي الأشموني على الخلاصة . فلما وقف على القصيدة الشيخ الحفني وظهرت له بلاغتها وفضل قائلها وقوة عارضته في الفنون الأدبية قال : كم في الزوايا من المزايا ؟ وكان مؤيداً في شعره ا هـ

(1) بياض بالأصل .
(2) الذابل : الرمح الرقيق ، والخطار : المهتز – .

ملخصاً .

كان شاعراً مفلقاً امتدح الأمراء وحاز جوائزهم الطائلة . له مقامات في نهاية الحسن منها المقامة العبائية والمقامة الهندية ، وله ديوان شعر كبير متداول بين الناس ، كله عيون انتهت إليه بدائع التورية . توفي سنة 1183هـ بصفاقس .

ومن شعره مورياً بجامع الزيتونة وجامع الهوى الكائنين بحاضرة تونس في جامع زيتونة فاتن بحسنه يطلب منه التفضل بمعروف وصاله :

جمعت هوى ظبي وقد كان جامعا ... لزيتونة من فوق أغصانها التوى
أيا جامع الزيتونة الفاتن الورى ... تفضل بمعروف على جامع الهوى

ومنه مورّياً بمن إسمه عطاء الله :

يا مانعيّ وصال من أحببته ... بقوارع وزواجر ونواهي
الله أعطاني حبيباً مخلصاً ... فنعتموني من عطاء الله

ومنه يمدح الأمير علي باي لما ثار عليه جبل وسلات تشتمل على حكم :

زارع البغي حاصد للندامه ... فاطلب السلم إن أردت السلامه
لا تثق بالمنى فما كل باغٍ ... نال ما يرتجي ووفّى مرامه
ربما كانت الأماني مطايا ... للمنايا ومورداً للندامه
ربما خيلت لراجٍ منالاً ... مثلما خيلت لراءٍ منامه
رُبّ ساعٍ ليجتني طيب عيش ... وهو يجني وليس يدري حمامه
من سما طالباً لما ليس يرجى ... طلب العيش من لهاة أسامه
دع هوى ما إليه نفسك تدعو ... فالهوى للهوان يعطي زمامه
واصحب الرأي ما استطعت بعزمٍ ... منك يفري مضاؤه الصمصامَهْ
وإذا الرأي ما اهتدى لك فاجعل ... في يد الصبر لا سواه خطامه
واركب الحزم في الأمور إذا ما ... بان وجه الصواب واشدد حزامه
واغتنم فرصة بدت من عدوّ ... إنّ من أعظم السرور اغتنامه
وأبلِ من تصطفي لنفسك سراً ... كي ترى منه صحوه وغمامه
ودع الرأي والنصيحة ممن ... بسوى الجمع لا يسوم اهتمامه

إنما رأيه يعود لنفعٍ | عنه لم يرعَ في سواه انتظامه
وإذا ما وشى بذي الفضل واشٍ | فاعتقد عكسه ووالِ انصرامه
وإذا ما اعتقدت في العهد شخصاً | كن على يقظة وراعِ ذمامه
لا تذع ما كتمته من عدوّ | لصديق فلا يطيق اكتتامه
وإذا ما صحبت رب اتهام | لا تلم من يسوء فيك اتهامه
لا تطل في تردد لحبيب | لك فالطول مؤذن بالسآمه
وإذا مسك الزمان بعسر | وأباد اللئام منه كرامه

ثم تخلص إلى مدح الأمير ، ثم أفاض في تقريع أهل جبل وسلات بقوله :

قل لقومٍ بجهلهم خالفوه | فيم سوء الخلاف ذا وعلى مه
حكم الله أن ملك علي | وبنيه إلى المعاد أدامه
بطريق القضاء والكشف عمن | بالصلاح ارتدوا وأهل الكرامه
لا تزال السعود تقضي بما قد | يتمناه والزمان غلامه
فاقطعوا بالإياس حبل الأماني | إن في السحب ما يسمي جهامه
وصلوا منه بالإطاعة حبلاً | قبل أن ينفذ القضاء سهامه
أتروا صادت الثعالب ليثاً | أو تروا صادت الصقور حمامه
أهل وسلات الجفاة قلوباً | من وفى عهدهم يخونوا ذمامه
خالفوا المسلمين حيث استحلوا | منهم المال والدما والغرامه
كلٌّ لعنٍ وكلّ خزي عليهم | في الدنى والعذاب يوم القيامه
فقد استمسكوا بواهن حبل | عن قريب يرون منه انفصامه
وتعود الفعال منهم عليهم | حسرات يرونها وندامه
أرضيتم شق العصا عن مليك | جمع العدل فيه والإستقامه

وهي طويلة كلها عيون .

ومنه يهني الأمير علي باي ببناء مراكب جهادية :

بشائر في الإسلام زاد بها عزاً | وآيات نصر نورها يذهب الرجزا
بها قوي الدين القويم وإنما | بها الكفر ولّى مدبراً وانثنى عجزا

سوابح فلك للمغانم انشئت ... يسابق أفلاك السما جريها وخزا [1]
يفوز بأجرٍ من علاها ومغنم ... إذا ضربوا في البحر أو ركبوا غزا [2]
عليها لواء العز والنصر خافق ... ولكن جموع الكافرين بها تخزى
إذا لقي الإسلام كفراً بها ترى ... جميع العدى أسرى وأعناقهم حزا
عليها من الرجحان حرز من العدى ... على أنها للمسلمين غدت حرزا
فمن لجهاد الكافرين بها استوى ... بأجرٍ جزيل راح أو مغنم يجزى
لقد كان جيد البحر في الغزو عاطلاً ... الى أن أتت هذي الشواني له طرزا
كأن الجواري المنشئات بيادق ... وكل غدا من هذه بينها فرزا
تردّى بها الكفار ثوب مذمة ... وقهر وثوب العز منهم قد ابتزا
إذا سمع المستأمنون بغزوها ... نعى بعضهم بعضاً له وله عزّى
ألست تراهم حين جرّت وأدهشوا ... ثلاثة أيام تكلمهم رمزا
صموتاً فلم تحتّسِ من أحد لهم ... إذا لاح أو تسمع له في الملا ركزا
إذا نشرت للطرد أشرعه لها ... شهدت بها العقبان تختطف الوزا
كأن صارخ البارود منها وبيضها ... رجوم هوت إثر الصواعق بالأرزا
طراريد كل كالطواويس خفقت ... وأعلامه مثل البروق إذا فزا [3]
يرى للأعادي بالجناحين طائراً ... ولا عجب فهو الغراب له المغزى
لئن سودوا بالقار منه جوانباً ... فإن بياض الغنم في وجهه أجزا
يصول بأبطال الجهاد كأنهم ... عفاريت جنٌ في الوغى حربهم وخزا
إذا قابل الكفار في الحرب إنما ... ثعالب لاقتها أسود الشرى وكزا
تشاهد بيض الهند حلت رقابهم ... وتبصر للسمرا بأعينهم غمزا
ترى ألفاً للقطع في وصلها بهم ... ولكن ترى في كل رأس بها همزا
جوار بأسد الغاب والقضب دونها ... تناجز شرك الروم في رصعها نجزا [4]
جميلة صنعٍ من صنيع مملك ... جميل المزايا قدره جاوز الجوزا

---

(1) وخزاً : لعله من قولهم جاءوا وخزاً أي أربعة أربعة .

(2) غزاة — .

(3) طراريد : السفن الصغيرة ؛ فزّ : نهض .

(4) رصعها : الطعن الشديد — .

ثم أخذ في مدحه وهي طويلة .

ومن شعره وكاتب به أبا العباس أحمد العصفوري متشوقاً إليه مورياً بلقبهما :

دمع العيون همّى كفيض بحور وألفت أحزاني وبان سروري
يا ليت شعري هل أفوز بقربه إني لمولوع بظفر شعوري
ومتى شدت في الأيك ورق حمائم هاج الغراب الى لقا العصفور

وله مقتبساً :

وبدرٌ إذا ما بدا مسفراً ترى البدر في أفقه يُحجب
إذا ما تبسّم عن لؤلؤ يكاد سنا برقه يذهب

وله في ذلك أيضاً :

وبدرٌ إذا ما بدا في الدجى يخرّ له البدر في أفقه
إذا ما تبسّم عن لؤلؤ تي يكـاد سنا برقه

وله :

ألا قل لقوم حللوا شتم عرضنا ومن حلّل الممنوع في الشرع كافر
وماذا يقول الشاتمون لعرضنا وأعراضنا بين الأنام جواهر

وله فيمن به دمل :

لئن ظهرت في الجسم منك طوالع ففيها دليل عن كمالك قاطع
لأنك أفقٌ للكمال بأسره وإن من الآفاق تبدو الطوالع

وله في بخيل :

وباخل يجمع الدينار قلت له أنفقه في البر إن الله يخلفه
فقال يا من نحا للنحو ما سمعت أذناي من يجمع الدينار يصرفه

وقال :

دع الشعراء في مدح وذم لجلب الرزق تضرب في البلاد

فهم مثل الضفادع أين حلّوا ألم تَرَ أنهم في كل واد

وله مورياً بكتابي التهذيب وشرح القطب على الشمسية في علم المنطق والسلّم :

ومن رام في التهذيب يحكيك منطقاً بلا سلّم رام الوصول إلى القطب

وله في وصف حقة :

كأنما الحقة السوداء حين علت من فوقها نقط بيض ودارات
سماء عنبر فيها أنجم ظهرت من اللجين وفيها منه هالات

وله أيضاً وهو بديع :

أرى نفة الأنف لو لم تكن أميراً على الكيف من غير مَيْن
لما كان مسكنها قصبة وتلزمها نوبة الأصبعين

وله أيضاً :

أنحل جسمي الحب حتى غدا جوهر فرد ما له قسم
فلو به احتُجّ على مدّعٍ قسمته لأنقطع الخصم

وله فيمن يلقب بالعقربي :

قد صحّ أن العقربي لعقرب نسبوه وهو لغيرها لم ينسب
هو عقرب لدّاغة بلسانه فإذا بدا لك خذ بنعلك واضرب
أعطيته جعلاً ليحرس منزلي فأجابني برضاً ولم يتقطب
فثناه عن جعلي أراذل مثله كل بتعنيفٍ له وتقطّب
فذممتهم في القول ثم مدحتهم لزوالهم عني بمدح مطنب
إذ كان عذلهم الذي عذلوا به رصداً لداري من دخول العقرب

وله مشطراً قول إبراهيم بن سهل :

شوقي إليك ولا حملت شوقي قد أفنى القوافي وأفنى الدمع والغزلا !

بقوله :

شوقي إليك ولا حملت شوقي قد يدكّ من حمله الريان لو حملا
شعري ونحبي وطول الصد منك لقد أفنى القوافي وأفنى الدمع والحيلا

وشطر هذا البيت شاعر تونسي متأخر عنه ، وهو أبو الثناء محمود قابادو بقوله :

شوقي إليك ولا حملت شوقي قد أصارني بين أرباب الهوى مثلا
أفنى اصطباري وجسمي والفؤاد كما أفنى القوافي وأفنى الدمع والحيلا

240 - أبو عبد الله محمد الورغي

نشأ في طلب العلم واكتساب الأدب ، فقرأ على علماء جامع الزيتونة حتى امتد باعه . واتضح بالعلوم اضطلاعه . جيد التحصيل في علمي الكلام واللسان ، محسن في صناعتي الشعر والنثر أي إحسان . تصدر للإقراء بجامع الزيتونة فجلّى في ميدان التحقيق والإفادة ، وأحرز الخصل في التحرير والإجادة . قلد الكتابة فأنيط عقدها بلبة حقيق ، ومستأهل لها خليق ، فجبر ودبج ، وعطّر أرجاء الآداب وأرج . كان له في دولة الأمير علي باشا كلمة مقبولة ، وله فيه أمداح منقولة . ثم لما انتقلت الدولة للأميرين محمد وعلي ابني الأمير حسين بن علي شمله عفو ، لم يكدر عليه ما كان فيه من الصفو . وانتظم في سلك الكتاب ، وتردد على تلك الأبواب ، رعياً لما له من التحقق بتلك الصناعة ، التي يقصر عنه مزاحمه إذا أجال فيها يراعه . له ديوان شعر كبير . ينسيك حسنه الروض والغدير . ومقامات إحداها على لسان خمارة هدم الأمير علي باي بناءها وابتنى موضعها مدرسة . وما زال في فلك علاه ، متجملاً بحلاه . إلى أن توفي سنة 1190هـ .

ومن شعره يمدح الأمير علي باشا ويذكر بناءه بأعلى برج باردو الذي بقرب المحكمة ويهنيه بعيد الفطر :

أعيدا حديث الأنس عن ساكني السفح عسى تُبْرِدَا ما بالجوانح من لفح
وإياكما ذكر العذيب فإنه على غيرتي عنه غني عن الشرح
خليلي لا أنسى وقد جئت حيّها وحيداً أسر الخطو في غيهب الجنح

تطالعني الجوزاء شزراً وينطوي ... على حنق قلب السماك مع النطح [1]
وما وطأت رجلي على غير شائك ... ولا قبضت كفّاي إلا على رمح
أداول منها لفتة لا لريبة ... وأطلب منها نغمة لا على قدح
ولولا انتشار النشر من طي ردنها ... وبرق ثناياها ظللتُ إلى الصبح
فأيقظها ملبعد خفق حشاشتي ... وقدعاب حرب الدهر فيها الى الصلح [2]
فوافت وبالله كابن محمد ... وقد قام للتعييد في ساحة الصرح
ألا إنه الباشا الذي اعترفت له ... ملوك الورى بالخَلْق والخُلُق السمح
همام إذا عاينته قلت إن من ... سواه من الأملاك من جملة السرح [3]
طوى لاكتساب الحمد كل تنوفة ... وأصبح عن كسب الهوى طاوي الكشح
وأظهر في ذا الملك كل عجيبة ... يغني بها طير الفخار على دوح
رأيناه لما ودع الصوم راجعاً ... وأقبل عيد الفطر في معرض الفرح
تطلّع من بين الأساطين مثلما ... تطلّع وجه الرشد من خلل النصح
وقام لإعطاء التحية مقبلاً ... كما انتصب الركن اليماني للمسح
وأبرز للتقبيل كفّاً لو أنها ... تمر بمقروح لصحّ من القرح
ولا شك أنّا إذا لمسنا يمينه ... ظفرنا بكنز اليمن من معدن الربح
فيا أيها الغيث الذي قطر جوده ... من الدر والإبريز منتشر السح
ويا أيها السيف الذي انقطعت به ... رقاب بني البهتان من غير ما جرح
فداك من الأسواء كل مملّك ... سجيته وقف على الجبن والشح
وهنيت بالعيد الذي كل موسم ... على إثره أزكى وأعظم في النجح
تحاشى وأيم الله عن كل وصمة ... سوى أنه قد جاء في أثر الفتح
فلاقاه من والاك كالزهر باسماً ... وواجه من عاداك في غاية القبح
وأنعم بهذا القصر دهرك بادياً ... لك البشر من ارجائه عالي القدح
حواليه مثل الغيد أرخت ذوائباً ... ولولا الحيا مالت أمامك للشطح

---

(1) النطح : نجم .
(2) ملبعد : أي من البعد وهي لغة للعرب - .
(3) السرح : الأنعام .

ترى كل بيضاء الأديم توكأت ... على مثلها سمراء في جودة السطح[1]
شددن على الأوساط حزماً كأنما ... يرجين أن تدعو الجميع إلى الكدح
وقُمْنَ على دست النظار كأنه ... من الثلج إلا أنه فاقد الرشح
بدائع أزرت بالبديع وأغمدت ... مصانع ذي غمدان في حيّز الطرح
ورام يحاكيها السدير فما له ... وأين من السعدان نابتة الطلح
بعثت بها للشرق والغرب خطة ... تخط بها أقلام مجدك في لوح
فلا زلت تبدي كل حين غريبة ... تروق النهى بدءاً وتختم بالمدح

ومنه معارضاً ويذكر معاهد تونس حرسها الله ومنازهها :

باكر صبوحك ليس الوقت بالدون ... واجعل صباحك عند باب سعدون
واصحب إلى الأنس جذلان الفؤاد إذا ... أطفت حمياك نار الصعب باللين[2]
ماذا التوقف عن عيش تُسرّ به ... وقطع آنك في حدس وتخمين
فاخلع عذار التوقّي من عواقبه ... ما الحزم تركك قطعيّاً لمظنون
أما ترى الروض قد ألقى السحاب به ... على طريق الغوادي أي بُزيون[3]
قد وشحته فنون النور وانبسطت ... على خمائله ظل الأفانين
كأنما قزح لما تقوس في ... أرجائه رشّه من كل تلوين
وقف هنا بأبي فهر الجليل فقد ... مضت به دولة الشم العرانين[4]
ترى الحنايا كسطر النخل مُدّ به ... بعض لبعض كمحنيّ العراجين
أو خرّد نهضت للرقص فاعتنقت ... كي لا تجيء برقص غير موزون
ولست صاحب ظرف إن مررت على ... مرمى الظريف ولم تنزل إلى حين
والعبدليات تحكي في تصنعها ... حرائراً جئن في غنج وتزيين
وما مقيم لدى الأفيا بسكرة ... على القلالية الغنا بمغبون[5]
ولو وقفت بقلمرت التي جمعت ... شطوطها بين مرعى الضبّ والنون

---

(1) السطح : الأعلى -
(2) حمياك : خمرك .
(3) بُزيون : سندساً .
(4) أبي فهر : من رياض الحفصيين .
(5) الأفيا : جمع فيء وهو الظل الذي نسخته الشمس .

وميل لمنوّبة وقت العشي إذا ... فاح الأصيل بها بين البساتين
وانظر إلى القصر والأخرى تناظره ... مثل البيادق طافت بالفرازين
والطير تصدح في حافاتها زمراً ... جموع عجم أتت بعض الدواوين
ورح إلى رادس العليا وقبتها ... بين البساتين تبدو مثل شاهين[1]
حتى إذا ما قضيت البعض من وطر ... ورمت إيقاع فرض بعد مسنون
فاركض الى ضحوة المركاض وانس به ... ما كان عندك من وحي الشياطين
واحضر عشية باب البحر مغتبطاً ... فربما نفّست عن نفس محزون
أما ترنجة فهو البر لو سلمت ... ساحاتها الغر من لسع الثعابين
وارجع إلى البيت من باب المنارة أو ... باب الجديد إلى سوق الرياحين
وطف من البركة المعمور جامعها ... إلى الرباع إلى ركن القرسطون
وأخشَ الحجار لدى بئر الحجار إذا ... سعيت منها إلى حمام زرقون
و إن خرجت إلى روض السعود فقف ... كما عرفت وبت في درب زيتون
تلك المنازل لا الزهرا وقرطبة ... كلا لعمري ولا غيطان جيرون
فصِدْ سوانحها إن مكنتك وإن ... تعسرت فأستعِن بمثل فرطون[2]
ولا تصدْ غير ساجي الطرف ذا حور ... فأنت في غير هذا غير مأذون
واستمنح السعد من عند الجواد به ... واستغنِ إن نلته عن كنز قارون
ولا تقل كيف يدنو ما أُؤمله ... فإن مغزاك بين الكاف والنون

ومن شعر صاحب الترجمة أيضاً في مخدومه الأمير علي باشا بن محمد لما أخضد شوكة بعض الهمَّامة قاطعي السبيل :

بين القنا والعوالي ترفع الرتب ... ولا تُرى راحة ما لم يكن تعب
ومن تسامى لأمرٍ عزّ مطلبه ... ولم يقم غازياً لم يدنه الحسب
شتّان بين ثقيل الجنب منبطح ... وضامر في لظى الهيجاء يضطرب
قد كابد السيد الباشا فما قعدت ... به الدواعي ولا أزرى به النصب
واستسهل الصعب في تحصيل واجبه ... حتى قضى في المعالي كل ما يجب

(1) شاهين : طائر .
(2) فرطون : إسم رجل .

يأبى المكارم إلّا خير أبعدها ... ويتقي نزرها الداني ويجتنب
فأي منزلة فاتته صهوتها ... أو رتبة لم يكن فيها له خبب
سل طالع الأفق عن مرسى مواطئه ... تدر منازله الآفاق والشهب
هزّته هُمام لما طال قاصرها ... حتى غدا ظاهر الغبراء يضطرب
شقّوا العصا وأشادوا مجمعين على ... ما فيه نقص الهدى يا بئسما ارتكبوا
واستضعفوا الأمر من أقصى الجريد إلى ... ما دون صبرة لا ينهاهم رهب
أعروا من الأمن من جاز الطريق بها ... فبات صبرة لا أهل ولا نشب
كم من بريء أباحوا رحله فغدا ... وهو من بعد إتراب له تَرِب
ما راقبوا في ولي إلاً خالقه ... ولا استلانوا لمن للعلم ينتسب
وأودعوا همهم في كل ماهية ... وذاك ما دل عن مضمونه اللقب
ظنوا اللوارة تحميهم وحق لها ... لكنّ بعض ظنون المدعي كذب
وغرّهم قول من لم يدرِ عاقبة ... إن الهزبر أبا الأشبال لا يثب
وكذبوا منذريهم حرّ صدمته ... وهم على القطع في تكذيبه كذبوا
فحين لم يثنهم ردع الأمير ولا ... لوت رؤوسهم الأرسال والكتب
طارت به الخيل من سيجوم فاغرة ... أفواهها وعلى أشداقها الحبب
تقلّ كل خميص البطن منجرد ... يجثو على الجرد في تأديبها دَرِب

وهي طويلة من غرر الشعر.

ومن شعره أيضاً يمدح الأمير المذكور في إيقاعه بأشياع عمه من سوف وبابنيه :

هو العز في سمر القنا والقواضب ... وإلا فما تغني صدور المراتب
وسيّان أغمار الرجال وصيدها ... إذا لم يميّز فضلها بالتجارب
ومَن زاحم الأخطار أحمد غبها ... فإما لنصرٍ أو لدفع المعاتب
ولو كان إحراز الفضائل هيناً ... لساد بمحض القول من لم يضارب
ومن عرف الأيام قصّ غريبها ... وفي قصص الباشا عيون الغرائب
هو الملك الداعي إلى الحق وحده ... وإن كثرت أهل الدعاوي الكواذب
أخو العزمات الغر لو قارع السهى ... لأصمى بسهم حيث يمّم صائب
جريء جنان ليس ينفك ناهضاً ... إذا همّ أو يبتز أسنى المطالب

يرى فلتات الدهر قبل نزولها ... ويعلم ما في الصدر قبل التخاطب
ملاذ بني الهيجا وبرد وجوههم ... إذا ما كواهم حرّها بالمشاهب
ومَن مثله يدعى لكشف ملمة ... إذا قال واغوثاه أهل المصائب
دعته جبال الزاب لما تبسطت ... يد الظلم في أوساطها والجوانب
مكان سحيق يفرغ الصبر دونه ... وأنّى من الخضراء خضر الزرائب
شكت ناعم الأعشاش أقوام غلظة ... وبأس شديد بالخليقة واصب
يجورون في الأموال والبضع والدما ... فهم بين سفّاك زنيم وناهب
وقد جرعوا الأقيال في الحرب غصة ... لوت بصباصي تُركهم والأعارب
كما رفعوا رأساً لهم بعد وقعة ... أشابت بفج (امغيل) سود الذوائب
فما خيب الداعي وحق لمن سعى ... لطلعته أن ينثني غير خائب
وهشّ لدفع الضيم أول وهلة ... هشاشة من يدعى لأخذ الرغائب
وأعرض عما جاعلوه لنصرهم ... وقال جناب الله أول واجب
ووقّع في طي الرياح إليهم ... أنا عندكم والجبن أخبث صاحب
ونادى فلبّته الدواعي وأبطأت ... نعم ريثما خطت كتاب الكتائب
وحثحثها جرداً تُخيِّرن للنوى ... وكوم ذرًى معدودة للنوائب
وما هو إلا البحر يرمي بموجه ... على الأرض إلا أنه غير ذائب
وأشكل وجه السير بين تلوله ... أفوق متون الخيل أم في القوارب
فخفّت إلى أغواره كل ضامر ... وزفّت إلى أنجاده كل شاحب
إذا كبكبت في الرمل ساخت كأنما ... تجاذبها من تحت أيدي الجواذب
فدى فارس الخضراء من كل طارق ... عيون قيام في بيوت الحبائب
أغارت على الغوار إذ ذاك غارة ... فلم تبق من شبّانه غير شائب
وأوردهم عين المهات فأنهلوا ... وأصدر عن هول كثير العجائب
ألاَ بأبي ذاك الوجيه وصبره ... على ما جرى من محنة ومشاغب
وأولى الورى بالحمد والشكر سيد ... يلاقيك بالترحاب وقت التغاضب
ووافى قماراً والنواحي فأشرقت ... ودانت لوجه من كرام أطائب
فيا أيها المولى الذي طار صيته ... فزاحم أقطار السما بالمناكب
غدت بك أجناس الفجور شقية ... حياة وفي أجداثها والترائب

ودوخت أرضاً لم يطأها بجيشه زعيم ولا وهم الملوك الذواهب
وشردت أجلاف الفلا عن ديارهم فراحوا على العميا بشرّ المذاهب
فهل بات جفن منهم غير ساهر وهل صار قلبٌ منهم غير واجب
كذلك يعلو للمحيط ويرتقي عن الدون من يبغي تقي المناقب
فلا زلت ميموناً لدى كل وجهة ونجمك مقرون بحسن العواقب

ومن شعره أيضاً مؤرخاً وفاة علي باشا وسقوط دولته :

مضت دولة الباشا عليّ كأنه من الدهر يوماً في الولاية ما عاشا
أتته المنايا وهو في عظم قوة وجيشٌ قوي مثله قطُّ ما جاشا
وصار دفيناً بعدما كان دافناً فقلت وقد أرّخته : دفن الباشا

241 – أبو الحسن علي ذويب الصفاقسي

ولد بصفاقس ، وبها نشأ ، فطلب العلم من علمائها ، ولازم الشيخ أبا الحسن الأومي ، وعنه تمكن في علوم العربية والفقه . ثم رحل إلى تونس ، فأخذ عن علمائها . واستكمل التحصيل ، فكان له حظ وافر من علمي المنطق والكلام . وله تعلق بعلوم الأوائل ، فكان مشاركاً في الطب والأغاني . وبرع في الشعر ومدح أمراء عصره ، وأخذ جوائزهم . وكان هجّاء ، فاستهجنه الناس لذلك ، وبسبب ذلك رحل إلى مصر ، ثم تلطف أبوه وسعى في رجوعه إلى بلده ، فرجع إليها ولم يزل بحره يتدفق . ولطلاب العلوم مما آتاه الله ينفق . إلى أن أدركته منيته فمات بالطاعون سنة 1199هـ .

ومن شعره مرثية في شيخه الشرقي وهي شهيرة بين أدباء صفاقس ، مطلعها :

ريب المنون من البرية دان

منها في ذم الدنيا وسرعة تصرمها :

كم نغّصت عيشاً وكم قد فرّقت بين امرئ وأليفه المتداني
وكم اغتدت وبدت مخادعة لمن قد أعجبته ولا خِداع زواني

أبناؤها أخنت عليهم فاغتدوا صرعى بخالية من السكان
ويل امرئ تلفيه مغروراً بها متلهفاً بوبالها الفتان
وتراه مسروراً بمن هو شائد لقصوره فيها ومن هو بان
أبغض بها من مستقر نوائب ومحل أكدار ودار هوان
أين الوصي مدينة العلم الرّضَى والشيخ ذو النورين والشيخان
والأصبحي ألفرد مفتي طيبة وعليمها المثني على النعمان
وأخو المكارم نجل إدريس الذي قد سار للفسطاط من بغدان
والمهتدي الصوفي مفخر حنبل وأبو حنيفة ذو العلى والشأن

ومنه ما كاتب به العلامة الشيخ أبا الثنا محمود مقديش مستعيراً لـ **شرح الصحائف** لشمس الدين السمرقندي :

أيا ذا الذي أضحى طراز المعارف وأُعطي للتدقيق أوفى العوارف
وشوهد مُغرىً بالرشاد ومغرماً يبث علوماً تحت ذيل ... [1]
ويا من غدا ذا سؤدد حسنت به مدائح قد وافته من كل واصف
ومن ذكره للقلب مني مطرب كما يطرب النشوان عرف القراقف
ومن دقّت صفو الود منه منزهاً عن الدخل الخافي ببعض الزخارف
ومن لم يزل يبدي غريب مباحث لتحقيق علم من تليد وطارف
ومن دام ممنوح البديهة لابساً من الكرم الموفور أي مطارف
ومن صار أستاذاً يُقرّ بفضله أولو أدب أضحوا أجلّ غطارف
أعرني ما اشتاق الفؤاد لقربه وذاك رعاك الله شرح الصحائف
كتاباً به أمحو حنيناً موفراً بنفسي الى إحراز شرح المواقف
بهمّتك العلياء أصبحت جامعاً لكل كتاب منتهى كل عارف
لقد حزت كتباً لم يحزها سواك من أفاضل كانت من سراة الخلائف
فلا زلت محموداً لدى الناس ملجأ لكل امرئ من طارق الجهل خائف
ولا برحت آيات فهمك للنهى تسرّ بما تهدي لها من لطائف
عليك سلام الله ما ذرّ شارق وأطرب في الروحات شدوَ الهواتف

(1) بياض بالأصل .

242 - الشيخ أبو محمد عبد اللطيف بن محمد الطوير المذحجي القيرواني

ولد بالقيروان ، وبها نشأ في بيت علم أصيل ، ورياض مجدٍ أثيل . طلب العلم ببلده عن علمائها . ثم انتقل إلى تونس ، فقرأ على أعلامها حتى برع ، واجتلى أبكار العلوم وفرع . فأقرأ بالجامع الأعظم علم الفقه مع مشاركة في سائر العلوم خصوصاً العلوم الأدبية فقد كانت له فيها قريحة وقادة ، وتفوق به وأصبحت صعابها إليه منقادة . وله شعر فائق ، جيد الحوك سهل الطرائق . ولي خطة القضاء بالقيروان ثم رئاسة مجلسها الشرعي . وكان إذا قدم إلى تونس في مدة إمارة علي باي يُحضره مجلسه ، ويؤثر بمسامرته تأنسه . وله رسائل انتصر فيها للشيخ المفتي أبي عبد الله حسين البارودي الحنفي على الشيخ لطف الله العجمي العالم المشهور في مسائل كانت محل مناظرة بينهما . توفي سنة 1199هـ .

ومن شعره يمدح الأمير علي باشا بن محمد :

غاب بدر الدجى فقام مقامه وتثنى فأخجل الغصن قامه
قمر فاتن أدار عذاريـ ـه لقتلك اللواحظ الدعج لامه
جائر الطرف حائز الظرف ما أعـ ـدل في دولة الجمال قوامه
نافر إن رنا إليك بلحظٍ وثنى جيده فشادن رامه
وإذا ماس قدّه وهو يشدو قلت غصن غنّت عليه حمامه
ما بدا صبح وجهه لليالي الـ ـشعر إلا وقبلت أقدامه
زعموا شعره الدجى ومحيا ه هلالاً فقال هذي ظلامه
إنما الليل شعرة من فروعي وهلال السماء عندي قلامه
ودرى أن ريقه السكر المسـ ـكر خمراً فما أباح مدامه
صنع الحسن من لآلي الثنايا وعقيق المراشف اللعس جامه

ومن مدحها قوله :

ملك عادل همام غمام شامخ المجد جهبذ علامّه
ناظم العدل ناثر الجور ما أحـ ـسن في الناس نثره ونظامه
ماجد لاح في سماء سناه قد أقام الفخار فيه خيامه

سؤدد راسخ وكعبة مجد … أخجلت في النوال كعب بن مامه
أطلع الشرع في مجاريه بدراً … لم يفارق من الليالي تمامه
ختمت سنة الملوك بملك … جمع العلم والندى والزعامه
من يجاري مداه إن هو أجرى … في ميادين طرسه أقلامه
ببنان لكعبة المجد ركن … تتمنى الشفاه منا آلتثامه
ألف الطرس والبراعة والصـ … ـارم والجود لا كؤوس المدامه
فإذا ما وشى برود بيان … سترت سعده وأرضت عصامه[1]
كل فن تلفيه في طوعه إن … سلّ سيف الذكا وهزّ حسامه
أي صيد من مشكلات النهى لم … يصمه إن رمى إليه سهامه
فاعل بالعويص من مشكل التسـ … ـهيل ما ليس تفعل الصمصامه
لو رآه أئمة النحو قالوا … أنت أولى بحمل تاج الإمامه
أو رآه إمامه سيبويه … قال أنت الخليفة العلامه
لك شرح لو لم يكن ملك الشرا … ح ما سلمت له أحكامه
لو رآه الخليل أورده من … مورد البحث برده وسلامه
أو أتى ورده المبرد قال الـ … ـآن بردت من غليلي أوامه
أو تلاقي عيونه أعين الأخـ … ـفش في النحو ما اشتكى آلامه
وإذا شام بحثه ابن هشام … شام توضيحه كمغنيه شامه[2]
ولو أن الرضي طالع فيه … ما ارتضى في الشروح إلا كلامه

وهي طويلة .

ومن شعره يهني الأمير علي باي بن حسين باي بختان أبنائه وأبناء أخيه :

سعودك بالمسرة والتهاني … مجددة على مرّ الزمان
وإقبال وإسعاد وبشرى … بعيش قد صفا بالأمن هان
تبسّم للزمان ثغور بشر … كما بسمت ثغور الأقحوان
وهزّ الملك عطفيه سروراً … كما هزت معاطفها الغواني

(1) أشعر كلامه بتفضيل العصام على السعد وهو لغو من القول .
(2) لقد أغرق سامحه الله .

لك الأيام قد خضعت رقاباً   وبين يديك قامت كالقيان
وفي أوج السعادة والمعالي   تـــــرقّى نيّران ونيْران
قضى سعد السعود حقوق فرض   مؤكدة بمسنون الختان
ختان ابني علي باشا مع ابنَي   أخيه المرتقي غرف الجنان
ختان شعشع الآفاق نوراً   وأشرق من سناه الخافقان
ختان ألبس الدنيا جمالاً   وحسناً من طرائفه الحسان
ختان بهرج العلياء ما إن   يقاس به بهاء المهرجان
جنينا الطيبات فما فقدنا   سوى المحظور من بنت الدنان
وطاردنا اللذائذ في حماه   طراد الخيل في يوم الرهان

منها في خطاب الخاتن :

وكيف بسطت للأشبال كفّاً   وليث الملك منك على عيان
دخلت لأجمة الأسد السبتي   جهاراً غير مرتاع الجنان (1)
جرحت فراهداً فيها بقط   وبتّ من الغضنفر في أمان (2)
جزاك على صنيعك كل خير   وإحسان يجلّ عن البيان
فقال : لبست سابغة حمتني   وظلت بها يقيناً في صوان (3)
وثقت بسنه المختار حقاً   فبتّ من المخاوف في ضمان
فقد سنّ الختان لنا ووصى   به من جملة الفطر الحسان
على أني أنطت بهم كمالاً   وما أنا بالختان لهم بجان
قطعت ذبال مجد فاستنارت   فعقد جمانها بالقط قان
أسلت دماً بها يلفي شفاء   من الكلب المبيد بلا توان
وزهر للعلى أخرجته من   كمائمه ولست له بجان
وحلي سيادة أبرزت منها   عقائقه المصونة في الصوان
فنقصي عين تكميلي لأن   شعار الدين أصبح في ختاني

وهي طويلة كلها عيون .

(1) السبتي : الجريء .
(2) فراهد : جمع فرهد بضمتين وهو ابن الأسد ؛ بقط : قطع
(3) صوان : ما يصان فيه — .

243 – الشيخ محمد بن علي بن سعيد الحجري محشي الأشموني

ولد هذا الفاضل بقرية بوحجر ، من قرى المنستير . ثم قدم أبوه في مبدأ شبيبته إلى حاضرة تونس لطلب العلم ، فأقبل عليه بجدّ لا يفلّ له حدّ ، فلم يمرّ عليه زمان طويل حتى بذّ بعلومه الأقران ، واعترف له بعلو الكعب أهل الشأن . ولقب بالنجم فتصدر للإقراء والإفادة ، وبرز في التحرير والإجادة ، فتزاحم على مورد دروسه ، واقتطاف الزهر من رياض طروسه ، أذكياء الطلبة ، وسبّاق تلك الحلبة . فكتب حاشية على **شرح الأشموني على ألفية الإمام ابن مالك** ، ويزعم بعض الناس أنه اطلع على حاشية العلامة الصبان عليه لتواردهما في بعض الأبحاث ، والحق أنه لم يرها لأنه لو رآها لكانت حاشيته أحفل مما هي عليه ، على أن درجة صاحب الترجمة في الذكاء والتحصيل تؤهله لإصابة تلك الأغراض التي تواردا عليها . كما كتب **حاشية على شرح الخبيصي على التهذيب** . وخصّ **شواهد الأشموني** بشرح مستقل . وله **حاشية على السكتاني** في علم الكلام . وله رسالة في علم المنطق سماها **اللوامع** ، وديوان شعر سماه **الفلك المشحون** جمع فيه شعره وجملة من نثره : طابق إسمه مسماه ، وطار صيته شرقاً وغرباً .

وكاتبه مشاهير العلماء ، ونوهوا به لما وقفوا على محرراته العلمية . وله مكاتبات علمية بينه وبين العلامة السيد أبي المكارم عمار الشريف القسنطيني ، ممن حصل العلوم بجامع الزيتونة ، ثم رجع الى بلده لبثّها ، فوقعت مباحثة في مسألة الإستدلال على عرضية العقل ، وأنه ضعيف بينهما . وتكررت بينهما في ذلك المراسلات . وقد ألف جدي العلامة أبو عبد الله سيدي محمد النيفر رسالة حكم فيها بين ذينك العلامتين في المسألة بما كشف به عن محيا الحق المبين .

أما ذكاء صاحب الترجمة الوقاد ، وفهمه الذي إليه العويص ينقاد ، فذاك نبأ يستغرب خبره ، وإن دل عليه في العيان أثره . ينقل عن العلامة سيدي حسن الشريف أنه بينما هو يقرأ مع أهل طبقته كتب العلم المتوسطة وإذا بصاحب الترجمة قدم من بلده لقراءة العلم ، فزاول صغار الكتب العلمية ، فلم تمضِ إلّا مدة غير بعيدة وإذا بصاحب الترجمة قد شاركهم في حضور دروسهم ، فلم تطل مدة حتى بلغهم أنه تصدر للإقراء وابتدأ الأشموني ، وكتب حاشية عليه كما كتب على غيره . ولما اشتهر

أدبه الفائق رغب الأمير حموده باشا في توليته خطة كتابة الإنشاء ، وأرسل إليه في ذلك فأزمع على القبول . ولما سمع تلميذه الشيخ أبو العباس أحمد بن الخوجه ، وكان ملازماً له وبه تخرج ، أتاه متأسفاً ، وعلى فراق دروسه متلهفاً . فلما رأى ما عليه من الكآبة . أعرض لأجله عن قبول خطة الكتابة ، فكان ذاك معدوداً في مناقبه ، ومحسوباً فيما ادخر لعواقبه ؛ لكن لم ينض ثوب الشباب حتى اختطفته المنية غصناً غضاً . وتركت القلوب محترقة ودمع العلوم عليه مرفضاً ، في الوباء الجارف سنة 1199هـ .

ومن شعره متشوقاً إلى خير البقاع معارضاً أبيات القاضي أبي الفضل عياض في **الشفا** :

يا دار قطب دوائر الشرف الذي	لم تحوه الأقمار في الهالات
يا مربع النبأ الجليل ومنبع الـ	ـعلم الجزيل ومطلع الآيات
شوقي إليك رمى بقلبي جذوة	من دونها متوقد الجمرات
وأفاض من عينيّ بحراً زاخراً	يرمي بأمواج على وجناتي
إن ساعد المقدار واتّسع المدى	آتي إليك ولو على لحظاتي
لا أختشي فيك العوادي والعدى	موتي لأجلك هو عين حياتي
لم لا وأنت ديار طه المصطفى	والآل والأصحاب والزوجات
مخدوم جبريل الأمين المجتبىَ	ورئيس كل مرفع الدرجات
ذاك الذي لبس النبوة حلة	والخلق في حلل من العدمات
كهف الخلائق كلهم وملاذهم	يوم امتداد أزمة الأزمات
من لي به ألقاه حتى في الكرى	وأشم منه معطَّر النسمات
وأكحل الأجفان من آثاره	وأشنف الأسماع بالنغمات
وأقول يا خير الورى يا من به	أرجو جميل الصفح عن زلاتي
كن لي شفيعاً يوم يمتد الردى	ومؤمّناً من لوعة العرصات
فلقد كرعت من المآثم كلها	ووقفت دون مشارب الحسنات
وركضت في مضمار كل كريهة	ورميت أغراضاً من الشهوات
وعليك كل تحية بسّامة	تزري بعطر الورد في النعمات
وذواكي الخيرات والبركات	وزواكي التسليم والصلوات

ومنه مرتجلاً وهو من أول شعره ، وقد اقترح عليه جماعة وصف الحال ، وقد تراكم السحاب ، واستتر وجه الشمس ، واسودّت الجبال ، وكانوا جالسين عشية على سطح مخازن القطران بالبحيرة بتونس .

أنظر إلى لون الجبال وقد بدت ... مسودة لما ارتدت بغمام
فكأنها قلبي المسود بالجفا ... مما بدا لك من ضياع ذمام
والشمس في حلل السحاب تستّرت ... لما رأتك رميتها بسهام
وإذا نظرت هنيأة تجد الدجى ... وافى إليك ببدره كغلام

ومنه مرتجلاً :

وذي قوام نضير لا نظير له ... سل الكرى من جفوني ثمت انفلتا
في وسط قلبيَ من مر الغرام به ... صيف ولكنّ في عينيّ منه شتا
عاينت وقت زوال الشمس طلعته ... لذاك عيناي إن قلت اكففا همتا
وشمت في خده نبت العذار وما ... عهدي هناك بغير الورد قد نبتا

ومنه معارضاً قصيدة ابن الجهم يمدح الكاتب العلامة الشيخ حمودة ابن عبد العزيز ، ويهنيه بإياب من سفر ، وبمولود ، وهي من غرر الشعر :

تثنى كما اهتزّت مثقفة السمر ... ولاح كما انجاب السحاب عن البدر
وجال بمضمار الملاحة واحداً ... فأضحت جياد الفكر في حسنه تجري
وسلّ حساماً من جفون بديعة ... فعلّم جفني صنعة النظم والنثر
غزال غزا الألباب كاسر طرفه ... فما ظفروا إلّا بمرتبة الأسر
أبيت وأجفاني هوام دموعها ... على جسد بالسقم يحكي أبا ذر
كأن سطور الدمع في طرس وجنتي ... غمائم در في رياض من التبر
كأني لأفنان الصبابة جامع ... ودمعي وقف في مصالحها يجري
يطول عليّ الليل حتى كأنني ... لياليَ من فرط الجوى ليلة الحشر
ويزعجني الإصباح حتى كأنني ... نهاري سيف سُلَّ من حيث لا أدري
وأما إذا ما أومض البرق في الدجى ... فقل في الذي أمسى...من الذعر [1]

---

(1) بياض بالأصل ولعله بقلبي - .

خليليّ إن الدهر أبدى إساءتي ... وأظهر ما قد كان أضمر من مكر
وما ضر مثلي إن تلظى بثأره ... وهل ضرّ إبريز تلظيه بالجمر
وما لي من ذنب لديه جنيته ... سوى أنني لم أسمع العذل في بدر
وإن خبر الواشي بسلوتي اختبر ... فليس يد الأخبار مثل يد الخبر
على أن أخبار الزمان تخالفت ... سوى خبر العلياء عن واحد العصر
عزيز الورى حمودة العالم الذي ... بيوت المعالي عن معاليه كالقصر
فخار بني عبد العزيز وذكرهم ... وحسبك من فخر وحسبك من ذكر
وزير ولكن ما أتى الوزر دهره ... وعزّ ولكن ما تطلع في كبر
إمام له في العلم أرفع رتبة ... بها سارت الركبان في السهل والوعر
هو الصدر فيه الله أودع سره ... ولا عجب إن أودع السر في الصدر
له قلم إن ماس في روض طرسه ... فما هو إلّا الغصن يثمر بالدر
وإن ذرّ ترباً فوق جيش سطوره ... فما هو إلا النقع والعسكر المجر[1]
كم استبعدت مثل ابن عباد في الورى ... وداوت عماد ابن العميد من الكسر
وشاب الوليد البحتري قبل نيلها ... وأضحى أبو تمام بالنقض في أسر
أرى المتنبي قد تنبّا ولو رأى ... قصائده الغرّا تأله بالشعر
أخو كرم ينسيك فرط جماله ... عيون المهى بين الرصافة والجسر
ترى حاتماً لكن بصغرى بنانه ... كأن البحار السبع في الأنمل العشر
دعوا زخرف الأخبار عن جعفر فذا ... هو البحر والأنهار ليس كما البحر
فإني سبرت الناس سمحاً وباخلاً ... فذو اليسر باليسرى وذو العسر بالعسر
فألقيت كل الناس منذ لقيته ... وصغرت الأخبار عندي بالخبر
وشاهدت ما لم يمكن المرء حصره ... ولو جاوز الأطناب بالنظم والنثر
أخو عفة لو أدرك الناس بعضها ... لأصبح يوماً ما تأزر بالوزر
وذو همة ما أدرك الطرف شأوها ... ولا طائر النسري ولا طالع النسر
ومن كانت الآمال طوع يمينه ... فلا غرو أن يعلو على الشمس والبدر
ألا أيها المولى الهمام الذي له ... قضى السعد في تيسير ما كان ذا عسر

---

(1) المجر: الكثير.

ومن ملأ الدنيا سروراً قدومه ... وقامت له تسعى على قدمي بشر
وراقت به الخضراء من بعد هجرها ... وليس يزور الوصل من غير ما هجر
وقد أظلمت من قبل لولا محمد ... وكيف يضيء الأفق لولا سنا البدر
وهزّت بني الآمال من فرط نيله ... كما انتفض العصفور من بلل القطر
وحيّر من عاداه حتى كأنما ... أدار لهم كأساً مليّاً من الخمر
تهنّى به نجلاً تجلى هلاله ... لنا وعليهم بالمسرة والقهر
شبيهك في العلياء والعلم والحجى ... وبذل الندى والبأس والنظم والنثر
ولو لم يكن هذا الهلال بوجهه ... لما أشرقت أنواره أول الشهر
ودونكما هيفاء من غرر الثنا ... تحلت بألفاظ أرقّ من السحر
يواقيت من أبحار مجدك أُخرجت ... وهل يخرج الياقوت إلّا من البحر
على أنها قد أنشدت يوم فخرها ... مدحتك بالشعرى وغيري بالشعر
ثناها الحيا قبلاً وغالبها الجوى ... فجاءتك تستقري مطايا من العذر
فلا زلت للآمال كهفاً وملجأ ... حليف هناء خاتماً في يد الفخر
إليك انتهى قصدي وحسن قصائدي ... وإن كنت لم أعبأ بزيد ولا عمر

ومن شعر صاحب الترجمة أيضاً ما أجاب به العالم الأديب الشيخ محمد السنوسي ابن سيدي عبد الله السوسي على قصيدة هنأه بها على ختمه لكتاب **الشفاء** سنذكرها في ترجمة الأديب المذكور الآتية ، ونص ما أجاب به العلامة ابن سعيد صاحب الترجمة قوله :

لمن ظبيات في محاجر سود ... تركن أسود الحي غير أسود
وغير بعيد إن يكنّ أوانساً ... أتين إلينا من جنان خلود
هززن قدوداً ثم قلن إلى القنا ... تأخرن ما فيكن مثل قدودي
وأسفرن عن در يقول ابتسامه ... عقود النجوم الزهر دون عقودي
وأبرزن رايات الخدود وقلن لي ... أيا عم هل في الروض مثل خدودي
خليليّ لا أخفيكما الحال إنني ... أصبت بها في أعظمي وجلودي
وإلا فما بالي كأن محاجري ... برتميات الدمع وَادِ زرود
ولم أر نيراناً حواليّ تلتظي ... وفي القلب مني حر ذات وقود

على أنها لم تَلقني بقطيعة ... ولا اعترضتني في ثياب صدود
سقى بانتيها غاديات يسوقها ... تبسم برق لا بكاء رعود
وإلا دموعي الساريات كأنها ... إذا ما أذيلت خافقات بنود
وإلا يراعات تسيل مياهها ... فتنشيء روضي نرجس وورود
براعة مولانا الرئيس الذي به ... عرفنا لساني جرهم وثمود
أخو اللفظ أحلى من عتيق مدامة ... وأبهج من ريا المخلخل رود
إذا صال ألقى فيه شعلة قابس ... وإن هان ألقى فيه نفحة عود
من القوم لا يلقاهم زائرٌ لهم ... سوى فرقتين رُكَّعٍ وسجود
على أنهم في العلم والحلم والحجى ... وبذل العطايا نيرات سعود
أبوه الذي الحمّى تُخاف بجوده ... وهل عرفت حمى تخاف بجود
وأغلب فخراً من يكون مفاخراً ... به وبآباء له وجدود
أيا سيداً أدركت في خلواته ... جهود جنيد في جنيد جنود
ويا فاضلاً شاهدت في جلواته ... صعود سعيد في سعيد صعود
تأنّ فقد غادرت من كان لاحقاً ... كأنك قد قيدته بقيود
وخلِّ من العليا قليلاً فإنها ... غدت عن جميع الناس ذات صدود
وقم لنقود من حبيب عهدته ... على وفق ما ترضى بغير نقود
ردود سيئتيها عليك تقرّبي ... فإنك لا تأتي لها بردود
أتبعث لي بالشمس والبدر ثم لا ... تلفعها في سابغات برود
وترسل لي بالشهب لماعة ولا ... توصي رسولاً جاءني بجحود
فهبْني قد أنكرت فيما بعثته ... أيعوزهم فيها قيام شهود
وكثّرت حسادي على أنني امرؤ ... رمى لي حسود فوق كل حسود
على أنني لا أستطيع لك الجزا ... وإن جئت من خير الثنا بوفود
نعم سوف أجزى من شمائل أحمد ... (1)
فدم أنت والأحباب في خير رفعة ... وخلِّ الأعادي في أذل ركود

ومن شعره أيضاً قوله :

(1) بياض بالأصل المنقول منه .

تروع الليالي ثم بعد تروّق وكل غروب منتهاه شروق
ومن يصطبر للدهر في ظلماته فلا بد أن تبدو إليه بروق
وإن مرّ وقت لا يكون به الذي تريد فذاك الوقت ليس يليق
فكم من نهار لم يطر فيه طائر وآخر يغدو فيه وهو سبوق
ومن رام كون الشيء قبل أوانه فقد رام أمراً ما إليه طريق
وقد يتأسى المستظام بمثله وقد يتسلّى بالغريق غريق
فقد فاتني إلا التطلع في العلى على أنني بالنيرين خليق
وقد سامني بخساً أناس أعزّهم بتقبيل أدني راحتيّ حقيق
يريدون ألا يلبس السيف حده وأن لا يرى في صفحتيه بريق
وما لي ذنب عندهم غير أنني إذا شئت قلت القول وهو رقيق
وإن خضت في بحر من العلم زاخر تطاير درّ فوقه وعقيق
خليليّ هل يجني على المرء مجده فإني بالمجد العريق حريق
فيا ليتني ما كنت خير فروعه ولا كان لي في منبتيه عروق
فهل لكما من حيلة تعرفانها فقد ضقت ذرعاً والغريق يضيق

ومن شعر صاحب الترجمة أيضاً ما خاطب به العالم الشيخ أبا محمد حمودة باكير على لسان العلامة المفتي سيدي محمد المحجوب لتيسير قضاء حاجة عرضت للشيخ المحجوب عند أمير عصره، وكان للشيخ باكير المذكور حظوة ملحوظة عند الأمير، يتوسط بها في قضاء الحوائج في ذلك العصر، قال :

خير ما آثرته كرام الأنام حسنات تبقى مع الأيام
وأعز الورى فتى بعثته نفسه نحو رمي تلك المرامي
فدعيني أخوض فيها الفيافي بين جرداء ضامر وحسام
واتركي كثرة التخوف عني فأمامي إمام خير إمام
ذاك حمودة وحسبك ذكراً لابن باكير الزكي الهمام
حَسَبٌ يغلب الهلال كمالاً ويروع الأزهار في الأكمام
الرئيس الذي به جمع اللـ ـه جميع الأكابر الأعلام
والجليل الذي أياديه عمّت مَن عليها بالفضل والإنعام

ذو وقار كما تشاء وسمت ترتضيه نوافذ الأفهام
وجلال يلوح من جانبيه نور عزّ وهيبة واحترام
يا رئيساً دعوته مثلما يد عى الطبيب الحبيب للأسقام
وتخيرته لقصدي باباً أرتجيه لكشف حر أوامي
هاكها نزهة تريك مقالاً ينفث السحر في عقول الكرام
جعل الله بدء أمرك خيراً وسيعطيك بعد حسن الختام

244 – الكاتب أبو عبد الله محمد بن عبد الكافي بوعتور الصفاقسي

نشأ هذا الأديب في طلب المعارف ، وصرف عن تحصيلها كل صارف ، مقتبساً له عن جهابذة عصره ، وأساطين قادة مصره ، حتى أبدر هلاله ، وعرف في ميادينه كماله . وضم الى أثيل نسبه القرشي ، ما اكتسب من الحسب السني . وانتظم في سلك الدولة الحسينية . وجلّى في خدماتها الأدبية ، بهمة سامية ونفس أبية . وكان فقيهاً فرضياً أديباً شاعراً . فلما تفرق من الدولة الحسينية الشمل ، وعطل الخطب ذلك الحفل ، وتفرقت البطانة أيادي سبا ، وبلغ سيل صروف الدهر الزّبى ، تقلب صاحب الترجمة مستخفياً يطلب النجاة ، وقد أخذت عليهم الأعداء المراصد في العمران والفلوات ، حتى اضطر للإختفاء بدار صاحب له بمدينة سوسة مدة كلبهم ، واستشراء غلبهم . كان في أثنائها يتسلّى بالنسخ لبعض الكتب العلمية ، إلى أن أمكنه سلوك الثنية . فلحق بالأمراء الحسينيين ، والتجأ إلى حصن حماهم الحصين ، ولازم بابهم ، وخدم في التغرب ركابهم ، بث علم الفريضة بمدينة الجزائر ، وكان مفقوداً يقال : إنهم كانوا يلتجئون في قسمة التركة إلى حساب اليهود ، وربما قسموه بالفول ، كما تصنع العجائز . فلما انفرجت الأزمة ، والتأمت في طاعتهم الحزمة ، وراجعوا ملكهم ، ونظم الله سلكهم ، اقتعد صاحب الترجمة دست الكتابة ، وبلغ من الدهر آرابه ، مرموقاً بعين التجلة ، مرفوعاً على عاتق الجوزاء محله ، إلى أن تقضت أيامه ، وحل به حمامه سنة 1195هـ .

ومن شعره يهني الأمير علي باي بفتح جبل وسلات :

لله ما أحلى سروراً جاءنا ... ببشارة تمت بها الأفراح
قدم البشير بها إلينا ليلة ... غرّاء مشرقة فطاب الراح
طاب الزمان بطيب حسن حديثها ... في مجلس زالت به الأتراح
ناهيك من ملك به كالكوكب الـ ... ـدري بدا وجبينه وضّاح
بدر منير في سماء سعادة ... الوجه منه كأنه المصباح
متجلل ببهائه متهلّل ... متوكل والناصر الفتاح
فتح الإله له بخير غنيمة ... وانحلّ مغلقها وجا المفتاح
جاد الزمان بها على طول وما ... أدراك ما هي منة وصلاح
فأنا الذي استبطأتها فكأنني ... استمرض الأيام وهي صحاح
حتى تفضل ربنا بمغانم ... وأتت ليالي الوصل وهي ملاح
وتبسم الزهر الأريج بخضرة ... وتباشرت بوصالها الأرواح
وتمايلت أغصان روضة مالك ... لكمالها وجمالها ترتاح
وترنمت أطيارها وتعانقت ... أشجارها وعبيرها فوّاح
أقمارهم طلعت وطالع سعدها ... إن شاء ربي دائماً مرتاح
وتزينت تلك الربوع وأوقدت ... فيها الشموع وصُفّت الأقداح
وجلوت فيها للوصال عرائساً ... الخدّ ورد والثغور أقاح
ونظمت من حر النثار نفائساً ... ونثرت منظوماً وذاك مباح
وأبيحت الأنفاس في طلب العلى ... وكذا دماء الباغين تُباح
وتكاملت لذّاتنا حتى لقد ... غاب الرقيب وهمنا منزاح
فالحمد لله على نصر سما ... وحبا أتاناه العلي الفتّاح
قصم العدى ومحا الردى فصفا المدى ... وجلى الصدا فالليل منه صباح
يا أيها الملك الذي هشت إلى ... تأميله الشعرا وفيه فلاح
يا من هو الغيث الغياث المرتجى ... في المحل إذ كلتا يديه سماح
أندى من البحرين حقاً كفه ... بل جوده للبرمكي فضاح
من لم يفز بشمائل أعطاكها ... للغاية القصوى عليه جناح
من رام جانبك العلي إذاية ... سفّت عليه بالنواح رياح
فالجسم موقوف عليك لخدمة ... والقلب ليس له عليك براح

خذها أبا حسن علياً كاعباً | عذراء بل حوراء وهي رداح
أمّت مديحك تبتغي نيل الرضى | في ثغرها المشروب والتفاح
دامت لك العليا فقلت مؤرخاً | إنّا لنا ببقائك استرواح
52 81 135 916

1184هـ

245 - الشيخ أبو العباس أحمد العصفوري الأندلسي الأصل

ولد هذا النبيل ، في بيت علم ومجد أثيل ، ينسب إلى الشيخ ابن عصفور رئيس النحاة في عصره . فنشأ في طلب العلم وارتياد رياضه ، والإرتواء من مترعات حياضه : حتى اشتد فيه ساعده ، وتألق في أفق العلى صاعده ، فتصدى لإفادة الطالبين ، ونشر ألوية علوم الدين ، ما أحيا به النفوس ، وقيل في أرج تحريره لا عطر بعد عروس . وكان فقيهاً مشاركاً في العلوم ، أديباً . شرح عقيدة الشيخ سيدي علي النوري الصفاقسي بشرح نفيس . ولي مشيخة المدرسة العصفورية بسوق العطارين ، وتعرف بالحكيمية ، نسبت إليهم لطول مدة من تداول مشيختها منهم . توفي سنة 1199هـ .

ومن شعره يهني الأمير علي باي بإتمام أسطول صنعه بحلق الوادي سنة 1188هـ لتحصين السواحل التونسية . ولتحرّر فإني نقلتها من أصل محرف :

سفين نجاة أدركت ما ترومه | وسالمها بحر بها مات رومه
وسلمها الله العزيز من الأذى | وأيّدها نصر له تستديمه
تبيد جيوش الكفر في كل وجهة | وترجع بالغنم المفل خصومه
وتحمل سبي الروم من أرض كفرهم | إلى تونس والسبي شدت كلومه
بمرساة حلق الواد قد أنشأت لها | حماء ونفعاً للأمير عمومه
هو الباي مولانا علي باشة الرّضى | من ارتسخت في المكرمات رسومه
سليل حسين الباي من نال همة | إلى الفلك الأعلى السني نجومه
مقلد أعناق الرجال أياديا | تبيد ليالي الدهر وهي تعومه

رأى خلل البر استقام برأيه — وصار حميداً بالسداد ذميمه
فعاد بلحظ الرأي ينظر بحره — وميناه حتى يستقيم سقيمه
وأنشأ أسطولاً تنوع شكله — تـــدبـــره آراؤه ورقـومـــه
يشير بمَا يبديه صاحب رأيه — فيرضى به من حنّكته علومه
ولا يرعوي عنه المهندس ذو الحجى — وإن كثرت في الفكر فيه همومه
يرى منتهى الأمر الذي رام فعله — فيوقعه تنزاح عنه حسومه (1)
يتابع براً برّه أهل ودّه — وينعشه بشر له ونسيمه
ويغضي حياء عند سقطة زاهف — فما قال مرتاب قلتني سمومه (2)
ويمّمه التجار من كل بلدة — وأمّنهم عدل له وحلومه
وأعلن بالأموال من كان خائفاً — يهولـه وسواسه وغـمـومـه
رآه يعيذ الناس من شرة الأذى — وقد صدّ عَدْوَ العاديات رجومه (3)
سياسته تقضي بكل فعاله — فلم يلف ذو نقد له ما يلومه
سفائن مينات البلاد لأمنها — فما سامها منه الردى وهجومه
تركن لمرسى تونس كل نجعة — ولو علمت أضعاف ما قد ترومه
يحط بها أحماله كل سافن — ولم يلق بخساً في الذي قد يسومه
لذا أكثرت فيها التفاريق من غدا — يغالي بأمداح له لا ألومه
ومن يمتدح أملاك دهرك يلقه — كئيباً إذا لم يمتدح من أشيمه
فسوق امتداح الباي للناس نافق — وعطّره المدح الذي لا يريمه (4)
رأى المجد من كل الجهات ثوى به — فلازمه لا زال عنه لزومه
وأصبح مخدوماً بأمداح ألسُن — ومن نال مجداً فالمديح خديمه
يلازمه في صحبة المدح ثانياً — لزوم نديم يصطفيه نديمه
يزيد غراماً حبه في حشى الذي — يشاهد من إفضاله ما يديمه
متى رام تقصيراً مريد مديحه — تلوح صفات والبيان خصيمه

---

(1) حسومه : شؤمه .
(2) زاهف : ذليل .
(3) المراد الشدة من شرة الشباب نشاطه — .
(4) أي لا يتحوّل عنه — .

فتخرج من أفكاره درر حكت قلائد در بالشذور نظيمه
تشوق لها الأسماع والذهن والحشي كشوق الذي يصبو إليه حميمه
وترتاح للتكرار كالمحتسي طلاً ومن لم ير التكرار فهي غريمه
تنازعه حباً لذكر مليكها أمير رسا في المكرمات صميمه
عليه من النصر المفاض عبابه وتسليم ذي العرش المجيد غيومه

ومن شعره يمدح أبا العباس أحمد هويدي :

يا أحمد الأدباء بالعقل الذي بذكائه أبطلت دعوى المدعي
أخرجت درّ البحر من أصدافه ونظمته في كل معنى مبدع
لو رُمت معنى في الكواكب مشرقاً هبطت إليك من المحل الأرفع

فأجابه الشيخ هويدي بأبيات مذكورة في ترجمته .

وكان لأحفاد الشيخ سيدي علي النوري تلميذ لصاحب الترجمة فطلب منه نظم أبيات يخاطب بها الشيخ المفتي سيدي محمد سعادة في التماس فتياً في رسم له به فتاوى لأهل عصره ، وقد كان الشيخ سعادة امتنع من ذلك فقال الشيخ العصفوري صاحب الترجمة :

أرى المفتين قد وضعوا خطوطاً بفتياهم لنا حصلت إفادهْ
وما زبرت يراع الشيخ حتى نراها مثل واسطة القلادهْ
لقد سبقت سعادتنا يقيناً إذا ختمت بخط من سعادهْ

فكتب الشيخ سعادة ما نصه :

تأملت السؤال وما علاه من العمري المسطرة المفادهْ
وما زبر الشيوخ أمام رقمي ويمناه لسائله إفادهْ
فألفيت الجميع أفاد فيما أجاب به وأغنى عن زيادهْ
وما نقلوا بموضعه صريح به قد حاز سائلهم مرادهْ
وأغنى عن مزيد فيه طول ونفس الحر تجتنب الإعادهْ
وناظمها يجيب بمثل ما قد أجابوا سائلاً ربي السعادهْ
وعفوا عن خطايانا جميعاً وعند الموت خاتمة الشهادهْ

وكنت عن الجواب غنيت لما   أتاني سائل يبغي الإفادهْ
فألجاني المهذب حب نفسي   هو العصفوري من حاز السيادهْ
وراقم ما علا نظمي بدر   رآني فيه واسطة القلادهْ
فحينئذ سمحت له بما قد   دعاه إلى جواب من سعادهْ
جزاه الله في دنياه خيراً   وبلغه من الأخرى مرادهْ

246 – الكاتب أبو العباس أحمد سمية القيرواني

كان حياً سنة 1172هـ .

من شعره يمدح الأمير علي باي ويهنيه بعيد الأضحى :

هنيئاً أيها الملك المنصور   بعيد فيه إشراق ونور
أتاك مبشراً بدوام ملك   عليه حماية المولى تدور
جلست على منصتك ابتهاجاً   كأنك فوقها قمر منير
إذا ما لاح وجهك مثل شمسٍ   تغيب بحسن طلعتك البدور
فمن كابن الحسين القرم حتى   به الأعوام تحسن والشهور
فقبّلت العلى يده وقالت   يد قبلتها فيها بحور
تزاحمت الشفاه عليه حتى   غدت باللثم تفتخر الثغور
علوك يا علي طويل باع   وباع سواك في العليا قصير
سرور العبد طاب فأرّخوه   بعيد النحر طاب لك السرور
737 50 12 289 86
سنة 1174هـ

وله يهنيه بحلول سنة جديدة :

وافاك عام اليمن بالبركات   والسعد ساعد والزمان موات
والوقت مبتسم المحيا مشرق   لبس الهنا صاف من الشبهات
يا من ترفّع قدره وسما على   كل الملوك بأرفع الدرجات
يا من له سند قوي في العلى   عن والد يرويه خير رواة
أقبل على ما تشتهي من حاجة   فيؤمك الإقبال بالحاجات
الله أودع فيك نور فراسة   فتكاد تخبرنا بما هو آت

أصبحت في وجه الفضائل غرة   يجلو سناها غيهب الظلمات
أبقاك ربك للأنام مؤيداً   وحماك إكراماً من النكبات

ومن شعره مؤرخاً وفاة المفتي الشيخ يوسف درغوث سنة 1156هـ قوله ، ونقش على ضريحه :

لله رمسٌ ضمَّ يوسف عصره   فغدا به كالبدر في غسق الظلام
حاز المفاخر في الحياة وبعدها   ورقى المنابر في جلال واحتشام
ما جاءه لمحله ذو حاجة   إلا وشاهد في محياه ابتسام
فإذا سمعت ثناءه من مادح   لا تعجبوا هو دَرغوث من كرام
أجلى صَدَا الفتيا بحدّة ذهنه   فتبهرجت بجماله بين الأنام
وكسا علاه حلة من بهجة   فخراً به والمنبر العالي المقام
فسل المهيمن يكسه حلل الرضا   ويهب له الخيرات في دار السلام
وبحقه قل إن سألت مؤرخاً   هذا الهمام ابن الإمام ابن الإمام

113 53 113 53 117 707

سـنـة 1156 هـ

ومن شعره أيضاً من أثناء قصيدة هنأ بها الشيخ محمد بيرم الأول بالبرء من مرض أشفق عليه منه ومؤرخاً ذلك ، وكان رحمه الله كما قال الشيخ محمد بيرم الثاني جودة وبداهة آية كبرى :

علوم الهدى أضحى هلال كمالها   منيراً وأمسى سيفها غير مغمد
وقد عادت الفتيا لعادتها على   منصتها في ثوب حسن مجدد
تبسّم من بعد التعبّس ثغرها   فلاح لتاريخي: شفاء محمد

سـنـة 1174 هـ

ومن شعره مؤرخاً عزله من خطة الكتابة قوله :

بلا عيبٍ عُزلت من الكتابة

459 90 507 82 33

وأجابه الأديب يحيى التواتي بقوله :

عزلت بالعيب من الكتابة

سنة 1171هـ

رحمهما الله تعالى .

وهناك جملة من شعراء هذا العصر لم نقف على جلية أخبارهم نقتصر على تسميتهم وشيء من أشعارهم فمنهم :

247 – الكاتب أبو عبد الله محمد ابن أبي القاسم بن غانم

كان حياً سنة 1170هـ .

من شعره يهني الأمير علي باي بختان ابنيه وابنَي أخيه :

حان الختان وقد أبرزت أقماراً	وجدد السعد بالخضراء أنوارا
يوماً أضاء الدراري نور بهجته	ومن شذاه تبدى الزهر معطارا
ترى الحدائق مالت من مسرته	والطير تبدّى من التغريد أطوارا
يا أيها الملك المبدي فضائله	غيثاً يسح على العافين مدرارا
هذا الختان الذي زانت محاسنه	وعمّ باليمن غلماناً وأبكارا
أبشر بغرسك إن الروض إن قطعت	منه الزوائد نارَ الغصن أزهارا
وأسعد فإن بدور السعد قد طلعت	وقد تراهم بعز الملك أنصارا
يا خيرَ من حل بالخضراء مبتهجاً	وقد تجلّى بنور العدل أمارا
تهدي إليك الليالي يمن غرّتها	والدهر يسفر من علياك أسفارا
ما كل ثغر متى يفتر منتظماً	وكل طرف متى يرتدّ سحارا
خذها تهنيك بالأفراح ناطقة	عذراء شطّت على الأقمار مقدارا
جاءت تقبل في الأقدام راغبة	ولم ترد منك غير البشر إيثارا
فاعطف أبا الحسن الباشا الرّضي كرماً	عطفاً يبلغ بالآمال أوطارا

دامت إليك وللأبناء مملكة ... وقد وقاهم رسول الله أكدارا
عليه أزكى سلام الله ما طلعت ... شمس النهار وعمّ النور أقطارا
وآله الغر والأصحاب ما عبثت ... ريح الشمال وراق الزهر أشجارا

قلت : وصاحب الترجمة هذا (محمد بن غانم) كان من كتبة الأمير علي باشا ابن محمد ، وكان أديباً فقيهاً . أما أبوه العلامة الشيخ قاسم بن غانم : فكان أولاه قضاء المحلة الأمير حسين بن علي .

ومن شعر صاحب الترجمة هذه القصيدة التي مدح بها الجناب النبوي الرفيع – عليه الصلاة والسلام – :

رقّ النسيم وراق زهر الوادي ... وسرى ورنّم بالمطي الحادي
وبدا يردد معرباً طير الندى ... طرباً لمن قصد الحمى والنادي
يا زائرينا في الحنادس نوركم ... طارت نجائبكم فطار فؤادي
قد قطّ جثماني وعذّب مهجتي ... ذكر العذيب وبارق والوادي
خضت المدامع يوم حان رحيلكم ... وسرت نجائبكم وناح الشادي
وغدا يضاف لركبكم يوم النوى ... نغم تبلبل بالصبابة صاد
طربت بأفنان الترنم عيسكم ... وطوى المهامه كل فحلٍ عاد
والشوق ينمو في الضمائر كلها ... بات الخبير على الرحيل ينادي
يا قاصدين لطيبة قد عاقني ... زادٌ يبلغ للحبيب الهادي
يا سيد الرسل الكرام وملجأ الـ ... ـمخلوق يوم الحشر والميعاد
بسَنا جمالك أشرقت شمس الضحى ... نوراً وأشرق كوكب الإسعاد
والبدر أشرق في الظلام وقد بدا ... للمهتدين سبيل كلّ رشاد
لولاك ما خلق الصباح ولا بدا ... قمرٌ يلوح لرائح أو غاد
والكون لم يخلق ولا فلك ولا ... جبل وسبسب مهمه ووهاد
لو أن أشجار الربى الأقلام والـ ... أنهار تجري للورى بمداد
لم يحصر المداح ما أوتيت من ... كرم وفضل في الورى وأيادي
يا أشرف المخلوق ما لي مطلب ... أرجوه غير مطيتي والزاد
لم أخش في الدارين يا خير الورى ... ضيماً أضيّق به وأنت عمادي

إني استنلت على علاك فدّني ... ببلوغ آمالي ونيل مرادي
يا خير هادٍ للرشاد وقائد الـ ... ـغر الجياد وناطق بالضاد
صدعت شريعتك المنيرة بالهدى ... فعلاً وأضحى الحق منها باد
ثارت فمزّقت العدى حتى ربت ... عن كل طغيان وكل عناد
فالفجر يصدع بالضياء فيختني ... بسنّا اللوامع جيش كل سواد
يا خير من نارت بفضل كماله ... للعابدين طرائق العُبّاد
لاذت بك الرسل الكرام وكل من ... والاك من قطبٍ ومن أوتاد
إني ابن غانم قد طلبت وقاية ... في النفس والأهلين والأولاد
وطلبت خاتمة لحسن عواقبي ... عند الوفاة وظلمة الألحاد
والعفو عما قد جنته جوارحي ... من كل مسطور ليوم معاد
صلّى عليك الله ما هاج النوى ... قلباً ولاح الشوق في الأكباد
والآل والأصحاب ما شقّ الندى ... زهراً فزان بغصنه المياد

ومنهم :

248 – أبو إسحاق إبراهيم بن قاسم الخراط الصفاقسي

كان حياً سنة 1180هـ . من شعره يهني الأمير علي باي :

لك الفتح فاعزم غازياً واحسم الكفرا ... وجاهد فدين الله يهدي لك النصرا
بني الأصفر استعبد بسيفك إنني ... أرى النصر معقوداً برايتك الصفرا
فحسبك في الفرقان ما جاء منزلاً ... وفي سورة الأنفال أعظم به بشرا
وحسبك فوزاً نصر دين محمد ... فدم حازماً واَغنم بأعدائك الظفرا
وحسبك هذا السعد قاد غنيمة ... إليك فجاهدهم تنلها وحُزْ أجراً
لقد كنت ذا عزم لغزو بلادهم ... لتفتحها إذ أنت منهم بها أحرى
فلم تغزهم حتى أتوك هدية ... وقد ركبوا سفناً بها قطعوا البحرا
قلوبهم تحكي اضطراب قلوعها ... كأني بهم صاروا جميعاً بها أسرى
بسفنهم تلك الجموع تكسرت ... ولم يبقَ جمع منهم سالماً ذكرا
أتوا حلق وادي تونس فرأوا به ... حصوناً لقد أحدثتها تذهل الفكرا

وعسكر أبطالاً وجيشاً عرمرماً إذا انتشروا عمّوا بذا السهل والوعرا
وما غادروا هذا به حين نقضهم لصلحهم والحزم يستهون البترا
ومن رام غنم الظفر حثّ طلابه ومن طلب العلياء لم يغله مهرا
حرابك قد راموا فكانوا كباحث على حتفه يوماً بظلفه مغترا
أتوا للردى جهراً ومن ببنانه يسد فم الأفعى أتى للردى جهرا
تحدثهم آمالهم أن سيحدثوا فساداً بإفريقية منهم مكرا
عجيب بأذن الفيل طنت بعوضة وبالأسد الضاري أرادت مهى ضرا
متى صادت البازي حبارى وهدد الـ ـغراب عقاباً والقطا طلب النسرا
ألا خبروا جمع الفرنسيس لم يروا لدى ملكنا إلا البواتر والسمرا
ودار ابن لقمان لديهم هي التي أعدّت بمصر مثلها له بالخضرا
كذا القيد باقٍ مثله ونزيده إلى سور صبر يحمل الجبر والصخرا
يميناً بديني يا فرنسيس ما أتيـ ـتم تونساً إلا استتميتم العمرا
أتيتم لأسياف لنا اليوم أودعت بواطن أغماد ترجتكم دهرا
تهافتّم في حرّ نيران حربنا فكنتم فراشاً قد رأى قبره الجمرا
فأصبحتم في حرّها وحشاشة لكم في غليل فأرشفوا الدمعة العبرا
ألا فاشربوا مهما ظمأتم نجيعكم بذا اليوم لم تلفوا به الأكوس الحمرا
وتحريك أوتار السهام لنا هو السمـ ـاع ومن يظمأ يجد عندنا نهرا

وهي طويلة .

ومنهم :

249 – الأديب خليفة ابن القائد منصور المشرّق

كان أبوه القائد منصور من رجال دولة الأمير حسين بن علي ومن خواص أتباع دولته . فلما دالت الدولة للأميرين محمد وعلي ابني الأمير المذكور ولي الولايات الجليلة إلى أن ولي عاملاً على سوسة فأساء السيرة في أهل جمّال، وكانوا من أنصار الأمير علي باشا ابن محمد فلذلك خاشنهم ، وسار فيهم سيرة عسف . فلما ثار إسماعيل بن يونس باي كان أهل جمال أول الملبين لدعوته ، وآووه وقاموا بنصره فرأى الأمير علي باي أن

من أسباب ثورتهم عسف قائدهم ، فعزله عن سوسة . ونشأ صاحب الترجمة فسمت همته لطلب العلم والأدب فلازم حلقه ، فبرع وظهرت نجابته ، ونبغ في الشعر . وكان وجيهاً . كان حياً سنة 1180هـ .

ومن شعره يمدح الأمير علي باي قالها في أول شبيبته وهي من جيّد الشعر :

قاتل بسعدك فالمعالي تُنجد ... واعزم فجدّك لم يزل يتجدد
فلأنت أعلى عزة بل منعة ... من أن تحاربك العداة القصّد
والحرب أنت مجيدها ومجيلها ... والخلق تعلم والوقائع تشهد
والأمر أمرك والبلاد بأسرها ... طوع اليدين ومن عليها أعبد
سمعت خيولك بالحروب فهزها ... طرب وباتت للصهيل تردد
كالصب أخبره الصبا عن حبه ... رام الزيارة فانثنى يتنهد
ما ذاك إلا أنها عودتها ... حمر الدما حيث النجيع المورد
والخلق تحدق والمنايا حوم ... والخيل ترقص والقواضب تنشد
من كل سابغة إذا أرسلتها ... يلفى القريب لها المكان الأبعد
جعلت حوافرها المراود في الوغى ... للحاظها حيث الغبار الأثمد
ومدلل في الحرب يلفى سارحاً ... نبت الرؤوس ومن دماها مورد
نهد إذا استنجدته في وقعة ... أعطاك عفواً صدره ما تقصد
والسمهرية في سرور خلتها ... سقيت طلاً من كثر ما تتأود
عودتها في الحرب تترع أكؤساً ... يسقي العداة بها الغمام الأسود
ولطالما أثمرتها من هامهم ... إذ أنت يثمر في يديك الأملد
تمحو الدجى أطرافها إن أشرعت ... فيسير تحت ضيائها المسترشد
والمشرفية ودّعت أغمادها ... إذ عودت في الهام حرباً تغمد
غر الغبي صموتها لم يدر ما ... تحت الحجار من اللظى إذ تخمد
هامت بهام المارقين فلا نأى ... عنها المراد ولا خطاها الموعد
خذم الغرار كأنها إن جرّدت ... وأسود ليل النقع نار توقد
يا من به شقي العدى ومن اغتدى ... يوماً مطيع أمره يستسعد
إن العداة قد اعترتهم علة ... وحسامكم رجل حكيم يفصد
فأتوك كي تبري بها أعناقهم ... وخذ الديار وكلها قد شيدوا

فاحلل عرى أعناقهم أن يقربوا وارسل لهم جيش العدى أن يبعدوا
وآحكم ومر وآظفر وجل وآعزم وصلْ وآسعد وطل وآنهض ودم تستنجد
هذي القضية لم تزل أخبارها قدماً تغور لدى الأنام وتنجد
فالكون يعلم أن مفني جمعهم أعلى الملوك ابن الحسين الأوحد
لله يوم أتيت حلق الوادي في فخرٍ أقرّ له العدى والحسّدّ
في جحفل ستر الضحى بغباره والبيض تبرق والصواهل ترعد
فتوقد الجنبات تلتاح الظبي والسمر فيه لبعضها تتأود
من كل ملتثم على بدر الدجى يغدو الصباح بنوره يستنجد
فارتد سرب الكفر يبغي نفسه إذ حله الهم المقيم المقعد
لو تعقل السفن التي قابلتها نطقت محيية وخرّت تسجد
يا أهل تونس قد حباكم ربكم بمؤيـد آلاؤه لا تجحد
من لم يرد جدواه لم يدر العلى من لم يلذ بجنابه لا يسعد
ملك الملوك ونخبة الأقيال والأمـ ـجاد والأمجاد وهو الأمجد
ليث العدى سيف الردى نجم الهدى قطر الندى بحر الجدى المسترفد
عزمٌ يمازجه اتئاد ضامن للنجح بالرأي السديد مؤيد
ذو همة صرفت الى صرف العدى وحجى سما فانحطّ عنه الفرقد
تأميله نور إذا ما أظلمت نوب الزمان الى الأماني مرشد
لولاه ما طلع الهدى في أفقكم يوماً ولا انتشر العلى والسؤدد
كم أشرقت أيامكم بل أورقت فأضاء معتكر وسال الجلمد
حان عليكم ناظر خلاتكم وعلى المسيء جناية لا يحقد
أسدى الندى وأزال عنكم مأثماً كالغيث فهو مطهر مستورد
وأصان من أنجالكم أموالكم فرجعتم لا مسكر لا مفسد
وأعاد تونس جنة أنهارها من بذله من تحتها لا تركد
فلتحمدوا ولتشكروا آثاره إن النعيم بشكره يتقيد
يا حلية الأشعار إن ذكرت به فمتى خلت من مدحه لا تنشد
فإليكها من خدر فكري غادة خجلت لطلعتها الحسان الخرّد
وافتْك ترفل في ثياب الفخر إذ سمعت بأنك كفؤها والمقصد

وأتتك بالنصر القريب تفاؤلاً ... إن التفاؤل أمره لا يبعد
كبرت ووالدها صغير فاغتدى ... فكر الغبي لأمرها يستبعد
فعلمت أن مقاله حسد به ... إذ لم يجد من حسنها ما ينقد
ما ضر شمساً شاهدت أنوارها ... مقل الورى أن لا يراها الأرمد
نظمت أياديك المعالي فاغتدى ... شعري لمنتظم المعالي ينشد
إن كنت أهديت المعاني عذبة ... فلأنت لي منها المقيد المرفد
فأنا ابن دوحة ملككم ودياركم ... لي ملجأ ونميرها لي مورد
فاسلم وعش ما عاش نوح سالماً ... واسعد فأنت لدى الأنام الأسعد

ومن شعر صاحب الترجمة أيضاً يهنىء الأمير علي باي بولاية ابنه الأمير حمودة باشا الملك لما تنازل له عنه :

هذه صفوة الزمان السعيد ... إن ما ترتجيه غير بعيد
فاغتنم قاصي الأماني وألبس ... من نعيم اللذات كل جديد
أو ما تنظر الربيع تجلّى ... في بهاء من نور تلك الورود
والأماني يضاحك الجود فيها ... وهو الشكر في رياض الوفود
وجميع العبيد في كل يوم ... عندهم بانبساطهم أي عيد
هذه دولة الندى والمعالي ... والهدى والجدى وعز الجنود
يا رعى الله بيعة ما رأينا ... أو سمعنا بمثلها في الوجود
طلع الطالع السعيد صباحاً ... يتجلّى كالبدر بين السعود
راكباً أحسن الجياد كمالاً ... بين جمع من سادة وأسود
وأتى تونساً فنادوه شكراً ... مرحباً مرحباً بمولى سعيد
هذه الساعة التي نتمنى ... إن هذا فضل العزيز المجيد
إن من يزرع الجميل لقوم ... يجتني وافر الثناء المديد
أصبح الدين في ابتهاج ونور ... ومنار مدى الزمان مشيد
ثم وافى الديوان يختال بشراً ... لابساً من تُقاه أسنى البرود
ثابت الجأش ثاقب الذهن بادٍ ... في صيال والشبل نجل الأسود
وعلى منصب الكمال تعالى ... وجميع العباد مثل العبيد
باهر الوصف باسط الكف فرد ... منجز الوعد مخلف للوعيد

يهب المال والجياد ولكن يقتني الدهر مرهفات الحديد
هو بحر الندى وسيف العطايا وحمام العدى وبدر البنود
وسليل الهدى ورب المزايا ومجيب الندا وسيف الحسود
وفداء له ملوك البرايا من صروف الردى وعين الودود
يا مليكاً قد حاز زياً وأضحى دأبه في الأنام عتق العبيد
إن حمودةً ومجداً بناه لَعطاء من الحميد المجيد
عش له مالكاً وكلاً نراه منكما الدهر في علا وخلود
إن شخصاً من الأنام رآه ليس يرضيه غيره في الوجود
وأقبلن من بنات فكري بكراً تتباهى على حسان النشيد
ضمنت من حكاية الحال لكن لم تصب بعض وصفه المشهود
نظمت والدجى أصم الحواشي فانثنى من ضيائها في وقود
لو يجازى كل على قدر حب كان لي وافر الجزاء المديد
إن نأت ديمة الرضا عن رياض فامتداحي يقول بالله عودي
واسلما مدة الزمان وعيشا في كمال مقارن للخلود

250 – الشيخ أبو محمد حسن بن أحمد بن محمد بن حسن الشرفي الصفاقسي

من بيت علم وفضل ووجاهة ، توارثها الخلف عن السلف . قال الشيخ محمود مقديس في تاريخه في شأن صاحب الترجمة : إنه عمدة ثقة ، متفنن متقن متمكن من علوم العربية بأنواعها وعلوم الفقه والأحكام والحساب والفرائض والقراءات والأصلين والحديث والتفسير والمغازي والسير وتخطيط البسائط والمنحرفات وغير ذلك من علوم الفلك والميقات . وبالجملة فقد كان أكثر تضلعاً من والده ، والفضل للمتقدم . تفقه بصفاقس ، ثم رحل إلى تونس ، فأخذ عن علمائها كالشيخ السوسي والغرياني والمحجوب والمكودي . وأخذ القراءات عن الشيخ السبعي المقري ، وأجازوه . ثم رجع إلى مسقط رأسه ، فولي خطابة الجامع الأعظم بها سنة 1165هـ فقام بوظيف الجامع أحسن قيام من خطبة وصلاة وتدريس وتوقيت ، ورتب له عدة مدرسين وحلقاً لقراءة القرآن سيما بعد صلاة التراويح إلى الصبح برمضان . ثم أولاه

الأمير قاضياً ببلده على كره منه بعد أن قال له : كيف أكون قاضياً وأبي مفتٍ وإنمَا وظيفنا الإفتاء ، فقال له الأمير : نريد أن نجمع في داركم الفتوى والقضاء ، وإن لم تقبل طوعاً فكرهاً . ثم إنه طال طلبه الإستعفاء منها ، حتى أعني أخيراً وولي مفتياً مع أبيه . فقام بالمنصب حق القيام كأبيه ، ثم انفرد بالفتوى بعد موت أبيه . ولم يزل على حاله . مرتدياً ببرود كماله ، إلى أن حضرته منيته ، فمات شهيداً بالطاعون سنة 1199هـ .

من شعره في الأمير لما قدم إلى القيروان وجاءه الناس من مختلف البلدان للسلام عليه على ما كانت عليه العادة في سالف الزمان ، فكان صاحب الترجمة في وفد صفاقس متطلباً الإعفاء من خطة القضاء ، جاعلاً لقدوم الأمير لمدينة القيروان تاريخاً مقتبساً ، وذلك سنة 1172هـ ، فسرٌ الأمير بذلك وأعجب به وأبى حينئذ من إقالته من القضاء . ونص ذلك :

الهناء يا أمير المؤمنين   بقدومكم ديار الصالحين
فابشروا قد جاء في تاريخكم   ادخلوها بسلام آمنين
سنة 1172هـ

ومن شعره أيضاً ما أجاب به بعض الأدباء عن أبيات في استخراج المجهول نصّها :

وهبت له ثلثاً من العمر كاملاً   وربعاً وسدساً ثم قام فأعرضا
فقال قليل قلت عندي زيادة   فزدت إليه نصف سدس الذي مضى
فخلف لي عشرين عاماً أعيشها   فكم كان أصل العمر إن كنت مفرضا

ونص ما أجابه به صاحب الترجمة قوله :

وهبت له ستين عاماً وثلثها   وستة أعوام وثلثين فارتضى
ولو كنت ذا حب سليم وصادق   لكنت إليه في الجميع مفوضا

251 – الأديب أبو عبد الله محمد السنوسي ابن سيدي عبد الله السوسي

والد صاحب الترجمة العالم العامل . تقدمت ترجمته في هذا الكتاب وهذا أكبر أبنائه . ولهذا الأب الفاضل ابنان آخران محمد الوسط وأحمد . أخذ جميعهم العلم

عن والدهم المشار إليه ، قال الشيخ أحمد بن أبي الضياف في تاريخه في شأنهم : كانوا على درجة عليا في العلم والفضل وأكبرهم يعني (صاحب الترجمة) آية الله في الشعر والأدب ، وشعره يسع ديواناً ، معروف عند أهل الأدب ، وأوسطهم آية الله في الفقه والتصوف ، قال : ولم أقف على تاريخها . أما أصغرهم فقد ترجم له ، وأظن أن صاحب الترجمة توفي على رأس القرن الثاني عشر أو ما يقاربه .

من شعره ما هنأ به قرينه الشيخ محمد بن سعيد الحجري المتقدم ترجمته بختمه لكتاب الشفاء ، وأرسلها إليه فأجابه عنها الشيخ ابن سعيد بقصيدة على رويّها وقافيتها تقدم ذكرها في ترجمة الشيخ ابن سعيد . ونص قصيدة الشيخ السنوسي في تهنية الشيخ ابن سعيد :

أرى ربع من أهواه غير بعيد ... فها هو مني مثل حبل وريد
فعوجاً قليلاً بي لعلي أشتني ... بسكب دموع فوق صحن خدود
حكى صوبها صوب الغمام إذا همى ... وصوت زفير القلب صوت رعود
على أنه لم يجدني سكب عبرتي ... على طلل عاف بطول عهود
وفي كبدي نار يشب لهيبها ... لبينهم لم تتّصف بخمود
برى السقم جثماني فصار من الضنا ... دقاق عظام ضمّنت بجلود
ولم يبق في جسمي سوى رمق غدا ... دليل حياة مؤذناً بوجود
ولم يثنني عن حبهم طول نأيهم ... ولم أسلهم طل الحياة بغيد
فحبهم وصفي وبي قام لازماً ... كما قام وصف العلم بابن سعيد
هو العلَم السامي الإمام محمد ... سليل علي ذو الوفا بوعود
ومن أسعد الراجين نيل علومه ... بفهم ورأي صائب وسديد
وقد قيّد العمر المديد حياته ... بحل عويص أو بقيد شرود
فلا جدة أغنته عن حب نائل ... ولكن لزهد في دناه شديد
ومن جعل العلم المشرف بازياً ... لصيد العطايا كان غير رشيد
وما هو إلا للنفوس مكمّل ... وليس سبيلاً لالتقام ثريد
فمن شاء وصف العلم فَلْيكُ هكذا ... وإلا فمنه الذم غير بعيد
حويت أبا عبد الإله شمائلاً ... صعدت بها العلياء خير صعود
فغادرت كل الحاسدين كأنهم ... بقايا ثمود في ديار ثمود

لختمك في يوم شمائل أحمد | فكنت بذاك الختم خير حميد
فدم ذا فخار ماشياً تحت راية | تخفق في دار الدنا وبنود
وتحت لواء المصطفى يوم محشر | جزاء لما أرضيته بمزيد
كأني بمرأى منك حقاً ومسمع | فآونة تلقي لسمع مريد
حديثاً بإسناد صحيح رويته | فأنت لما ترويه خير مجيد
وإنّك ذو لفظ شهي مهذب | إلى كل من يصغي إليك مميد
يحاكيه لحن الموصلي وزلزل | إذا غنيا يوماً بشعر لبيد
فكيف إذاً تروي الحديث معنعناً | ببيت عتيق للإله مشيد
ولولا وداد منك صحّ مصاحباً | لحسن وفاءٍ بالعهوْد مديد[1]
لما ملت يوماً للثناء على امرىء | وقمت الى الإنشاد بعد قعود
فشعري ذو ود لأهل مودتي | وليس لمن لا يهوني بودود
فودّي إلى طول المدى ليس ينقضي | وحقك إلا بانتهاء وجودي

ومن شعره أيضاً قصيدة أذكر بعضها لأن منها ما رأيت أن من اللائق طرحه :

ألا قل لأهل الشعر قد خاب سعيكم | فقد زادكم عن نيل مطلبكم نأيا
أغركم ما قد عزوه من العطا | إلى معشر لم يعرفوا المطل والليا
فأكثرتم الأمداح في غير أهلها | وقايستم موتى الأوادم بالأحيا
ألم تعلموا أن امرأً جاء طالباً | إلى نجله ذا رغبة منصب الفتيا
وحرك كي يحظى به كل ساكن | وكل امرئ ممّن يُلاذ به أعيا
وأمرض منه البطن طول انتظاره | مئات من الأيام ذا كبد صديا
فمنوا عليه بالذي جاء طالباً | لإشفاقهم أن لا تدوم به المحيا

وقوله أيضاً :

إن الألى أصبحوا والأمر أمرهم | وكان ذاك من المولى بتقدير
كنا نظنهم للخلق حامية | لا يوصفون إذا حثّوا بتقصير
حتى إذا استعظموا في الناس أنفسهم | واستكبروا قدرهم من غير تكبير

(1) هذه الأبيات الأربع الأخيرة صريحة في أن الشيخ السنوسي هذا (صاحب الترجمة) كان من أُودّاء الشيخ ابن سعيد وقرنائه .

ساقوا الأنام على جهلٍ بقدرهم … سوق الحداة لما ساقوه من عير
استودع الله ديني بين طائفة … قد قتروا العيش جوراً أي تقتير
يصيّرون المحال المحض من كذب … كذي الجواز بتزيين وتحبير
تراهم في مسوح من ملابسهم … عجباً بتحسينهم أبناء سابور
ما كان من دأب من قد كان قبلهم … حب الملابس أو جمع الدنانير
فإن رأوا ذا كمال في فضائله … عزوه حتى لتهويد وتنصير
كي لا يشاركهم في منصب أحد … يرون ما فعلوه حسن تدبير
حتى غدا الناس من تمزيقهم شذراً … وما اختشوا غافلات الإفك والزور
إني أصبّر قلبي كي يراح فلم … يفد فؤادي فماذا نال تصبيري
لكن إذا دام هذا قلت من قلق … يا ناقتي في فيافي الأرض بي سيري
عسى ألاقي بهم قوماً سجيتهم … أن يسرعوا لأخي كسر بتجبير
أو تخرج الروح مني وهي صالحة … إلى اللقا ذات تهليل وتكبير
على محجة دين الله سائرة … شوقاً إلى جنة الولدان والحور
جوار خير الورى مع سادة غرر … قد حلقوا معه قدماً على البير
فعيش من كان في الأخرى جوارهم … ما إن يشان بتغيير وتكدير
عليه أزكي صلاة لا نفاد لها … ما أورث القلب شوقاً صدح شحرور
والآل والصحب ما ناحت مطوقة … شوقاً لإلف لدى الصياد محصور

ومن شعره أيضاً قوله :

نفس بمسكن أهوال الدنا ثملهْ … لها سنون إلى الأحوال محتملهْ
ومقلة حالف التسهيد ناظرها … ترعى الكواكب إثباتاً ومنتقلهْ
وفي الحشاشة نار ما خبت أبداً … بل غدت في اتّقاد فهي مشتعلهْ
ما كان ذلك من شوق إلى سكن … فالنفس عن سنة العشاق منعزلهْ
ولا لأقواء ربعٍ قد مررت به … غافٍ غدت عند ذات القرط مرتحلهْ
ولا بفقدان أنصار فني شرفي … فذا نكال به أهل الدهَا وجلهْ
ولا لفقدي علماً أستفيد به … فضلاً فمثلي أجلّ الناس ما فضلهْ
أما روى الناس عني كل نادرة … بنقلها قد تباهى السادة النقلهْ

علمي لعمري أن العلم صاحبه قد صار فيما يرى من جملة السفله
ونال ما يتمنى الجاهلون فما نال الأماني إلا أجهل الجهلهْ
فأحمق الناس من أبلى شبيبته وأخلق الدهرُ في تحصيله حُللَه
ففاته الحظ حتى صار ذا نوب وخيب الحظ لما عاقه أمله
فعاد يدرج في حال المشيب إلى نيل المعاش لبابٍ قطُّ ما دخله
محدودب الظهر في أجفانه عمشٌ لكونه جهده في كسبه بذله
وأحلم الناس من أغرى البنين على بعض الصنائع كي ينفي بها خطله
كي لا يكون من الإملاق ذا ملق لو أنها صنعة الإسكاف والفولة

يظهر من هذه القصيدة واللتين ذكرنا قبلها لصاحب الترجمة رحمه الله أنه كان متبرماً بحاله غير راضٍ بما لديه ، يرى أن حظه غير سعيد مع أنه أهل للحظوة والمراتب العلية التي نالها غيره بالتملق والتمسح بالأعتاب ودناءة النفس . وأن العلم والأدب لا ينيلان وحدهما معالي الرتب ، فهو لذلك يرى أن من أحمق الحمق إبلاء جلباب الشبيبة في تحصيلها ، وأن طلب العلم إذا كان لا يفضي بصاحبه حتى إلى سد الرمق فخيرٌ منه الإشتغال ببعض الصنائع والمهن التي لا يصيب متعاطيها الإملاق ولو ما يحتقره بعض الناس منها كصنعة الإسكافي ومهنة الفوال . ذلك ما يحكم به العقل ويوحي به حسن التدبير وهذا كله يشعر بامتعاضه من الحال التي هو عليها ومن حظه المبخوس الذي لم يساعفه التوفيق .

ومن شعره هذه الأبيات المنقولة من خطه قال : قلت وقد سألني بعض الإخوان ما يقدمه بين يديه في حال شكايته بالعلاف لما جار عليه في كيل ما ترتب عليه من العشر مساعفة له وإن لم تفد الشكاية إلا النكاية :

أنهَ عن التطفيف علاّفكْ وأظْهِرَنْ في الحكم إنصافكْ
فإنه ما خاف رب الورى في خلقه يوماً ولا خافك
وإنه أخفى بأوصافه خصالك الحسنى وأوصافك
بلك الذي قد طاف نال الهدى ولم ينل هدياً وإن طافك

وله مادحاً الشيخ حسونة الترجمان مضمّناً المصراع الأخير :

أحسين السامي سماء فضيلةْ من في العلوم له يشار بأصبع

لا تطلب العلياء قبل أوانها فلَكَ المعالي لا لغيرك فأهجع
فاْصبر لها فإذا أتى إبّانها هبطت إليك من المحل الأرفع

ورأى ساعة (وهي المعروفة عندنا بالمنقالة) في يد بعض أصحابه فقال مضمّناً المصراع المذكور أيضاً :

قد قلت لما أن رأيت بكفه منقالة والشوق جال بأضلعي
ذي قبة الفلك الذي هو في السما هبطت إليك من المحل الأرفع

ومن شعر صاحب الترجمة أيضاً – رحمة الله عليه – هذه القصيدة يهنىء والده سيدي عبد الله السوسي ، رحمه الله بختم **المختصر الخليلي** :

أهجتَ حمام الدوح بالنوح بلبالي وذكَّرتني ما ليس يخطر بالبال
وأضرمت في قلبي جحيماً وقد خبت قليلاً وخلفت الحشى فوقها صال
وأيقظت جفناً قبلُ لم يعرف الكرى سوى سنة والسهد من شأن أمثالي
وجددتَ عهدي بالذي قد نسيته لكثرة أرزاء وصولة أهوال
وكنت أطيل النوح مثلك في الدجى ويسمح جفني بعد ويل بهطال
وتقلقني من شدة الشوق حسرة وما لي حميم أرتجيه ولا وال
وأندب أيام التصابي التي مضت وشحطي بفيحاها وجرّي لأذيالي
فلا زلت أبكي والليالي طويلة وأسكب مزن الدمع من غير مكيال
على إلفي النائي ومسكنه الحشى وفي السلم المخضل مرآه والضال
أغنّ يريك الفرق كالصبح ظاهراً إذا قيس يوماً في الجمال بأشكال
ومن وجنتيه الشمس يبدو شعاعها ويرنو بطرف للعزائم حلّال
إذا ماس تيها خاله كل واله كميّاً تصدّى للقتال بعسال
فوا أسفاً أن لم أنل منه زورة وواتلني أن لم تجدْ لي بآمال
ومذ قد نأى عني غدا البال كاسفاً وقلبي بأوجاع يُقَدّ وأوجال
وما ميله عني ملالاً ولا قِلىً ولا خوف واش يتقيه وعذال
ولكن صروف الدهر تفريقنا اقتضت برغم على شمّ الأنوف وأنكال
وعاتبت دهري حين فرق بيننا فنادى بتشريف أيا كاسف البال

حبيبك بدر قد عراه أفوله   وهل ثم بدر نيّر غير أفال
فقلت له أشمتَّ بي كل حاسد   وسريت أعدائي ومن هو لي قال
فحسبي اصطباري والتجلد للعدى   وصبري وإظهاري التجلد أولى لي
وإني وإن أشكو صنيعك والعدى   تيقّن كل فرط خوفي وإذلالي
وإني شجاع باسل لست أختشي   سنان رماح الطعن أو نيل نبّال
وإن عدوّي لو سما كل رتبة   فما أنا إلا سابق وهو لي تال
وإن رام هضمي باختراع مذمة   صبرت وهل طودٌ شكا نطح أو عال
وإن قاس يوماً نفسه بي سفاهة   فما خلته يوماً يُقاس بمثقال
لأن العلى قد خبرّتني بأنها   كستنيَ من أثوابها خير سربال
كما ألبست قدما أبي من صنيعها   سرابيل حاكتها على خير منوال
هو المرتضى عبد الإله ومن له   يجول الفيافي كل طالب آمال
عنيت به السوسي من عمّ فضله   على كل ذي فضل وذي شرف عال
إمام له في العلم أرفع رتبة   فكم حط عنها من كماة وأبطال
له العلم قوت لا يفارق درسه   مدى الدهر يقري في غدو وآصال
به تونس الخضراء أشرق حسنها   وأرجاؤها قد أخصبت بعد إمحال
فكم جاهل قد جاء يشكو جهالة   بها صار ملقى في حضيض وإهمال
فلم يلبث إلا مهلة من زمانه   وعاد بأعباء العلوم وأثقال
فقل ما تشا لا تخشى لومة لائم   بمدحك شيخاً فاضلاً خير مفضال
تقيّ عفيف باذل النفس والقرى   وأنفاسه في كل صالح أعمال
ألم ترَ سرّ الختم ينمو ابتهاجه   وأنواره أخفت سنا البارق العالي
وشيخ الشيوخ العارفين وحوله   بنوه كليث جالس بين أشبال
أعوّذه بالله من شرّ نافث   بالأنعام والأعراف ثم بالأنفال
فليت خليلاً حاضر في مقامه   ليبصر صنع الشيخ في صنعه الغالي
ورداً لإيراد بأوضح حجة   ونقضاً لإبرام ونفياً لإشكال
فيشهد بالفضل الذي هو أهله   وينزله في المجد أعظم إنزال
عليه من المولى سحائب رحمة   تجود عليه بعد وبل بهطال
وأشياخه والشارحين جميعهم   لمختصر منه تفقه أمثالي

فخذها فدتك النفس من نجلك الذي | لفرط ذكاه لا يقاس بأنجال
بنيّة فكر قد تحلت بحلة | وليست من الحلي النفيس بمعطال
فما أن يحاكيها امرؤ القيس منعماً | وهل يعمن من كان في العصر الخالي
وما مهرها إلا القبول مع الرضا | وترك لإعراض ومنّ بإقبال
فلا لا علمنا منك قصداً ومأرباً | ولا راعنا فيك الزمان بأهوال
وعاملك الرحمان ربك بالشفا | على عجل يأتيك من غير إمهال
بجاه رسول الله أحمد خير من | له الملك الديّان خصّ بإرسال
عليه صلاة الله ثم سلامه | وأصحابه الغرّ الأماثل والآل
يدومان ما قال امرؤ ذو صبابة | أهجت حمام الدوح بالنوح بلبالي

ومن شعر صاحب الترجمة هذان البيتان اللذان نسبهما البعض إليه وإن نسبهما البعض أيضاً إلى الشيخ محمد بن سيدي صالح الكواش كما سيأتي في ترجمته وهما :

بك زبدة التوحيد لاذت واحتمت | تبغي النجاة من الحسود اللاهي
قالت وقد بسطت أكف تضرع | يا رب داركني بلطف الله

وقوله (بلطف الله) تورية باسم الشيخ علامة المعقول لطف الله العجمي الوافد على الحضرة التونسية .

252 – أبو الحسن علي بن علي زيد الكفيف ويعرف بالزرلي السوسي

ترجم له في **ذيل بشائر أهل الإيمان** بما ملخصه أنه ولد بسوسة سنة 1111هـ ، ولما بلغ سن ممارسة التعلم حفظ القرآن العظيم ، وجوده على الشيخ أحمد الريغي وعلى الشيخ أحمد السوسي ، وتفقّه على الشيخ الريغي والشيخ يحيى السوسي ، وحصل النحو والصرف والعروض واللغة عن مشائخ بلده . ثم ارتحل إلى مدينة تونس للتملؤ من العلوم فأتقن فن القراءات ، أخذه عن الشيخ العامري وعن الشيخ الرقافي . وحصل أصول الفقه ، وبرع في جميع الفنون ، فصدره الأمير حسين باي للتدريس بزاوية الشيخ أبي فاتح ، وعيّن له مرتّباً . وله أيضاً درس في مسجد أبي فتاتة . كما اشتغل بالتأليف ، فمن تأليفه منظومة في التوحيد ، وكتاب سماه **منهاج الهدى وسراج**

الإقتداء في إثبات كرامات الأولياء والرد على من أنكرها . وله شرح على لامية العجم . وشعره فائق ، خمّس البردة تخميسين ، وله مقصورة تحتوي على ألف بيت في مدح الحضرة النبوية وأخرى سماها الدرة السنية في مدح خير البرية . وله تخميس على لامية العجم منه قوله :

يا صاح لا تشكُ فقراً فالإله ولي ولا تبح سرّ صدرٍ قد خفي لولي
لا تبده أبداً للعالمين ولي أصالة الرأي صانتني عن الخطل
وحلية المجد زانتني لدى العطل

ثم قال : والحاصل أنه كان أعجوبة الدهر في الذكاء ودقة الفهم ، عالماً متفنناً ، حسن الصوت ، جيد القراءة ، ذكي المسامرة ، لطيف الذات مقبولها ، يجالس الأمير فيقرأ القرآن بحضرته وينشد القصائد البليغة ، ويأتي بغريب المواعظ مقبولاً عند الأمير وعند الناس .

253 - أبو عبد الله محمد بن أحمد زيتون

ذكر الشيخ محمد الشافعي في شرحه على محركات السواكن إلى أشرف الأماكن وهي قصيدة الأمير محمد الرشيد باي التي تشوق فيها إلى زيارة الحرمين الشريفين والتي شرحها الشافعي المذكور الذي تقدمت ترجمته في هذا الكتاب . ذكر رحمه الله في شرحه المذكور أن صاحب الترجمة (محمد بن زيتون) كان أبوه وهو أبو العباس أحمد هو أول من أدركه مولّى خطة القضاء من قبل الدولة العثمانية من أبناء تونس ، وأنه لما توفي ذهب ابنه أبو عبد الله محمد (صاحب الترجمة) تلقاء الدولة العثمانية ليأتي بظهير منها في توليه منصب القضاء بتونس كأبيه من قبل فمات بالطاعون كما ذكر أنه كان آية زمانه علماً وأدباً ، وأنه تفقه بشيخ تونس في عصره سيدي سعيد الشريف .

كان رحمه الله جيد الشعر لما توفي شيخه سيدي سعيد الشريف المذكور وقام مقامه في التدريس أكبر طلبته وهو الفقيه الشيخ عبد الرحمان الكفيف . قال في ذلك صاحب الترجمة :

وقائلة ما لي أرى درس علمكم به الثور يُلْفَى طالعاً ساعة النحس

فقلت لها لا تعجبي أم عامر فدونك تحقيق القضية كالشمس
ذوو الفضل لما تم بالأمس حصدهم أتينا بثيران لتكملة الدرس

وقال يهجو الشيخ علي عصفور أحد عدول تونس من أبيات :

وقالوا : إنه يُدعى عليّاً فقلت له نعم ولكن فوق معوّل
وقالوا إنه العصفور حقاً فقلت المفسد العصفور يقتل

ومن شعره أيضاً قوله في بعض أقرانه وهو أبو عبد الله محمد جعيط أحد تلامذة سيدي سعيد الشريف أيضاً :

وشخص في الورى يدعى جعيطاً يرى إن حاز من علم كفافا
وأصبح في المسائل ذا خلاف وكل خلافه حاكى الخلافا

ويظهر مما ظفرت به من شعره أنه كان رحمه الله هجّاء كثير المزاح .

254 – الشيخ أبو عبد الله محمد الشحمي

هذا الإمام من مفاخر خريجي جامع الزيتونة وأعلامه في عصره تخرّجت عليه الجماهير ، فمن تلاميذه الفحول أبو عبد الله محمد الدرناوي الحنفي الكفيف وأبي العباس أحمد الشرفي وعده الشيخ محمود مقديش في تاريخه لما ترجم لهما . وذكر أخذهما عنه من الفحول الذين أخذ عنهم العلم بجامع الزيتونة . ومنهم الشيخ أبو العباس أحمد البارودي المفتي الحنفي ، والشيخ محمد بيرم الثاني ، وعبر عنه في كتابه **تراجم المفتين** بقطب دائرة المعقول ، وبالعلامة إمام المعقولات . وقد كان رحمه الله مشتهراً بعلوم المعقول من كلام ومنطق وغيرهما ، مبرزاً فيها ، له فيها مكانة عالية ، نقل ذلك إلينا بالتواتر . حكى شيخنا العلامة محمد النخلي أن صاحب الترجمة حضر هو ومن استدعاهم أمير عصره من علماء جامع الزيتونة بمجلسه لما زاره الشيخ لطف الله العجمي الوارد على الحضرة التونسية إمام العلوم العقلية بقصد تكريم هذا الضيف الجليل ومذاكرته في المسائل العلمية وربط أواصر الصداقة بينهم وبينه ؛ فتطارح علماء جامع الزيتونة الحاضرون مع هذا الضيف الكريم ما شاءوا أن يتطارحوا في غرائبها

ومشكلاتها حتى لم يبق آخذاً بزمام الحديث في ذلك المجلس إلا الشيخ الشحمي والشيخ لطف الله ودام ذلك ساعات . قال الشيخ لطف الله للشيخ الشحمي معجباً به ومشيراً إليه بأصبعه : امتلأت علماً لا شحماً . ثم إن الشيخ لطف الله العجمي بعد ذلك ارتحل من تونس بعد أن لقي من علمائها ومن أميرهم الإجلال وكرم الوفادة قاصداً المغرب الأقصى وحل بمدينة فاس لكنه لقي فيها النكير عليه لتعاطيه العلوم العقلية خصوصاً علم المنطق حتى هجاه بعض شعراء المغرب بقصيدة يقول في طالعها :

أنقيض لطف الله اسمع واطرق ... إن البلاء موكل بالمنطق

فخرج من المغرب شبه فارّ . هذا وصاحب الترجمة على جلالة قدره وعلو كعبه في العلوم العقلية تُروى له قصص مستظرفة تدل على التغفل إن صحت ولا أعتقد صحة نسبتها إليه ، وعلى فرض ذلك يظهر لي أنه يقصد بها المزح لا أن ذلك صادر عن تغفل منه . فمن ذلك ما يحكى أنه كان راكباً مع بعض تلامذته قارباً من البحيرة إلى حلق الوادي بقصد التفسح ، وكان معهم بعض الفواكه فألقى الشيخ عنقود عنب في البحيرة وبعد حصة مدّ يده يفتش عليه في الماء فقيل له : على ماذا تفتش ؟ فقال على عنقود العنب الذي وضعته في الماء ليتبرّد .

وكان صاحب الترجمة مجيداً لقرض الشعر محسناً له وإن لم يكن من مكثريه .

فمن شعره ما ينقل أنه مرّ بقصاب جميل المحيا واضعاً السكين بفمه عرضاً على عادة الجزارين فقال ، أو اقترح عليه :

يا واضع السكين في فمه وقد ... أهدت له ماء الحياة لهاته
عاود بها المذبوح ثاني مرة ... وأنا الكفيل بأن تعود حياته

وقد شطرهما الوالد رحمه الله بقوله :

يا واضع السكين في فمه وقد ... رقت فرنداً تستجاد سماته
وآنماج موج الحسن فيها حينما ... أهدت لها ماء الحياة لهاته
عاود بها المذبوح ثاني مرة ... يلتأم بعد الإفتراق شتاته
ودع الذي أودعته في متنها ... وأنا الضمين بأن تعود حياته

ويحكى عنه أيضاً أنه كان ماراً بعد صلاة العشاء في بعض طرق المدينة فإذا ببعض الحشاشين يتغنى رافعاً صوته بقوله :

الدمع دمعي والعيون عيوني خلوني نبكي على مظنوني

ويضرب على آلة موسيقية تسمى الكنبري ، فاستحسن مغناه ، وأخذ يتبعه دون إرادة منه حتى خرج من باب المدينة ، ولما رجع وجده مغلقاً فذهب الى شيخ الربض ، فعظم مقدمه وسأله عن سبب وجوده هناك في ذلك الوقت ، فأخبره الخبر ورغب منه أن يحضر ذلك الشخص فأمر بإحضاره ، فأحضره لديه وتمتع الشيخ بسماع مغناه طول تلك الليلة ، ونظم له أبيات ليتغنى له بها وهي :

حجبوك عن عيني لقد ظلموني أخذوك من عندي وما رحموني
ونهوك عن وصلي فبتّ متيّماً أبكي بدمع لا تمل جفوني
يا طلعة القمر المنير إذا بدا والغصن بين تحرك وسكون
من ذا يلمني إن بكيت صبابة الدمع دمعي والعيون عيوني

وشطرها الوالد أيضاً رحمه الله بقوله :

حجبوك عن عيني لقد ظلموني ودعوا فحين ملكتني ودعوني
لما ظننت الدهر أظفر بالمنى أخذوك من عندي وما رحموني
ونهوك عن وصلي فبتّ متيّماً أُصلَى بنار تأوهي وأنيني
ترحاً سفكت دم الحشاشة وامِقا أبكي بدمع لا تملّ جفوني
يا طلعة القمر المنير إذا بدا منه الحيا في الليالي الجون
والورد مبتهج بحمرة خدّه والغصن بين تحرك وسكون
من ذا يلمني إن بكيت صبابة وجريت طلقاً في طريق مجوني
وتقرّحت عيني بسيل دموعها الدمع دمعي والعيون عيوني

ومن شعر صاحب الترجمة ما قاله في نافورة (ما تسّميه أهل تونس خصة) موضوعة في مقصورة الأمير علي بن حسين باي :

ونضّاخة تجري بعذبٍ كأنها قضيب من البلور في جسد الدر

فقال سيدي عبد الكبير الشريف متمماً لذلك :

وإنّ انسكاب الماء في جنباتها   كفيض يد الباشا بنائله الغمر

255 – الشيخ أبو الفضل قاسم بن عاشور

هو من ذرية الشريف صاحب السلوك العارف بالله أبي عبد الله سيدي محمد ابن عاشور الوارد على الحاضرة التونسية من مدينة سلا من بلاد المغرب الأقصىٰ . وأصل سلفه من مهاجرة الأندلس . وقد ترجم له صاحب **ذيل بشائر أهل الإيمان** وهو من أيمة العلم بجامع الزيتونة وأعلام شيوخه . عبّر عنه الشيخ محمد بيرم الرابع بالعلامة شيخ مشايخنا ، وعبّر عنه بعضهم بالعلامة بحر العلوم . وقد نقل عنه الشيخ محمد بن سعيد الحجري في حاشيته على **شرح الأشموني على الخلاصة** في بعض مواضعها وإن لم يصرح باسمه : كان علامة جيد الشعر ؛ حسبما روي عنه بعض مقاطيع منه ، من ذلك :

قالوا تسل عن حبيبك قلت لا   أسلو وحق التين والزيتون
قالوا بكاك أضرّنا فأجبتهم   الدمع دمعي والعيون عيوني

وقوله أيضاً مضمناً :

ولو أن علياء المحاسن قد علت   وتسنمت أعلى النجوم الطُّلّع
ورأت مآثرك التي سَبَت النهى   هبطت إليك من المحل الأرفع

ومما نسب إليه بيتان نسبهما إليه الشيخ محمد بيرم الرابع في بعض كنانيشه وهما :

حكَمتْ بفرط صبابتي وثباتها   مقلٌ تعوق الأسد عن وثباتها
سود لنا منهن موت أحمر   لما غدت كالبيض في شفراتها

وهما طالع قصيدة طويلة للشيخ أحمد هويدي ، هنأ بها شيخه سيدي محمد الغرياني بختم **الكبرى** سنة 1167هـ ، وسأذكرها في ترجمة الشيخ هويدي ناقلاً لها من كنش الشيخ الغرياني . ولعل صاحب الترجمة أنشدهما لسبب ما فظنّهما بعض من

سمعه أنهما له كما يذكر بعض تلامذة الشيخ سالم بو حاجب أن من شعره هذين البيتين :

نـزلتي بـالله زولي وانــزلي غير لهاتي
واتركي حلقي لحتي فـهـو دهليز حياتي

مع أنهما ترويان منذ القدم لغيره وأن من أنشدهما وكان مصاباً بالنزلة يعافى . ولعل الشيخ بوحاجب أنشدهما في سياق ظنهما لذلك بعضُ سامعيه أنهما له ، فنسبهما إليه غلطاً . ومما نسب الى صاحب الترجمة أيضاً هذان البيتان :

فلا تبتئس من فرط صدّ فإنما يعد فتى من لا يروّعه الصد
ولا تبدِ للأعداء إلا تجلداً فإن الذي غاض العدى الرجل الجلد

وهما كسابقيهما ليسا لصاحب الترجمة بل هما للشيخ أحمد المنزلي المعروف بمعتوق من قصيدة هنأ بها شيخه سيدي محمد الغرياني بختم البخاري سنة 1167هـ . وسأذكرها في ترجمته ناقلاً لها من كنش الشيخ الغرياني أيضاً .

ومن أهل العلم والأدب في هذا القرن الثاني عشر ثلّة من تلامذة الشيخ سيدي محمد الغرياني المتوفى في 12 شوال سنة 1195هـ أذكرهم فيمَا يلي مع ما وقفت عليه من أشعارهم ونعوتهم ولم أقف على جلية أخبارهم .
فمنهم :

256 – أبو العباس أحمد هويدي

هو الشيخ الفاضل الأديب الفقيه الألمعي النحرير .

من شعره مهنئاً شيخه سيدي محمد الغرياني المذكور لما ختم عليه كبرى الشيخ سيدي محمد السنوسي وذلك سنة 1167هـ هـ :

حكمت بطول صبابتي وثباتها مقل تعوق الأسد عن وثباتها
سود لنا منهن موت أحمر لما غدت كالبيض في شفراتها
وتريك مهما إن رنت نشوانة كيف المنية وهي في سكراتها

تصبو لها الأرواح منا خلسة ... فتميتها والموت من مرضاتها
رفعت سلوى فانتصبت على الأسى ... وقضت بجزم القلب من كسراتها
يرنو بها شادٍ يقول بوجنة ... عقلت شرود الطرف في روضاتها
يا حسن ذاك الصدغ منه واقفاً ... مهما سعى ترميه من جمراتها
في حرّها حبي العتيق ودر صبـ ... ـري راح منثوراً على ورداتها
ظبي سبا منا القلوب بقامة ... سكن البَهَا والحسن في حركاتها
ما هي إلا السمر إلا أنها ... تهتز كالأغصان في عطفاتها
حاكى الظبا في كل وصف ساحر ... لبّ البرايا ما عدا لفتاتها
تفديه نفسي من غزال جائر ... حتى على الآساد في أجماتها
ثبتت لقلب قلوبنا أرواح معـ ... ـطفه فأثناها على سطواتها
فسطا على الأرواح وهو ربيبها ... وأليفها في القلب عند ثباتها
ولقد سبا الشعرى بنور جبينه ... فأتاحها سلوان سلواناتها
يبدي إذا ابتسم العقودَ نظيمة ... فاعجب وقلْ ما شئت في آياتها
ومراشفاً أنفقت درّ مدامعي ... من بحر وجدي في عقيقيّاتها
وأرى بها عيناً تسمي سلسبيـ ... ـلاً وهي للعشاق عين حياتها
يا ناشيء انشينا بريق أشنب ... أشهى من الصهبا ومن نشواتها
وأدِر علينا قهوة جاماتها ... في العين منها وهي من جاماتها
في روضة أغصانها قامت على ... ساق كما الولدان في جنّاتها
قد أرسلت لما أضرّ بها الصبا ... تشكو لنا من جوره ورماتها
وتماشت النّسمات في الأغصان وَهْيَ ... تصعّد الأنفاس من غُلاّتها
والنهر فيها سائلاً فتنيله ... منها دراهم هنّ من زهراتها
يهديك نفح الطيب نحو ظلالها ... فترى الخيام نصبن من خاماتها
تاهت على عشّاقها أفنانها ... يا طيبها والطيب بعض سماتها
وزهت بأزهار لها فكأنما ... هي تونس تزهو بشيخ هداتها
علم العلوم الجامع الفرد الذي ... أضحى لدى الفُضلاَ أجلّ سراتها
ذاك المفضل مَن لغريان انتمى ... فربت مفاخرها على ربواتها
علامة العليا الذي في وجنة الـ ... ـدهر المسيء يعدّ من حسناتها

عقد التقى والفضل فيه محاسناً … قد حلت الدنيا به لباتها
حبر أبيها كم أبان غوامضاً … بذكائه أو ماز مختلطاتها
مها شياطين الضلال تطف به … يرمي بشهب ذكائه شبهاتها
ولكم شفى أهل الجهالة بالهدى … واختصها بعد الشفا بنجاتها
يبدي المعاني للنهى ببيانها … فتبين كالأنوار في مشكاتها
ذو فكرة لم تأوِ كل شرودة … في العلم إلا وامتطت صهواتها
فاسأل لقوتها المعارف كلها … واسأل قوادحها وكسبيّاتها
فعليه لا يخفى الخفيّ كأنما … تبدو له الأشياء في مرآتها
هو حجة أبدت قضايا علمه … فيه المحاسن من جميع جهاتها
شهم همام فاضل متفضل … جمع المكارم بعد طول شتاتها
لو كانت العليا الكرام قصيدة … كان القصيد الفرد من أبياتها
أخذ الأحاديث الصحاح ولم يزل … حتى ارتوى من عذب مروياتها
نور الهداية لامع من ذاته … يغنيك عن نور الشموس وذاتها
ورع سري راح معروفاً فأضـ … ـحى للورى من خير أمنيّاتها
يا من بحصر جلاله وكماله الـ … ـأقلام كلّت وهي في راحاتها
بشرى فهذا الختم منك مبارك … لمعارف الكبرى وتحقيقاتها
يا حسنها قد صُنّفت في صنفها … حارت عَلاً من ذاتها وصفاتها
آثار واحد عصره في مصره … ذاك السنوسي ربّ تحريراتها
ولأنت قد أنهلت منها فتية … فتبصّروا في ذوق سمعياتها
فكأنهم وكأن شخصك فيهم … زهر توّمّ القطب في داراتها
خذها سميّ الهاشميّ خريدة … قد وشحت بِردَا الحيّا وجناتها
هيمانة تسلي الكئيب كأنها … لما انتشت هامت بإلماماتها
تبدي محاسن للنهى لو لم تكن … درّاً تخال السحر من نفثاتها
تمشي على استحيا إليك لدن غدت … نشوانة من حسن خمريّاتها
لم تبغِ غير دعائكم مهراً لها … وأنيسها جهراً وفي خلواتها
فاشمخ وكن للطالبين مرشحاً … وموشحاً بالمصطفى دعواتها
ذاك المرام محمد من أفلحت … بجاهه الآرام من نكباتها

الهاشمي المختار من نطقت لمبـ ـعثه الوحوش البكم في فلواتها
صلّى عليه الله ما هب الصبا فاهتزّت الأغصان من نفحاتها
وعلى الصحاب الأكرمين وآله ما رجّعت ورق على عذباتها
وعليك يا فذَّ الكمال تحية ما دمت في الأخبار خير رواتها

ولصاحب الترجمة أيضاً مجيباً الشيخ أحمد العصفوري عن أبيات ثلاث تقدم ذكرها في ترجمته ومضمناً :

يا من تنّظم فضله وعلاؤه في جيد دهر من مثيلك بلقع
مهلاً فقد حزت البشاشة عندما شنّفت سمعي بالنظام المبدع
نظم وما أدراك ما نظم أرى ذا الشوق أشهى من وصال مقنع
لو لم يكن درّاً لخلنا أنه لحظ الغواني والظباء الرتع
غصت البحار لعلني ألقي له مثلاً فلم ألف له من نزع
فعلمت بعدُ بأن زُهراً لفظه هبطت إليك من المحل الأرفع

257 – أبو الحسن علي بن سالم العبّاني

حلاه بعضهم بقوله : الشريف الفقيه الأديب .

من شعره قوله :

سلام على من أجج النار في الحشى تذكره والشوق بالحب بائح
وأورى زناد القدح بالقلب بُعدُه ومن علة الأشواق تبدو القوادح
وأوقد جفناً من لذيذ سناته لمكتئب ناحت عليه النوائح
وأجرى دموع الصب من فرط حبه بجنح الدجى والبين تحشى الجوانح
ومَن إن تثنّى يخجل البدر حسنُه وذاك خليل الحب في الدهر صالح
رعى الله لي خلاًّ تقادم حبّه وإن هو عن تلك المحبة جانح
لقد نال من أعلى المراتب سؤدداً ومن أجل ذا أثنت عليه المدائح
وقد غاص في بحر الفضائل سابحاً ولا عجباً أن المفضل سابح

وقد نال من كل المحاسن غاية فوا حيرتي كم ذا يعدد مادح
ويا رب فاحفظ قدره ومقامه فإنك مولى المكرمات ومانح
وهب لي رضاه مثل ما قد وهبته رضاي فلا تعدو علينا الكواشح

ومن شعره الغزلي قوله :

أهيم بمن أهوى وشعري يشهد بأني كئيب في الصبابة مفرد
وإني لمضنى لم أكن آلف الكرى ومن يشتكي فرط الضنا كيف يرقد
على فرقة الأحباب همت وإنني لبعد ديار الحي شجواً أغرد
ودمعيَ هتّان على الخد مَزْنُه ونار الأسى في مهجتي تتوقد
وحالي من الأرزاء حال وقد بدا مضارعه للحادثات مجّرد
وكم نحت في جنح الدجى متلهفاً على غُصن بان بانٍ منه التأوّد
وأطلقت طرفي في شقائق خده فعذبني ذالك الشقيق المورّد
ومن دأبه الإعراض والصد والجفا وحبي مقيم في الفؤاد مخلّد
وكم أسرت ألحاظه من متيم وكيف ولحظ الظبي عضب مهنّد
وكم قد سقاني الدهر كأساً من الأسى وسدد رمحاً للطعان يُجرّد
ونغّص طيب العيش من بعد صفوه وعوّدني ما لم أكن أتعوّد
وللوجد في الأحشاء نار تلهبت وللنار من ذالك اللهيب تصعّد
وللبين غارات وللدهر صولة تشتت شمل المستهام وتُبعد
وتبدي جيوش الهم في كل ساعة تمرّ وغارات المنون تجدد
وأرّق طرفي حادث البين والجوى فأرسلت من جفنيَّ دمعاً يبرّد
وسامرت بدر الأفق سهداً مع السهى وإن سميري في الليالي التسهّد
ورددت في الأحشاء شوقاً وطالما صبرت ومن أهواه لا يتودد
وما كان لي عن منهج الحسن سلوة وما لي عن نهج الغرام تحيّد
تجلدت حتى قيل ليس بمدنف وأخفيت حباً ملّ منه التجلد
وأنشدت من حي المبرح قائلاً: أهيم بمن أهوى ودمعي يشهد

ومن شعره أيضاً مضمناً بيتاً واحداً :

أخا الود إني قد بليت بحاسد يقوّلني ما لا أسِرّ ولا أبدي

وينسب لي ضد الصبابة والجوى ... وإني مدى دهر مقيم على الضد
ويروي أحاديثاً ويوصل قطعها ... ويرفع موضوعاً إلى زائد الصد
لقد ضاع عمري في هواه صبابة ... وإني من الذكرى عدمت بها رشدي
أبيت أراعي في الدياجي نظيره ... ومن حبه ليلي طويل من السهد
ولي منذر مِن خَالِ نعمان خده ... بتعذيب قلبي في لظى ذلك الخد
وتنشدني فيه الصبابة حرقة ... فكم عاشق قد مات صبراً من الوجد
وكم روّع القتلى بنبل جفونه ... إذا رُمْتَهم حصراً تناءوا عن العد
لذا صار دمعي مرسلاً ومسلسلاً ... ومستتبعاً صبّاً غزيراً على خدي
وناح حمام الشوق مِني قائلاً ... وقلبي جريح باللحاظ وبالقد
ألا يا عزيز الحسن دع عنك واشياً ... يسابقه وصف الأذية والحقد
وألغِ أحاديث الوشاة فقلما ... يحاول واشٍ غير هجران ذي عهد

ومن شعره أيضاً مادحاً ومهنئاً شيخه سيدي محمد الغرياني بختم **صحيح البخاري** :

جرت من نضار الدمع مني ذوائب ... تشبّ لظاها في حشاي ذوائب
أحاديثها تروى بإسناد حالتي ... ومقول حال المرء ما هو كاذب
لها طرق صحت بضعف مع الأسى ... ومرسل دمع دامياً هو ساكب
يُعدِّلها شرط اللقيِّ لمن روى ... حديث غرامي عندما لام عاتب
بمسودّها ابيضّت شعور مفارقي ... وجسمي مصفّر كما اخضرّ شارب (1)
كأس بماء الحسن يسقى لأنه ... يفور إلى الأبصار وهي نواهب
نواهل مهما لاح يشتد ظمؤها ... على علل والماء بالحسن ناضب
فينضو حساماً من لحاظ جفونه ... يباد به جيش الوغى والكتائب
ويسطو على العشاق سطوة ضيغم ... يصرعهم موتى وما هو واثب
إذا الأسد الضرغام قابل لحظه ... تراه صريعاً وهو في الحال ناصب
إذا ما بدا في غيهب الليل وجهه ... أرانا الضحى وانزاح عنا الغياهب

---

(1) أي أن غرامه حدث بعدما أخذ شاربه في الإخضرار .

يزيد على بدر الدجى وأظنه   لما قد خلا من حسنه هو عائب
قضى بانقطاع الوصل مذ شطت النوى   وعادت فيافٍ بيننا وسباسب
ومن دونها فيح تبيد ببيدها   مطايا الفلاة اليعملات النجائب
خلت من أنيس ضلّ فيها الهدى القطا   تجنّبها وحش الفلا والنوائب
فما للنوى رَوْعي تروّع تهولني   وحان التّوى مني فناحت نوادب[1]
أبيت ولي من معضل الداء شاهد   وتحويلَه عني أنا لا أراقب
دوائي وصال منه والوصل لم يكن   فكيف وقد سدت عليّ المسارب
تحدثني عنه عريب محاسن   خيالات فكر فهي عندي الغرائب
معنعنة عن أزهر الوجه والطلا   وعن خدّه النعمان يروي وكاتب
فلولا أنيني ما رأتني نواظر   ولولا حنيني ما عرتني المصائب
أفكّر إذ سامرته في دجنة   يضيء دجاها فرقه لا الكواكب
وقد حطّني من بين سمار منتدى   فتحسدني من عاشقيه المواكب
بمعسول ألفاظ كراحة ريقه   بها ظهرت عند الأنام العجائب[2]
تسكّر ذا صحو وتنعش ساكراً   تفرج ذا شجو لها السمع شارب
بها الميت يحيى خالداً عند بثّها   ومات بها حيّ وفيها الرواغب
فماذا الأدام القرقف الراح والطلا   إذا ما تجليها الكؤوس السواكب
لها كل معنى نضّد الغوصُ درَّه   فجاء بسحرٍ وهو للقلب سالب
كَفهْمِ همام بان للناس فضله   حجاه لدى حلّ المسائل ثاقب
مَحمد الغرياني شيخ أولي النهى   به في المعاني الحمد إن جاء ذاهب
روى بأفانين الدراية مسنداً   صحيح إمام جهبذي تراقب
هو العلم الفرد الذي سار ذكره   فتحسد شرق الأرض فيه المغارب
أليس أمير المؤمنين وغوثهم   بعلم حديث منه تصفو المشارب
رأى من وراء النهر شمس هداية   فأشرق منه الصدر والله واهب
إذا ما روى راوٍ حديث صحيحه   وجادت بودق الفضل منه السحائب
يقول لدى التعبير عنبر شحرنا   نجاري بخاري ذا الشذى ما السخائب

(1) روعي : فؤادي ؛ التّوى : الهلاك .

(2) كراحة : كذا بالأصل .

حوى من أحاديث الرسول أصحّها ... أليس بهذا تستبين المراتب
وخصّ بشرط زاده شرط رفعة ... لهذا قفاه مسلم فهو لازب
وأثنى عليه الناسُ ما هو أهله ... ولو سكتوا أثنت عليه الحقائب
إذا ما غدا ابن التين يفتضّ بكره ... فقل هي بنت الكرم والتين خاطب
تصدى له الشيخ الأجلّ لموجب ... هو النفع لما أن أبته السوالب
يضيء كمصباح يضيء زجاجه ... توقّد من زيتونة وهو طالب
به جامع الزيتونة اليوم مشرق ... إذا أظلمت بالغير ضاءت جوانب
يجلّي أحاديث الرسول عرائساً ... عوارضها مصقولة والترائب
وبالعين قد أبصرت يشرح متقناً ... ولا غرو فتح الباري ما فيه حاجب
ويعرب بالتوضيح مشكل لفظه ... لما أنّ بالتصحيح تجلى الكتائب
إلى أن تقضى بالختام ممّسكاً ... وختم البخاري تم منه المطالب
فلا زلت في التقرير ثبتاً موفقاً ... إلى الرشد في رد السؤال تجاوب
ولا زلت في الأختام تبدي كواعباً ... تنضّ بُدُور المهر فيها الخواطب
تقول لك القدني الدعاء فقط ولا ... أبالي بمن في خطبتي هو راغب
ودمت على علم الحديث تبثّه ... تلازمه درساً عليه تواظب
بجاه رسول الله أفضل خلقه ... ملاذ البرايا يوم لا خلّ صاحب
عليه صلاة ضاع نشر عبيرها ... تضاهي شذى أخلاقه وتناسب
من الله ما لاح الضيا من تبسم ... وما فاح نور حين تشدوا العنادب
وما قال مضنى أضرمت نار جأشه ... جرت من نضار الدمع مني ذوائب

258 – أبو الحسن علي البارع الصفاقسي

حلاه بعض معاصريه بالحبر الأديب البحر الأريب ، المتمسك من الأدب بأوثق سبب ، الذاهب في طرق بحوره كل مذهب ، من أطاعه في ذلك اللسان واليراع . فكان سيّداً بلا مراء ولا نزاع ، وافتخر به القطر الإفريقي على غيره ؛ وما أديب في هذا الزمان إلا وهو يحذو حذوه ، ويسير بسيره .

من شعره يهنيء شيخه العلامة العارف بالله سيدي محمد الغرياني بختم صحيح

البخاري وذلك في غرة رجب سنة 1167هـ ، أنشده بمجلس الختم المذكور نيابة عنه زميله في الطلب ، وقرينه في صناعة الأدب الشيخ أبو العبّاس أحمد المنزلي وكان صاحب القصيدة المترجم له حاضراً بهذا المجلس حين إنشادها إلا أنه غلبه الحياء فلم يتولَّ إنشادها بنفسه ، وهي من الشعر الرفيع والأدب البديع ، ونصها :

أعد من أحاديث الحبيب على سمعي ... وأسند روايات الغرام إلى دمعي
ولا ترو أخبار الصبابة عن سوى ... مسلسل ذاك الدمع في مرسل الفرع
وسقم غدا في ثوبه الجسم مدرجاً ... ولا زال موقوفاً على وصله خلعي
فأخبار دمعي والسقام صحيحة ... وهل في أحاديث الصحيحين من وضع
فما سقمي بالبين مؤتلف الشفا ... ولا رمقي في الحب مستدرك الرجع
أرى أصل دالي ليل فرع يجره ... صباح يؤول الجر فيه إلى الرفع
ترى خلف معسول اللمى حية لها ... تلوِّ تميت الصب من ألم اللسع
أغن بدت غنّاء روضة وجهه ... فغنى عليها طائر القلب بالسجع
غزال مراعيه العقول وربعه ... بطّي الحشى ويلي على ساكني الربع
تفرق صبري مذ جمعت غرامه ... وما رجع التفريق فيه إلى الجمع
يبيح دمي جوراً ويمنع وصله ... فوا حيرتي بين الإباحة والمنع
وَهَى ركن صبري كلما شاد أو رنا ... فوا جزعي إن شاد من شادن الجزع
ثوى بالحشى وتراً وثناه بالجفا ... ووتر المصلي في الفؤاد بلا شفع (1)
تدرّعت في حرب الغرام لصدّه ... بصبر أمنت الدهر فيه من الصدع
فجرّد سيفاً من فواتر لحظه ... ومزّق ما أحكمت من ذلك الدرع
تريد اللواحي نزعه من ضمائري ... ومن دونه نزع الحياة بلا نزع
أبيت ولي عين يُرى طارقُ الكرى ... على بابها كلّت يداه من القرع
تطاول ليلي من تطاول صده ... فيا لك ليل ضاق من طوله ذرعي
ولما تردّى الليل طول بقائه ... تيقنت أن الصبح في حالة النزع
ولم أنس يوماً قلت صلنيَ ليلة ... فقال : أليس الوصل يمنع بالشرع ؟(2)

(1) وفي نسخة أخرى : وشأن المصلي يلحق الوتر بالشفع .
(2) الوصل : يورى لمنع الوصال في الصوم .

فقلت له : عمّن رويت فقال : عن ... همام لغريان انتمى شامخ الفرع
إمام ذكيّ درّ ضرع علومه ... فأنهل كل الناس من ذلك الضرع
لقد عم آفاق البسيطة فضله ... كما عمّها من سائر العلم بالنفع
له عقدت في المجد ألوية العلى ... وطالت معاليه على الشهب السبع
تكاد خفي المشكلات بدرسه ... تخاطبه جهراً فتُدرك بالسمع
تحلى به جيد الزمان فأصبحت ... يداه تحلي ماضي الدهر بالصفع
أفاض على أرجاء تونس منبعاً ... فسميت الخضراء من ذلك النبع
تقدم في جمع العلوم فأخرت ... سواه عن التقديم في رتبة الجمع
مصيب بسهم الرأي في كل معضل ... مُجَلٍّ صباح النصح من غيهب الخدع
يضيق نطاق النطق عن حصر مجده ... وما حصر ما يحوي من المجد في وسعي
عليّ بتقوى الله في كل حالة ... وبالزهد في الدنيا الدنية والقنع
سريّ سرى في الناس معروف فضله ... وبشر به قد خُصّ من كرم الطبع
إذا زرعت في السمع منه مواعظ ... جنيت ثمار البر من ذلك الزرع
سعدت بهذا الختم يا علم الهدى ... ولا زلت في عز وذكرك في رفع
ألا أيها الحبر الذي هامة العلى ... من المجد من نعليه في موضع النسع
ختمت أحاديث البخاري فانثنى ... جميع الورى يثني على ذلك الصنع
أحاديث من في محفل أسمع الورى ... كلام جماد والحنين من الجذع
عليه صلاة الله ما هبت الصبا ... وما غردت ورقاء يوماً على فرع
ويسأل رب النظم حسن دعائكم ... عسى بالدعا منكم يعمّم بالنفع
فلا زالت الأختام في روض درسكم ... تضوّع وهذا الختم في غاية الرفع

259 – الشيخ ميلاد الجباس

كان هذا العالم الفاضل من الشعراء المجيدين ، وهو أيضاً من تلاميذ الشيخ سيدي محمد الغرياني .

ومن شعره مهنئاً ومادحاً شيخه المذكور بختم **مختصر خليل** :

قف بالمطايا فإن الوجد أفناني … حتى أروّي الحمى من مزن أجفاني
وارو الصبابة عن وجدي وعن دنفي … وعن سهادي وعن ترديد ألحاني
يا حادي العيس إن جئت العقيق فلا … تنسى تحية من بالصدّ عنّاني
ويا نسيم الصبا حدث على وصبي … غصن الأراك وغصن الأثل والبان
واذكر غرامي لمن بالحسن أرّقني … بلا توانٍ فإن الحب أضناني
فلي فؤاد رُمي بالسمر من مقل … سود بها قد نما شوقي وأشجاني
أبيت منها على فرش الهوى يقظاً … جفا جفوني الكرى من فيح أكناني
وطائر القلب في روض الغرام بها … على غصون النوى يشدو بألحان
أثار شوقي لذا أصبحت في ولهٍ … أما تراني سميري جيش أحزاني
رثى عذولي لحالي مذ رأى شغفي … وطالما كان بالتعنيف ينهاني
يا للرجال لمكلوم الحشى دنف … بلي بظبي كحيل الطرف وسنان
جنات عدن نشت في روض وجنته … وقد حماها بألحاظ وخيلان
له جبين ضياء الصبح غرته … والخال مسك على ورد وريحان
روى سقام الهوى عن سقم مقلته … والنفس من صده شبت بنيران
قد أحرم القلب من محراب حاجبه … ومذ دعاه الهوى لبّى بأركان
للمصطفى الهاشمي الهادي الشفيع ومن … أزال عنّا حجاب الجهل والران
ومن بكفّ له الحصباء قد نطقت … والبدر شقّ له يا صاح نصفان
ومن سقى الجيش طلّاً من أنامله … عذباً زلالاً فأروى كل ظمآن
ومن إذا سار في البيداء تمنعه … حرَّ الهجير غمامٌ دون إيوان
ومن له الحوض في يوم الزحام فمن … سقاه منه غدا جاراً لرضوان
ومن أتته أولات الكفر خاضعة … رغماً عليها لكي تحظى بإيمان[1]
والجذع حنَّ إلى لقياه من سعدت … به الورى بين أحرار وعبدان
والظبي قال لخير العالمين لقد … أرسلت فينا بآيات وبرهان
وقد أتت نحوه الأشجار ناطقة … لمّا دعاها لتوحيد بإتقان
خير البرايا عزيز القدر من شهدت … بأنه مرسل من عند ديّان
به افتخرنا وقد حق الفخار لنا … بأفضل الخلق من أشراف عدنان

(1) أولات : أي طوائف الكفر . إيمان : مصدر آمنه بمعنى أمّنه .

نعم الرسول سرَى من طيبةٍ سَحَراً   على البراق الى ذي الملك والشان
خمسون ألفاً من الأعوام قد كملت   مسراه في ليلة سرا لوجدان
وطاف سبعاً من الأفلاك مع حجب   قبل الصباح بتحقيق وإيقان
واستقبلته جميع الأنبياء مع الر   سل الكرام وحيّوه بإحسان
وقام فيهم خطيباً خير من ولدت   حواً وصلى بهم خير الفريقان (1)
وألبسوا نخبة الخلاّق من مضر   ثوب الجلال وحلّوه بعرفان
بقاب قوسين أضحى المصطفى كرماً   أو أدنى من غافر للذنب حنّان
أوحى إليه ألا فادخل لحضرتنا   أنت الحبيب ولا خلع لنعلان (1)
وقد منحتك ما أمَّلتَ من شرف   وقد حبوت امرأً يقفوك رضواني
وَاحرَّ قلبي من أرجوه يشفع لي   لدى المرجّى من القاصين والداني
مما جنيت فقد سودتُ لي صحفاً   بكل فعل قبيح دون أقران
وقد تيقنت أن العفو يشملني   بحبي للآل أشياخ وشبان
يا صاحب التاج يا أصل الوجود ويا   كنز العصاة ويا عافٍ عن الجاني
يرجوك ميلاد ثم السامعون له   وشيخنا للنّجا من حرّ نيران
وبالبقيع أريد الدفن يا أملي   يا صفوة الله مع حفظ لايمان
يا صاحبيّ فما مدحي وخالقه   أثنى عليه بتوراة وفرقان
ويا عذولي لقد أصبحت في ولهٍ   بحبّ ليلى فكيف العذل ينهاني
دع عنك عذلي ولا تكثر ملامك لي   فقد شربت كؤوساً منذ أزمان
واسرد عليَّ أحاديثاً معنعنة   عن سحر أجفانها عن خدّها القاني
وابلغ زفيري ووجدي من صلت كبدي   على جحيم النوى والحب أفناني
وعج بسلع ولا تنس الأراك وسر   نحو العذيب فإن الوجد أضناني
وقف قليلاً ببانات النقا فبها   خود درجت بها في طي أكفاني
أخذت فن الهوى عن لوعتي فجرى   وادي العقيق دماً من فيض أجفاني
يا حادي الركب بالأشواق من دنف   بلّغ سلامي لذات الخال وارعاني
واطوِ المهامه واقصد نحو كاظمة   وقف سحيراً لدى نجد ونعمان
وبث بثّي وما بالقلب من وله   ديار سلمى وبلّغ حاجة العاني

(1) كذا .

وانفق نفائس عمر دون مطلبها | واركب ظهور جياد الصيد سرحان
يا ليت شعري هل أحظى بزورة من | بنت بقلب المُعَنَّى بيت أحزان
دعا هواها فؤادي مذ رنت وغدا | يسعى ولبي وحياها بإذعان
وكم رمت بجمار الشوق وجنتها | وكم سقت أضلعي من كأس هجران
بكر تحلت بآيات الجمال وقد | تاهت دلالاً ورمح القد أصماني
وأودعت مهجتي من نبل مقلتها | ما زاد وجدي من سقم وأشجاني
والجيد منها إلى البلور نسبته | وإن تثنّت شدّت ورق بأغصان
أخا الغرام إذا ما متّ من شغف | فلا تلمني فسيف الصد أبراني[1]
كيف الخلاص وقلب الصب مرتهن | أسير وجد لِمَن بالحب أغراني
عن الهمام فريد العصر ينقلها | قطب الزمان زكي الأصل غريان
كهف الأنام دقيق الذوق قدوتنا | حَبر غدا ما له في عصره ثان
الفاضل الناسك النحرير من خضعت | له العلوم أطاعته بتبيان
بحر ولكن غدت عذباً موارده | به جواهر لا تلفى بأثمان
وكم تردّى بأثواب التقى فلذا | دانت إليه العلى رغماً لكيوان
شيخ به تونس الخضرا حوَت شرفاً | وزخرفت بالبَهَا من بين أوطان
شيخ همام إمام عالم علم | أحيا العلوم بإبداء وإتقان
شيخ يبثّ بروح الدين من حكم | على قواعد من علم ببرهان
شيخ تصدّى لبثّ العلم مع كرم | ما دأبه غير معروف وإحسان
شيخ أقام منار الدين وانخفضت | له الشوارد تحقيقاً بإمعان
به لعمري لواء الدين مرتفع | بجيش زهد وإخلاص وعرفان
فكم أراض شرود الدين منطقه | وكم أفاض علينا ماء تبيان
وفي البيان له الباع الطويل وفي | روض البديع زري عن كل بستان
به خليل خلا من كل مشكلة | وعمّ نفعاً به عجماً بعربان
يا أيها العلم المرضي سيرته | ومن حوى السر عن سادات أعيان
خذها إليك عروساً وشّحت درراً | كسوتها من علا فكري بألوان
بكراً تجلت بأثواب التقى فغدت | تختال تيهاً على حور وولدان

---

(١) كذا .

مدح البشير بها قصدي وأمنيتي — لامدح حسن رشيق القد طعّان
فهل سواء حديث الجدّ مع هزل — وهل تقاس يواقيت بمرجان
لا زلتَ في حرم التوفيق معتكفاً — تحظى من الله بالحسنى ورضوان
بجاه خير الورى قدراً ومرتبة — محمد ما حدا حادٍ بركبان
صلّى عليه إله العرش ما صدَحت — بلابل فوق أغصان وأفنان
والآل والصحب ما قال امرؤ بجوى: — قف بالمطايا فإن الوجد أفناني

260 - أبو الحسن الشيخ علي البقلوطي

حلاّه بعضهم بالفقيه الأديب العدل ، وهو من خواص تلاميذ الشيخ سيدي مَحمد الغرياني المتوفى سنة 1195هـ . يجيد قرض الشعر . وقفت له على قصائد بديعة يبلغ عددها الثماني عشرة وتشتمل على تسعمائة بيت تقريباً يمدح بها شيخه المذكور في أغراض مختلفة : منها قصيدة في ختم صحيح البخاري سنة 1167هـ ، وفي ختم مختصر خليل سنة 1171هـ قصيدتان . وفي ختم سلكة أخرى منه قصيدتان أيضاً ، وأخرى في ختم سلكة ثالثة ، وقصيدتان في ختم سلكة رابعة منه سنة 1177هـ ، وقصيدة في ختم كتاب **الشمائل** ، وأخرى في ختم **المواهب اللدنية** ، وقصيدة عند ختم تفسير القرآن العظيم سنة 1180هـ ، وأخرى عند ختم **مختصر خليل** بالمدرسة السليمانية سنة 1181هـ ، وأخرى في ختم **شرح الأشموني على الخلاصة** ، وقصيدة في ختم **الخلاصة** ، وأخرى عند ختم **صحيح البخاري** ، سنة 1176هـ . نذكر منها قصيدته في ختم **شرح الشمائل** على شيخه المذكور رحمهما الله تعالى :

مُنى النفس المشوقة للفضائلْ — حديث راقَ عن حسن الشمائلْ
عريق طاهر الأنفاس وافى — بدين الحق وضّاح الدلائل
نمته دوحة المجد المعلّى — رؤوف بالورى نجل الأصائل
فآمنة الزكية بنت وهب — رأت في حملها سر الأفاضل
وقال لها البشير مُبحِتٍ نجلاً — سما فوق الأواخر والأوائل
ولم تعلم بأن الحمل إلّا — بقول مخبر للصدق ناقل
وكم قد كان قبل الخلق نوراً — يُنقّل بين أصلاب أفاضل
وكم لمعت بروق من سناه — بجبهة جده زاكي الأصائل

وفي يوم الولادة لاح منه   شعاع ساطع في الأفق جائل
وصاحت جملة الكهان طرّاً   بدا نجم السيادة غير آفل
وفسّر رؤية الملك ابن نضر   سطيح في الكهانة لا يجادل(1)
فبيّن وصفه المنعوت حقاً   وراح مبّشراً بين القبائل
نجوم الأفق خرّت مذ تبدّى   لطلعته المزيحة كل باطل
ونار الكون والأملاك حفّت   ومزن اليمن بالخيرات هاطل
وإيوان لكسرى صار دَكّاً   تصدّع بالسقوط وبالزلازل
وإبليس اللعين غدا طريداً   تلذعه الثواقب وهو سافل
وعمّ المجد والأفراح ترى   وحلّ المصطفى أعلى المنازل
لقد شرح المهيمن منه صدراً   مُلي حكماً زكت عن وصف قائل
وأودعه علوماً لا تضاهى   وإيماناً وحلماً لا يعادل
أظلّته الغمامة من هجير   فأخفى ظلّها عن كل جاهل
وأبصرها بَحيرا مذ رآه   ببصرى لا يشك بذاك عاقل
كذا الأغصان عاينها أُميلت   مظللة له كهف الأرامل
وميسرة رأى الأملاك حقاً   تقي المختار من حر القوائل
وطابت طيبة بالطيب لما   أتاها مهاجراً ماحي الضلائل
ونارت بالهدى كل النواحي   وأخصب ربعها إذ كان ماحل
إذا اشتدت لظى الهيجاء يوماً   تراه مسربلاً بالمجد رافل
جموع الكفر بادت مذ تبدّى   بأسد في الوغى شمّ بواسل
تأيّد يوم بدر بالمثاني   وآي الفتح منها النصر عاجل
وحفته السكينة في حنين   وأملاك مجنّدة تقاتل
عمائمها الى الأكتاف حمر   على بلق كتائبها جحافل
فحلّ الرعب في لب الأعادي   وبدد شملهم والأمر هائل
شمائل مجده تليت علينا   مرفّعة ترصع بالفضائل
عبير المسك يعبق من شذاها   ومن نغماتها صدّحت بلابل
يذوب الصب من شغف إليها   ويسكب دمعه كالسحب وابل

(1) كذا .

إذا زرعت بلاغتها بقلب | تراه منوّراً للمجد نائل
وينتج ودُّها فخراً تسامى | كنبت للهدى منه سنابل
لها طرق مشيّدة المباني | جلت أنوارها كل الرذائل
معنعنة لها سند عجيب | يحدثنا به خير الأماثل
أبو عبد الله أبو المزايا | جمال الدين وضّاح المسائل
لغريان انتمى بين البرايا | وشامخ مجده سام وطائل
عفيف ماجد سند جميل | وبحر زاخر في العلم كامل
فكم برزت مخدّرة المعاني | لعذب حديثه شغفاً تغازل
أزالت عن محياها خماراً | أضا حسنا له في القلب شاغل
وماست بالبها تيهاً بقدّ | يرنّحه الصبا كالغصن مائل
فمالت مهجة الصب المعنّى | وأعرض عن زخاريف العواذل
أيا بدر الهدى يا من تبدّى | بأفق المجد فرداً لا يماثل
ويا من حبّر التعقيد حتى | أفاق بلفظه سحبان وائل
ويا مَن حرّر الأنقال لمّا | تصدّى منمقاً صعب النوازل
ويا مَن عوّد الأنام نفعاً | ومهّده بساطاً غير زائل
ويا مَن حدّثت عنه المعالي | بأنك ماجد بالعلم عامل
ويا مَن مثله عقمت عليه | على التحقيق أرحام الحلائل
ويا من فجّر التحقيق بحراً | وصيّر وردهٌ أحلى المناهل
ختمت لنا شمائل من أتانا | ختام الأنبيا بالحق صائل
شفيع الخلق من ساد البرايا | وأنقذ متبعيه من الوحائل [1]
وأبدل غيّهم توحيد ربٍّ | تعالى أن يكون له مماثل
عليه تحية ما لاح برق | وما هبّت نسيمات الأصائل

وله في ختم شيخه المذكور للمواهب اللدنية هذه القصيدة :

عصر الشبيبة شابه النقصان | فالدمع من أسف به هتّان [2]
آه على عصر الشبيبة قد مضى | ذهبت به الأيام والأزمان

---

(1) كذا .
(2) أسف : وفي نسخة شغف .

قضيّته معْ فتية ملكوا الحجى ... بفكاهة ما نالها إنسان
في مربع زاهٍ بجمع أحبة ... رتعت بطيب فنائه الغزلان
فالقلب من شغفٍ بهم وصبابة ... أبدا تصعّد وجدّه النيران
والنفس أضناها الهيام تأسفاً ... تبكي أما لسرورها إبّان ؟
وإذا تهبّ من الأحبة نسمة ... يزداد من وجد بها الخفقان
لله كم صدحت بلابل أنسنا ... فتمايلت طرباً لها الأغصان
وزماننا بالأنس كان منعّماً ... في طيب عيشٍ بالهنا ريّان
ومسيرنا أبداً على نهج الهدى ... قد سرّنا أنسٌ وراق زمان
والهجر من صفو الوداد مكدّر ... لاحت عليه مذلة وهوان
يا نفس ذُبْتِ من الأسى لفراقهم ... صبراً فإن زماننا خوّان
فإلى متى تذكى الحرارة والأسى ... هذا الذي قد قدر الرحمان
لا تجزعي من ريب دهرك إن لي ... شيخاً تسير بمجده الركبان
هو المعلّى محمد السند الرضا ... وبلاده أهل التقى غربان
صعدوا به أفق المكارم والعلى ... فهُمُ إذاً بين الورى أعيان
فالدهر يعروه الحياء مهابة ... من أجله ولأمره إذعان
لله علّام تسرْبَل بالتقى ... وله على علمائنا رجحان
فاقَ الأجلّة في المكارم والعلى ... فكماله بحر وهم غدران
برزت نتائج فكره فكأنها ... خود على سطح الطروس حسان
وتلفعت برد البيان مرصعاً ... ووشاحه التحبير والإتقان
يا من يروم من العلوم مواهباً ... ما للورى عن حبها سلوان
خذها فدتك النفس عن شيخي الزكي ... من مجدُه أعلى السماك مكان
لبّاس برد الفخر بذّال الندى ... بحر المعارف دأبه الإحسان
وضّاح صعبِ المشكلات بمنطق ... شهدت بحسن صنيعه العربان
ومواهب المولى الكريم تفجرت ... من سره فكأنها طوفان
أضحى يعنعنها بحسن فصاحة ... ما نالها قسٌ ولا سحبان
فتعطرت من طيب عرف حديثها ... كل البقاع وقرت الأذهان
ومن الجلالين اعترتنا جلالة ... ذهبت بنور سنائها الأشجان

يا شيخنا السامي بكل مكانة ... يا من بسرّك تذهب الأحزان
أبشر ببدر التم نجلكم الذي ... سعدت به الطلاب والإخوان
عاماً تصدر للعلوم مدولاً ... دانت لرونق سرده الأقران
ستري له مجداً وفخراً شامخاً ... ونجابة للمشكلات عيان
في حلبة السُبّاق قلدّ جيدها ... درّاً كَبَت من دونه الفُرسان
وعلى منّصات الظهور أشادها ... فكأنه في صنعه حسّان
وفؤاده في حرقة كلِفاً بها ... وله بعذب حديثكم تبيان
وأفادها للطالبين وما لها ... بين الورى من حسنها أثمان
دم في سماء المجد بدراً ساطعاً ... وبنوك في أفق العلا تيجان
يا عمدة الملهوف يا مزن الندى ... يا من بسرك نارت الأكوان
ها قد أتيتك يا همام مؤمّلاً ... تفريج كربٍ ما له نقصان
يزداد بالغمرات من فرط الأسى ... والقلب من أهواله حيران
في برهة عنه الهموم تراكمت ... فإذا الخليّ لهولها نشوان
وبلجّة الهيمان يسبح دائماً ... وفؤاده أبداً بها تعبان
فامنن عليّ بعطفة يشفى بها ... قلب سقيم بالأسى ملآن
أولم تكن سهّدتَ جفنك في الدجى ... متعبداً وغذاؤك القرآن
وجنيت من روض العلوم معارفاً ... طابت لطيب نسيمها البلدان
وزرعت في لب العقول مواعظاً ... صلحت بها الأشياخ والشبان
وبرزت في ميدان فرسان الذكا ... فرداً له بعويصهم جولان
وشفيت أنفاساً بتقرير الشفا ... وتشنّفت من عرفه الآذان
ورقيت فوق منابر التحقيق قد ... شهد الذكا بعلاك والبرهان
ورقمت في سطح الطروس مباحثاً ... هجر الحشى لو شامها قحطان
ونقشت في الأذهان حسن قواعد ... فالصب من شغفٍ بها ولهان
ورُفعت بالتصدير مذ أعربت عن ... أسرار ما قد أُودع الفرقان
وحللت بالخضراء يا علم الهدى ... تبدي نكات حسنها فتّان
وبنيت للمجد المؤثّل والندى ... بيتاً يرى من دونه غُمدان
ومنحت طلاّب الزمان عجائباً ... فهم لهامة عصرهم تيجان

وختمت أخباراً تكامل وصفها فبيانها عن فضلكم عنوان
ومغازي خير المرسلين أفدتها للطالبين وختمها الغفران
لله ختم للمواهب عُطِّرت منه البقاع وعمّها الرضوان
شكرت صنيعك سادة وأجلّة لم يحص نور كمالهم ديوان
فالفخر يشهد والكمال معدّل والمجد بيت بهائكم أركان
فبفضلهم ربي مؤمّن روعنا يوماً تشيب لهوله الولدان
ويُنيلنا حسن الختام تفضلاً عند الممات ونطقنا الإيمان
ولجمعنا يوم النشور تمتّع في جنة جنّانها رضوان
وبحرمة الهادي النبيّ محمد من بعثه للكافرين هوان
فعليه ما هب النسيم تحية فتنشقت من عرفه الخلان

ولصاحب الترجمة أيضاً في شيخه المذكور حين ختم **صحيح** الإمام البخاري هذه القصيدة البديعة :

تسائل ذي الحمائم أم تجيب وما تبدي غناء أم نحيب
رقت سحراً على العذبات تشدو فألقت في الجوانح ما يشيب
وزادت بالهديل على هيامي زيادات تشيّب من تشوب
وما أدراك ما هيمان صب تملك كل مهجته الحبيب
رسول الله حسبك من حبيب تثاب على محبته القلوب
بديع في الجمال فلا يداني ومزن نواله أبداً صبيب
بعيد الصيت لو قول يوفّى نهايته ولا فعل ينوب
إذا صارت به الأمداح يوماً تراها دون رتبته تؤوب
يثقلها إذا انتهضت قصور على نظر التأمل لا يغيب
فكل محاول في المدح حصراً لما يحويه حقّ له يتوب
فماذا يبلغ المدّاح فيه أيحصى البحر والرمل الكثيب
ولما ازداد عمر الدهر طولاً وريح الكفر فيه لها هبوب
وصار على اعوجاج مثل قوس أتـاه كـأنه سهم مصـيب
وجاء لكل أهل الأرض يدعو ومن أنصاره العجب العجيب

لدى وصف الرشاد به جلال / وفي جسم الضلال به شحوب
فلو خصت بدعوته شمال / لذابت من حماستها الجنوب
ولما أن أتى الكفار يهدي / ولاح بوجه قطبهم القطوب
عدت أيديهم عنه فضلّت / تخرب في البيوت ولا تنيب
تسابق عاصفات الريح حقاً / عطاياه وإن زاد الهبوب
فشمس الأفق من دعواه ردت / مطاوعة وعاودها المغيب
وعند فراقه للجذع أضحى / كثكلى باكياً وله نحيب
وشاكاه البعير بسكب دمع / فأمّن روعه نعم الحبيب
حبيب الله أوتي باختصاص / جوامع في بلاغتها ضروب
يحدثنا بها شيخ المعالي / إمام الفضل مولانا الحسيب
أبو عبد الإله له المزايا / محمد الرضيّ المستنيب
فيا لله غريان بلاداً / بدا منها لنا هذا النجيب
كريم صانه ا دين متين / وصدر طاهر برّ رحيب
إذا شاهدته يروي صحيحاً / تقول بدهشة هذا الغريب
وإن ألفيته يُبدي الخفايا / تخيل أن ما يبدي الغيوب
يغازل بحثه درر المعاني / على شغف له ثغر شنيب
فتبرز في سما التحقيق تجلى / كبدر التم ليس له غروب
أفدّيه بنفسي من فريد / تسامى أن يكون له قريب
فيا شيخي وما شيخي بشافٍ / غليلي في ندائك يا أريب.
ختمت لنا أحاديث البخاري / ختاماً فيه فضل اليمن طيب
فلا زالت لك الأيام تترى / وأنت بورد علمك مستطيب
ويرحم ربنا الشيخ البخاري / له صنع وإتقان غريب
حبا كل النفوس نفيس درّ / فأذهب كربها نعم الطبيب
وحبّر حين عبر عن مراد / ونمّق حين حقق إذ يُجيب
وعطّر صنعه الأكوان طرّاً / وردّد من ثناه العندليب
فيا لله من صنع تسامى / له صيت وإتقان عجيب
غدا بالرفع متصلاً إلى من / عليه الوحي أنزله المجيب

ختام الأنبيا قمر المحيّا | بعذب حديثه نفسي تطيب
أيا مَن حدّثت عنه المعالي | بأنك ماجد سند حسيب
فجُدْ بدعائك المقبول فضلاً | فإن الله مولانا يجيب
ولا سيمّا عبيدك ذا فإني | ترامت بي فوا أسفي الذنوب
ألا يا راكب الشهوات مثلي | إلى كم أنت أنت ولا تتوب
وعمرك في البطالة قد تقضّى | أما تصحو وقد لاح المشيب
وترسل دمعك الهتان حتى | يرى فوق الخدود له سكيب
وتذكر إذ تعاين هول يوم | يفرّ الخلّ فيه والقريب
فلذْ بالهاشمي قطب المعالي | شفيع الخلق إن عمت خطوب
وقل يا من له تسعى المطايا | وتسرع سيرها وبها شحوب
ويا من خاطب الأشجار لما | دعاها أقبلت وله تجيب
ويا من حدث الحفاظ عنه | حديثاً بثّه العدل النجيب
أمرت بأخذنا الحاجات ممن | لرونق وجهه حسن عجيب
فوجهك أحسن المخلوق حتى | بدا من نوره صنع غريب
فكن في جمعنا هذا شفيعاً | بيوم منه تنفطر القلوب
وتذهل كل مرضعة وتدنو | إلينا الشمس والولدان شيب
فأنت ملاذنا فيه فإنا | حيارى قد تراكمت الذنوب
بسرّ مقامك الأسنى استغثنا | فأنت لها إذا هالت كروب
فلا زالت بك الفقراء تغنى | غناء ثوب عزّته قشيب
ولا زالت بك الآمال ترجى | رجاء لا يرد ولا يخيب
عليك تحية ما قال صب | تسائل ذي الحمائم أم تجيب

ثم إن الشيخ الغرياني المذكور عقد بإثر الختم المشار إليه نكاح ابنه السيد محمد الصالح تبركاً بختم الحديث الشريف، فقال صاحب الترجمة مهنئاً له بذلك :

أيا شيخ الشيوخ لك التهاني | بختم مزجه عرف وطيب
تلاه العقد للنجل المفدّى | سميّ المصطفى نعم الحبيب
فنعم العقد غبّ الختم وافي | ونعم الصهر صهرك والنسيب
فيا لله من عقد تسامى | فقد سرّت ببهجته القلوب

ومن شعر صاحب الترجمة مقرّضاً حاشية شيخه سيدي محمد الغرياني المذكور على مقدمة الشيخ السنوسي :

يا طالباً إن رمت نيل أمان وعقائد التوحيد بالإتقان
وفوائد قد أيّدت بأدلة مأخوذة من محكم القرآن
ومباحث رقّت فرق نسيمها تسبي العقول بسحرها الفتان
فالزم كتاب الفاضل الحبر التقي بحر العلوم ومصدر الإحسان
حبر جليل للبرية نافع عبد الإله محمد الغرياني
تعليق شرح مقدمات قد حوى تحريره بقواطع البرهان
وبديع بحث من غوامض فكره قد بثه من سره الرباني
وغريب نقل من حديث المصطفى يا كم حوى من دقة ومعان
صلى عليه الله ما هب الصبا وترنحت وُرقٌ على الأغصان

261 – أبو عمرو عثمان ابن الحاج حسن بالمه

عائلة هذا الشيخ من الجالية الأندلسية الواردين على الحاضرة التونسية وهو من تلامذة سيدي محمد الغرياني أيضاً وحلاّه بعض أقرانه بالفقيه السيد الشريف من شعره مادحاً شيخه المذكور قوله :

قد عمّر الأوقات بالأوراد وسعى ليدرك نيل كل مراد
وهناك أدرك كيمياء سعادة وكنوز أذخار ليوم معاد
إذ ساعدته سعادة وعناية من ربنا لسلوك طرق رشاد
وصفت له أوقاته وتخلصت أزمانه من ربقة الأنكاد
فأقام مبتهجاً وسار مشمراً يرجو الحبا من ربنا الجواد
وأتى بفعل الصالحات مبادراً ولكسبه الحسنات في استعداد
فأناله الزلفى ووفّقه لما يرضى به من طارف وتلاد
أعني الإمام محمد الحبر الذي أربت فضائله على الأطواد
فهو الذي قسمت له من ربنا قسمات توفيق بلا تعداد
وهو الذي هبت عليه من العلا نسمات قرب من يد الإمداد

262 – شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبي عبد الله محمد المنزلي عرف بمعتوق

حلاّه قرينه وزميله أبو الحسن علي البقلوطي بقوله : تحفة الأدباء ، ونخبة الأرباء . لمع برق نجابته في الخافقين ، وأجمع على فضله الأفاضل ، وهذا عنوان ذلك فلا أثر بعد عين ، الشيخ الفقيه النبيه ، الأديب الشاعر العالم العلامة .

من شعره هذه القصيدة الخريدة يهنيء بها شيخه العلامة سيدي محمد الغرياني بختمه لصحيح البخاري ، وذلك ليلة الأربعاء بين العشائين غرة رجب من سنة 1167هـ في حفل مشهود ، ونصها :

هو الوجد فاصبر للذي حكم الوجد	وأنفق لآلي الدمع إن فُقِد الوجد
ولا تبتئس من فرط صدٍّ فإنما	يعد الفتى من ليس يزعجه الصد
ولا تبدِ للحساد إلا تجلداً	فإن الذي غاض العدى الرجل الجلد
وهيّم بمن تكفيك ألسن عذل	إذا ما بدا منها لهم ذلك الصد
كنانية الألحاظ سعدية البها	غدا أصل شوقي في الورى فرعها الجعد
مهفهفة لمياء أما قوامها	فرمحٌ وأمّا نهدها فهو النهد
لها بعت قلبي عاجلاً غير آجل	بدينار خد لا يصاحبه النقد
يملكها الألباب سلطان حسنها	فليس لما يقضي به حسنها رد
فلو أنها – أستغفر الله – حاولت	وصال الثريا لم تدع وصلها بعد
وتخجل ورد الروض حمرة خدها	إذا ما بدا يزري به ذلك الخد
فلو لم تكن فاقته في الحسن ما غدا	لفرط الحيا يحمّر من خده الورد
وما غرّدت ورق عليه وصفقت	لغيرتها الأوراق حين بدا الضد
وما اهتزت الأغصان إلا لذكر من	محاسنها تسمو على البدر إذ تبدو
ولم لا تفوق البدر والفرق واضحٌ	وفي قدها عدل وفي ثغرها شهد
فمن نهداتي في الدجى وجبينها	إذا ما بدت يبدو لك النور والرعد
ومن ثغرها تبدو العقود نظيمة	فلا تعجبوا إمّا بدا الجوهر الفرد
بغرب اللحاظ السود شرّقت مهجة	أضرّ بها التشريق بالغرب يا هند
وأبديت وجهاً كي تملك أمرنا	لك الأمر في العشاق من قبل أو بعد

ومن عجب أن الجفون سقيمة ... صحيحة فتكٍ والفؤاد لها غمد
وتجرحنا والجرح ليس له دم ... وأعجب من ذا أنها ما لها حد
وتسحر ألباب الورى كلّما بدت ... وليس لها في السحر نفث ولا عقد
متى بوصال تسمحين فتنجلي ... همومي وما يبقى لها في الحشى وَقد
وألثم هاتيك المراشف سحرة ... ويعبق في ثوبيّ من طيبها الند
وكيف اللقا ممن غدا الخُلف وعدها ... ومن عهدها أن لا يدوم لها عهد
كأن الجفا واليأس في حبها الرضا ... وحتى كأن اليأس من وصلها الوعد
لقلبي خفوق منذ عنّي تباعدت ... وضرب كأن النار من حرّه برد
فما زالت الأشواق تذري مدامعي ... وعقد الهوى ينحل والصبر يشتد
إلى أن سلت نفسي الهوى وتولّعت ... بأبحاث علم بثها العلَم الفرد
إمام له في تلكم الدار رغبة ... وفي هذه زاد وعنها له زهد
تخالف فيه السؤدد الضخم والذكا ... فذاك له قصر وهذا له مدّ
تثبتُّ في إثبات مثل يرى له ... زماناً فألفيت الثبوت هو الجحد
أرانا الهدى مذ أورى زَند ذكائه ... ومن قبل يا كم في الورى وُري الزند
ومهّد طرق الحق كهلاً ويافعاً ... كأنّ له التمهيد أصّله المهد
وقد جدّ في التعليم مذ خال نفعه ... فللّه هذا الخال منه وذا الجد
وكم أمه عافٍ فوافاه منجداً ... له نجدات دون أصغرها النجد
فيا من يروم الفخر والسعد في الورى ... عليك بلقيا من هو الفخر والسعد
إذا جئته يوماً وفزت بوصله ... فأنعم بقربَى قربه وقل الحمد
فما في جميع الأرض يوجد مثله ... أفي كل وادٍ ينبت الشيح والرند
تراه مدى الأيام بالعلم نافعاً ... وعامر جنح الليل والليل مسودّ
وللورد ذكّاراً وللذكر وارد ... فأضحى سرياً والسريّ له ورد
ولا عجب أن يرشد الناس باكياً ... فإن من البكّاء قد ظهر الرشد[1]
وسائله رفداً يلاقيه ضاحكاً ... وإن من الضحّاك قد يحسن الرفد
يعرّف دين الله كل منكّر ... فها هو معروف له الشكر والحمد

(1) البكّاء بتشديد الكاف : الكثير البكاء ، ويقابله الضحّاك .

ويغدو حبيباً للتقي ومعادياً | عدواً على دين الإله غدا يعدو
هو الشيخ ذو التقوى محمد الذي | غدا سيد التحقيق وهو له عبد
عنيتُ الذي أضحى لغربان ينتمي | وفي تونس الخضرا له الحل والعقد
له همم تسمو على الشهب في العلى | وأوصافه الحسناء ضاق بها العد
عفيف نأى في الدين عن كل شبهة | فأضحى له التبجيل في الناس والمجد
إمام له في كل فن دراية | وليس إذا يروي الحديث له ند
وفي حفظ إسناد الصحيح ومتنه | حُمَيْد وحمّاد وفي فهمه حمد
فلو شاهد الشيخ البخاري نضرة | لجوهر هذا الختم راق له النضد
وقدمه في العلم عن كل من غدا | يرى في الورى في العلم ليس له ضد
ألا أيها المولى الذي عم فضله | ومن في الندى في عصره واحد فرد
فإنّ زماني سامني الضيم واعتدى | وإن سرّ يوماً ساءني حادث نكد
وإنّ على أنسي عواديه قد عدَتْ | وروّعني منها الأساويد والأسد
وبعّد لي مَن كان في الودّ صافياً | وقرّب لي مَن كان في قلبه حقد
يرى قدره جهلاً عليّاً على الورى | على أنه من بينهم سافل وغد
وكلفني حب الأعادي وكلّما | حللت مكاناً فيه صاحبني الضدّ
ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى | عدوّاً له ما من صداقته بدّ
وما لي مجير غير جند دعائكم | تغير عليه في الدجى خيله الجرد
عسى شارد الأفراح يحصل رده | إليّ ويأتي عاجلاً ذلك الرد
فمن بعده قلبي تكدّر صفوه | ومن بعده جفني أضرّ به السهد
ودونك عقداً من نفيس مدائحي | جواهره في النظم من دونها العقد
وغانية تغني عن الروض زاهراً | على حسنها الفتان وُرق الثنا تشدو
وبشرى فهذا الختم منك مبارك | يصاحب من وافاه من يمنكم سعد
وبشرى لجمع شاهدوا حسنَ سرّه | ونمّ عليهم من شذا طيبه ند
لختم أحاديث النبيء الذي غدت | له معجزات لا يحيط بها عدّ
عليه صلاة يحسد المسك نفحها | ويعذب للأرواح من عذبها ورد
تدوم مدى الأيام ما لاح بارق | وما دامت الأختام في درسكم تبدو

ومن شعر ونثر صاحب الترجمة ما نصه :

« الحمد لله وليّه ، والصلاة والسلام على نبيّه ، وآله وصحبه الكرام ؛ وبعد فهذا ما تيسّر نظمه في مدح العلامة شيخنا العارف بالله سيدي الحاج محمد الغرياني ، لا زال ملجأ لكل عاني ، باقتراح من الأخ في الله محبنا الأديب الأريب ، الآخذ من فني المعقول والمنقول بأوفر نصيب ، الماهر الذي مهر في سائر الفنون أبي عبد الله ابن خالتنا ، سيدي محمد كمون ، حين منّ الله عليه بختم العلامة خليل خلال شهر شعبان المكرم من سنة 1177 من هجرة خير البرية ، عليه أزكى صلاة وأسنى تحية ، فأنشأتها في مدة قدر عدّ أبواب الجنة من الساعات بتلفيق أول وقت بدايتها مع آخر الأوقات وما ذاك إلا نفحة من نفحات ممدوحها ، أو بركة من بركاته ، فإنه كما قال أبو الطيب :

وأخلاق كافور إذا شئت مدحه وإن لم أشأ تُملَى علي وأكتب

على أن الدهر قد رماني بشواغل جمة ولا يرقب فيّ إلّا ولا ذمة . وذلك أن المقترح المذكور أبرز خريدة من خرّد فكره يمدح بها الشيخ المتقدم الذكر - ضاعف الله لنا وله الأجر ، متحد في البحر والقافية ، وكناية مضمونها عن التصريح كافية ، فلما أسفرت عن محياها الوسيم ، أنشدتُ معظّماً شأنها وحقّ لها التعظيم ، فقلت :

تبدّت بآداب كما رمزُ حَاجِبِ وقالت أنا السحر الحلال فَحَاجِ لي
وأبدت لآليها إلينا وقد غدت تتيه على الأتراب تِيه الكواعب
مهفهفة لمياء زانت ترائباً يخبثن معسول اللما بالعصائب
تخبرنا منها البلاغة أنها محسنة ما شانَها عيبٌ شائب
وإنَّ مراماً رام منشئها لمن أجلّ مهات وأسنى مكاسب
فقبلّتها لما بدت وجعلتها أنيسة إيحاشي وأنس المصاحب
وقلت لها بُثي إليّ شكاية فلا بد من شكوى الى خير صاحب
فقال رأيت الدهر يمنع ذا الحجى ويمنع للأغمار صفو المشارب
وما الناس إلا العالمون ذوو التقى ونيل العلى بالكتب لا بالكتائب
وما العز إلا في التصدي لفهمها وتفهيم تنكيتاتها في المواكب
وإيراد تشكيكٍ لديهم وفكّه بإيضاح تحقيق له منك صائب

فدع عنك من بالنصر يزعم قائلاً: ... هو العز في سمر القنا والقواضب [1]
ولذ بأجلّ العارفين ومن له ... تُشدّ مطيات لنيل المآرب
هو العالم المولى محمد من سمت ... معاليه في الخضرا سمو الكواكب
لغريان ذات العز يعزى وقد غدا ... يزاحم في شهب العلى بالمناكب
يدور على قصدين في الدين فعله ... فإما إلى ندب وإما لواجب
ويُقبل عن دار يدوم نعيمها ... ويُعرض عن دار العنا والمتاعب
لئن حصروا عدّا مناقب من مضى ... فلا حصر فيما حازه من مناقب
متى رام منه الفكر إيضاح مشكل ... جلاّه بتحقيق جلوّ الغياهب
فلو نظر المولى خليل لشرحه ... لما أمّه في رمزه من مطالب
وقد أحدقوا في زمرة لأستفادة ... أفاضل كلّ في العلى خير راغب
أحاطوا به من كل قطر وبلدة ... إحاطة ألحاظ بسود الحواجب
وقام سنا الأفهام منه ومنهم ... أشبّهُه قطباً وهم بالكواكب
فللّه أذهان لهم فكأنها ... سيوف لمعن في مُثار السلاهب
ولله هذا الختم ما أسعد الذي ... نحاه لكي يحظى بنيل المطالب
ترى شيخه ينحو إلى كل مورد ... وينهل منه طالباً بعد طالب
فلا زال في كل المعارف قدوة ... ويسدي إلينا كل معنى مناسب
ولا زال سحبان الفصاحة ساحباً ... ذيول العلى عمّن غدا خير ساحب
ولا زال في الخضراء يحظى مبجّلاً ... ويرقى من العلياء أعلى المراتب
وخذ لك يا مولاي ما سمحت به ... قريحة فكر حلّه كل شاغب
وما مهرها منكم سوى صالح الدعا ... بتيسير مطلوب فكن خير طالب
فلي غربة ذاب الحشى من عنائها ... وعيني غدت تهمي كهمي السحائب
وأهدي صلاة مع سلام لمرسل ... إلى الناس طرّاً عُجمِها والأعارب
مع الآل والأصحاب ما ذرّ شارق ... وما أفلت في أفقه من غوارب

---

(1) هو الشاعر الفحل محمد الورغي كاتب علي باشا القائل في بعض قصائده فيه ، وهو طالعها :

هو العز في سمر القنا والقواضب ... وإلّا فما تغني صدور المراتب

وقد عارضها شعراء تونسيون وزناً وقافية ، منهم صاحب الترجمة وعصريها الشيخ حمودة بن عبد العزيز والشيخ محمد العزيز بوعتور وغيرهم .

ومن شعر صاحب الترجمة أيضاً يمدح الشيخ حسونة الترجمان ، مضمناً :

ولو أن ياحسن الحجى نفسي سمت فوق الثريا والمعالي تبّعي
ودعوتها يوماً لما قد رمته (هبطت إليك من المحل الأرفع)

وقد حذا حذوه الشيخ أبو حفص عمر التباكي فقال في نفس الغرض :

يا ترجمان العلم في أحكامه ومن الذي في الفضل فاق الأصمعي
فرأيت أرواح العلوم تمنعت وتحجبت عنا بأعلى موضع
ورأتك تصلح في الورى جسداً لها (هبطت إليك من المحل الأرفع)

ونهج منهجها الأديب الشيخ عبد الكبير الوشّان مادحاً الشيخ المذكور أيضاً :

أهُمامَنا لو شئت أرفعَ رتبة لرقيتها نحو السماك الأمنع
بل لو رأيت هبوطها عن سرعة (هبطت إليك من المحل الأرفع)

وسلك مسلكهم العدل الشيخ أحمد بن منصور في الغرض نفسه فقال :

يا منتج الإشكال في أشكالها كنت المحقق كل ما في المطلع
لما تحققت القضية شرحها (هبطت إليك من المحل الأرفع)

وهؤلاء الثلاثة التباكي والوشّان وابن منصور لم أطلع على شيء مما نظموه من الشعر غير هذه المقاطيع الثلاث ولا من تراجم حياتهم شيئاً رحمهم الله .

263 – الشيخ أبو عبد الله محمد الدرناوي الصفاقسي

ذكره الشيخ محمود مقديش في تاريخه فقال في شأنه : وأما شيخنا أبو عبد الله سيدي محمد الدرناوي ، فكان رحمه الله انتقل أولاً الى مصر فأخذ عن الشيخ إبراهيم كعيب التونسي وغيره . ثم قدم لصفاقس فأقام بالمدرسة ملازماً لصحبة الشيخ سيدي طيب الشرفي . ثم انتقل لتونس وصحب الشيخ أبا عبد الله محمد الشحمي ، وتزوج بها . وتولى مدرساً بجامع الزيتونة ، وانتقل لمذهب أبي حنيفة بعد أن كان مالكياً ، وتولى مشيخة المدرسة المرادية ، وكان كفيف البصر ، ثم رجع لوطنه درنة وبها كانت وفاته ا هـ .

له شعر بديع ، آنق من زهر الربيع ، منه قوله مضمناً وقد أبدع ما شاء :

ومعتدل القوام حوى جمالاً   صفا جسماً وأورثني اعتلالا
وغُمِّد في ثياب من حرير   (فلولا الغمد يمسكه لسالا)

ومنه قوله مورياً بوسيم يلقب بالشرقي :

يقولون لي أكثرت في نسمة الصبا   وأعرضت عن ذكر المعاهد والبرق
بربك خبرنا ولاتك كاتماً   نسيم الصبا ماذا فقلت هو الشرقي

وله يمدح الفقيه المدرس الشيخ حسونة الترجمان مضمناً :

كانت فصول العلم ذات تمنع   محجوبة أبداً بأرفع موضع
ما إن رأت حبراً يليق بفهمها   في ذا الزمان ولا ذكياً لوذعي
حتى رأتك مترجماً ذا فطنة   (هبطت إليك من المحل الأرفع)

264 – الشيخ أبو الحسن علي المؤخر الصفاقسي

هذا الفاضل أخذ العلم عن علماء بلده ، ثم انتقل لحاضرة تونس للاستكمال بجامع الزيتونة الأعظم ، والأخذ عن فحول رجاله الأعيان ، ولما امتلأ حوضه وأزهر روضه انخرط في كتبة أمير القطر إذ ذاك علي بن حسين باي . كانت له مشاركة حسنة في العلوم ، أديباً أريباً ، يحسن قرض الشعر .

من شعره لما ابتنى مخدومه علي باي محكمة لولده وولي عهده حموده باشا ، وذلك قبل مبايعته بالملك والتنازل له عن الإمارة مقابلةً للمحكمة القديمة بباردو ليدرّبه على الحكم بمرأى منه ، وقد تنازل له فعلاً من ستّته ، ونمّق المحكمة المذكورة أبدع تنميق ، فقال الأديب كاتبه المذكور (صاحب الترجمة) يؤرخها :

مَحكمة مُحكمة   بسابق في الأزل
آياتها قد نسخت   ما قبلها في المثل
عن إذن فرد حكم   في ظل سعد مقبل

طالعها لم يقترن يوماً بنجم زحل
دامت لمنشي شكلها ما تشكي من خلل
وهو الأمير المرتضى ابن حسين بن علي
هو وأنجال لـــه حظوا بنيل الأمل
يا حاضرين أمّنوا على دعا المبتهل
لما انتهى أرّختها : حل بها الباشا علي
38 8 1035 110
سنة 1191هـ

265 – أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي المراكشي الصفاقسي

قال الشيخ محمود مقديش في تاريخه في صاحب الترجمة : إن أصله من مدينة مراكش . قدِم أجداده منها الى مدينة صفاقس منذ أربعمائة عام ، أي في أثناء القرن التاسع ، وأنه كان عالماً صوفياً جليلاً ، حسن الطوية ، جميل السيرة . تفقه على الشيخ المعتقد سيدي أبي الحسن الكراي ، وكان من أعيان تلاميذه حتى أن الشيخ الكراي استخلفه على زاويته بعد أن أخذ عليه العهد أن يجتنب المناصب فراراً من عواقبها ، وخوفاً من الإشتغال عن هداية الخلق ، فوفى بعهده في حياة الشيخ وبعد مماته ، وصار من ذلك الحين يقوم بميعاد الزاوية كل يوم جمعة بإقراء كتب الوعظ والسيرة والمغازي والتحريض على الجهاد والطاعة . ولما توفي شيخه أبو الحسن استولى بالزاوية وأحسن السيرة فيها ونمّى دخلها فكان يشتري العقارات من فاضل دخلها ويحبسها عليها ويظن أن وفاته كانت أواسط المائة الثانية عشرة .

قال صاحب التاريخ المذكور : من شعره ما رثى به شيخه أبا الحسن الكراي ، وهي قصيدة طويلة منها ما يلي بعد إصلاح ما به من تحريف :

محقق علم ثابت في رسوخه عكوف على الطاعات بالعلم عامل
لخمسين عاماً دام فيها اعتكافه مكبّاً على التعليم من غير شاغل
يحقق فيها للذي أمّ طالباً عقائد توحيد مزيلة باطل
لسيدنا عثمان ينسبه الورى فيا حبذا نسل انتمى لأماثل

كراماته تنبيك عن طيب فعله | هي البدر في أفق السما غير آفل
بنى داره زاوية مسجد بها | وروضة دفن طاب عذب المناهل
ومولده شهر الصيام به بدا | لعشرين يوماً مع ثمان فواصل
بأيمن يوم فاضل فيه ساعة | يجاب دعاء البر فيها لسائل
لدى عام ستّ بعد عشرين كان ذا | وقبلها ألف مضت دون فاصل
وسار إلى عفو الإله مهللا | وسبحته مقرونة بالأنامل
لدى رجب إذ تمّ يوم عروبة | يؤم جميل الصفح عن فعل فاعل
بتاريخ ألف ثم خمس لحاسب | تلت مائة أودى كريم الفعائل
فعام من الأعوام سبعين بعدها | ثلاث وست غير شهر لها تلي

266 – أبو الحسن أحمد أبو علي الصفاقسي

وصفه الشيخ محمود مقديش في تاريخه بأنه شاعر أديب ، بارع أريب . وذكر من شعره قوله يهنئ الشيخ العلامة أبا الحسن الأومي بازدياد مولود لولده الشيخ أحمد :

بشراك بالنجل السعيد الفاضل | ولك الهناء بذا الهمام الكامل
نجم تزايد والسعود طوالع | غراء حلّت في أجلّ منازل
سرَّ الأحبةَ والعدى قد ساءهم | بمحاسن كثرت وقدٌّ عادل
حصّنته بالواحد الأحد الذي | ما إن يرى عمن دعاه بغافل
يا أحمد الأومي الذي قد سرني | خلف له وسما بخير أوائل
إني سررت بنجلكم فكأنني | خلت الحبيب من السرور مواصلي
فالله يجعله سعيداً مسعداً | ويفوز كالجد الأصيل الواصل
لله من سلف ومن خلف حوى | كل المكارم فوق قول القائل
أكرم بمولد ذي الفخار محمد | قد جاء في الشهر المنير الحافل
بالسعد والأفراح أقبل والرضا | زاد المؤرخ : والهناء الشامل

سنة 1195هـ

267 – الشيخ أبو زيد عبد الرحمن بكّار

وصفه مقديش في تاريخه بأنه الحسيب النسيب الشريف . وذكر أنه أخذ عن سيدي طيب الشرفي ، والشيخ الأومي . ثم انتقل بعد أن تمكن من مذهب مالك وغيره من علوم الدين معقولاً ومنقولاً الى القسطنطينية فتفقه على فقهائها على مذهب أبي حنيفة فصار عمدة محققاً ثبتاً مدققاً متفنناً أديباً شاعراً مجيداً فصيحاً بليغاً ذا حظ وافر من المنطق والأصلين ، فقيهاً محدثاً مفسراً ، إماماً في العربية بأنواعها عارفاً بأيام الناس والسيَر والمغازي ، حسن السياسة والأدب ؛ وهو الآن شيخ رواق المغاربة بالأزهر . وله عدة تآليف ، وشعره ذائع في غاية الجودة والبلاغة امتدح به مغرباً ومشرقاً ، وأجيز على ذلك الجوائز الوفيرة ليس له شغل اليوم إلا تعليم المسلمين اه. كلام مقديش إلا إنه لم يورد شيئاً من شعره الذي نوّه به .

268 – أبو عبد الله محمد البلوي القروي

حلاّه الشيخ محمد الشافعي في شرحه على محركات السواكن إلى أشرف الأماكن بأنه وارث الأدب ، وأبدع من قرأ وكتب . وذكر من شعره ما قرّظ به القصيدة المشار إليها التي شرحها الشافعي المذكور وهي من شعر الأمير محمد الرشيد باي يتشوق فيها إلى زيارة الحرمين الشريفين ، ووصفها الشافعي مادحاً قائلها ، أي صاحب الترجمة ، بأن صاحبها ضرب فيها قداحاً وأدار بها أقداحاً ، واطلع في سمائها زهراً ، وأنهر في مجرّتها نهراً . وأنه قال فما أبطأ ، ورمى الغرض فما أبطأ ثم ذكرها ، ونصها :

شذا نسمات الحي أم نسمة الزهر ... وعرف الحنايا أم ذكيّ من العطر
وفوح الربى هبت صباهن موهناً ... أم الروض حيّته الغمائم بالفجر
ومسك فتيت أم لحالح عنبر ... أم الهتن الفواح أم نسمة الزهر
ووقع رذاذ في نظام منعم ... تنسقه أيدي الغوادي من الدر
وفجرٌ أم الإصباح أم رونق الضحى ... أم الشمس أم بدر مدار على الغفر
ودر نظيم في عقود تنظمت ... على لبة فوق النهود لدى النحر
وفعل العيون السود أم فتكاتها ... بقلبيَ أم فعل المثقفة السمر

ونشوة لذّ من رحيق معتق وأنّة عودٍ أم فنون من السحر[1]
ووصل على شحط الديار وزورة بلا موعد أم زهرة من جنى الفكر
عذيري من وهناته حاجرية مفضضة الأعطاف زنجية الشعر
غزال ولا من بالصريم شبيهها وبهنانة حوراء فواحة النشر
مهاة ولا كالريم منها لواحظ صفاء ولا كالشمس أو بهجة البدر
تريك الدجى والصبح من مرسل على جبين كما فضّ الغشاء عن الدر
كلفت بها والقلب حلف شواغل ولم تبق منها بالضمير وبالصدر
وهمت بها لما ثملت بحبها ولمّا تدع لي من سبيل إلى الصبر
وأنّى لمثلي أن يهيم بدرّة ملوكية غواصها لجّ في البحر
أبت أن تمد الطرف إلا لأحمد شفيع الورى في دهكة الحشر والنشر
ضمان على خير البرية أن ترى لوالدها وحياً جيوش من النصر
وأن يلكُ ممن صافح السعد كفه وحفّ به الإقبال واليمن في الدهر
وأن يدرك الآمال طرّاً وتغتدي بقبضته الخضراء منها على القسر
وأن يرتقي من صهوة الملك غارباً يكون به فوق السماكين والنسر
وأن يلكُ ممن في عداه تحكمت قواضبه فاستأصل الكل بالقهر
وأزكى صلاة كالأزاهر نفحة على صفوة الإرسال بؤبؤة الفخر
وعن آله والتابعين سبيله وزهر الهدى أصحابه السادة الغر

269 – أبو العباس أحمد القلبي

من الأدباء المعدودين ، والشعراء المجيدين ، غير أن ما نقل إلينا من شعره ينبىء عن كونه من الخلعاء غير المتعففين ، فما نقل إلينا من ذلك قوله في غزال إنس جمعتهما ليلة أنس ، قبّله بعد أن غلب السكر عليه ولعب الكرى بسيوف مقلتيه فانتبه يروعه بتغنج لحظيه وتضرج وجنتيه ، فقال فيه :

بنفسي غزال ناعس الطرف نائم حمت خده من عارضيه أراقم

(1) لذ : أي لذيذ .

رمى بي الهوى عمداً لتقبيل خده   فقبّلته والورد في الخد ناعم
ونبّهه لسع اشتياقي فراعني   بأدعج لحظ منه جُرِدّ صارم
فلا تعجبوا إن حاربتني لحاظه   فلا أنا مظلوم ولا هو ظالم

وله أيضاً وقد زاره غزال ليلاً من غير وعد بعد كثرة امتناع وصدّ ، وكان من الإتفاق خسوف القمر تلك الليلة وهو إذ ذاك بطرابلس ، فنادى أهل البلد بأن القمر سرق لأن تلك عاداتهم عند خسوفه ، فلما سمع ذلك أنشد ارتجالاً :

رُبَّ ليلٍ به تكامل سعدي   زارني من أحب من غير وعد
ضجت الناس في دجاه وقالوا   سرق البدر قلت ها هو عندي

وله أيضاً :

أصبر إذا طال وعد   فربما نال صابِرْ
واشكر فربّك يعطي   نيل المراد لشاكرْ

ومن شعره الجيد قوله :

هي المحبة فاصطبر يا خاطري   واربط حشاك على الغرام وخاطر
وإذا الذي تهواه أضرم بالنوى   ناراً فأبردها بدمعٍ ماطر
آه على الظبي الأغنّ ورشفة   من ثغره الألمى الشهيّ العاطر
كم لي على ذاك القَوام وضمّه   لجوانح خفّاقة كالطائر
يا طالما نصح العذول بزعمه   يولي الملامة ناصحاً في الظاهر
وهل الغريق اليوم في بحر الهوى   يخشى مع الموجات قطر القاطر

270 – أبو عبد الله محمد الغضبان

هذا الفاضل ممن أنبتهم رياض جامع الزيتونة وممن أخذ العلم عنه بعرصاته العالم الجليل الصالح الشيخ سيدي عبد الكبير الشريف والد العلامة الشيخ سيدي حسن الشريف .

من شعره مادحاً شيخه سيدي عبد الكبير الشريف المذكور قوله :

أمِن تألق برق في الدُّجْن لاحت غزالهْ
أم بدر تمّ تبدّى حفَّتْه بالنور هالهْ
أم روضة العلم لاحت ووشّحتها الجزالهْ
ببحث حَبر جليل تاج الهدى والعدالهْ
كبير قدرٍ وعلم وافي الذكا والمقالهْ
يعزى لخير البرايا من كلّمته الغزالهْ
قل للمجادل فيه قد خضت بحر الجهالهْ
إن عدت للحرب يوماً أهدى إليك نبالهْ
وإن جنحت لسلم تنجو على كل حالهْ
سلّمْ لبحر المزايا لبّاس برد الجلالهْ
كم مستفيد أتاه لنيل مجد فنالهْ
من نحوه الشهب ترمي بمن يروم منالهْ
لذا الأمير اصطفاه لقربه فاستمالهْ
فراية العدل منه هالت مضاهي مثالهْ
والسعد وافاه يسعى لمن يروم نزالهْ
لا زال في المجد يرقى وأصلح الله بالهْ
وحفّه بسرور ومجده في استطالهْ
بحق من قد أتانا بالنور ماحي الضلالهْ
عليه أزكى صلاة ما سحّ مزن سجالهْ

271 – الشيخ أبو عبد الله محمد بن حسين بيرم

هو المشتهر بالشيخ محمد بيرم الأول ، وهو مؤسس المجد العلمي للبيت البيرمي .
ترجم له ابنه الشيخ مَحمد بيرم الثاني في كتابه **تراجم المفتين الحنفية** بما خلاصته ، إنه ولد في شوال سنة 1130هـ ثم جدّ في طلب العلم وتحصيله فأخذه معقولاً ومنقولاً فروعاً

وأصولاً عن جهابذة عصره كالعلامة المعمّر علي سويسي والمحقق أحمد المكودي والشيخ محمد بن عبد العزيز والشيخ قاسم المحجوب والشيخ حسين البارودي . وذكر أن تلميذه الشيخ حموده بن عبد العزيز ذكره في تاريخه الباشي ضمن ذكره للجماعة الذين قال فيهم : إنهم لا يشق غبارهم ولا يجرى في مضمارهم ، وإليهم تضرب أكباد الإبل ، قائلاً في شأنه ما نصه : وشيخنا المفتي الأكبر أبي عبد الله محمد بن حسين بيرم عالم الحنفية بالمغرب غير مدافع ومن لم يوجد فيه مثله منذ زمن شاسع ا هـ .

وذكر أنه توفي يوم الأربعاء آخر شوال عام 1214هـ عن أربع وثمانين سنة ودفن بتربته التي قرب داره بعقبة التراب .

قلت : هي المسماة الآن بنهج الجبل ، وكتب على ضريحه من إنشاء العلامة الشيخ عمر المحجوب قصيدة طالعها :

جفن المنيّة ليس بالوَسْنان ... يصمي بسيف صارم وسِنان

وآخرها المتضمن تاريخ وفاته قوله :

يا ربّ قدس سره ومقامه ... واخلع عليه ملابس الغفران
أحسن عزاء القائلين وأرّخوا : ... لهفاً لحامل مذهب النعمان

وسنذكرها إن شاء الله في ترجمة الشيخ عمر المحجوب .

وذكر في **تراجم المفتين** : أن لصاحب الترجمة من التآليف اختصار أنفع الوسائل المسمى **ببغية السّائل** ، ورسالة في السياسة الشرعية . ثم ذكر بعض ما قاله من الشعر قال : أكتفي من نظمه ببيتين نظمهما تقريضاً لمقدمة ابن هشام وهو في مرض موته لما رأى ذلك الكتاب بيد ابني محمد الثالث إذ كان يقرؤه إذ ذاك صغير السن وأمره بكتبها ، وهما قوله :

لله درّ إمام حاز كل ثنا ... وكل فخر ونال الفضل أكمله
سمّى القواعد هذا الجمع قلت إذاً ... إن القواعد جمع لا نظير له

وأبيات كتبها إجازة للعلامة الشيخ محمد المحجوب لما استجازه ، نصها :

أجزت أبا عبد الإله محمداً ... بمحجوب يدعى فخر مذهب مالك

كما قد أجاز الشيخ لي وَهُوَ الذي أجاز له العلامة ابن مبارك
وما كنت أهلاً أن أجيز وإنما لمرغوب من أحببت لست بتارك
وعذراً لترك البسط إذ حال دونه عوارض أسقام بجسمي فواتك
وأسأل من مولى تواتر فضله لنا ولهم هدياً لخير المسالك

وعنى بالشيخ في قوله : كما قد أجاز الشيخ ، العلامة الحافظ سيدي أحمد المكودي التونسي . وذكر في تراجم المفتين من نظمه ونثره ما قرّض به شرح العلامة الشيخ مصطفى الطرودي على الرسالة العبادية في العروض وهو :

حمداً لك يا من جعلت تعاطي الأدب سبباً للوثوق بأوتاد معاني كلام العرب ، إذ هو مركز دائرة العلوم ، والفاصلة الكبرى بين المنطوق والمفهوم . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذي عمم البرايا ببسيط برّه ووافر مديد فضله وإحسانه ، وغمرهم في كامل بحر جوده وضروب امتنانه ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله خير من هزّجت في طويل روضة مدحه ألسن المعربين ، وأفضل من سرحت في جنة وصفه نفوس المادحين ، المقتضب من خير جرثومة والمجتث من أطيب أرومة صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، المبلغين إلى الإسراع في اقتفاء أسراره غاية الجهد ، والمجدّين في مضارعة أحواله أبلغ الجد ، صلاة وسلاماً لا يحصيهما عدّ ، ولا يحيط بهما رسم ولا حدّ .

وبعد ، فلما أمعنت النظر في هذا الشرح البديع ، وأجَلت الفكر في هذا الأسلوب الرفيع الجامع بين التحقيق وحسن الصنيع ، قلت :

ألفيته روضة للحسن جامعة وجنة زخرفت حقاً بلامَين
لما رأيت بها الأطيار ساجعة كذا دوائرها تشدو بلَحْنين
أما بها نفحات الزهر مبتسماً تذكو وتزكو بها للأنف والعين

ولقد أبدع في ترصيع لآلي هذا التأليف ، وأبدع في تصريع نظمه المنيف ، وأنصف حيث سماه بالنفحات الذكية ، إذ مطابقة اسمه لمسمّاه جليّة . ولا ريب أنه من النفحات القدسية ، واللحظات الإلّهية . ولا غروّ فإنّ مؤلفه بالذكاء معروف ، وبالتبحر في العلوم موصوف . وهو الإمام الأجلّ الخطيب الأكمل العلامة الأفضل ذو العبارات الرائقة ، والتحقيقات الفائقة ، المعتمد على ربّه الواحد الأحد ، المولى مصطفى ابن أحمد ، أحد

أعلام الحنفية ، لا زال كاسمه مصطفى ، آخذاً من كل فن بالمكيال الأوفى ، ولقد أحسن لسان الحال ، حين قال :

لله درّ كتاب أنت جامعه	فاليمن خاتمه والسعد طالعه
مؤلَّف مونق يجلو لناظره	مسلّم ليس فيه من ينازعه
ألفاظه الدرّ والياقوت منتظماً	في جيد غادة مذ لاحت يُلامعه
فجاء بحر فخار ليس ينقصه	سوى كمال كما قد شاء صانعه
أنشدتَ بيتاً بديعاً رائقاً حسناً	مخاطباً من له تروى بدائعه
فاخلد ودُم وابقَ في عز وفي دعة	ما افتنّ فوق قضيب البان ساجعه

كما ذكر صاحب كتاب **تراجم المفتين** أن من شعر صاحب الترجمة ما قرّض به رسالة له سماها : **طلوع الصباح على المتحير في أجر الملّاح** .

ونص التقريض : حمداً لله على نعمه التي لا تحصى ، وآلائه التي لا يمكن بالعد أن تستقصى ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ذي الشرف والكمال ، وعلى جميع أصحابه والآل . وبعد ، فقد أجلت فكري في مطاوي هذا الورَق ، الذي هو باسم الورق أحقّ ، فألفيته قد أنبأ عن فكر ألمعي ، وذكاء لوذعي . قد أخذ بجميع أطراف مسألة السفينة ، وتمكن من متعلقاتها مكنة مكينة ، فصدق فيه المثل السائر ، كم ترك الأول للآخر ، فشكراً لله تعالى على هذه النعمة الحميدة ، شكراً يوافي نعمه ويكافي فريده ، أن أهّل ولدي وثمرة عمري وجلاء بصري لهذا الجمع الغريب . والأسلوب العجيب ، في التفرقة بين المخطىء في المسألة والمصيب ، فرفعت أكف الابتهال إلى الكريم المتعال ، في أن يمتع الله المسلمين بطول وجوده ، ويفيض عليه سجال كرمه وجوده ، ويوفقه لما فيه رضاه ، ويتولى حفظه في دنياه وأخراه اهـ .

قلت : ومما نسب له من الشعر أنه قال في مملوك له يسمى سعداً كان كَلاً عليه أينما يوجهّه لا يأت بخير :

بُليت بمملوك من الزنج لا يرى	له مشبه في الشر قُبّح من عبْد

يجيء إذا ناديته في ملمة دبيبا كذي رجل على حجر صلد
ويجلس في صدر المجالس حيثما تجمّع ناس من أولي الحل والعقد
يشاركهم فيما يقولون ثم لا يفارقهم حتى يشافه بالطرد
وسمّي سعداً للتفاؤل باسمه فكان بتقدير الإله على الضد

ومن شعره مشطراً ، ونص ذلك :

متى تصل العطاش إلى ارتواء فتضحي منه باسمة الثنايا
وتطفي غلّة الأحشاء يوماً إذا استقت البحار من الركايا
ومن يثني الأصاغر عن مراد قبيح فعله بين البرايا
ويزجرهم عليه إذا أصرّوا إذا جلس الأكابر في الزوايا
وإنّ ترفّع الوضعاء يوماً على أعلى المحافل والمطايا
بإحراز المراتب والمعالي على الرفعاء من إحدى البلايا
إذا استوت الأسافل والأعالي فقد هانت على النفس الرزايا
وإمّا إن علوا فوق الأعالي فقد طابت منادمة المنايا

ومن شعره أيضاً – رحمه الله – قوله :

أشكو إلى الله من ذنبي ومن زللي وما جنته يدي في الأعصر الأول
عم المشيب وما أكرمت مقدمه وما اتّعظت به من سيّئ العمل
هو النذير الذي صدقاً يخبرني أن الذي خفته قد جاء عن عجل
ما لي وللشّيب قد أنكرت طلعته فعيل صبري وأجرى الدمع من مقلي
ما لي وللشيب قد أوهى قوى جلدي وأنهك الجسم بالأمراض والعلل
وأوهن العظم حتى لا أقوم بلا شخص معين أو الإمعان في الحيل
قد قارب الخطوُ في مشيي فصرت كمن يمشي بقيد ثقيل خاض في الوحل
لزمت حمل العصا من حين لازمني لزوم ظل لزوماً غير منتقل
وصرت أنسى الذي قد غاب عن بصري حتى صلاتي وليت الفرض يسلم لي
فقدتُ عصر شباب لست أخلفه ولا بما قد حوى قارون في الأول
بل لا تعادله الدنيا بأجمعها وما حوته من الأيام في الدول
لم يترك الدهر ممن كنت آلفهم إلا تخيلهم في النوم بالمُثُل

وقد روينا عن الماضين من سلف ... بيتاً بديعاً بليغاً سار كالمَثَل
هذا جزاء امرىء أقرانه درجوا ... تحت الثرى فتمنى فسحة الأجل
عفواً إلّهي عمّا قد جنته يدي ... من الجناية في قول وفي عمل
وآمنن بتوبة صدق كنت آملها ... من فضل جودك من قبل انقضا أجلي
وليس لي أمل أرجو النجاة به ... إلا شفاعة خير الخلق والرسل
عليه أزكى صلاة الله ما طلعت ... شمس وما غربت بالأفق في الأصل

وذكر صاحب **تراجم المفتين** ابنُ صاحب الترجمة في ترجمته له أنّ والده هذا تخرّج عليه علماء أعلام في المذهبين الحنفي والمالكي ، ذكر أسماء جملة منهم من بينهم البارع المحقق للعلوم العقلية والأدبية الناظم الناثر أبو محمد حمودة بن عبد العزيز وإليك ترجمة حياته :

272 – الشيخ الكاتب أبو عبد الله حمودة بن عبد العزيز

ولد بتونس ، وبها نشأ في طلب العلم ، فأخذه عن علماء عصره من أهل تونس ، منهم : والده العلامة ، فبرع وتصدر للإقراء بالجامع الأعظم ، فظهرت براعته واشتهر تحقيقه . تخرج به أعلام منهم حامل راية مذهب النعمان ، ومحقق الحنفية في هذا القطر الشيخ محمد بيرم الثاني ، وعالما المالكية الشيخ محمد المحجوب ، والشيخ عمر المحجوب . له حاشية على الوسطى للشيخ السنوسي ، ورسالة في القبلة ، وحرر مسائل كلامية وقع خوض علماء زمنه فيها ، منها مسألة كاتب فيها بعض علماء قسنطينة علماء جامع الزيتونة فأجابوه عنها ، كان ممن أجاب عنها صاحب الترجمة والشيخ أبو الفداء إسماعيل التميمي لم أطلع عليها . وأخبرني بعض محققي شيوخي أن كتابة صاحب الترجمة أحسنها تحريراً وتحقيقاً ، وشرح موشّحة إبراهيم بن سهل الإسرائيلي . رغب الأمير علي باي أن يستكتبه فلم يرضَ ثم طلبه ثانية فقبلها ولما سامره أول ليلة أعجبته محاضرته حتّى أن الأمير لم يزل يدنو منه حتى كاد أن يماسّ مجلسه . قام بخطة الإنشاء خير قيام فاستكفى به وأفاض عليه أياديه . وكان خليقاً بالرئاسة . ألف له تاريخه الباشي ، وبعثه سفيراً عنه لدار الخلافة العثمانية وللجزائر ، وخصه بإقراء ولده الأمير حمودة باشا العلم ، فاعتنى به وتخرج به ، وكان له بذلك إدلال عليه في إمارته . وكان مترفهاً في معيشته ، فإذا لم يقول : لا

يسلّيني عن مجالس العلم بجامع الزيتونة ، واستبدالها بخدمة المخزن إلا ذلك . وربما صرح به للأمير حمودة باشا . وما زال رفيع المكان ، نافذ الكلمة ، مرموقاً بعين الإعتبار إلى أن حاول بعض الناس الفتك به فطاش سهمه وارتاع لها صاحب الترجمة وألقي القبض على الجاني ، فيقال : إن الأمير حمودة باشا حكّمه فيه وأمر بإنفاذ ما يحكم به فأمر صاحب الترجمة بالتمثيل به ونفذ فأتى بها شنعاء خالف بها الشريعة الإسلامية إذ لم يستوجب غير التعزير فتغير عليه باطن الأمير وعدت عليه أعظم سقطة وقال : ما ظننت أنه يبلغ به إلى القتل ولكن سبق السيف العذل والحق أنها فلتة من الأمير ، كيف والشريعة الإسلامية تحظر حكم العدو على عدوه أو شهادته عليه ولكن حب مجابرته حدا به للوقوع في ذلك .

وكان شاعراً مفلقاً له ديوان . توفي سنة 1202هـ .

ومن شعره يهني الأمير علي باي بإطفاء فتنة جبل عمدون وجبل وسلات وهو من السهل الممتنع :

مهاد لجنب العز ظهر السلاهب ... وبرد لصدر المجد حر المضارب[1]
وسمر العوالي للمعالي دعائم ... وبيض المواضي سلَّم للمراتب
ولا وأبي لا يبلغ المجد عاجز ... يعلل نفساً بالأماني الكواذب
ولكن فتى قد جرد السيف طالباً ... به من حقوق المجد أسنى المطالب
يهاب اللنايا أن تدنس عرضه ... وليس لأسباب المنايا بهائب
يعاف ورود الماء ليس به دم ... ويترك طعماً ناله غير غاضب
فذلك إن يظفر فأكرم ظافر ... وإلا فعذر السيف في كف هارب
هي الحرب من يعلق بها يبلغ المنى ... وهل نال أقصى المجد غير المحارب
ومن لا يهب يغلب ومن كان ضارباً ... بسيف علي كان أغلب غالب
أمير العلى والحلم والباس والندى ... وأشجع مقدام وأكرم واهب
مليك تسامى في المكارم والعلى ... بحيث غدا مثواه بين الكواكب
تبوّأ منها حيث إن يبغ رتبة ... يمد إليها من عل كفّ جاذب
بصير بأعقاب الأمور كأنما ... يريه حجاه شاهداً كل غائب
وكلٌّ يرى صدر الأمور وإنما ... تبيّن مزيات النهى في العواقب

(1) السلاهب : جمع سلهب ما عظم من الخيل وطال – .

رجاحة عقل حنّكتها تجارب — وهل رجح الألباب مثل التجارب
وإقدام من لا يرهب الموت والفتى — ينال المنى ما كان ليس براهب
يخف إلى داعي الوغى متهللا — يجرر أذيال القنا والقواضب
يباري جياد الخيل في خيلائها — كأن مجال الحرب بعض الملاعب
يظن دم الأبطال في متن سيفه — تورد خد فوق خضرة شارب
وطعنة رمح تحت ضربة سيفه — هي المقلة النجلاء من تحت حاجب
هو القائد الجرد السلاهب للوغى — تفوت غداة السبق طرف المراقب
تطير وقد خاضت إلى الرسغ في الدما — كعقبان جو داميات المخالب[1]
رياح أثارت من غبار سحائباً — ترى الشقر منها برق تلك السحائب
عمدت الى عمدون من بعد وقعة — بوسلات سالت بالدماء السواكب
كلا الجبلين أبطرته فواضل — بنعماك لا تحصى بحسبان حاسب[3]
أفضت الندى فيهم ومن كان مثلهم — بضرب الطلا ينقاد لا بالمواهب[2]
فبدّلتهم إذ بدلوا الطوع جفوة — حراباً لما أوليتهم من حرائب
وسقت لهم ليلاً من الجيش بيضه — نجوم هوت من هامهم في مغارب
فجاءتك وفداً بعد وفد رؤوسهم — وليس لها غير القنا من ركائب
لئن صديت أفكارهم من غواية — ففي كفك السيف الصقيل الترائب
وإن أظلمت أبصارهم من عماية — فمن رأيك النور المزيل الغياهب
وما زلت تولي كل يوم عليهم — كتائب نصر أردفت بكتائب
إلى أن أتوا ما بين عانٍ مشدد — وبين شريد لائذ بك تائب
وليس عليهم سبة إن أخذتهم — فليس سطا المولى لعبدٍ بعائب
قسوت لهم حتى ملكت قيادهم — فعدت إلى ما اعتدت من لين جانب
عفوت فلم تستبق للعفو غاية — وفرجت عنهم عند ضيق المذاهب
وللحر إن كانوا كذلك خجلة — من العفو أنكى من عقاب المعاقب
أبا الحسن افخر فالملوك بأسرها — مقصّرة عن بعض هذي المناقب

(1) الرسغ : المستدق مما بين الحافر وموصل الوظيف ، وهو مستدق الساق .
(2) أبطرته : أطغته بالنعمة .
(3) الطلا : الأعناق .

أتيت بفرض المكرمات ونفلها وأكرمهم من لا يخلّ بواجب
خطبت العلى بالسيف حتى ملكتها وليس بكفء للعلى كل خاطب
عجبت لرمح وارد أبحر الندى بكفك يثني عطف ظمآن شاحب
وأصفق من وجه المنية صارم نظرت إليه فانثنى غير ذائب[1]
عدلت ولم تعدل عن الحق والهدى وأوردت منه كل صافي المشارب
وعمّ الورى ذا العدل إلا رواحل لرفدك هاضتها ثقال الحقائب
مدحتك حباً في علاك ورغبة وما أنا في غير المعالي براغب
فدونك من حر الكلام مدائحاً كعقدٍ من الياقوت في جيد كاعب
معانٍ لإفراط السنا لو تجسمت لزادت فريقاً في النجوم الثواقب
لقد سلّ منك الله سيفاً مهنّداً فلا فلّ منه الدهر عضب المضارب
وعزز منك النيرين بثالث فدمت على طول المدى غير غارب

وقد عارض بها قصيدة بليغة لأبي عبد الله محمد الورغي في الأمير علي باشا بن محمد ، مطلعها :

هو العز في سمر القنا والقواضب وإلا فما تغني صدور المراتب

ومن شعره موشحة نصها :

عاد لي زماني بعد طول تعليل فاستردّ الفائت وطّوع الأبيّا
حـبـذا المزار وحسن ما أفاض
إذ لـنـا الخيار في الحدق المراض
واكـتـسى النهـار والبرق في اعتراض
حلة الدياجي والجوّ فيه تخضيل كسوة الفواخت تطوّقت حليّا
قد هويت شخصاً أعزز به من شخص
ضم جسماً رخصاً وأيّ جسم رخص
سالـفـاه انـتصّا والغصن فوق دعص[2]

(1) أصفق : أوقح .
(2) انتصّا : ارتفعا أو انتصبا ؛ دعص : كثيب - .

يا قضيب البان هلّا ثناك مميل طيت في المنابت فلا تكن عصيّا

لـيـتني حويـتك بكل ما حويته
ضمت إذ فديتك ذرعاً بما حبيته
لـيـتني جـنـيتك علماً بما جنيته

صعّدت الزفرات ثقلت في الأفاعيل ما الزمان صامت تحت سطاك عليّا

ظـبـيـة المروج أشرفت في وجيب[1]
عرّجي وعوجي للدنف الكئيب
شعرك الدجوجي ستر من الرقيب[2]

بت في أمان بمفعم الخلاخيل والعذول صامت يرى الرشاد غيّا

طيرتي قد صارت أقفاصها الضلوع
رفـرفت وطـارت لا تألف الوقوع
كم من جوى أثارت عني لها ولـوع

يا أحزاني فان على عارم المثاقيل ناديتها ولا بِتْ تنزل على يديّا[3]

ومن شعره يهنئ الأمير علي باي بولاية ابنه حمودة باشا الملك الذي تنازل له عنه :

كذا كل يوم في هناء مجدد وضعف سرور اليوم يزداد في غد
وما خصّك المقدار يوماً بغاية من المجد إلا جاد بعدُ بأبعد
هنيئاً لهذا الملك قد شُدَّ أزره وثقّف حتى ما به من تأوّد
بيوم قضت فيه المكارم دينها وأنجزت العلياء أكرم موعد
تجلّى على الدنيا بأكرم طائر وفي طالع منه السعود بمرصد
ليفخر به آل الحسين وإن تكن مفاخرهم طول المدى في تجدد
ويبتهج الباشا الهمام بشبله غدا تلوه في كل مجد وسؤدد
فللّه يوم قد تبلّج صبحه لحمودة الباشا بملك مجدد
أتى بالتي تندق من دونها القنا وترجع عنها حدّ كل مهنّد

(1) وجيب : اضطراب .
(2) الدجوجي : الحالك .
(3) هذه اللازمة طالع موشّح عارضه صاحب الترجمة وهو باللغة الدارجة البلدية كما ترى — .

فلا سبب إلا ترشّحه لها ... ألا هكذا فليرتد المجد مرتد
ولاية عهد أحكم الله عقدها ... وشاد بها بنيان عز مؤبّد
فما إن أتاح الله للملك بعدها ... لعمر أبيه من فخار مشيّد
فلله عيناً من رآه قد استوى ... على الدست يعلو منه أشرف مقعد
وقد صفت الأجناد صفين حوله ... على رتبة من كل صيحان أصيد
وقد خشعوا من هيبة فتراهم ... وإن لم يكونوا ساجدين كسُجّد
وقد نشرت أعلامه كسحائب ... من النصر لكن برقها ذوب عسجد
وكانت لها رعداً خوافق نوبة ... لو أن لصوت الرعد ألحان معبد
وجاء رسول الملك يرجف قلبه ... وقد شهدت عيناه أعظم مشهد
يقوم لتقديم الصفوف وينحني ... لهيبته كالراكع المتهجد
وكبّر لما أن رأى نور وجهه ... بنفسي وأهلي ذلك الوجه أفتدي
وجاء بها قُدّت من النور خلعة ... كزهرة روض أو كخجلة أمرد
هي الشمس لكن من يقابل شعاعها ... أعارته لوناً أبيضاً غير أسود
تطلع من أطواقها مثل ما بدا ... خلال وميض البرق طلعة أسعُد
وما فخره في لبس حلّة مذهب ... أشِعّتها من نوره المتوقد
ولكنه في لبسه حلل العلى ... وتجرير أذيال الثناء المردد
وتوشيحه بالسيف يجني به العدى ... صقيلاً وأصباغ الدلاص المسرد
وعارفة من جوده كلما انتحت ... على بلدة لم يبق للمال مجتدي
ولله عينا من رآه قد استوى ... على سرجه كالصقر خف لمصيد
وقد شق ما بين السماطين وانثنى ... يحيّى كغصن البانة المتأود
إذا ما رأيت الموكب الضخم حوله ... رأيت النجوم الزهر بالبدر تهتدي
فوارس لو شنّوا على الشمس غارة ... لكان لهم في عينها طيب مورد
أتلك سيوف ما انتضوا أم بوارق ... فما تثبت الأبصار غير التوقد
وتلك ردينيّاتهم أم قدودهم ... فلم أر إلّا كل ريّان أملد
وسالت سيول الرّجل تحت ركابه ... كسيل يديه بالنضار المبدد
على ضمّر من كلّ ... تليد ... ـلا ... سوالف خرّد(1)

(1) بياض بالأصل .

أأسراب وحش هنّ قد ألفتهم فلم يبق من ظبي بتيماء أغيد
عليها شفاف الوشي من عبقريّة منضدة من تحت در منضد
وما دخل الخضراء إلا بمزنة من الوبل زادت نضرة تربها الندي
سقاها فروّاها به الله إنما على كل أرض حلة من زمرّد
أبا حسن قد قمت بالدين مفرداً فكيف وقد أصبحت لست بمفرد
لك الله من ذي حوطة شد أزره بذي حوطة مثل الحسام المجرد
وأروع رحب الصدر محرز ملكه بأروع رحب الصدر رحب المقلد
كبدر الدجى كالصبح كالشمس كالهدى كنيل الأماني كاعتقاد الموحد
وكالغيث يهمي باكياً متهللا وكالبحر يرمي الدر ليس بمزبد
جناحك إن تنهض يمينك إن تصُل وظلّك أيّ الطرق يممت يقتدي
هو السيف فاضرب من تشاء بحدّه هو الرمح فاطعن حيث شئت وسدّد
فما بين أن يبدو وأن تخضع العدى لصولته إلا كسجدة هدهد
ومن حجرك اقتاد الجنود ولم يكن يفارقه إلا إلى ظهر أجرد
فلا زال منصور اللواء مؤيداً وأنت له أقوى عماد ومسند
ودامت له في ظل دولتك العلى وخلدتها تخليد بدرٍ وفرقد

ومن شعره جواباً عن لغز في الملوّسة والكآبة والعذبة للشيخ عمر المحجوب مذكور في ترجمته بهذا الكتاب وهو من تلاميذ صاحب الترجمة :

قل لحبرٍ ألقى إلينا مُعمًّى أعقب اليوم من معاطاة كاسه
فالصداع الذي حكاه مزاح حاش لله أن يلمّ راسه
وعلاج الملول بعد نقاه أن يغطًّى بحلّة من لباسه
وحرام بعد العلاج عروض لكُمُ غير قطرة من نحاسه
والقوافي كما ذكرت ولكن أسرف الدهر في هوان أناسه
وفكاك من شبه مثل لأصل ترك ذي الأصل جملة لأندراسه
وبنوه تتلو كباراً جفوه لا فكاك منه لطول مراسه
ليكونوا كالقدر يغلي من الغيظ بحرّ الوقود من حرّ بأسه

ومن شعره أيضاً ما مدح وهنّأ به شيخه الشيخ محمد بيرم الأول بأول ختم له

لصحيح البخاري بالمدرسة الباشية عام ولايته مشيختها وهو عام ستة وستين ومائة وألف 1166هـ ، ونصه :

زمنَ الوصال وعهد أيام الصبا ... يسقيك عهد الغيث ساقته الصبّا
من لي بها أيام عهد قد مضت ... ما شمت فيها برق وصل خلّبا
أيام ما ظل المنام محرّماً ... عني ولا أمسى الحبيب محجّبا
في حيث زهر الروض بلّله الندى ... فالشمس تلثم منه ثغراً أشنبا
في حيث وجه الأرض طلق باسم ... تخذت به غزلان وجرة ملعبا
والطل مسك فتّ في ديباج نبـ ... ـتٍ ظلّ منشوراً على تلك الربى
يُشتمُّ بالأجفان فاعجب مثل ما ... قد شُمّ بالأجفان مسكاً طيباً[1]
بفناء مدرسة المعظّم قدره الـ ... ـباشا أمير المؤمنين الأغلبا[2]
ملك الملوك وخير من قاد العسا ... كر في الوغى أُسداً وزان الموكبا
يا حسنها عزت وعزّ نظيرها ... لما غدت بالعلم روضاً مخصبا
قد زانها المولى الهمام محمد ... ذاك الأغر الألمعي الأكتبا
العالم النحرير والحبر الذي ... لبديع أبكار المعاني قد سبى
العلم في مغناه ألقى الرحل والـ ... ـمجد المؤثل في ذراه طنّبا
كشّاف أسرار البلاغة موضح ... لدلائل الإعجاز مجلي الغيهبا
يا محرزاً قصب السباق وحائزاً ... فضل الرئاسة حين شاد المذهبا
يهنيك يا مولاي ذا الختم الذي ... لبس الزمان به طرازا مذهبا
أوضحت فيه من الحديث غوامضا ... دقّت فعنها كل عقل قد نبا
إن البخاري لو رآك مقرراً ... لصحيحه لغدا بفضلك معجبا
ذاك الإمام الحافظ اللّذْ قد قضى ... من كل علياء وفضل مأربا
قد كان رافع راية العلم الجليـ ... ـل وسنة الهادي النبي المجتبى
خير الأنام محمد المختار من ... سجد الجماد له وكلمه الظبّا
صلى عليه الله والآل الألى ... نصروا الشريعة بالأسنة والظُّبى
ما حنّ صبّ أو تذكر مغرم ... زمن الوصال وعهد أيام الصبّا

(1) شُمّ : مبني للنائب ، جعل نائبه (بالأجفان) .

(2) الأغلبا : نعت مقطوع .

273 – الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد المولّى

وصفه الشيخ محمد بيرم الرابع في كتابه **التراجم المهمة للخطباء والأيمة** الذي سبقت لنا الإشارة إليه ، بأنه الإمام الفاضل جامع أشتات الفضائل ، الدرّاكة الفهّامة ، المسدد في ميدان الإصابة سهامه ، المتمسك بمتين طريقته الدينية ، والمعتني وافر الإعتناء بالأمداح النبوية ، ذو الوقار وعلو الهمة ، الضارب بسهم في كل خصلة مهمة . وذكر أن والده أحمد من الترك القاطنين بتونس ، وتلقيبه بالمولّى يشعر بأن له انتساباً إلى جانب العلم . ولد ابنه محمد (صاحب الترجمة) في حدود السبعين بعد المائة والألف . وممن أخذ عنهم العلم الشيخ محمد بيرم الثاني ، وكان يعده من أعيان الآخذين عنه . وقد أقرأ في جامع الزيتونة . ومن العلوم التي كان مشتهراً بإتقانها علم العروض وعلم الحساب ، وأن العلامة سيدي إبراهيم الرياحي أخذ عنه شيئاً من أحد ذينك العلمين . كما كانت له مشاركة في الفقه أوجبت ترشحه لولاية القضاء ، وعده من جملة المتأهلين . وكان جميل الخط بالقلمين المشرقي والمغربي ، مشغوفاً بتقييد الفوائد الحسنة على ظواهر كتبه . يوجد له من ذلك الشيء الكثير . وكان رحمه الله وعاء ظرف مرتدياً أردية كمال صرف . قلد الإمامة والرواية بجامع القصبة فقام بهما أحسن قيام . وأنه كان معدوداً من أدباء وقته وله قدرة وافرة على صنع التاريخ شعراً مع البداهة فيه حتى قيل : إنه لما توفي والده التمس من بعض الأدباء أن يصنع له تاريخاً ينقش على قبره وراسله في طلب ذلك بأبيات عديدة مصازعها الأواخر كلها تواريخ لتلك السنة . وقريب من هذا أبيات صدرت عنه تهنئة لشيخه الشيخ محمد بيرم الثاني ببناء بيت علوي مشرف تتضمن خمسة تواريخ ، وهي :

السعد بادي الصعود | بالنور باهي الوقود
قد سرّه حسن صرح | للحبر نور الوجود
من حسنه وبهاه | قد حاز أسنى البرود
قد قال لي صف مقاماً | يزري بقصر الرشيد
شذاه أرّخت : صدقاً | كمثل مسك وعود

165   590   360   86

سنة 1201هـ

فانظم ثناه بصدق | بعقد درّ نضيد

وامدح بتاريخ :	عدل	مقرّ	هـذا	الودود	
	104	340	706	51	

سنة 1201هـ

فقلت يا	سعد	فزنا	برغم	أنف	الحسود
إن أنت أرّخت :	صرحاً	لـذا	الإمام	المجيد	
	269	731	113	88	

سنة 1201هـ

فللـــمؤرخ	بــيت	يزري	بسمط	العقود
	412	227	351	211

سنة 1201هـ

مـقـام	مجد	أنيـق	بَدا	كسعد	السعود
181	47	161	7	394	411

سنة 1201هـ

قال : فهذه خمسة تواريخ حساب كل واحد منها واحد ومايتان وألف ، والبيت الأخير كله تاريخ وأشار إليه بقوله وللمؤرخ بيت الخ .

ومن بديهته في الحساب ما حكاه عن الشيخ أبي الفداء سيدي إسماعيل التميمي أنه كان مجالساً لصاحب الترجمة مع جماعة مشرفين من شبّاك أمامه حائط ليس عليه أمارات الإنهدام ، فسقط بتمامه جملة ، فقال لهم «شارب» فوافقه الجماعة على أن ذلك سبب سقوطه فقال لهم : وهو تاريخ أيضاً ، والقصة وقعت سنة 1203هـ .

وذكر الشيخ بيرم الرابع أيضاً أن صاحب الترجمة كان قادريّ الطريقة له اعتقاد عظيم في صاحبها ، وله فيه أمداح كثيرة منها قصيدة مطلعها :

ملْ لبغداد واركبنَّ البخارا   واقطعنَّ الديار داراً فدارا

شرحها شرحاً حسناً . كما شرح الصلاة الصغرى المنسوبة للشيخ عبد القادر الجيلاني شرحاً بديعاً محشواً بالفوائد ، أحسن فيه ما شاء سماه بالصلاة الكبرى في شرح الصلاة الصغرى . وأمداحه في الشيخ عبد القادر الجيلاني يميل فيها إلى مساعدة أوزان مخصوصة لا إلى البلاغة التي ربما أفضت مراعاتها في هذا المقام إلى عدم اقتضاء حال المستمعين

لتلك الأشعار لجريان عمل أهل تلك الطريقة بتوشيح مجالس أورادهم بأمداح شيخهم وأمداح النبيء ﷺ في نغمات حسنة على ما هو مسلك كثير من الصوفية . فيحصل لهم بذلك التواجد والحضور . هذا مشرب صاحب الترجمة في اعتنائه بمّا ذكر ، قال : وقد بقي استعمال تلك الأشعار التي نظمها إلى اليوم وإن أخرجها أهل وقتنا (أي من جماعة القادرية) إلى حيّز غير لائق من محاكاة نغمات اللهو الصرف ، وأذهبوا بذلك بهجتها والمقصود من أصل وضعها . ثم ذكر أن صاحب الترجمة أدركته عين الكمال فمات قبل استكمال سن الأربعين ، وكان ذلك سنة 1208هـ . أما الشيخ ابن أبي الضياف فذكر في تاريخه أنها كانت في سنة 1209هـ . ودفن بالزلاج رحمه الله .

274 – أبو عبد الله محمد بن حسين الدرناوي الطرابلسي الأصل

ممّن أنبتته رياض جامع الزيتونة ، فحصل على ملكة علمية ، وكان له في الأدب يد قوية ، ملك بها عنان قلم الإنشاء في دولة الأمير علي باي . فلما توفي أبو العباس أحمد الأصرم رئيس الكتاب أولاه رئاسة الكتابة بدولته ثم أخرّه عنها ، ولم يزل بعد عزله على وجاهته واحترام جانبه وكان أديباً شاعراً حسن الأخلاق سليم الصدر والعرض . توفي في ربيع الأول سنة 1211هـ .

ومن شعره يهنّيء الأمير علي باي بختان ابنيه وابني أخيه :

هناء وافر الأجزا جليل	مديد والسرور به طويل
وبشرى عمت الآفاق طرّا	وسعد بالسماك له وصول
بختن لو محاسنه تراءت	لبدر الأفق أدركه الأفول
لأبناء الرضى وابني أخيه	عليّ من له مجد أثيل
هو الملك الزكي الباشا المرجّى	إذا ما نابنا أمر مهول
إمام بل همام بل غمام	له خُلُق كباطنه جميل
وشغل دائم بعلوم دين	ولا سيما بما قال الرسول
وأبحاث بها رقت ودقت	فكم في فهمها حارت عقول
وبالآداب معرفة ونقد	به خجلت له الشعر الفحول

سري ألمعي أوحدي نبيه فاضل حبر نبيل
تأزر بالعفاف فلم تمله شمائل ذي جمال أو شمول
فني حلم وفي عزم وحزم ومحض الفضل ليس له مثيل
له إن أمّن الجاني عهود تزول الراسيات ولا تحول
لقد عانى الزمان لذا لديه تساوى الصعب منه والذلول
ولا يخفاه من حال الرعايا لفطنته كثير أو قليل
ولا عضد له في الملك إلا قوي السعد والرأي الأصيل
وأنجال له نُجَبا ولكن لدى الهيجاء أشبال تصول
مآثره الجليلة أنبأتنا بعاقبة إلى الحسنى تؤول
وناهيك البرية بايعته ولا نهب يلوح ولا قتيل
أيا ملك الورى يهنيك ختن به العلياء تاهت والخيول
وتخت الملك والتاج المحلّى ورمح الطعن والسيف الصقيل
كذا الرايات والجند المفدّى لعمرك والإقامة والرحيل
لأبناء دروا وهم بمَهد أموراً ليس تدركها الكهول
فدم بهم فديتك في سرور قرير العين ما هبت قبول
فيا له من ختان قد أريعت به الأعداء وانسر الخليل
ومذ قد كان في زمن سعيد أتى التاريخ ختنهم جميل
83 1095
سنة 1178هـ

ومن شعره محرّضاً لأبي الحسن علي الغراب على الانتقال من صفاقس إلى السكنى بالحاضرة التونسية ومرغباً له في ذلك بأنه يرجو أن يكون له بها وظيف لائق وأن الذي يكون له سبباً في ذلك هو الشيخ المفتي سيدي محمد سعادة :

سمعاً أبا الحسن الغراب لناصح لك يبتغي نيل العلى وسيادة
أيام دهر قد مضت بصفاقس وكذا لياليه بغير إفادة
فارحل إلى الخضرا لكي تُعطى المنى وتنال ما أهلّته بسعادة

ومن شعره أيضاً يَمدحه :

قد رأينا أهل الفضائل ممن حاز قصب السباق في الآداب
ما رأينا من حاز علم المعاني واحداً في البيان مثل الغراب

275 – الشيخ أبو العباس أحمد الوصيف

وصفه الشيخ محمد بيرم الرابع في كتابه **التراجم المهمة للخطباء والأيمة** بأنه الأعدل المشارك المجوّد . وذكر من شعره قصيدة نقشت على ضريح الشيخ الفقيه المدرس بجامع الزيتونة والإمام بجامع القصبة أبي حفص عمر زبدة . نصها :

سحائب عفو همّت كالديم بقبر منير كبدر أتم
وقد حله عمر المرتضى بزبدة يدعى جميل الشيم
إمام جليل ومن قد رقى منابر وعظ وألقى الحكم
وقد كان عدلاً جميل الثنا زكياً تقياً وفير النعم
يريد العلوم وتدريسها ويسبق للخير في المزدحم
فلم تلفه غير ساع إلى طريق رشاد به قد ألم
وها هو ضيف يريد القرى من الله ذي الفضل محيي الرمم
فيا رب أسكنه في جنة وقابله بالعفو منك الأعم
ليبدوَ مصداق تاريخه : أتى الكريم يريد الكرم
291 224 301 411
سنة 1227هـ

وعلّق الشيخ بيرم الرابع على هذا التاريخ بقوله سنة وفاة صاحب الضريح هي 1217هـ مع أن العدد الذي تضمنه المصراع الذي به التاريخ هو سنة 1227هـ .

276 – الشيخ أبو الفلاح صالح بن حسن شهر الكوّاش الكافي الأصل

ولد هذا الإمام في ربيع الأول سنة 1137هـ . وكان أبوه يحترف في فرن ، وهو الكوشة في اصطلاح تونس ، كائن قرب سيدي المشرف ، فحفظ القرآن العظيم ،

وتعلقت همته بطلب العلم ، فأخذه عن علماء عصره ، وجهابذة مصره .

ويذكر أن أباه ربما منعه من استغراقه النهار في طلب العلم رغبة في إعانته على مهنته ، وربما أوكل حفظ الكوشة إليه فيفرّ صاحب الترجمة إلى جامع الزيتونة عناية من الله بهذا الفاضل وتوفيقاً له « وقد عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل » إلى أن أصبح بحراً ، قد ازدادت به تونس مجداً وفخراً . فتصدر لبثّ ما به تَملأ ، وفي حلية تحقيق العلوم جلّى . فكان كعبة طلاب العلوم التي يولون وجوههم شطرها ، وجونة متنشق تحاريرها التي يتنسمون عطرها ، فانتفعت به العباد ، وألحق الأحفاد بالأجداد . وتخرج على يده العلماء الأطواد ، ممن لا تأتي عليهم كثرة التعداد . وكان شديداً في ذات الله تعالى لا تأخذه لومة اللائِم ، ولا ترهبه سطوة الأمراء الأعاظم . بل يصدع بالحق ، ولا يراعي في إنكاره غضب الخلق . إذا كان في تغييره رضاء الحق ، حتى حصلت له بذلك محن . فرّ من الأمير علي باشا لخوف سطوته إلى طرابلس ثم دخل أزمير والقسطنطينية العظمى فاستقرّ بها فظهر علمه ظهور الشمس في رابعة النهار . وجرت مذاكرات علمية له مع شيخ إسلامها كشف فيها عن وجه التحقيق الستار . فطلب منه شيخ الإسلام شرح الصلاة المشيشية ، فشرحها بما بهر به علماء دار الخلافة العليا ، ورام الاستيطان بها لما لاقى من الحظوة . وتوفر لديه من الشهرة والثروة . ثم استدعاه الأمير محمد الرشيد باي كتابة ليراجع مسقط رأسه ومطلع شمسه وأكّد عليه رغبة فيه وضنًّا به أن تخسره تونس وحيث إن من كان يخافه قد تقضّت أيامه . وانصرمت شهوره وأعوامه ، حنّ إلى الوطن ، فلما قدم تلقّاه بتلقّ حسن ، ولما أفضى الأمر إلى أخيه الأمير علي باي وشى به بعض الفسقة ، وأبلغ الأمير عنه ما زينه وزوقه ، ممّا هو منه بري ، ومثل هذا من يكون على مثل صاحب الترجمة مستعجل جري ، فنفاه إلى مترل تميم قبل الكشف عن التهمة ، ثم انقشعت عن الأمير دياجي هذه الظلمة ، فسرحه بعد شهر وطلب منه أن يجعله في حل ممّا فعل به ، وأن ذلك كان عن وشاية حركت غضبه ، فامتنع الشيخ عن مسامحته ، وقال له : إن الله ولاك أمرنا فكيف تسمع فينا الأقاويل قبل سماع جوابنا ، والله يقول « يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » فلم يزل الأمير يلاطفه حتى سامحه .

ولي مشيخة المدرسة المنتصرية وكان من أحباسها دار لسكنى شيخها فسكنها الشيخ

حتى تداعت فأتى بنفسه إلى الأمير حمودة باشا وطلب منه أن يبنيها من بيت مال المسلمين حيث كان الوقف لا فضل في ريعه لبنائها ، فرغب منه الأمير أن يشتري له داراً تبقى لولده . ووكيل الوقف يبني دار الوقف من فواضله فقال له : أما ولدي فالله له وليس من حسن العهد أن نسكن بدار الوقف حتى تتداعى ثم نتركها خراباً ، فراجعه الأمير فأصرّ على ذلك فأمر ببنائها ، فكان صاحب الخيرات يوسف صاحب الطابع يأتي بنفسه لمطالعة ترميمها عناية بصاحب الترجمة .

وكانت له حافظة لا تعهد كاد أن يحفظ كل ما طالعه : كان يقري المطول والزرقاني على المختصر يمُرّ على محل الدرس بحانوت بعض الكتبيين ، ويأتي في درسه بما لا فوقه من التحرير ، ممّا يعجز عنه بعد طول المطالعة النحارير ، وينقل عن محشي المطول ما مر له على نظره السنون .

يذكر أنه أنكر على أيمة جامع الزيتونة التزامهم تأخير صلاة الظهر وكان إمام الخمس إذ ذاك أبا حفص عمر المحجوب ، فبلغه ، فقال : سبحان الله ينكر الشيخ هذا العمل وقد قال أبو إسحاق الشاطبي في **الموافقات** : إن ذلك جائز ، فنقل كلامه هذا لصاحب الترجمة ، فقال لمخبره ، قل له : اقلب الورقة تجد في نهاية كلامه قوله : ما لم يتخذ ذلك عادة . وكان الشيخ عمر المحجوب لم يستقص كلام الشاطبي مطالعة فتأمله فإذا هو كما قال الشيخ صاحب الترجمة .

وقال له الأمير علي باي يوماً : يا شيخ صالح قد اجتمع فيك ما تفرّق في غيرك من العلم والفضل ، وجعل يعدّد محاسنه لكن ليس لك حظ من علم السياسة ، فأجابه صاحب الترجمة بقوله : أنا من أعلم الناس بالسياسة غير أنكم معاشر الأمراء تريدون أن تخالفوا الشرع ونساعدكم على مخالفتكم .

وكان حضر في ختم الحديث للشيخ سيدي حسن الشريف فأعجبه درس الشيخ فنادى بأعلى صوته : أيها الناس ناشدتكم الله من أولى بالأمر هذا أم حمودة باشا .

شرح قصيدة الأمير محمد الرشيد باي القافية بشرح نفيس اختصره الشيخ العلامة أبو العباس أحمد بن حسين كبير المفاتي المالكية وترجمته أوسع من ذلك .

وكان يقول شعراً جيداً . توفي عشية يوم الاثنين ودفن صبيحة يوم الأربعاء تاسع عشر شوال سنة 1218هـ .

ومن شعره يهنئ الأمير علي باي بختان أبنائه :

إن الغصون إذا شذبتها ابتهجت   حسناً فتنمو وتبدي جيّد الثّمر
والشمع أيضاً إذا ما قطّ فضلته   يزداد نوراً يسرّ القلب كالبصر
كذا اليراع إذا هذبته انتظمت   نقوشه كانتظام السلك بالدرر
ففي الختان رقيّ للصبي إلى   معارج الرشد بعد الوصف بالصغر
فيا أميراً له الآمال طائعة   كما أتيح له في سابق القدر
هذا ابتداء مسرات ويتبعها   تزويجهم بلدوات السعد والخفر
دمتم سماء بلا غيم ولا كدر   وهم لكم زينة كالأنجم الزهر
حتى ترى لبني أبنائهم غرراً   من السرور وتقضي غاية الوطر
بحرمة الفاتح المحمود منزلة   السيد المصطفى المختار من مضر
خير الأنام وخير العالمين هدى   ومن هو الشمس والأكوان كالقمر
عليه من نفحات القدس ناسمة   من الصلاة مدى الآصال والبكر

ومنه يهني الأمير علي باي بموت يونس باي :

راحة الصب غيبة الرقباء   حين زال الرقيب زال عنائي
فإذا أسعد الزمان محبًّا   نزّه القلب في رياض الهناء
وأسام العلو ريعاً وخيماً   لم يفد فيه نافع الأدواء
تونس الأنس زال نقطك من أسـ   ـفل فاحوي علامة العلياء
ليس للغاصب الظلوم قرار   بل يزال تحتماً بالقضاء
ألورّاثة سبيل إلى الأخـ   ـذ نعم هو ضامن للتوّاء
يا سلالة غاصب رد منه   مستحق لوارث الملكاء
فالذي منكم يعيش قليلاً   منشد الحال قولة الأشقياء
(ليس من مات فاستراح بميت   إنما الميت ميت الأحياء)
إنما الحق للذي بايعوه   وهو حق بذاك للابناء
وبنوهم كذاك ما دامت الدنـ   ـيا إلى عزمها على الانقضاء
يا أميراً سما بحسن خصال   ورقى همّة على الجوزاء
هكذا تنقضي الأعادي بمحض الـ   ـفضل لا بتكلف وعناء

خلد الله دولة الملك فيكم بالغاً فضلكم عنان السماء

ومن شعره مؤرخاً وفاة المفتي الحنفي الشيخ حسين البارودي :

ذا ضريح أم رياض لم يزل من سحاب العفو في وبل وطل
خلته يحوي الدراري فلكاً حلّه شمس الهدى لكن أفل
ذو علوم وذكاء وتقى وابتهال وسخاء وخجل
نسب البارودي فيه حيثما شقّ في الفتيا مطاليب الحيل
رب لا تقطع شآبيب الرضا عن حسين يا كريماً لم تزل
قد قضى يرجو رضا الرحمن أرّخـ ـت أيا مؤمن بلغه الأمل
102 937 136 11
سنة 1186هـ

277 – الشيخ أبو عبد الله محمد المدعو حمودة بن حسين باكير الحنفي

ترجم له الشيخ محمد بيرم الرابع في كتابه المسمّى **بالتراجم المهمة للخطباء والأيمة** بما ملخصه : إنه ولد بعد الأربعين والمائة والألف بيسير ، وإن أباه حُسيناً تونسي المولد ممّن تعلّق بخدمة الأمير حسين بن علي مؤسس الدولة الحسينية ، وله نظر على بناء جامعه وعند إتمامه صار قيّمه . وبعد موته أولى علي باشا عوضاً عنه ابنه ، صاحب الترجمة .

ونشأ متعاطياً للعلم مجتهداً فيه ، قرأ على الشيخ محمد المحجوب الحنفي بالمدرسة الباشية وهو إذ ذاك أحد التلامذة المرتبين للقراءة بها منذ تأسست ، أخذ عليها بها **صدر الشريعة** . ثم أخذ بها أيضاً عن الشيخ محمد بيرم الأول لمّا تولى بها مدرساً بعد الشيخ المحجوب المذكور ، كما قرأ على الشيخ حسين البارودي **الجوهرة** **منلا مسكين** أحدهما أخذه عنه بالمدرسة الشماعية والآخر بالجامع . نعته في هذه الترجمة بأنه علامة فقيه ، ودراكة فاضل وخيّر نزيه ، وبأنه حصل على جانب من العلم عُدّ به من أعيان وقته ، وذكر أن له تعليقات على أبواب من صحيح البخاري لختم مجالس الرواية على العادة منسوجة على منوال طريقة القدماء المراعين فيها جانب العامة ، وجمع الأربعين حديثاً

شرحها عصريه الشيخ الصالح أبو الحسن علي عطية السوسي قال في أوائل شرحه عليها : اعلم أن الجامع لهذه الأربعين هو من العلماء العاملين . وله أذكار وأوراد واهتمام بالآخرة واستعداد وله كمال عقل ، وفطانة ، وحسن خَلق وخُلُق حسن ، ظاهره وجنانه ، وقد ألقى الله محبته في قلوب عباده ، وجعله واسطة المحتاج لنيل مراده .

وله حاشية حرّرها على الدر المختار التزم فيها الكتابة على المواضع التي أهملها محشيه الحلَبي تبلغ في الحجم قدر ربع الكتاب . وذكر الشيخ محمد بيرم المذكور أنه رأى مكتوباً بخطه (أي صاحب الترجمة) على الحاشية المذكورة من شعره قوله مضمناً تاريخ إتمامها :

حسبها من ناظريها الـ　　غضّ عن عيب وصفح
إن تكن تحوي اللآلي　　فهي في التاريخ شرح
1208هـ

قال : وله أشعار كحسان الأبكار ، منها قوله ، لمّا غزر شيبه :

وقائلة ما لي أرى منك لحية　　علاها بياض كيف زال سوادها
فقلت لها طال اللهيب من الحشا　　فأحرقها غماً وهذا رمادها

وذكر الشيخ محمد بيرم المذكور أنه رأى بخطه (أي صاحب الترجمة) هذا التخميس ونسبه لنفسه :

لا يستخفنّك تزوير وبهتان　　فكل سعي سوى الطاعات خذلان
وما على غير فضل الله تكلان　　إن الوقوف على الأبواب حرمان
والعجز أن يرجوَ الإنسانَ إنسان

عني نصيحة ذي وُدّ لديك خذا　　بها تنال المنى في الدهر صاح إذا
أصابك العُدم يوماً أو عراك أذى　　ثق بالذي هو يعطي ذا ويمنع ذا
في كل يوم له في خلقه شان

قال : ورأيت بخطه أيضاً منسوباً إليه :

بيَ غمّ ليس يدري قدره　　غيرُ ربي وهو يشفي ضرّه

ليس لي من أرتجيه غيره يقبل الجاني ويمحو وزره
إنه عوّدني من فضله يعقب اليسرُ سريعاً عسَره
فاصبرنْ فالصبر شيء نافع وتدبّر: وعسى أن تكرهوا

قال الشيخ محمد بيرم المذكور : إن عليًّا المذكور قدمه لإمامته ورواية الحديث الشريف بحضرته باذلاً له الحظ الأوفر والتكرمة والرعاية ، وذلك بعد موت إمامه الشيخ محمد مامي الحنفي الباجي سنة 1186هـ فبقي على ذلك تتوالى عليه سحائب الإنعام بحيث كان مكفيّ المهات في نفسه وأهله وأولاده على كثرتهم في جميع اللوازم من الأكسية المناسبة وغيرها مع عدد لا ينقطع من الدراهم لم يزل كذلك إلى أن توفي ذلك الأمير سنة 1196هـ وولي ابنه حمودة باشا فأقّره على ذلك رعياً لصحبة والده ولما له عليه من حقّ الشيخوخة حيث أنّه قرأ عليه حتى بعد ولايته الملك .

ومما قرأ عليه طرفاً من العبادات وجانباً من **شرح أبي فرشة على التحفة** ، ولما مات الشيخ محمد البارودي سنة 1216هـ وارتقى الشيخ محمد بيرم الثاني إلى رئاسة المفتين رام ذلك الأمير أن يجعله مفتياً ثانياً فلم يقبلها بعد الالحاح الشديد عليه من الأمير المذكور ومن الشيخ محمد بيرم الثاني حتى خاطبهما بقول : ما لكما ألححتما عليّ هذا الإلحاح الشديد ، أتظنانني السرخسي؟ فأجابه الشيخ بيرم بقوله : إنك سرخسي هذا الزمان ، ولكل زمان سرخسيه تنويهاً بشأنه ومعرفة بحقّه .

ذكر ترجمته الشيخ محمد بيرم الرابع في عداد من ولوا إمامة جامع القصر وقال : إنه كان رحمه الله حسن الخط بالقلمين المشرقي والمغربي ، وإنه كتب بخطه الجميل كثيراً من الكتب ، منها بالخط المشرقي **شرح الحموي على الكنز والدر المختار** ونسختين من **الأشباه وشرح الشرنبلالي** على **الوهبانية** . ومما كتبه بالخط المغربي مصحف ونسختان من **صحيح البخاري والشفا والدرر** ونسختان من **شرح القطر** . قال الشيخ بيرم المذكور : ورأيت له بخطه وصية لأولاده تدل على ديانته وحسن سياسته وقد أطبقت الكافة على ذلك وشهدوا له به لا يتكلم في مجالس الملوك إلّا بخير ولا يؤثر أن أحداً أصيب بمكروه بسببه وكان مقصداً يؤمه الناس لقضاء أمورهم عند الأمير ومن قصد باردُو لغرض من الأغراض يبادر لمُلاقاته لتيسير قضائها .

وقد عرضت للشيخ العلامة المفتي سيدي محمد المحجوب نازلة احتاج فيها إلى

الاستعانة به ، فأمر تلميذه الشيخ العلامة أبا عبد الله محمد بن سعيد أن يكاتبه على لسانه بشعر يعينه على حصول المقصود فكتب إليه قصيدة مطلعها :

«خير ما آثرت كرام الأنام   حسنات تبقى مع الأيام

ذكرناها في ترجمة الشيخ ابن سعيد . قال الشيخ محمد بيرم الرابع الذي نقلت عنه هذه الترجمة : إن صاحبها لم يزل على ذلك القبول والإجلال والسيرة المنسوجة على أرفع منوال إلى أن أتاه حمامه ، وتلقّاه من ربه عفوه وإكرامه ، فقضى نحبه ، ولاقى ربه ، وهو يذكر الله تعالى قبل منتصف ليلة الجمعة في 24 ذي الحجة سنة 1220هـ وحضر جنازته أمير عصره حمودة باشا ، وحمل نعشه ، وصلّى عليه الشيخ المفتي الحاج أحمد البارودي ودفن بالجلاز قرب المغارة الشاذلية رحمه الله تعالى .

278 – الشيخ أبو الحسن علي عطية السوسي

هذا الفاضل من علماء وأدباء عصره وحلاّه شيخ الإسلام محمد بيرم الرابع بالرجل الصالح ، وذكر أن له **شرحاً على الأربعين** حديثاً التي جمعها عصريه الشيخ أبو عبد الله حمودة باكير .

ومن شعره ما أجاب به عصريه المذكور لما تضمنته بعض رسائله إليه . وهو قوله :

إلهي أغثني منعم الشفا   فإني سقيم الحشى يائس
طلبت الدواء فلم ألفه   سوى قول يعقوب «لا تيأسوا»

وكان ناظمها وهو الشيخ حمودة باكير يقولها في مناجاته عند ملماته ، فأجابه صاحب الترجمة الشيخ علي عطية بقوله :

أيا منشداً أنه يائس   وربك يقبض أو يبسط
ومن قول يعقوب «لا تيأسوا»   فحسبك ذاك ولا تقنطوا
فهذا الدواء وهذا الشفا   وحاشاك تأتي بما يسخط

279 – الشيخ أبو الحسن علي خليف القيرواني

كان هذا الفاضل له مشاركة حسنة في علوم مختلفة ، وكان أديباً . ومن شعره ما كتبه على رسالة له حرّر فيها درجات الأدوية وكتب عليها مخاطباً الشيخ العالم حمودة باكير إمام جامع باردو رحمها الله :

جمعت دواء الجهل والفقر للورى — بميزان عدل منكم طابق الغرضْ
فلولاك ميزان الضنى عشت سالماً — لتجمع طب الفقر والجهل والمرضْ

280 – الشيخ أبو حفص عمر المحجوب المساكني الأصل

نشأ هذا الفاضل من بيت علم وشرف ورئاسة ، فطلب العلم عن أيمة عصره ، فبرع وتصدر للإقراء ، وانتفع به طلبة العلم ، وتخرج على يده نبلاء ، ونحارير فضلاء . وكان مقدم أدباء زمنه حتى أن أمير عصره كثيراً ما احتاج إليه في مهات الإنشاء .

ولما وجه جدي أبا إسحاق الرياحي لفاس في طلب الميرة أصحبه مكتوباً من إنشاء صاحب الترجمة مخاطباً به صاحبه الشيخ ابن شقرون من أعيان دولة المغرب في غرض هذه السفارة ليكون في إعانته على قضاء مهمّته بما هو معروف .

وله الباع المديد في سائر العلوم خصوصاً في علم التوثيق ، والمنزلة السامية في التطبيق ، يؤثر أن الأمير حمودة باشا استفتى أهل الفتوى في مسألة عرضت له وكان الأمراء لا يقدمون على شيء حتى يستفتون العلماء المفتيين فيه ، فأفتي بغير غرضه . واطلع صاحب الترجمة على نص معتمد يوافق الأمير في مطلبه ، فتحدّث بذلك ، وبلغ الأمير فأرسل إليه يسأله فأبى أن يخبره إلّا أن يعطيه أربعمائة محبوب ذهباً ، ولم يكن إذ ذاك صاحب خطة شرعية حكمية فوجهها إليه فحينئذ كتب له النص .

ولي خطة قضاء الجماعة وإمامة الخمس بجامع الزيتونة وكانتا متلازمتين فقام بأعبائهما أحسن قيام . وكان الأمير حمودة باشا معجباً بخطبه كثيراً ما يصلّي الجمعة خلفه لسماعها . كانت له همة منوطة بالثريا .

لما ولي خطة قضاء الجماعة طلب من أخيه وشيخه أبي عبد الله محمد المحجوب رئيس

المفتين كنش أبيه في النوازل الفقهية ليستعين به ، فوعده بتفتيشه في خزائن كتبه وتسليمه إليه ، ثم لم يفعل فلم يحل العام من ولايته حتى أتى صاحب الترجمة لأخيه المذكور بكنش قد جمعه في مهام النوازل يعرضه عليه ، فلما طالعه أعجب به وقال لصاحب الترجمة : إني لم أبخل عليك بكنش أبيك ، ولكن خشيت أن تعتمد فأحببت أن تكتب مثل هذا الكنش عنوان اجتهادك واضطلاعك بالخطة وسلم إليه حينئذ كنش أبيه .

أخرّه الأمير حمودة باشا عن الخطتين المذكورتين ، وسبب ذلك أن الأمير كانت له أخت عاضلاً لها وطمع صاحب طابعه يوسف خوجة في تزوجها وطال عليه الأمر فأسر إلى صاحب الترجمة بذلك ورغب منه أن يخطب في العضل فأعد صاحب الترجمة خطبة في ذلك وأودعها جيبه ينتظر ورود الأمير ليخطب بها كأنها على جهة الصدقة لعله يتّعظ فيزوج أخته ولا يجد لها أولى من يوسف خوجة ، فيبلغ المرام . فلما كانت جمعة من الجمع أتى الأمير حمودة باشا للصلاة فأخبر به صاحب الترجمة فخطب بها ، فلم يخف عن الأمير مغزاها وتغيظ حتى هم بالخروج قبل الصلاة . ثم ملك نفسه وأسرها حتى بلغه تخلف صاحب الترجمة عن الصلاة بالجامع الأعظم والحكم بدار الشريعة لمرض به ، فقال : إن الخطتين لا يليق بهما من يتخلف ، فأخره عنهما لكن بقيت له رئاسته العلمية التي لا يُمكن لأحد أن يتزّه ثوبها .

من تآليفه : رسالته التي أجاب بها الوهابي ورد بها شبهاته جمعت بين الوجازة والإفادة .

وكان شاعراً ناثراً ، توفي سنة 1222هـ في محرم .

من نثره ما كاتب به أمير عصره يعلمه بثبوت هلال رمضان ونصه :

أدام الله المجلس العالي ، يبشر بتجدّد الأهلة ، ولا زالت غيوث التهاني ، على أرجائه منهلة . أما بعد السلام التام ، اللائق بذلك المقام ، فلتهن مولانا بالهلال الجديد ، والطالع السعيد ، والمقدمة التي نتيجتها العيد ، فلقد ثبت لدينا الثبوت الشرعي ، المحرّر المرعي ، أهله الله عليكم وعلى المسلمين باليُمن والبركة ، وقران الخير في حالي السكون والحركة . فليأذن مولانا في إطلاق البشير ، وإسماع النذير ، والسلام .

بشرى فشهر الصوم لاح هلاله وبدا سناه مشرقاً وكماله
فليعلن المولى المؤيد أمره إذ صح شرعاً لا ارتياب يناله

لا زلت في عزّ وتوفيق لما ... يرضاه رب الناس جلّ جلاله

ومن شعره يعتذر عن إطفاء شمعة :

لا تلوموا نديمكم حين يطفي ... شمعة قد أراد منها صلاحا
بهرته أنواركم بسناها ... فرأى الشمع لا يفيد صباحا

وله :

انظر إلى الأمواج كيف تجمعت ... إذ قابلت شمساً تلوح بمشرق
فكأنها سلك من الياقوت قد ... نثرته خود في بساط أزرق

وله :

ولرب ليل ضمّني مع فتية ... خضع الزمان لأمرهم فأجابا
مها أراد البدر فيه تطلّعاً ... جعل السحاب من الحياء نقابا

وله ملغزاً في الملوسة والكآبة والعذبة مخاطباً الشيخ حمودة بن عبد العزيز :

يا رئيساً أزاح سقماً بجسمي ... حين عنه عيت عقول أناسه
عالج الجسم فاستقام ولولا ... هبة منك لم يفق من نعاسه
فالأذى قد كشفت عنه بلطف ... بعد ما أرجفوا عليه بياسه
فلك الفضل في قبول معيب ... بذُن الهدي أشعرت بلباسه
ولك الفضل في فكاك معمى ... ولك الفضل في معاطاة كاسه
كيف عذلي به وما لي فيه ... من جفاء وقد بليت بناسه
غير أن العليل يشكو صداعاً ... قد أصابت آلامه شق رأسه
عمرك الله في علاج ملول ... أفلا تنزع الأسى من أساسه
نقه ثانياً بخلط ومزج ... ثم ضعف له النقا بمساسه
لك حل بعد العلاج عروضي ... بظروف من لبسه ونحاسه
والقوافي على الرؤوس جميعاً ... هي في جنب حله كمداسه
وإذا رمت أن تتم جميلاً ... فاكشف الحزن ساتراً للباسه
حيرتي من أذى شبيه لأصل ... مذ دهاه بها الزمان بباسه

فكبى من بنيه تتلو كباراً نزعت برها تني بقياسه
واكشف الضر والأذى عن أثاف حولكم تأمل الحجى في اقتباسه
لا عدمناك كاشفاً لخطوب محيياً للكمال بعد اندراسه

ومن شعره يهنىء أبا عبد الله محمد الدرناوي بتوليه رئاسة الكتاب في دولة الأمير علي باي وهو من الأدباء تقدمت ترجمته :

يا فاضلاً شمخت به أعصاره وسما بأفلاك اليراع مناره
شمس الكتابة شُرِّفت قد صرتم أوجالها واعتز منك مداره
يهنيك بل يهني الرئاسة وُشِّحت منكم بحلي قد غلا مقداره
لله مبتز منصة عقدها ودليل سعد أخصبت أقطاره
نظرت سعودكم لحيِّز فضلكم فتعززت بقرانها أقماره
ومنحت عيشاً لا يطار غرابه في خصب عزّ هاطل مدراره
لا زال نجح الحظ منكم راقياً أوج المعالي وانتفت أقداره
وسوائم الآمال من إسعادكم ترعى بروض غردت أطياره
في ظله المبسوط يرفل عزكم ويحاط عن كدر الزوال نهاره

وله في مفتي صفاقس نقلها عنه الشيخ محمد بيرم الرابع في كنشه :

قالوا هو المفتي له قسوة لا يهتدي إلّا بتسييرها
فقلت كلّا إنها محنة وربنا يهديه من غيرها

وكان أخو صاحب الترجمة الشيخ العلّامة أبو عبد الله محمد المحجوب شيخاً لمدرسة علي باي . وكان وعد الفقيه منصور الورغمي بإعطائه البيت المعدّ لشيخ المدرسة بها وطال عليه انتظار الإنجاز ، فالتمس الفقيه المذكور من صاحب الترجمة أن يذكّر أخاه شيخ المدرسة إذ ذاك بوعده ويستنجزه إياه فكتب إليه هذين البيتين :

إن الفقيه وعدتموه ببيتكم وجزاؤه بوعودكم موفور
وقد استجار من الزمان بوعدكم والمستجير بوعدكم منصور

ومن شعر صاحب الترجمة أيضاً مؤرخاً وفاة الشيخ محمد بن حسين بيرم المفتي

الحنفي الأول وذلك سنة 1214هـ ونقشت على ضريحه :

جفن المنية ليس بالوَسْنان يصمي بسيف صارم وسِنَان
ومن المقابر لو علمت منابر للدهر تخطب فوقها ببيان
يا أيها الإنسان إنك كادح فانظر بعينك غاية الإنسان
وتنقّص الأرضين من أطرافها يدعو الورى للزهد في العمران
فانظر جبال العلم وهي شوامخ قد سيّرت للمحشر المتداني
وانظر إلى مفتي الأنام محمد أضحى رهين الترب والأكفان
لهفي على البحر ابن بيرم غيّضت منه علوم الدين والأبدان
قد كان للمفتين منه هداية ونقابة ووقاية اللهفان
قد كان في الفتيا عماداً عمدة صدر الشريعة غرّة الأعيان
قد كان قطب منارها عجباً له وهو المحيط بكنز هذا الشان
يا مسبل العَبَرات عند مصابه تالله لا تغنيك في السلوان
ما دُرُّه المختار يسلي فقده درر الدموع لمحجر الأجفان
فاستنزل الرحمات عند ضريحه واقرأ له شيئاً من القرآن
يا ربّ قدس سرّه ومقامه واخلع عليه ملابس الغفران
أحسن عزاء القائلين وأرّخُوا: لهفاً لحامل مذهب النعمان

243 747 109 115

1214هـ

ومن شعره أيضاً مؤرخاً وفاة الشيخ محمد بن حسين البارودي المفتي الحنفي ونقشت على ضريحه أيضاً وذلك سنة 1216هـ :

سقى ذا الثرى من رحمة الله وَبْلها ويمّمه من دوحة العفو ظلها
وضاعف أجر الصابرين لفقد من حواه على رغم الأرائك رملها
كفى واعظاً بالموت إذ نال مثله وإن وعظت تلك المقابر كلها
ولكن يجل الروع إن جل حادث وتستعظم الأجداث ممن يحلّها
أجل جلّه البارودي بدر رئاسة تسامى بأفلاك الفضائل فضلها
محمد مفتي المسلمين إمامهم ومِصْقَع أطواد المنابر فحلها

لقد كان للمفتين صدر شريعة	لهم منه توضيح القضايا وفصلها
وكان كمالاً فيهم ابن همامهم	حسين ومن تحريره صحّ نقلها
سلام على تلك النباهة إنها	لعمرك في ثغر الكمالات رتلها
سلام على تلك القراءة كلما	تجدّد من حال المحاريب ثكلها
سلام على تلك الجزالة إنها	لبيضة عقر ليس يخلف مثلها
توضّحت البشرى بما أثنت الورى	عليه وبانت للسعادة سبلها
وقال بشير الحال عنه مؤرخاً :	أُعدّت له دار السلام ونزلها
	475 35 205 402 99
	سنة 1216هـ

281 – أبو محمد حسونة الشهير بالتركي

ذكره الشيخ محمد بيرم الرابع في كتابه **التراجم المهمة للخطباء والأيمة** فوصفه بأنه فقيه نبيه ، مشارك أديب ، وأنه كان خفيف الروح ، حلو المحاضرة ، جميل الخط ، ذا ولوع بالكتابة . كتب بخطه عدّة كتب منها تفسير أبي السعود ذكر في آخره أنه كتبه بالمدرسة الباشية ، حسن الأداء عذب النغمة ، فكان لذلك من أعيان الخوجات . تعيّن خوجة بمحفل المدرسة الباشية التي عيّن ضمن الفوج الأول من طلبتها عند تمام بنائها ، طلب العلم منذ صغره ، وأخذ عن شيخ المدرسة المذكورة الأول الشيخ محمد المحجوب ، ثم عن الشيخ محمد بيرم الأول المتولّي التدريس بها بعد عزل مدرسها الأول المذكور . وترتب خوجة بمحفل جامع باردو وانتصب للشهادة عدلاً مبرزاً ثقة . وولي إمامة مسجد سيدي علي بن زياد ثم خطبة الجامع اليوسفي . ثم عزل عنها بعد سنتين وأولاه الأمير حمودة باشا إمامة وخطابة جامع القصبة في 13 محرم سنة 1217هـ . أما مولده فبتونس في حدود الأربعين بعد المائة والألف 1140هـ .

والتركي لقب له ، ووفاته كانت يوم الأربعاء في 25 رمضان سنة 1222هـ ، ودفن بمقبرة السلسلة ، وحضر حمودة باشا جنازته .

ومن شعره ، وكانت بينه وبين الشيخ محمد بيرم الثاني مودة ، ولذلك استدعاه

الشيخ بيرم المذكور للخروج معه إلى بعض المتنزهات ، لكنه تخلّف فراسله صاحب الترجمة معتذراً له عن ذلك بقوله :

يا مقيماً بمهجتي وفؤادي ... وأنيسي بكل وقت وناد
إن تأخرت عنكم بعض يوم ... عاقني الدهر عنكم بالبعاد
فبطيف الخيال منكم أنيسي ... وعليه في كل حين اعتمادي
أنت في الناس ملجأ وملاذ ... وبكم يقتدي جميع العباد
أسأل الله أن يكون لطيفاً ... بكم دائماً ليوم التنادي
بنبي الهدى وبالآل طراً ... وبجاه الصحابة الأمجاد

وأجابه الشيخ بيرم المذكور بقوله :

يا حبيباً أسكنته بفؤادي ... وله قد بذلت صفو ودادي
قد أتاني منكم قريض يحاكي ... نظم درّ في عقد نحر الغوادي
منبئاً عن مودة وإخاء ... وولاء وعن جميل اعتقاد
ليس فيه عيب سوى أن قنعتم ... بخيال عن وصلة الأجساد
لا أرى ذاك في المحبة رأياً ... حسبما قادني إليه اجتهادي
حاطك الله بالكلاءة منه ... وأرى للجميع وجه الرشاد
بنبي الهدى الذي لاح بدراً ... فائقاً كل كوكب وقّاد
فعليه السلام ما غنّت الور ... ق على غصن دوحها الميّاد
وعلى آله الكرام وصحب ... مَن على حبّهم كبير اعتمادي
واعذرنّي فيما نسجت فلولاً ... برقكم لاح ما قدحت زنادي

282 - أبو عبد الله محمد ابن شيخ الشيوخ صالح الكواش

ولد بتونس وبها نشأ في حجر أبيه عالم القطر ، وغرة أيمة العصر ، فأخذ عنه وعن غيره . وبدت على صغر سنّه تباشير خيره ، حتى بالعلوم تملّا ، وتقلّد عقد التحصيل وبفرائده تحلّى ، فتصدّر لبث العلوم بالجامع الأعظم عن ثرا . واستن في ميدان تحقيقها وجرى . وكان لوالده به تعلّق زائد ، وشفقة لم تعهد من والد ، حتى كان لا يذكر اسمه

إلّا مقروناً بالسيادة . وعلى ذلك تلاميذ والده الكثيرون رعيا لما لوالده عليهم من حقوق الإفادة . وبعد وفاة والده تقلّب به الزمان ، وانتابته طوارق الحدثان ، حتى أُخر عن الشهادة . ولا مرد لما قضاه الله وأراده . وكان بعض تلاميذ والده يعينونه على مقارعة الزمان ، وهل جزاء الإحسان إلّا الإحسان ، وأغربها وقعاً ، وأظهرها في المعروف صنعاً ، ما سلكه تلميذه الشيخ بيرم الثاني رئيس المفتين الحنفية في ردّ أمر شهادته إليه . وذلك أن يوسف صاحب الطابع صاحب الخيرات لمّا أتمّ بناء جامع الحلفاوين اختار الأمير لإمامته وخطابته من انتقاهما فكان الخطيب الشيخ محمد بيرم الثالث وكان في سن الشباب ، فلما أعلم الأمير والده أظهر غاية الأسف فسئل عن موجبه فقال لرسول الأمير : وكيف لا نتأسف ! وابني على حداثة سنّه ينتخب لمثل هذه الخطط . وذكر والده لم يخرج من هذه الحفرة يعني تونس والشيخ صالح الكواش الذي طبق ذكره بلاد الإسلام ينزع ولده من العدالة التي يتمعش منها . فلما بلغ ذلك الأمير ردّ إلى صاحب الترجمة أمر ولاية العدالة . وقد وقفت على كنش لصاحب الترجمة تشكّي فيه من الشيخ أبي عبيد الله محمد السنوسي الكافي صاحب نظم لقط الدرر لتضييقه عليه في الخروج من دار شيخ المدرسة المنتصرية حيث تولّاها بعد شيخه والد صاحب الترجمة وأنه لم يرع حقّ شيخه في ابنه وقد طلب منه أن يُمهله مدة يستحضر في أثنائها مسكناً يأوي إليه ، فلم يساعفه ، ولعلّ الشيخ السنوسي مضطر لسكناها . ولم يزل والده حتى بعد موته ، منعطفاً بشفقته عليه فقد نقل في هذا الكنش أنه رأى والده نوماً بعد وفاته . فأنشده قول ابن سهل الإسرائيلي :

أخشى عليك العار من قولهم معتدل القامة لا يعدل

قال : ففهمت منه أنه يعاتبني عمّا صدر مني .

شرح قصيدة جدي أبي إسحاق إبراهيم الرياحي في سلطان المغرب التي مطلعها :

إن شطّ من خير الأنام مزار فلنا بزورة نجله استبشار

وله شعر جيّد . توفي بالطاعون سنة 1232هـ . ومن شعره في واقعة حال :

أيا ظبية دمعي بها متدفق وعن مهجتي من حبّها أنا مشفق
يَميناً فإني باذل فيكِ مهجتي إذا لم يكن لي من تجنّيك مرفق

سقى الله ربعاً كان فيه اجتماعنا ونشر نسيم المسك من فيك يعبق
ونلت أماني لو أرى اليوم بعضها لفزت مفازاً لم يفزه موفق
وأنشدت لما استرجعت من زيارتي وقلبي من نار المحبة يخفق
(ألمت فحيت ثم قامت فودّعت فلما تولّت كادت النفس تزهق)

ومنه ما كتبه على ظهر حاشية لفقّها الشيخ قاسم بن كرم على كبرى الشيخ السنوسي بطلب من صاحبها مدحاً في الشيخ لطف الله العجمي لما رام تقديمها إليه ليجيزها وسمّاها زبدة التوحيد :

بك زبدة التوحيد لاذت واحتمت تبغي النجاة من الحسود اللاهي
قالت وقد بسطت أكفّ ضراعة يا رب داركني بلطف الله

كتب هذين البيتين على ظهر الحاشية المذكورة ارتجالاً ، وكان عليه رحمة الله كثيراً ما يقول الشعر ارتجالاً .

283 – الشيخ أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن حسن الشرفي الصفاقسي

هو من بيت علم وفضل ووجاهة بصفاقس ، توارثه الخلف عن السلف . وقد تقدمت ترجمة شقيقه الشيخ أبي محمد حسن . أما صاحب الترجمة فقال في شأنه الشيخ محمود مقديش في تاريخه بعدما نوّه بوالده ما خلاصته : أنّه كان من أجلّ أعيان فضلاء صفاقس ، متمكّناً من علوم الدين ، إماماً هماماً ثقة ، فاق أهل عصره في الفتاوي والأحكام والتوثيق والفرائض والحساب واستحضار جزئيات الفقه . عمّر وحاز الرئاسة وسارت فتاويه وتوثيقاته في بلاد إفريقية مع تحرّيه ، مشهور المذهب فاعتمده الناس حتى في أمور الدنيا لأصالة رأيه ودقّة فكره . وكان حسن الخلق والسياسة والسيرة ، متودّداً إلى الناس ، ساعياً في إصلاح ذات البين بينهم ، بعيداً عن التحيل والجور ، يعفو عن المسيء ويعظ الجاهل ، فصار محبوباً عند الناس ، مسموع الكلمة عندهم ، لما يعلمون من نصحه . ثم قال بعد ذلك في شأن ابنه أبي العباس أحمد صاحب الترجمة ما حاصله : إنه نال من العلوم على اختلاف أنواعها الحظ الأوفر عربية بأنواعها وفقهاً وحديثاً وتفسيراً وأصولاً وتوحيداً وقراءات وحساباً وفرائض وميقاتاً ، وحاز سياسة أبيه

وسيرته الحسنة بل فوق ذلك ، فاق أهل العصر في الفتاوي والأحكام والتوثيق ، صفوحاً عن الزلات ، حاز رئاسة بلده لقيامه بمصالحهم ومعضلات أمورهم .

وله مزيد اعتناء بالعلم ، فكان يقرىء بالمدرسة والجامع الأعظم بصفاقس ، أخذ العلم عن علماء بلده كالشقيقين الشيخ طيب الشرفي والشيخ حسن الشرفي وغيرهما . ثم ارتحل إلى تونس فأخذ عن فحولها كالشيخ محمد الغرياني ، والشيخ عبد الله السوسي ، والشيخ محمد الشحمي ، والشيخ قاسم المحجوب ، والشيخ محمد الهدة السوسي ، حين إقامته بتونس وأخذ القراءات عن الشيخ حمودة إدريس التونسي .

وله شرح على نظم لشيخه المذكور في القراءات أجازه علماء عصره بتونس نظماً ونثراً من أهل ذلك الفن . وله تقريرات على شرحي الشيخين عبد الباقي والخرشي على المختصر ، وتقريرات على كفاية الطالب على الرسالة . وجرت بينه وبين الشيخ عبد السلام المسدي الشهير بالأزهري أسئلة وأجوبة نحوية نظماً ونثراً .

ولي الإفتاء كأبيه وجدّه . توفي رحمه الله سنة 1229هـ ا هـ . من شعره قوله :

إلهي سألتك بالمصطفى   شفيع الخلائق يوم المعاد
لتغفر ذنبي وتسترني   ولا تفضحنيَ يوم التناد
فأنت الحليم وأنت الرحيـ   ـم وأنت العفو لذنب العباد

وله في هذا المعنى غير ما ذكرنا .

ومن شعره ما كتب على ضريح أبيه ونصه :

هذا ضريح قد حوى   جسمًا لعالم عظيم
مفتي الأنام المُرتضى   أحمد ذي القلب السليم
الشرفي كـــان في   حياته غوث اليتيم
وقائمًا مجتهداً   في طاعة الله الرحيم
ومات لمّا أن قضى   فجاور الرب الكريم
فقلت في تاريخه :   سيراً لجنة النعيم

511	483	201

سنة 1195هـ

284 – الشيخ محمّد بن محمّد ماضور السليماني الأندلسي الأصل

ولد ببلد سليمان من الجزيرة القبلية مقر سلفه في منبت مجادة ، وبيت رفع العلم سمكه وشاده . طلب العلم أولاً ببلده ، ثم انتقل إلى حاضرة تونس ، فأسام فكره في رياض علمائها المزهرة ، حتى خبره حمدوا مَخبره . فأذنوا له بالتصدي للإقراء بالجامع فبدا في ميادينه محرز الخصل[1] بديع المنازع . ثم آب إلى مسقط رأسه ومنبت غرسه إماماً وخطيباً بجامع بلده ، فقرأ على والده العلاّمة ، ناشر بساط العلم بتلك البلدة ورافع أعلامه ، تفسير القرآن العظيم . ثم ولي قضاء بلد سليمان ، فكشف عن دين وفقه متين وأبان ، مرتدياً بتقواه ، لا تأخذه لومة لائم في الله . وكان أديباً شاعراً يميل إلى الغزل ، وله ديوان شعر لطيف . توفي في ذي الحجة سنة 1226هـ .

ومن شعره يهني والده بختم تفسير القرآن العظيم :

تفسير أشواقي لديك يحرر فعساك تختم بالوصال وتجبر
يا أيها البدر الذي به أحدقت أحداقنا فرأت كمالاً يبهر

وهي طويلة .

ومنه فيمن بخده خمسة خيلان ومطرزاً باسمه :

سعدنا وخابت للوشاة ظنونها لدى مقل لو سالمتنا جفونها
يصول بها ظبي تقول لحاظه لقلبي المعنّى كن لظًى فيكونها
دنا فتدلى ثم أوحى لعبده بلابل حب لا يفيق جنونها
يعذبني وهو العليم بأنني حليف صبابات إليه رهينها
علا رتبة في الحسن حتى تواضعت إلى قدّه بين الرياض غصونها
له وردة من فوق وجنته التي بدت لعيون الناظرين فنونها
يذود بسيف الجفن عنها وخاله بخمس من السودان أضحى يصونها

وله مضمناً المصراع الأخير :

يا ظبية أشعلت في القلب نيراناً وخلفتني مع الأشواق حيرانا
بالسمع أهواك لا عن رؤية سبقت فهل أراك وأشكو منك أشجانا

(1) الخصل : إصابة الهدف .

صبري ودمعي لما حملت من شغفي ... هذا تلاشى وهذا صار غدرانا
يا شمس حسن تبلت في ملاحتها ... هلّا قرنت بذاك الحسن إحسانا
ما إن ذكرتك إلّا صرت من طرب ... من طيب ذكراك ولهانا ونشوانا
روحي بشارة من بالوصل بشّرنا ... ومن جميلك بالرضوان هنّانا
أذني هوتك وعيني ما رأت شبحاً ... (والأذن تعشق قبل العين أحيانا)

ومن شعره قوله متغزلاً :

أهدى إليّ معذّبي تفاحة ... تحكي للذيذ رضابه في شهده
فضممتها شوقاً وصرت مؤمّلا ... أني سأقطف أختها من خده

وقوله أيضاً :

لا تنس عبدك يا ربّ الجمال فني ... جفني وقلبي إطلاق وتقييد
يا روض حسن وأجفاني جداوله ... تهمي انسكاباً وأنظامي الأغاريد

ومن شعره أيضاً هذا الموشّح :

حكم الهوى فنونْ ... تقضي على النهى
أقلها جنونْ ... تُلفى وبا لها
وفي سحر الجفونْ ... من أعين المها
ما يجلب الفتونْ ... باللين والباس
في ذاك فاعذرونْ ... يا جملة الناس
هذا الهوى العذري ... عذري به قد بان
فيمن رَضي هجري ... ولجّ في الطغيان
لو أنه يدري ... ما حلّ بالولهان
ألحاظه يسطون ... من غير إلباس
كسطوة المأمون ... من آل عبّاس
تاه واستكبر ... بالعزّ والدلال
يُخشى ويُستنصر ... من لحظه القتّال
في ثغره الأعطر ... ريق جرى سلسال

يحكي ابنه الزرجون في مبدع الكاس
لو ذاقها قارون يُرمى بإفلاس
يا أيها الواشون دأبي هو القاسي
فكيف تعجبون من دائب ساسي

وله يستعطف ويتشكّى من ميل المحبوب للعذّال :

ما اعتقادي إلاّ أجل من أن تخيب فيك الظنون
أي العوادي عادت جمل على الحبيب حتى يهون

* * *

هل من سبيل إلى الرضا بعد العدم
صبر جميل على القضا فيما حكم
شفى الغليل جمر الغضا حتى ضرم

* * *

نفى رقادي أمر جلل مني الكئيب لاقى شجون
هــذا ودادي لا يضمحـل حتى أصيب كاس المنون

* * *

إن كنت ترضى بأن يضيع دمي جبار
أو كان يحظى بك الوضيع دون استتار
فالصبر أرضى ولا أبيع عرضي بعار

* * *

ويح الأعادي راموا الخطل منك يطيب ما يشتهون
ولم تعاد ولم تقل شاة وذيب لا يألفون

* * *

الأمر لك مسترسلا في كل حال
لن أمنعك فعلاً ولا قولاً يقال
ما نصحك من عذلا عمّا تنال

* * *

أقلع فؤادي غرس الأمل كل مريب كل خؤون
الأمر بادي إلى المقل لا تستريب مرأى العيون

ومن شعر صاحب الترجمة أيضاً مادحاً الشيخ حمودة باكير – رحمهما الله تعالى :

المجد أقصى والمكارم أنجح والفخر أرشد والفضائل أربح
أبرام ريّ من صفات ما لها رشح ويترك وابل متبطح
ما في الحريق لذي الظما مستنقع أبداً ولا فيه له مترّوح
دعها بنيّات الطريق فإنما يدنيك للأمل الطريق الأوضح
وإلى الرضا حمودة بن حسين السا مي الذرى وجُه ركابك تفلح
ذاك ابن باكير الذي سمحت به الـ أيام وهي بمثله لا تسمح
فإذا تبجّح بالعَلا أحد فذا هو الذي العلياء به تتبجّح
وإذا تمدّح بالفضائل غيره فيه الفضائل كلها تتمدّح
أخذ العلوم بفكرة شرحت له ما ظنّه رب الذكا لا يشرح
المعوصات لديه تشبه غيرها والمقصد الأخفى لديه مصرح
أبداً تراه إلى المحامد جانحاً والقلب منه إلى المكارم أجنح
والعقل في فيح التدبر سائح والفكر في بحر المعارف يسبح
يلقى الأمور بحسن رأي نافذ وإباءة منها الجبال تزحزح
والعرض أبيض لم يشنه تدنس والوجه أزهر والفؤاد مفسح
فيروق مجلسه وينفع جاهه ويفيد منطقه البليغ الأفصح
كالورد يعجب منظراً ويطيب مكـ ـلوماً ويبدو منه نشرٌ أفيح
يا أيها الحبر الذي ما عنّ لي في غير جاهك مطلب أو مطمح
أملي أتاك مع المديح مشفعاً وأنا الكفيل بأن أراك فينجح
قطف الغناء سواك من روض العَلا وقطفت منه الورد وهو مفتّح

285 – أبو العباس أحمد ابن المفتي الشيخ حسين البارودي

ترجم له الشيخ محمد بيرم الثاني في كتابه **تراجم المفتين الحنفية** بما خلاصته : أنّه الشيخ الأجل والدراكة الأكمل ذو الفكر الغوّاص الذي يعجز عن غرضه كثير من

الخواص فارس المنبر والمحراب الآتي فيهما من الفصاحة وحلاوة النغمة بالعجب العجاب . وزاد على أبيه وأخيه المفتي الشيخ أبي عبد الله محمد بالشعر الرائق والنظم الفائق ، أخذ العلم عن والده وعن غيره من الأعلام كالشيخ صالح الكواش والشيخ المفتي محمد الدرناوي وإمام النحو في عصره الشيخ أحمد السويسي والشيخ محمد بيرم الأول والشيخ محمد الشحمي إمام المعقولات .

خطب صاحب الترجمة في صغره بجامع باردو نيابة عن أبيه . وولي الخطاب بالجامع الجديد ، ثم الدرس الحنفي بمدرسة الأمير علي باي ، ثم تدريس المدرسة العنقية ، ثم الفتوى والخطبة بجامع باردو بعد موت ابن أخيه الشيخ مصطفى . وسبب تأخر ولايته عنها أولاً حين مات أخوه ورام الأمير مصطفى باي إذ ذاك ولايته وولاية ابن أخيه مفتياً زائداً ، فأبى الشيخ ذلك ، وذكر الشيخ أحمد بن أبي الضياف في تاريخه أن صاحب الترجمة كان من رجال العلم والسياسة جامعاً لأخلاق الرئاسة والكرم وعلو الهمّة ووقار المجلس ، وحسن الملقاء ، وفصاحة اللسان ، والوفاء بالعهد ، وحسن الخلق ، وآداب المعاشرة ، وحب إظهار نعمة الله عليه بلبس فاخر الثياب وركوب الخيل المسومة بالسروج المحلاة إلى غير ذلك . توفي رحمة الله عليه ليلة الجمعة الثانية والعشرين من شوال سنة 1229هـ ، ودفن جوار سيدي عبد العزيز المهدوي بوصية منه ، وكتب على ضريحه قصيدة للشّيخ إبراهيم الرياحي ، نصّها :

عش ما تشاء لذاذة وحبوراً	إن القصور ستستحيل قبورا
يا غافلاً لم ينتبه لمذكّر	أفما كفى داعي المنون نذيرا
كم من رفيع في أسرّة عزّه	خفضوه في ذلّ التراب أسيرا
وبموت أهل العلم أكبر واعظ	يهدي إلى كون الحياة مرورا
وهنا اعتبر بضريح أحمدكم طوى	بمغيبه في طيه منشورا
غربت لباروديّهنّ محاسن	يا طالما أشرقن فيه بدورا
قد كان في وجه المحافل غرة	وعلى المنابر قسّها المشهورا
ولطالما قرعت زواجر وعظه	صمّا وماذا قد شرحن صدورا
أمّا إذا يتلو الكتاب فإنه	يهدي لأموات القلوب نشورا
عظم المصاب به وأحرى مذهب الـ	ـنعمان إذ لهداه كان نصيرا
ركدت رياح زئيره فكأنه	ما كان ليثاً في الرجال هصورا

إن يَمضِ فهو سبيلها ومن الذي ... كتبت له يمنى الخلود ظهيرا
لبّى المنادي واستجاب لربّه ... يرجو رضاه وفضله الموفورا
يا رب حقّق فيه قول مؤرخ: ... ألقاه وجهك نضرة وسرورا
137 34 345 713
سنة 1229هـ

ومن شعر صاحب الترجمة ما رثى به أخاه المفتي الشيخ أبا عبد الله محمد :

قفا بضريح ضمّ نور محمّد ... شقيق لبدر لا أقول لفرقد
جليل مهاب في القلوب معظّم ... إذا ما بدا فرداً على كل مفرد
فقف خاشعاً واعلم بأن مصيرنا ... إلى مثل هذا المصرع المتوحّد
وعظ واتعظ وانهض إلى الفوز بالتقى ... كما كان ذا بالبر والمجد يرتدي
هو الفاضل العلامة العلم الذي ... علمت به علماً به كنت أهتدي
محمد البارودي يا طيب محتد ... له ابن حسين سيد وابن سيد
رئيس لأهل الشرع من بعد والد ... فكان بحمد الله أكرم مقتد
تصدّر للإفتاء مذ ما بدت له ... عوارضه إذ كان أرشد مرشد
لما كان فيه من صلاة وعفّة ... وذهن منير ثاقب متوقّد
فكان بفضل الله فيه مصابراً ... على الحق يرويه برأي مسدّد
وقد كان في حسن التلاوة آية ... تحدّى بها فضلاً على كل محتد
بكته المعالي والمنابر مذ بدا ... لها نعيه وافرقتاه لمنشد
كذاك محاريب المساجد هدّمت ... ولن ترى فيها بعده من مجدد
فطبت أخي حيًّا وميتاً ومبعثاً ... وجوزيت بالقرآن قرباً لأحمد
لذاك شقيقي قلت فيك مؤرخاً: ... فنلت بقرآن جوار محمد
560 354 210 92
سنة 1216هـ

ومن شعره ما قرض به رسالة للشيخ محمد بيرم الثاني في عدم فسخ الإجارة بمَوت المؤجِّر، ونصّه :

أقبل الفجر صادقاً مستنيراً ... ودجى الليل عنه ولّى حسيرا

فبشمس الهدى أتانا بشيراً وبمَحو الظلام جاء نذيرا
فظلام الضلال أعمى تولّى وضياء الهدى تراءى بصيرا
مثل ذاك الهدى فتاوي همام في سماء العلوم يبدو منيرا
حلّ من مشكلاتها معضلات بعدما الطرف باء عنها حسيرا
كلٌ مَن أمّه ليروي علوماً عنه يلقي عليه دراً نثيرا
عالم عامل تقي عفيف صائب الرأي يافعاً وكبيرا
ذاكم بيرم محمّدٌ ابن لسميّ له الكبير الشهيرا
مثله من يكون نجل همام أي ذاك الهمام فاسأل خبيرا
ما على النجل من جناح إذا ما شابه الأصل فاضلاً أو حقيرا
فنتاج المها يكون مهاة وكذاك الحمير تلقي الحميرا
وحبوب الحصيد قوت وذخر وحصيد السباخ يُلقي حصيرا
كل من كان من كرام أصول فكريمًا تلقيه طلقاً نضيرا
ومتى كان في الأصول وضيعاً فعبوساً تلقاه أو قمطريرا
يا كريم الأصول يا خير نجل طاب أصلاك فانتشرت عبيرا
فرج الله عنك ما كان محصى ووقاكم بما صبرتم سعيرا
وجزاكم بجنة الخلد عمّا جئت بالحق ناصحاً ونصيرا
لا عدمناك للمفاخر فخراً وعماداً ودمت فينا أميرا
وبحسن الختام ندعوه رباً نرتجي عفوه عفوًّا قديرا
وصلاتي على النبي وآل كلما سامر السمير سميرا
وسلامي عليك ما أنشدونا أقبل الفجر صادقاً مستنيرا

وأجابه عن هذا التقريض صاحب الرسالة المقرَّضة بقوله :

جلَبتْ إذ بدت إلى العين نوراً وإلى القلب بهجة وسرورا
بنت فكر تسبي العقول بطرف فاتر في الفؤاد يلفى قديرا
شنفت مسمعي بصوت رخيم زاد عقلي سماعه تحييرا
وأتت من بديعها بمعان وبيان أنستْ بذاك جريرا

وكستني من نسجها ثوب مدح　　جوهرياً ولا أقول حريرا
لست أهلاً له ولكنه الحـ　　ـبّ يغطي على الحبيب ستورا
ذلك الباروديّ أحمد مَن قد　　أدرك السبق للمعالي صغيرا
طرفاه إن أرسل الطرف ولّى　　عنهما خاسئاً وعاد حسيرا
فـأبوه وعـمّـه وأخـوه　　وكذا خاله حووا تصديرا
فقهاء أجلة وهو أيضاً　　مثلهم هل ترى لذاك نظيرا
ولقد رمت أن أجيب وهيها　　ت وقد أصبح اللسان قصيرا
فتوالي السقام أخمد فكري　　وأعاد الصحيح مني كسيرا
والذي هكذا بعيد عن النظـ　　ـم وإن كان بالقريض بصيرا
فاقبلن عذره وعُدَّ قصوراً　　منه فيما أتاك لا تقصيرا
وجزاكم رب البرية عنّا　　فوق ما ترتجون منه كثيرا
بنبيّ الهدى عليه صلاة اللـ　　ـه ما عانق الغمام ثبيرا
وعلى الآل كلما قال صبّ :　　جلبتُ إذ بدت إلى العين نورا

286 – الشيخ أبو عبد الله محمد بن نصر القابسي

ذكر ترجمته الشيخ أحمد بن أبي الضياف في تاريخه بأنه نشأ في فضل وعفاف وأخذ العلم في جامع الزيتونة عن علمائه ، فحصله وبلغ منه أمله وتصدر للتدريس به ، وأصابه مرض أقعده ، فصار يقرىء بسقيفة داره في زقاق الأندلس بتونس والتلامذة يتزاحمون على درسه لحرصه على النفع ، وله مقدرة على إيصال المراد لأذهان الطلبة فتضلّعوا به . كان متقدّماً في المعقول والمنقول واسع الصدر ، حسن الأخلاق ذا عفّة وتقوى بعيداً عن التصنّع فاضلاً أديباً شاعراً . توفي رحمه الله في 18 ربيع الأول سنة 1233 هـ .

قلت : من شعره قصيدة كاتب بها الشيخ محمد بيرم الثاني يهنئه بولاية ابنه الشيخ محمد بيرم الثالث خطة الفتيا ، ونصّها :

يهنيك يا فخر الصدور سروركم　　بولاية النجل السعيد محمد
مفتي الأنام شريف أصل فاضل　　برّ تقيّ ذي عفاف سرمدي

سُرَّت بفتواه السنية تونس		فتسربلت ثوب الفخار الأمجد
وكذلك الفتيا قد افتخرتْ به		فخراً سما فوق السماك بمقعد
زان المنابر بالفصاحة واعظاً		وعظاً يليّن كل قلب جلمد
تاج الأصول به الفروع توشّحت		جمع الجوامع للمعاني الشرّد
درر النوازل مَجمع لعيونها		كشّاف معناها القصيّ المورد
صدر الشريعة رافع لمنارها		كنز العلوم ذخيرة المستورد
فن البلاغة حاز قصب السبق في		تبيان غامضه الشرود الأبعد
علم المعاني غاص بحر بيانه		فأتى بدرّ بديعه المتوقّد
والنحو من توضيحه الأسمَى له		يصل الذكيّ مع الغبيّ الأبلد
فلذاك لو حضر الخليل بدرسّه		أثنى عليه ببحر علم مزبد
أو سيبويه يقول حاضرَ درسه		لله درك من ذكي مرشد
وكذا المبرّد لو آتاه معارضاً		ألقى السلاح وقال أنت مبردي
إن العلوم إذا تسابق أهلها		فهو المجلّي ذو الجواد الأجود
من رام علماً منه صادف منهلاً		عذباً نميراً شافياً غُلّ الصدي
هذا فسرُّ أبيه صدَّق قولهم :		الليث يسري طبعه للفرهد
يا من تسربل بالفضائل والتقى		وفواضل شاعت شيوع الفرقد
اشكر إلٓهك إذ حباك بنعمة		صنو سنيّ في حياتك مرشد
لا زلت في فلك النوازل بدرها		تشفي غليل السائلين الوُرّد
والله يبقيكم لنفع عبيده		في ظل عافية وعيش أرغد
ويديم ربّي عزّكم حتى ترى		في صنو نجلك ما يسرك سيدي
والله يحشر جمعنا في حزب من		قد أخلصوا في الله محض تودّد
بالمصطفى خير الأنام محمد		السيد الأزكى الشفيع الأمجد
صلّى عليه الله ما قد فتّحت		ريح الصبا أنوار غصن أملد

ومن شعره أيضاً قصيدة هنّأ بها قاضي الجماعة بحاضرة تونس الشيخ العلّامة عمر المحجوب بولاية الإمامة بجامع الزيتونة ومنصب القضاء غير أني لم أظفر منها إلّا بهذين البيتين وهما :

وأخاف مَن هو ثوبَ علمٍ لابسٌ		وأَضلُّ من توما الحكيم إذا قضى

ما زال بي التشويش حتى قيل لي   وليَ الإمامُ الألمعي المرتضى

ومن شعره أيضاً قصيدة أخرى أرخ بها ولاية الشيخ محمد الأصرم خُطة باش كاتب ، ولم أظفر منها إلّا بالمصراع المتضمّن لتاريخ تلك الولاية ، ونصّه من خط الكاتب الشيخ علي الحداد (عزّ الوزارة توج بمحمد) .

ومن شعره معاتباً العلّامة الشيخ سيدي حسن الشريف :

يا فاضلاً حاز الفخار ذكاؤه   فله بحلّ المشكلات تكفُّل
لا زال ربع الدرس مأهولاً بكم   ولكم بنشر للعلوم تجمل
أغمد سيوف الصد والإعراض عن   خلّ وفيّ ما اعتراه تنقل
ثم السلام من أربعين وخمسها   مع أربعين وعشرها لا يبطل
مـــــحـــــمـــــد

عنى بهذه الأرقام المتضمّن لها هذا البيت الأحرف المقابلة لها بحساب الجُمَّل المتكون منها اسم صاحب الترجمة قائل البيت وهو (محمد) ثم قال :

يهدي لسيدنا الذي أعنيه في   نظم بديع بالمحاسن يرفل
من سدْس عشر الثاني ضعف لثلاثة   أخماس سدس العشر الأول يحصل
وانسب لآخر أولاً أيضاً وقل   أخماس أرباع لخمس يأفل
والسدس من ثان أخير ثم في   حسن به صدر المفاخر يكمل

هذه الأبيات يشير بها إلى اسم الشيخ سيدي حسن الشريف وهو «حسن» فأجابه سيدي حسن الشريف بقوله :

لك في المعالي المكرمات الأوّل   وسواك من تلك المآثر أعزل
ولمثلك الهمم التي أدنى مرا   تبها لها فوق الثريا منزل
ذو راحة قد كنت أحسب أنها   غيث ولكن هذه لا تمحل
حبر إذا جالت قرائحه على   حلّ العويص أطاعهن المشكل
أوجفت خيل ملامة نحوي وقد   سلسلت عتبك وهو عذب سلسل
فطربت لما أن تضمن ذكركم   وودّدته لو هو من ذا أطول
إني لعمري ما تركت زيارة   لك من جفا أو كنت عنها أعدل
لكنّ ذاك لكثرة الكلف التي   قد أذهلت يا ليت عذري يقبل

أتظنّ أن أسلو ولو كاشفتَ عَن ... ما بالضمير ظننتَ بي ما يجمل
ورأيتَ فيه من الوفاء لكم من الـ ... ـمثل الذي ضربوه حق أمثل
فعزمت في يوم الخميس أزوركم ... وأنال من لقياكم ما آمّل
لا زلت في أفق العلى قمراً به ... هدي البرية ما ترّنم بلبل
وعليك أزكى تحية يا ذا العلى ... ما صافحت أيدي الحدائق شمأل

287 - الشيخ أبو عبد الله سيدي حسن ابن سيدي عبد الكبير الشريف الهندي الأصل

نشأ هذا الجهبذ في بيت شرف رفيع العماد ، وبركة في البلاد ، فأخذ العلم عن علماء عصره ، وأساطين مصره ، فرفع راية التحصيل ، بذهن ثاقب وفكر أصيل ، حتى أصبح من أفراد زمانه ، وغرّة في علماء أوانه ، فتصدّر للإفادة . واشتهر في العلوم بالتحقيق والإجادة . له اليد الطولى في الشعر والنثر حتى أولاه الأمير حمودة باشا كاتب إنشاء . وكان أول يوم كتب فيه بمجلس الأمير حرّر منشوراً . فلما فرغ منه أخذه منه الشيخ حمودة بن عبد العزيز كاتب السر إذ ذاك فسأل صاحب الترجمة عن علامة جزم فعل أمر معتلّ وقع في المنشور ، فأجابه فقال له : نحمد الله أن ما أقرأتك من النحو لم يذهب سدى وهي مسألة ضرورية للمبتدئين من الطلبة ، غير أنه أراد إعلام الأمير أن صاحب الترجمة من تلاميذه ، ومن يومئذ ظهرت عليه مخائل الغيرة منه حتى غصّ به . فيقال : إنه احتال فداخل بعض خدم صاحب الترجمة فاختلس من جيبه أوراقاً دولية سرية ، فأطلعه عليها وأمكنته الفرصة بها لإفساد الأمير عليه بدعوى إفشاء سرّ الدولة ، فقال للأمين : ما بال أسرار الدولة تتحدث بها العامة ولا يعلمها كاتب سرك ؟ بلغني أن أتباع صاحب الترجمة يتحدّثون بكذا وكذا ، فراج على الأمير ، فأخره عن الكتابة وأراح الله صاحب الترجمة منها لما أراده من انتفاع الناس بعلمه وجعله إماماً يقتدى به ، فرجع إلى بثّ العلم . فأخذه عنه الجم الغفير ، ونتج من تلامذته الجهابذة الأعلام وانتفعت به طبقات .

يحكى عنه من حسن الأخلاق ولين العريكة ما لا يستغرب في صدوره منه إذ من شأن تلك البضعة النبوية والعترة العلوية ذلك .

ولي خطابة جامع الزيتونة بعد خروجها عن البكريّين ، ثم الفتوى المالكية سنة 1230هـ .

ومن تآليفه **حاشية على قطر الندى** ، وأخرى على **لامية الزقاق بشرح الشيخ ميّارة** ، ومجموع في الأحكام سمّاه **معين المفتي** لم يتمّمه ، والموجود منه عظيم النفع ، وله ديوان خطب . توفي سنة 1234هـ في 28 ذي القعدة .

ومن نثره وشعره ما قرض به رسالة للشيخ أبي عبد الله محمد بيرم الثاني رئيس المفتين الحنفية ، وأظنها التي في رجوع الوصي ، ونصها :

«حمداً لمن أقام لتبيين أدلة الشريعة أقواماً ، ونصب لتوضيح مشكلاتها أعلاماً ، وصلاة وسلاماً على من قدّرها أكمل تقدير ، ثم على ملقيها من جاء في الزمن الأخير . وبعد فقد وقفت على هاته الرّسالة التي يرحل إليها ، والفوائد التي يعوّل في بيان المعاني الغامضة عليها ، والفوائد التي لا يلتفت إلى ما خلفها ولا يقبل إلاّ على ما بين يديها ، وتأملتها بعين الإنصاف ، ولحظت ما اشتملت عليه من محاسن الأوصاف ، فوجدت لسان التحقيق قد نطق بفضلها ، وحاكم الانتقاد قد قضى برفعة محلّها . ورأيت نقولاً لا سبيل لصرفها عن الصواب ، وأسئلة يعجز عنها فتح باب الجواب ، وأبحاثاً قد شهد ميزان الاعتبار برجحانها ، وصدق الاختبار بفضلها عند امتحانها ، ومسائل قضاياها محفوظة عن النقض . وأبكار مزاياها محروسة عن الفتك والفض ، وتصاريف إلاّ عن الإجادة مصروفة ، وبمَنع الموانع معروفة موصوفة . فدلّت على جودة جواد فكر منشيها . وآذنت بصولة أنظار مبدعها ومبديها . وأنه مفرد العصر . وعلامة هذا المصر . فللّه ناظم عقودها ، وراقم برودها . فقد جلى عليها للأبصار ما شاء من زين ، وجلّى عن البصائر ما شاء من رين . ما تصدّى فيها لبحث إلاّ بيّنه غاية البيان . ولا وجّه جياد آرائه إلى غاية إلاّ كانت منطلقة العنان . فيا لها من غرر مجد في وجه الزمان ساطعة . ودرر فضل في جيده لامعة» .

سرت غرراً تزري من الحسن أنجماً ... وعن درّها ثغر العلوم تبسّما
عجبت لها في جنح ليل تطلعت ... وما أسندت إلّا إلى الشمس منتمى
عقيلة فكر قلد الحسن جيدها ... وصاغ لها حلياً وعقداً منظما
أبت أن تجوب الترب عنه ترفعاً ... فما وطئت إلّا بدوراً وأنجما
وضاعت بأذن الدهر شنفاً وأشرقت ... محاسنها في الثغر منه تبسّما
وجرّت ذيول التيه عن حافل الربى ... فأزرت بأزهار الرياض تنسّما
بأي حجى صيغت فقد أعجز الحجى ... وأفحم معناها الفحول تفهّما

ترنم إعجاباً بها الدهر ناطقاً | وأعرب حتى قيل ما الدهر أعجما
أبان لسان الحق فيها رسوخه | وأفصح فيها العلم عنه مترجما
يراها فيزري ذو العلوم بنفسه | ويقسم جهراً أنه ما تعلّما
فلو كان للغيب المكتّم سلّم | لكانت لما استخفى من العلم سلما
بني العصر أخلاقاً فمن كان قبلكم | ومن بعد يأتي لو رآها لسلّما
قد استخلفتها الكتب في العلم كله | كما استخلف النعمان في الفقه بيرما
رسالة محمود المقام محمد | لحق على إعجازها أن تسلما
مقدمة إذ قدم الله ربها | محكّمة إذ كان هو المحكّما
ولا غرو أن كان الأخير فإنه | إذا ذكر الأعلام عُدّ المقدمّا
فتى كرمت آباؤه وجدوده | فهم من همُ في الفضل منه لآدما
إليهم أوى علم الشريعة لائذاً | بهم والتقى فيهم أناخ وخيّما
ولا مثل مأثور الكمال محمد | هدى وجَدا أو عزّة أو تكرما
إمام به الفتيا أطيل عمادها | وأرسي حتى جاوز الأرض والسما
حمى الدين إفضالاً به الله إذ حمى | به حرم الإسلام واعتزّ واحتمى
بأسرع من لبّى وأدفع من حمى | وأنفع من أسدى وأرفع من سما
وأعظم مقداراً وأقدم مفخراً | وأفخر آثاراً وأعلى وأعلما
تذكرك النعمان غرّ علومه | وآدابه تنسي الوليد ومسلما
تتي لو ألقى جملة من عظاته | على كافر من حينه عاد مسلما
ولو ميّت جهل أمّه لأفاده | حياة وما أمّ المسيح بن مريما
إليك انتهى التحقيق في العلم وانتهى | إلى كل فضل من إلى علمك انتمى
أرى كل ما ألفت معتنياً به | من الناس من عانى العلوم وعلما
ولو كان مسبوقاً لما افتقروا له | وكم زائد علماً على من تقدّما
فخلدت من غيث من العلم نافع | متى خص غيث عم أو ضنّ أنعما
ولا زلت في كل المعالي نهاية | وغاية من عاداك حطّ إذا سما

ولا غرو في كونه في التحقيق كعبة يحج إليها . وللتدقيق عمدة يعول عليها . إذ قد انتهى في المعارف إلى أقصى أمدها ، وكرع في بحرها لأثمدها ، وملك أعنتها ، وقاد أزمتها ، فعلا قدراً ، ولاح في سماء السناء بدراً ، وصار لأولئك الصدور صدراً ،

وبالجملة فلسان القلم في وصفه ومدحه قصير ، ومن أتى بأبدع مقال فإنمّا هو آت بيسير . قاله بفمه ، وزبره بلسان قلمه ، العبد المتسربل بسرابيل الخطايا والأوزار ، الراجي للتنصل منها رحمة العزيز الغفار ، فقير ربه اللطيف ، حسن بن عبد الكبير الشريف ، أصلح الله حاله ، ونعم بالتقوى باله ، وبلغه من متابعة السنة المصطفوية آماله ، آمين ا هـ .

وكتب مخاطباً رئيس الكتاب أبا عبد الله الشيخ محمد الأصرم بعد افتتاحها بما يليق من الثناء عليه :

أما بعد فإني أنهي إليك ، بعد السلام عليك ، أن جملة من طلبة الكاف أتوني باكين ، ومن قبح سيرة عاملهم شاكين ، فذكروا عنه أخباراً ردية ، وأفعالاً غير مرضية ، من شتمه للدين ، وإذايته الأولياء والصالحين ، وجوره على برية ربّ العالمين ، خصوصاً الطلبة فإنه قد جرى في الإذاية بهم طلق عنانه . وسرى إلى ما شاء من عدوانه ، حتى أنه جعل على كل طالب مائة ريال ضريبة ، ومن امتنع سجن وعذّب بأنواع غريبة . فأبكوني والله ، وكل من حضر ، وقلنا يا لله لجانب العلم قد اندثر ، وصار برمى لكل غرض ، مع أن تعظيمه ملتزم مفترض . وقد شكوا للأمير فلم يزل شكواهم ، ولا التفت لقصدهم ومرماهم . وخافوا إن رجعوا إلى الكاف ، أن يوقع بهم موجبات الإتلاف ، فقصدوا حماك المنيع ، ومقامك الرفيع ، الذي هو بعد الله العمدة العظمى ، والملجأ الأحمى ، في كتب ورقة له تأمره فيها بتأمينهم ، وعدم المعاقبة على شكواهم وجريتهم . وهذا الجانب منسوب إليك ، وعدم الذب عنه محسوب عليك ، وإلى ظل فضلك استنادهم ، وبمحجة نصرهم يرتفع عنادهم ، والله جلّ جلاله يبقيك لهم حائطاً ، وللعدل فيهم باسطاً ، حتى لا يكون فيهم من يضام ، ولا ينال أحدهم باهتضام ، ويجعل لك المآثر التي تتلى ، والمفاخر التي لا تبلى ، وقد كتبت هذا لأخذ خواطرهم عجلاً ، ومن جنابك خجلاً ، والأعذار فضلك يقبلها ، والأمور مثلك من يتأملها ، والسلام ا هـ .

فانظر واعتبر أيها الواقف على هذا المكتوب .

ونصّ طالعة مكتوب آخر بعد فاتحته :

وبعد ، فإني أنهي إليك ، بعد السلام عليك ، وتقبيل الكريمتين يديك ، والقيام

بالحق الواجب لذيلك ، أن الفقيه النبيه الخير النزيه ، أبا الحسن علي الشريف شيخ الطريقة العيساوية قد لازم العبد مدة مديدة ، في علوم عديدة ، حتى ظهرت نجابته ، وعرفت من الطلبة مكانته ، وهو مع ذلك ممن أصلح الله حاله ونعّم باله ، إلخ .

288 – الشيخ أبو الفضل قاسم بن كرم الشريف

كان عالماً سرياً ، درّاكة وحيداً ، فاضلاً أديباً ، وشاعراً مجيدا. تفرّع عن دوحة مجد وصلاح . بذلك ترجمه الوزير ابن أبي الضياف في تاريخه ، وقال : إن له مشاركة علمية وتحصيلاً في الفنون الأدبية ، وإن شعره معروف بين الأدباء بالحاضرة ، وإنه كان ذكياً فصيح اللسان ، بليغ البيان ، لم يزل على حسن حال ، يتدرّج في سلم الكمال ، إلى أن توفي في صفر من سنة 1234هـ ودفن في زاوية جدّه المعروفة رحمة الله عليه اهـ .

وذكر غيره في شأنه أنه كان مغفّلاً ، يحسب أنه عالم بحق مع أنه منسوب إلى العلم ليس إلّا

من شعره يهنيء شيخه العلامة سيدي حسن الشريف بالبرء من مرض ألمّ به في سنة 1226هـ هذه القصيدة :

بشرى فذا بارق الأفراح قد ومضا	وأشرق الأنس وانجاب الأسى ومضى
بالأمس كان الضحى كالليل حين دجا	والآن أضحى الدجى مثل النهار أضا
أبدت محاسنها الدنيا وزينتها	للناظرين وأمست للمُنى غرضا
وافى السرور ووفى الأمن موعده	والحمد لله أنْ دهر الأسى انقرضا
فهذه أنعم لله عمّ بها	كل العباد فكان الشكر مفترضا
إذ الرضا الأشرف الأسمى الهمام أبو	محمد حسن من سُقمه نهضا
ذاك الذي شرّف الله العباد به	فصاغه جوهراً مذ صانه عرضا
فلم نجد منه بدّاً لا ولا بَدَلاً	فيهم ولم نلف عنه منهم عوضاً
علا على طائر النسرين مرتفعاً	إذا نراه جناحاً للورى خفضا
مولى إلىٰ اللهو لم ينفضّ قط	ولكن من يديه أماني النفس قد نفضا
وحفظ الله في سرّ وفي علن	وما ثنى الجيد عن كسب الثنا حفضا(1)
هو المعاني مع فرط الحجى وبه	طرف العَلا في بحار الجد كم ركضا
يا أيها العلم الأعلى الأجلّ ومن	له بكل كمال ذو الجلال قضى

(1) كذا .

فكان أكرم مخلوق وأشرف من مشى على الأرض أو من حُبّي فضاً ومضا
شفاك ربك من داء الجهالة يشـ ـني العالمين وثوب السقم عنك نضا
شفى بصحتك الله العباد ومن في قلبه مرض قد زاده مرضا
يهنيك يا سيدي هذا الشفاء وإن كان به أبداً شانيكم جرضا
إن غض شانيك طرفاً عن سناك فلا غرو فذا النور نار للبغيض غضا
تالله ما ضرّكم آل النبيّ سوى مضلل تائه عنه الهدى رمضا
تفديك من كل مكروه نفوس فتى سرّ الإلّه عليه حبكم فرضا
كم أبرأ البرء من صدر وأثلجه وكان قيلاً يحاكي حره الرمضا
أحيا النفوس وأبرا البؤس طالعه يا حبذا فرج منه الضنا حبضا
يا أفضل الناس لكن ليس أفضل للتـ ـشريك فافخر بفضل ليس معترضا
وابسط يمينك كي تشفى الشفاه بها يا من علا المجد والعليا بها قبضا
لا زلت ملجأ ذي الجلّى إليك على أن ليس إلّاك إن ما حادث نقضا
وكم أمطت أذى في العين كان قذى وفادحاً جللا جلّيت إذ بهضا
إليك حجّ ذوو الحاجات وانصرفوا وكلهم وطراً ممّا يروم قضى
كذا لكل المهمات الهام فلا سواك أمراً أهم المرء إذ عرضا
بنيت للدين والدنيا بناءهما يهدي إليك لنيل الحامل الغرضا
قد أقرض الله قرضاً عنده حسناً من في محاسنكم شعراً له قرضا
حق علينا لكم حق الوفاء به وحقّكم ليس من أوفى كمن نقضا
ألست سبط النبيّ المجتبى كرماً من خالص النصح كل الخلق قد محضا
صلّى وسلّم مولاه عليه كما يحبه وعليهم مع مزيد رضا

ومن شعره أيضاً في رثاء العلّامة الشيخ حمزة الجباس إمام العربية في عصره رحمهما الله تعالى :

أمّا الحياة فتلك ظل زائل تخفي الشموس وكلّ بدر آفل
طوبى لمن طابت يقيناً نفسه فاختار أخراه وذاك العاقل
هذا أبو يعلى المعلّى حمزة الـ ـجباس أستاذ الأنام الكامل
قد أبعد الدنيا الدنية إذ دنا من ذي الجلال فنال ما هو آمل

فهو المتوج منه بالرضوان تشـ ـريفاً وفي حلل السعادة رافل
مولى بتقوى الله مغرى قلبه وبعلمه والله يشهد عامل
أنسى أناساً في الذكاء وعنده سحبان وائل في الفصاحة باقل
يبدي بسلك الدرس كل نفيسة ما إن لها من ناقد بل ناقل
يبدي لمنتجع الهدى غيث الندى ويشيم برق السُّؤل منها السائل
درست ربوع العلم بعد دروسه والروض يبلى إن عداه الوابل
فلطالما أجلى دجى جهل كما ينجاب بالحق المبين الباطل
وتحلّت العليا بعقد وجوده واليوم جيد المجد منه عاطل
ولذاك لما أن مضى أرّخته : مات الرضا الملجا الهمام الفاضل

289 – الكاتب أبو عبد الله محمد قلالة القيرواني

نشأ بمدينة القيروان ، وعن علمائها أخذ العلم ثم انتقل إلى الحاضرة التونسية للاستكمال بالأخذ عن علماء جامع الزيتونة الأعظم ، ثم رجع إلى القيروان بعد أن تفنن في العلوم ، وملك أعنة الكلام ، من منثور ومنظوم ، فأقام ببلده يتعاطى صناعة التوثيق ، ثم استدعي من قبل الأمير حمودة باشا لمُباشرة خطة الكتابة ، فقام بها أحسن قيام : فقربه الأمير إليه من أجل ذلك . قال الشيخ أحمد بن أبي الضياف في شأنه : إنه كان عزيز النفس ، أبيّ الضيم ، عالماً أديباً ، كاتباً شاعراً ، وشعره محفوظ ، وبعين العناية ملحوظ ، منه قصيدة جمع فيها مآثر مخدومه الأمير حمودة باشا وأخرى في الشيخ سيدي إبراهيم الرياحي ، توفي رحمه الله ليلة الأربعاء الخامس والعشرين من رجب سنة 1237هـ .

من شعره ، وكتب به إلى الشيخ محمد الأصرم الوزير رئيس الكتّاب والباش كاتب لاستدرار أدبه ، وهو إذ ذاك في حال صباه باقتراح من صديق صاحب الترجمة أبي عبد الله الشيخ محمد الأصرم والد الشيخ محمد الأصرم المذكور ليتضح لديه مكانة ابنه في صناعة الأدب . فكتب إليه :

يا من سمعنا له حرصاً على الطلب وفكرة تعتني بالشعر والأدب
وأنه ينشيء النظم البديع على طريقة الفصحا الأولى من العرب

وليس ينكر فيك الفضل متسّقاً ... ولا صدور اللآلي منك بالعجب
وجدّك الأصرم السامي له غرر ... في النظم والنثر حازت أرفع الرتب
فما ظلمت إذاً أن جئت تشبهه ... وما سطا ولد قد حاز فضل أب
لكننا ما رأينا من نظامك ما ... رؤياه تهدي إلينا غاية الطرب
وقصدنا أن ترينا منه أحسن من ... حصباء درّ على أرض من الذهب
يكون في بحر هذا النظم مقتفياً ... بمثله في التقفي واضح السبب
وحلّه كأس ودّ بالبديع إذاً ... كما يحلى شراب الكأس بالحبب
ودمت بالفضل والإحسان متصفاً ... تهدي إليك المعالي غاية الأرب

وقد أجاب المخاطب بقصيدة مذكورة في ترجمته كما يأتي .

290 - أبو عبد الله محمد سيالة شهر الحكيم الصفاقسي الأصل

من بيت مجد قديم ، ولد بتونس ، وبها نشأ في عزّ متأصّل ، فطلب العلم عن أعلام زمانه ، فامتطى صهوة التحصيل . وكان ولوعاً بالعلوم الرياضية حتى لقبه شيخه أبو عبد الله محمد ابن الشيخ قاسم المحجوب بالحكيم ، تصدّر للتدريس بالجامع الأعظم ، فنثر اللآلي ، وتسنّم ذروة المعالي . ثم اجتذبته الخدمات الدولية ، فسافر مع أبي عبد الله محمد خوجة إلى لندرة وغيرها من بلاد أوروبا في مصالح دولية ، فحمدت صحبته ، وشكرت خدمته . وكان يجالس الأمير حسين باشا فيستفيد منه . أولاه مشيخة مدرسة باردو ثم سامر الأمير أحمد باشا ، وكان خيّراً ، حلو المحاضرة ، حسن العشرة ، نزيه النفس ، أصيل المروءة ، تقيّ العرض ، سلم الناس من يده ولسانه ، له تاريخ وشعر حسن . توفي في شعبان سنة 1247هـ .

ومن شعره يهني الأمير حسين باشا وقد شفي من مرض :

زهو ومهرجان وموسم جديد ... براحة الهمام حسين السعيد
شفاؤه سرور ... وبرؤه نجاح
وأمره خطير ... في العدل والصلاح
تمّت به الأمور ... واستحكم الفلاح

ضحى به الزمان عيداً وأي عيد فالسعد في انتظام والخير في تجديد
ما أنسى لست أنسى مذ شفته يسير
يبدي هَنا وأنسا والوجه مستنير
فطبت منه نفساً وناظري قرير
مولى لنا أمان برأيه السديد لا زال في احترام ورأيه حديد
لله أي شمس يسعى بها فرس
تفديه كل نفس ودام في حرس
وفي زهو وانس سناه يقتبس
لدهره ازديان بخلقه الحميد ومن رضى الإمام الوالد الرشيد
يا أيها المفدّى قم واركض الجياد
وصل بمن تعدى بالطعن والجلاد
فالله جلّ شدّا برأيك البلاد
لله منك شان سامي الذرى بعيد والملك في نظام كالجوهر الفريد
فضحت بالمناقب أملاك ذا الزمان
فالجور منك راهب والعدل في أمان
حباك خير واهب باللطف والحنان
وملكك امتنان جدوى لمستفيد والرأي في احتكام على الورى شديد
ما أنت غير رحمة للناس والبلاد
والعدل منك نقمة لطالب الفساد
فاضت عليك نعمة قد عمّت البلاد
فالدهر لا يصان إلّا بما تريد والظلم في انصرام بعدلكم يبيد
يا باهر الشمائل يا كامل الصفات
أحييت للفضائل أمواتها الرفات
والكف منك نائل هام على العفاة
بعزمكم يهان عدوك العنيد والضد في انخزام مقطّع الوريد
ما إن لكم نظير في الباس والسماح
وجه عليه نور يحاسن الصباح

والصيت مستطير يسري مع الرياح
أوانكم أوان زاه بكم نضيد وأنت في اتسام بالمال والعديد
لا زلت خير عون كالشمس مستنير
ودمت أي ركن لكل مستجير
ما قال من يهني في المطلع الغرير
زهو ومهرجان وموسم جديد براحة الهام حسين السعيد

291 – الشيخ أبو عبد الله محمد بيرم الثاني التركي الأصل من أبناء الجند

ولد هذا الإمام في 16 ذي القعدة سنة 1162هـ، في بيت علم ومجد ، فطلب العلم عن أعلام قطره ، حتى انهل وابل قطره ، وتزين به عقد عصره ، فطلع شمساً ، واقتعد ذروة المعالي القعسا ، فتدفقت حياضه ، وأزهرت بالمعارف رياضه . كرع من معين دروسه النحارير ، ونفقت به سوق التحقيق والتحرير ، وتعطّرت بذكره النوادي ، وحدا بثنائه الرائح والغادي . حاز فضيلتي العلم والتقوى ، فكان يأوي منهما إلى الركن الأقوى ، يوسم ببلوغ درجة الفتح ، واقتعاد أرائك ذلك الصرح . ولي القضاء مرتين ، استقال في أولها سنة 1193هـ ، ثم وليها سنة 1194هـ في ربيع الأول . وولي نقابة الأشراف بعد وفاة الشيخ عبد الكبير الشريف لانتساب صاحب الترجمة في آل البيت من جهة أمه وذلك سنة 1206هـ، واستقال بمكتوب على لسان خطة القضاء ، فلم يقله الأمير حمودة باشا إلى أن توفي والده عن رئاسة الفتوى . وكان يعبر عن صاحبها بالمفتي الأول . فقلّد خطة الفتوى عوض والده سنة 1215هـ . وكان ابتلي بموت أولاده وأمهم في الطاعون الجارف سنة 1199هـ . فصبر الصبر الجميل . وله في ذلك أشعار يبكيهم بها ، وكان مهيباً وقوراً ، هيناً ليناً ، رقيق القلب ، واسع الصدر ، محبباً إلى الناس يتبركون به .

وله محررات علمية منها رسالة في بيع الوفاء ، وأخرى في رجوع الوصي عن وصيته بعد اشتراط عدم الرجوع ، قلّد فيها المذهب المالكي ، قرضها أعيان علماء عصره ببلده . وله منظومة في الهلال ، وأخرى في المفتين على مذهب أبي حنيفة رحمه الله منذ دخول

الترك إلى تونس إلى زمنه ، وشرحها وترجم فيها لنفسه ، وأخرى في سلاطين آل عثمان إلى زمنه : وقفت له على حاشيته على شرح الشيخ قاسم بن قطلوبغا على مختصر المنار لابن حبيب الحلبي المتوفى سنة 808هـ . فرغ من تأليفها في 5 ثاني الجمادين سنة 1226هـ ، إلى غير ذلك من التآليف . وكان أديباً شاعراً ، وترجمته أوسع مما ذكرنا . توفي في 16 جمادى سنة 1247هـ . ومن شعره يشتكي من خطة القضاء شأن أهل الورع المشفقين على أنفسهم :

أظلمة همي هل لليلك من فجر ... وهل يستحيل العسر منك إلى اليسر[1]
ويا نجم إسعادي متى أنت طالع ... فأستقبل الآمال باسمة الثغر
وأبصر من نفسي سراحاً من القضا ... وإطلاقه من بعد ما طال بي إسري
إذا شئت أن أسعى سعيت وإن أشا ... سكوناً لزمت البيت كالطير في الوكر
ولا عين ترعى لي حضوراً وغيبة ... من الناس لا زيد الزمان ولا عمرو
فذي منية إن نلتها لا حرمتها ... فمّا بعدها ذنب يُعدّ على الدهر
وما لذّة في هذه الدار عادلت ... بميزان عقل راحة الجسم والفكر
وذا إن يكن لا شيء في محنة القضا ... سوى التعب الجسمي والشغب الفكري
فكيف ويا لله ما سامني به ... هموماً توالت ضاق من هولها صدري
يخيل لي أني على الضعف حامل ... لأعظم طود في الجبال على ظهري
أعان عليه حسن صبري مدة ... وعند امتداد الأمر أسلمني صبري
ولمْ لا وظني أنه الشر كله ... وما فيه خير عند ذي فطنة حر
فإن قلت فيه الرفع للقدر وهو لا ... يرى حاصلاً إلّا من المسلك الوعر
فنعم أن هذا ليس ملحظ ذي تقى ... وإن كان في أهليه كالواو في عمر
على أنه كالشمس لم يقترن بها ... سحاب فيرخي دونها حجب الستر
وأنّى له بالرفع والعرض عرضة ... لنهش ذوي ناب وقرض ذوي ظفر
غدا جيفة لكنها مستلذّة ... فما عيب منها الأكل يوماً من الدهر
وتَمزيقه في الناس ليس بمُنكر ... فهل يرتجى عن ذاك نهي أولي الأمر
ويكفي لنفي الرفع مسألة غدت ... لدى كل نحوي مكررة الذكر

(1) يستحيل : يتحوّل - .

هي الرفع في القاضي ثقيل ومثله يقدر إذ إظهاره غاية النكر
ولم يختلف في النقص فيه كلامهم وما أبعد المنقوص عن رفعة القدر
وإن قلت فيه الأجر وهو لذي الحجى هو الغرض المقصود بالسعي في العمر
فنا لا تغالط للذي باع نفسه من الله في الإعزاز للحق والنصر
وليس يبالي كيف كان تلافه على الحق هل للجنب منه أو الظهر
وذلك في ذا العصر عنقاء مغرب فلا ترج ترويج الخداع على فكري
فإن فساد العقل مني ما سرى إلى العقل حتى أجعل الترب كالتبر
وإني لراض بالكفاف فلا أرى لذلك نفع الأجر أو ضرر الوزر
فعفواً إلّهي عن جميع جرائمي فإنك بالمكنون في خلدي تدري
وأحسن خلاصي منه مولاي قبل أن تسير بي الحدبا حثيثاً إلى القبر
بحرمة خير المرسلين محمد شفيع الورى المقصود في كربة الحشر
عليه صلاة منك ما هبّت الصبا على دوحة من جوفها غرد القُمْري
وبالآل والأصحاب عمّهم الرضى وبالأولياء المجتبين ذوي السر

وله ليلة الميلاد يَمدح الجناب الرفيع عليه أفضل الصلاة والسلام :

إيه عن ليلتنا يا قمر أنت مني بحلاها أخبر
إيه عنها بحديث مسهب ليس فيها يستجاد القصر
نقحّنْ في وصفها اللفظ فما ناسب الياقوت إلّا الجوهر
ليلة قد سمح الدهر بها فذَّةٌ ما عَوّدُها ينتظر
ليلة الميلاد للنور الذي في وجوه الدهر منها غرر
يا لها من ليلة هب بها في فجاج الأرض مسك أذفر
يا لها من ليلة نمّت بها نفحة قد طاب منها العنبر
يا لها من ليلة ماذا بها نال من يُمن الأمان البشر
ترقص الأفلاك فيها طرباً والنجوم الزهر منها تنثر
إذ بدت طلعة مصباح الهدى طيّب العنصر ذاك الأزهر
فاعترى للكون من طلعته ما اعترى فيه البليغ الحصِر(1)

(1) الحصِر : العي — .

أي فخر قد حواه العَفَر حين قد حاذاه منه الظفر
تتمنّى جنة الفردوس أن حلّ فيها منه سعد أكبر
والذي سكن ما قد نالها بعد أن كادت به تنفطر
إنه يعرج في الإسرا لها راقباً فيها رقياً يبهر
ليلة ما ليلة قد أسفرت عن صباح قدره لا يقدر
سطعت أنوار آيات الهدى فيها أسرارها لا تنكر
إذ بدا صلّى عليه الله ما مسّ من قد ولدته كدر
طاهراً نحو السماء رافعاً رأسه يتلوه منه البصر
هكذا المفطور عن مرقى العلى لا لما دون حماها ينظر
إن يكن تاغى إلى بدر الدجى فهو الشمس وذاك القمر
وتبدّى الشام للشفّا وما كل طرف مثلَ هذا يُبصِر
واعترى الفرس التي لا فوقها في وجوه القوم منها قسر
حيث من إيوان كسرى سقطت شرف كسر بها لا يجبر
وغدا الوادي ولا ماء به ما له ليس عليه خبر
وأتى للنار ما أخمدها بعد ألف من سنين تسعر
كيف بالنار إذا قابلها منبع الأنوار أنّى تظهر
أيها القوم ألا فاستمعوا للذي عنه سطيح يخبر
وأتتهم منذرات جمّة غير أن القلب منهم حجر
فلذا لم تنفع الذكرى وهل عن جماد القلب تغني النذر
هذه الفال وما أعظم ما فاله هذا فظيع النكر
يا نبياً عظمت آياته أصغر الآيات فيها أكبر
وأتى والكون في ظلمته فغدا وهو الصباح النير
وامتطى ظهر البراق وارتقى دَرَج المعراج فهو المنبر
ورأى الكبرى من الآيات ما كذب القلب وزاغ البصر
هذه جهد المقل قد أتى لك من تقصيره يعتذر
فاقبلنها منه فالفضل الذي لكم تقصر عنه الأبحر
وأنله منك محبوب الرضى فهو الجنة وهو الكوثر

فعليك الله صلّى ما بدا   في بهاء يتجلّى القمر
وعلى آلك والأصحاب من   عـزّروا ووقّروا ونصروا
كلما أنشد في ميلادكم   إيه عن ليلتنا يا قمر

ومن نظمه قوله ناسقاً سنده في صحيح البخاري :

سند هذا العبد في البخاري   عن والدي صين عن الأكدار
قراءة لبعضه والبعض قد   أجازني فيه بوجه معتمد
وهو روى عن شيخه الماكودي   عن الحريشي العلم المقصود
عن شيخه الفاسيّ عبد القادر   عن عابد الرحمان ذي المفاخر
عمّ أب له عن القصار   عن شيخه خروف النظار
عن شيخه الفخر سقين العاصمي   عن زكريا الفذ ذي المكارم
عن حافظ الدنيا الإمام ابن حجر   لعسقلان الفخر إذ منها ظهر
عن التنوخي عن الحجار   عن الزبيدي الشائع الأذكار
ذا عن أبي الوقت عن الداودي   عن السرخسي المنهل المورود
عن الفربري عن البخاري   دامت عليه رحمات الباري
بيني وبين الشيخ سبعة عشر   واسطة كل بفضله اشتهر

ومن شعر صاحب الترجمة مهنئاً بعض أكابر الوزراء بولاية خطة عظيمة منقولة من خط حفيده الشيخ محمد بيرم الرابع :

جاءتك هذي الخطّة العظمى بما   جمعت من الإسعاد والإقبال
فتلقّها بالشكر لكن شكرها   بالفعل دون مجرّد الأقوال
واعلم بأن أعزّ ما كنز الفتى   فعل الجميل فذاك رأس المال
فأعانك المولى عليه وخصّكم   منه بخير بداية ومآل

ومن شعره ، ما كاتب به الشيخ حسين بن مصطفى برناز أيام كان الشيخ برناز المذكور مفتياً بالمنستير ، وكانت بينهما صداقة ، وكان يأتي لتونس كل عام ويزور صاحب الترجمة فورد في بعض السنين على الحاضرة ولم يزره على العادة ، فكاتبه مستفهماً عن السبب ، فلم يجبه ، فعاتبه بهذه القصيدة :

على غير شيء لا يردّ جوابي ويُنبذ ظِهريّاً لديك كتابي
أهذا صنيع الناس أم هو مذهب تخيرته ما أنت عنه بآب
ويحسن ذا منكم وودّيَ فيكمُ على كل نوع في المودة راب
فلو أنني خيرت ما اخترت دون أن أرافقكم ما عشت ردّ شبابي
ولو كُلّف الإنسان ما لا يطيقه لسرت إلى مأواك سير سحاب
وتعلم أني قد بليت بغربة بفرقة أولادي وفقد صحابي
أحن إلى من لي به علقة مضت ولو ضعفت جداً لشدة ما بي
فما ضرّكم من أن تكونوا كتبتم جواب كتابي في وجيز خطاب
فما خدمة الزيتون هذا أوانها ولا صابة حتى تعدّك صابي
ولكن أظن الناس قد شاع بينهم كثير نزاع ينتهي لسباب
مشاغل أبداها الفراغ لما بهم من الجدب إذ عضّ الزمان بناب
وفي ذاك سوق للتكسب نافق لديكم وبابٌ فيه أعظم باب
فتفتيهم حيناً وتشهد تارة وقد جاءت الدنيا بغير حساب
كأني أراهم حين جدّوا لبابكم بأشكال إنس في احتيال ذئاب
وبعضهم يسعى بمُخلاته لكم وآخر يسعى نحوكم بجراب
وأصواتهم مرفوعة وهي عندكم عِذاب وإن كانت أليم عَذاب
ولكن صوت النقد سوغها لكم وإن غلبت في القبح نبح كلاب
إذا ما اشمأزت نفسكم لمس مالهم وقالت فلوس أم رجيع كلاب
تذكّرت أحكام الطهارة جالباً على ما ذكرتم نص كل كتاب
فإن كان هذا عذركم فاكتبوا لنا ونعطي على المكتوب قدر مناب
ولكن إذا بالغت نرفع أمرنا لقاض مضاف عندكم لتراب
وهذا مزاح قد مزجنا حلاوة لمطعمه الأشهى بمرّ عتاب
ومقصدنا من بعد ذا أن تزورنا لنعلم أن قد أُبْتَ خير مئاب
ونرجع عن قولي لكم إن ودكم يعد شراباً وهو لمع سراب
ويا عاذلي هوّن عليّ ولا تقل أيطلب ذا من باخل بخطاب
فإن الهوى يدعو لهذا ومثله وما هو في أحواله بعُجاب

وقوله في هذه القصيدة :

وتعلم أني قد بليت بغربة بفرقة أولاد وفقد صحاب

يشير إلى المصيبة التي حاقت به لمَن فقدهم من آل بيته بسبب الوباء الذي حلّ بتونس سنة 1199هـ، والذي رثاهم بالقصيدة الآتية :

قف بالديار وسلها عن أهاليها وما جرى لهم من حادث فيها
وقل عهدتك يا أرض البِلى فلكاً تجري الكواكب منه في مجاريها
وروضة أنفاً تسبي جآذرها بما حوت من بهاء لبَّ رائيها
فأين تلك الشموس النيّرات وما يستوقف الطرف حسناً من معانيها
وأين تلك الظباء الآنسات وما صارت به نافرات من مراعيها
تجيك نادَى بها داعي الوبا سفراً إلى الفناء فلَبّت من يناديها
وصاح فيها غراب البين فانتثرت فما تمزّق من سلك لآليها
في نحو سبعين يوماً لم تجد أثراً لهم كأن لم يكونوا ساعة فيها
أولئك القوم أولادي ووالدتي وزوجتي ثم أختي مع حواشيها
عشرون نفساً أراني الله مصرعهم مصيبة أُرِيني خطباً يدانيها
فقلت فيها دموع العين إذ عظمت وأيّ قدر تراه كان يكفيها
إني لأعجب من قلبي وقسوته أن لم يذب إذ حدا بالسفر حاديها
وكيف لم يتصدّع بعدما لمست كفّاي كبدي في ترب أواريها
ما كنت أحسب قلبي أن يطاوعني وكيف يا قلب ذاتاً منك تعصيها
ما لذّة العيش والأحباب قد ظعنوا وخلفّوك لأنكاد تقاسيها
يا مركب الهمّ ماذا كنت حاملة وكم مرائر أحوال تعانيها
ويا خزانة أنكاد قد اختلفت طال التعجّب منك كيف تحويها
أستغفر الله آجال مُقدَّرة لا الخير يبعدها لا الشر يدنيها
فأسأل الله لطفاً في القضاء ولا أرجو سواه لأحزاني يجلّيها

ومن شعر صاحب الترجمة أيضاً مقرضاً رسالة للمفتي الحنفي الشيخ محمد بن حسين البارودي في مسائل الحيطان :

لله درّ رسالة لم تبق من حسن بها تسبي العقول قليلا
موضوعها بيناتها أضحى على أركان تحقيق لها محمولا

صقلت حسام البحث حتى أذهبت ... عن حدّ ماضي صفحتيه فلولا
وغدت تفصل لؤلؤاً قد كان من ... عدم انسجام فصله موصولا
أمّا سواها فهو قد حاذاه من ... جهة فعاد مجاوراً مفصولا
وتمكّنت بالنشب في أركانه ... فلذا تقدمها غداً مقبولا
دامت على المنشى لها النعم التي ... حصلت وبلّغ ما نوى تحصيلا

ومن شعره مضمّناً قصة مروية :

قد جاء شخص لقبر طه ... والشوق في قلبه يجول
مخاطـبـاً أشرف البرايـا ... بخير بيت له شغول
إن قيل: زرتم بمَ رجعتم ؟ ... يا أشرف الخلق ما نقول ؟
فـقـال من قبره مجيباً ... خير الورى المصطفى الرسول
قولوا : رجعنا بكل خير ... واجتمع الفرع والأصول

ومن شعره ، ما نقشه على طابع ختمه الحكمي وهو قوله :

يا رب لطفاً منك في كل قضاء مُبرم
أنل عبيدك الرضا محمد ابن بيرم

ومن شعره مهنئاً الشيخ المفتي محمد بن مصطفى البارودي بولاية ابنه الشيخ محمد خطابة الجامع الباشي :

قد نلت في ابنك مثل ما قد ناله ... فيك الإمام أبوك أعظم ماجد
وغدوت تدعى بالخطيب وبابنه ... وأبيه والعليا تنال بواحد
والعادة اطّردت وذلك منبىء ... أنّ الحفيد كذا برغم الحاسد

ومن شعره يرثي الشيخ محمد بن مصطفى البارودي المذكور قوله :

نعي به نالت الأسماع من ألم ... ما أصبحت تتمنّى وصمة الصّمم
نعي الإمام أبي عبد الإلّه وما ... يقال في نعي ذاك المفرد العلم
يكفيه ما أشعر التلقيب من شرف ... لأنه لبرور والوداد نَمي
يا من نعاه لنا إن كنت ناعيه ... فلتنعه للعلى والمجد والهمم

ويا محاول نظم في الرثاء له ... لعلّ نظمك فيه غير منتظم
فاستمِلْ محرابه عنه ومنبره ... فليس مثلها في ذا بمتّهم
كلاهما قال في التأبين يا أسفاً ... على التلاوة مهما رُدّدت بفم
ولهف نفسي على تلك الفصاحة إذ ... بانت بما ينعش الأرواح من نغم
يكاد جلمود صخر أن يرقّ لها ... فكيف تأثيرها في الحاذق الفهم
يا واعظاً بسكوت منه صمتك قد ... أربى على وعظكم من قبل بالكلم
أين اللسان الذي قد كنت تبرزه ... عضباً إذا سلّ يفري الصلب من أدم
وأين ذاك الذكا المجلي كمثل ذُكا ... جهالة مثل ما يجلو من الظلم
من كنزه صاغت الفتيا قلادتها ... فريدة فوق قدر الدرّ في القيم
وقنية حفظتها في خزاناتها ... نعم الذخيرة في إلمام منبهم
يا راحلاً ولسان الدهر يندبه ... ندب المصاب بفقد الفرد في العقم
خلفّت من بعدك العلياء دامية ... جفونها تتشكّى لوعة اليتم
لئن كتمتَ بترب عن نواظرها ... ففي الترائب عنّا غير مكتتم
فلا عدت رمسك المسكيّ تربته ... هطّالة من غمام الجود والكرم

وله يرثي والد المذكور المفتي الحنفي أيضاً الشيخ حسين البارودي وذكرها في كتابه تراجم المفتين عند ترجمته له وقال : إنه أول شعر قاله :

خطب جليل قد ألمّ بتونس ... أمست به في وحشة لم تؤنس
ذهلت له ألباب أرباب العلى ... من كل ذي عقل سليم كيّس
وتصدّعت أكبادهم لسماعه ... وغدا فصيحهم شبيه الأخرس
أعظم به من حادث مستنكر ... عمّ الوجوه بوحشة وتعبّس
هو فقد جمّاع المكارم كلها ... نهر العلوم الدافق المتبجس
صدر الشريعة ركن الاسلام الذي ... قد حاز كل جميل فضل أنفس
مفتي الأنام حسين البارودي من ... هو بارتدا ثوب الفضائل مكتس
ذو همة قد زاحمت بدر الدجى ... حتى علت في الأوج فوق الأطلس
مع عفة وصيانة وأمانة ... وتحفّظ في دينه وتحرّس
تبكي الحجارة مع قساوتها إذا الذ ... كر الحكيم تلاه جنح الحندس

ناداه داعي الموت لبّى مسرعاً حبًّا لِلُقيا ذي العلا المتقدس
لو كان يرضي ذلك الداعي الفدا لفدته أعيان الورى بالأنفس
لكنه حكم من المولى إذا ما حلّ بالمطلوب لم يتنفّس
أبكيك يا من كان صدراً حيثما جمعت أجلّة تونس في مجلس
والله جلّ جلاله أدعوه أن يكسوك أفخر حلّة من سندس
ويبيحك السكنى بجنات العلى في صحبة الحور الجواري الكُنّس
متوسلاً في نيل ذا بالمصطفى المستضاء بنوره في الدحمس
صلّى عليه الله مع أتباعه الـ ـأسد القساوس في الخطوب الحوس
ما لاح برق حَيّاً وقهقه رعده في روضة فبكت عيون النرجس

ومن شعره رحمه الله هذان البيتان :

أعينيّ جودا بالدموع السّواجم على عمر ولّى بكل المآثم
على عمر لم أجن من طيبه سوى ركوب الخطايا واجتناء الجرائم

قال حفيده الشيخ محمد بيرم الرابع : أمرني الجد بإجازة هذين البيتين ، فقلت ناسجاً على منوالها واصلاً لها :

تصرّم واجتازت لياليه مثلما تألّق برق أو كأحلام نائم
تبدّى صباح للمشيب بمَفرقي فعوّض عن ليل من الشعر عاتم
فوا أسفاً لو كان يجدي تأسّفي على فقد أيام الشباب النواعم
فلله أشكو ما جنته يد الصبا من الخطأ المفضي لحمل العظائم
فيا مُولي النعماء جُدْ لي بتوبة وكن لضعيف في الجهالة هائم
فذا عبدك الجاني لفضلك ضارع فأمّنه يا ذا الجود يا خير راحم
بجاه النبي وافى إلى الخلق رحمة نبيّ شريف من سلالة هاشم
عليه صلاة لا يحاط بقدرها تنال بها البشرى وحسن الخواتم

ومن نثره ، ما أجاب به بأمر من أمير تونس ، وذلك أن الإغريق لمّا ثاروا على الدولة العثمانيّة خلال عام 1236هـ ، وخرجوا من الذمة ، أتته مكاتيب من السلطان محمود ومعها مكاتيب من وزرائه في التحريض على فريضة الجهاد ، ومنها مكتوب من

شيخ الإسلام إلى كبير المفتين بتونس وهو إذ ذاك صاحب الترجمة باللغة التركية ترجمه المرحوم صالح خوجة ، فأجاب عنه صاحب الترجمة بما نصّه :

الحمد لله ، ربنا أفرغ علينا صبراً وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ، إن أحسن ما تشرفت به الأمة المحمدية وتجمّلت به الفصاحة الأحمدية اتّباع أوامر الله تعالى ونواهيه ، وبذل الجهد في إعلاء هذا الدين وتشييد مبانيه ، اقتداء بصدرها الأول ، وعملاً بسنّة نبيها المرسل ، ولعمري إن هذا وإن كان في العبارة سهلاً ليّناً ، فإبرازه للوجود ليس هيّناً ، لتوقفّه على إمدادات إلّهية ، وهداية ربانيّة ، وداع الزمان (؟) بلسانه ورمحه وسنانه ، وقد تطابقت جملة الأنباء في سائر البلاد من جميع العباد أن القائم بهذا الشأن ، والحائز قصب السبق في هذا الميدان ومجدّد الدين بعد الاندراس ، ومظهر أعلامه بعد الانطماس ، الدولة العثمانية ، أعلى الله تعالى منارها وضاعف اقتدارها وأُنام الأنام في ظلّها ، وأعاد عليهم من فيض فضلها ، فلم تخل لله الحمد من إمام يهدي إلى الحق وإلى الصراط المستقيم ، لم يأل جهداً في رمي أعدائه بالعذاب الأليم . مؤيداً من الله تعالى بعلماء عاملين هم ورثة الأنبياء ، ناهجين في نصح العباد مناهج الأصفياء ، المخلصين ، وقد ورد علينا من حضرة مولانا شيخ الإسلام ، وإمام العلماء الأعلام ، ومن بيده مقاليد النقض والإبرام ، لا زالت أقلامه في بحار العلوم سابحة ، ومواعظه للقلوب جارحة ، وتجارته عند الله تعالى رابحة ، كتاب كريم ، هاد بأوامره ونواهيه إلى الصراط المستقيم ، لا يقابله كل مؤمن إلّا بالقبول والتسليم ، وكيف لا وقد جاء بالذكرى التي تنفع المؤمنين ، المأمور بها في الكتاب المبين ، حاثاً على الجهاد ، والتشمير عن ساق الاجتهاد ، وتعاطي أسبابه ، وطرح الأمور الصارفة عن بابه ، حتى اجتمع لقراءته الأعيان العلماء وغيرهم بحضرة الأمير جمعاً ، وفتحوا قلباً وسمعاً ، وتلقوه بالإذعان والقبول ، والمبادرة للامتثال بالفعل والقول ، وأميرنا مثابر على تنفيذ أوامر الدولة العلية ، التي طاعتها من طاعة ربّ البريّة ، وما هو إلّا أن يؤمر فيطيع ، ويكلّف فيأتي بما يستطيع ، والله تعالى يؤيد سلطاننا بمَدد نصره ، ويجعل أعداء الدين تحت قهره ، ويعلي رايته الشامخة في البرّ والبحر ، ويكتب على صفحاتها سورة الفتح والنصر ، والسلام اللائق بجنابكم من العبد الفقير محمد بيرم . وحرّر عام 1244هـ ا هـ .

ومن شعره مهنئاً أبا الخيرات يوسف صاحب الطابع بإتمام بناء جامعه في الحلفاوين قوله :

هنيئاً لإدراك المنى والرغائب | ونيل الذي أملته من مطالب
بإتمام هذا الجامع المفرد الذي | بدا كسماء زيّنت بالكواكب
فجاء على ما قدّر الفكر هيكلاً | عظيمًا يرى أعجوبة في العجائب

كما هنّأ بذلك متبوعه ومولاه أمير العصر حمودة باشا نظمًا ونثرًا بقوله :

أدام الله سبحانه المجلس العالي ، مبلّغ الأماني متوالي التهاني ، صادراً عنه من المآثر الحسان ، ما هو غرّة في وجه الزمان ، يتناقل حديثه الركبان لأقاصي البلدان . بعد إهداء ما يليق من سلام ، وإنهاء ما يناسب من إجلال وإعظام ، فلْيَهن مولانا ببلوغ الأمل ، من تمّام العمل ، في هذه المكرمة التي أبداها مجده ، وأطلعها سعده ، ويسرها إنعامه ، وسهّلها اهتمامه ، آية دالّة على عظم دولته ، وكبر همّته ، إذ هي في الحقيقة له منسوبة ، وفي حسناته محسوبة ، لا زالت دولته الغرّاء تبدي غرر المآثر ، ومصداقاً لمثل كم ترك الأول للآخر . ولما علم النظم ما يحصل لهذا النثر بإصغاء مولانا إليه من شرف الإقبال أراد أن يضرب معه في ذلك بسهم فقال :

أهني بهذا الجامع الشامخ القدر | جمال العلا حمودة النافذ الأمر
أميراً إذا عدّ الملوك رأيتهم | نجوماً وكان البدر في وسط الشهر
ولا عجب إن فاقهم وهو منهم | فإن الليالي بعضها ليلة القدر
له المأثرات الغرّ والهمّة التي | غدت في التعالي دونها قمّة النسر
وقد أنبأت آثاره عن علوّها | ومن تلك هذا المعبد الواضح الفخر
تعلّقت الآمال منه بوضعه | فباشره من رام تنفيذ ذا الأمر
وما كان يعزى في الأمور لتابع | فذلك للمتبوع حقاً بلا نكر
فحقّ هنا المولى بمكرمة أتى | بها مجده تبقى إلى آخر الدهر
وحقّ عليه منه لما توضحت | جلالتها قسط عظيم من الشكر
أطال إله العرش في العزّ عمره | ووفّقه للخير في السرّ والجهر
بحرمة خير المرسلين ومن له | صفا حالة مع ربه من أولي السر
وما غاب عنّي إنّ سعي واجب | لهذا الهنا لكنني بيّن العذر

والله تعالى يطيل بقاء هذه الدولة الغرّاء ، ويجمع لصاحبها بين خيري الدنيا والأخرى ، ومعاد السلام من الداعي لها بذلك ، محمد بيرم هداه الله تعالى لأوضح المسالك ا هـ .

292 – الشيخ أبو العباس أحمد زروق الكافي

ولد بالكاف ، ولما بلغ سن طلب العلم وفد إلى الحاضرة ، فقرأ على أعلام جامع الزيتونة ، وكان له مزيد اختصاص بشيخ الشيوخ أبي الفلاح سيدي صالح الكواش ، فحصل ، وبرع ، ثم تصدّر للإقراء بجامع الزيتونة برهة ، ثم اشتغل بالشهادة طلباً للرزق ومع ذلك لا يزال معروفاً بين أقرانه بالعلم ، خصوصاً بالفقه والفرائض ، فقدم لخطة قضاء المحلة فزانها ، وكان ذا مروءة وأخلاق جميلة ، وله في الآداب القدح المعلى ، ودرر الأشعار التي بها الزمان يتحلّى . توفي سنة 1246هـ .

ومن شعره مرثية شيخه أبي الفلاح صالح الكواش ، ونصّها :

لمثلك من خطب تنوح النوائح	وترتاع في أغمادهن الصفائح
أريقت له دون الدموع دماؤنا	وشقت به دون الجيوب الجوارح
هو القدر المحتوم يلقاه سانح	ويرمى به في غامض اليمّ سابح
لهذا فقد أودى الحمام بصالح	لقد حلّ ثلم في علا الدين واضح
هو العالم العلّامة الفرد من غدا	ولا فرد في أدنى معاليه طامح
هو النّهر الفيّاض ينبوع علمه	بماء حياة ماؤه العذب طافح
إمام الورى الشيخ الهمام الذي له	مآثر راقت في حلاها المدائح
فتى كان أما فكره فهو معجز	ذكاء وأما علمه فهو فاضح
حوى فكره كل العلوم فنقلها	ومعقولها متن له فهو شارح
فمن لعلوم الدين من بعد صالح	إذا نالها خطب من الغي فادح
كوى مصرع الكواش أكباد أهلها	ففي قلب كل من جوى الحزن قادح
هو الجامع العلم الذي انقاد لاسمه	إذا ما تلا من مشكل العلم جامح
حوى قبره مع ضيقه من علومه	رواسي قد ضاقت بهنّ الأباطح
فما غاب حتى أدبرت أنجم الهدى	وصاح بإدبار المعارف صائح
وقال الورى قد مات علامة الورى	فأرّخ : يموت العلم إن مات صالح

99 441 51 171 456

سنة 1218هـ

وله يرثيه أيضاً وهي تشتمل على حكم بالغة ومواعظ مؤثرة :

أحادث الدهر ما أحدثت في أمم ... قبلي وبعدي كهذا الحادث العمم
خطب له ارتجّت الأُقطار قاطبة ... أجرى الدموع دماً من أعين الديم
هدّ الرواسي أعلاها وأسفلها ... فكم هوى علَم منها على علم
وحارب الدين حتى بالهدى وبه ... أفضى وبالعلم والآداب للعدم
ما زال ذا الدهر لا ثأراً يحاوله ... فيما يروم وكم يرمي دماً بدم
إذا اطمأنّ بأقوام مقرهم ... من الحياة جلاهم عن مقرهم
وهي الليالي متى حلّت بمُلتئم ... من معشر تركته غير ملتئم
أضعاف من سار فوق الترب مندرج ... في طيها كاندراج الطفل في الرحم
كم من يد وضعت فوق التراب على ... يد وكم قدم سارت على قدم
من لم تُرعه الليالي في تيقّظه ... ولا سبيل لذا راعته في الحلم
ومن تغافل عن وعظ به صدعت ... عجم الحوادث لا يغفل عن الندم
يا من رأى حرماً ألوى بنازله ... عن الخطوب فلم يترع عن الحرم
لم يترك الدهر من سام يصول ولا ... حام يطول ولا حصن لمعتصم
ما كان أجدر بالإفلات من يده ... لو كان يدفع باني الحصن في إرم
والموت يفتك بالعصما وإن نزلت ... شمّ الشواهق والآساد في الأجم
ولو ثنى الحتف ثان عن منيع حمى ... ردّ الردى هيبة العلاّمة الفهم
تلك المنية قد فازت بمنيتها ... من صالح بن حسين العالم العلم
خيرتها بينه والخلق قاطبة ... فلم تدعه ولم تعدله بالأمم
كأنما بحشاها من هواه ضنى ... وفي تدانيه ما يشفي من الألم
رأت قصور البرايا عن تطاولها ... فأفردت بازياً من صفقة الرخم
يا حاسديه وما شقّ الغبار له ... من أسهر الجفن قبل اليوم فلينم
لا يركب الليل ساع في تطلبها ... أقوت رسوم سرى الوخادة الرسم
ولا يرم فطن إيضاح مشكلة ... من علمه وعلى التشكيك لا يرم
فالعلم أجمع والآداب جامعها ... مكفّن في ثياب المجد والكرم
ضجيع سام بأسنى المجد مرتسم ... بالفخر متسّم بالفضل مبتسم
أنار مثواه نبراس العلوم به ... إنارة البدر في داج من الظلم

وما استوى بالثرى حتى علاه شذا ... ريح عبيق بطيب المسك مختتم

وللملائك أفواج بساحته ... ما بين مقتحم منهم ومزدحم

وهي طويلة كلها عيون .

قلت إليك بقيتها :

ما كنت أحسب أنّ التبر منشؤهُ ... ترب البسيطة حتى حلّ في الرجم

ولا اعتقدت لها فضلاً يُميّزها ... حتى به شِيمتْ أضعافاً من العظم

قد أثبتوا الشم يوم الدفن راسية ... طاشت عليه فلم تجزع ولم تهم

وغادروا بسواها كل قاصمة ... تطوي الضلوع على أحشاء مضطرم

وللعلوم وترداد الخصوم بها ... إذا همُ رفعوها لا إلى حكم

وللمسائل إن عزّت وسائلها ... في معقل بارتكاب الوهم معتصم

من للمساجد أو من للطروس إذا ... أعيا بنوهن عن مستبهم الكلم

من للمراتب أو من للمناصب إذ ... منهن صار عزيز الأسد كالنعم

من للمآثر تبكي ملء أعينها ... إذ أصبحت وهي الأضاخ كالحمم

وللمحافل من فقدان عالمها الـ ... ـكواش تمزج عنها أدمعاً بدم

متى شهدت له أقلامه وأرت ... أن المزية دون السيف للقلم

لم تستطع لحجاه الناس تفرقة ... بين الشبيبة في الإدراك والهرم

يا عالماً كان في تحقيقه مثلاً ... في العلم أشهر من نار على علم

ينافس الغرب فيك الشرق مغتبطاً ... وآخر الناس حسداً أول الأمم

فلتفخر الأرض مما أغدقوه بها ... حتى غدت جفن ذاك الصارم الخرم

أرثي العلوم التي أحيا بها أمماً ... إذ أصبحت رمماً في جملة الرمم

وأندب الأدب المألوف والرشد الـ ... ـمألوف والشرف الموصوف بالشمّم

ولّى الجميع فيا ويلاه منه فهل ... ما ضاقت الأرض عمّا فيه من شيم

وإن تكن دفنت بالترب أعظمه ... فإنما هي في روض من النعم

وللجنان ومن وافى بها فرح ... إذ قابلته فأبدت ثغر مبتسم

وفّته حقّه إعظاماً لرتبته ... ولا ملامة في تعظيم محترم

فلا تزال بها الأيام تنشد أو ... ذي منتهى العلم في عرب وفي عجم

والدهر لا زال يتلو إذ يؤرّخه : أصمى الأنام ذهاب العلم والحكم

105 170 708 123 111

سنة 1218هـ

ومن شعره أيضاً ، بيتان نوّه بهما العلّامة الشيخ محمد بيرم الرابع ونصّ عبارته : حكى لي بعض الإخوان أن العدلين المرحومين المشاركين أبا عبد الله محمد الشرفي وأبا العباس أحمد زروق الكافي خرجا لتلقي شهادة في بعض الأجنّة ، فاتفق نزول المطر ، فجعل أول الشاهدين على رأسه ما يعبر عنه في عرفنا بالسحابة المتخذة للوقاية من الشمس والمطر ، فقال الثاني في ذلك (وهو صاحب الترجمة) :

وَقَتِ السحابة صاحبي برواقها وهمت وما بلّت بمزن طوقه

فلتعجبوا أني البليل بمائها وهو الموقّى والسحابة فوقه

ثم لاحظ أن بهما استخداماً بديعًا لا يقصر عن بدائع المتقدمين وقد كان هذا الرجل (صاحب الترجمة) من جزالة الشعر ورقّة اللفظ بالمحل الأرفع . وقلّد قضاء المحلة ، ثم رفعت يده لعجزه عنه بالمرض . وتوفي بعد ذلك بيسير في غام 1248هـ رحمه الله رحمة واسعة (تقدم أول الترجمة أن وفاته كانت سنة 1246هـ) ، والظاهر أن ما ذكره الشيخ بيرم أصح لأنه عصريه . ثم ذكر الشيخ بيرم في شأن قضاء المحلة أن الذي استقرّ عليه العمل في هذه السنين أن المحال ليس بها إلّا قاض وقد رأيت في رحلة لبعض من قلّد قضاء الحضرة ممن كان يتولّى من قبل الدولة العثمانية أن بالمحال مفتياً ، وأن الشيخ عبد الرحمن الجامعي المغربي تولّى الإفتاء بها على عهد الأمير حسين بن علي رحمه الله تعالى:

293 – الشيخ أبو عبدالله محمد القلسي ويعرف بالقبحي

كان حياً حوالي منتصف القرن الثالث عشر ذكر الشيخ الكاتب علي الحداد أن صديقه المذكور ، هنّأه بولاية الكتابة بالقصيدة الآتية . وكانت ولايته الكتابة في 14 شعبان سنة 1249هـ في دولة الأمير حسين باي . ونصّها :

يعرف المجدُ شامخ الأطواد فيؤم ذويه من غير هاد

إنما المجد ذو عيون وسمع لمشير من أهله ومناد

وإذا قارن الفتى نجمُ سعد ... حاز بالسعي خُطة الإسعاد
كعليّ ولا فتًى كعليّ ... ألبديع الإنشاء والإنشاد
صار عبداً يطيع رباً عظيمًا ... مثل قنّ لربه في انقياد
في يديه حدوده قد حماها ... فلذا لقبّوه بالحداد
أيها العالم التقي التي الـ ... ـمتسامي الآباء والأجداد
قد حللتم دَست الكتابة حقًّا ... مطمئناً من فوق سبع شداد
ورأى المَلْك أن قربك منه ... قرب خل له صفي الوداد
فبكم قد زها ازدهاء زمان ... بحسين الأمير والأعياد
أنت كالخد زانه حسن خال ... سودتك المعالي في كل ناد
قد سعدتم حالاً بها ومآلا ... دمت في عزّة من الأحفاد
وحباك الإلّه ما ترتجيه ... من بلوغ المنى ونيل المراد

294 – الشيخ أبو عبد الله محمد طلحة المنستيري

أُسرة طلحة بالمنستير من الأسر المعروفة منهم من هو من أهل الفضل والنبل وفقهاء وعدول ، والمذكور من بينهم . طلب العلم بجامع الزيتونة حتى أصبح عدلاً مبرزاً من عدول الحاضرة التونسية الفقهاء الأخيار ، وكان أديباً شاعراً .

من شعره قصيدة نظمها حين ابتلى المسلمون في هذه الأقطار المغربية باستيلاء الأجنبي «فرنسا» على واسطة عقد بلادهم الجزائر في تلك الحقبة السوداء ، ونصّ القصيدة المشار إليها التي اشتهرت في ذلك العصر وعرفت بقصيدة الجزائر :

اغنم الزاد إنما أنت صائر ... لمقام تباح فيه السرائر
أنهض النفس واعتبر بالمصائر ... وانظر الدهر لا يقيل العثائر
صدع القلب نبأ بالجزائر ... إنني صرت منه يا قوم حائر
لم نجد قوة لما حلّ فيها ... هل معين يعيننا ويصابر
فابكي يا عين في الدجى والهواجر ... واهجر الأهل والديار وهاجر
واصحب الوحش والقفار سريعاً ... واسكب الدمع بل دماً هو زاخر
والدُبَنْ كلما رأيت حماماً ... فاقداً إلفه إذا لاح طائر

وانعِ قوماً عن الديار تخلّوا ... وسلوها وما بقت في الخواطر
أسلموها لجاحد الدين لما ... نفذ الوعد والقضاء لا يغادر
فترى في الرجال كم من قتيل ... وترى في الصرائخ كم من حرائر
فالبكا والعويل من كل فرد ... في ذهاب وفي إياب لكافر
وصغار يتمن هل من مغيث ... وكبار تسير عُمْيَ البصائر
والمحاريب والمساجد تبكي ... حين أمست وما بها اليوم ذاكر
فقدت قول لا إله سواه ... ورسول أتى لنا بالبشائر
وتلاوات ذاكر خير ذكر ... ومواعيظ واعظ وزواجر
وأحاديث عن رسول إله ... في محاريب يا لها ومنابر
وعلوم من كل فن نقضّت ... كم تواهٍ بها وكم من أوامر
أبدلوها نواقساً وصليباً ... وخموراً وأكل لحم الخنازر
وظلاماً بها وتعطيل شرع ... بعد نور يلوح فوق المنابر
هكذا قدّر الإله عليها ... سابق ذاك ثابت في الدفاتر
سبب المقت والذي حلّ فينا ... من ذنوب كبائر وصغائر
يا ترى هل لنا تعود سريعاً ... قادر ربنا يردّ الجزائر
وتعود كما مضت بجهاد ... وحصون ترى بها وعساكر
يا أولي الكفر لا تقولوا ظفرنا ... وغنمنا بلادكم والمآثر
انظروا تعرفوا غداً ما يكون ... لمَن الأرض هذه في الأواخر
إنما الدين ديننا هو حق ... وكذا الأرض أرضنا لا نفاخر
ولنا الفتح سابق في هنود ... وسنود ولاحق في أواخر
وكذا النصر عندنا عند فتح ... سدّ ياجوج ولنا الله ناصر
والجنان لنا ستفتح حقّاً ... لدخول والله رحمان غافر
نعبد الله وحده لا شريك ... له في الملك وهو جبّار قاهر
وبطه الأمين نؤمن حقّاً ... ذخرنا يوم لا تفيد ذخائر
كيف نخزى وديننا مستقيم ... لا اعوجاج فيه وغيره خاسر
لو شهدنا مشاهد القوم كانت ... تشني قلباً لوارد ولصادر
ولقيتم عند اللقاء أسوداً ... هي حقاً ليست تغادر كافر

نفدي إخواننا ببذل نفوس ليس فينا جبن ولا من يكابر
نمنع الجار والذي قد رأيتم من رجال ومن نسا خلف ساتر
وكذاك الديار معْ ساكنيها وكذاك الكنوز ثم الذخائر
لكن الله لم ييسّر حضوراً ليتني كنت ذلك اليوم حاضر
سيُعيد الإله ما قد أخذتم عن قريب فإنّ ذا كيد ساحر
نسأل الله يفرغ الصبر عنا ويبدّل عسرنا بالمياسر
مبدلاً حالنا إلى خير حال إنه راحم الكسير وجابر
ويؤيد ديننا وملوكاً نصروه فإنه خير ناصر
ويعين أميرنا والألى قد نصحوه فإنه جلّ قادر
ويجير بلادنا من شرور وعدوّ لنا ظلوم وكاسر
ويوفّق كلنا لسداد وصلاح موافقين الأوامر
رحم الله كل من قال يوماً قادر ربنا يرد الجزائر

فهرس الكتاب

– الجزء الأول –

العصر الخامس من عصور الأدب العربي بإفريقيا (العصر الحفصي) (لابن المؤلف) 241

بعض من نبغ في المائة الثامنة